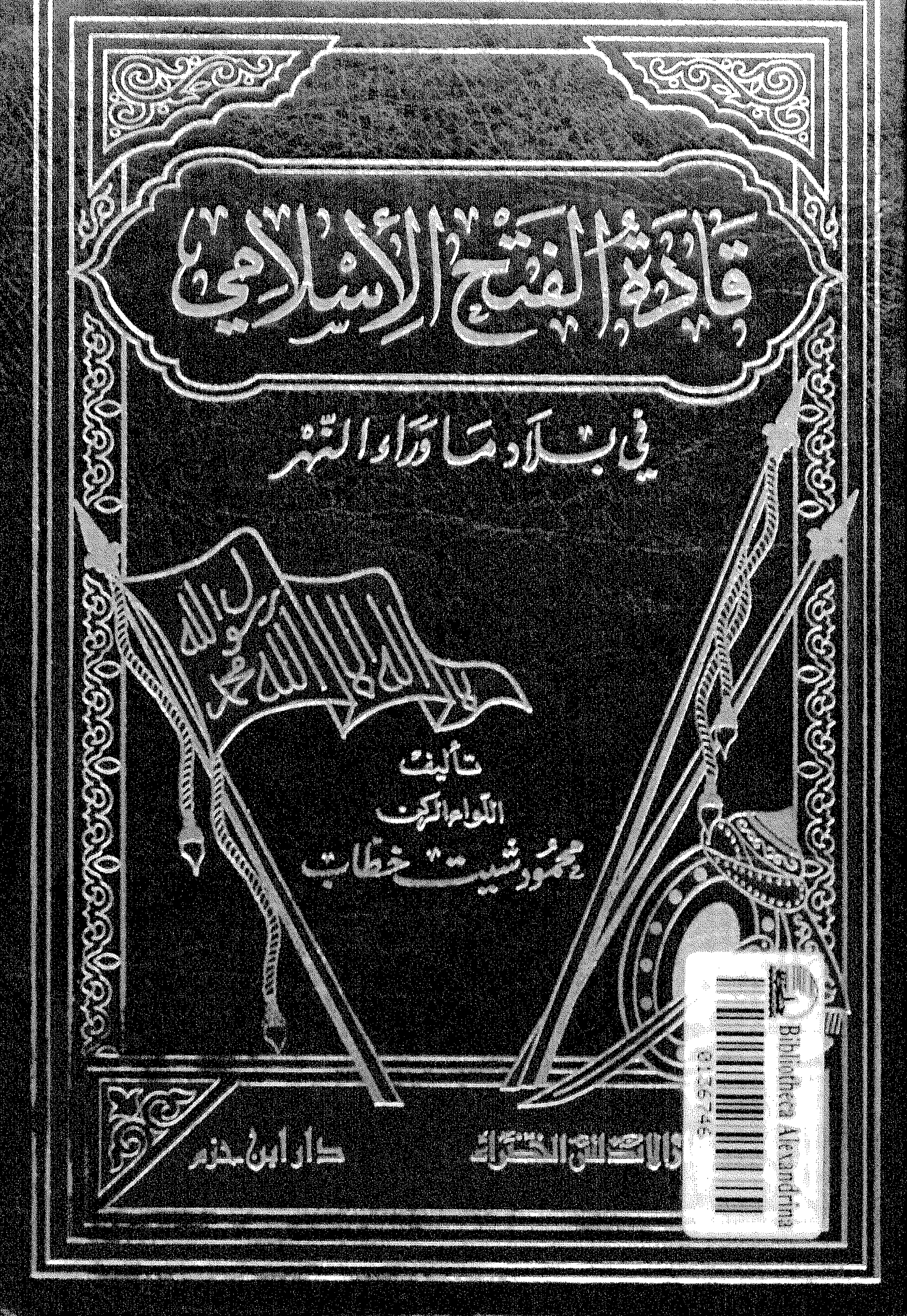
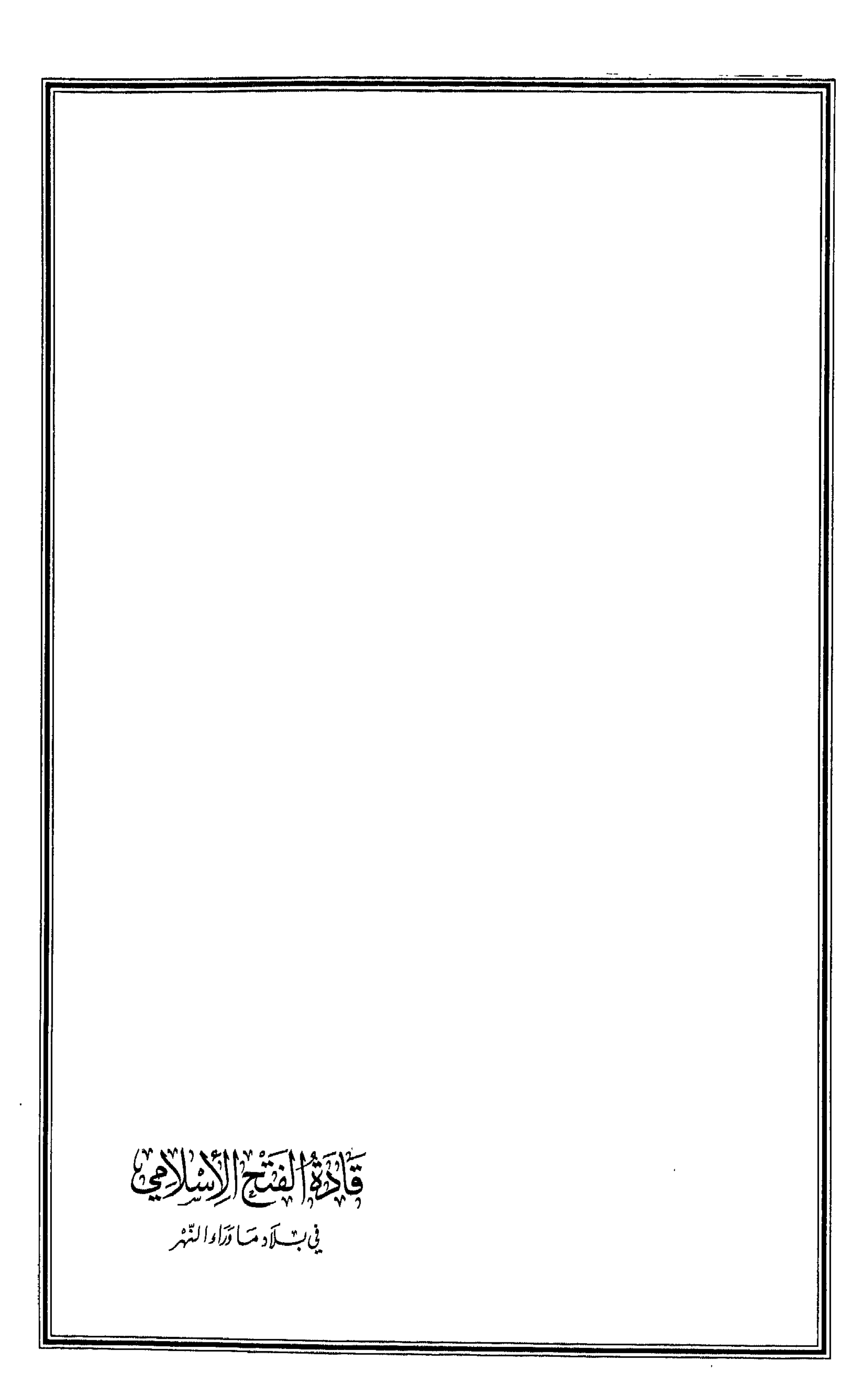


قادة الفتح الإسلامي
في بلاد ما وراء النهر
لا إله إلا الله محمد رسول الله
تأليف
اللواء الركن
محمود شيت خطاب
دار ابن حزم
الأندلس الخضراء
Bibliotheca Alexandrina


قادة الفتح الإسلامي
في بلاد ما وراء النهر



﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

سورة الروم (٣٠:٤٧)

قادة الفتح الإسلامي

في بلاد ما وراء النهر

تأليف
اللواء الركن
محمود شيت خطاب

دار ابن حزم

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار الأندلس الخضراء

حي السلامة ـ شارع عبد الرحمن السديري ـ مركز الزومان التجاري
ص.ب: ٤٢٣٤٠ ـ جدة: ٢١٥٤١ ـ هاتف/فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

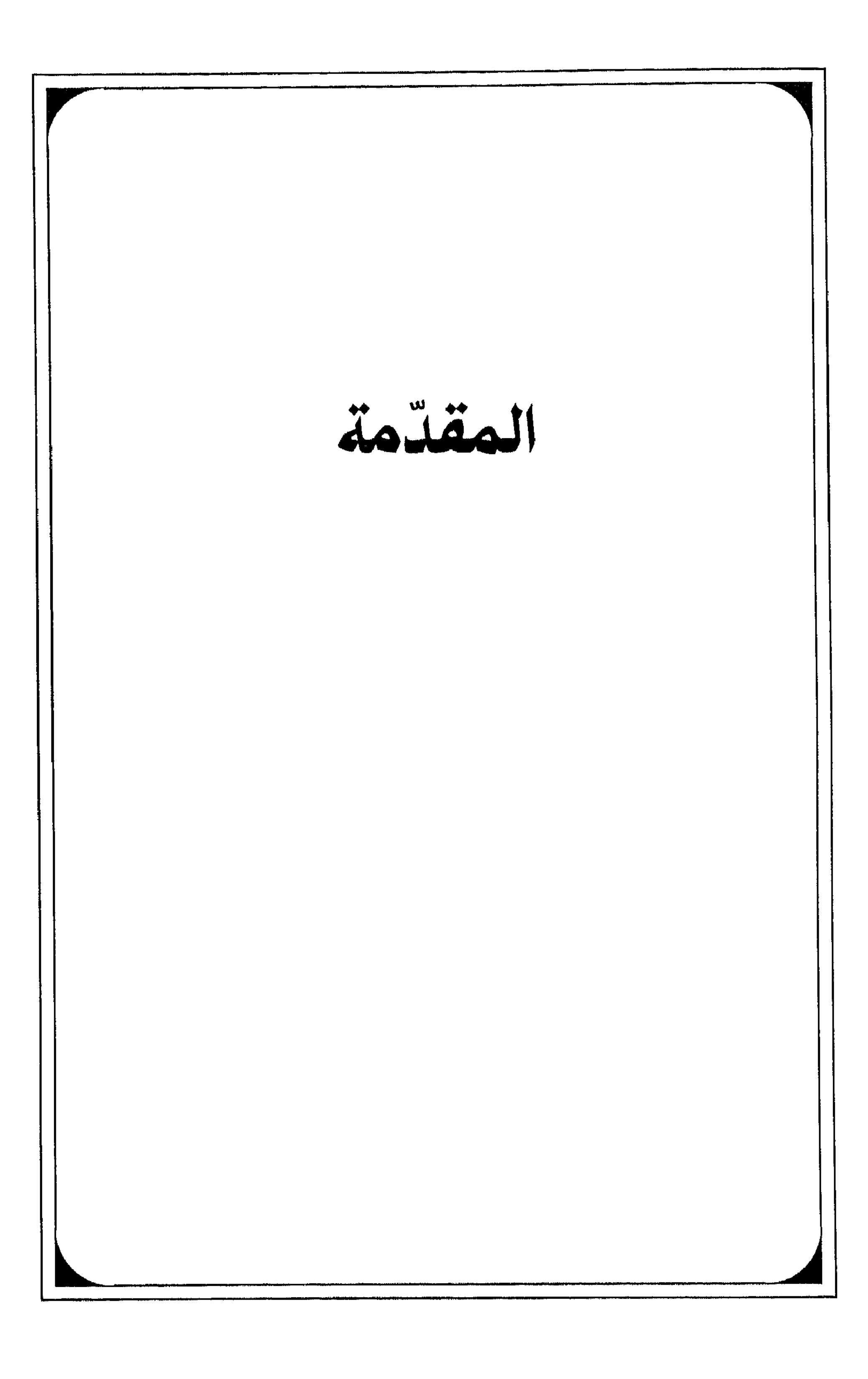
دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ ـ تلفون: ٧٠١٩٧٤

الإهداء

إلى سيف الله الغالب،
الإمام عليّ بن أبي طالب

محمود شيت خطّاب



المقدّمة

إعادة كتابة التاريخ العسكري العربي الإسلاميّ

- ١ -

للعرب والمسلمين تاريخ عسكريّ فخم يستحق الدِّراسة الواعية لمصلحة حاضر العرب والمسلمين ومستقبلهم.

وقد كتب هذا التاريخ في مصادره المعتمدة، مؤرخون ثُقاة من طراز فريد، فقد كانوا في أكثرهم مفسِّرين ومحدِّثين وفقهاء ونُحاة ومؤرخين، إضافة إلى علوم أخرى، كالطَّبري مثلًا صاحب تاريخ الرّسل والملوك.

فقد كان الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ - ٣١٠هـ) مفسِّراً وهو صاحب تفسير الطبري المشهور، ومحدِّثاً وفقيهاً، وهو صاحب اختلاف الفقهاء، ونحويّاً، ومؤرخاً، وكان مشهوراً بالورع والتَّقوى، معروفاً بالاستقامة والصِّدق.

ذكره الإمام النووي في كتابه: (تهذيب الأسماء واللّغات)، فقال: «هو في طبقة الترمذي والنسائي، وكان أحد الأئمة يُحْكَم بقوله ويُرجع إلى رأيه، لمعرفته وفضله. وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسُّنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصَّحابة والتّابعين فمن بعدهم في الأحكام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله كتاب التاريخ المشهور، وكتاب في التفسير لم يصنِّف أحد مثلَه، وكتاب تهذيب الآثار لم أرَ سواه في معناه لكنّه لم يتمه،

وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، وتفرد بمسائل حفظت عنه»[1].

وذكره الإمام الذّهبي في كتابه: (ميزان الاعتدال في نقد الرجال)، فقال: «الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، صاحب التصانيف الباهرة، ثقة، صادق، من كبار أئمة الإسلام المعتمدين»[2].

تلك هي بعض مزايا الإمام المؤرخ الطبريّ، وتلك هي منزلته العلميّة، وأمثاله من المؤرخين المعتمدين يحرصون على تدوين الحقائق التاريخيّة كما حدثت بصدق وأمانة، لأنّهم يخافون الله فلا يفترون الكذب كما يفتري غيرهم من الذين لا يخافون الله، ولأنّهم علماء بحقٍ لا يبدِّدون علمهم بالكذب والافتراء، ولأنّهم قادرون على تدوين التاريخ بأمانة وصدق وعلم؛ ولو أنّهم غير قادرين على هذا التدوين، لانصرفوا عنه إلى ما ينفع الناس من علوم أخرى، واضعين نصب أعينهم حديث رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله[3] إلّا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علم يُنْتَفع به، أو ولد صالح يدعو له»[4]، فكانوا يعتبرون العلم عبادة من أَجَلِّ العبادات، ويرجون ثواب الله عن كلِّ كلمة يخطّونها في حياتهم وبعد موتهم باعتبار العلم يتجدّد ثوابه ما أقبل عليه الناس واستفادوا منه، ولا ثواب إلّا على علمٍ موثوق به ينفع الناس لا على علمٍ مُلفَّق لا ينفع الناس. لذلك كان الطبَري وأضرابه من المؤرخين المسلمين يحاسبون أنفسهم قبل أن يُحاسَبوا، ونيّتهم أن يتعبّدوا بما يكتبون.

ـ ٢ ـ

ولا يدّعي أحد الكمال للمؤرخين المسلمين المعتمدين، فالكمال لله وحده، والكتاب العزيز هو الكتاب الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات النووي (١/٧٨ ـ ٧٩).
(٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي (٣/ ٣٥).
(٣) فائدة عمله وتجديد ثوابه.
(٤) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوي (١/ ٥٦).

ولا من خلفه، أما ما يخطّه البشر فيتطرّق إليه الوهم والخطأ والنِّسيان، ولكن ما دامت نيّة المؤرخين المسلمين خالصة لوجه الله تعالى، فلهم أجرٌ إنْ أخطأوا، ولهم أجران إن أصابوا، لأنّهم في حالة خطئهم وفي حالة صوابهم مجتهدون، وحتى إذا أخطأوا فإنّ نسبة خطئهم إلى صوابهم ضئيل.

ولقد كانت الرقابة النقديّة على مختلف الرواة صارمة جداً في العصور الغابرة، فإن الرواة الذين ينحرفون عن طريق الحق عمداً، يسجل عليهم انحرافهم بلا رحمة ولا هوادة، فيقول عنهم النقّاد بصراحة وصدق وأمانة: «لا يوثق بهم»، أو يقولون عن المُفْتَرِي «كذّاب، أو لا يؤخذ بقوله».

وحتى في تعابير السّلف من أصحاب الرجال والمؤرخين أيضاً، كانوا يعبِّرون عن الذي لا يثقون بكلامه بتعبير: «زَعَمَ فلان»، بينما يعبِّرون عن الذي يثقون بكلامه بتعبير: «قال فلان، أو حدثنا فلان».

ومن طرقهم في التمييز بين الخبر الموثوق به والخبر غير الموثوق به، ذكر سلسلة رواة الخبر، فإذا كان في السلسلة مطعون بصدق روايته أو مُتّهم بالكذب أو التزوير أو الدس، عرف الذين يتلقّون الخبر قراءةً أو سماعاً، أنّ الخبر مشكوك فيه، بدون أن ينصّوا على هذا الشك، فقد كان القرّاء والسّامعون علماء بالرجال، يعرفون الصّادق منهم من الكاذب، ويميزون بين الخبيث والطيِّب، وهذا هو فائدة ذكر سلسلة الرواة مع الخبر الذي نقلوه، فهو في الحقيقة نقد للخبر بصورة غير مباشرة.

وفي هذه الأيام، كثيراً ما سمعت بعض الذين يقرأون المعلومات المروية بسلسلة رواتها، يتذمّرون من ذكر سلسلة الرواة، ويرون في ذكرها مضيعة للوقت، لأنّهم لا يعرفون أسباب ذكر سلسلة الرواة مع تلك المعلومات، ولو كانوا من الذين يعرفون علم الرجال، لما تذمّروا ولاستمتعوا بتلاوة سلسلة الرواة أيّما استمتاع.

وما أكثر ما حمل إليَّ قسم من أولئك المتذمرين الذين أسميهم: «قرّاء آخر الزمان»، كتاباً من الكتب الصفراء ـ كما يسمونها ـ تقليداً للحاقدين على

تراثنا الإسلامي العريق، وهم يكادون يطيرون فرحاً، لأنّهم وجدوا فيه خبراً غير معقول أو يناقض حقائق التاريخ، فأقول لهم: «إنّ المؤلف عليه رحمة الله نقله مشفوعاً بسلسلة رواته، ليقول للقراء: «إنه خبر غير معقول أو مُختلق»، ثم أحمل إليهم أحد كتب الرجال، كميزان الاعتدال، وأقرأ لهم ما جاء فيه من رأي الذهبي بكلّ واحد من رواة الخبر، وحينذاك فقط يعرفون حكمة المؤلفين القدامى وأمانتهم وصدقهم، ويخجلون من جهلهم بالنسبة لعلمائنا الأفذاذ عليهم رحمة الله.

ولست أكتم إعجابي الشديد بعلمائنا القدامى ومؤلفاتهم القيّمة التي فيها علم أصيل ونور ساطع يهدي للتي هي أقوم، ولكنني سأضع جانباً هذا الإعجاب مؤقتاً، وما ذكرت إعجابي سلفاً إلّا لعلمي الأكيد بأنّ الذين لا يقدّرون قيمة مؤلفات العلماء المسلمين القديمة المعتمدة ـ ومنها مصادر التاريخ ـ سيتهمونني بالتحيّز المطلق لتلك الكتب القيّمة والمباركة أيضاً.

ولست أحكم على تفوّق الكتب الإسلامية المعتمدة القديمة، لأنني حصرت نفسي في نطاقها وحدها، بل قرأت الكتب الأجنبية وبخاصة في مجال التاريخ، وأشهد لم أثق بالمصادر الإسلاميّة المعتمدة هذه الثقة التي لا حدود لها إلّا بعد دراستي المتفحّصة للمصادر الأجنبية، فوجدت الثريّا هنا، والثرى هناك، ووجدت المقارنة بين مصادر المسلمين المعتمدة ومصادر الأجانب مستحيلة إلّا إذا كان بالإمكان مقارنة السيف بالعصا والعالم بالجاهل والشجاع بالرعديد والكريم بالبخيل.

وتسأل: لماذا إذاً يتعصّب قسم من المثقفين العرب والمسلمين للمصادر الأجنبية على المصادر العربية؟

وجوابي الذي يستند على تجربة طويلة لهؤلاء المثقفين، هو أنهم لا يعرفون شيئاً عن مصادرنا الأصيلة، وثقافتهم مستقاة من المصادر الأجنبية وحدها، وقد اكتشفت أستاذاً جامعياً مؤرخاً لا يعرف كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري، لأنه حبس نفسه على كتب المستشرقين المريبين، ولا أزيد.

ولو أنّ هؤلاء المثقفين اطلعوا على مصادر المسلمين المعتمدة اطّلاعاً كافياً، لما فضّلواعليها غيرها من المصادر الأجنبية، ولكن يا ليت قومي يعلمون.

أما لماذا لم يطّلع المثقف العربي المسلم الذي يدرِّس التاريخ في الجامعة ويحمل أعلى الشهادات العلمية حتى على تاريخ الطبري، فلأنّ أساتذتهم سمموا أفكارهم عمداً وحملوهم حملًا على كراهية المصادر الإسلاميّة الأصلية بحجج واهية شتى، ولأنّ أولئك النفر الذين تعلّموا في الغرب إلّا من رحم الله وقليلًا ما هم يستسهلون النقل عن المصادر الأجنبيّة، ويستصعبون البحث في مصادرنا الإسلامية، وشتان بين النقل والتأليف.

ـ ٣ ـ

ونرجع إلى: إعادة كتابة التاريخ العسكري العربي الإسلامي، فأذكر أنّ المواد الأوليّة لهذا التاريخ متوفِّرة في مصادرنا العربية الإسلاميّة، والمعلومات المتيسرة غزيرة للغاية حتى كأنها الطوفان، وليس كما يدعّي جهلًا المستوردون تاريخنا العريق من المصادر الأجنبية، بحجّة أنّ المعلومات مضطربة في مصادرنا الإسلامية ومنسّقة في المصادر الأجنبية!

والمعلومات الغزيرة عن العسكريّة العربيّة الإسلامية، تشمل سرايا النبي ﷺ وغزواته، ومعارك الفتح الإسلاميّ العظيم، ومعارك استعادة الفتح، والمعارك الدفاعية عن البلاد الإسلامية.

والمعارك كافة متيسِّرة في المصادر التاريخيّة المعتمدة، وإعادة كتابتها يشمل تقسيم كلّ معركة إلى: الموقف العام قبل المعركة، وقيادة الجانبين المتحاربين، والقوّات المشاركة في المعركة من الجانبين، وسير المعركة، وخسائر الطرفين، ونتائج المعركة، والدروس المستنبطة من المعركة.

ومن المناسب أن تكون كلّ معركة موضّحة على خريطة تعين القارىء على تفّهم سير القتال في المعركة.

وهذا هو الأسلوب الحديث في إعادة كتابة تاريخ المعارك، والمؤرِّخون القُدامى لم يكونوا يلتزمون بمثل هذا الأسلوب، لأنهم لم يكونوا على علم به، وطريقتهم في عرض المعارك هي حشد المعلومات عنها بحسب توقيت وقوع الحوادث تارة، وبعدم الالتزام بالتوقيت تارة أخرى، بل حشد المعلومات كيفما اتّفق حشداً.

وهنا أحبّ أن أذكر أنّ قسماً من الأخوة العسكريين المحدثين الذين أعادوا كتابة بعض معارك الفتح بخاصة، قد حمّلوا تلك المعارك ما لا تطيق، إذ جعلوا منها معارك حديثة من آخر طراز، وما هي كذلك، ولا يمكن أن تكون كذلك، وشتان بين معركة جرت قبل خمسة عشر قرناً وبين معركة جرت قبل سنوات معدودات، وقد تتشابه المعركة القديمة والمعركة الحديثة في مبادىء الحرب الثابتة التي لا تتغيّر، أما في أساليب القتال فالتشابه بينهما غير وارد لاختلاف الأساليب القتالية، وعدم بقائها على حال، والأساليب تتغيّر عبر القرون.

والدروس المستنبطة من معارك الفتوح بالنسبة لمبادىء الحرب الثابتة قيّمة جداً ومفيدة للغاية، وبالإمكان أن نقنع بهذه الفائدة الكبيرة دون أن نجعل المعارك بعد إعادة كتابة تاريخها تحافظ على اسمها التاريخيّ وحده ولا تحتفظ بمضمونها التاريخيّ الأصيل.

وإذا لم يستطع الذين يعيدون كتابة معارك الفتوح وغيرها أن يحتفظوا بالحقائق ويحافظوا عليها، فما أعادوا كتابة تاريخ تلك المعارك، بل مسخوا تاريخها مسخاً وشوّهوه تشويهاً، والأفضل لهم وللمسلمين وللتاريخ أن يُبْقوا كلّ شيءٍ على ما كان عليه.

ومن الصّعب جداً أن نقارن بين معركة إسلاميّة جرت قبل خمسة عشر قرناً، بمعركة حديثة جرت في الحرب العالمية الثانية من ناحية التفاصيل والأساليب القتالية، فالتفاصيل والأساليب القتالية في المعركتين مختلفة متناقضة، لاختلاف أنواع الأسلحة ووسائط النقل وتَعداد المقاتلين، فزجّ

المقارنة بمناسبة وبدون مناسبة في مثل هذا الموقف خطأ لا مسوِّغ للوقوع فيه، كما يقع فيه كثير من الذين حاولوا إعادة كتابة التاريخ العسكري العربي الإسلامي وهم يحسبون أنّهم يحسنون صُنْعاً، وما أحسنوا بل أساءوا إساءة بالغة، لأنّهم جعلوا من العسكرية الإسلامية ذنباً للعسكرية الأجنبية، والواقع أنها ليست ذنباً بل رأساً، لأنّها أقدم من العسكرية الأجنبية، وقد يقتبس الحديثُ من القديم، والعكس ليس صحيحاً بل مستحيلًا.

كما أن العسكرية الإسلامية رائدة، لأنّها استطاعت فتح بلاد شاسعة تضمّ في الوقت الحاضر سبعاً وثمانين مملكة وجمهورية وإمارة ومشيخة ومستعمرة في أرجاء آسيا وإفريقيّة وأوربا، ولو لم تكن عسكريّة رائدة لما استطاعت بمثل هذه السرعة المذهلة تحقيق كلّ هذا النصر والنجاح.

ـ ٤ ـ

ولا تقتصر المعلومات العزيزة المتيسِّرة في التاريخ العربيّ الإسلامي على المعارك المختلفة؛ بل تشمل سِيَر قادة الفتح الإسلامي، وقادة استعادة الفتح الإسلاميّ، وقادة الدفاع عن البلاد الإسلاميّة، وهو رصيد ضخم عظيم لا يزال بكراً حتى اليوم، ولا يزال بحاجة ماسّة إلى مَن يعيد كتابة سِيَر القادة العرب المسلمين من جديد.

ولا أعرف قادة من قادة الأمم غير العرب، لاقوا عقوقاً كما لاقاه قادة العرب المسلمين من المؤلفين العرب المسلمين القُدامى والجدد من عقوق.

فقد عكف المؤلفون القدامى على تأليف كتب الطبقات من كلِّ صنفْ ونوع، إلّا القادة، فلم يكن لهم نصيب أيّ نصيب في كتب الطبقات.

فهناك كتب طبقات الفقهاء في شتى المذاهب، وكتب طبقات الشعراء، وكتب طبقات الأُدباء، وكتب طبقات النّحاة، وكتب طبقات الصوفية، وكتب طبقات الأطباء، وحتى كتب طبقات المغنين، ولا ذكر لكتب طبقات القادة.

وربّما يزعم أحدٌ، أنّ ذكر القادة ورد في المصادر التّاريخيَّة وطبقات

المحدِّثين وغيرها، ولكنّ ما ورد عنهم في تلك المصادر نزر قليل من جهة، وموزّع على عشرات الكتب من جهة أخرى، كلّ كتاب يذكرهم بالنسبة لاختصاص، فكتب التاريخ تذكر معاركهم حسب، وكتب الحديث تذكر عدد الأحاديث التي رووها والذين رووا عنهم من الرجال الأولين، والذين رووا عنهم من الرجال المتأخرين، وكتب الأدب تروي ملحهم الأدبية شعراً ونثراً، وكتب الفروسية تروى نتفاً عن فروسيتهم، وكتب الأنساب تتحّدث عن أنسابهم.

ولا أعتقد أنّ طبقات الرجال كافة من مختلف الصنوف والأنواع، أكثر أهمية من القادة، وبخاصة قادة الفتح الإسلامي، لأنّهم فتحوا البلاد، وحملوا الإسلام إليها بالفتح ولم يحملوهم عليه بذلك الفتح، ولأنّهم نشروا اللُّغة العربيّة في البلاد المفتوحة، فلم يمض زمنٌ قليل إلّا ونبغ من غير العرب علماء في العربية يتعلّمون بها ويعلِّمون، ويكتبون بها ويؤلِّفون، ويخطبون بها ويتكلّمون، وهذه الأعمال الباهرة التي خدم بها القادة العرب والمسلمون عقيدتهم وأُمّتهم ولغتهم ينبغي أن تذكر لهم وتشكر وتسجّل في سِيْرة كلِّ واحد منهم بالفخر والاعتراف في صفحات مشرقة بالنور من صفحات الرجال الأفذاذ.

أليس من الغريب حقّاً والمخجل أيضاً، أن تخلو كتب الطبقات على كثرتها التي تضيق عن الحصر، من كتاب واحد عن: قادة الفتح؟!

وجاء الاستعمار القديم في أواخر القرن التّاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين، فوجد الجوّ مناسباً لطمس أسماء القادة العرب والمسلمين من مناهج التدريس في المدارس والمعاهد والجامعات، وإبراز قادة الأجانب في تلك المناهج، فتخرّج التلاميذ والطلاب في تلك المؤسسات التعليمية وهم يجهلون حتى أسماء قادتهم الذين فتحوا بلادهم وأدخلوا فيها الإسلام ديناً والعربية لغة، لأنّهم كانوا في شغل شاغل عن قادتهم الغر الميامين بقادة الاستعمار، وأصبحوا يعرفون عن نابليون بونابارت (مثلًا) أضعاف ما يعرفونه عن خالد بن الوليد!!

ولم تقتصر محاولة طمس أسماء القادة العرب والمسلمين وسِير حياتهم على المدارس والمعاهد والجامعات المدنيّة، بل شملت المدارس والمعاهد والجامعات العسكريّة أيضاً، وكان الأمر في المؤسسات التعليمّية العسكرية أدهى وأمّر وأشدّ إمعاناً في التخريب مما هو عليه في المؤسسات التعليميّة المدنيّة، فقد كان يدرّس في المؤسسات التعليميّة العسكرية في مادة: (تاريخ الحرب)، سِيَر قادة الاستعمار الأجنبيّ الذين قادوا الحملات العسكرية لاستعباد البلاد وإذلالها والاستحواذ على خيراتها، فكان يدرّس في الكلية العسكرية العراقيّة (مثلًا)، معارك حرب العراق التي جرت في الحرب العالمية الأولى لاستعمار العراق وفرض السيطرة البريطانية عليه، فتخرّج الضباط في تلك المؤسسات التعليمية العسكرية وهم مبهورون بمزايا قادة الأجانب وبعقيدتهم العسكرية الأجنبيّة في القتال، ويجهلون أيّ شيء عن قادة العرب والمسلمين، والإنسان عدو ما جهل بلا مِراء.

والمعنويات العالية هي التي تقود العسكريّ إلى النصر، ولا نصر مع المعنويات المنهارة، والضابط العربي المسلم يتخرّج محطّم المعنويات لإعجابه الشديد بالعسكريّة الأجنبيّة التي تحتّل بلاده، يؤمن بأنّ الأجنبيّ متفوق عليه عسكرياً ولا مجال لمنافسته أو اللّحاق به، وليس له إلّا أن يستخذي أمامه ويستجدي عطفه ويستدرّ رحمته، ويستسلم له، وهنا بيت القصيد.

- ٥ -

وليس من السّهل أبداً، كتابة تاريخ قادة العرب المسلمين، لأنّه لا تتيّسر دراسات خاصة مستقلّة لكلّ قائد إلّا ما ندر، بعكس المفسرين والمحدثين والمؤرخين والأدباء والشعراء والأطباء والفلاسفة والنّحاة واللّغويين والفقهاء والعلماء العرب المسلمين، فلكلّ واحد من هؤلاء الأصناف من العلماء وغيرهم دراسة خاصة مستقلّة.

أما القادة، فالذي يحبّ أن يعيد كتابة تاريخهم، عليه أن يجمع شتات

ما جاء عن كلٍّ واحد منهم من مختلف المصادر العربيّة الإسلاميّة، ليبني سيرتهم من جديد لأول مرة في التاريخ لَبِنَة لَبِنَةً بجهد جهيد ودأب متواصل وعمل شاق وصبر جميل.

ولكي يَبْني قصّة حياة قائد من القادة، عليه أن يدرس عشرات المصادر بل مئات المصادر، حتى يستطيع إبراز سيرته قائداً وإنساناً، وكلّ جهد ووقت يُنفق من أجل تحقيق هذا الهدف الحيويّ يهون، والمهمّ أن يبدأ الطريق الطويل الشّاق، والبداية تكون بخطوة بعد خطوة، حتى يصل إلى المثابة المرجّوة بالمثابرة والاستمرار.

أليس من المذهل حقاً والمؤسف أيضاً، ألّا يعرف العربي المسلم حتى اسم القائد الذي فتح المدينة التي يعيش فيها وحمل إليها الإسلام ديناً والعربية لغة؟!

هذا هو الواقع المرير، فمن كان في شكٍ من ذلك، فليسأل أحد معارفه من المثقفين: مَنْ فتح المدينة التي تعيش فيها؟

وقد جرّبت أن أوجّه هذا السؤال إلى معارفي من المثقفين ومنهم أساتذة التاريخ في الجامعة، فلم أسمع جواباً، أو سمعت جواباً غير صحيح!!

ذلك هو مبلغ ما وصل إليه العرب والمسلمون لقادتهم من عقوق!

ومن الطبيعي أن يبادر القادرون على كتابة سِيَر القادة إلى العمل الجاد لإخراج سِيَرهم في كتب مطبوعة للناس، لعلّ كلّ عربي مسلم يعرف القائد الذي فتح بلده، وهذا أضعف الإيمان، ولعلّ سِيرهم الباهرة تطهّر عقول وقلوب الذين بهروا بقادة الأجانب من أدرانها، ولعلّ شباب العرب والمسلمين يقتدون بسِيَرهم ويحذون حذوهم ليصلوا إلى نفس النتائج التي توصّل إليها أولئك القادة العظام.

وأخيراً، لعلّ المدارس والمعاهد والكليات العسكريّة، تُثْبت في

مناهجها دراسة سِيَر قادة العرب والمسلمين، وتمحو من مناهجها دراسة سِيَر القادة الأجانب، وبذلك يستبدلون الذي هو خير بالذي هو أدنى، فيتخرّج التلاميذ والطلاب العرب المسلمون في تلك المدارس والمعاهد والكليات العسكرية، وعقولهم وقلوبهم طاهرة من الاستعمار الفكري البغيض.

وأحبّ أن أضع زبدة تجاربي في كتابة سِيَر قادة الفتح الإسلامي بين أيدي الذين يحبّون أن يشاركوا في العمل بهذا الميدان.

إنّ قراءة مصدر واحد عن قائد من القادة لا يكفي أبداً، بل يجب قراءة المصادر كافة مهما يبلغ تعدادها، فإخراج سيرة قائد واحد بشكل متكامل، أجدى وأبقى من إخراج سِيَر عدّة قادة بشكل ناقص أو مشوّه أو مبتور.

ودراسة القادة ينبغي ألّا تقتصر على المشاهير منهم، بل تشمل المشهورين وغير المشهورين أيضاً، فقد اكتشفت أنّ بعض القادة المغمورين فتحوا بلاداً أوسع من العراق ومصر مساحة وأكثر سكّاناً، ولكنهم بقوا مغمورين في صفحات المصادر المعتمدة وكأنّهم لم يفتحوا بلداً ولم يجاهدوا في الله حق جهاده.

إنّ بعث القادة المغمورين أهمّ بكثير من كتابة سِيَر القادة المشهورين، ولكنّ الكتابة عن المغمورين أصعب بكثير من الكتابة عن المشهورين، فلا ينبغي أن نختار الطريق الممهّدة ونتجنّب الطريق الصعبة، فهي الطريق التي تؤدي إلى اكتشاف جديد.

ـ ٦ ـ

وللقادة العرب المسلمين سماتهم ومزاياهم التي تناسب عصرهم وعقيدتهم وسلوكهم، فيجب الإبقاء على تلك المزايا والسِّمات كما هي دون أن تبقى أسماءهم كما هي ونمسخ سيرتهم بإضافة مزايا وسمات جديدة إليهم، لم يكونوا يعرفونها ولم يسمعوا بها، ولو عادوا إلى الحياة لرفضوها.

لقد عاشوا قبل خمسة عشر قرناً، والقادة الأجانب الذين عاشوا في القرن الحالي اقتبسوا منهم إذا فعلوا ذلك حقاً، أما إذا لم يفعلوا فلا ينبغي أن ندّعي لقادتنا ما ليس لهم بحق، إذ لا يزيد في قيمتهم وقدرهم هذا الادعاء، كما أنهم أعظم قدراً ومنزلة وفتحاً من القادة الأجانب، فإذا شبّهناهم بالقادة الأجانب كما يفعل قسم من المؤلفين، فقد قلّلنا من أقدارهم ومنزلتهم، وأسأنا إليهم من حيث أردنا الإحسان... وهذا ما لا يقبله العقل ولا يرتضيه المنطق ولا يُقرُّه الوجدان ويأباه القادة العرب والمسلمون.

ونعود إلى أسلوب كتابة سِيَر القادة، هل نقلِّد الأسلوب الأجنبي في الإطناب المِمُلّ، أم نتَّخذ أسلوب (المُتون) في الإيجاز المُخل، كما يفعل كتّاب (المُتون) التي تحتاج إلى (الشّروح) على (المتون)، ثم تكون (التعليقات) على الشّروح؟!

لقد قلّد قسم من الذين حاولوا الكتابة عن قائد من القادة المسلمين أو عن أكثر من قائد منهم، الأسلوب الأجنبيّ، فأخرجوا كتاباً ضخماً عن قائد واحد، يمكن اختصاره بصفحات معدودات دون مغادرة شاردة أو واردة من المعلومات المفيدة الواردة في الكتاب إلا أحصتها تلك الصفحات المعدودات!

وبالإمكان أن أضرب مثلًا على ذلك، فقد جاء في أحد المصادر العربية أنَّ خالد بن الوليد هو الذي فتح مصر، ومؤلِّف هذا المصدر العربيّ القديم أورد هذا الخبر مسنداً إلى رواته الذين لا يعتمد على روايتهم لأنّهم ضعفاء لا ثقة بما يقولون.

ومؤلِّف المصدر المذكور أورد هذا الخبر بهذا الشّكل، ليقول بصورة غير مباشرة، بعد ذكر فاتح مصر الحقيقي وهو عمرو بن العاص، إنّ الخبر الأول عن خالد لا نصيب له من الصحّة، ولكنّه ذكره في مصنّفه ليدلّ على الخبر الصحيح والخبر غير الصحيح، وهذا هو منتهى الدقّة والأمانة في تدوين الأخبار.

ولكنّ المؤلِّف الحديث ناقش بإطناب: هل أن خالداً فتح مصر، أم هو لم يفتح مصر، فاستغرقت مناقشته أكثر من عشر صفحات، فضيّع وقته الثمين وأوقات القرّاء والدارسين دون مسوِّغ، لأنه اعتمد الأسلوب الأجنبيّ في التدوين! . . .

والأسلوب الذي أراه مناسباً في كتابة سِيَر القادة العرب المسلمين، ليس الأسلوب الأجنبي الذي يعتمد الإطناب، ولا أسلوب كتابة المتون الذي يعتمد الإيجاز، بل الأسلوب الوسط الذي يكتفي بنقل الحقائق من مصادرها المعتمدة، لاستنتاج سمات القائد إنساناً وقائداً، واستنتاج ما يفيد العرب والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم، بكلمات عربية أصيلة، بعيدة عن الكلمات الأجنبية الدخيلة، فالعربية لغة القرآن الكريم، وهي ليست عاجزة عن التعبير في مختلف مجالات العلوم والآداب والفنون، بعد أن استطاعت التعبير الدقيق الوافي في كتاب الله، وحملت قروناً طويلة شتى أنواع المعارف الإسلامية بكفاية واقتدار.

إن كثيراً من الكتّاب العرب والمسلمين مغرمون غراماً شديداً بترصيع ما يكتبون بالكلمات الأجنبية الدخيلة، وهم بدون استثناء يعانون من الاستعمار الفكري البغيض إذا كانوا يتقنون اللغة العربية، أما إذا كانوا لا يتقنونها أو كانوا ضعفاء في اللّغة مفردات ونحواً وصرفاً، فالجهل داء أَعْيَا كلّ دواء، ولا يصلح الجاهل لكتابة سِيرَ القادة العرب المسلمين على كلِّ حال.

- ٧ -

ولكن، هل كلّ ما في التاريخ العربيّ الإسلامي العريق يقتصر على المعارك الحربية والقادة العسكريين حسب، في قسمه العسكري؟

إنّ هذا التاريخ فيه العسكرية الإسلاميّة، وهي لا تقلّ أهمية عن المعارك والقادة، إن لم تكن أكثر أهمية من المعارك والقادة، وهي الجزء المتمِّم لهاتين الناحيتين الحيويتين من تاريخنا العسكري العريق.

وهذا التاريخ عبارة عن سلسلة متّصلة الحلقات، مترابطة ترابطاً وثيقاً: العسكرية الإسلاميّة، نفّذها القادة العرب المسلمون، في معارك متعاقبة.

ويمكن التعبير عن هذه السّلسلة المتّصلة المترابطة، بأنّ العسكريّة الإسلاميّة عبارة عن مبادىء الإسلام العسكرية، وهي مبادىء نظرية؛ والقادة العسكريون العرب المسلمون هم المنفّذون لتلك النظريّات والمطبّقون لها عملياً، وهم الذين أخرجوا تلك المبادىء العسكريّة الإسلاميّة من نطاقها النظري إلى نطاقها العملي، لتصبح عملًا ولا تبقى كلاماً، أما المعارك العربيّة الإسلامية، فهي التطبيق العملي على الأرض وفي ميادين القتال لمبادىء الإسلام النظرية في العسكريّة الإسلامية، لتصبح فتحاً أو استعادة لفتح أو دفاعاً عن الأرض والعقيدة والعِرض.

ولا أعرف مبادىء عسكرية غير مبادىء العسكريّة الإسلامية، قادت الذين طبقوها إلى النصر، فلم ترتد لهم راية ما داموا يطبقونها عملياً كما أُنزلت بدون انحراف ولا تحريف، فلما تخلّوا عن تطبيقها أو انحرفوا عن مبادئها، تخلّى عنهم النصر أولًا، واستُعبدوا في بلادهم ثانياً، وتغلّب عليهم شذاذ الدنيا وأراذل الأمم في عقر دارهم: يهود، ثالثاً وأخيراً.

والعسكرية الإسلاميّة متيسِّرة في أربعة مصادر رئيسة: القرآن الكريم، والسُنَّة النبويّة المطهّرة، وكتب الفقه الإسلامي، وكتب التاريخ ومنها السيرة النبويّة.

في القرآن الكريم والسُنّة والفقه، مبادىء العسكرية الإسلاميّة، وفي كتب التاريخ والسيرة التطبيق العملي لتلك المبادىء.

ومن المفيد جداً، أن نذكر المبدأ العسكري الإسلامي، ثم نذكر الشّاهد على تطبيقه العمليّ، شرحاً للمبدأ وتوضيحاً لأسلوب تطبيقه.

وقد مهّد الفقهاء الطريق للذين يريدون إعادة كتابة العسكريّة الإسلاميّة تمهيداً موفّقاً، ولكن لا يزال المجال واسعاً أمام الذين يحبّون أن يعيدوا

كتابة العسكرّية الإسلاميّة من جديد، فالأسلوب الكتابيّ الحديث يختلف عن الأسلوب الكتابي القديم، والمصطلحات العسكرية مختلفة جداً، فإذا بقيت العسكرية الإسلامية تُعرض بأسلوبها القديم بما فيها من مصطلحات فقهيَّة، كان تفهمها صعباً في الوقت الحاضر، وبخاصة على العسكريين، الذين نأمل أن يدرسوا العسكرية الإسلاميّة ويدرِّسوها في المدارس والمعاهد والكليّات العسكرية، وأن تصبح العقيدة العسكريّة الإسلاميّة هي السّائدة في القوّات العربيّة والإسلاميّة المسلّحة ويستعيضوا بها عن العقيدة العسكريّة الغربيّة والعقيدة العسكريّة الشرقيّة، فقد مضى ردح طويل من الزمن على غياب العسكريّة الإسلامية عن العرب والمسلمين بعامة وقوّاتهم المسلّحة بخاصة، لذلك تزاحمت عليهم الهزائم وتكاثرت عليهم النكبات وحلّت بهم الكوارث، ونزلت بساحتهم المصائب.

ـ ٨ ـ

ولعلّ نشر التراث العسكري العربيّ الإسلامي الأصيل، يكمِّل إعادة كتاب التاريخ العسكري العربيّ الإسلاميّ وإعادة كتابة العسكريّة الإسلاميّة بأسلوب جديد.

لقد انتصر المسلمون بعقيدتهم الإسلاميّة الراسخة، ولكنّ معلوماتهم العسكرية النظريّة والعمليّة كانت على درجة رفيعة جداً من التقدّم والرقيّ.

ولم تكن تلك المعلومات مدوّنة في عهد الفتوح واستعادة الفتوح، ولكنّها دوِّنت في العصر العباسيّ، وكان السّلف الصالح من الفاتحين يتلقّون المعلومات العسكريّة خلفاً عن سلف ويمارسونها عملياً، والممارسة العملية خير مدرسة كما هو معلوم.

وبعد تدوين المعلومات العسكرية في العصر العباسي وفي العصور التي جاءت من بعده، أصبح للعرب والمسلمين تراث أصيل من المؤلفات العسكرية لا تقلّ أهميّة عن كتب التراث الأخرى في العلوم والآداب والفنون.

وقد حظي التراث الإسلامي بالتحقيق والنشر في مختلف المجالات العلميّة والأدبية والفنية، وبقي التراث العسكري بكراً حتى اليوم، ينتظر مَنْ يحقِّقه وينشره بين الناس.

إنّ التراث العربيّ الإسلاميّ في الناحية العسكريّة، يملأ مكتبات أوروبا ومتاحفها، وتزخر به مكتبات المخطوطات العربيّة في شتى أصقاع العالم، وحسبنا أن نذكر: (فهرست ابن النديم)، الذي عدّد فيه: «الكتب المؤلّفة في الفروسيّة وحمل السِّلاح وآلات الحرب والتدبير والعمل بذلك لجميع الأمم»(١) لنتلمّس بوضوح أيّ تراث عسكريّ أصيل كان للعرب والمسلمين منذ أقدم العصور.

ومن موازنة ما جاء في: (فهرست ابن النديم) عن الكتب التي اطّلع عليها هو في عصره، بالكتب العسكريّة العربيّة الإسلاميّة المعروفة في الوقت الحاضر، يتبيّن لنا أنّ كثيراً من التراث العربيّ الإسلامي في العلوم العسكريّة لا يزال مفقوداً.

ولكنّ ما وصل إلينا من المخطوطات العسكريّة العربيّة، يدلّ على أنّ العرب المسلمين بلغوا شأواً بعيداً في العلوم العسكريّة، وأنهم لم يقتصروا على الفلسفة والعلوم العقليّة والنقليّة والتاريخ وعلوم القرآن والحديث والأدب، بل كان لهم في العلوم العسكريّة الفنيّة باع طويل وقَدَم راسخة.

والتراث العسكري العربيّ الإسلاميّ بحاجة ماسة إلى أن يجد طريقه إلى النور، بعد أن بقي في المكتبات العامة والخاصة والمتاحف قروناً طويلة في الظّلام.

- ٩ -

والقادرون على إعادة كتابة التاريخ العسكري الإسلامي، وصياغة العسكرية الإسلاميّة بأسلوب جديد، وتحقيق التراث الإسلامي وإخراجه للناس، كثيرون من علماء العرب والمسلمين، وقليلون من العسكريين.

إن هذا العصر أصبح عصر ذوي الاختصاص بالدرجة الأولى، والعسكريون وحدهم هم القادرون بحق على النهوض بهذه المهمّة الصعبة

---

(١) ابن النديم - الفهرست - ص(٣١٤ - ٣١٥)، بيروت، ١٩٦٤.

الشاقّة ذات المجالات الواسعة، التي تحتاج إلى الصبر الجميل والدأب المتواصل والسّهر المستمر والحرص الشديد والعلم والاختصاص.

والعسكريّ الذي ينتج إنتاجاً سويّاً، لا بدّ أن يكون عالماً في فنّه العسكري، مجرباً في العمليات العسكريّة، متقناً للغة العربية، نظيفاً في عقله لا يعاني داء الاستعمار الفكري وليس مبهوراً بالعقيدة العسكريّة الأجنبية الشرقيّة أو الغربيّة، سليماً في عقيدته الإسلامية، يعرف قيمة المعارك الإسلامية وأقدار القادة المسلمين، خبيراً بالمصادر العربية الإسلاميّة المعتمدة وبالمصادر الأجنبية الموثوق بها، يعتبر العلم عبادة من أجلّ العبادات لا تجارة من أربح التجارات، ويرى في جهده جهاداً خالصاً لوجه الله، مستعدّاً للتضحية بجهده وماله من أجل إخراج إنتاجه العسكري العربيّ الإسلامي إلى حيِّز التنفيذ، دون أن ينتظر من أحد جزاء ولا شكوراً، وحسبه أجر الله في إخراجه علماً يُنتفع به ويبقى أجره متجدِّداً ما بقي علمه وبقي المنتفعون به.

والعسكريّ من هذا الطراز نادر، لأنّ المستعمِر ربّىٰ العسكريين على حبّ لغته وكره العربيّة الفصحى، والعلم بالقادة الأجانب والجهل بالقادة العرب والمسلمين، والانبهار بالعقيدة العسكرية الأجنبية والاحتقار للعقيدة العسكرية العربية الإسلاميّة، والتفرّغ للكأس والطاس والسَّهر في الحفلات الترفيهيّة والنوادي.

فإذا استطاع نفر قليل من العسكريين برحمة الله وهديه أن يتملّصوا من أحابيل المستعمِر ومناهجه التخريبيّة، فالفضل لله وحده، ولولا رحمة الله لما اهتدوا وما استقاموا.

وعلى هؤلاء النفر القليل من العسكريين، يقع واجب إعادة كتابة العسكريّة الإسلاميّة تاريخاً وفكراً وأمجاداً وتراثاً.

والله المعين، وحسبنا الله ونِعْم الوكيل، وصلّى الله على سيدنا ومولانا رسول الله، ورضي الله عن المجاهدين الصادقين من قادة الفتح الإسلاميّ وجنوده، وقادة الفكر الإسلاميّ وجنوده، وجميع الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

بلاد ما وراء النهر
قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه



بلاد ما وراء النَّهر

موقعها ـ أقاليمها ـ نهرا سَيحون وجَيحون ـ لمحات من تاريخها القديم ـ فتحها واستعادة فتحها

الموقع:

كان نهر (جَيْحُون) القديم يُعدّ الحدّ الفَّاصل بين الأقوام النّاطقة بالفارسيّة والتركيَّة، أي إيران وتوران. فما كان في شماله، أي ورائه من أقاليم، سمّاها العرب: ما وراء النّهر (وهو نهر جيحون) وكذلك سمّوها: الهيطل. وقد كان الهياطلة في المئة الخامسة للميلاد، أعدى أعداء الدولة السّاسانيّة، وهم الأفثلاطيون (Ephta lites) لدى المؤلفين البيزنطيين، ويعرفون بالهون البيض.

ويمكن تقسيم بلاد ما رواء النّهر إلى خمسة أقاليم:

١ ـ إقليم الصُّغْد، وهو صُغْدِيانا (Sogdiana) القديمة مع قصبتيه: (بُخَارى) و(سَمَرْقَنْد).

٢ ـ إقليم خُوَارِزْم: في غرب الصُّغْد، وهو الإقليم المعروف اليوم بـ(خِيْوَة)، ويشمل على دلتا نهر جَيْحون.

٣ ـ إقليم الصَغَانِيَان: في الجنوب الشرقيّ ومعه (الخُتَّل) وغيرهما من الكور الكبيرة التي تقع في أعالي جيحون. وإليه أيضاً تعود (بَذَخْشَان) وإن وقعت في ضفته اليسرى، أي الجنوبيّة، فإنّ المنعطف الكبير للنهر فيما وراء طَخَارِسْتَان يكاد يطوِّقها.

٤ ـ إقليم فَرْغَانَة في أعلى نهر سَيْحُوْن.

٥ ـ إقليم الشَّاش: وهو اليوم إقليم (طَشْقَنْد) مع النواحي التي في الشمال الغربي الممتدة حتى مصب سيحون في مناقع بحر أرال.

إقليم الصُّغْد

١ ـ الصُّغْد:

يشمل الأرض الخصبة فيما بين نهري جَيْحون وسَيْحون، تسقى بنهر الصُّغد. قيل: جنان الدنيا أربعة: غُوْطَة دِمَشْق، وصُغْد سمرقند، ونهر الأُبُلَّة، وشِعْب بَوَّان.

والصُّغد عبارة عن قرى متّصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى قريب من بُخارى، لا تَبين القرية حتى تأتيها، لالتحاف الأشجار بها، وهي من أطيب أرض الله، كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار، متجاوبة الأطيار.

وأجلّ مدن الصُّغْد: سمرقند وبخارى، ويمكن القول: إنّ الأولى كانت مركزه السياسي، بينما كانت بخارى عاصمته الدينيّة، إلّا أنّ كلا المدينتين كانتا في مرتبة واحدة، وتُعدّان قصبتي الصُّغد.

وقد تكتب الصُّغد بالسِّين مكان الصّاد، أي السُّغد، وكتابته بالصّاد أشهر.

وسكّان الصُّغد يدعون أيضاً: الصُّغد، وهم في الأصل من الترك، وكان لهم ذكر في فتح بلاد ما وراء النهر واستعادة فتحها، وهم مقاتلون أشدّاء.

٢ ـ بخارى:

من أعظم مدن ما وراء النّهر وأجلِّها، يُعبر إليها من (آمُل) الشط، وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السّامانيّة.

وهي مدينة قديمة نزهة كثيرة البساتين والفواكه جيِّدتها، تحمل فاكهتها

إلى (مَرْوَ) وبينهما اثنتا عشرة مرحلة، وإلى خُوارِزْم وبينهما أكثر من خمسة عشر يوماً، وبينها وبين سمرقند سبعة أيام أو سبعة وثلاثون فرسخاً.

وبخارى مدينة جميلة جداً، وليس في بلاد الإسلام بلد أجمل منها، فإذا علوت قلعتها يقع بصرك على خضرة متّصلة خضرتها بخضرة السماء، فكأنّ السماء بها مكبّة خضراء مكبوبة على بساط أخضر. وأرض قُراها منعوتة بالاستواء كالمرآة، وليس بما وراء النهر وخُراسان بلدة أهلها أحسن قياماً على قُراهم بالعمارة من أهل بخارى ولا أكثر عدداً على قدرها في المساحة.

واسم بخارى: (بُومِجْكَث)، وهي مدينة على أرض مستوية، وبناؤها خشب مُشبّك، ويحيط بهذا البناء من القصور والبساتين والمحال والطرق المبلّطة والقرى المتّصلة سور يكون اثني عشر فرسخاً في مثلها، يجمع هذه القصور والأبنية والقرى والقصبة، فلا ترى في خِلال ذلك قفاراً ولا خراباً.

ومن دون هذا السّور على خاص القصبة وما يتّصل بها من القصور والمساكن والمحال والبساتين التي تعدّ من القصبة (المدينة الأصلية) ويسكنها أهل القصبة شتاءً وصيفاً، سور آخر نحو فرسخ في مثله، ولها مدينة داخل هذا السور يحيط بها سور حصين، ولها قلعة (قهندز) خارج المدينة متّصل بها، ومقداره مدينة صغيرة، وفيه قلعة بها مَسكن ولاة المدينة، ولها ربض، ومسجد الجامع على باب القلعة.

وخرائب بخارى القديمة التي كانت قبل الإسلام، تقع على بضعة أميال من شمال غربي المدينة الإسلاميّة قرب ضفة النهر.

وكان في داخل السّور الكبير حول بخارى الكبرى، الذي يجمع المدينة الأصلية وضواحيها، خمس مدن زاهرة منها: خُجَادَة، وهي على فرسخ غرب الدّرب المنحدر من بخارى إلى (بِيْكنذْ) على ثلاثة فراسخ من القصبة، وكانت مدينة كبيرة عليها حصن فيه الجامع، حسنة ظريفة.

وتليها بلدة: (مَغْكَان)، وكانت على خمسة فراسخ من بخارى وثلاثة من الدّرب، لصق الجانب الغربي من السور الكبير، وكان لمغكان حصن وربض حسن وجامع ظريف به ماء حار، كثيرة القرى.

وكانت (بُومِجْكَث) مدينة صغيرة في شمال غربي بخارى على أربعة فراسخ منها ونصف فرسخ على الدّرب الذي إلى يسار الطريق الذاهب إلى (طواويس).

والطواويس (وتكتب معرّفة في الغالب) أعظم المدن الخمس التي في داخل السور الكبير، وكانت مدينة جليلة، لها سوق، ومجمع عظيم ينتابه الناس من أقطار أرض (خُراسان) في وقت معلوم من السنة. ويرتفع منها من ثياب القطن ما يحمل منه لكثرته إلى العراق. وفيها قلعة، وحولها سور، ومسجد جامعها في المدينة.

وآخر المدن الخمس الداخلة، كانت (زَنْدَنَة)، وما تزال قائمة حتى اليوم، تبعد عن قصبة بخارى (المدينة الأصلية) أربعة فراسخ، في شمال المدينة، لها حصن به الجامع، وربضها عامر، وإلى هذه المدينة تنسب الثياب (الزندنجيّة) وهي ثياب مشهورة في الآفاق.

وعلى فرسخين من خارج السور الكبير وخمسة من بخارى، في الطريق المنحدر إلى جيحون عند (فِرَبْر) مدينة (بِيْكَنْد) وما زالت قائمة، فيها حصن بباب واحِد، ومحراب مزخرف فليس بما وراء النهرَ محراب مثله ولا أحسن زخرفة منه، ولها ربض فيه سوق، ولم يكن لها قرى، وفيها نحو ألف رباط، ولها سور حصين ومسجد جامع، ويلي هذه المدينة مفازة رملية إلى حَدِّ جيحون.

٣ ـ أ ـ سَمَرْقَنْد:

تقع على نحو مئة وخمسين ميلًا من شرق بخارى، وتقوم على مسافة قصيرة من ضفة نهر الصُّغد الجنوبيّة، على نشز من الأرض.

وعلى المدينة سور حوله خندق عميق، ولها قلعة مرتفعة عن الأرض، وفي أسفلها قرب النهر أرباض كبيرة، تحفّ بها البساتين والأشجار، وقليل من دورها تخلو من بساتين ومن ماءٍ جارٍ، وتكثر فيها أشجار السَّرو. وفي القلعة دار الإمارة والحبس، وكان عليها باب حديد من داخله باب حديد آخر.

أما المدينة نفسها، فلها أربعة أبواب هي: باب الصِّين في جهة المشرق ينزل عنه بدرج كثيرة العدد مطلّ على نفس وادي الصُّغْد. وباب بخارى في جهة الشمال، وباب النوبهار في جهة المغرب، وهو على النَّشز أيضاً، والباب الكبير ويعرف باب (كِشّ) في جهة الجنوب.

ومساحة سمرقند ألفان وخمسمائة جريب (أي ٧٥٠ أكرا)، فيها الأسواق والحمامات.

ولهذه المدينة مساكن كثيرة، وماء جارٍ يدخل إليها في نهر من رصاص، وهو نهر قد بنيت له مسنّاة عالية من حجارة يجري عليها الماء حتى يدخل باب كِش، ووجه هذا النهر رصاص كلّه، ودورها كلها قد بنيت بالخشب والطين، والمدينة مكتظة بالسكّان.

وسوق سمرقند الكبير يعرف برأس الطاق، وكان سوقاً رحباً، وفي أسفل القلعة المسجد الجامع ودار الإمارة.

وأرباض (ضواحي) سمرقند تمتدّ بامتداد ضفة النهر، في بسيط من الأرض، وعليها سور نصف دائريّ طوله فرسخان، يحيطها من ناحية البر، ويحيطها النهر من ناحية الشمال إحاطة القوس بالوتر، فيتمّ بذلك خطّ دفاعها، وللأرباض ثمانية أبواب، ومجمع أسواقها رأس الطاق في المدينة.

والبلد كلّه: طرقه وسككه وأسواقه، إلّا القليل، مفروش بالحجارة.

وكانت أسواقها زاخرة بالسِّلع الواردة إليها من جميع الأنحاء، فقد كانت سمرقند مركزاً تجاريّاً عظيماً لبلاد ما وراء النهر. ومن جملة ما اشتهرت به سمرقند الورق السمرقندي، فهو يحمل منها إلى سائر بلاد المشرق، وكانت صناعته قد دخلت إليها من الصِّين.

وهواء سمرقند رطب، في جنوبها جبل صغير يدعي: (كُوْهَك) يمتدّ طرفه إلى مرحلة يوم عن المدينة، وهو مقدار نصف ميل في الطول، ومنه أحجار المدينة والطين المستعمل في الأواني والزجاج والنّورة وغير ذلك.

وليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن مستشرفاً من سمرقند، كأنها السماء للخضرة، وقصورها الكواكب للأشراف، ونهرها المجرّة للاعتراض، وسورها الشّمس للأطباق.

وقد قال أحمد بن واضع في صفة سمرقند:

عَلَتْ سمرقند أن يُقال لها   زين خُراسان جنّة الكُور
أليس أبراجها معلّقة   بحيث لا تستبينُ للنّظر
ودون أبراجها خنادقها   عميقة ما ترام من ثغر
كأنها وهي وسط حائطها   محفوفة بالظلالِ والشَّجر
بدر وأنهارها المجرَّة و   آطام مثل الكواكب الزّهر

وقال البُستيّ:

للناس في أُخراهمُ جنّة   وجنّة الدنيا سمرقندُ
يا مَن يُسوِّي أرض بَلْخ بها   هل يستوي الحنظل والقَنْدُ

بْ ـ رساتيق سمرقند: في جنوب نهر الصُّغد.

أولاً: بَنَاكِثْ: على تسعة فراسخ من سمرقند ومثل ذلك من جنوب نهر الصّغد، وما زالت قائمة حتى اليوم باسم: (بَنْجَكَنْد)، حولها رستاق كثير الثمار خصب، مشجّر باللّوز والجوز، وتمتدّ حقول القمح على الأنهار، وهي مدينة كبيرة.

ثانياً: وَرَغْسَر: قرية كبيرة من قرى سمرقند، تقع بينها وبين مدينة بناكث، ورستاقها خصب تسقيه أنهار مصدرها نهر الصُّغد، وفيها كروم وضياع، عندها مقاسيم نهر الصُّغد وغيره.

ثالثاً: مايَمُرْغ: قرية من قرى سمرقند على فرسخ من جنوبها، وليس في القرى أشد اشتباكاً في الشجر منها.

رابعاً: دَرْغَم: رستاق في جنوب سمرقند، وهو أزكى الرساتيق وأكثرهنّ مراعي ومياهاً، ويفيض من أعنابه ما يحمل إلى غيره من الرساتيق.

خامساً: أَبْغَرْ: جنوب سمرقند قريب من (دَرْغم)، وهو رستاق كثير القرى، أهله أصحاب مواشٍ، قطره نحو من فرسخين.

جـ ـ رساتيق سمرقند: في شمال نهر الصُّغد.

أولاً: بارْكَث: تقع في تخوم (أُشْرُوْسَنَة) ثم حوِّلت إلى سمرقند، وهي على أربعة فراسخ أو مرحلة يوم من سمرقند إلى شمالها الشّرقي، وهي قرية من رستاق (بُوْزْمَاجِن) أو (بُوْزْمَاجِز).

ثانياً: كُشْفَغَن: قرية ذات شأن عرفت في الأزمنة الأخيرة براس القنطرة.

ثالثاً: بورنمذ (أو فورنمذ): رستاق يتاخم أُشْرُوْسَنَة، تكثر فيه المراعي والمواشي.

رابعاً: يَارْكَث: رستاق يتاخم أَشْرُوْسَنة، تكثر فيه المراعي والأغنام، وهو أعلى الرساتيق الشمالية.

٤ ـ أَشْتِيخَن:

تقع على سبع فراسخ من سمرقند، ولها رساتيق وقرى، وهي على غاية النزهة وكثرة البساتين والقرى والخِصب والأشجار والثمار والزورع، لها قلعة وأرباض وأنهار تأخذ من نهر الصُّغد، وهي مشهورة بكثرة زروعها، ويطلق عليها: قلب الصُّغذ، لخصبها.

٥ ـ الكَشَانِيَّة:

بلدة بنواحي سمرقند شمالي وادي الصُّغد، بينها وبين سمرقند أثنا عشر فرسخاً، وهي قلب مدن الصُّغد، وأهلها أيسر من جميع مدن الصُّغد.

٦ ـ كَبُوذَ بخكَث:

بلد بينه وبين سمرقند فرسخان، وهو رستاق ومدينة لنجوغكث.

٧ ـ وَذَار:

عامة أرضها جبليّة، تقع على أربع فراسخ من سمرقند، فيها منارة وجامع وحصن حسن، وهي كبيرة كثيرة البساتين والزروع، في سهل وجبل، وفيها تعمل الثياب الوذاريّة القطنيّة.

٨ ـ المرزبان:

رستاق يتّصل برستاق وَذَار، والمرزبان هو المرزبان بن تركسفي، من دهاقين الصُّغد، كان يمتلك هذا الرستاق، فسميّ باسمه.

٩ ـ كَرْمِيْنِية:

مدينة تقع على مرحلة بريد شرق الطواويس في ظاهر السور الكبير، وهي أكبر من الطواويس وأعمر وأكثر عدداً، ولها قرى كثيرة، وأرضها خصبة وأنهارها وافرة، تأخذ ماءها من نهر الصُّغد. ومن قراها خُدِيمنكن وتختص بأصحاب الحديث، وبها جامع ومنبر.

وهي بلدة بين سمرقند وبخارى، بينها وبين بخارى ثمانية عشر فرسخاً.

١٠ ـ دَبُوسِيَّة:

تقع على مرحلة من شرقي كرمِيْنِيَّة، ولا قرى كبيرة فيها ولا أعمال لها، وهي على نهر يأخذ من ضفة الصُّغد الجنوبيّة.

١١ ـ كِشّ:

مدينة لها قلعة وحصن وربض، ومدينة أخرى متّصلة بالربض، والمدينة الداخلة مع القلعة خراب، والمدينة الخارجة عمار. وهي مدينة نحو ثلاثة فراسخ في مثلها، حصينة، تدرك فيها الفواكه أسرع مما تدرك بسائر بلاد ما وراء النهر، غير أنها وبئة على ما يكون عليه بلاد الغور، وفي المدينة والربض في عامة دورها مياه جارية وبساتين، وطول عمارتها مسيرة أربعة أيام في مثلها، بناؤها من طين وخشب. وللمدينة الداخلة أربعة أبواب

هي: باب الحديد، وباب عبيد الله، وباب القصّابين، وباب المدينة الداخلة. وللمدينة الخارجة بابان، أحدهما باب (بركنان)، وبركنان قرية ينسب إليها الباب، وباب المدينة الخارجة.

١٢ ـ نَسَف: نَخْشَب:

تقع على مئة ميل تقريباً في منحدر نهر (كُشْكَة = نهر القصّارين) أسفل (كِشّ) من ناحيتها الغربية، وتعرف هذه المدينة باسم: (قُرْشى). لها قلعة وربض عامر في ظاهر المدينة، له سور وأربعة أبواب هي: باب النجارية، وباب سمرقند، وباب كِشّ، وباب غوبذين.

وتقوم (نَسَف) على النهر المؤلّف من مجتمع فضلات أنهار عديدة تأتي من رساتيق كِش، وعلى ضفته دار الإمارة عند الموضع المعروف برأس القنطرة، وحبسها عند دار الإمارة، والمسجد الجامع قرب باب غوبذين. وأسواقها في الربض مجتمعة ما بين دار الإمارة ومسجد الجامع والمصلى بناحية باب النجارية داخل الباب، وأسواقها حسنة، ومزارعها خصبة وبساتينها كثيرة، إلّا أنها ليست لها قرى كثيرة ولا نواحٍ مثلما كان لكِش.

١٣ ـ رَبَنْجَن: بليدة من صُغد سمرقند.

١٤ ـ أ ـ أُشْرُوْسَنَة:

اعتبرها ياقوت في موضع من مدن سمرقند ومن أقليم سمرقند[١]، واعتبرها في موضع آخر إقليماً[٢] مستقلًا، وقد أخذت برأيه الأول، لأنها قريبة من سمرقند وفي منطقتها.

ومنطقة أشروسنة تقع في شرق سَمرقند، بين الرساتيق الممتدة في محاذاة يمين نهر الصّغد والرساتيق التي في يسار نهر جيحون، ولا يدخل هذان النهران ضمن منطقة أشروسنة.

---

(١) ياقوت (٥/١٢٣).

(٢) ياقوت (١/٢٥٧).

وأرض المنطقة سهول وجبال، ولا تتخلّلها أنهار كبيرة.

أشروسنة مدينة بناؤها طين وخشب، ولها مدينة داخلة، عليها سور بذاتها، وسور على ربضها، ولها سور آخر من وراء ذلك. وللمدينة الداخلة بابان: أحدهما يدعى باب الأعلى، والآخر باب المدينة. وداخل المدينة القلعة والسجن والمسجد الجامع والأسواق، ويجري بالمدينة الداخلة نهر كبير عليه رحى، ويشتمل سورها المحيط بالربض، أي المدينة الخارجة، على الدور والبساتين، ويبلغ محيطه نحواً من ثلاثة فراسخ، وكان لهذا السور أربعة أبواب.

وكان لهذه المدينة ستة أنهار صغيرة تسقي أرضها، وجميع هذه الأنهار من منبع واحد وعَيْنٍ واحدة، ويكون مقدار ما يدير عشرة أرحية، ومن المدينة إلى منبع الماء أقلّ من نصف فرسخ، وكانت المدينة مشهورة بكثرة النزه والبساتين.

ب ـ المدن التابعة لأشروسنة:

أولاً: زَامِيْن: بليدة من نواحي سمرقند، وهي من أعمال أشروسنة، وهي ثاني أكبر مدن أشروسنة بعد (بُنْجِيْكَث)، تقع في طريق فَرْغَانَة إلى الصُّغد، ولها اسم آخر وهو سبذةُ، ولها مياه جارية وبساتين وكروم، بينها وبين ساباط فرسخان، وبينها وبين أشروسنة سبعة فراسخ. ولها جامع وأسواق حسنة، وليس عليها سور.

ثانياً: ساباط: مدينة لا تزال قائمة، تقع قرب أشروسنة على عشرة فراسخ من خُجَنْد وعلى عشرين فرسخاً من سمرقند، عامرة، بها عين ماؤها جارٍ، تحدق بها البساتين.

ثالثاً: دِيْزَك: من مدن أشروسنة، بها مرابط أهل سمرقند ودور ورباطات للسُّبُل، ولها نهر جارٍ، وتقع في شمال غرب زامين.

رابعاً: خَرَقانة: في جنوب ديزك، في الطريق من سمرقند.

خامساً: خَاوِس: بليدة في منطقة أشروسنة، وربما عوِّض بدل السين صاد: خاوص، تقع في الطريق الذاهب شمالاً من زامين إلى الشّاش.

سادساً: بُنْجِيْكَت: أكبر مدينة بأشروسنة، وهي التي يسكنها ولاة أشروسنة، ولها خندق.

حاصلات إقليم الصُّغد:

١ ـ بخارى:

يصدر من بخارى بطيخ فائق يحمل إلى الآفاق، وتصدر منها البُسط والمصليات والثياب الرخوة وثياب الفرش التي كانت تفرش في حجرات الضيوف. وكانت تنسج في محابِسها حُزُم الخيل، وتدبغ فيها جلود الضأن، ويصدر منها الشّحم ودهن الرأس إلى الآفاق.

٢ ـ سمرقند:

أكثر ما اشتهرت به الكاغد، ويعمل فيها ثياب حمر وديباج وقز. وكان الصفّارون يصنعون القدور العظيمة من النحاس، وغيرهم يعملون الركب والسروج وأحزمة السروج والسيور، وكذلك أصناف القماقم والقناني.

ويحمل من رساتيقها البندق والجوز.

٣ ـ كَرْمِينِيَة:

تصدِّر المناديل.

٤ ـ الدبوسيّة:

تصدِّر الثياب والديباج.

٥ ـ رَبَنْجَن:

تصدِّر اللّبود الحمر والمصليات والطاسات والجلود وحبال القنّب والكبريت وأُزُر النّساء.

٦ ـ دِيْزَل:

تصدِّر اللبود والأقبية والجياد.

إقليم خُوارِزْم

خُوَارِزْم:

خُوارِزْم، ليس اسماً لمدينة؛ بل هو اسم للإقليم، وهو إقليم منقطع عن (خُراسان) وعن ما وراء النهر، ويحيط به المفاوز من كلِّ جانب. يحدّه من الغرب بعض بلاد الترك، ومن الجنوب خُراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً.

وإقليم خوارزم في آخر نهر جيحون، وليس بعده على النّهر عمارة إلى أن يصب جيحون في بحيرة خوارزم.

ويقع إقليم خوارزم على جانبي نهر جيحون، فهو أقرب اتصالًا ببلاد ما وراء النهر، لذلك اعتبرناه هنا إقليماً من أقاليم بلاد ما وراء النهر.

كما أنّ عمليات الفتح الإسلامي في إقليم خوارزم كان متّصلة اتصالًا وثيقاً بعمليات الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، فجعلنا فتح ما وراء النهر وخوارزم في دراسة متّصلة واحدة، حرصاً على الوحدة الموضوعيّة في سير عمليات الفتح.

مدن خوارزم:

١ ـ كاث:

معنى كاث بلُغة أهل خوارزم الحائط في الصحراء من غير أن يحيط به شيء، وهي بلدة كبيرة في خوارزم، تقع شرقيّ جيحون، وجميع نواحي خوارزم تقع غربي جيحون بينها وبين (كُرْكانْج) مدينة خوارزم عشرون فرسخاً.

ومدينة (كاث) لا تزال قائمة، إلّا أنّ كاث القديمة كانت تقوم على بضعة أميال من جنوب شرقي كاث الحديثة. وفي أوائل المئة الرابعة الهجرية (العاشرة الميلادية) خَرّب بعضها طغيان نهر جيحون، فقد كان عرض هذا النهر عندها نحواً من فرسخين، وكانت المدينة تبعد قليلًا عن يمين النهر، تقوم على نهر يقال له (جردور) يشق البلد، وكان السوق وطوله نحو ميلٍ على جانبي هذا النهر. وكان لكاث في القديم قلعة فخرّبها النهر وأتى عليها، وكان الجامع والحبس على ظهر القلعة وكذلك قصر السلطان الملقب بخوارزم شاه، وقد أتى فيضان النهر على هذه المعالم جميعها، فلم يُبْقِ منها رسماً ولا طللا.

وابتنى الناس (كاث) مدينة جديدة إلى الشرق من الأولى، على مسافة من جيحون، تقيها مخاطر طغيانه.

وكانت المدينة كاث القديمة واسعة كبيرة كنيسابور في خُراسان، ولها أنهار كثيرة تشقّ البلد وشوارعها، وكانت وسخة جداً، وأهلها أغنياء وأسواقها عامرة بالخيرات، وبناؤوها حذّاق مهرة، فكانت (كاث) من أفخم المدن مظهراً.

ولكنها في ختام المئة الرابعة الهجرية (العاشرة الميلاديّة) بدأ نجمها بالأفول ومكانتها بالخفوت، ففقدت مركزها كأهم قصبة في خوارزم، وسِرُّ أُفولها ما كان ينتابها بين آن وآخر من طغيان جيحون عليها، فكان يخرِّب منها أحياء مختلفة في كلِّ مرة، حتى أصبحت بلدة ليس لها شأن كبير.

٢ ـ كُرْكانج:

قصبة خوارزم الثانية التي أصبحت بعد خراب (كاث) أولى مدن الأقليم، فكانت (كركانج) التي سماها العرب: (الجُرْجَانِيَّة)، ثم عرفت بـ (أرْكنج).

وفي أخبار الفتح الإسلاميّ، أنّ العرب في سنة ثلاث وتسعين الهجر (٧١٢م) لما غزو خوارزم بقيادة قُتَيْبَة بن مُسْلم، كان يقال لقصبة الإقليم اا

فتحوها: (الفيل)، ثمّ صار اسمها: (المنصورة)، وكانت في شرقي جيحون، فغلب عليها جيحون وخرّبها. وكانت كركانج هذه مدينة صغيرة في مقابلة المنصورة من الجانب الغربي لجيحون، فانتقل أهل المنصورة إليها وابتنوا بها المساكن ونزلوها، فخربت المنصورة جملة حتى لم يبق لها أثر وعظمت كركانج.

وكركانج على غلوة من غرب نهر كبير تجري فيه السفن يأخذ من جيحون ويجري محاذياً له، وقد احتالوا في ردِّ خطر الفيضان بإقامة السّدود من الخشب والحطب. وللبلد أربعة أبواب، وهي كلّ يوم في زيادة.

وبانحطاط كاث أصبحت كركانج أولى مدن إقليم خوارزم، ومن ثمّ قصبته الوحيدة.

وفي سنة ست عشرة وستمائة الهجريّة (١٢١٩م)، زار ياقوت الحموي هذه المدينة فقال فيها: «لا أعلم أني رأيت أعظم منها مدينة ولا أكثر أموالًا وأحسن أحوالًا»، فاستحال ذلك كلّه بتخريب التتر إياها سنة سبع عشرة وستمائة الهجرية (١٢٢٠م) إلى خراب ودمار. ولما سارت عنها جحافل المغول قال ياقوت فيها: «لم يبق في ما بلغني إلّا معالمها، وقتلوا جميع مَن كان فيها»..

ولكن قصبة خوارزم نهضت من كبوتها بعد بضع سنين، فابتنى الناس بلداً قريباً منها، وكان ذلك في سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة الهجرية (١٢٣١م) على ما جاء في تاريخ ابن الأثير المعاصر لتلك الأحداث، فقال: «وعمروا مدينة تقارب مدينة (خوارزم)، عظيمة».

وكان قبل الغزو المغولي لهذه الأرجاء مدينة تُعرف بـ (كركانج الصغرى) على نحو ثلاثة فراسخ من القصبة (كركانج الكبرى)، ويبدو أنّ كركانج الجديدة قد اختير لها موضع كركانج الصغيرة.

وذكر القزويني، أنّ أهل كركانج الجديدة: «أهل الصناعات الدقيقة

كالحداد والنجار وغيرهما، فإنهم يبالغون في التدقيق في صناعاتهم، والسكّاكون يعملون الآلات من العاج والأبنوس، لا يعمل في غير خوارزم إلّا بقرية يقال لها (طَرْق) من أعمال أصفهان، ونساؤها يعملن بالإبرة صناعات مليحة كالخياطة والتطريز والأعمال الدقيقة».

وما كادت المئة الثامنة الهجرية (الرابعة عشر الميلادية) تأذن بالختام، إلّا واجتاح تيمور المدينة الجديدة وتركها قاعاً صفصفاً بعد حصار دام ثلاثة أشهر. إلّا أن تيمورلنك أمر بتجديد بنائها، فكمل البناء سنة تسعين وسبعمائة الهجرية (١٣٨٨).

٣ ـ خِيْوَه:

هي: (خَيْوَاف) القديمة، وأهل خوارزم يسمونها: (خِيْوَة)، وهي التي أخذت في عهد الرؤساء الأزبك بعد زمن تيمورلنك تحجب بالتدريج مدينة (كركانج) وصارت قصبة خوارزم، وشمل اسمها مع الأيام الإقليم كلّه.

وخيوة تقع على فم المفازة، رحبة، على شعبة من النهر (تأخذ من يسار جيحون)، بها جامع عامر، أهلها شافعيّة دون جميع بلاد خوارزم فإنهم حنفيّة، أمر تيمور بتجديد أسوارها.

وهي اليوم أشهر مدن خوارزم.

٤ ـ هَزَارْ أَسْب:

معناها بالفارسيّة: ألف فرس، وهي في سمت (خِيْوَه)، إلّا أنها أقرب منها إلى ضفة جيحون اليسرى، وهي قلعة حصينة ذات شأن، حافظت على اسمها دون ما تغيير منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم. وكانت في المئة الرابعة الهجريّة (العاشرة الميلاديّة) في نحوٍ من (خِيْوه) اتّساعاً، لها أبواب خشب وخندق، قلعتها حصينة ومدينتها جيدة، فيها أسواق كثيرة وبزّازون وأهل ثروة، وكان الماء محيطاً بها كالجزيرة، وليس إليها إلّا طريق واحد على ممر قد صنع، يقبل إليها من نواحي كركانج قاطعاً السهلة الممتدة من ضفاف جيحون.

٥ ـ جِكَرْبَنْد:

مدينة تحفّ بها الأنهار والأشجار، وفيها جامع حسن في وسط سوقها، تقع في جنوب (الطاهريّة) بمرحلة واحدة.

٦ ـ الطَّاهِرِيَّة:

ناحية على جيحون في أعلاه بعد (آمُل)، وهي أول عمل خوارزم.

٧ ـ دَرْغَان:

مدينة على شاطىء جيحون، وهي أوّل حدود خوارزم من ناحية أعلى جيحون دون (آمُل) وعلى طريق (مرو) أيضاً، وهي مدينة على جُرْف عالٍ، وذلك الجُرْف على سنّ جبل بناحية البر، وبينها وبين جيحون مزارع وبساتين لأهلها، وبينها وبين نهر جيحون نحو ميلين، تقارب (الجُرْجَانِيَّة) كبراً، لها جامع حسن ليس بالنّاحية مثله، فيه جواهر رفيعة وتزاويق حسنة.

والمدينة تمتدّ فرسخين على الشط، حولها الكروم، وهي أول مدينة عظيمة في خوارزم تقوم على الطريق الآتي من (مرو).

٨ ـ أَرْنَخُشْمِيثَن:

تقع على مرحلة من (خيوه)، وهي مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة ونعمة وافرة، وليس في قدر (نَصِيْبِيْن) إلّا أنّها أعمر وآهل منها، بينها وبين الجرجانية ثلاثة أيام.

ولا أثر لها اليوم، والظاهر أنّ المغول قد خرّبوها.

٩ ـ زَمَخْشَر:

تقع بين (نُوْزكاث) وهي بليدة قرب الجرجانية وبين الجرجانيّة، وكان في المدينة جسور عند أبوابها ترفع، وعليها حصن وخندق ومحبس وأبواب محدودة، والجامع ظريف، وقد اشتهرت لأنّ الزمخشري صاحب التفسير المعروف قد ولد فيها سنة سبع وستين وأربعمائة الهجريّة (١٠٧٥م)، ومات سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة (١١٤٤م)، وهي على أربعة أميال من (كَرْكَانْج).

حاصلات إقليم خوارزم:

أهم تجارات خوارزم، الطّعام والحبوب والفواكه، وهي بلاد خصبة، ويرتفع منها قطن كثير.

ويصدِّر الإقليم صوف الأغنام، التي ترعى في مناقعه قرب أُرال في قطعان كبيرة من الحاشية.

وكان يحمل منها أصناف كثيرة من الجُبن واللبن.

وفي أسواق الجرجانيّة أشهر أنواع الفِراء وأغلاها التي تجلب إليها من بلاد البُلغَار على الفولجا.

ومما اشتملت عليه: فراء الدّلق والسمّور والثّعالب ونوعين من القندس، وكذلك فراء السنجاب والفَنَك وابن عرس، وتعمل منها الحلل الطويلة والقصيرة.

وتحمل من خوارزم جلود الأرانب والمعزى المدبوغة، وكذلك جلود الحُمر الوحشيّة.

ومن غلّات خوارزم وصناعاتها: الشّمع، ولحاء الشّجر، والحَوَر الأبيض المسمى (التوز)، وهو يتّخذ غلافاً للدروع. وغراء السّمك، وأسنان السّمك، والعَنْبَر، والخلبخ، والعسل، والبندق، والسيّوف، والدّروع، والقِسّي.

وعرفت خوارزم أيضاً بالبُزاة.

ويرتفع منها أيضاً، العنب، والعِنّاب، والسمسم، بكميات كثيرة.

ويُعمل فيها البسط وثياب اللُّحف والديباج المنسوج من القطن والحرير، وتُحمل منها الأُزر والمقانع من القطن والحرير وغيرها من الثياب الملوّنة.

والحدّادون يعملون فيها الأقفال الجيدة.

وتنحت فيها السُّفن من جذوع الأشجار، وتتّخذ للملاحة في الأنهار الصغيرة الكثيرة.

على أنّ أهمّ تجارات خوارزم في المئة الرابعة الهجرية (العاشرة الميلادية) كانت جلب الرّقيق، فقد كانوا يشترون أولاد وبنات الأتراك من بدو تلك البراري، وبعد أن يعلّموهم ويؤدبوهم، يباعون في أسواق النخاسة.

وكان قسم من هؤلاء يعملون في الجيش، وبالتدريج يتولّون أكبر مناصب الدولة القيادية والسياسية والإدارية.

إقليم
الصَغَانِيان وبَذَخْشَان والخُتَّل

نهرُ (بَذَخْشان) الذي يقال له نهر الضرغام، يصب في جَيْحُون فوق معبر آرْهَن، وتحت هذا المعبر يستقبل نهر جيحون رافده الأيمن الكبير (وَخْشاب)، وهو نهر (الوَخش). ونهر الوخش يفصل بلاد (الخُتَّل) وبلاد (الوَخش) اللتين في شرقيه عن ناحيتي (القُبَاذْيَان) و (الصَغَانِيان) اللتين في غربيه.

ونهر وخشاب، هو النهر المعروف اليوم بسَرْخاب، أي النهر الأحمر.

وفي الموضع الذي يتّجه فيه نهر جيحون إلى الغرب، بعد انعطافه حول (بَذَخْشَان) من ثلاثة جوانب، يستقبل في يساره، أي في ضفته الجنوبيّة، نهري (الطايِقان) و (قندز) الآتيين من (طَخَارِسْتَان)، وهذان النهران هما اللّذان سماهما ابن رسته بنهر (ختلاب) ونهر (وتراب)، ويلتقي نهرا القُبَاذْيَان والصغانيان الذي يمر بترمذ بجيحون في صفته الشمالية أي اليمنى، ومخرج هذين النهرين في جبال (البُتَّم)، وتفصل هذه الجبال في الشمال مياه جيحون عن مياه زرفشان التي في الصُّغد.

تلك هي الأنهار التي تروي مناطق الصغانيان وبذخشان والختَّل، وتحدِّد حدودها بصورة عامة.

أما مواقع هذه المناطق ووصفها العام، فيأتي وشيكاً.

المدن:

١ ـ بلاد بَذَخْشان:

تقع في شرقي طخَارِسْتَان، يحدق بها من ثلاثة جوانب المنعطف العظيم في نهر جيحون الأعلى، وهي متاخمة لبلاد الترك، بينها وبين (بَلْخ)

ثلاث عشرة مرحلة، ومثلها بينها وبين (تِرْمِذ)، لها رستاق كبير عامر جداً، وبها كروم وأنهار، وقصبتها باسمها، ومن المحتمل أن يكون موقعها في الموقع الذي تقوم به اليوم مدينة فيض آباد (فيزآباد) قصبة البلاد الحالية.

٢ ـ الخُتَّل:

كان هذا الاسم يطلق دون قيد على جميع بلاد الكفر مما يلي شرق خُراسان وشمالها، وكانت الختَّل تشتمل على بلاد (الوَخْش) في قسمها الشمالي، حيث مخرج نهر (وَخشَاب).

والوخش كلمة عجميّة ومأخذها من العربيّة، وهو أنّ الوخش رُذالة الشيء، لا يُثنَّى ولا يُجمع، يقال: امرأة وخشٌ، ورجل وخش، وقوم وخش.

ووخش: بلدة من نواحي (بلْخ) من (خَتْلان)، وختلان: بلاد مجتمعة وراء النهر قرب سمرقند.

و(وَخْش) أيضاً: كورة متّصلة بخُتَّل حتى تجعلان كورة واحدة، وهي على نهر جيحون.

وكانت قصبة الختّل مدينة (هلبك).

٣ ـ الصَغَانِيَان:

تقع غربي نهر الوَخْش، يحدّها من جنوبها نهر جيحون، وكان القسم الشرقي من هذه الناحية يعرف بـ(القُباذْيان) نسبه إلى مدينة بهذا الاسم.

وقُبَاذْيَان هي أصغر من (تِرْمِذ) بكثير، ونهر قُبَاذْيان الذي تقوم عليه المدينة في غاية الطول.

وفي أعالي نهر القباذيان وغرب قنطرة الحجارة تقع (واشَجِرْد)، وهي نحو (ترمذ) في الكبر.

وعلى يسير من جنوبي (واشَجِرْد) تقع (شُوْمَان)، وهي من أمهات

المدن، عامرة طيبة، من الثغور الإسلامية، وفي أهلها قوّة وامتناع عن السلطان، وهي أصغر من (ترمذ).

ومدينة الصغانيان هي مدينة (سرآسيا) الحديثة على ما يحتمل، تقع في أعالي نهر الصغانيان، أكبر من (ترمذ)، إلّا أنّ (ترمذ) أكثر أهلًا ومالًا، لها قلعة كانت تقوم على جانبي النهر، وجامعها وسط السوق، وهي من معادن أجناس الطيور وموضع الصيد، حولها عدد كبير جداً من القرى.

وكانت مدينة (باسَنْد) الصغيرة تبعد مرحلتين عن مدينة (الصغانيان) تقوم في الجبال المشرفة على النهر، وهي رحبة كثيرة البساتين.

وعلى نهر الصغانيان أسفل من (باسَنْد) في نحو من نصف الطريق بين الصغانيان وترمذ، كانت (دارَزَنْج)، فيها رباط جليل، وعامة أهلها صوّافون يعملون الأكسية، والجامع وسط الأسواق.

وفي جنوب (دارَزَنج) على نهر الصغانيان تقع مدينة (صَرْمِنْجان)، فيها رباط جليل أيضاً.

على أنّ أجلّ مدن الصغانيان، هي مدينة (تِرْمِذِ) التي تقع في شمالي مضيق نهر جيحون وهو آتٍ من (بَلْخ) بالقرب من ملتقى نهر الصغانيان به، وهي مدينة مشهورة من أمهات المدن، تقع على نهر جَيحون من جانبه الشرقي، لها قلعة فيها دار الإمارة، والربض حول المدينة التي كان عليها سور داخلي وعلى الربض سور ثانٍ، ومسجدها الجامع من اللِّبن في أسواق المدينة. وكانت أسواقها بالآجر، ومعظم سككها مفروشة بالآجر.

وكانت ترمذ فرضة التجارات المحمولة من الشمال إلى خراسان.

وللمدينة ثلاثة أبواب حصينة منيعة.

وفي يمين نهر جيحون، على بعد يسير من أسفل (ترمذ)، تقع مدينة (نَوِيْدَة)، وفيها يعبر النهر مَن أراد (سمرقند) من (بلْخ)، وفيها مسجد جامع في وسط البلد، وهي آخر ما على نهر جيحون من مدن الصغانيان.

وعلى مرحلة من شمال غربي (ترمذ) في طريق (كِشّ) و(نَخْشَب) في الصُّغد مدينة (هاشم جِرْد) التي كان لها شأن في المئة الرابعة الهجريّة (العاشرة الميلاديّة).

وعلى مرحلتين من شمالها، كان الطريق يجتاز (باب الحديد) المشهور، وهو مضيق جبليّ فيه مدينة بهذا الاسم، يقال لها بالفارسيّة (دراهنين).

وهذا المضيق يبدو وكأنه قدّته يد الإنسان، وتسمق الجبال على جانبيه إلى علوٍ شاهق، والدَّرب فيه ممهّد عميق جداً.

وفي وسط الدّرب قرية يرتفع الجبل وراءها إلى علوٌ عظيم، ويقال لهذا الدرب: أبواب الحديد.

ولا ترى في كلٍّ هذه الجبال درباً آخر غيره، فهو يحمي (سمرقند) من ناحية الهند.

وتدرّ أبواب الحديد هذه دخلًا لمن يسيطر عليها، لأنّ كلّ التجّار القادمين من الهند يمرّون بهذا الدّرب، ولمن يسيطر عليه أن يتقاضى أجراً من المارّين.

حاصلات إقليم الصغانيان وبَذَخْشان والخُتَّل:

١ ـ بَذَخْشَان:

كانت بذخشان تشتهر منذ القديم بأحجارها الكريمة، لا سيما معدن البلَخش المقاوم للياقوت، وبها معدن اللآزورد، والبلور وحجر البازهر، وحجر الفتيلة (الأسبست) وهو لا تحرقه النار، وضرب من الحجر الفسفوري الذي يُجعل في البيت المظلم فيضيىء.

٢ ـ الخُتَّل:

في غاية الخصب، وفيها الخيول ودواب الحمل، ويكثر فيها القمح والفواكه.

٣ ـ الصغانيان:

أ ـ قباذيان: يرتفع منها الفوّه، وهو عبارة عن جذور النبات المسمى: (فوّه) أو (روبيا)، تستخرج منها مادة للصبغ بالأحمر، إلى الهند تصدّر.

ب ـ واشَجِرْد: يرتفع منها الزعفران ويحمل إلى سائر الآفاق.

جـ ـ شُوْمان: ينبُت في أراضيها الزعفران، ويصدّر إلى الخارج.

إقليم فَرْغَانَة

الموقع:

هو إقليم من أقاليم نهر سَيْحون الذي يخرج من بلد الترك، والذي يعظم من أنهار تجتمع إليه، تأتي من الجبال، ويدخل سيحون وادي فرغانة العظيم من طرفه الشّرقي في حدود (أُوزْكَنْد). ويمتدّ إقليم فرغانة نحواً من مئتي ميل ونيف إلى شمال وجنوب مجراه الأعلى، فإذا ما جرى نهر سيحون شرقاً استقبل روافد عديدة وهو يتخلّل فرغانة. فإذا جاوز (أَخْسِيكَث) القصبة وصل سيحون إلى (خُجَنْدَة)، وعندها يبارح نهائياً إقليم فرغانة.

المدن:

١ ـ فَرْغَانة:

مدينة وكورة واسعة بما وراء النّهر متاخمة لبلاد تُرْكستان، كثيرة الخير واسعة الرستاق، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً. وبفرغانة في الجبال الممتدة بين بلاد الترك، وفيها من الأعناب والجوز والتفّاح وسائر الفواكه والورد والبنفسج وأنواع الرياحين مباح ذلك كلّه لا مالك له ولا مانع يمنع الآخذ منه، وكذلك في جبالها وجبال كثيرة بما وراءَ النهر الفُسْتق المباح ما ليس ببلد غيره.

وقال الإصطخري: فرغانة اسم الإقليم، وهو عريض موضوع على سعة مدنها وقراها، وقصبتها (أَخْسيْكَث)، وليس بما وراء النهر أكثر من قرى فرغانة، وربما بلغ حَدّ القرية مرحلةً لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم وزروعهم.

٢ ـ أَخسِيكَث:

قصبة إقليم فرغانة، تقوم على ضفة نهر سيحون الشمالية، وهي مدينة واسعة، لها قلعة، وفيها الجامع ودار الإمارة والحبس، وللمدينة ربض واسع.

والمدينة الداخلة ميل في مثله، فيها مياه جارية وحياض كثيرة. وفي المدينة وفي ربضها أسواق، وعلى ربضها سور.

وللمدينة الداخلة خمسة أبواب، وكانت البساتين تحفّ بالمدينة بمقدار فرسخين مما يلي أبواب ربضها.

وخرائب هذه المدينة شاخصة حتى اليوم.

٣ ـ أَنْدُكَان:

أصبحت هذه المدينة قصبة الأقليم بعد (أَخْسِيْكَث)، ولا تفاصيل عنها.

٤ ـ قُباء:

مدينة كبيرة من إقليم فرغانة قرب الشّاش، وينبغي أن تكون قريبة من (أَنْدُكَان)، تقارب (أخسيكث) في الكبر، وهي من أنزه المدن، ولها قلعة مكينة فيها الجامع في وسط ميدانها، ولها ربض فيه دار الإمارة والحبس، وكان على الربض سور محيط به، وفيها أسواق كثيرة عامرة.

٥ ـ أُوْش:

تقع شرقي قُباء، وهي مدينة لها قلعة فيها دار الإمارة والحبس، وحول المدينة ربض، وعلى الربض سور، وهي ملاصقة للجبل، ولها ثلاث أبواب، وجامعها في رحبة واسعة وسط الأسواق.

والمدينة كثيرة الأنهار التي تسقي أراضيها، وبالقرب منها جبل عليه مرصد لمراقبة تحركّات الترك.

٦ ـ أُوْزَكَنْد:

آخر مدن فرغانة شرقاً، مساحتها نحو ثلثي (أُوْش)، لها قلعة وبساتين ومياه جارية.

ولها ربض والأسواق فيه، وهي متجر على باب الأتراك، وعلى باب المدينة نهر، يحيط بربضها حائط له أربعة أبواب، وجامعها في الأسواق.

٧ ـ مَرْغِينَان:

مدينة صغيرة في جنوبي نهر سيحون، وجامعها ناء عن السوق.

٨ ـ رِشْتَان:

في غربي مرغينان، كانت كبيرة، ولها جامع حسن.

٩ ـ خُوَاقند:

هي مدينة (خُوقند) التي صارت في الأزمنة الحديثة قصبة فرغانة ونسبت إليها خانيّتها: خانيّة خوقند، وكانت في القديم بلد من بلدان فرغانة، لا أهمية تذكر لها.

١٠ ـ خُجِنْدة:

بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطىء سيحون، بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقاً، وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصُّقْع أنزه منها ولا أحسن فواكه، وفي وسطها نهر جارٍ، والجبل متّصل بها.

وهي أول مدن فرغانة من الغرب إذا جئت من سمرقند، تقوم على ضفة نهر سيحون اليسرى.

والمدينة طولها أكثر من عرضها، ولها قلعة قويّة فيها السجن، وجامعها داخل المدينة.

وعلى فرسخ من جنوبيِّها: (كَنْد)، وهي ربض خجندة، ودار الإمارة في الميدان بالربض.

وأهل خجندة لهم سفن يسافرون بها في سيحون، وكان ربض (كَنْد) الخارج يقال له: (كَنْد بادَام)، أي كند اللّوز، لأنّ بها لوزاً كثيراً، وهو لوز عجيب ينقشر إذا فرك باليد.

١١ ـ وانْكَث:

مدينة تقع على سبع فراسخ من غربي (أخسيكث) وعلى فرسخ من يمين سيحون في شمالي فرغانة، لا تبعد كثيراً عن (إيلاق)، وكان لها جامع وأسواق حسنة.

١٢ ـ خَيْرلَم = خَيْلام:

تقع إلى شمالي (وانكث) في وسط الجبال، وهي مدينة في رستاق (مَيَان رُوذان) أي: ما بين الأنهار، لها جامع حسن في وسط الأسواق.

وميان روذان هذه ناحية في أقصى ما وراء النهر قرب أُوزكَنْد.

١٣ ـ شِكِت:

تقع في شمالي (خيرلَم)، كثيرة الجوز، ولكثرته يباع رخيصاً، وجامعها في السوق، وهي في أقصى إقليم فرغانة.

١٤ ـ قَاسَان:

مدينة تقوم في ناحية مسمّاة باسمها، تقع شمالي (شِكِت)، كانت عامرة آهلة كثيرة الخيرات، واسعة الساحات، متهدِّلة الأشجار، حسنة النواحي والأقطار، في حدود بلاد الترك، خربت بغلبة الترك عليها كما يقول ياقوت.

ولكنها استعادت عمارتها، ولا زالت قائمة.

حاصلات إقليم فرغانة:

يرتفع من إقليم فرغانة الذّهب والفضّة والفيروزج والزئبق والحديد والنحاس والنوشادر والنّفط والقير (الزفت).

واشتهرت فرغانة بحجر الأرحاء والفحم الحجري للوقود.

وكان يرتفع من بساتينها ويحمل إلى الآفاق: الأعناب، والتفاح، والجوز.

ومن الرياحين: الورد والبنفسج.

إقليم الشّاش

الموقع:

يقع إقليم الشّاش غربي إقليم فرغانة، على ضفة نهر سيحون اليمنى، أي الشمالية الشّرقيّة.

والخرائب المعروفة اليوم بـ(طشقند) القديمة هي موضع المدينة التي سمّاها العرب: الشّاش، والفرس: (جاج)، وكان يقال لمدينة الشّاش (بِنْكَث) أو (بِيْكَث)، وهي قصبة إقليم الشاش، وقد كان لكثير من أسماء المدن في بلاد ما وراء النهر تسميتان: إيرانيّة وتورانية.

ومقدار عرض إقليم الشّاش مسيرة يومين في ثلاثة أيام، وليس بخُراسان وبلاد ما وراء النهر إقليم على مقدار إقليم الشّاش من المساحة ولا أكثر منابر منها ولا أوفر قرىً وعمارة.

وإقليم الشّاش عموماً في أرض سهلة، ليس في هذه العمارة المتّصلة جبل ولا أرض مرتفعة، وهي أكبر ثغر في وجه الترك، وأبنيتهم واسعة من طين، وعامة دورهم يجري فيها الماء، وهي كلّها مستترة بالخضرة، من أنزه بلاد ما وراء النهر.

وعلى ذلك فالشّاش إقليم يطلقه العرب على قصبتها: بِنْكَث.

المدن:

١ ـ الشّاش:

هي مدينة(بِنْكَث)، وكان عليها أسوار كثيرة، فقد كان لها مدينة داخلة، لها قلعة تلاصقها، عليهما سور.

وفي خارج المدينة الداخلة، الرّبض الداخل، وعلى هذا الرّبض سور. ويليه أيضاً الربض الخارج، وفيه بساتين وحقول كثيرة، وحوله سور ثالث.

وأخيراً السّور الكبير على غرار ما كان لبخارى، يحمي الناحية كلّها، فيكون حول الشّاش من ناحية الشمال بهيئة نصف دائرة يصل ما بين ضفة نهر الترك في الشّرق وسَيحون في الغرب.

فإذا عدنا إلى المدينة الداخلة والقلعة، وجدنا أنّ في القلعة دار الإمارة والحبس، وللقلعة بابان: أحدهما يفضي إلى المدينة الداخلة، والآخر إلى الرَّبض.

وكان المسجد الجامع على سور القلعة.

والمدينة الداخلة فرسخ في مثله، وفيها بعض الأسواق، ولها ثلاثة أبواب: باب أبي العبّاس، وباب (كِشّ) يُفضي إلى الجنوب، حيث يصل الطريق القادم من سمرقند، وأخيراً باب الجُنَيْد.

وكان لسور الرّبض الداخل عشرة أبواب، وللربض الخارج سبعة أبواب، وكان في الربض الداخل أسواق المدينة.

ويشقّ البلد أنهار وقنوات كثيرة، تسقي البساتين والأشجار التي في داخل الأسوار.

أما السّور الكبير، فإنه في أقرب نقطة منه إلى البلد، كان يبعد فرسخاً واحداً عن باب الرّبض الخارج. وهذا السّور يبدأ في الشرق من جبل على نهر الترك يقال له جبل (سَابْلِغ)، وبُني هذا السّور لحماية المدينة من غارات الترك في الشمال. وكان هناك على بعد فرسخ مما يليه، خندق عميق يمتدّ من الجبل على نهر الترك إلى حافة سيحون في الغرب، وكان الطريق من شمال الشّاش إلى (اسبيجاب) يخترق هذا السور عند باب الحديد.

٢ ـ بَنَاكِت:

ثاني مدن إقليم الشّاش، تقوم على ضفة سيحون اليمنى، حيث كان

طريق خُراسان القادم من سمرقند يعبر النهر إلى الشّاش، والجامع في سوقها.

٣ ـ جِيْنَانْجَكْث:

كان الطريق من (بناكت) إلى الشّاش، يخترق مدينة (جِيْنَانْجَكْث)، وهي على ضفة نهر الترك الجنوبية أي اليسرى، على فرسخين فوق ملتقاه هو وسيحون.

وكانت هذه المدينة كبيرة ليس عليها حصن، بنيانها خشب ولبن.

٤ ـ إِيْلاق:

مدينة من إقليم الشّاش المتّصلة ببلاد الترك، على عشرة فراسخ من مدينة الشّاش، أنزه بلاد الله وأحسنها.

وإيلاق ناحية أيضاً مختلطة بإقليم الشاش لا فرق بينهما، وقصبتها (تُوْنْكَث)، وبإِيلاق معدن الذّهب والفضة في جبالها، ويتّصل ظهر هذا الجبل بحدود فرغانة.

وناحية إيلاق تقع في جنوبي نهر إيلاق وشمالي المنعطف الكبير لنهر سيحون أسفل خُجَنْدَة، وتشمل على ما يقرب من عشرين مدينة، وكانت البلاد من الشّاش إلى إيلاق متّصلة العمارة مختلطة العمل.

٥ ـ تُوْنْكَث:

قصبة ناحية إيلاق، تقع على نهر إيلاق على نحو من ثمانية فراسخ من الشّاش، وهي نحو نصف بِنْكَث قصبة الشّاش، وكان لها قلعة ومدينة داخلة حولها ربض يحيط به سور، وفي القلعة دار الإمارة والحبس والمسجد الجامع، والأخيران عند باب القلعة، وأسواقها داخل المدينة وفي الربض، وفيها ماء جارٍ.

٦ ـ خاشت:

مدينة آهلة، تقع قرب معادن الفضة في جبال إيلاق على حد فرغانة، وتحف بالمدينة قرى عديدة.

٧ ـ أسبيجاب:

ناحية تقع في شمالي الشّاش من يمين سيحون فشرقاً، وقصبته باسمه، والمدينة تقع على نهر (أريس)، وهو رافد من روافد سيحون اليمنى، وكانت نحو الثلث من بِنْكَث، وتشتمل على مدينة وقلعة وربض، وعلى المدينة الداخلة سور، وعلى الربض سور أيضاً يحيط به مقداره فرسخ، وهي في أرض سهلة، بينها وبين أقرب الجبال إليها نحو ثلاثة فراسخ، وفي خارجها مياه وبساتين. وكان للمدينة أربعة أبواب، على كل باب رباط، وفي المدينة وربضها أسواق، وفي المدينة الداخلة دار الإمارة والحبس والجامع.

٨ ـ أسْبَانيكث:

من مدن ناحية أسبيجاب، بينهما مرحلة كبيرة.

٩ ـ جَمْكِنْت:

من مدن ناحية أسبيجاب، كبيرة عليها حصن، والجامع في الحصن، والأسواق بالربض.

١٠ ـ باراب = فاراب:

تقع على ضفة سيحون الشرقيّة، أسفل انصباب نهر جمكنت فيه مباشرة، عند معبر سيحون. والاسم يطلق على الناحية والمدينة، وهي مدينة كبيرة، عليها حصن فيه الجامع، ولها أسواق وأرباض، وأرضها سبخة ذات غياض.

١١ ـ وَسِيج:

بلدة صغيرة محَصنة على فرسَخين من باراب = فاراب، وفي سوقها المسجد الجامع.

وينسب إلى فاراب أبو نصر الفارابي المتوفي سنة ٣٣٩هـ (٩٥٠م)، وهو أشهر فلاسفة المسلمين قبل ابن سينا، على أنّ ابن حوقل قد نسبَ مولد الفارابي إلى (وسيج) لا إلى (فاراب).

١٢ ـ شَاوَغَر:

مدينة تقع على مرحلة من شمال (باراب) على ضفة سيحون اليمنى، وهي كبيرة واسعة الرستاق، عليها حصن، والجامع على طرف السوق، وهي من الجادة بمعزل.

١٣ ـ صَبْرَان:

مدينة تقع على مرحلة يوم من شمال شَاوَغر، وهي ما زالت قائمة حتى اليوم، وكانت ثغراً أمام الغز، ويجتمع بها الغزيّة للصلح والهدنة والتجارات.

١٤ ـ جَنْدٌ:

اسم مدينة عظيمة في بلاد تركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر، قريب من نهر سيحون.

١٥ ـ طُرَارَ بَنْد:

مدينة من وراء سيحون من أقصى بلاد الشَاش مما يلي تركستان، وهي آخر بلاد الإسلام مما يلي ما وراء النهر. وأهل تلك البلاد يسقطون شطر الاسم فيقولون: طُرَار وأَطْرار.

١٦ ـ طَراز:

بلد قريب من اسبيجاب من ثغور الترك وقريب من (طُرَارَبَنْد)، وهي مدينة جليلة، حصينة، كثيرة البساتين، مشتبكة العمارة، لها خندق وأربعة أبواب، ولها ربض عامر، على باب المدينة نهر كبير، والجامع في الأسواق، وهي متجر للمسلمين من الأتراك، وهي مدينة طيبة التربة لطيفة الهواء، وأهلها مشهورون بالجمال.

١٧ ـ كُولان:

تقع بالقرب من (طِراز)، وكانت قرية كبيرة محصّنة، ولها جامع، وتعدّ موضعاً ذا شأن كبير، على حدود بلاد الترك.

حاصلات إقليم الشّاش:

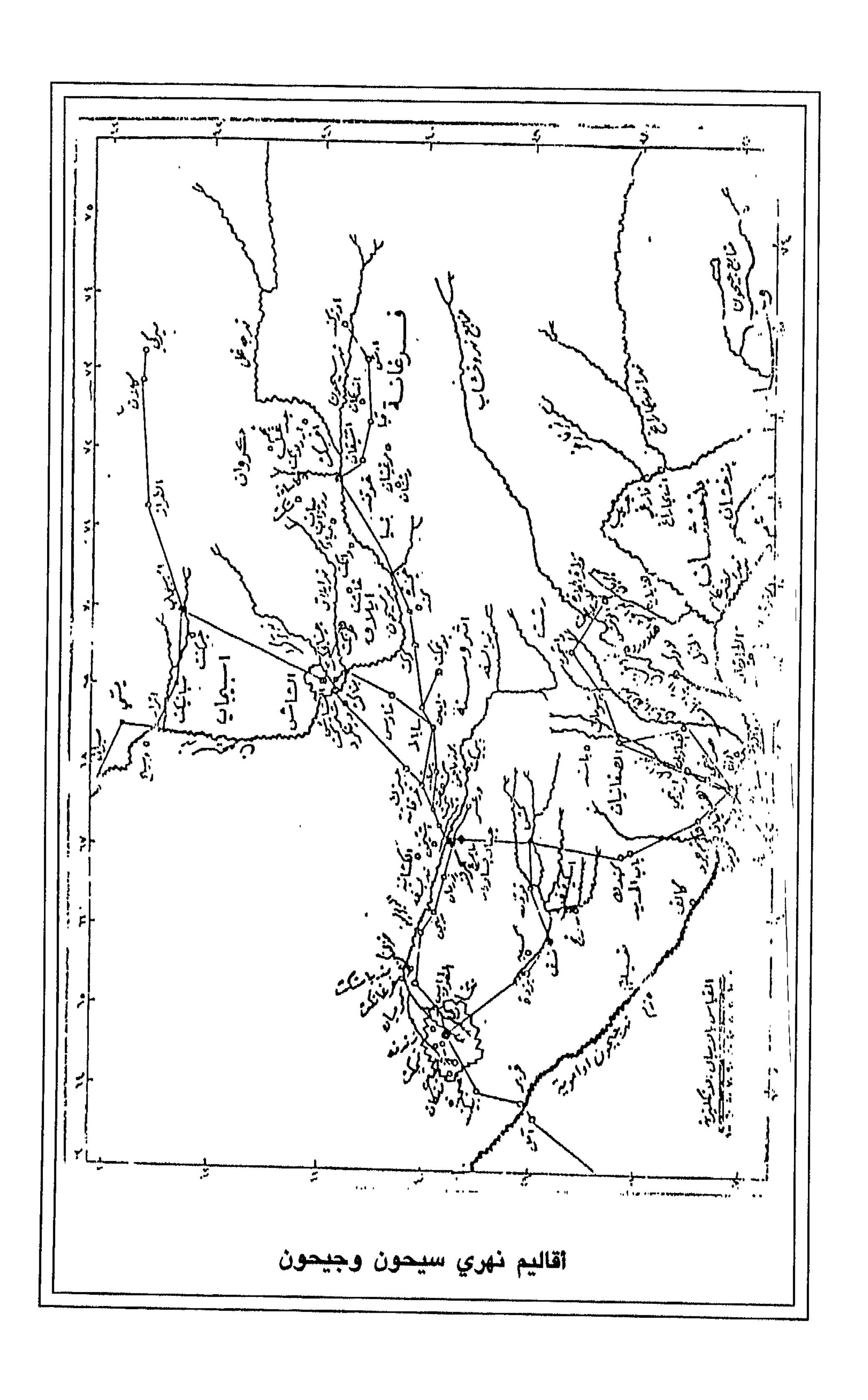
يرتفع من الشّاش ثياب بيض رقيقة، وسيوف وغيرها من السِّلاح، وآلات النُّحاس والحديد كالإبر والمقاريض والقدور.

ويرتفع منها أيضاً جلود الحُمُر الوحشيّة الرفيعة والجّعاب والقسيّ الجيدة، والجلود التي تجلب من الترك وتدبغ محلياً والمصليات والأخبية.

ويرتفع منها الرز والكتّان والقطن.

ويرتفع من (طراز) في بلاد الترك جلود المعز، واشتهرت في كلِّ وقت بالخيل والبغال التركستانية.

ويرتفع منها الذهب والفضة، وبخاصة من إيْلاَق.



أقاليم نهري سيحون وجيحون

أنهار
بلاد ما وراء النّهر

نهر جَيْحون:

كان نهر جيحون القديم، يُعدّ الحدّ الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والأقوام الناطقة بالتركية، أي إيران وتوران، فما كان في شماله من أقاليم سمّاها العرب: ما وراء النهر.. وهو نهر جيحون.. وكذلك سمّوها: الهيطل، وهم الذين يعرفون بالهون البيض.

وأطلق العرب في القرون الوسطى على نهر (أُوكس Oxus) اسم جيحون، وفي أواخر القرون الوسطى في نحو من زمن الغارة المغوليّة، كان يبطل استعمال اسم: جيحون، فعرف: أُمُّويَة أو أَمُّوْدِرْيَا.

ومن الملاحظ أنّ العرب قد سمّوا الأنهار بأسماء المدن الكبيرة التي تقع عليها، فكان جيحون يعرف في الغالب بنهر بَلْخ، وإن قامت هذه المدينة على بضعة أميال من ضفته الجنوبيّة.

ومنابع نهر جيحون من بحيرة من التُبَّت الصغرى وفي الفامر (بامير Pamir)، ولجيحون أربعة روافد ذكرها الاصطخري، فعَمود نهر جيحون الأعلى على نهر (جرياب) وهو اليوم نهر (بِنْج)، وكان يصل إلى بَذَخْشان من الشرق، ويخرج من بلاد وخّان، وكان يقال لنهر جرياب أيضاً نهر وخّان. وكان عمود جيحون هذا ينحدر من الهضاب الشرقيّة ويدور دورة كبيرة حول بَذَخْشَان ويضرب نحو الشمال، ثم يتّجه غرباً فجنوباً قبل أن يبلغ أطراف (خُلْم).

وينصب في يمين مجراه الذي يؤلِّف ثلاثة أرباع الدائرة، كثيرٌ من الروافد الكبيرة، أولها نهر (أنديجاراغ)، وقرب ملتقاه بجيحون مدينة باسمه، والظاهر أنه هو نفسه نهر (برتنك) اليوم.

ثم يلتقي معه نهر (فارغر)، وهو ينحدر من بلاد الخُتَّل، ويطابق نهر (ونج) اليوم.

وفي أسفله يستقبل نهر أخشوا (أخْش)، وهو يقابل عمود نهر جيحون، وعليه مدينة (هُلْبُك) قصبة بلاد الخُتَّل.

ومن منابعه: نهر (بلبان) أو (بربان).

وهذه الأنهار المتحدة تعرف اليوم باسمها التركي: آق صو، أي النهر الأبيض.

هذه هي روافد نهر جيحون العليا الأربعة، على ما جاءت في الاصطخري، وقد قال: إنّ هذه المياه تجتمع كلّها فيه فوق معبر النهر في (آرهن).

وفوق هذا المعبر أيضاً، ولكن في يسار النهر، يصبّ في جيحون نهر بذخشان، ويقال له نهر الضرغام.

وتحت معبر آرهن يستقبل نهر جيحون رافده الأيمن الكبير (وخشاب)، وهو نهر الوخش، وهذا النهر يفصل بلاد الخُتَّل وبلاد الوخش اللتين في شرقه عن ناحيتي القباذيان والصغانيان اللتين في غربه.

ونهر وخشاب، هو النهر المعروف اليوم بسرخاب، أي النهر الأحمر.

وفي الموضع الذي يتّجه فيه نهر جيحون إلى الغرب، بعد انعطافه حول بدخشان من ثلاثة جوانب، يستقبل في يساره، أي في ضفته الجنوبية نهري الطايقان وقندز الآتيين من طخارستان، وهذان النهران هما اللذان سماهما ابن رسته بنهر ختلاب ونهر وتراب، ويلتقي نهرا القباذيان

والصغانيان والأخير ـ وهو يمر بترمذ، قد سماه ابن رسته بنهر زامل ـ بجيحون في ضفته الشمالية، أي اليمنى.

وتفصل جبال (البُتَّم) في الشمال مياه جيحون عن مياه زرفشان التي في الصُّغْد.

وهذه هي آخر روافد النهر العظيم، لأنّ نهر جيحون لا يستقبل غيرها من الأنهار إذا ما جاوز غرب (بَلْخ)، فيجري في المفازة باتجاه غربي وشمالي غربي حتى دلتاه في جنوب بحر آرال.

ويجمد نهر جيحون في الشتاء، وكانت القوافل الموقرة تعبره ماشيةً فوق السّطح المتجمد، وقد يبلغ ثخن الجليد خمسة أشبار أو أكثر. ولقد ذكر القزويني أنّ أهل خُوارزم كانوا يحفرون آباراً بالمعاول حتى يخرقوه إلى الماء، ثم يسقون منها كما يسقون من البئر لشربهم ويحملونه في الجرار.

نهر سَيْحون:

أطلق العرب على نهر (جَكَزَرْتِس Jaxartes) اسم نهر سيحون في القرون الوسطى.

وفي أواخر العصور الوسطى، في نحوٍ من زمن الغارة المغولية، كاد يبطل استعمال اسم سيحون، فعرف بنهر سيردريا.

على أنّ اسم النهر الأكثر شيوعاً عند العرب كان: نهر الشّاش، والشاش القديمة هي مدينة (طَشْقَنْد)، وإنما سمي بهذا الاسم لوقوع المدينة المهمة الشّاش بالقرب من ضفافه.

وذكر ابن حوقل، أنّ نهر سيحون، يخرج من بلد الترك، وهو يعظم من أنهار تجتمع إليه، تأتي من الجبال، ويدخل وادي فرغانة العظيم من طرفه الشرقيّ في حدود (أُوْزَكَنْد). ويمتدّ إقليم فرغانة نحواً من مائتي ميل ونيِّف إلى شمال وجنوب مجراه الأعلى، فإذا ما جرى نهر سيحون شرقاً استقبل روافد عديدة وهو يتخلّل فرغانة وهي: نهر خرشان ونهر أورَسْتِ

وقُبا وكذلك نهر جِدْغِل ولعله هو نهر (نرين) الحالي، وأنهاراً أخرى غيرها. فإذا جاوز أسوار (أَخْسِيْكَث) القصبة وصل سيحون إلى (خُجَنْدَة)، وعندها يغادر نهائياً إقليم فرغانة.

ثمّ ينعطف شمالاً، فيستقبل في يمينه نهرين يقال لهما نهر (إِيْلَاق) ونهر (تُرْك)، ويمرّ بغرب رستاق إيلاق والشّاش. وفي ما يلي ذلك، ينتهي سيحون إلى رساتيق اسبيجاب، ثمّ إذا اجتاز مفاوز الغز والترك، توزّعت مياهه على أنهار عديدة حتى يقع في بحر آرال في القسم الشمالي الشرقي منه.

وقد ذكر البلدانيون العرب، أنّ نهر سيحون صالح لسير السفن كنهر جيحون، وأنّ سيحون يجمد شتاءً، مدة أطول من جيحون، فكانت القوافل تعبره على مائه المتجمد، وكان بَعْدُ نحو ثلثي جيحون.

ويعتبر إقليم فرغانة من أقاليم نهر سيحون.

كما يعتبر إقليم الشّاش من أقاليم هذا النهر العظيم أيضاً.

أما إقليم أُشروسنة، فيمكن اعتباره من أقاليم نهر سيحون، كما يمكن اعتباره من إقليم الصّغد، لأنه يقع شرقي سمرقند بين الرساتيق الممتدة في محاذاة يمين نهر الصُّغد والرساتيق التي في يسار نهر سيحون، دون أن يدخل هذان النهران ضمن إقليم أُشروسنة.

التاريخ القديم
لبلاد ما وراء النّهر
قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه الأولى

١ ـ بلاد ما وراء النهر جزء من تركستان الغربية التي تضمّ في الوقت الحاضر جمهورية أوزبيكستان وجمهورية تاجيكستان الحالية.

وهناك اصطلاح: آسيا الوسطى، وهو عبارة عن تركستان الغربيّة والشّرقية معاً، وهما الوطن الأصلي للأتراك كلّهم، وهذه حقيقة تذكرها كلّ المصادر التاريخيّة والأبحاث الأثرية التي أُجريت في بعض مناطق آسيا الصغرى، فأرجعت تاريخ آسيا الوسطى إلى ما قبل تسعة آلاف سنة خلت، وأثبتت نتائج الأبحاث الأثرية وجود حضارة عظيمة في آسيا الصغرى قبل تسعة آلاف سنة، وأنّ هذه المنطقة من العالم كان يسكنها أُناس بلغوا من المدنية شأواً عظيماً.

وأغلب الحفريات أُجريت في تركستان الغربية، ولكنّ تركستان الغربية والشرقية سواء من ناحية الظروف الطبيعية والتاريخية والسياسية والاقتصادية والبشرية، وتخضع لنفس العوامل وتضمّ بقايا نفس المدنية والحضارة، فما ينطبق على الغربية ينطبق على الشرقيّة أيضاً.

وأوّل مَن سكن هذه المنطقة هم: التُّرك، والآثار القديمة المكتشفة تثبت قيام دولة تركية عريقة من سنة (٥٠٠٠ ق. م إلى سنة ٢٠٠٠ ق. م).

والتُّرك الأول الذين أقاموا هذه الدولة، ورد ذكرهم عند (هيردوت) باسم: (اسكت)، وباسم (توران) في المصادر الفارسيّة، وباسم: (ساكا) في المصادر الهنديّة.

و(توران) صيغة جمع لكلمة (تركِيّ)، والصيغة الإملائية في اللّغة السنسكريتية لمعنى (تركي) هي: (تورشكا).

والمصادر الصينية تطلق على الترك اسم: (هسيونغ ـ نو) أي: الهون الشرقيون، وتاريخ الترك الموثّق يبدأ بالهون الشرقيين.

وكانت هناك امبراطورية للهون في تركستان (٢٢٠ ق م ـ ٢١٦م) اصطدمت بالصينيين مرات وبغيرهم، وكانت تدعى: خاقانية الهون، وكانت الحرب بينها وبين الصين سجالاً.

وتسجِّل المصادر التاريخية لأول مرة استعمال كلمة: (ترك) التي نتلفظها اليوم في عهد دولة: (كول تورك) التي استمرت من (٥٥٢م ـ ٧٤٥م)، وكانت الحروب بينها وبين الصينيين سجالاً أيضاً.

وتسجِّل تلك المصادر أنّ هذه الدولة التركية استعانت بالمسلمين في حرب الصينيين، فأحرزت نصراً بمعاونتهم على حكّام الصين.

٢ ـ وقد سكن بلاد ما رواء النهر الإيرانيون أيضاً، ويبدو أنهم اغتصبوا تلك الأصقاع من الترك، لأنّ الترك سبقوهم في سكناها.

وأقدم المستعمرات التي سكنها الإيرانيون هناك، كانت تلك المنطقة من الأرض التي تمتد من (أَخْسِيْكَث) القديمة عند حدود (فرغانة) الشرقيّة حتى بُخارى. وهذه المنطقة التي تضمّ أغلب بلاد ما رواء النهر الخصبة تتخلّلها أنهار وقنوات طبيعية واصطناعيّة عديدة، وقد عدّد البلخيّ أسماء جبالها وغدرانها وأنهارها ومدنها ونواحيها وقراها، وجميع تلك الأسماء فارسيّة قديمة في أصلها. وحال دون انتشار الحضارة الفارسية من هذه المنطقة إلى ما بعد بخارى غرباً، تلك الكثبان الرمليّة التي تعدّ امتداداً لصحراء (خلطة)، فظهرت (قراقول = البحيرة السوداء) وكذلك (بِيْكَنْد) = (مدينة الأمير) من بَعْدُ كما ينبىء بذلك اسماهما التركيان.

وكان الإيرانيون يستقرّون ما وسعهم الاستقرار وبعد عنهم خطر غارات التورانيين، ويؤدي استقرارهم إلى نشاطهم الحضاري. وأيّاً ما كان من ميل القوم الغريزي إلى ممارسة الحرف والفنون الجميلة أو من تأثرهم بجيرانهم الصينيين أصحاب الإبداع، فالثابت المعروف أن تجارة الحرير وجدت بين أبناء آسيا الوسطى مَن يُقبل على العمل بها في غيرة وجد، ولم يكن هؤلاء من التورانيين على وجه اليقين. ويروى النرشخي في كتابه: تاريخ بخارى، أنّ تجار بِيْكَنْد كانوا هم الوسطاء بين الصين والبحر الغربي (قزوين)، وتقول المصادر البيزنطيّة أنّ أهل بخارى والصُّغد كانوا في القرنين الخامس والسادس الميلاديين يسيرون بقوافل الحرير الغظيمة عبر الإمبراطورية السّاسانيّة إلى شرق بلاد الامبراطورية الرومانيّة. وحين شقّ المسلمون من بعد ذلك طريقهم عبر جيحون، وجدوا هناك نشاطاً صناعياً وزراعياً مهمّاً.

وليس لنا أن ننسى أنّ المدنية الإيرانيّة قد تعرّضت منذ العصور الأولى لغارات التورانيين فيما وراء جيحون، ففي الوقت الذي أقام فيه الإيرانيون مدنهم على ضفاف سيحون وجيحون واستقروا فيها، كان بدو التورانيين في ذيّاك الوقت البعيد يتجوّلون على وجه اليقين، في مناطق الشهوب المجاورة لها.

وليس ثمة دليل نستدلّ به على الوقت الذي بدأتِ فيهِ غارات التورانيين الأولى على المناطق الزراعيّة، ببلادِ ما وراء النهر، بعد أن استقرّ فيها الإيرانيون وعمروها، ولكن هناك مَن يذكر أنّ الترك كانوا قد انطلقوا سنة (٧٠٠ق.م) عبر جيحون، وهو الحد القديم الذي كان يفصل بين إيران وتوران، فبلغوا حدود الهند.

وقد تدفّق الترك عبر جيحون في القرن الثاني قبل الميلاد، ومما يؤيد ذلك وجود كلمة (بَلْخ)، وهي كلمة (بالق) أو (بالخ) التركيّة القديمة، ومعناها: المدينة أو العاصمة، وهو الاسم الذي كان يطلقه الترك على مقر

أميرهم. وفعل المغول مثل ذلك بعد عدّة قرون، فكانوا يعرفون مقرّ خانهم الأعظم باسم: خان بالق، ويقصدون: مدينة الخان.

وكذلك نجد على الشاطىء الآخر لسيحون دليلًا آخر على وجود العناصر التركيّة في زمن مبكِّر هناك، وذلك في تسمية العاصمة: بُخارى، وهذا اللّفظ تركيّ في أصله، ونظيره أيضاً كلمة (بيكند) وهي تركية أيضاً، وكلمة (آمو) اسم نهر (جيحون) وهي تركية أيضاً ومعناها: النهر.

والذي يبدو أنّ السيطرة على بلاد ما وراء النهر كانت سجالًا بين الترك والفرس، وقد حُكمت هذه البلاد من الجانبيين قبل الفتح الإسلاميّ العظيم.

٣ ـ أما عن أحوال سكّان بلاد ما رواء النهر الدينيّة، فإنّ عقائد زرادشت هي ديانة السكّان الإيرانيين، واعتنق هذه العقيدة قسم من الأتراك أيضاً، فقد انتشرت تعاليم زرادشت من بيوت النار في بلاد ما وراء النهر صوب الشرق فبلغت منازل بدو الترك عند (تيان شان)، كما انتشرت كذلك صوب الشمال حتى شواطىء بحر آرال.

وقد تعرّضت الزرادشتية قبل فجر التاريخ إلى ضربة شديدة في بلاد ما وراء النهر بفعل البوذيّة القادمة من الشّرق، فأصبح غالبية التورانيين يعبدون الأوثان.

ويحتمل كلّ الاحتمال، أنّ النضال بين البوذيّة والزرادشتية في بلاد ما رواء النهر، اتّخذ صورته بين عرقين لا بين عقيدتين حسب، وكان أولياء العقيدة الأولى التورانيون الذين تلقّوها في (التُبَّت)، وبِإزائهم طفق الإيرانيون يدافعون في حميّة طبيعيّة عن ديانتهم القوميّة.

ولا نعلم التاريخ الذي أطلق فيه الاسم التوراني: (بخارى) على المدينة الإيرانية القديمة: (جموكت)، ذلك لأنّ (بُخار) لا يزال حتى اليوم علماً مغولياً على المعبد أو الدير البوذي. وعلى ضوء ما كان من انتشار

نفوذ الصين بين أتراك الشمال، فيما بين صحراء (جوبى) حتى بحر (قزوين)، ذلك النفوذ الذي كان يقوم قبل المسيح عليه السّلام وإبان حكم أسرة (هان) في الصين (١٦٣ق. م ـ ١٩٦م)، فإنّ لنا أن نستنتج أنّ العقائد البوذية قد وجدت لها أتباعاً على ضفاف (زَرَفْشَان) أي نهر (الصُّغْد) في القرون المسيحيّة الأولى.

وقد ذكر الرحّالة البوذيون عن ازدهار البوذية في تركستان الشرقية في القرن الخامس الميلادي، ذلك الازدهار الذي لا يُستبعد امتداده حتى مناطق سيحون وجيحون. وقد وجد الفاتحون المسلمون الأولون آثار البوذّية آخر الأمر ببلاد ما وراء النهر عند الفتح الإسلاميّ، وحين فتحوا (بيكند)، كان من بين ما غنمه المسلمون من الأوثان صنم عظيم الحجم من الذهب الخالص استرعى انتباههم، إذ كان له عينان من الجوهر الثمين.

وكان في بلاد ما وراء النهر أقليّة من النساطرة المسيحيين، نزحوا إليها هرباً من بلاد الروم نتيجة لمطاردة الإمبراطورية البيزنطيّة للنساطرة المنشقين على الكنيسة، تلك المطاردة التي قامت بسبب الخلافات المذهبية المريرة، فانطلق أولئك المضطهَدون يلتمسون مجالًا لنشاطهم في الشرق الأقصى، فمهّدت كراهيتهم للبيزنطيين لكسب عطف السّاسانيين عليهم؛ وقد اتّخذت المسيحية مركزاً في سمرقند حيث أنشأت لها أسقفية بابويّة فيما بين سنتي (٤١١م و٤١٥م).

٤ ـ ولعلّ من المفيد أن نذكر شيئاً عن حكام قسم من بلاد ما وراء النهر الذين التقوا بالمسلمين الفاتحين في أيام الفتح، فتردّدت أسماؤهم كثيراً في المصادر التاريخيّة العربية المعتمدة بخاصة والمصادر التي نقلت عنها بعامة.

عندما توفي (بندون) أو (بيدون): بخار خداة، وهو لقب ملوك بخارى، ترك طفلًا رضيعاً اسمه (طغشاد) أو (طغشادة)، فانفردت بشئون الملك زوجة (بندون) التي يدعونها السيّدة المصون (خاتون) التي كانت أم

الطفل (طغشاد)، ويقال: إنّ حكمها استمر خمسين سنة ظهر المسلمون خلالها في بلاد ما رواء النهر.

ويقال: إنه لم يكن في عصر من العصور مَن هو أصوب رأياً منها، فكانت تحكم بصائب الرأي وينقاد لها الناس، وقد ذاع صيت هذه السيدة لحكمتها وإجلال الناس لها.

وكان من عادة (خاتون) أن تخرج كلّ يوم من حصن بخارى على ظهر جوادها وتقف على (باب السّهل = ريكستان)، وقد سمى هذا الباب بباب العلّافين فيما بَعْد، حيث كانت تجلس على تختٍ وأمامها الغلمان والخصيان والأشراف والحشم.

وكانت قد فرضت على أهل الرستاق أن يجيء لخدمتها مائتا شاب من الدهاقين والأمراء، متمنطقين بمناطق ذهبيّة ويحملون السيوف، ويقفون من بعيد. وعند خروج (الخاتون) من الحصن كانوا يحيّونها ويقفون في صفين وهي تنظر في أمور المملكة وتأمر وتنهى وتخلع على مَن تريد وتعاقب مَن تريد، وتظّل هكذا من الصباح إلى الضحى، ثمّ تعود إلى الحصن، وترسل المواد وتطعم جميع الخدم والحشم.

وعندما يأتي المساء، كانت تخرج على هذه الصورة، وتجلس على التخت وقد اصطفّ أمامها الدهاقين والأمراء في صفيْن للتحيّة، وتبقى تقيم العدل بين الناس إلى موعد غروب الشمس، وحينئذ تنهض وتمتطي جوادها وتعود أدراجها إلى قصرها في الحصن، ويذهب حرّاسها إلى مواطنهم في الرستاق.

وفي اليوم التالي، يأتي قوم آخرون للخدمة بنفس الطريقة، وهكذا دواليك حتى تأتي النوبة على أولئك القوم ثانية، وكان يتحتّم على كلٍ منهم أن يجيء في السنة أربعة أيام على هذا المنوال.

ويبدو أنه كان في بخارى تسعون أسرة من الأسر المرموقة، لكي تأتي

النوبة أربع مرات على كلِّ شاب من حرس (خاتون) في السنة الواحدة.

ولما توفيت هذه الخاتون، كان ابنها طغشاد قد كبر واستأهل الملك، بينما كان كثيرون يطمعون في هذا الملك.

وقد كان ثمة وزير أصله من التركستان، يسمى: (وَرْدَان خُداة)، وكانت له إمرة (وَرْدَانَة) وهي قرية من قرى بُخارى، وقد خاض ضده قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِليّ حروباً كثيرة إلى أن مات (وردان خداة) هذا وفتح قتيبة بخارى بعد أن أخرج وردان خداة مراراً من هذه الولاية حتى هرب إلى التركستان ومات هناك، فأعطى قتيبة بخارى لطغشاد ثانية وأجلسه على العرش، وصفا له الملك وكفّ عنه أيدي جميع أعدائه.

وكان طغشاد قد أسلم على يدي قتيبة، فظلّ يحكم بخارى طيلة حياة قتيبة، ثم بقي ملكُ بخارى في يديه بعد عهد قتيبة إلى أن توفاه الله، وملك بخارى اثنتين وثلاثين سنة.

وأنجب طغشاد وهو في الإسلام ولداً أسماه: قتيبة، محبّةً في قتيبة بن مسلم وتقديراً لمزاياه وأفضاله، فخلف قتيبة أباه طغشاد على عرش بخارى، وبقي على الإسلام مدّة، ثم ارتدّ عن الإسلام في أيام الفتن التي شملت خُراسان وبلاد ما وراء النهر، وكان ذلك في أيام سيطرة أبي مُسْلم الخراساني على تلك الأرجاء في أواخر عهد بني أُميّة، فعلم أبو مسلم بالأمر فقتل قتيبة وأهلكَ أخاه وأهله.

وتولى عرش بخارى (بنيات بن طغشاد)، وكان قد ولد في الإسلام وظلّ عليه مدّة من الزمّن، فلما ظهر (المُقَنّع) في رستاق بخارى، انجرف بنيات بتيار الفتنة، فمال إلى المقنّع، وأعان أصحابه، حتى طالت أيديهم وتغلّبوا.

وأخبر صاحبُ البريد الخليفةَ، وكان الخليفة إذ ذاك (المهدي) العباسي، فلما فرغ المهدي من القضاء على فتنة المقنّع، أرسل الفرسان إلى

بنيات، فقتلوه في قصره سنة مئة وستة وستين الهجرية (٧٨٢م) على الردّة.

وظلّت أملاك وضياع تلك العائلة بأيدي أبنائها أولاد (بخار خداة)، وكان آخر مَن خرجت من يديه تلك الأملاك والضياع هو أبو إسحاق إبراهيم بن خالد بن بنيات، وكان إبراهيم يقيم ببخارى والأملاك والضياع بحوزته، يرسل بخراجها إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله جعفر بن المعضد بن الموفّق بن المتوكّل بن المعتصم بن هارون الرشيد (٢٨٢هـ - ٣٢٠هـ) = (٨٩٥م - ٩٣٢م)، وقد توفي إبراهيم سنة إحدى وثلاثمائة الهجرية (٩٢٣م) وبقي أولاده في بخارى وقراها.

تلك هي لمحة عن أسرة من الأسر الحاكمة التي صادفها المسلمون في أيام الفتح، قد تعطي صورة للأسر الحاكمة حينذاك، وللمعاملة التي عوملت بها من الفاتحين.

وهذه اللّمحة، هي المعلومات المتيسرة في المصادر التاريخية، تكررت أسماء بعض منتسبها كالخاتون كثيراً في المصادر التاريخية العربية، دون أن تعطي تلك المصادر تفاصيل حياتها.

وقد ظلّت (خاتون) في الحكم خمسين سنة قضت شطراً منها في ظلّ الحكم الإسلامي دون أن تعتنق الإسلام، فلم يحملها أحد من الفاتحين على الإسلام، ما دامت تفي بشروط الصلح وتلتزم بها، وهذا دليل واقعي على كذب ادعاء الذين يدّعون أنّ الإسلام انتشر بحدِّ السَّيف.

والذين قتلوا من أحفادها قتلوا على الردّة لا على عدم الإسلام.

وكثيراً ما يرد في الفتح هذان المصطلحان: خاقان وطرخان، فمن المفيد أن نعرف معاني هذين المصطلحين، فقد يفيدنا ذلك في تفهّم سير حوادث الفتح.

وخاقان: لقب من ألقاب السيادة التي تطلق على أباطرة المغول والترك العظام، ومعناه: ملك الملوك، تمييزاً له عن: الخان، وهو الحاكم الإقليمي

لبعض الولايات التي كانت تتكوّن منها الإمبراطورية المغولية في آسيا الوسطى (تركستان) في أيام الفتح الإسلامي، وقد استخدم هذا اللّقب السّلاطين المسلمون من المغول والترك، كما استخدمه السّلاطين العثمانيون.

أما طَرْخَان، فكان يطلق في الدولة المغولية اصطلاحاً على الأشراف من الرجال الذين يمنحهم الخاقان امتيازات خاصة تشمل الإعفاء من الضرائب مع الحق في أخذ نصيب من غنائم المعركة، ومنها كذلك الدخول إلى بلاد الخاقان بدون استئذان.

وقد شاع في الدول التركيّة.

وطَرْخون، صيغة أخرى من طرخان، وله امتيازات الإعفاء من الضرائب والامتيازات الأخرى، فهما لفظان لمعنى واحد.

ومعناه كما جاء في المصادر التاريخية العربية القديمة كالطبري: ملك من ملوك ما وراء النهر، يتبع خاقان الترك، وعلى الخصوص هو ملك الصُّغْد، فيقال: طرخون الصُّغد، والطرخون نيزك، أي طرخون الصّغد المسمى نيزك.

وعندما قدم العرب المسلمون فاتحين في بلاد ما وراء النهر، كان عدد من الطراخين يحكمون في (بِيْكَنْد) وسمرقند وغيرهما. ولا تفصح المصادر عما إذا كان هؤلاء الأمراء والرؤساء مستقلين في بلادهم أو كانوا تابعين للخاقان، ولكنها تنصّ بصراحة على استنجاد طرخون بخاقان وبالآخرين من بني جلدته في تركستان وفرغانة، كما فعلت خاتون وطرخون سمرقند حين أطبق على بخارى وسمرقند المسلمون الفاتحون، وكان الخاقان والملوك الآخرون يسارعون إلى النجدة خفافاً، فاشتبكوا بالمسلمين عدّة مرّات، وتكبد الطرفان خسائر فادحة بالأرواح والأموال، وكانت النتيجة انتصار الفاتحين.

ويبدو أنّ ملوك بلاد ما وراء النهر كانوا مستقلين استقلالاً ذاتياً،

ولكنهم كانوا جميعاً يدنيون بالولاء للخاقان، لأنه ملك الملوك (عملياً) إذا كان قوياً، و(نظرياً) إذا كان ضعيفاً.

وملوك بلاد ما وراء، كانوا كملوك الطوائف، لهم استقلالهم الذاتيّ في أوقات السّلام، ولكن الحرب تجمعهم ليصبحوا صفاً واحداً على عدوِّهم المشترك في الدفاع عن مصالحهم المشتركة.

فتح بلاد ما وراء النهر
واستعادة فتحها

القاعدة المتقدّمة:

١ ـ استطاع الأحنف بن قيس التميمي فتح (خُراسان) سنة ثماني عشرة الهجرية (٦٣٩م)، وفي قول آخر سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢م) على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

ولكن (خاقان) ملك الترك، ومعه (يزدجرد) آخر ملوك السّاسانيين، عبر نهر جَيْحون إلى مدينة (بَلْخ) التي كان المسلمون قد فتحوها قريباً، وأعاد هذه المدينة إلى سيطرة يزدجرد.

وقد استنجد يزدجرد بخاقان بعد اكتساح المسلمين بلاده وتقدّمهم من نصر إلى نصر فاتحين، فسار معه خاقان على رأس جيشه، واستعاد مدينة (بَلْخ) من المسلمين، لأنه قاتل حاميتها المحليّة ولم يقاتل جيش المسلمين الأصلي، فانتصر خاقان على الحامية المحلية.

ولا يمكن أن نعزو انتصار خاقان ليزدجرد، لأنه حليفه أو لأسباب عاطفية في دعم ملك الترك لملك الفرس، بل كان لخاقان مصلحة في إبعاد المسلمين الفاتحين عن مدينة (بَلْخ)، لأنّ هذه المدينة هي مفتاح السيطرة على بلاد ما وراء النهر بخاصة منها بلاد خاقان، فليس من مصلحة خاقان أن يفتح المسلمون مدينة بَلْخ، لأنّ الخطوة التالية لفتحها هو عبور المسلمين نهر جيحون وفتح بلاد ما وراء النهر وتهديد بلاد خاقان تهديداً مباشراً بعد ذلك.

ولم يسكت المسلمون على اندحار حامية بَلْخ المحليّة أمام جيش خاقان، فبادروا فوراً بالزحف على بَلْخ بقيادة الأحنف بن قيس التميمي على رأس قواته الضاربة الأصلية، فقاتل المسلمون جيش خاقان وانتصروا عليه بسهولة ويسر، وأجبروه على الانسحاب عن (بَلْخ)، فعاد خاقان إلى بلاده فيما وراء النهر ومعه يزدجرد.

واستعاد الأحنف بن قيس فتح مدينة بَلْخ وسائر خراسان، فكتب إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بالفتح.

وجمع عمر بن الخطّاب الناس حين تسلّم كتاب الأحنف بالفتح، فبشّرهم بهذا الفتح وخطبهم، وأمر بكتاب الفتح فقرئ على الناس، وقال في خطبته: «ألا إنّ الله قد أهلك ملكَ المجوسيّة وفرّق شملهم، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضرّ بمسلم. ألا وإنّ الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءه لينظر كيف تعملون، واللَّهُ بالغ أمره ومنجز وعده ومتبع آخر ذلك أوّله، فقوموا في أمره على رجلٍ يعرف لكم بعهده ويؤتكم وعده، ولا تتبدّلوا ولا تتغيّروا فيستبدل الله بكم غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تُؤتى إلّا من قِبَلِكُم».

٢ ـ ولما قُتل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، نقض أهل خراسان وغدروا، فاستعاد عبد الله بن عامِر بن كُرَيْز القُرَشِيّ العَبْشَمِيْ فتح خراسان ثانية بمعاونة الأحنف بن قيس التميميّ سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م) على عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

وانتقضت بعض مناطق خراسان حين نشب الاقتتال الداخلي بين المسلمين أيام الفتنة الكبرى بعد استشهاد عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وكانت مدينة بلْخ من المدن الخراسانية التي انتقضت حينذاك.

وفي سنة إحدى وخمسين الهجريّة (٦٧١م)، أصبح الربيع بن زياد الحارثي على خراسان لزياد بن أبي سفيان الذين كان على العراقَين لمعاوية بن أبي سفيان، فغزا الربيع مدينة بلْخ وفتحها صلحاً من جديد.

ومدينة بلْخ على الدّوام باب بلاد ما وراء النهر الجنوبي، وكانت باستمرار عرضة لهجمات الترك القادمين من بلاد ما وراء النهر، يعبرون إليها نهر جيحون الذي كان يسمى: نهر بلْخ أيضاً فيغزونها، فلا عجب أن يقرِّر المسلمون فتح بلاد ما وراء النهر للدفاع عن بلخ بخاصة وخراسان بعامة، لأنّ الهجوم أنجح وسائل الدفاع.

وكانت بلخ هي القاعدة المتقدِّمة للمسلمين في فتح بلاد ما وراء النهر.

فتح الحَكَم بن عمرو الغِفاريّ:

١ - في سنة خمس وأربعين الهجرية (٦٦٥م) ولىّ زياد بن أبي سفيان خراسان الحكم بن عمرو الغِفاري على عهد معاوية بن أبي سفيان.

وفي سنة ثمان وأربعين الهجرية (٦٦٨م) أو سنة تسع وأربعين الهجرية فتح الحكم (الصَغَانِيان)، وهو إقليم من أقاليم ما وراء النهر.

قال عبد الله بن المبارك لرجل من الصَغَانِيان: «مَنْ فتح بلادك؟»، فقال الرجل: «لا أدري!!»، فقال ابن المبارك: «فتحها الحكم بن عمرو الغِفَارِيّ».

فتح عُبَيْد الله بن زياد:

في سنة ثلاث وخمسين الهجرية (٦٧٤م)، ولىّ معاوية بن أبي سفيان خُراسان عبيد الله بن زياد.

وفي سنة أربع وخمسين الهجرية (٦٧٣م)، قطع عبيد الله النهر (جيحون) إلى جبال (بُخَارى) على الإِبل في أربعة وعشرين ألفاً، فكان عبيد الله أول مَن قطع إليهم جبال بخارى في جند، ففتح (رامِيْثَن) و(نَسَف) و(بِيْكَنْد).

وأرسلت (خاتون) ملكة بخارى إلى الترك تستمدّهم، فجاءها منهم

عدد كبير، حيث التقى بهم المسلمون وهزموهم بعد قتال شديد، وانتصروا عليهم.

وبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان من المسلمين على أن يعودوا عن بخارى، فصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم.

وعاد المسلمون إلى خُراسان دون أن يفتحوا بخارى.

وخاتون ملكة بخارى، هي زوجة الملك (نبدون) ملك بخارى الذي توفي عنها وخلّف من خاتون ولداً حدثاً يدعى (طغشاد)، فانفردت خاتون بشؤون الملك وصيّة على ابنها الحدث.

وقد دام حكمها خمسين سنة، ظهر المسلمون في أثنائها في ديارها.

وخاتون ليس اسمها، بل صيغة من صيغ التوقير للسيدات من ذوات المقام الرفيع، أصل الكلمة فارسي أو تركي، ولا يزال هذا اللقب يستعمل حتى اليوم بين الأتراك.

ومعنى كلمة خاتون: السيدة الوجيهة، أو ما يقارب هذا المعنى.

وقد ذاع صيت هذه السيدة وإجلال الناس لها، وكانت تغادر مقرّها كلّ يوم بعد شروق الشمس مباشرة، فتقصد باب السَّهل (الريكَستان)، فتجلس فوق عرش ومن حولها رجال البلاد والأعيان، وتقيم العدل بين الناس.

وكان يقوم على حراستها في الحضرة كلّ يوم مئتا شاب يتمنطقون بالذهب، ومعهم سيوفهم الذهبيّة كذلك، وكانوا يستبدلون بغيرهم كلّ يوم، وعلى هذا الوضع كانت تتيح لكلِّ قبيلة تحكمها أن تشارك في أداء واجب حراستها أربع مرات كلّ سنة.

وبهذه السيدة انتهى الحكم الفعلي لأوّل أسرة حاكمة في بخارى، وقد احتفظ ابنها طغشاد باستقلاله لمدة اثنتين وثلاثين سنة لاعتناقه الإِسلام.

واشتبك طغشاد في حروب ضد الترك إلى جانب المسلمين الذي ثبّتوا ابنه من بعده على العرش تكريماً له، وكان قد سمّى ابنه: قُتَيْبَة، تيمناً باسم قتيبة بن مُسْلِم. ولكن قتيبة هذا لم يخلص للإِسلام والمسلمين إخلاص أبيه طغشاد، إذ كان يتظاهر بالإِسلام ويخفي ممارسة طقوس المجوس، فقتل متّهماً بالزندقة.

تلك هي مجمل سيرة خاتون وذويها، وقد نجحت خاتون في صرف عبيد الله بن زياد عن بخارى بالصلح إلى حين، فمهّد عبيد الله للمسلمين الفاتحين فتحها في الوقت المناسب.

فتح سعيد بن عثمان بن عفّان:

١ - ولىّ معاوية بن أبي سفيان سنة ست وخمسين الهجرية (٦٧٥م) خراسان سعيد بن عثمان بن عفّان وعزل عبيد الله بن زياد.

وقدم سعيد خراسان، فقطع النهر إلى (سَمَرَقَنْد)، فكان أول مَن قطع نهر (بَلْخ) من العرب.

وبلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر، فحملت إليه الصلح الذي صالحت عليه عبيد الله بن زياد.

وأقبل أهل (الصُّغْد) و(كِش) و(نَسَف) إلى سعيد في مئة ألف وعشرين ألفاً، فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية، فنكثت العهد. ولكن قسماً من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال، فأثّر انصرافهم في معنويات الآخرين واهتزّت معنوياتهم، فلما رأت خاتون ذلك، أعادت الصلح، فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحاً.

وطلب سعيد من خاتون أن تبعث إليه برهائن ضماناً لتنفيذ ما تصالحا عليه فبعثت إليه بثمانين من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها، وممن تخشى غدرهم بها وتهديدهم لعرشها، فتخلّصت بذلك من أشدّ أعدائها خطراً على عرشها وحاضرها ومستقبلها.

وحين تمّ الصلح بين خاتون وسعيد، زارت خاتون سعيداً في مقرّه، فطلعت عليه في زينتها الملكية، وكانت نادرة الجمال على ما يقال، فادّعى أهل بخارى أن القائد العربيّ أعجب بجمالها أيّما إعجاب، وجرى ذكر إعجاب سعيد بها في الأغاني الشعبية التي لا يزال أهل بخارى يردّدونها ويتغنّون بها حتى اليوم.

ولكن هذا الإعجاب لا ذكر له في المصادر العربية والإسلامية المعتمدة، ومن الواضح أنه أقرب إلى خيال الأدباء والفنانين منه إلى حقائق المؤرخين.

٢ ـ وغزا سعيد سمرقند، فأعانته خاتون بأهل بخارى، فنزل على باب سمرقند، وحلف ألّا يبرح أو يفتحها.

وقاتل المسلمون أهل سمرقند ثلاثة أيام، وكان أشدّ قتالهم في اليوم الثالث حيث فُقئت عين سعيد.

ولزم أهل سمرقند مدينتهم وقد فشت فيهم الجراح، فأتاه رجل دلّه على قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم، فسار إليهم وحصرهم.

وخاف أهل سمرقند أن يفتح سعيد ذلك القصر عَنْوة ويقتل مَنْ فيه، فطلبوا الصلح، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة ومَنْ شاء ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم، ويقال: إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم، ويقال: ثمانين.

وكان معه من الأمراء، المُهَلّب بن أبي صُفْرة الأزديّ وغيره.

واستشهد معه يومئذٍ قُثَم بن العبّاس بن عبد المطّلب، وكان يُشَبَّه بالنبيّ ﷺ، وهو آخر مَن طلع من لحد النبي ﷺ عند دفنه.

وانصرف سعيد إلى (تِرْمِذ)، ففتحها صلحاً.

فتح سَلْم بن زياد:

عزل معاوية بن أبي سفيان عن خُراسان سعيد بن عثمان بن عفّان سنة سبع وخمسين الهجرية (٦٧٦م) وأضيفت إلى ولاية عبيد الله بن زياد في رواية.

وفي رواية أخرى، أنّ معاوية ولىّ عليها عبد الرحمن بن زياد، وكان شريفاً، فلم يصنع شيئاً يذكر في مجال الفتح.

ومات معاوية وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد.

وولّى يزيد بن معاوية خراسان سَلْم بن زياد سنة إحدى وستين الهجرية (٦٨٠م)، فغزا خُوارِزْم، فصالحوه على أربعمائة ألف درهم وحملوها إليه.

وقطع سلْم النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثّقفيّ، وكانت أوّل امرأة عربية عُبر بها النهر، فوجد (خاتون) ملكة بخارى قد نقضت العهد، فأتى سَمَرْقَند فصالحه أهلها، فعاد إلى بخارى.

واستنجدت (خاتون) مرة أخرى بجيرانها في الصُّغْد، كما استنجدت بأتراك الشمال، فجاء (طرخون) على جيش الصُّغد، كما جاء ملك الترك في عسكر لجبٍ كثيف.

ولم تؤثّر تلك الحشود الضخمة من الجيوش المعادية في معنويات المسلمين، فحاصروا بخارى دون الهجوم عليها، ليقفوا أولّا على تفاصيل قوّات أعدائهم ومواضعها، وهي متربّصة بهم في مواضع ليست بعيدة عن بخارى.

وأمر سلْمُ المهلّبَ بن أبي صُفْرة الأَزديّ أن يستطلع أحوال العدو، فاقترح المهلّب أن يكلّف غيره بهذه المهمّة، لأنه معروف المكانة بين المسلمين، وقد يُفشي تغيّبه عن معسكر المسلمين سرّ الواجب الذي كُلِّف به دون مسوِّغ، وهذا الواجب ينبغي أن يبقى سرّاً مكتوماً، وإفشاؤه لا يخلو من خطر جسيم.

ولكنّ سلْم بن زياد، أصرّ على إيفاد المهلّب دون سواه في هذا الواجب الحيوي الذي قد يعجز غيره عن النهوض به كما ينبغي، وأرسل

معه ابن عمه ورجلًا من كلِّ لواء من ألوية المسلمين، فاشترط المهلّب على سلْم ألّا يخبر أحداً بمهمته، ثم مضى إلى سبيله ليلًا، وكمن في موضع مستور، واستطلع جيش العدو دون أن يشعر العدو بمكانهِ المخفّى المستور.

ويبدو أنّ المسلمين افتقدوا المهلّب في صلاة الفجر، فما كان تغيب مثله ليخفى على أحد، فألحّوا على سلْم بالسؤال وألحفوا عليه، فما استطاع أن يكتم أمره، وأخبرهم أنه أرسله ليلة أمس في مهمّة استطلاعيّة!

وفشا الخبر بسرعة خاطفة في العسكر، فأسرع جمعٌ من المسلمين بالركوب وتوجّهوا إلى موضع المهلبّ المستور، فكشفوا موضعه وموضع رجاله للعدو.

وأبصرهم المهلّب مقبلين يتسابقون بدون نظام، فلامهم أشدّ اللّوم على ما أقدموا عليه، لأنهم كشفوا جماعة استطلاعه للعدو، وعرضّوهم لخطر محدق أكيد.

وأصبح موقف المهلّب ومن معه من المسلمين في خطر محدق، فبذل المهلّب قصارى جهده لمعالجة موقفه الخطير.

وأحصى المهلّب المسلمين الذين التحقوا به، فكانوا تسعمائة، فقال: «والله لتندمُنَّ على ما فعلتم!».

وحدث ما توقّعه المهلّب، فما كاد ينظِّم المسلمين صفوفاً، حتى هاجمهم الترك وأبادوا منهم أربعمائة مجاهد، ولاذ الباقون منهم بالفرار.

وأُحيط بالمهلّب ومَنْ بقي معه من مفرزته الاستطلاعيّة ذات العدد المحدود، ولكنه ثبت ثباتاً راسخاً، فالموت بالنسبة لأمثاله أهون من الفرار.

وصاح المهلّب بصوته الجهوريّ القوي مستغيثاً، فسُمع صوته في معسكر المسلمين القريب، الذي كان على بُعد نصف فرسخ من موضعه المواجه للعدو.

وبادر فوراً إلى نجدته فريق من قومه، فشاغلوا الترك ريثما أقبل المسلمون خفافاً على عجل.

ونشب القتال بين الجانبين، فقاتل المسلمون الترك حتى هزموهم هزيمة منكرة، فتركوا ساحة القتال تاركين أموالهم وأثقالهم، فغنمها المسلمون حتى أصاب كلّ فارس ألفين وأربعمائة درهم في رواية، وعشرة آلاف درهم في رواية أخرى.

وطارد المسلمون الترك المنهزمين، فلم يَنْج منهم إلّا الشريد، وكان من بين القتلى (بندون) أو (بيدون) الصُّغدي ملك الصُّغد.

وأعادت خاتون الصّلح مع سلم بن زياد، فاستعاد فتح بخارى.

وبعث سلم وهو بالصُّغد جيشاً إلى (خُجَنْدَة) وفيهم الشاعر أعشى همدان، فهُزم المسلمون، فقال الأعشى:

ليتَ خيلي يوم الخُجَنْدَة لم يُهـ	زَمْ وغُوْدِرْتُ في المَكَرِّ سَلِيْبَا
تَحْضُرُ الطير مَصْرَعِيْ وتَروَّحْـ	ـتُ إلى الله في الدِّماء خَضِيْبَا

وعاد سلم إلى (مرو) بعد جهاد هذه السنة.

ويبدو أنّ سلم قطع النهر ثانية في سنة ثلاث وستين الهجريّة (٦٨٢م)، لأنّه علم بأنّ الصُّغد قد جمعت له، فقاتلها.

ومات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين الهجرية (٦٨٣م)، فأُخْرِج سلْم بن زياد من خُراسان، إذ اختلف المسلمون في خُراسان، فقال قائلهم: «بئس ما ظنّ سلْم، إنْ ظنّ أنه يتأمّر علينا في الجماعة والفتنة!!»، فرحل عن خراسان.

ونشب الخلاف الشديد بين القبائل العربية في خُراسان، فأصبحت سيوفهم عليهم لا على أعدائهم.

فتح أُمَيَّة بن عبد الله:

١ ـ تولى خُراسان بعد سَلْم بن زياد عبدُ الله بن خازِم السلميُّ، فقد تلقى عبدُ الله سلمَ منصرفه من خراسان بنيسابور، فكتب له سلم عهداً على خراسان، وأعانه بمائة ألف درهم.

ولكنْ جمعاً كثيراً من بَكْر بن وائِل وغيرهم رفضوا ولاية ابن خازِم، فأغاروا على ثقله، فقاتلوهم عنه حتى كفّوا.

وأرسل سليمان بن مَرْثد أحد بني سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن عُكَابة من المراثد بن ربيعة، إلى ابن خازم أنّ العهد الذي معك لو استطاع صاحبه أن يقيم بخراسان لم يخرج عنها ويوجِّهك!

ونزل سليمان بمشرعة سليمان، ونزل ابن خازم بمرو، واتفقا أن يكتبا إلى ابن الزبير، فأيّهما أمّره فهو الأمير.

وكتبا إلى عبد الله بن الزبير، فولى عبد الله بن خازم خراسان، فأبى سليمان أن يقبل ذلك.

ونشب القتال بين الجانبين، فقُتل سليمان.

واجتمع فلُّ سليمان إلى عمر بن مَرْثَد بالطالِقان، فسار إلى ابن خازم، فقُتل عمر.

واجتمعت ربيعة إلى أوس بن ثعلبة بَهراة، فسار إليه ابن حازم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأصابت أوْساً جراحات وهو عليل، فمات بعد أيام.

واغتنمت الترك هذه الفرصة، فكانت تغير على المسلمين، حتى بلغت قرب نَيْسَابور!!

وولى ابن خازم ابنه محمداً (هراة)، فهاج بنو تميم وقتلوا محمداً، فقتل ابن خازم أحد رؤساء بني تميم وأحد رجالهم، فأعلن بنو تميم الثورة على ابن خازم وخلعوه.

وبعث عبد الملك بن مروان بولاية خراسان إلى ابن خازم، فلم يقبل ولاية عبد الملك، لأنه تولى من عبد الله بن الزبير.

وقُتِل ابنُ خازم في معركة بينه وبين بُكَيْر بن وشاح الذي ولّاه عبد الملك خراسان بعد رفض ابن خازم لولايته.

وتعصّب قوم لابن خازم، ووقع الاختلاف، وصارت طائفة مع بكير بن وشاح، وطائفة عليه، فكتب وجوه خُراسان وخيارهم إلى عبد الملك يعلمونه أنه لا تصلح خُراسان بعد الفتنة إلّا على رجلٍ من قريش.

٢ ـ وفي سنة أربع وسبعين الهجريّة (٦٩٣م) استجاب عبد الملك بن مروان لنصيحة وجوه خراسان وخيارهم، فولاها أُمَيَّة بن عبد الله بن خالد بن أَسِيْد بن أبي العِيْص بن أُمَيَّة وعزل بُكَيْر بن وشاح عنها، وكانت ولاية بُكيْر سنتين.

وبذل أُميّة قصارى جهده في إصلاح ما فسد في خراسان حتى سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦م)، فلما استتب له الأمر، عزم على غزو بخارى وإتيان موسى بن عبد الله بن خازم المستقل في (الترمذ)، لتوحيد خُراسان كلّها والقضاء نهائياً على الانقسامات الداخلية التي أضعفت المسلمين وأوقفت الفتح وجرّأت البلاد المفتوحة على العصيان.

وولى أميّة ابنه على (مرو)، وتوجّه على رأس جيشه إلى بخارى، ولكن بكير بن وشاح انصرف إلى (مرو) وأخذ ابن أميّة وحبسه، فبلغ ذلك أميّة، فصالح أهل بخارى على فدية قليلة، واتخذ السفن، وقد كان بكير أحرقها، ورجع إلى (مرو)، تاركاً موسى بن عبد اللهبن خازم، الذي قاتله بكير ثم صالحه على أن يوليه أي ناحية شاء.

ووصل أمية إلى (مرو)، وقاتل بكير بن وشاح، وحاصر (مرو) أياماً، ثم صالح بكير بن وشاح يريد خلعه، فقتله أميّة.

٣ ـ وغزا أُميّة في أوائل سنة ثمان وسبعين الهجرية (٦٩٧م) الخُتَّل وقد نقضوا بعد أن صالحهم سعيد بن عثمان بن عفّان، فافتتحها.

فتح المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة الأَزْدِيّ:

في سنة ثمان وسبعين الهجريّة (٦٩٧م) عَزل عبد الملك بن مروان عن خراسان أُميّة بن عبد الله بن خالد وضمها إلى أعمال الحجّاج بن يوسف الثّقفِيّ.

وبعث في هذه السنة الحجّاج على خراسان المهلّب بن أبي صُفرة الأَزْدِيّ بعد أن فرغ من حرب الأزارقة.

وقطع المهلّب سنة ثمانين الهجريّة (٦٩٩م) نهر بَلْخ على رأس جيش تعداده ثمانية آلاف رجل، فحاصر مدينة (كِشّ)، فأتاه ابن عم ملك (الخُتَّل) ودعاه إلى غزوها، فوجّه معه ابنه يزيد بن المهلّب، فحاصر يزيد قلعة ملك الختّل، فصالحوه على فدية حملت إليه، ثم رجع يزيد إلى المهلّب، وكانت الختّل قد انتقضت.

كما فتح خُجَنْدَة، وأدّت إليه الصُّغد الأتاوة، وغزا كِش وصالحها بعد حصار طويل، كما غزا مدينة نَسَف.

لقد غزا المهلّب غزوات كثيرة، واستطاع أن يعيد الأمن والاستقرار إلى كثير من ربوع بلاد ما وراء النهر.

فتح يزيد بن المُهَلّب:

توفي المهلّب بن أبي صُفرة سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م)، فاستخلف ابنه يزيد بن المهلّب، فأقرّ الحجّاج يزيد على خراسان.

وغزا يزيد مغازي كثيرة وفتح (البُتَّم) على يد مُخَلَّد بن يزيد بن المهلّب.

وغزا يزيد خُوارِزْم وأصاب سبياً.

ولولا انشغاله بالفتن الداخلية، لكان له في الفتوح شأن كبير.

فتح المُفَضَّل بن المهلّب.

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) عزل الحجّاج عن خراسان يزيد بن المهلّب وولىّ مكانه أخيه المفضّل بن المهلّب.

وبقى المفضّل في منصبه تسعة أشهر فقط، ففتح (باذَغِيْس) وقد انتقضت، كما فتح (شُومان) و(أخْرون)، وأصاب غنائم قسمها بين الناس.

ولكنّ أبرز أعمال المفضّل وأبقاها، هو قضاؤه على موسى بن عبد الله بن خازمٍ الذي سيطر على بلاد ما وراء النهر لا ينازعه فيها أحد.

وقصة موسى بن عبد الله طويلة لا صلة لها بالفتح، فلما عُزِلَ يزيد بن المهلّب وولي المفضّل، قرر أن يضع حداً لانفصال موسى بن عبد الله بن حازم عن الدولة الذي استمر خمس عشرة سنة، فسيّر عثمان بن مسعود إليه، وكتب إلى مُدْرِك بن المهلّب وهو بِبَلْخ يأمره بالمسير معه، فعبر النهر في خمسة عشر ألفاً، وكتب إلى السَّبَل وإلى طرخون[1] فقدموا عليه، فحصروا موسى وضيّقوا عليه وعلى أصحابه في (ترمذ).

ومكث موسى شهرين في ضيق شديد، وقد خندق عثمان عليه وحذر البيات، فقال موسى لأصحابه: «اخرجوا بنا، حتى متى نصبر! فاجعلوا يومكم معهم، إما ظفرتم وإما قُتِلتم».

وخرج موسى وأصحابه وخلّف على المدينة النّضر بن سليمان بن عبد الله بن خازم، وقال له: «إنْ قُتلتُ فلا تدفعنّ المدينة إلى عثمان، وادفعها إلى مُدْرِك بن المهلّب».

وجعل موسى ثلث أصحابه بإزاءِ عثمان، وأمرهم ألّا يقاتلوه إلّا إذا قاتلهم، وقصد بمن معه لطرخون وأصحابه، فصدقوهم القتال، فانهزم طرخون وأخذوا عسكرهم.

---

(١) السَبَل: ملك الخُتّل، وطرخون ملك الصُغد.

وزحفت الترك والصُّغْد، فحالوا بين موسى وحصن ترمذ.

وقاتلهم موسى، فعقروا فرسه، فسقط على الأرض، فحمله أحد مواليه على فرسه، فلما نظر إليه عثمان حين وثب قال: «وثبة موسى وربِّ الكعبة».

وقصد عثمانُ إلى موسى، وعقرت دابة موسى، فسقط هو ومولاه، فقتلوه.

ونادى منادي عثمان: «من لقيتموه فخذوه أسيراً ولا تقتلوا أحداً»، فقَتَل ذلك اليوم من الأسرى خلقاً كثيراً من العرب خاصة، فكان يقتل العرب ويضرب المولى ويطلق سراحه.

وقتل موسى سنة خمس وثمانين الهجريّة، بعد أن سيطر على بلاد ما وراء النهر خمس عشرة سنة لا ينازعه فيها منازع.

وبذلك مهّد المفضلّ لقتيبة أن يفتح ما شاء في بلاد ما وراء النهر، فكان قتيبة حسنة من حسنات المفضّل بلا مراء.

فتح قُتَيْبَة بن مُسلِم الباهِلِيّ:

عزل الحجّاج بن يوسف الثّقفِيّ عن خُراسان المفضَّل بن المهلّب سنة ست وثمانين الهجريّة (٧٠٥م) في خلافة الوليد بن عبد الملك، وولى مكانه قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِلِيّ، فقدم قتيبة خراسان والمفضَّل يعرض الجند للغزاة.

وعرض قتيبة الجند وحثّهم على الجهاد وسار غازياً، فلما كان بالطالِقَان أتاه دهاقين بَلْخ وساروا معه، فقطع نهر (جَيْحون)، فتلقاه ملك الصَغَانيان بهدايا ومفاتيح من ذهب، ودعاه إلى بلاده وسلّمها إليه، لأنّ ملك (شُوْمان) و(آخرون) كان يسيء جواره.

وسار قتيبة إلى (آخرون) و(شومان) وهما من الصغانيان، فصالحه ملكها على فدية أدّاها إليه، فقبلها قتيبة، ثمّ انصرف عائداً إلى (مرو).

واستخلف قتيبة على الجند أخاه صالح بن مسلم، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة (كاشان) و(أورشت) وهي مدينة من مدن فرغانة، وفتح (أَخْسِيْكَث) وهي مدينة فرغانة القديمة.

وبهذا الفتح الكبير، استهلّ قتيبة ولايته لخراسان سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م).

وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٥م)، غزا قتيبة (بِيْكَنْد) وهي أدنى مدائن بُخارى إلى النهر، فسار من (مرو)، وأتى (مرو الرّوذ)، ثم أتى (آمُل)، ثم مضى إلى (زَمّ)، فقطع النهر وسار إلى (بيكند) التي يقال لها: مدينة التجّار، على رأس المفازة من بخارى.

ولما نزل قتيبة بساحتهم، استنصروا (الصُّغْد) واستمدّوا مَنْ حولهم، فأتوهم في جمع كثير، وأخذوا بالطريق، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولا خبر شهرين.

وأبطأ خبر قتيبة على الحجّاج، فأشفق على الجند، وأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار.

وكان قتيبة يقاتل عدوّه كلّ يوم، وكان له عين من العجم، فأعطاه أهل بخارى مالًا ليردّ عنهم قتيبة، فأتاه وقال له سرّاً من الناس: «الحجّاج قد عُزل، وقد أتى عامل إلى خراسان، فلو رجعت بالناس كان أصلح»، فأمر قتيبة بقتله خوفاً من أن يظهر الخبر فيهلك الناس. ثمّ قال لرجل كان عنده هو ضِرار بن حُصَيْن الضَبّي حين جاءه العين بهذا الخبر: «لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك، وإني أعطي الله عهداً لئن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لأُلحقنّك به فاملكْ لسانك، فإنّ انتشار هذا الحديث يَفُتُّ من أعضاد الناس».

وأمر قتيبة أصحابه بالجدّ في القتال، فقاتلهم قتالًا شديداً. وانهزم أعداؤه يريدون المدينة، وأتبعهم المسلمون فشغلوهم عن دخول المدينة،

فتفرّقوا. وركبهم المسلمون في مطاردة عنيفة، فقتلوا منهم مَن قتلوا، وأسروا منهم مَن أسروا.

واعتصم مَن دخل المدينة ـ وهم قليل، فوضع قتيبة الفَعَلَة لهدم سورها، فسأله المحصورون الصلح، فصالحهم واستعمل عليهم عاملًا.

وارتحل قتيبة عنهم يريد الرجوع، فلما سار خمسة فراسخ، نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومَنْ معه، فرجع إليهم وقد تحصّنوا، فقاتلهم شهراً، ثم وضع الفَعَلة فنقبوا سورها، فسألوه الصلح فلم يقبل، ودخل المدينة عَنْوَةً، وقتل مَن كان فيها من المقاتلة. وكان فيمن أخذوا في المدينة رجل أعور، كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين، فقال لقتيبة: «أنا أفدي نفسي»، فقال سليم الناصح: «ما تبذل؟»، فقال: «خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف»، فقال قتيبة: «ما ترون؟»، فقالوا: «إنّ فداه زيادة في غنائم المسلمين، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا؟!»، فقال: «لا والله! لا تروّع بك مسلمة أبداً»، وأمر به، فقتل.

وأصاب المسلمون في بيكند من آنية الذهب والفضة ما لا يُحصى، وأصابوا شيئاً كثيراً لم يصيبوا مثله حتى بخُراسان.

ورجع قتيبة إلى (مرو)، وقوي المسلمون فاشتروا السِّلاح والخيل، وجُلبت إليهم الدّواب، وتنافسوا في حسن الهيئة والعُدَّة، وغالوا بالسِّلاح حتى بلغ سعر الرمح سبعين درهماً.

وكان في الخزائن سلاح وآلة من آلة الحرب كثيرة، فكتب قتيبة إلى الحجّاج يستأذنه في توزيع السّلاح على الجند، فأذن له، وأخرجوا ما كان في الخزائن من عُدَّة الحرب وآلة السَّفر، فقسّمه في الناس.

٣ ـ استقرّ قتيبة في (مرو) أيام الشتاء للراحة وإنجاز الاستحضارات الإدارية لجيشه وإعداد رجاله للقتال، فلما كانت أيام الربيع من سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٦م)، ندب الناس وقال: «أني أغزيكم قبل أن تحتاجوا

إلى حمل الزّاد، وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى الإدفاء»، فسار من (زَمّ) إلى بخارى، فأتى (نُومشكث) وهي من بخارى، فصالحوه.

وسار قتيبة إلى (رامِيْثَن)، فصالحه أهلها أيضاً، فانصرف عنهم.

وفي طريق عودة قتيبة إلى (مرو)، زحف إليه الترك ومعهم (الصُّغْد) وأهل فرغانة في مائتي ألف بقيادة ملك الترك (كور بغانيون) ابن أخت ملك الصين، فهدّدوا السّاقة التي كانت بقيادة عبد الرحمن بن مسلم الباهلي، وكان بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل واحد. ولما قرب العدو من السّاقة، أرسل قائدها رسولاً إلى قتيبة يخبره بزحف الترك، ولكنّ الترك هاجموه في أثناء ذلك وقاتلوه.

وأتى الرسولُ قتيبةَ، فرجع قُتَيْبة بالناس، وانتهى إلى السّاقة وهي مشتبكة بالقتال، وقد كاد الترك يسحقونها.

وحين رأى الناس قتيبة، طابت أنفسهم، فصبروا وقاتلوا إلى الظهر، وأبلى يومئذ (نيزك) وهو مع قتيبة، فانهزم الترك.

ورجع قتيبة، فقطع النّهر عند (تِرْمِذ)، وأتى (مرو).

٤ ـ أمر الحجّاج سنة تسع وثمانين الهجريّة (٧٠٧م) بغزو بخارى، وملكها يومئذ (وَرْدَان خُداة) الذي اغتصب الملك من طغشاد بن خاتون.

وعبر قتيبة النهر من (زَمّ)، فلقيه الصُّغد وأهل كِشّ ونَسَف في طريق المفازة وقاتلوه، ولكنه انتصر عليهم.

ومضى إلى بخارى، فنزل (خَرَقانة) السفلى، فلقوه بجمع كثيف، فقاتلهم يومين وليلتين، وانتصر عليهم.

وغزا (وردان خُداة) فلم يظفر بشيءٍ، فرجع إلى (مرو).

وكتب قتيبة إلى الحجّاج بخبره، فكتب إليه الحجّاج يأمره بالتوبة مما كان من انصرافه عن (وردان خداة) قبل الظفر به ويعرِّفه الموضع الذي ينبغي أن يأتي بلده منه.

وفي سنة تسعين الهجريّة (٧٠٨م)، خرج قتيبة من (مرو) غازياً، فأرسل (وردان خُدَاة) إلى الصُّغد والترك ومَن حولهم يستنصرهم، فأتوه وقد سبق إليه قتيبة وحصره.

ووردت الإمدادات إلى ملك بخارى، فقالت الأَزْد: اجعلونا وحدنا، وخلّوا بيننا وبين قتالهم فقال قتيبة: «تقدّموا»، فتقدّموا يقاتلونهم قتالاً شديداً، ولكنهم انهزموا حتى دخلوا عسكر قتيبة وجاوزوه، فضرب النساء وجوه الخيل وبكينَ، فكرّوا راجعين.

وأطبقت مجنبتا جيش المسلمين على الترك، فقاتلوهم حتى ردّوهم إلى مواقفهم السّابقة.

ووقف الترك على نشز من الأرض، فقال قتيبة: «مَن يزيلهم عن هذا الموضع؟!»، فلم يُقدم عليهم أحد! فأتى قتيبة بني تَمِيْم وقال لهم: «يوماً كأيامكم...»، فأخذ وَكِيْعُ بن حَسَّان بن قيس التميمي اللّواء وقال: «يا بني تَميم! أتُسلمونني اليوم؟!»، فقالوا: «لا، يا أبا مُطَرِّف»، وكان هُرَيْم بن أبي طُخْمَة المجاشِعيّ على خيل بني تميم، ووكيع رأسهم، فقال وكيع: «يا هريم! قدِّم خيلك...»، ودفع إليه الراية. وتقدّم هريم، وتقدّم وكيع في الرجالة، فانتهى هريم إلى نهر بينهم وبين الترك، فوقف، فقال له وكيع: «اقحم يا هريم»، فضرب هريم فرسه وأقحمه، وعبر بالخيل.

وانتهى وكيع إلى النهر، فشدّ عليه جسراً من خشب، وقال لأصحابه: «مَن وطّن نفسه على الموت، فليعبر، وإلّا فليثبت مكانه»، فما عبر معه إلّا ثمانمائة رجل.

ودنا وكيع من العدو، فقال لهريم: «إني مطاعنهم، فاشغلهم عنّا بالخيل»، فطاعنوهم ولم يزالوا يقاتلونهم حتى أزاحوهم عن مواضعهم.

ونادى قتيبة: «أما ترون العدو منهزمين!؟»، فأتبعهم الناس.

ونادى قتيبة: «مَن جاء برأس فله مئة»، فأُتي برؤوس كثيرة، وجرح يومئذٍ (خاقان) ملك الترك وابنه.

وفتح الله على المسلمين بخارى، فكتب بالفتح إلى الحجّاج.

٥ ـ وقضى قتيبة سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩م) في القضاء على فتنة (نَيْزَك)[1] طَرْخان أحد ملوك الأعاجم الذين نقضوا العهد وخانوا الذمّة.

وفي هذه السنة أيضاً، سار قتيبة إلى (شُوْمَان)، وكان سبب ذلك أنّ ملكها طرد عامل قتيبة من عنده، فأرسل قتيبة رسولين: أحدهما من العرب اسمه عَيَّاش بن عبد الله الغَنَوِيّ، والآخر من أهل خُراسان، يدعوان ملك (شومان) إلى أن يؤدي ما كان عليه، فقدما (شومان)، فخرج أهلها ورموهما، فانصرف الخرساني، وقاتلهم عيّاش، فقتلوه، ووجدوا به ستين جراحة.

وبلغ قتيبة قتله، فسار إليهم بنفسه، فلما أتاه أرسل صالح بن مسلم أخاه إلى ملكها ـ وكان صديقاً له، يأمره بالطّاعة ويضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح، فأبى وقال: «أتخوّفني من قُتَيْبَة، وأنا أمنع الملوك حصناً؟!»، فأتاه قتيبة وقد تحصّن ببلده، فوضع عليه المجانيق، ورمى الحصن، فهشمه.

وخاف الملك أن يظهر عليه قتيبة، فجمع ما في الحصن من مال وجوهر، ورمى به في بئر بالقلعة لا يُدرك قعرها، ثمّ فتح القلعة وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قُتل.

وفتح قتيبة القلعة عَنْوَة، فقتل المقاتلة وسبى الذريّة.

وسار إلى (كِشّ) و(نَسَف)، ففتحهما صلحاً.

وامتنعت عليه (الفَارِيَاب)، فأحرقها، فسميّت المتحرقة.

وسيّر من (نَسَف) و(كِشّ) أخاه عبد الرحمن إلى (الصُّغْد) وملكها لقبه (طرخون) فقبض عبد الرحمٰن من طرخون ما كان صالحه عليه قتيبة، ورجع إلى قتيبة ببخارى، فرجعوا إلى (مرو).

---

(١) صاحب باذِغيس، انظر ابن الأثير (٤/٥٢٧).

٦ ـ وقضى قتيبة سنة اثنتين وتسعين الهجريّة (٧١٠م) في غزو سِجِسْتان، فصالح أهلها واستعمل عليها أحد رجاله.

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م)، صالح قتيبة ملك خُوَارِزْم، وكان سبب ذلك، أنّ الملك كان ضعيفاً، فغلبه أخوه (خُرَّزاد) الذي كان أصغر منه على أمره، وعاث في الرعيّة وسلبهم أموالهم وأهليهم، فكتب ملك خوارم إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه ليسلِّمها إليه، على أن يمكِّنه من أخيه وأصحابه ليحكم فيهم بما يرى.

ولم يُطلع ملك خوارزم أحداً من مرازبته على ذلك، فأجابه قتيبة إلى ما طلب، وتجهّز للغزو.

وأظهر أنه يرد الصُّغد، فأقبل أهل خوارزم على شأنهم، ولم يحتفلوا بغزوه.

وفجأة نزل قتيبة بجيشه قريباً من خوارزم، فجاء أصحاب ملك خوارزم إلى ملكهم ودعوه للقتال، فقال: «ليس لنا به طاقة، ولكن نصالحه على شيءٍ نعطيه كما فعل غيرنا»، فوافقوه.

وسار ملك خوارزم حتى نزل بمدينة (الفِيْل) ـ وكانت مدينة خوارزم وهي أحصن بلاده، فصالح قتيبة على عشرة آلاف رأسٍ وعِيَنٍ ومتاع، وعلى أن يعينه على (خام جرد)، فقبل قتيبة ذلك، وقيل: صالحه على مئة ألف رأس.

وبعث قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى (خام جرد)، وكان يُغازي ملك خوارزم، فقاتله وقتله وغلب على أرضه.

وسلّم قتيبة إلى ملك خوارزم أخاه ومَنْ كان يخالفه من أمرائه، فقتلهم ودفع أموالهم إلى قتيبة.

٧ ـ وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) أيضاً، سار إلى (سمرقند)، فبعد أن قبض صلح خُوارزم، قامَ إليه المجَشَّر بن مُزاحِم

السُّلَمِيّ، وقال له سِرّاً: «إن أردت الصُّغد يوماً من الدّهر، فالآن، فإنّهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام». فقال قتيبة: «أشار بهذا عليك أحد؟؟»، قال: «لا!»، قال: «فأعلمته أحداً؟؟»، قال: «لا!»، فقال قتيبة: «والله لئن تكلّم به أحد، لأضربنّ عنقك».

وأقام قتيبة يومه ذلك، فلما أصبح من الغد، دعا أخاه عبد الرحمن وقال: «سِرْ في الفرسان والرماة، وقدِّم الأثقال إلى (مرو)»، فوجّه الأثقال إلى (مرو)، ومضى عبد الرحمن يتبع الأثقال يريد (مرو) يومه كلّه، فلما أمسى كتب إليه قتيبة: «إذا أصبحتَ، فوجِّه الأثقال إلى (مرو)، وسِرْ بالفرسان والرماة نحو الصُّغد، واكتم الأخبار، فإني بالأثر».

وبلغ قتيبة الصُّغد بعد عبد الرحمن بثلاثة أيام أو أربعة، وقدّم معه أهل خوارزم وبخارى، فحصرهم شهراً، وقاتلهم في حصارهم مراراً من وجه واحد.

وكتب أهل الصُّغد إلى ملك الشّاش وملك فَرْغَانة: «إنّ العرب إن ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به، فانظروا لأنفسكم، ومهما كان عندكم من قوّة فابذلوها».

واستقرّ رأيا ملكي الشّاش وفرغانة على إمداد أهل الصُّغد، فأرسلوا إليهم: «أرسلوا مَن يشغلهم حتى نبيِّت عسكرهم»، وانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة ويبيِّتوه، لأنه مشغول عنهم بحصار سمرقند.

وبلغ قتيبةَ الخبرُ، فانتخب من عسكره أربعمائة مجاهد، وقيل ستمائة مجاهد من أهل النّجدة والشجاعة وأعلمهم الخبر، وأمرهم بالمسير إلى عدوِّهم، فساروا وعليهم أخوه صالح بن مسلم، ونزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم.

وأرسل صالح عيونه، فأخبروه أنّ العدو سيصل إليه ليلًا، ففرّق خيله

ثلاث فرق: جعل كمينين في موضعين، وأقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق.

وطرقهم العدو ليلًا وهم لا يعلمون بمكان صالح، وهم آمنون في أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون العسكر، فلم يعلموا بصالح حتى غشوه، فشدّوا على قوّته، حتى إذا اختلفت الرماح بينهم خرج الكمينان فقاتلوا العدوّ. قال أحدهم: «إنّا لنقاتلهم إذ رأيت تحت اللّيل قتيبة وقد جاء سرّاً، فضربتُ ضربة أعجبتني، فقلت: كيف ترى بأمي وأبي؟! فقال: اسكت! فضّ الله فاك».

واستطاع فرسان صالح أن يتغلّبوا على عدوّهم، فلم يفلت منهم إلّا الشّريد، وأسروا بعض الأسرى، وغنموا خيلهم وسلاحهم.

وعلم الصُّغد باندحار القوّة التي جاءت مدداً لهم، فأثّر ذلك في معنوياتهم أسوأ الأثر.

٨ ـ ونصب قتيبة حول سمرقند المجانيق، فرماها به وثلم ثلمة فسدّوها بغرائر الدُّخُن، وقام عليها رجل، فشتم قتيبة ـ وكان مع قتيبة قوم رماة، فأمر قتيبة رجلًا منهم رمى شاتمه، فلم يخطئ عينه.

وسمع قسم من المسلمين قتيبة وهو يناجي نفسه بقوله: «حتى متى يا سمرقند، يعشعش فيك الشيطان؟! أما والله لئن أصبحتُ لأُحاولنّ من أهلك أقصى غاية».

وأصبح قتيبة، وميّز أهل البأس، فجمعهم يعرضهم بنفسه. ودعا العرفاء، فجعل يدعو برجل رجل، فيقول: «ما عندك؟»، فيقول العريف: «شجاع»، ويقول: «ما هذا؟»، فيقول: «مختصراً»، ويقول: «ما هذا؟»، فيقول: «جبان!»، فأخذ قتيبة خيل الجبناء وجيّد سلاحهم، وأعطاه الشجعان والمختصرين، وترك للجبناء رثّ السّلاح.

وأمر الناس بالجدّ في القتال، فقاتلوهم أشدّ القتال.

وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة قائلًا: «ألحّوا عليهم حتى تعبروا على الثلمة»، فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة.

ورماهم الصُّغد بالنّشاب، فوضعوا أترستهم على وجوههم ولم يبرحوا، فأرسل الصُّغد إلى قتيبة مَن يقول له: «انصرف عنّا اليوم، حتى نصالحك غداً»، فقال قتيبة: «لا نصالحهم إلّا ورجالنا على الثلمة»، وقيل بل قال: «جزع العبيد! انصرفوا على ظفركم»...

وصالحهم قُتَيْبة من الغدِ على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كلِّ عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف فارس، وأن يخلوا المدينة لقتيبة فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيبني فيها مسجداً، ويدخل ويصلي ويخطب ويتغدّى ويخرج.

وتمّ الصلح، وأخلوا المدينة، وبنوا المسجد، فدخل قتيبة سمرقند في أربعة آلاف انتخبهم، فصلّى في المسجد، وخطب، وأكل طعاماً، ثمّ أرسل إلى الصُّغد: «مَن أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذه، فإني لست خارجاً منها، ولست آخذ منكم إلّا ما صالحتكم عليه، غير أنّ الجند يقيمون فيها».

وقيل: إنّه شرط عليهم في الصلح مئة ألف فارس وبيوت النيران وحلية الأصنام، فقبض ذلك، فكانت كالقصر العظيم، فأخذ ما عليها وأمر بإحراقها، فجاءه (غوزك) ملك الصُّغد، فقال: «إنّ شكرك عليّ واجب! لا تتعرّض لهذه الأصنام، فإنّ فيها أصناماً مَن أحرقها هلك!!»، فقال قتيبة: «أنا أحرقها بيدي»، فدعا بالنّار، ثمّ كبّر، وأشعلها، فاحترقت، فوجدوا من بقايا مسامير الذّهب خمسين ألف مثقال!!

وصنع (غوزك) طعاماً، فدعا قتيبة، فأتاه في عددٍ من أصحابه، فلما تغدّى قال للملك: «انتقل عنها»، يعني عن سمرقند، فانتقل (غوزك) عنها.

وأرسل قتيبة إلى الحجّاج بفتح سمرقند، ثم رجع إلى (مرو).

وكان أهل خراسان يقولون: إنّ قتيبة غدر بأهل سمرقند، فملكها غدراً.

٩ ـ وفي سنة أربع وتسعين الهجريّة (٧١٢م)، قطع قتيبة نهر جيحون، وفرض على أهل بخارى وكِشّ ونَسَف وخُوارزم عشرين ألف مقاتل، فساروا معه فوجّههم إلى الشّاش، وتوجّه هو إلى فرغانة.

واصطدم قتيبة بالعدو في (خُجَنْدَة) حيث جمع له أهلها، فلقوه واقتتلوا مراراً، في كلِّ مرة يكون الظفر للمسلمين.

وفتح الجند الذين ساروا إلى الشّاش الإقليم وهذه المدينة وأحرقوها، ثمّ رجعوا إلى قتيبة، فرجع بالنّاس إلى (مرو).

١٠ ـ وبعث الحجاج سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣م) إلى قتيبة جيشاً من العراق، فغزا بهم، فلما كان بالشّاش أتاه موتُ الحجّاج، فغمّه ذلك وقفل راجعاً إلى (مرو).

وتفرّق الناس، فخلّف في بخارى قوماً، ووجّه قوماً إلى كِشّ ونَسَف.

وفي (مرو) أتاه كتاب الوليد بن عبد الملك: وقد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدّك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك، فأَتِمَّ مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغبْ عن أمير المؤمنين كتبُك، حتى كأني أنظر إلى بلائك والثّغر الذي أنت فيه».

١١ ـ وفي سنة ست وتسعين الهجريّة (٧١٤م)، غزا قتيبة (كاشغر) وهي أدنى مدائن الصين، فسار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم في سمرقند، فلما عبر النهر استعمل رجلًا على معبر النهر ليمنع مَن يرجع من جنده إلّا بجواز منه... ومضى إلى فرغانة، وأرسل إلى شِعْب يؤدي إلى (كاشغر) من يسهل الطريق إليها.

وبعث قتيبة مقدِّمته إلى (كاشغر)، فغنموا وسبوا.

وأوغل قتيبة حتى قارب الصِّين، فكتب إليه ملك الصِّين: «ابعث إليّ رجلًا شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم»، فاختار قتيبة اثني عشر رجلًا لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح، وأمر لهم بعُدَّة حسنة ومتاع حسن من

الخز والوشي وغير ذلك وخيول حسنة، وكان منهم هُبَيْرة بن المُشَمْرَج الكِلابيّ مفوّهاً سليط اللِّسان، وقال لهم: «إذا دخلتم على ملك الصِّين، فأعلموه أني قد حلفتُ: أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم».

وسار وفد قتيبة عليهم هُبَيْرَة، فلما قدموا الصِّين، دعاهم ملكهم،فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل، وتطيّبوا ولبسوا النِّعال والأردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه، فجلسوا فلم يكلِّمهم الملك ولا أحد ممن عنده. وقال الملك لمن حضره بعد انصراف الوفد: «كيف رأيتم هؤلاء؟!»، فقالوا: «رأينا قوماً ما هم إلّا نساء! ما بقي منا أحد حين رآهم ووجد رائحتهم إلّا انتشر ما عنده».

وفي غدٍ دعاهم، فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف (ألبسة من خز مربعة لها أعلام) وغدوا عليه، فلما دخلوا قيل لهم: «ارجعوا». وقال الملك لأصحابه: «كيف رأيتم هذه الهيئة؟!»، فقالوا: «هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك».

وفي اليوم الثالث دعاهم، فشدّوا سلاحهم ولبسوا البَيْض (الخَوْذ) والمغافِر (جمع مِغْفَر وهو زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة)، وأخذوا السيوف والرماح والقِسِيّ وركبوا، فنظر إليهم ملك الصِّين، فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما دنوا ركّزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوهم مشمِّرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا: «ارجعوا»، لِمَا دخل في قلوبهم من خوفهم، فانصرفوا راكبين خيولهم، وأخذوا رماحهم، ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون، فقال الملك لأصحابه: «كيف ترونهم؟!»، فقالوا: «ما رأينا مثل هؤلاء!!».

وفي مساء نفس اليوم، بعث ملك الصين إليهم: «ابعثوا إليّ زعيمكم»، فبعثوا إليه هُبَيْرَة، فقالوا له: «قد رأيتم عظم ملكي، وأنه ليس أحد يمنعكم مني، وأنت في يدي بمنزلة البيضة في كفي، وإني سائلكم عن أمرٍ، فإن لم

تصدقوني قتلتكم». فقال: «اسأل»، فقال: «لِمَا صنعتم ما صنعتم في الزيّ في الأول والثاني والثالث؟»، فقال: «أما زيّنا الأول، فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم. وأما يومنا الثاني، فإذا أتينا أمراءنا. أما الثالث، فزيّنا لعدوِّنا». فقال: «ما أحسن ما دبّرتُم دهركم، فانصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلّة أصحابه، وإلّا بعثت عليكم مَن يهلككم ويهلكه»، فقال هبيرة: «كيف يكون قليل الأصحاب مَن أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟! وكيف يكون حريصاً مَن خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟! وأما تخويفك لنا بالقتل، فإنّ لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه!!». قال: «فما الذي يرضي صاحبك؟»، قال: «إنه قد حلف ألّا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوكهم ويُعطى الجزية، قال الملك: «فإنّا نخرجه من يمينه: نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه، ونبعث أبناءنا فيختمهم، ونبعث لهم بجزية نرضاها».

ودعا الملك بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجاز الوفد فأحسن جوائزهم، فقدموا على قتيبة، فقبِل الجزية، وختم الغلمان وردّوهم، ووطئ التراب.

وفي هذه الغزاة، وصل الخبر إلى قتيبة بموت الوليد بن عبد الملك وتولي سليمان بن عبد الملك مكانه، فعاد قتيبة أدراجه، فقتل في فرغانة.

فتح عبد الرحمن بن مُسْلِم الباهِلِي:

١ ـ كان عبد الرحمن من أقوى أعوان أخيه وأخلصهم ومن أبرز قادته الذين عاونوه في تحمّل أعباء واجباته قائداً فاتحاً وإدارياً.

وقد شهد عبد الرحمن تحت لواء أخيه قتيبة غزواته كافة قائداً مرءوساً تحت إمرة قتيبة تارة، وقائداً مستقلّاً تارة أخرى.

ففي سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٦م)، سار قتيبة إلى (رامِيْثن) بالقرب من بخارى فصالحه أهلها.

وانصرف قتيبة إلى (مرو)، وفي طريق عودته زحف إليه الترك ومعهم الصُّغد وأهل فَرْغَانة في مائتي ألف بقيادة ملك الترك (كوربغانيون) ابن أخت ملك الصِّين، فهدّدوا السّاقة التي كانت بقيادة عبد الرحمن، وكانت بين الساقة وقتيبة الذي كان على رأس (القسم الأكبر) من الجيش ميل واحد، فلما قربوا من السّاقة، أرسل عبد الرحمن رسولًا إلى قتيبة يخبره بزحف الترك، ولكنّ الترك هاجموا السّاقة في أثناء ذلك وقاتلوه.

وأتى الرسول قتيبة، فرجع بالناس، وانتهى إلى السّاقة وهي مشتبكة بالقتال، وقد كاد الترك يسحقونها سحقاً، فلما رأى الناس قتيبة طابت أنفسهم فصبروا وقاتلوا إلى الظهر، حتى انهزم الترك.

٢ ـ وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٨م) وسنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩م)، كان لعبد الرحمن نشاط مرموق في القضاء على انتقاض (نِيْزَك) ملك طخارستان، واستعادة السيطرة على هذه البلاد، وقتل (نيزك) في آخر المطاف.

وفي هذه السنة أيضاً، أي سنة إحدى وتسعين الهجريّة، سيّر قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى الصُّغد وملكها طرخون، فقبض عبد الرحمن من طرخون ما كان صالحه عليه قتيبة ورجع إلى (مرو).

٣ ـ وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م)، صالح قتيبة ملك (خُوارِزْم) على أن يعينه على (خام جرد) أحد ملوك منطقة من مناطق خوارزم، وكان يعادي ملك خوارزم ويسبِّب له المشاكل ويغازيه.

وبعث قتيبة عبد الرحمن إلى بلاد الملك (خام جرد) في خوارزم، فقاتل عبد الرحمن (خام جرد) وقتله وغلب على أرضه.

٤ ـ وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) أيضاً، دعا قتيبة أخاه عبد الرحمٰن بعد صلح خوارزم، وقال له: «سِرْ في الفرسان والرماة، وقدِّم الأثقال إلى مرو»، فوجّه عبد الرحمن الأثقال إلى مرو، ومضى يتبع الأثقال

يريد مرو أيضاً، فأمضى اليوم كلّه، فلما أمسى كتب إليه قتيبة: «إذا أصبحت فوجِّه الأثقال إلى مرو، وسِرْ بالفرسان والرماة نحو الصُّغد، واكتم الأخبار، فإني بالأثر».

وبلغ قتيبة (الصُّغد) بعد عبد الرحمن بثلاث ليالٍ أو أربع، وبعد قتال عنيف وحصار طويل، صالحهم قتيبة ودخل (سمرقند).

فتح صالح بن مُسْلِم الباهِلِيّ:

١ ـ كان صالح السّاعد الأيمن لأخيه قتيبة، شهد معه معاركه التي خاضها كافة في الفتوح.

ففي سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م)، انصرف قتيبة إلى (مرو) بعد استعادة طخارستان، فاستخلف على الجند أخاه صالحاً، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة إلى (مرو) مساحات شاسعة من إقليم (فَرْغانة) (كاشان) و(أورشت) و(أَخْسِيْكَث) بما وراء النهر.

٢ ـ وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩م)، سار قتيبة إلى (شُوْمان) لتأديب ملكها الذي طرد عامل المسلمين من شومان، فلما أتاه أرسل أخاه صالحاً إلى ملكها، وكان صالح صديقاً للملك، فأمره بالطّاعة وضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح، ولكن الملك أبى وقال: «تخوِّفني من قتيبة، وأنا أمنع الملوك حصناً؟؟»، فأتاه قتيبة وقد تحصّن ببلده، فوضع عليه المجانيق ورمى الحصن فهشمه.

وخاف الملك أن يظهر عليه قتيبة، فجمع ما في الحصن من مال وجوهر، ورمى به في بئر بالقلعة لا تدرك، ثمّ فتح باب القلعة وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قُتِل.

٣ ـ وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) قصد قتيبة الصُّغد بعد أن صالح خُوارِزْمشاه وقبض صلح خُوارِزْم، فأمدّ أهل الشّاش وفَرْغَانة أهل الصغد، وأرسلوا إليهم: «أرسلوا مَن يشغلهم، حتى نبيِّت عسكرهم»،

وانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة ويبيّتوه، لأنه مشغول عنهم بحصار سَمَرْقَنْد.

وبلغ قتيبة الخبر، فانتخب من عسكره أربعمائة رجل، وقيل: ستمائة رجل من أهل النجدة والشّجاعة، وأعلمهم الخبر، وأمرهم بالمسير إلى عدوِّهم. وسار هؤلاء الرجال المنتخَبون وعليهم أخوه صالح ونزلوا على فرسخين من معسكر أعدائهم على طريق القوم.

وأرسل صالح عيونه، فأخبروه أنّ العدو سيصل إليهم ليلًا.

وفرّق صالح خيلة ثلاث فرق: جعل كمينين في موضعين، وأقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق.

وطرقهم العدو ليلًا وهم لا يعلمون بمكان صالح، وهم آمنون في أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون معسكر قُتَيْبَة، فلم يعلموا بصالح حتى غشوه.

وشدّ العدو على فرسان صالح، حتى إذا اختلفت الرماح بينهم، خرج الكمينان اللّذان جعلهما صالح في موضعين مختلفين حسب الخطّة المرسومة، فاقتتلوا قتالًا شديداً.

واستطاع فرسان صالح أن يتغلّبوا على عدوِّهم، فلم يفلت منهم إلّا الشريد، وأسروا بعض الأسرى، وغنموا خيلهم وسلاحهم.

وعلم الصُّغد باندحار القوّة التي جاءت مدداً لهم، فأثّر ذلك في معنوياتهم تأثيراً سيئاً وفتّ في عضدهم، مما اضطرهم على الصلح.

ودخل المسلمون سمرقند صلحاً، وكان لصالح في فتح هذه المدينة أثر كبير.

عبرة الفتح واستعادة الفتح

كثيراً ما قرأنا في كتب المؤرخين الأجانب وبحوثهم، أنّ أسباب انتصار الفاتحين في الفتح واستعادة الفتح هو: «لعدم وجود جيش منظّم قوي، يستطيع صدّ الفتح الإِسلامي ويحمي البلاد المفتوحة، ولأنّ الحرب السّاسانيّة البيزنطية قد استنزفت قوى الدولتين، وأنّ مصاولة الفاتحين اقتصر على السكّان المحليين بطاقاتهم المحدودة»، كما يردِّد قسم من المستشرقين المغرضين ويردّد أعداء العرب والمسلمين من المؤرخين الأجانب.

ومن المؤسف حقاً، أنّ قسماً من المؤرخين العرب والمسلمين نقلوا نقلًا حرفياً بكل أمانة، مزاعم أولئك الأعداء والمغرضين إلى المدارس والمعاهد العربية والإِسلامية والجامعات، فسمّموا بها أفكار التلاميذ العرب والمسلمين والطلّاب والقرّاء بمزاعم باطلة لا يقرّها المنطق ولا يصدِّقها العقلُ وتناقض وقائع التاريخ.

والهدف من هذه المزاعم، هو التهوين من شأن الفتح الإِسلامي الذي يعتبره المسلمون من أول مفاخرهم، والتهوين من شأن الفاتحين باعتبار أنّ الفتح كان سهلًا يستطيع النهوض به غيرهم، والتهوين من أثر الإِسلام عقيدة بدّلت العقول والنفوس من حال إلى حال.

وبمجرد قراءة فتح بلاد ما وراء النهر وحدها، نجد مثالًا حيّاً عملياً ينطبق على فتوح البلاد الأخرى، يوضِّح ما عاناه المسلمون في الفتح واستعادة الفتح، فقد لاقى المسلمون مقاومة عنيفة جداً، ولم يحقّقوا النصر إلّا بالتضحيات الجسام.

لقد قاومت البلاد المفتوحة بضرواة وعنف شديدين، ولعلّ من أسباب تلك المقاومة: مناعة البلاد الطبيعية والاصطناعية، وتفوّق المقاومين من أهل البلاد على الفاتحين عَدَداً وعُدَداً، والدفاع عن النفس والعقيدة والتقاليد، ودفاع الحكّام عن سلطتهم وسلطانهم.

كما أنّ طول خطوط مواصلات المسلمين، وتغلغلهم بعيداً عن قواعدهم الرئيسة والأماميّة والمتقدِّمة، ساعد أعداءهم على مقاومتهم بشدّة وعنف.

لقد كانت كلّ العوامل العسكرية المتميِّزة إلى جانب أعداء المسلمين، ولكنّ المسلمين كانوا متفوِّقين على أعدائهم بالعقيدة الراسخة، فكانت انتصاراتهم انتصارات عقيدة بلا مراء.

وفي الوقت الذي كان غزو الإِسكندر المقدوني والفُرس والرُّوم والتتار والاستعمار الحديث سحابة صيف، لأنه ليس فتحاً بل استعباداً، بقي الفتح الإِسلامي فتحاً مستداماً في أيام قوّته وأيام ضعفه أيضاً، وسيبقى واضح المعالم بارز الأثر في البلاد المفتوحة ما بقي التاريخ والبَشَر في الأرض، لأنه فتح مبادئ لا فتح سيوف، والمبادئ تبقى والقوّة تزول.

إنّ الفتح الإِسلامي، واستعادة الفتح، لم يكن نزهة للترفيه كما يصوِّره المغرضون والحاقدون والجهلة، وكما يردده المستشرقون والمستغربون، بل كان فتح عقيدة راسخة منشئة بنّاءة ذاد عنها حماة قادرون من قادة الفتح وجنوده وقادة الفكر وجنوده معاً.

تلك هي العبرة الأولى، تفضح ادعاءات أعداء العرب والمسلمين ومَن سار على نهجهم من العرب والمسلمين عمداً أو جهلاً.

والعبرة الثانية، هي أنّ المسلمين لا يُكرهون غيرهم على اعتناق الإِسلام، فقد بقيت (الخاتون) مثلاً على دينها خمسين سنة تحكم في ظلّ الفتح الإِسلامي ومن الواضح أنّ المسلمين كانوا يستطيعون إكراهها على

اعتناق الإسلام، وكانت تستجيب للوعد والوعيد، ولكنهم لم يفعلوا، ولن يفعلوا: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾.

وقد اعتنق ابن الخاتون الإسلام من بعدها، وقاتل مع المسلمين، وسمّى ابنه: قتيبة، ولم يذكر أحدٌ أنه أُجبر على اعتناق الدين الجديد.

وكان بإمكان المسلمين الفاتحين إكراه الأُمم المغلوبة على أمرها لاعتناق الدين الإسلاميّ، ولكنهم لم يفعلوا.

وأكبر دليل على تسامح المسلمين وتطبيقهم مبدأ حريّة العقيدة، هو بقاء كثير من الأديان الغابرة التي كانت قبل الإسلام موجودة حتى اليوم في بلاد المسلمين المفتوحة وبين مجتمع الأغلبيّة من المسلمين الفاتحين.

وإذا صحّ افتراء المغرضين المتهافت، أنّ الإسلام انتشر بالسيف في البلاد المفتوحة، فكيف إذاً انتشر هذا الدين في البلاد غير المفتوحة في الشرق والغرب؟! مع العلم أنّ تعداد المسلمين في البلاد غير المفتوحة، هي أكبر من تعدادهم في البلاد المفتوحة، كما تدل على ذلك أحدث الإحصائيات.

وكيف أصبح التتار مثلًا مسلمين بعد أن اكتسحوا البلاد الإسلامية، وكانوا هم الغالبين، وكان المسلمون هم المغلوبين؟!

وحين انتصر الإسبان في الأندلس على المسلمين، أجبروا المسلمين على التنصّر بالقسر والضغط والشدّة ومحاكم التفتيش، كما يشهد على ذلك كلّ المؤرخين الإسبان والأجانب، ولا نقول كما يشهد المؤرخون العرب والمسلمون!

ولو كان المسلمون يُكرهون أحداً على الإسلام، لما بقي الإسبان النصارى في الأندلس يعيشون مع المسلمين بضعة قرون، ثم استطاعوا استعادة الأندلس من المسلمين بعد أن غيّر المسلمون ما بأنفسهم، فلم يبقوا أهلًا للسيادة كما كان أسلافهم الفاتحون.

إنّ المسلمين يعرضون الإِسلام على غير المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة والقدوة والتشجيع وبناء المساجد، كما فعل قتيبة بن مُسْلِم مع أهل بُخارى مثلًا، وكما فعل غيره من المسلمين.

إنّ المسلمين حملوا الإِسلام إلى الأمم الأخرى بالفتح.

ولكنهم لم يحملوا الناس على الإِسلام بهذا الفتح.

والعبرة الثالثة، أنّ الفتح واستعادة الفتح يقوى ويشتد ويعلو مَدُّه حين تشمل الوحدة المسلمين: يقاتلون تحت قيادة موحّدة واحدة، لتحقيق هدف موحّد واحد، هو إعلاء كلمة الله، ونشر المُثُل العليا بين الناس.

وأنّ البلاد المفتوحة تنتقض وتضطرب ويسودها الفوضى والفتن، حين يختلف المسلمون وتتفرّق صفوفهم، فيقاتلون تحت قيادات شتّى، لتحقيق أهداف شتّى.

إنّ سيوفهم بالوحدة، تكون لهم على أعدائهم.

وسيوفهم بالفُرقة، تكون عليهم لا على أعدائهم.

وقد توقّف الفتح واستعادة الفتح أيام تفرّق المسلمين، وكانت خسائرهم بالأرواح في اقتتالهم الداخليّ، أضعاف خسائرهم بالأرواح في قتال أعدائهم للفتح واستعادة الفتح.

وإحصاء الخسائر في معارك الفتن الداخلية والاضطرابات المحلية، التي سجّلها المؤرخون القُدامى، خير دليل.

تلك هي مجمل عبرة فتح بلاد ما وراء النهر واستعادة فتحها. وهي تنطبق على سائر الفتوح واستعادة الفتوح شرقاً وغرباً.

فما أحرانا أن نستوعب هذه العبرة استيعاباً (عملياً) لا (نظريّاً)، ونأخذ منها الدروس لحاضرنا ومستقبلنا عرباً ومسلمين.

ولا أريد أن أشقَّ على أحد ولا أن أكلِّف أحداً فوق ما يطيق.

إنّ الذي أرجوه من إخوتي المؤرخين العرب والمسلمين، هو أن يعودوا إلى مصادرنا التاريخيّة المعتمدة، قبل أن ينقلوا عن الأجانب، فلا يفهم القضايا العربية الإسلامية كالعربيّ المسلم، فإذا استوثق مما سطّره الأجنبيّ فهماً وحقائق، فلا بأس من نقلِهِ ونشره، وإذا كان الفهم سقيماً والحقائق مشوّشة جرّاء سوء الفهم أو جرّاء إشاعة الكذب والدس، فلا أقلّ من فضحها بالحقائق النّاصعة والفهم السليم، وإلّا فالسكوت عنها وهذا أضعف الإيمان.

إنّ للمغرضين من الأجانب أهدافاً مفضوحة في تشويش التاريخ العربيّ الإسلامي تسوّغ لهم قلب الحقائق رأساً على عقب.

فما هو المسوِّغ لنقل تلك الافتراءات والأكاذيب عن أولئك المغرضين بالنسبة للمؤرخ العربي المسلم؟!

أخشى ألّا يكون المسوِّغ غير الجهل المطبق، أو تلويث عقول الناقلين!!

قادة فتح
بلاد ما وراء النهر

١ ـ الحَكَم بن عمرو الغِفاري.

٢ ـ عُبَيْد الله بن زياد بن أبي سفيان.

٣ ـ سعيد بن عثمان بن عفّان.

٤ ـ سَلْم بن زياد بن أبي سفيان.

٥ ـ أُمَيَّة بن عبد الله بن خالد الأموي.

٦ ـ المُهَلّب بن أبي صُفْرة الأزديّ.

٧ ـ يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة.

٨ ـ المفضّل بن المهلّب بن أبي صفرة.

٩ ـ قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهليّ.

١٠ ـ عبد الرحمن بن مسلم الباهليّ.

١١ ـ صالح بن مسلم الباهليّ.

١٢ ـ سعيد بن عمرو الحرشيّ.

الحَكم بن عَمرو الغِفاريّ
فاتح الصَغانيان[1]

«إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين»
(الحكم بن عمرو الغفاري)

نسبه وأيامه الأولى:

هو الحكم بن عمرو بن مُجَدَّع بن حِذْيَم بن الحارث بن نُعَيْلة بن مُلَيْك بن ضَمْرَة بن بكر بن عبد مَناة بنِ كنانة[2].

والحكم عمرو الغِفارِيّ هو أخو الصحابي الجليل رافع بن عمرو الغِفَارِي[3]، غلب عليهما أنهما من بني غفار بن مليك وليسا عند أهل النسب كذلك، إنما هما من بني نُعَيلة بن مُلَيْك أخي غِفَار[4] وقد ينسبون إلى الأخوة كثيراً[5]، هذا في رأي، وفي رأي آخر أنهما من غفار، فقد ولد ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: غفاراً وهي بطن ضخم منهم الحكم بن عمرو بن مُجَدَّع الغِفَارِيّ[6]. وأرجِّح الرأي الثاني، لأنّ الحكم

---

(١) الصغانيان: ولاية عظيمة بما وراء النهر (نهر جيحون) متصلة الأعمال بترمذ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٦١) والمسالك والممالك للأصطخري (١٦٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٨) وأسد الغابة (٢/ ٣٦). وفي الإصابة (٢/ ٢٩): نعيلة بن مليل، وكذلك في الاستيعاب (١/ ٣٥٦) وجمهرة أنساب العرب (١٨٦).

(٣) رافع بن عمرو الغفاري: صحب النبي ﷺ وروى عنه، وقد سكن البصرة. انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٧/ ٢٩) وأسد الغابة (٢/ ١٥٤) والإصابة (٢/ ١٨٩) والاستيعاب (٢/ ٤٨٢).

(٤) الاستيعاب (١/ ٣٥٦) وأسد الغابة (٢/ ١٥٤) والإصابة (٢/ ٣٠).

(٥) الإصابة (١/ ٣٠).

(٦) جمهرة أنساب العرب (١٨٦).

عرف بالغفاري ونسب إلى غفار في حياته وبعد موته، ولا مسوِّغ لذلك لو لم يكن من غفار حقاً، وإلّا لكان انتسب لقومه الذين هم من ولد أخي غفار، وليس بين الأخوين تمييز في المكانة والشرف.

صحب النبي ﷺ حتى قبض النبي عليه الصَّلاة والسَّلام[1] وروى عنه[2]، ثم تحوّل إلى مدينة البصرة فنزلها، فولّاه زياد بن أبي سفيان (خُراسان) فخرج إليها[3]، وذلك سنة خمس وأربعين الهجرية[4] (٦٦٥م).

وكان استعماله على (خراسان) من غير قصد من زياد لولايته: إنما أرسل زياد يستدعي الحكم بن أبي العاص الثقفي، فخرج الحاجب فرأى الحكم بن عمرو الغفاري، فأدخله على زياد، فقال زياد: «رجل له شرف وله صحبة من رسول الله ﷺ»، فعقد له على (خراسان)، ثم قال له: «ما أردتك، ولكنّ الله عزّ وجلّ أرادك»، ثم جعل معه رجلًا، وأمرهم بطاعته، وكانوا على جباية الخراج[5].

وكان زياد قد استدعى حاجبه فقال له: «ادع لي الحكم» يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي[6] ليوليه (خراسان)، فخرج حاجبه فرأى الحكم بن عمرو الغفاري، فاستدعاه[7] فلم يرد زياد أن يردّه، ورآه أهلًا لهذه الولاية، فولّاه (خُراسان).

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٨) وتاريخ الإسلام (٢/ ٢٢٠) وتهذيب التهذيب (٢/ ٤٣٦) وصفة الصفوة (١/ ٢٧٩).

(٢) جمهرة أنساب العرب (١٨٦).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٨) وتاريخ الإسلام (٢/ ٢٢٠) وتهذيب التهذيب (٢/ ٤٣٦) وصفة الصفوة (١/ ٢٧٩)، وفي الاستيعاب (١/ ٣٥٦)؛ أن زياد بن أبي سفيان قد ولاه البصرة قبل ذلك في أول ولاية زياد العراقين ثم عزله عن البصرة وولاه خراسان... انتهى. ولم يصح ذلك عندنا.

(٤) الطبري (٤/ ١٧٠) وابن الأثير (٣/ ٤٥٢).

(٥) الطبري (٤/ ١٧٠) وابن الأثير (٣/ ٤٥٢)، وانظر ابن خلدون (٣/ ٩) وأسد الغابة (٢/ ٣٦).

(٦) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح فارس (٢٧٠ ـ ٢٧٢).

(٧) الطبري (٤/ ١٧٠) وابن الأثير (٣/ ٤٥٢).

ومن الواضح أنّ الحكم كانت له سجايا إدارية وقيادية متميزة، لذلك أقدم زياد وهو مَن هو دهاءً وحكمةً وحنكةً على توليته (خراسان) القاعدة الأمامية المتقدمة في المشرق للفتح الإِسلامي شرقاً وشمالاً وجنوباً؛ وليس للعاطفة دخل في تولية الحكم، كما يحلو لقسم من المؤرخين القدامى أن يصوِّروا تولية الحكم لخراسان، فقد كان زياد أبعد الناس عن العواطف كما هو معروف عنه، كما كان الحكم وهو الصحابي الجليل لا يرضى أن يحمِّل نفسه ما لا تطيق، ولا أن يتولّى أمراً لا يستطيع النهوض بأعبائه.

وقد يكون الحاجب أخطأ في استدعاء الحكم الغفاري إلى زياد، ولكنّ زياداً لم يخطئ في تولية الحكم الغفاري خراسان، فقد كان أَهلًا للإِدارة والقيادة كما أثبتت الأيام ذلك من بعد.

جهاده:

في سنة سبع وأربعين الهجرية (٦٦٧م)، غزا الحكم (طخارستان)[١]، فغنم غنائم كثيرة[٢]، ثم سار إلى جبال (الغُور)[٣] وغزا أهلها الذين ارتدّوا عن الإِسلام، فأخذهم بالسيف عَنْوَة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة[٤].

وكان المُهَلّب بن أبي صُفْرَة مع الحكم بخُراسان، فغزا معه بعض جبال الترك وغزا معه جبل (الأشل)[٥] من جبال الترك، إلّا أنّ الترك أخذوا عليهم الشعاب والطرق. واحتار الحكم بالأمر، فولى المهلّب الحرب، فلم يزل المهلّب يحتال حتى أسر عظيماً من عظماء الترك، فقال له: «إما أن تخرجنا من هذا الضيق، أو لأقتلنك»، فقال له: «أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق، وسيِّر الأثقال نحوه، فإِنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من

(١) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣١) والمسالك والممالك للأصطخري (١٥٦).

(٢) ابن خلدون (٣/ ٩) وابن الأثير (٣/ ٤٥٢).

(٣) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزنة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣١٣).

(٤) ابن الأثير (٣/ ٤٥٦).

(٥) جبل الأشل: جبل في ثغور خراسان، انظر معجم البلدان (١/ ٢٦٠).

الطرق، فبادِرْهم إلى طريق أخرى، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه»، ففعل ذلك المهلّب، فسلم الناس بما معهم من الغنائم[١].

وقطع الحكم نهر (جيحون) وعبر إلى (ما وراء النهر)[٢] في ولايته ولم يفتح وكان أول من شرب من مائه من المسلمين هو وأحد موالي الحكم، فقد اغترف بترسه من ماء النهر، فشرب وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلى ركعتين، وكان الحكم أول من فعل ذلك[٣]. وقد قال عبد الله بن المبارك لرجل من أهل (الصَغَانِيان): «مَن فتح بلادك؟»، فقال الرجل: «لا أدري!!». فقال ابن المبارك: «فتحها الحكم بن عمرو الغفاري»[٤].

ومن الواضح أنّ غزو (الصَغَانِيان) كان سنة ثمان وأربعين الهجرية (٦٦٨م) أو سنة تسع وأربعين الهجرية (٦٦٩م)، لأنّ الحكم رجع من غزو جبال (الغور) سنة سبع وأربعين الهجرية[٥] (٦٦٧م)، ومات سنة خمسين الهجرية[٦] (٦٧٠م) على أرجح الأقوال، فكانت سنة ثمان وأربعين الهجرية وتسع وأربعين الهجرية هي المدة التي بقيت من حياته للنهوض بفتح (الصغانيان)، لأنه قضى سنة خمسين الهجرية آخر سني حياته في غزو جبل (الأشل) ثانية، فلما عاد من غزوته هذه مات[٧].

---

(١) الطبري (٤/ ١٨٦) وابن الأثير (٣/ ٤٥٦).

(٢) ما وراء النهر: ما وراء نهر (جيحون) بخراسان، فما كان في شرقيه، يقال له: ما وراء النهر، وما كان في غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣٧٠) والمسالك والممالك للأصطخري (١٦١) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٧) وتقويم البلدان (٤٨٣ ـ ٥١٥) وأحسن التقاسيم (٣١٠).

(٣) ابن الأثير (٣/ ٤٥٦).

(٤) البلاذري (٤٠٠).

(٥) ابن الأثير (٣/ ٤٥٦).

(٦) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٩) والبداية والنهاية (٧/ ٤٧) وتاريخ الإسلام (٢/ ٢٢٠) وتهذيب التهذيب (٢/ ٤٣٦) وصفة الصفوة (١/ ٢٧٩) وأسد الغابة (٢/ ٣٦) والاستيعاب (١/ ٣٥٦) والإصابة (٢/ ٣٠).

(٧) ابن الأثير (٣/ ٤٥٦).

الإنسان:

كان الحكم صحابياً جليلًا[1]، صحب النبيّ ﷺ وروى عنه[2]، له عند البخاري رضي الله عنه حديث واحد في النهي عن لحوم الحمر الإنسيّة[3].

وكان رجلًا فاضلًا يخضب بالصفرة[4].

وكان على جانب عظيم من الورع والأمانة وقوة الشخصية، ولم يكن إمّعَة يميل مع الريح حيث مالت. فقد فتح الله عليه وأصاب أموالًا عظيمة، فكتب له زياد بن أبي سفيان: «أما بعد، فإنّ أمير المؤمنين كتب إليّ أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم في الناس ذهباً ولا فضة»، فكتب الحكم إلى زياد؛ «سلام عليك. أما بعد فإنك كتبت إليّ تذكر أمير المؤمنين، وإني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السموات والأرض رتقاً[5] على عبد فاتقّى الله، لجعل الله له منهما مخرجاً، والسلام عليك». ثم قال للناس: «اغدوا على فيئكم فاقسموه»[6].

ولما استلم زياد كتاب الحكم كتب إليه: «والله لئن بقيتُ لك، لأقطعنّ منك طابقاً سُحْتاً»[7]، فقال حين قرأ كتاب زياد: «اللّهم إن كان لي عندك خير، فاقبضني إليك»[8].

---

(1) البداية والنهاية (٧/ ٤٧).

(2) الإصابة (٢/ ٣٠) وأسد الغابة (٢/ ٣٦) والاستيعاب (١/ ٣٥٦).

(3) البداية والنهاية (٧/ ٤٧) وانظر أسماء الصحابة الرواة ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٣٠٦).

(4) تاريخ الإسلام (٢/ ٢٢٠).

(5) رتق: بكسر التاء، انسد والتأم.

(6) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٨ ـ ٢٩) وانظر أسد الغابة (٣/ ٣٦) والاستيعاب (١/ ٣٥٧) والبداية والنهاية (٧/ ٤٧) وتاريخ الإسلام (٢/ ٢٢٠) وصفة الصفوة (١/ ٢٧٩) والطبري (٤/ ١٨٧) وابن الأثير (٣/ ٤٧٠) والبلاذري (٤٠٠).

(7) السحت: ما خبث وقبح من المكاسب.

(8) ابن الأثير (٣/ ٤٧٠) وأسد الغابة (٢/ ٣٥) والاسيتعاب (١/ ٣٥٧) والطبري (٤/ ١٨٧).

واستجاب الله دعاء الحكم، فتوفي بعد انصرافه من غزوة جبل (الأشل)[1] سنة خمسين الهجرية (٦٧٠م) بـ(مَرْو)[2] ودفن هناك.

وقيل: إنه توفي سنة سبع وأربعين الهجرية[3] (٦٦٧م)، وليس بشيء، لأنّ أكثر المؤرخين أجمعوا على أنه توفي سنة خمسين الهجرية، يؤيد ذلك أنه غزا غزوات سنة ثمان وأربعين الهجرية وسنة تسع وأربعين الهجرية وسنة خمسين الهجرية، كما مرّ بنا.

القائد:

كان الحكم قائداً عقيدياً، لا يخضع إلّا للحق وللمصلحة العليا للمسلمين، ولا يطيع مخلوقاً في معصية الخالق.

وكان يتحلّى بشخصية قوية ناقدة، له مبادئ يطبقها ولا يحيد عنها.

وكان شجاعاً مقداماً ومجاهداً صادقاً، له إرادة صلبة، ولم يكن متسرعاً في قراراته، بل كان قائداً مكيثاً، له ماض ناصع مجيد.

وكان يثق برجاله ويثقون به، ويعتمد عليهم ويعتمدون عليه، ويحبهم ويحبونه.

وكان يستشير رجاله في الملمات، ويأخذ بآرائهم السديدة، ويولي ذوي الكفايات القيادية العالية مهام القتال عند الحاجة، حتى ولو كان المعزول عن القيادة بأمره هو نفسه، غير ملتفت إلى ما يجره تخليه عن القيادة لغيره في أحرج الظروف من تهم وتقولات.

ولم أجد غيره من القادة تخلّى عن قيادته بمحض إرادته لغيره، وجعل

---

(١) الطبري (٤/ ١٨٦) وابن الأثير (٣/ ٤٧٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٩) والبداية والنهاية (٧/ ٤٧) وتاريخ الإسلام (٢/ ٢٢٠) وتهذيب التهذيب (٢/ ٤٣٦) وصفة الصفوة (١/ ٢٧٩) وأسد الغابة (٢/ ٣٦) والاستيعاب (١/ ٣٥٦) والإصابة (٢/ ٣٠).

(٣) ابن الأثير (٣/ ٤٥٦).

نفسه بإمرة القائد الذي اختاره عن طيبة خاطر، غير الحكم بن عمرو الغفاري، مما يدلّ على شدّة إخلاصه للمصلحة العامة ومحاسبته نفسه قبل أن يحاسبه الآخرون.

لقد كان قائداً يضع مصالح رجاله والمسلمين فوق مصالح نفسه، بل كان ينسى مصالح نفسه دائماً من أجل مصالح رجاله والمسلمين.

لقد كان قائداً متميزاً من طراز نادر رفيع.

الحكم في التاريخ:

يذكر التاريخ للحكم جهاده الطويل الشاق لتكون كلمة الله هي العليا، حتى توفاه الله، فسقط السيف من يده وهو يجاهد لإعلاء كلمة الله.

ويذكر له أنه أول من عبر إلى ما وراء النهر من المسلمين، فكان الرائد الأول لفتح تلك المناطق الشاسعة.

ويذكر له أنه أول من عزل نفسه مختاراً عن القيادة، وولى غيره، وخضع للقائد الجديد طائعاً مختاراً.

ويذكر له أنه نشر لغة القرآن ومبادئه في كثير من ربوع خراسان والسند وما وراء النهر.

ويذكر له أنه حرص على أموال المسلمين وحقوقهم، فرفض بإباء وشمم أن توضع أموالهم في غير مواضعها وتهدر حقوقهم، دون أن يخشى ما يجرّه عليه ذلك من متاعب وأضرار، ويثيره عليه من مشاكل وصعاب.

رضي الله عن الصحابي الجليل، القوي الأمين، الإداري الحازم، القائد الفاتح، الحَكَمُ بن عمرو الغِفَارِيّ.

عُبَيْدُ الله بن زياد بن أبي سفيان الأمويّ
فاتح راميثين[1] ونَسَف[2] وبِيكَند[3]

أهله وأيامه الأولى:

هو عُبَيْدُ الله بن زياد بن أبي سفيان بن حَرْب بن أُمَيَّة الأُمَوِيّ القرشِيّ. أم زياد: سُمَيَّة[4]، وكانت جارية للحارث بن كَلَدَة الثقفيّ طبيب العرب المشهور.

ولما ولي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة، استعمل زياداً على (فارس)، فقام بولايتها أحسن قيام[5].

ولما سلّم الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سنة إحدى وأربعين الهجرية (٦٦١م)، امتنع زياد بفارس، ولم يدخل في طاعة معاوية.

وأهمّ معاوية أمر زياد، وخاف أن يدعو إلى أحد بني هاشم ويعيد

---

(١) راميثن: قرية ببخارى، انظر معجم البلدان (٤/ ٢١٣).

(٢) نسف: مدينة كبيرة كثيرة الأهل بين جيحون وسمرقند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٨٦).

(٣) بيكند: بلدة بين بخارى وجيحون، على مرحلة من بخارى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٣٩).

(٤) المعارف (٢٨٨).

(٥) انظر قصة حياة زياد بن أبي سفيان في: تهذيب ابن عساكر (٥/ ٤٠٦ ـ ٤٢٣) والعقد الفريد (٣/ ٢٢٨ ـ ٢٣٣) والمعارف (٣٤٦ ـ ٣٤٨) وابن خلدون (٣/ ٩٠٧) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٨٤ ـ ١٨٥).

الحرب، وكان معاوية قد ولّى المُغِيْرَة بن شُعْبَة الثقفيّ[1] (الكوفة)، فقدم المغيرة على معاوية سنة اثنتين وأربعين الهجرية (٦٦٢م)، فشكا إليه معاوية امتناع زياد بفارس، فقال المغيرة: «أتأذن لي في المسير إليه؟»، فأذن له وكتب لزياد أماناً. وتوجّه المغيرة إلى زياد، لما كان بينهما من المودّة، وما زال عليه حتى أحضره إلى معاوية وبايعه[2].

وأم عبيد الله: مرجانة، طلّقها زياد وزوّجها من (شيرويه) الأسواري[3]، ودفع إليها عبيد الله، فنشأ بالأساورة، فكانت فيه لُكْنَة[4].

جهاده الفاتح:

١ - توفي زياد بن أبي سفيان بالكوفة سنة ثلاث وخمسين الهجرية[5] (٦٧٢م)، فوفد ابنه عبيد الله على معاوية، فقال له: «مَنْ استخلف أخي على عمله بالكوفة والبصرة؟» فأخبره، فقال: «لو استعملك أبوك لاستعملتك»، فقال عبيد الله: «أنشدك الله أن يقولها إليّ أحد بعدك: لو ولّاك أبوك وعمّك لوليتك»، فولّاه (خُراسان) ووصّاه، فكان من وصيته: «اتّقِ اللّهِ ولا تؤثرنّ على تقواه شيئاً، فإنّ في تقواه عوضاً؛ وقِ عرضك من أن تدنسه، وإن أعطيتَ عهداً فَفِ به، ولا تبيعنّ كثيراً بقليل، ولا تخرجنّ منك أمراً حتى تبرمه، فإذا خرج فلا يردنّ عليك؛ فإذا لقيت فغلبوك على

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٨٧ - ٤١١).

(٢) الطبري (٤/ ١٣٤ - ١٣٧) و (٤/ ١٦٣ - ١٦٤) وابن الأثير (٣/ ١٦٨ - ١٦٩) و (٣/ ١٧٥ - ١٧٧).

(٣) الأسواري: نسبة إلى (أَسْوارِيَّة): من قرى أصبهان، وسكن البصرة قسم من أهل هذه القرية واختطوا بها خِطّة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٤٧).

(٤) المعارف (٣٤٧). واللكنة: عجمة في اللّسان وعي، يقال: رجل ألكن، انظر مختار الصحاح (٦٠٣) وترتيب القاموس المحيط (٤/ ١٤٨) والمعجم الوسيط (٢/ ٨٤٣).

(٥) الطبري (٤/ ٤١٤) وابن الأثير (٣/ ١٩٥) وابن خلدون (٣/ ١٤). وفي اليعقوبي (٢/ ٢١٠): أنه توفي سنة أربع وخمسين الهجرية، والأول أصحّ، انظر العبر (١/ ٥٨) وشذرات الذهب (١/ ٥٩).

ظهر الأرض فلا يغلبوك على بطنها، ولا تُطْمِعَنّ أحداً في غير حقّه، وتُؤْيِسّ أحداً من حق له»، ثم ودّعه، وكان عمر عبيد الله يومئذ خمساً وعشرين سنة[1]، فسار عبيد الله من الشّام في آخر سنة ثلاث وخمسين للهجرة[2] (٦٧٢م).

٢ ـ وعندما وصل (خُراسان) سنة أربع وخمسين الهجريّة، قطع النهر إلى جبال (بُخارى)[3] على الإبل في أربعة وعشرين ألفاً[4]، فكان عُبَيْد الله أول من قطع إليهم جبال (بخارى) في جند، ففتح (رامِيْثَن)[5] و(نَسَفَ)[6] و(بِيْكَنْد)[7]؛ فأرسلت (خاتون) ملكة (بخارى) إلى الترك تستمدهم، فجاءهم منهم عدد كبير، فلقيهم المسلمون وهزموهم[8] بعد قتال شديد وانتصروا عليهم[9]؛ فبعثت (خاتون) تطلب الصلح والأمان، فصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم فلم يفتح بخارى وفتح (بيكند)[10]، وكان قتال عبيد الله الترك من زحوف (خُراسان) التي تذكر، وقد ظهر منه بأس شديد[11].

---

(١) ابن الأثير (٣/ ١٩٧) والطبري (٤/ ٢٢٠) والبلاذري (٤٠١)، انظر ابن خلدون (٣/ ١٥).

(٢) الطبري (٤/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

(٣) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلّها، يعبر إليها من (آملُ) الشط، وبينها وبين جيحون يومان، وكانت قادة ملك السامانية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨١٢) والمسالك والممالك (١٦٦ ـ ١٦٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٩ ـ ٥١١).

(٤) البلاذري (٤٠١) وابن خلدون (٣/ ١٥).

(٥) ابن الأثير (٣/ ١٩٧) والطبري (٤/ ٢٢١) وابن خلدون (٣/ ١٥)، وفي اليعقوبي (٢/ ٢١١): إنه فتح بخارى.

(٦) ابن الأثير (٣/ ١٩٧) وابن خلدون (٣/ ١٥).

(٧) ابن الأثير (٣/ ١٩٧) وابن خلدون (٣/ ١٥). وفي الطبري (٤/ ٢٢١): إنه فتح نصف بيكند.

(٨) البلاذري (٤٠١).

(٩) اليعقوبي (٢/ ٢١١).

(١٠) البلاذري (٤٠١).

(١١) ابن الأثير (٣/ ١٩٧).

فقد ذكر شاهد عيان فقال: «ما رأيت أحداً أشدّ بأساً من عبيد الله بن زياد! لقينا زحف الترك بـ (خُراسان)، فرأيته يقاتل فيحمل عليهم فيطعن فيهم ويغيب عنا، ثم يرفع رايته تقطر دماً»[1].

ويقى عبيد الله بخراسان سنتين[2]، إذ ولّاه معاوية البصرة سنة خمس وخمسين الهجرية[3]، فقدم معه البصرة بخلق من أهل (بُخارى)[4] وهم ألفان كلّهم جيِّد الرمي بالنشاب[5].

في الفتن الداخلية:

قتال الخوارج:

١ - في البصرة:

كان بعض الخوارج بالبصرة يجتمعون إلى رجل فيتحدّثون عنده ويعيبون السلطان، فأخذهم ابن زياد فحبسهم ثم عرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً ويخلي سبيل القاتلين.

وأطلق ابن زياد سراح الذين قتلوا أصحابهم، فعذلهم الخوارج وقالوا: قتلتم أصحابكم؟! قتلتم إخوانكم؟!»، فقالوا: «أكرهنا، وقد يكره الرجل على الكفر وهو مطمئن بالإِيمان»، وندموا على فعلتهم ودأبوا على البكاء.

وعرضوا على أولياء من قتلوا الديّة فأبوا، وعرضوا عليهم القَوَد فأبوا!

وبايع سبعون رجلًا من بني عبد القيس أحدهم على الفتك بابن زياد سنة ثمان وخمسين الهجرية، فسعى بهم رجل من أصحابهم إلى ابن زياد، فبلغ ذلك أميرهم، فعجّل الخروج من ليلتهم.

---

(١) الطبري (٤/ ٢٢١).

(٢) الطبري (٤/ ٢٢٢) وابن الأثير (٣/ ١٩٧) وابن خلدون (٣/ ٧٥).

(٣) ابن الأثير (٣/ ١٩٧) وابن خلدون (٣/ ١٥) والطبري (٢/ ٢٢٢).

(٤) البلاذري (٤٠١).

(٥) الطبري (٤/ ٢٢١ - ٢٢٢)، وفي البلاذري (٤٠١). ويقال: إنه فح الصغانيان.

وندب ابن زياد الشُرَط البُخارِيّة، فقاتلوهم، فانهزم الشُّرَط حتى دخلوا البصرة، ولكنّ الناسَ تكاثروا عليهم، فقتلوهم وصلبوا أميرهم[1].

٢ ـ قتل عُرْوَة بن أُدَيّة التميمي»[2]:

وفي سنة ثمان وخمسين الهجرية، اشتد ابن زياد على الخوارج، فقتل منهم جماعة كثيرة منهم عُرْوَة بن أُدَيّة.

وكان سبب قتله أنّ ابن زياد خرج في رهان له، فلما جلس ينتظر الخيل، اجتمع إليه الناس وفيهم عروة الذي أقبل على ابن زياد يعظه، فكان مما قاله له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ [3] ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾[4]، فظنّ ابن زياد أنّ عروة لم يقل ذلك إلّا ومعه جماعة، فقام وركب وترك رهانه، فقيل لعروة: «لَيَقْتُلَنَّكَ»، فاختفى!

وطلبه ابن زياد، فهرب وأتى الكوفة، فأُخذ وقُدِم به على ابن زياد، فقطع يديه ورجليه وقال له: «كيف ترى!؟»، فقال: «أرى أنك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك»، فقتله وأرسل إلى ابنته وقتلها أيضاً.

أما أخو عروة وهو أبو بلال مِرْدَاس بن أُدَيّة[5]، فكان عابداً مجتهداً عظيم القدر في الخوارج، فحبسه ابن زياد قبل أن يقتل أخاه عروة، فكان

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٢) عروة ابن أدية التميمي: هو عروة بن جرير بن عامر التميمي. وأمه: أدية. وقد قيل: إنّ أوّل مَنْ قال: «لا حكم إلّا لله» على مذهب الخوارج يوم (صفين) هو عروة، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٢٣).

(٣) ريع: المرتفع من الأرض. انظر مختار الصحاح (٢٦٦)، وفي ظلال القرآن (١٩/١٠٣).

(٤) الآية الكريمة من سورة الشعراء (٢٦: ١٢٨ ـ ١٣٠).

(٥) مرداس بن أدية: هو أبو بلال مرداس بن أدية التميمي الخارجي، أبوه جرير بن عامر بن عبد بن كعب بن ربيعة من بني حَنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وأمه أدية، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٢٣).

السجّان يرى عبادته واجتهاده، وكان يأذن له في الليل فينصرف إلى أهله، فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن.

وكان أحد أصدقاء مِرْدَاس يسامر ابن زياد، فذكر ابن زياد الخوارج ليلةً، فعزم على قتلهم إذا أصبح، فانطلق صديق مرداس إلى منزل مرداس فأخبرهم وقال: «أرسلوا إلى أبي بلال في السجن، فليعهد، فإنه مقتول»، فسمع ذلك مرداس. وبلغ الخبر صاحب السجن فبات بليلة سوء إشفاقاً من أن يعلم الخبر مرداس فلا يرجع.

وعاد مرداس إلى السجن في الوقت الذي اعتاد أن يعود فيه كلّ يوم، فقال له السجّان: «أما بلغكَ ما عزم عليه الأمير!؟»، فقال: «بلى!»، فقال: «ثم غدوت؟!»، قال: «نعم، ولم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقبَ بسببي»!...

وأصبح ابن زياد، فجعل يقتل الخوارج، ثم دعا بمرداس، فلما حضر وثب السجّان وكان ظِئْراً[1] لابن زياد، فأخذ بقدمه، ثم قال: «هَبْ لي هذا..»، وقصّ عليه قصته، فوهبه له وأطلقه.

وخاف مرداس غدر ابن زياد، فخرج في أربعين رجلًا إلى (الأهواز)[2]، فكان إذا اجتاز به مال بيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه، ثمّ يرد الباقي.

وبعث ابن زياد إلى مرداس ورجاله جيشاً قوامه ألف رجل، وذلك

---

(١) الظئر: المرضعة لغير ولدها، ويطلق على زوجها أيضاً جمعها: أظؤر، وآظآر وظئور. انظر المعجم الوسيط (٢/ ٥٨١) وترتيب القاموس المحيط (٣/ ١٠٤) ومختار الصحاح (٣٠٤).

(٢) الأهواز: جمع هوز، وأصله حَوز، وكان اسمها في أيام الفرس: خوزستان: اسم للكورة بأسرها، وأما البلد الذي يغلب عليه هذا الاسم، فهو: سوق الأهواز. ومن مدنها: رامهرمز، وعسكر، ومكرم، وتستر، وجنديسابور، وسوس، وسرّق، ونهر تيري، ومناذر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٣).

سنة ستين الهجرية، فلما وصولوا إلى مرداس، ناشدهم الله ألّا يقاتلوه، فلم يفعلوا ورموا رجلًا من أصحاب مرداس فقتلوه، فقال مرداس: «قد بدؤوكم بالقتال»، فشدّ رجاله شدّة رجل واحد، فهزموهم. وفي ذلك يقول رجل من الخوارج:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويَقتلهم بآسِك[1] أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
همُ الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة يُنْصرونا[2]

وفي سنة إحدى وستين الهجريّة، أرسل ابن زياد إلى مرداس ثلاثة آلاف رجل، فالتقى الطرفان بـ (تُوَّج)[3]، فقال مرداس لرجاله: «مَنْ كان منكم إنما خرج للدنيا، فليذهب. ومَنْ كان منكم إنما يريد الآخرة ولقاء ربه، فقد سِيْقَ إليه ذلك: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾[4]، فلم يفارقه من رجاله أحد، فقتلوا عن آخرهم[5].

الإنسان:

١ ـ مات معاوية بن أبي سفيان سنة ستين الهجرية، فخلفه ابنه يزيد، فولّى ابن زياد على العِراقين: الكوفة والبصرة[6] وما يتبعهما من أمصار.

---

(١) آسك: بلد من نواحي الأهواز قرب أرجان، بين أرجان ورامهرمز، بينها وبين أرجان يومان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٥٧).

(٢) الطبري (٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) وابن الأثير (٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤)، ووردت هذه القصيدة في معجم البلدان (١/ ٥٨):

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكنّ الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شكٍّ على الفئة الكثيرة ينصرونا

(٣) تُوّج: مدينة بفارس قريبة من كازرون، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٤٢٦).

(٤) الآية الكريمة في سورة الشورى (٤٢: ٢٠).

(٥) الطبري (٤/ ٣٦١) وابن الأثير (٤/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٦) ابن الأثير (٥/ ٩) وابن خلدون (٣/ ٢٢).

وكتب يزيد إلى ابن زياد يخبره بتوجّه الحسين بن عليّ رضي الله عنهما إلى الكوفة ويأمره بالحذر والحيطة والانتباه.

وقدم ابن زياد الكوفة من البصرة، فخطب أهلها من يوم قدومها، فقال: «أما بعد. فإن أمير المؤمنين ولّاني مصركم وثغركم وفيئكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم. وأنا متّبع فيكم أمره، ومنفّذ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم كالوالد البر، ولمطيعكم كالأخ الشقيق، وسيفي وسوطي على مَن ترك أمري وخالف عهدي؛ فَلْيُبْقِ امرؤ على نفسه»، ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً، وقال: «اكتبوا إليّ الغرباء، ومَن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومَن فيكم من الحروريّة (الخوارج) وأهل الريّب الذي رأيهم الخلاف والشقاق، فَمَن كتبهم إليّ برئ، ومَن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا في عرافته ألّا يخالفنا منهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغٍ، فمن لم يفعل برئت منه الذمّة، وحلال لنا ماله وسفك دمه، وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صُلب على باب داره، وألغيت تلك العرافة من العطاء، وسيِّر إلى موضع بعُمان».

وأخذ ابن زياد الناس بالشدة الشديدة، فقتل مُسْلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وجرّ برجله في السوق[1].

وبلغ ابن زياد خبر اقتراب الإمام الحسين رضي الله عنه من الكوفة، فبعث صاحب شرطته الذي نزل بـ (القادسيّة)[2]، وبثّ خيله على الطرق.

وبعث ابنُ زياد الحرّ بن يزيد التميمي[3] على رأس ألف فارس، فقال

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٤/ ٢٧٤ ـ ٢٨٦) وابن الأثير (٤/ ١٢ ـ ١٥) وانظر اليعقوبي (٢/ ٢١٦).

(٢) القادسيّة: موضع بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً، وبينها وبين العذيب أربعة أميال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٥ ـ ٨).

(٣) هو الحر بن يزيد بن ناجية بن قَعْنَب بن عتّاب الردف بن هرمي بن رياح بن يربوع التميمي، الذي بعثه عبيد الله بن زياد ليشغل الحسين بن علي رضي الله عنهما، فمال إلى الحسين، وقُتل معه، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٢٧).

للحسين: «قد أُمرنا إذا نحن لقيناك ألّا نفارقك حتى نُقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد».

وبعث ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقّاص من البصرة في أربعة آلاف إلى الحسين رضي الله عنه، فبعث عمر إلى الحسين رسولاً يسأله: «ما الذي جاء بك؟»، فقال: «كتب إليّ أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم، فأما إذا كرهوني، فإني أنصرف عنهم»، فكتب عمر إلى ابن زياد يعرِّفه ذلك، فرفض ابن زياد العرض.

والتقى عمر بن سعد بالحسين رضي الله عنه ثلاث مرات أو أربع مرّات، فعَرض عمر على ابن زياد حلّ المشكلة سلمياً، فرفض ابن زياد العرض أيضاً، وكتب إلى عمر بن سعد: «إني لم أبعثك إلى الحسين لتكفّ عنه ولا لتمنّيه ولا لتطاوله ولا لتقعد له عندي شافعاً....».

وزحف عُمَر بن سعد على الحسين رضي الله عنه، فقتل الحسين وقتل معه من أولاد علي بن أبي طالب: العبّاس وجعفر ومحمد وأبو بكر رضي الله عنهم، ومن أولاد الحسين أربعة، وقتل عدد من أولاد عبد الله بن جعفر، ومن أولاد عقيل بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً، فبعث عمر الرؤوس والنساء والأطفال إلى ابن زياد الذي بعثهم إلى يزيد بن معاوية[1].

وقد أبدى الحسين وآل بيته رضي الله عنهم في القتال بطولات فذّة على الرغم من قلّة رجالهم وكثرة أعدائهم.

لقد كان إقدام ابن زياد على قتل الحسين رضي الله عنه خطأ لا

---

(١) انظر تفاصيل استشهاد الحسين بن علي بن رضي الله عنهما في الطبري (٤/ ٢٨٦ - ٣٠١) وابن الأثير (٤/ ١٥ - ٣٧) والإمامة والسياسة (٢/ ٤ - ٨) واليعقوبي (٢/ ٢١٦ - ٢١٩) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٨٩ - ١٩٢) وشذرات الذهب (١/ ٦٦ - ٨٩) وأسد الغابة (٢/ ٢١) والاستيعاب (١/ ٣٩٣ - ٣٩٥) وتهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٢٦ - ٣٤٣) وتاريخ الخلفاء للسيوطي (١٣٨ - ١٣٩) والإصابة (٢/ ١٦ - ١٧) ونور الأبصار (١٢٧ - ١٣٣).

يغتفر، وكان بإمكانه قبول شروط الحسين التي عرضها على عمر بن سعد، وإنهاء هذه المشكلة بالحسنى.

وحتى لو لم يكن للحسين شروط معيّنة، فإن قوّته كانت مؤلّفة من اثنين وثلاثين فارساً وأربعين رجلًا، وكان تعداد جيش ابن زياد أربعة آلاف أو خمسة آلاف، ومن مقارنة القوتين يظهر عدم تكافؤهما، فكان بإمكان القوّة المتفوّقة أن تعالج الموقف بأناة ورويّة وبالطرق السلميّة بدون إراقة الدماء.

إنّ قتل الحسين رضي الله عنه يدلّ على أنّ ابن زياد لم يكن بعيد النظر، ولم يكن يقدّر نتائج الأمور تقديراً سليماً.

إنّ قتل الحسين رضي الله عنه لا مسوِّغ له أبداً، وعمل طائش، وقد ترك قتله أثراً بليغاً في قلوب المسلمين، وجرحاً دامياً غائراً في أفئدتهم، ولا تزال آثاره باقية حتى اليوم.

٢ ـ ومات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين الهجرية، فأتى الخبر ابن زياد وهو بالبصرة، فعرض على أهلها بيعة مَنْ يرضونه، فبايعوه رهبة لا رغبة.

وبعث ابن زياد رسولين إلى الكوفة يعلمهم ما صنع أهل البصرة، ويدعوهم إلى البيعة، فرفض أهل الكوفة بيعته، وحصب أهل الكوفة رسوليه، فعادا إلى البصرة وأعلماه ما حدث، فقال أهل البصرة: «أيخلعه أهل الكوفة ونوليه نحن؟!»، فضعف سلطانه، فكان يأمرهم بالأمر فلا يقضى، ويرى الرأي فيُردّ عليه، ويأمر بحبس المخطئ فيُحال بين أعوانه وبينه.

وجاء البصرة أحد دعاة عبد الله بن الزبير فاجتمع إليه ناس وجعلوا يبايعونه، فبلغ الخبر ابن زياد فجمع الناس وذكر لهم أمره معه وبيعتهم له، وأرادهم ليقاتلوا معه أصحاب ابن الزبير، فقالوا: «إن أمرنا قوّادنا فعلنا».

وقرّر ابن زياد الفرار من البصرة إلى الشّام، فأرسل إلى أحد أشرافها فحمله إلى داره، ثم انتقل إلى دار أخرى... وهرب بعد ذلك إلى الشام، فأتبعه أناس فأعجز الطلبة، فانتهبوا ما وجدوا له، وفي ذلك يقول وافد بن خليفة بن أسماء:

يا رُبَّ جبّار شديد كَلَبُه ... قد صار فينا تاجه وسلبه

منهم عبيد الله حين نسلبه ... جياده وبزّه وننهبه

يوم التقى مِقْنبنا ومِقْنبه[1] ... لو لم يُنجِّ ابن زياد هربه[2]

وفي طريقه إلى الشَّام، سكت ابن زياد سكتة فأطالها، فقال أحد رجاله في نفسه: «هذا عبيد الله أمير العراق أمسِ، نائم الساعة على حمار لو سقط منه أعْنَتَه. والله إن كان نائماً لأنغصنّ عليه نومه»، فقال لابن زياد: «أنائم أنت؟»، فقال: «لا»، فقال: «فما أسكتك؟»، فقال: «كنتُ أحدِّث نفسي!»، فقال: «ألا أحدِّثك ما كنت تحدّثُ به نفسك؟»، فقال: «هاتِ، فوالله ما أراك تكيس ولا تصيب»، فقال: «كنتَ تقول: ليتني لم أقتل الحسين... إلخ»، فقال: «أما الحسين فإنه سار إليّ يريد قتلي، فاخترت قتله على أن يقتلني!!»[3].... ثم قال: «ولكن سأخبرك بما حدّثت به نفسي. قلت: ليتني قاتلت أهل البصرة، فإنهم بايعوني طائعين غير مكرهين. وأيم الله، لقد حرصتُ على ذلك، ولكنّ بني زياد أتوني، فقالوا: إنك إذا قاتلتهم فظهروا عليك لم يبقوا منا أحداً. وإن تركتهم يغيب الرجل منا عند أخواله وأصهاره، فرققت لهم، فلم أقاتل. وكنتُ أقول: ليتني كنت أخرجت أهل السجن فضربت أعناقهم؛ فأما إذ فاتت هاتان، فليتني كنت أقدم الشّام ولم يبرموا أمراً»؛ فقدم الشّام ولم يبرموا أمراً، فكأنما كانوا معه صبياناً!

---

(١) المقنب: شبه مخلاة يحمل فيها الصائد ما يصيده. والمقنب: جماعة من الفرسان والخيل دون المائة تجتمع للغارة. جمعها: مقانب. انظر المعجم الوسيط (٧٦٧).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٤/٣٨٧ ـ ٤٠١) وابن الأثير (٤/٥١ ـ ٥٣)، وانظر نص خطاب ابن زياد في البيان والتبيين (٢/١٤٩ ـ ١٥٠)، وانظر ابن الأثير (٤/٥٥).

(٣) الطبري (٤/٤٠٢)، وفي ابن الأثير (٤/٥٥): «أما قتلي الحسين، فإنه أشار إليّ يزيد بقتله أو قتلي، فاخترتُ قتله» انتهى.

وقال بعضهم: قدم الشّام وقد أبرموا، فنقض ما أبرموا إلى رأيه[1].

٣ ـ وقدم ابن زياد الشام، وكان من رأي مروان بن الحكم أن يسير إلى عبد الله بن الزبير فيبايعه بالخلافة، فقال ابن زياد لمروان: «قد استحيت لك من ذلك! أنت كبير قريش وسيّدها، تمضي إلى أبي خبيب فتبايعه؟!»، يعني ابن الزبير، لأنه كان يكنى بابنه خبيب، فقال مروان: «ما فات شيء بعد»، فقام إليه بنو أمية ومواليهم وتجمّع إليه أهل اليمن، فسَار إلى دمشق.

وفي معركة (مرج رَاهِط)[2] كان ابن زياد على ميسرة مروان بن الحكم، الذي انتصر في هذه المعركة، فاستقرّ بأرض الشّام[3].

وبعث مروان إلى (الجزيرة)[4] ابنَ زياد لمحاربة الخارجين بـ (قَرْقِيْسِياء)[5] واستعمله على ما يفتحه، فإذا فرغ من (الجزيرة) توجّه إلى العراق وأخذه من ابن الزبير؛ فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك بن مروان يستعمله على ما استعمله عليه أبوه، ويحثُّهُ على السير إلى العراق[6].

وبعث المختار بن أبي عبيد الثقفي جيشاً من الكوفة بقيادة إبراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد[7]، فأسرع السير ليلقى ابن زياد قبل أن يدخل العراق.

---

(١) الطبري (٤/ ٤٠٣).

(٢) مرج راهط: بنواحي دمشق، وهو أشهر المروج في الشام، فإذا قالوه مفرداً فإياه يعنون، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢١٧) و (٨/ ١٦).

(٣) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٤/ ٥٧ ـ ٦٠) والطبري (٤/ ٤٠٨ ـ ٤٢٠).

(٤) الجزيرة: هي التي بين دجلة والفرات تشتمل على ديار ربيعة وديار مضر. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٩٦) وانظر حدودها بالتفصيل في المسالك والممالك للأصطخري (٥٠).

(٥) فرقيسياء: بلد عند ملتقى نهر خابور الفرات بنهر الفرات، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٥٩).

(٦) ابن الأثير (٤/ ٧٤).

(٧) ابن الأثير (٤/ ١٠٠) والطبري (٤/ ٥٤٨).

وكان ابن زياد قد سار بجيش عظيم من الشّام، فبلغ مدينة (الموصل) وملَكها، فسار ابن الأشتر وأوغل في أرض (الموصل).

وأقبل ابن زياد إليه حتى نزل قريباً من جيش الأشتر على شاطئ نهر (الخَازِر)[1]، فالتقى الطرفان، وقتل من الفريقين قتلى كثيرة؛ فانهزم أصحاب ابن زياد، فقال ابن الأشتر: «قتلت رجلًا تحت راية منفردة على شاطئ نهر (الخازر)، فالتمسوه، فإني شممت رائحة المسك»، فالتمسوه فإذا هو ابن زياد قتيلًا بضربة ابن الأشتر التي قدّته نصفين، فأخذوا رأسه وأُحرقت جثّته، وأنفذوا رأسه إلى المختار ومعه رؤوس قوّاده، وكان ذلك سنة سبع وستين الهجرية[2] (٦٨٦م)، وكان قد ولد سنة ثمان وعشرين الهجرّية (٦٤٨م)، لأنه تولّى (خراسان) سنة ثلاث وخمسين الهجرية، وكان عمره حينذاك خمساً وعشرين سنة[3].

٤ ـ تولى ابن زياد أرفع المناصب في أيام معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك: تولى (خُراسان) سنتين حتى سنة خمس وخمسين الهجرية، حيث تولى البصرة وبقي عليها ثماني سنين، خمساً منها على البصرة وحدها، وثلاثاً على العراقَيْن[4].

لقد كان موضع ثقة بني أُمية، وكان يعتمد في حكمه على القسوة القاسية لفرض سيطرته على الناس، وكان لا يبالي من أجل تدعيم سيطرته أن يرتكب كلّ أنواع الإِجراءات الرّادعة قتلًا وتعذيباً وحجزاً للممتلكات والأموال.

---

(١) نهر الخازر: نهر بين أربيل والموصل ثم بين الزاب الأعلى والموصل، انظر معجم البلدان (٣/٣٩٨).

(٢) ابن الأثير (٤/١٠١ ـ ١٠٤) والطبري (٤/ ٥٥٢ ـ ٥٥٧) وانظر المعارف (٣٤٧) وابن خلدون (٣/٢٨ ـ ٢٩).

(٣) ابن الأثير (٣/١٩٧) والطبري (٤/ ٢٢٠) والبلاذري (٤٠١).

(٤) المعارف (٣٤٧) و (٥٧١).

وكان يحبّ الإِمارة، همّه أن يحكم وأن يصون كرسيّه، وأن ينفِّذ أوامر رؤسائه مهما يكلِّفه الأمر ذلك.

وكان أرقط جميلًا ولا عقب له[1].

روى الحديث عن معاوية وسعد بن أبي وقّاص ومَعْقِل بن يَسار، وحدّث عنه الحسن البصري[2].

كتب معاوية إلى زياد: «أوفد إلي ابنك» فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شيء إلّا نفذ منه، حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئاً، فقال له: «ما منعك من تعلّم الشعر؟»، فقال: «يا أمير المؤمنين! كرهت أن أجمع في صدري مع كلام الرحمن كلام الشيطان»، فقال معاوية: «أغرب! فوالله ما منعني من الفرار يوم (صِفِّيْنْ)[3] إلّا قول ابن الإطنابة حيث يقول:

أَبَتْ لي عفّتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيحِ
وإعطائي على الإِعدام مالي ... وإقدامي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن أنف صحيح

ثم كتب إلى أبيه: «أن روِّه الشعر»، فرواه حتى كان لا يسقط عنه شيء بعد ذلك، ومن شعره:

سيعلم مروان بن نسوة أنني ... إذاالتقت الخيلان أطعنها شزراً
وإني إذا حلّ الضيوف ولم أجد ... سوى فرسي، أوسعته لهمُ نحرا[4]

وسئل أهل البصرة عن ابن زياد فقالوا: «إنه لظريف ولكنه يلحن»، ولم يكن ممن يتعمق بكلامه ويفخّمه ويتشدّق فيه. وكانت فيه لكنه من كلام

---

(١) المعارف (٣٤٧).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٨٣).

(٣) صفين: موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٧٠).

(٤) البداية والنهاية (٨/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).

العجم، فكان من كلامه شيء من كلام العجم. قال يوماً لبعض الخوارج: «أهروري أنت؟» ويعني: أحروري أنت؟ وقال يوماً: «من كاتلنا كاتلناه» أي: من قاتلنا قاتلناه[1].

لقد كان ذا شخصية طاغية، يحبّ الإمرة ويحبّ السيطرة، ويؤمن بالطّاعة، ويكفر بالمعصية، دون أن يفرّق بين دوافع تلك الطّاعة وعوامل تلك المعصية. إنه يريد أن تنفذ أوامره ونواهيه على كلّ إنسان بصورة مطلقة من دون تردد، وأن ينفذ أوامره ونواهيه كل إنسان بصورة حازمة من دون تردد، فالناس عنده بين عاصٍ ومطيع لا وسطٍ بينهما، وكلّ من لا ينفّذ أوامره يناله العقاب الصارم فوراً قتلًا وسجناً دون أن يفكّر لحظة في نتائج ذلك العقاب.

لقد أساء ابن زياد إدارياً، فترك تصرّفه الأهوج في قتل الحسين أثراً بالغاً في أيامه، ولا نزال نعاني من نتائج قتله حتى اليوم.

لقد أراد أن يمتلك الدنيا، ولكنه أخيراً لم يمتلك منها حتى... القبر.

القائد:

كان ابن زياد شجاعاً مقداماً، نجح في قيادة قواته فاتحاً، وضمّ إلى الدولة العربية الإسلاميّة بلاداً واسعة في مدة قليلة من الزمن: في سنتين فقط.

وكان مسيطراً على قوّاته، يخافه رجاله، ويحسبون لشدّته ألف حساب.

وكان يقدّر قيمة الضبط، فلا يتغاضى لحظة واحدة عن تنفيذ أوامره نصّاً وروحاً.

وكان يطبّق مبدأ: (المباغتة) في حروبه، فقد باغت عدوّه في قطع جبال (بخارى) على الإبل في جند، وبذلك طبّق مبدأ: المباغتة في الزمان والمكان.

وكان يحرص على جمع المعلومات عن خصمه، فلا يسير إلّا بعد تيسّر تفاصيل تلك المعلومات، وبذلك طبّق مبدأ: (الأمن)، فلم يؤخذ على غرة أبداً.

وكان لا يسير إلّا على تعبية، وكانت خططه العسكرية ناجحة للغاية.

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٨٤).

لقد أحسن ابن زياد قائداً.

ابن زياد في التاريخ:

يذكر التاريخ لابن زياد، أنه أساء إدارياً وأخفق، وأحسن قائداً ونجح.

ولكنّ إساءته إدارياً وإخفاقه، هي التي يذكرها التاريخ كثيراً ويرددها الناس في الماضي والحاضر والمستقبل.

وقد أذهبت إساءته إدارياً، إحسانه قائداً، وغطّى إخفاقه في الإدارة على إحسَانه في القيادة، والسيئات يذهبن الحسنات، كما أنّ الحسنات يذهبن السيئات.

ولقد تردّدت كثيراً في كتابة سيرته، لولا أنّ التاريخ يذكر له فتوحاته ويذكر له نتائجها في سياق ذكر فتوحات القادة الآخرين.

أحسن ابن زياد قائداً فاتحاً، لأنه ضمّ إلى البلاد الإسلاميّة بلاداً شاسعة، لا تزال تعيش بنعمة الإسلام.

وأحسن قائداً، في قضائه على بعض فتن الخوارج الداخليّة، فأشاع الأمن بعد الخوف والاطمئنان بعد القلق والنظام بعد الفوضى في العِراقَيْن.

ولكنه أساء إدارياً في معاملة كثير من الناس، فملأ السجون وعذّب وقتل الأبرياء وغير الأبرياء.

وأساء أعظم الإساءة، بإقدامه على قتل الحسين بن عليّ وإخوته وأبنائه وأبناء إخوته وذوي قرباه رضي الله عنهم أجمعين، فلم يفلح منذ اقترف جريمته الشنعاء هذه حتى قُتِل وأحرق بعد قتله.

والتاريخ عِبَر، والمحسن من صانعي التاريخ عبرة لمن يريد الإحسان، والمسيئ من صانعي التاريخ عبرة لمن يريد أن يتجنّب السوء، وقد تكون عبرة المسيئ أبلغ وأشدّ تأثيراً.

إن ابن زياد عبرة للظالمين، لعلّهم يرعوون.

سعيد بن عثمان بن عفّان
فاتح بخارى وسمرقند[1] وتِرمِذ[2]

نسبه وأهله:

هو سعيد بن عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أُمَيَّة بن عبد شمس بن عبد مَنَاف القُرَشِيّ الأُمَوِي[3].

أبوه أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وأمه فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس ابن المُغِيْرَة المخزومِيَّة[4].

وكان له تسعة إخوة: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، وعمرو، وأَبَان، وخالد، وعمر، والوليد، والمُغِيْرة، وعبد الملك، وكان له أربع أخوات: أم سعيد، وأم أبان، وأم عمرو، وعائشة[5].

لقد كان سعيد أبرز أولاد عثمان بن عفان[6].

---

(١) سمرقند: بلد معروف مشهور بما وراء النهر، وهو قصبة (الصغد) مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٢١) والمسالك (١٧٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٣٣٥).،

(٢) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٨٢) والمسالك والممالك (١٦٧) وتقويم البلدان (٥٠٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٣) و (٥/ ١٥٣) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ١٥٤) والإصابة (٤/ ٢٢٣) وأسد الغابة (٣/ ٣٧٦) والاستيعاب (٣/ ١٠٣٧)، انظر جمهرة أنساب العرب (٨٣).

(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٤) و (٥/ ١٥٣).

(٥) المعارف (١٩٨).

(٦) انظر ما جاء عن أولاد عثمان بن عفان في المعارف (١٩٨ ـ ٢٠٢).

جهاده:

١ ـ قدم سعيد دمشق وافداً على معاوية بن أبي سفيان[١]، فسأله أن يستعمله على (خُراسان)، فقال معاوية: «إنّ بها عبيد الله بن زياد»؛ فقال سعيد: «لقد اصطنعك أبي ورقاك حتى بلغت باصطناعه الذي لا يُجارى إليه ولا يُسامى، فما شكرت بلاءه ولا جازيته بآلائه، وقدّمتَ عليّ هذا ـ يعني يزيد بن معاوية ـ وبايعت له، والله لأنا خير منه أباً وأماً ونفساً». فقال معاوية: «أما بلاء أبيك، فقد يحق عليّ الجزاء به، وقد كان من شكري لذلك أني طلبت بدمه حتى تكشّفت الأمور، ولست بلائم لنفسي في التّشمير. وأما عن فضل أبيك على أبيه، فأبوك والله خير مني وأقرب برسول الله ﷺ. وأما فضل أُمّك على أُمّه، فما يُنكر امرأة من قريش خير من امرأة من كلب[٢]. وأما فضلك عليه فوالله ما أحبّ أن (الغُوْطَة)[٣] ملئت رجالًا مثلك»؛ فقال يزيد بن معاوية لأبيه: «يا أمير المؤمنين! ابن عمك، وأنت أحقّ مَنْ نظر في أمره، وقد عتب عليك، فاعتبه!»، فولّاه (خُراسان)[٤]، وكان ذلك سنة ست وخمسين الهجرية[٥] (٦٧٥م).

٢ ـ وقدم سعيد (خُراسان)، فقطع النهر إلى (سَمَرْقَنْد)، فكان أوّل مَن قطع نهر (بَلْخ)[٦] من العرب[٧].

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

(٢) كانت أم يزيد بن معاوية من بني كلب، وهي ميسون بنت بحدل الكلبية، انظر المعارف (٣٥٠).

(٣) الغوطة: هي الكورة التي منها دمشق، استدارتها ثمانية عشر ميلًا، يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ولا سيما في شماليها، وتمد في الغوطة عدة أنهر فتسقي بساتينها وزروعها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

(٤) الطبري (٤/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧) وابن الأثير (٣/ ٢٠٢)، وانظر تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٥٦ ـ ١٥٧) والإمامة والسياسة (١/ ١٩١).

(٥) شذرات الذهب (١/ ٦١) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٨٧) والعبر (١/ ٦١).

(٦) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، وهي من أجمل مدن خراسان وأكثرها خيراً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٦٣).

(٧) المعارف (٥٥٥)، وانظر فتوح البلدان (٤٠١).

وبلغ (خاتون) ملكة (بُخَارى)[1] عبوره النهر، فحملت إليه الصلح الذي صالحت عليه عبيد الله بن زياد. وأقبل أهل (الصُّغد)[2] و (كِش)[3] و (نَسَف) إلى سعيد في مائة ألف وعشرين ألفاً، فالتقوا بـ (بخارى)، وقد ندمت (خاتون) على أدائها الأتاوة ونكثت العهد؛ ولكن بعض الجموع المحتشدة لقتال سعيد انصرفوا، فتضعضعت معنويات الآخرين؛ فلما رأت (خاتون) ذلك، أعادت الصلح، فدخل سعيد مدينة (بخارى)[4].

٣ ـ وغزا سعيد (سمرقند)، فأعانته خاتون بأهل (بخارى)، فنزل على باب (سمرقند) وحلف ألّا يبرح أو يفتحها؛ فقاتل أهلها ثلاثة أيام، وكان أشدّ قتالهم في اليوم الثالث حيث فقئت عينه. ولزم العدو (سمرقند) وقد فشت فيهم الجراح، فأتاه رجل دلّه على قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم، فسار إليهم وحصرهم.

وخاف أهل (سمرقند) أن يفتح سعيد ذلك القصر عنوة ويقتل مَنْ فيه، فطلبوا الصلح، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة ومن شاء ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم، ويقال: إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم، ويقال: ثمانين[5]، وكان معه من الأمراء:

---

(١) كان ملك بخارى قد أفضى يومئذ إلى امرأة يسمونها: خاتون، انظر معجم البلدان (٢/ ٨٤).

(٢) الصغد: كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل: هما صغدان، صغد سمرقند وصغد بخارى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٦٢) والمسالك والممالك للإصطخري (١٧٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٤٣) وأحسن التقاسيم (٣٦٦)، وتكتب عند بعضهم: السغد. ويطلق على سكان المنطقة (الصغد) أيضاً.

(٣) كش: مدينة تقارب سمرقند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٥٠) و (٧/ ٢٥٤) والمشترك وضعاً (٣٧٣) وتقويم البلدان (٤٩٠).

(٤) البلاذري: (٤٠١)، وانظر معجم البلدان (٢/ ٨٥) وجمل فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٣٣٩) واليعقوبي (٢/ ٢١١).

(٥) البلاذري (٤٠١ ـ ٤٠٢)، وانظر تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٥٥) وشذرات الذهب (١/ ٦١) وجمل فتوح الإسلام (٣٤٩) واليعقوبي (٢/ ٢١١). وفي الطبري (٤/ ٢٢٧) وابن الأثير (٣/ ٢٠٢): إنّ أهل سمرقند أعطوه رهناً منهم خمسين غلاماً من أبناء عظمائهم.

المُهلَّب بن أبي صُفرة الإزدي، واستشهد معه يومئذ قُثَم بن العباس بن عبد المطلب وكان يشبه بالنبيّ ﷺ وهو آخر من طلع من لحد النبيّ ﷺ[1].

٤ ـ وانصرف سعيد إلى (ترمذ) ففتحها صلحاً[2].

الإنسان:

لا نعرف شيئاً عن أيام سعيد الأولى قبل توليه (خُراسان)، وقد عزله معاوية سنة سبع وخمسين[3] الهجرية (٦٧٦م)، وكان معاوية قد خاف سعيداً على خلعه، ولذلك عاجله بالعزل[4]، فأخذ سعيد مالاً من خراج (خُراسان)، فوجّه معاوية مَن لقيه بـ (حُلْوان)[5] وأخذ المال منه.

ومضى سعيد بالرهن الذين أخذهم من أبناء عظماء (سمرقند) حتى ورد بهم المدينة المنورة، فدفع ثيابهم ومناطقهم إلى مواليه، وألبسهم جباب الصوف، وألزمهم السقي والعمل[6]، وألقاهم في أرض يعملون له فيها بالمساحي، فأغلقوا يوماً باب الحائط ووثبوا عليه فقتلوه ثم قتلوا أنفسهم[7]، فقال خالد بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط الأُمَوِيّ[8]:

---

(١) شذرات الذهب (١/ ٦١) والعبر (١/ ٦١).

(٢) البلاذري (٤٠٢) وابن الأثير (٣/ ٢٠٢) والطبري (٤/ ٢٢٧) وجمل فتوح الإسلام (٣٤٩) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٨٢).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٥٥) والعبر (٢/ ٦٢).

(٤) البلاذري (٤٠٣).

(٥) حلوان: هناك حلوان العراق، وهي مدينة عامرة ليس في أرض العراق بعد البصرة والكوفة وواسط وبغداد وسامراء والحيرة مدينة أكبر منها، وهي بقرب الجبل (الجبل الواقع على حدود العراق ـ إيران) وليس بالعراق مدينة قرب الجبل غيرها، انظر المسالك والممالك للإصطخري (٦١). وحلوان في بلاد الجبال (إيران حالياً)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٢٢) والمسالك والممالك للإصطخري (١١٨). أقول: وحلوان العراق اليوم أطلال دوارس تقع بين جلولاء وخانقين.

(٦) البلاذري (٤٠٢ ـ ٤٠٣) وانظر البدء والتاريخ (٤١٦).

(٧) المعارف (٢٠٢) والبدء والتاريخ (٤١٦)، وانظر البلاذري (٤٠٣) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ١٥٥) واليعقوبي (٢/ ٢١٢).

(٨) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٥٦)، وانظر البلاذري (٤٠٣).،

ألا إنّ خير الناس نفساً ووالداً سعيد بن عثمان قتيل الأعاجم
فإن تكن الأيام أردت صروفها سعيداً، فهل حيٌّ من الناس سالم؟!

وقال أيضاً يرثيه[1]:

يا عين جودي بدمع منك تهتاناً وابكي سعيد بن عثمان بن عفانا

لم يف سعيد لأهل (سمرقند) بإعادة الرهن لهم، بل جاء بالغلمان معه إلى المدينة المنورة[2] وجعل يستعملهم في النخيل والطين وهم أولاد الدهاقين وأرباب النّعم، فلم يطيقوا ذلك العمل وسئموا عيشهم فوثبوا عليه في حائط له، وبذلك غدر بهم[3]، فكان هذا الغدر وبالًا عليه، إذ قدّم حياته ثمناً لغدره.

لقد كان سعيد يحبّ الإمارة، وكان يحبّ جمع المال، وقيل: إنه كانت له قطيعة بدمشق[4] وكان من التابعين، وقد سمع أباه وطلحة بن عُبَيْد الله، وروى عنه جماعة[5]، وكان قليل الحديث[6].

وكان لسان قريش[7]، وكان شاعراً، فقد قال معاوية لسعيد: «لك خراسان»، فخرج سعيد راضياً وهو يقول[8]:

ذكرت أمير المؤمنين وفضله فقلت: جزاه الله خيراً بما وصل
وقد سبقت مني إليه بوادر من القول فيه آفة العقل والزلل
فعاد أمير المؤمنين بفضله وقد كان فيه قبل عودته ميل
وقال: خراسان لك اليوم طعمة فجوزي أمير المؤمنين بما فعل

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٦/١٥٦).
(٢) الطبري (٤/ ٢٢٧) وابن الأثير (٣/ ٢٠٢).
(٣) البدء والتاريخ (٤١٦).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٥٥).
(٥) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٥٤).
(٦) طبقات ابن سعد (٥/ ١٥٣) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ١٥٥).
(٧) الإمامة والسياسة (١/ ١٩١).
(٨) الإمامة والسياسة (١/ ١٩١ - ١٩٢).

فلو كان عثمان الغداة مكانه لما نالني من ملكه فوق ما بذل

فلما انتهى قوله إلى معاوية، أمر يزيد أن يزوِّده، وأمر له بخلعة وشيَّعه فرسخاً. وقد قتل سعيد بعد موت معاوية بن أبي سفيان الذي توفي سنة ستين الهجرية[1] (٦٨٠م)، أي أنّ مقتل سعيد كان حوالي سنة إحدى وستين الهجرية (٦٨١م) أو اثنتين وستين الهجرية (٦٨٢م)[2].

لقد كان سعيد شهماً غيوراً يعتدّ بشخصيته، طموحاً، مُتْرَفاً، سخياً، وكان من شخصيات قريش البارزة.

القائد:

بقي سعيد والياً على (خُراسان) سنة واحدة، ومع ذلك فتح الله على يديه فتحاً عظيماً[3]، مما يدّل على أنه كان قائداً متميِّزاً.

لقد سارع معاوية بن أبي سفيان في عزله خوفاً من أن يعمل على خلعه[4]، فقد كان أهل المدينة يحبّون سعيداً ويكرهون يزيداً، وحين قدم على معاوية قال له: «يا ابن أخي! ما شيء يقوله أهل المدينة؟؟»، قال: «ما يقولون؟»، قال: «قولهم:

والله ما ينالها يزيد حتى يعضّ هامَه الحديدُ
إنّ الأمير بعده سعيد»[5]

فقال سعيد: «ما تنكر من ذلك يا معاوية؟! والله إنّ أبي لخير من أبي يزيد، ولأُميّ خير من أُمّه، ولأنا خير منه؛ ولقد استعملناك فما عزلناك بعد، ووصلناك فما قطعناك، ثم صار في يديك ما قد ترى، فجلأتنا عنه أجمع»[6].

---

(١) الاستيعاب (٣/١٤١٩ - ١٤٢٠) والطبري (٤/٢٣٩).
(٢) انظر الأعلام للزركلي (٣/١٥١) الطبعة الثانية.
(٣) تهذيب ابن عساكر (٦/١٥٥).
(٤) البلاذري (٤٠٣).
(٥) يريدون: إنّ الأمير بعد معاوية هو سعيد بن عثمان لا يزيد بن معاوية.
(٦) تهذيب ابن عساكر (٦/١٥٥).

لقد كان قائداً يمتاز بالحزم والعزم، فكان إذا اقتنع بأمر بذل قصارى جهده لإخراجه إلى حيز التنفيذ؛ وكان قائداً مكيثاً غير متهوّر، وكان يقدِّر حقّ التقدير قيمة الحصول على المعلومات عن مواضع عدوّه وحالته المادية والمعنوية، لكي تكون خُطَّته العسكرية التي يصمِّمها دقيقة ناجحة.

وكان قديراً على معرفة الأرض الحيوية في مواضع العدو، تلك الأرض التي تكون مفتاح الدفاعات المعادية، وكان قديراً على التغلغل بكفاية إلى تلك الأرض الحيوية والنفوذ إليها والاستيلاء عليها، وبذلك تنهار دفاعات العدو بيسر وسهولة.

وكان يتحلّى بشخصية جبّارة ونفسية عالية لاتعرف المداجاة، وكان يبادل رجاله الثقة بثقة وحباً بحب، وكان له ماض ناصع مجيد.

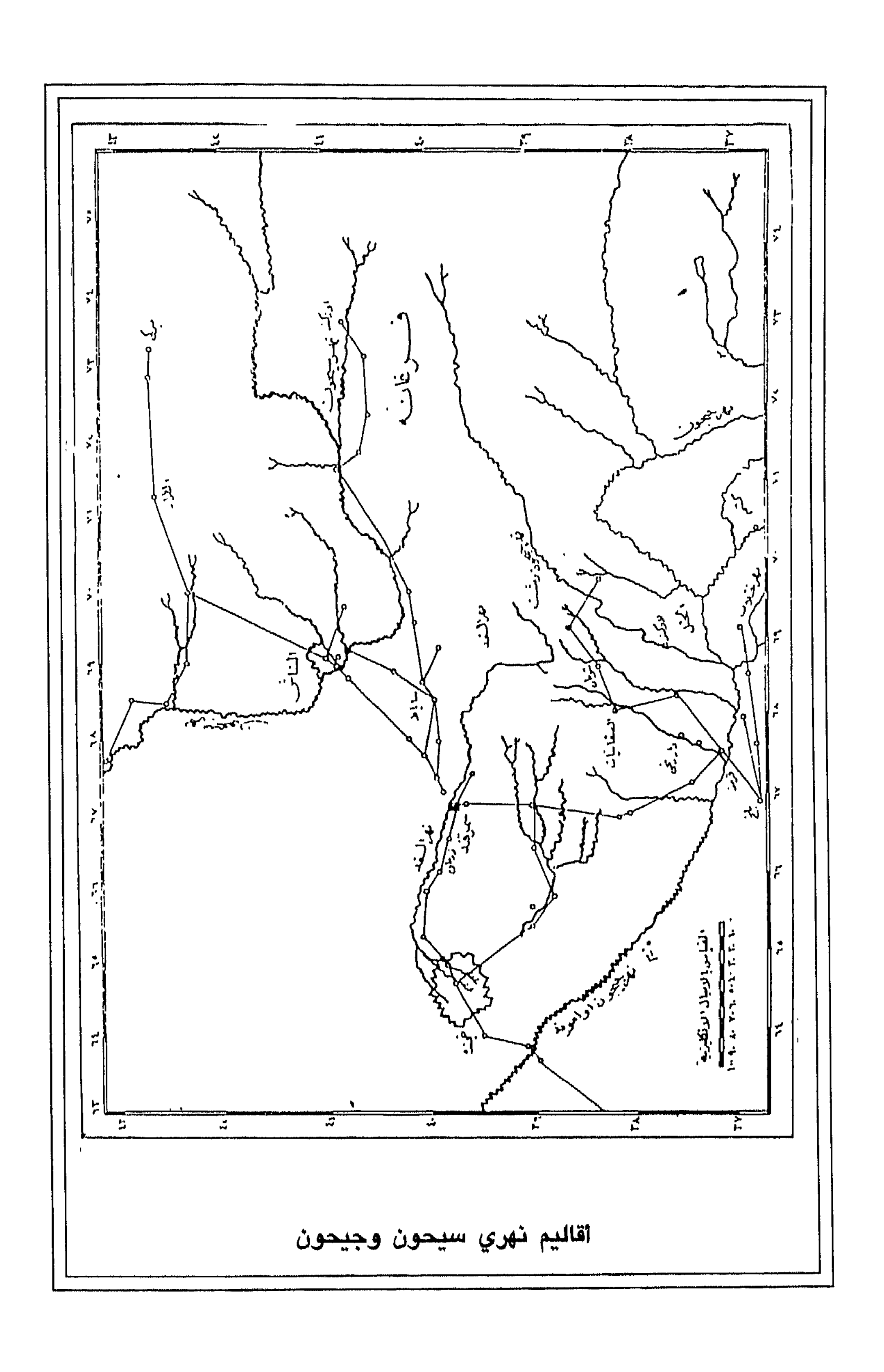
سعيد في التاريخ:

لا أشك فى أن سعيداً لو طالت مدّة ولايته على (خُراسان) لجاء بالخوارق في الفتح.

ولكن حسبه أن يذكر له التاريخ، أنه فاتح (بخارى) و (سمرقند) و (تِرْمِذ)، تلك البلاد الشّاسعة التي أصبحت قاعدة أمامية للمسلمين، انطلقوا منها لفتح تركستان حتى حدود سيبريا شمالاً، ولفتح ما وراء النهر حتى حدود الصين شرقاً، ولفتح السِّند حتى المحيط جنوباً.

لقد أمدّت هذه البلاد جيوش الفتح من العرب المسلمين بجيش لجب من فاتحي الأمصار والأقطار، وأمدّت الفكر العربي الإسلامي بسيل دافق من فاتحي العقول والأفهام، وكان أهل تلك البلاد من أبرز حاملي رايات الثقافة العربية الإسلامية.

رضي الله عن القائد الفاتح سعيد بن عثمان بن عفّان الأُمويّ



أقاليم نهري سيحون وجيحون

سَلْم بن زياد
فاتح خُوارِزْم[1] وبُخارى ثانية

أهله وأيّامه الأولى:

هو سَلم بن زياد[2] بن أبي سُفيان بن حَرْب بن أُمَيَّة.

وكان أبوه زياد أحد دهاة العرب الأربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمُغِيْرة بن شُعْبَة، وزياد[3]، وكان لرجاحة عقله مقدّماً عند عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم أصبح مقدّماً على عهد معاوية بن أبي سفيان، وتولّى المناصب الإدارية والقيادية الرفيعة، فتربىّ ابنه سلْم وأولاده الآخرون، تربية أبناء الولاة والأمراء والقادة، وعاش سلم في البصرة والكوفة في جوٍ علميٍّ يوم كانت هاتان الحاضرتان من أبرز حواضر المسلمين في الناحية العلمية وفيهما أبرز علماء المسلمين، في وقت كان أبوه أميراً على هاتين الحاضرتين، فلا بدّ أنه تلقّى علوم القرآن والحديث والدين والتّاريخ واللّغة والأدب على أساطين العلماء في أيامه، كما تلقّى العلوم العسكرية النظرّية والعملية على المبرزين في تلك العلوم.

---

(١) خوارزم: اسم إقليم منقطع عن خُراسان وعمّا وراء النهر، تحيط به المفاوز من كل جانب، حدّها متّصل بحد الغزيّة فيما يلي الشمال والغرب، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر، وهي على جانبي نهر جيحون، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٦٨) ومعجم البلدان (٣/ ٤٧٤).

(٢) انظر سيرة زياد في تهذيب ابن عساكر (٥/٤٠٦ ـ ٤٢٣) والمعارف (٣٤٦ ـ ٣٤٨) وابن خلدون (٣/٩٠٧) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٨٤ ـ ١٨٥).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٥/٤١٦).

كما مارس الأعمال الإدارية والسياسيّة والعسكرية عن كثب، وشهد كيف تُعالج الأمور المختلفة وتُعطى القرارات في محيط أبيه الداهية والإداريّ الحازم والقائد اللّامع، وفي محيط الذين يعملون بإمرته قادةً وإداريين.

وشبّ سلْم وترعرع في جوٍ علمي وعملي، ممّا أعدّه لتحّمل أعبائه في حياته العملية قائداً وإداريّاً.

الفاتح:

١ ـ عزل معاويةُ بن أبي سفيان عن خُراسان سعيد بن عثمان بن عفّان سنة سبع وخمسين الهجريّة (٦٧٦م)، وأُضيفت إلى ولاية عُبَيْد الله بن زياد في رواية[١].

وفي رواية أخرى، أنّ معاوية ولىّ خُراسان عبد الرحمن بن زياد، وكان شريفاً، فلم يصنع شيئاً في مجال الفتح، وكان ذلك سنة تسع وخمسين الهجرية[٢] (٦٧٨م).

ومات معاوية وعلى خُراسان عبد الرحمن بن زياد.

وولىّ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان خُراسان وسِجِسْتَان سنة إحدى وستين الهجريّة (٦٨٠م) سَلْم بن زياد[٣]، وقال له: «إنّ أباكَ كفى أخاه عظيماً، وقد استكفيتُك صغيراً، فلا تتَّكِلنَّ على عُذْر منّى، فقد اتّكلتُ على كفاية منك، وإياك مني قبل أن أقول إيايَ منك، فإنَّ الظنَّ إذا أُخلف مني فيك أُخِلفَ منكَ فِيَّ، وأنتَ في أدنى حظِّك فاطلب أقصاه، وقد أَتعبكَ أبوكَ فلا تُرِيْحَنّ نفسك»[٤].

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢١٣) والنجوم الزاهرة (١/ ١٤٩).

(٢) الطبري (٥/ ٣١٥) وابن الأثير (٣/ ٥٢١)، وانظر البلاذري (٥٨١).

(٣) الطبري (٥/ ٤٧١) وابن الأثير (٤/ ٩٥).

(٤) العقد الفريد (١/ ١٣) وعيون الأخبار (١/ ١١٠) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٣٧) وفيه زيادة: «واذكر في يومك أحاديث غدك»، وجاءت هذه الزيادة متصّلة في آخر كلام يزيد، فهي خاتمته.

ولما سار سَلْم إلى خُراسان، كتب معه يزيد إلى أخيه عُبَيْد الله بن زياد في العراق، ينتخب له ستة آلاف فارس، وقيل: أَلْفَيْ فارس، وكان سَلْم ينتخب الوجوه، فخرج معه عِمْران بن الفُضَيْل البُرْجُمِيّ والمهلّب بن أبي صُفرة، وعبد الله بن خازِم السُّلَمِيّ، وطلحة بن عبد الله بن خلف الخُزاعِيّ، وحنظلة بن عَرَادَة، ويحيى بن يَعْمَر العَدْوانِيّ، وخلق كثيرمن رؤساء البصرة وأشرافهم، فأخذ سَلْم هؤلاء الفرسان معه من البصرة وتجهّز، ثم سار إلى خُراسان[1].

٢ ـ وبدأ سَلْم بغزو خُوارِزْم، فصالحوه على أربعمائة ألف درهم، وحملوها إليه[2].

وقطع سَلْم النهر (جيحون) ومعه امرأته أمّ محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِيّ، وكانت أوّل امرأة عربية عُبِر بها النهر، فأتى (سَمَرْقند)، فصالحه أهلها[3].

ووجد (خاتون) ملكة بخارى قد نقضت العهد، واستنجدت بجيرانها من الصُّغد وأتراك الشمال، فجاء (طرخون) على جيش الصُّغد، كما جاء ملك الترك في عسكر كثيف.

ولم تؤثِّر تلك الحشود الضخمة من القوّات المعادية في معنويات المسلمين، فحاصروا بخارى دون أن يهجموا عليها، ليقفوا أولًا على تفاصيل قوّات أعدائهم ومواضعها، وهي متربِّصة بهم في مواضع ليست بعيدة عن بخارى.

وأمر سَلْمُ المُهَلَّبَ بن أبي صُفْرَة الأزديّ أن يستطلع أحْوال العدو، فاقترح المهلّب أن يكلِّف غيرَه بهذه المهمّة، وحجّته أنه معروف المكانة بين

(١) الطبري (٥/ ٤٧٢) وابن الأثير (٤/ ٩٦).
(٢) البلاذري (٥٨١)، وانظر الطبري (٥/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤).
(٣) البلاذري (٥٨١) والبدء والتاريخ (٦/ ١٥)، وانظر الطبري (٥/ ٤٧٤).

قومه والمسلمين، وقد يُفشي تغيّبه عن معسكر المسلمين سِرَّ الواجب الذي أُلقي على عاتقه، وهذا الواجب ينبغي أن يبقى سرّاً مكتوماً حتى يتمّ إنجازه بسريّة تامّة وكتمان شديد وحذر بالغ، لأنّ إفشاءه يعرِّض المسلمين لخطر جسيم.

ولكنّ سلْم بن زياد أصرّ على إيفاد المهلّب دون غيره في هذا الواجب الحيويّ الذي قد يعجز غيره عن النهوض به كما ينبغي، وأرسل معه ابن عمّه ورجلًا من كلِّ لواء من ألوية المسلمين.

واشترط المهلّب على سلْم ألّا يبوح لأحد من الناس كائناً مَن كان بمهمته، ثم مضى إلى سبيله ليلًا مع جماعته الاستطلاعيّة، فَكَمَنَ في موضع مستور، واستطلع قوّات العدو دون أن يشعر العدو بموضعه المخفيّ المستور.

ويبدو أنّ قوم المهلّب والمسلمين افتقدوا المهلّب في صلاة الفجر من تلك الليلة التي تسلّل بها المهلّب إلى موضع قريب من العدو، فما كان تغيّب مثله ليخفى على أحد وهو ليس مجهول المكان والمكانة يملأ الأعين قدراً وجلالًا، فألحّوا على سلْم بالسؤال عن المهلّب وألحفوا عليه، فلم يستطع أن يكتم أمره، وأخبرهم أنه أرسله في مهمّة استطلاعيّة ليلًا.

وفشا الخبر بسرعة خاطفة في العسكر، فأسرع جمع من المسلمين بالركوب وتوجّهوا صوب موضع المهلّب المستور، فكشفوا موضعه وموضع رجاله للعدو.

وأبصرهم المهلّب مقبلين نحوه يتسابقون بدون نظام ولا تنظيم، فَلَامَهُم أشدّ اللّوم على ما أقدموا عليه، لأنهم كشفوا موضع جماعته الاستطلاعيّة للعدو دون مسوِّغ، فعرّضوهم لخطر محدق أكيد.

وأصبح موقف المهلّب ومَن معه من المسلمين في خطر داهم، فبذل المهلّب قصارى جهده لمعالجة موقفه الخطير وتدارك ما يمكن تداركه.

وأحصى المهلّب المسلمين الذين التحقوا به متطوِّعين، فكانوا تسعمائة من الفرسان المجاهدين، فقال لهم: «والله لتندمُنَّ على ما فعلتم».

وحدث ما توقّعه المهلّب، فما كاد ينظِّم المسلمين صفوفاً، حتى هاجمهم الترك وأبادوا منهم أربعمائة فارس مجاهد، ولاذ الباقون منهم على قيد الحياة بالفرار.

وأُحيط بالمهلّب ومَن بقي معه من جماعته الاستطلاعيّة ذات العدد المحدود، ولكنه ثبت ثباتاً راسخاً لا يتزعزع عن موضعه، فالموت بالنسبة لأمثاله أهون عليهم من الفرار.

وصاح المهلّب بصوته الجهوريّ القوي مستغيثاً بالمسلمين، فسُمع صوته من معسكر المسلمين القريب، الذي كان على بُعد نصف فرسخ من موضعه المواجه للعدو.

وبادر فوراً إلى نجدته فريق من قومه الأزد، فشاغلوا الترك ريثما أقبل المسلمون خفافاً لنجدته على عجل بقيادة سلْم.

ونشب القتال بين الجانبين، فقاتل المسلمون الترك حتى هزموهم هزيمة نكراء، حيث هربوا من ساحة المعركة مخلِّفين أموالهم وأثقالهم، فغنمها المسلمون حتى أصاب كلّ فارس ألفين وأربعمائة درهم في رواية، وعشرة آلاف درهم في رواية أخرى.

وطارد المسلمون الترك المنهزمين، فلم ينجُ منهم إلّا الشّريد، وكان من بين القتلى (بندون) أو (بيدون) الصُّغْدِيّ ملك الصُّغْد.

وأعادت خاتون الصّلح من جديد مع سلْم، فاستعاد فتح بخارى[1].

٣ ـ وبعث سلْم وهو بالصّغد جيشاً من المسلمين إلى (خُجَنْدَة) وفيهم الشاعر أعشى همدان، فهُزم المسلمون فقال الأعشى:

ليتَ خيلي يومَ الخُجَنْدَة لم يهـ	زَمْ وغُوْدِرْتُ في المَكَرِّ سَلِيْبَا
تَحْضُرُ الطَّيْرُ مَصْرَعِيْ وتروّحـ	تُ إلى الله في الدِّماء خَضِيْبَا[2]

٤ ـ وكان عمّال خُراسان قبل سلْم يغزون، فإذا دخل الشِّتاء رجعوا إلى (مَرْوا الشَّاهجان)، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمدينة مما يلي خُوارِزْم، فيتعاقدون أن لا يغزو بعضهم بعضاً ويتشاورون في أمورهم. فلما قدم سلْم غزا فشتا في تلك السنة، فألحّ عليه المهلّب بن أبي صُفْرَة وسأله التوجّه إلى تلك المدينة، فوجّهه في ستّة آلاف، وقيل: أربعة آلاف، فحاصرهم، فطلبوا أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم، فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيِّف وعشرين ألف ألف درهم، وكان في صلحهم أن يأخذ منهم عروضاً، فكان يأخذ الرأس والدّابة بنصف ثمنه، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف درهم[3].

وعاد سلْم إلى (مَرْو) بعد جهاد هذه السنة الذي استمرّ سنتي إحدى وستين الهجرية واثنتين وستين الهجرية.

٥ ـ ويبدو أنه قطع النهر ثانية في سنة ثلاث وستين الهجرية (٦٨٢م)، لأنه علم بأنّ الصُّغْد قد جمعت له، فقاتلهم وقتل ملكهم[4].

ولكنه عاد مسرعاً إلى (مَرْو)، ليعالج مشاكل المنطقة الداخلية، فقد أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم.

---

(١) تاريخ بخارى للنرشخي (٦٥ ـ ٦٧) وانظر تاريخ بخارى لفامبري (٦٠ ـ ٦١)، مع الانتباه للأخطاء الواردة فيه.

(٢) البلاذري (٥٨١) وابن الأثير (٤/٩٧).

(٣) الطبري (٥/٤٧٣) وابن الأثير (٤/٩٦ ـ ٩٧).

(٤) البلاذري (٥٨٢).

الإنسان:

مات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين الهجرية[1] (٦٨٣م)، فبويع بعده معاوية بن يزيد بن معاوية، فلم يمكث إلّا ثلاثة أشهر حتى هلك، وقيل: بل ملك أربعين يوماً ثمّ مات[2].

ولما بلغ سلْم موتُ يزيد بن معاوية كتم ذلك، ولكنّ الخبر انتشر بين الناس في خُراسان انتشار النار في الهشيم، فمثل هذا الخبر يستحيل كتمانه مّدة طويلة.

ولما علم سلْم بانتشار خبر موت يزيد بين الناس، أظهر موت يزيد وابنه معاوية، ودعا الناس إلى البيعة على الرضى حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه ثمّ نكثوا بعد شهرين، وكان سلْم مُحْسِناً إليهم محبوباً فيهم، ولكنّ قسماً من القبائل العربية خلعوه[3] عصبية وتعصّباً وفتنة، فلم يحب أهل خُرَاسان أميراً قط حبّهم سلْم بن زياد، فسمّى في تلك السنين التي كان بها سلم عليهم أكثر من عشرين ألف مولود بسَلْم، من حبِّهم سلْماً[4]، ولكنّ قائلهم قال: «بئس ما ظنّ سلْم، إنْ ظنّ أنّه يتأمّر علينا في الجماعة والفتنة»[5].

ووثب أهل خُراسان بعمّالهم فأخرجوهم، وغلب كلّ قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، ووقعت الحرب[6].

ونشب الاقتتال بين القبائل العربية، وأصبحت خُراسان مناطق في كل منطقة قائد وأمير، وتساقطت القتلى من العرب بالسيوف العربيّة، وأصبحت

---

(١) الطبري (٥/ ٤٩٩) وابن الأثير (٤/ ١٢٥) والعبر (١/ ٦٩).
(٢) الطبري (٥/ ٥٠٣) وابن الأثير (٤/ ١٣٠) والعبر (١/ ٦٩).
(٣) الطبري (٥/ ٥٤٥) وابن الأثير (٤/ ١٥٤ ـ ٥٥).
(٤) الطبري (٥/ ٥٤٥).
(٥) البلاذري (٥٨٢).
(٦) الطبري (٥/ ٥٤٦).

سيوف العرب على الفاتحين لا على أعدائهم، وتوقّف الفتح واستعادة الفتح.

وتوجّه سلْم إلى عبد الله بن الزبير في مكّة المكرّمة، فأغرمه أربعة آلاف ألف درهم وحبسه، وكان سلْم يقول: «ليتني أتيت الشّام، ولم آنف من خدمة أخي عُبَيْد الله بن زياد، فكنت أغسل رجله، ولم آت ابن الزبير»[1].

ويبدو أنه لم يكن على وفاق مع أخيه عبيد الله، فأبوهما واحد، وأمهما ليست واحدة[2]. والخلافات بين أبناء الضرائر لا تُستغرب. وقد ولّى يزيد بن معاوية عُبَيْدَ الله بن زياد العراقَيْن[3] وما يتبعهما، وخُراسان وسِجستان مما يتبع ولاية العراقَيْن، وكان من صلاحية والي العراقَيْن أن يولي على خُراسان وسِجستان مَن يريد إلّا إذا ولّى الخليفة مَنْ يريد، فكان من حق الخليفة يزيد أن يولي سلْم بن زياد هذين القطرين الإسلاميين، ولكن ليس بعزل عبد الرحمن بن زياد وعَبّاد بن زياد اللذين كانا أثيرين على عبيد الله بن زياد قريبين من نفسه، مما أثار حفيظة عبيد الله على أخيه سلْم، فكتب عبيد الله إلى عبّاد يخبره بولاية سلْم، فقسم عبّاد ما في بيت المال على عبيده، وفضَل فضلٌ فنادى: «مَنْ أراد سلفاً فليأخذ»، فأسلف كلَّ مَن أتاه، ثم خرج عبّاد من سجستان. فلما كان بـ(جِيْرَفْت)[4]، بلغه مكان سلْم وهو في طريقه من البصرة إلى خُراسان، وكان بين عبّاد وسلْم جبل، فعدل عنه عبّاد، فذهب لعبّاد تلك الليلة ألف مملوك أقلّ ما مع أحدهم عشرة آلاف. وسار عبّاد على (فارس)، فقدم على يزيد بن معاوية في الشّام، فسأله عن المال، فقال: «كُنتُ صاحب ثغر، فقسمتُ ما أصبتُ بين

---

(١) البلاذري (٥٨٢).

(٢) المعارف (٣٤٧).

(٣) ابن الأثير (٤/ ٢٣).

(٤) جيرفت: مدينة بكرمان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٨٩).

النّاس»[1]. وهكذا تولى سلْم سجستان وهي خالية الوفاض من المال الذي هو عصب الحرب، وما فعل عبّاد ذلك إلّا وهو يعلم أنه يُرضي عبيد الله.

وما كان عبيد الله ليخبر أخاه عبّاد بن زياد بولاية سلْم على سِجستان مما جعله يقسم الأموال التي لا يملكها على جلاوزته الذين لا يستحقونها، لو كان عبيد الله على وفاق مع سلْم.

ولعلّ أكبر دليل على اختلاف الأخوين، أنّ سلْماً لم يقصد أخاه عبيد الله، بل قصد عبد الله بن الزبير، مع علمه بأخطار لجوئه إلى ابن الزبير، التي أقلّها محاسبته على الأموال وحبسه، ولم يزل سلْم بمكة في السِّجن، حتى حصر الحجَاجُ بن يوسف الثقفي ابنَ الزبير، فنقب السِّجن وصار إلى الحجاج، ثم إلى عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: «أما والله، لو أقمتَ بمكّة ما كان لها والٍ غيرك ولا كان بها عليك أمير»، وولّاه خُراسان، فلما قدم البصرة مات بها[2].

وقد مكث سلْم في سجن عبد الله بن الزبير بمكة المكرمة تسع سنوات تقريباً، امتدّت من سنة أربع وستين الهجرية (٦٨٣م) إلى سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢م)، فلم يشهد الفتن الدامية التي اكتسحت الدولة الإسلاميّة شرقاً وغرباً ولم يلوِّث سيفه ولا لسانه بدماء المسلمين، فكان سجنه خيراً له في دنياه وآخرته على كلِّ حال.

لقد كان سلْم أجود بني زياد[3]، وحين كان في السجن قصده الفرزدق في منحه صداق ابنة عمه النوّار ابنة أعيَن بن صَعْصَعة بن ناجِيَة بن عِقال المُجاشِعِّي، فقد قال عبد الله بن الزبير للفرزدق: «جئني بصداقها وإلّا فرّقت بينكما»، فقال الفرزدق: «أنا في غربة، فكيف أصنع؟!»، فأشار عليه الناس

---

(١) ابن الأثير (٤/٩٦).
(٢) البلاذري (٥٨٢).
(٣) المعارف (٣٤٨).

بأن يقصد سلْم بن زياد في سجنه. وأتاه الفرزدق وقصّ عليه قصتّه، فقال سلْم: «كم صداقها؟»، قال: «أربعة آلاف درهم»، فأمر له بها وبألفين للنفقة[1]، فقال الفرزدق:

دَعِيْ مُغْلِقي الأبوابَ دون فِعَالهم ... ولكن تمشَّيْ بي - هُبِلْتِ - إلى سَلْمِ[2]
إلى مَنْ يرى المعروفَ سهلًا سَبِيْلُه ... ويَفْعَلُ أفعالَ الرجال الذي تَنْمِي[3]

وقالت له زوجته: «أتعطي مثل هذا المال وأنت محبوس؟!»، فقال سلْم:

ألا بكرت عرسي تلوم سفاهةً ... على ما مضى مني وتأمر بالبخل!
فقلت لها، والجود مني سجيّة ... هل يمنعُ المعروفَ سؤّاله مثلي!
ذريني فإني غيرتارك شيمتي ... ولا مُقْصِرٌ، عن شيمتي وعن البذل
ولا طارد ضيفي إذا جاء طارقاً ... وقد طرق الأضيافُ غيري من قبلي
أأَبخل، إنّ البخلَ ليس مخلِّدي ... ولا الجود يدنيني إلى الموت والقتل
فإن تظهروا لي البخل آل خويلد ... فلا دلّكم دَلّى ولا شكلكم شكلي
وإن تقهروني حيث غابت عشيرتي ... فمن عجب الأيام أن تقهروا مثلي[4]

وما دمنا قد تطرقنا إلى شيءٍ من شعر سلْم، فلا بأس من ذكر هذين البيتين له:

فإن تَكُنِ الدنيا تزول بأهلها ... فقد نِلْتُ من ضرّائها ورخائها
فلا جزعاً مني عليها ولا أسىً ... إذا هي يوماً آذنَتْ بفنائها[5]

---

(١) في تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٣٨)، أن صداقها عشرة آلاف درهم، فدفعها له سلم ودفع له مثلها نفقة له.
(٢) الخطاب لناقته ونحوها.
(٣) تنمي: من نما الشيء، بمعنى رفع قدره، والمفعول محذوف، أي تنمي أحسابها: تزيدها شرفاً.
(٤) انظر التفاصيل في تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٣٨) والأغاني (٢١/ ٢٨٨)، والقصيدة الأخيرة من تهذيب ابن عساكر مختصرة.
(٥) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٣٨).

وشعره كما يبدو على قلته سلسٌ عاطفيّ جيِّد.

وأعود إلى جوده، فقد قال سلْم لطلحة بن عبد الله الفزاري: «إني أريد أن أصل رجلًا له عليَّ حقٌ وصحبة بألف ألف درهم، فما ترى؟»، فقال: «أرى أن تجعل هذه بعشرة»، قال: «فأَصِلُهُ بخمسمائة ألف درهم»، قال: «كثير»، فلم يزل حتى وقف على مئة ألف درهم، قال: «أفترى مئة ألف نقضي بها ذمام رجل له انقطاع وصحبة ومودّة وحق واجب؟»، قال: «نعم»، قال: «هي لك، وما أردتُ غيرك»[1].

وقد أُسر أبو عبيدة بن زياد أخو سلْم في سِجِسْتَان سنة إحدى وستين الهجرية، حيث غدر أهل (كابُل) ونكثوا وأسروا أبا عبيدة بن زياد، فلما بلغ الخبر سلْم سيّر طلحة بن عبد الله الخُزاعِيّ وهو طلحة الطلحات، ففدى أبا عبيدة بخمسمائة ألف درهم[2]، وهذا دليل على شهامته وكرمه.

وكان أبو عَرادة السَّعْدِي[3] مع سلْم، وكان مكرماً له وأبو عرادة يتنحّى عنه، إلى أن تركه وصحب غيره، فلم يحمد أمره، فرجع إلى سلْم وقال:

عُتبتُ على سَلْم فلما هجرته ... وخالطت أقواماً بكيتُ على سَلْم
رجعتُ إليه بعد تجريب غيره ... فكان كبَرءٍ بعد طولٍ من السّقمِ[4]

فلا عجب أنه لم يحب أهلُ خراسان أميراً قط حبّهم سلْم بن زياد، فسمي في تلك السنين التي كان بها أكثر من عشرين ألف مولود بسلْم، من حبِّهم سلْماً[5]، مع أنه لم يبق في خراسان غير أقل من أربع سنين!

وقد كان له من الإخوة: عبد الرحمن، والمغُيرة، ومحمد، وأبو

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٣٨).
(٢) ابن الأثير (٤/ ٩٧ ـ ٩٨)، وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢٤٥).
(٣) في المعارف (٣٤٨): ابن عرادة.
(٤) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩) والمعارف (٣٤٨).
(٥) الطبري (٥/ ٥٤٥).

سفيان، وعُبَيْد الله، وعبد الله، أمهما مَرجانة، وعثمان، وعَبّاد، والربيع، وأبو عُبَيْدة، ويزيد، وعَنْبسة، وأم معاوية، وعمرو، والغُصْن، وعُتْبَة، وأبان، وجعفر، وإبراهيم، وسعيد، وثلاث وعشرون أختاً[1].

ويعتبر سلْم من أهل البصرة[2]، له دار فيها تقعُ إلى جانب قصر الأمير ومجاورة له[3]، وله دار في دمشق بناحية سوق اللؤلؤ وسوق الطّير[4]، تزوّج بنت عمرو بن الحارث بن حُرَيْث[5]، وقد أغفل المؤرخون أسماء زوجاته الأخريات، فلا نعلم عنهنّ شيئاً يذكر.

وقد ولّاه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان خُراسان وسجستان سنة إحدى وستين الهجرية (٦٨٠م) وهو ابن أربع وعشرين سنة[6]، ومعنى ذلك أنه ولد سنة سبع وثلاثين الهجرية (٦٥٧م)، وتوفي سنة ثلاث وسبعين الهجرية[7] (٦٩٢م) بالبصرة، وله عقب[8]، وكان يكنى: أبا حَرْب[9].

لقد كان جواداً مُمَدَّحاً يعطي ألف ألف درهم[10]، وكان وفيّاً لا ينسى مَن أسدى إليه معروفاً، وكان فصيحاً في شعره ونثره، وإدارياً قديراً يقسو بلا ظلم ويعفو بلا ضعف. يحب الإمارة ويطلبها، ويحبّ هذا المال ويجمعه، ولكنه سخّر منصبه لخدمة الناس وماله للجود.

ولقد عاش ستاً وثلاثين سنة في هذه الحياة ثم مضى إلى سبيله، فبقي

---

(١) المعارف (٣٤٧).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٣٧).
(٣) الطبري (٦/ ٥٨٢).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٣٧).
(٥) عيون الأخبار (٤/ ٩٨).
(٦) الطبري (٥/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤).
(٧) ابن الأثير (٤/ ٣٦٣) والنجوم الزاهرة (١/ ١٩٠).
(٨) المعارف (٣٤٨).
(٩) المعارف (٣٤٨) والطبري (٤٧٢).
(١٠) النجوم الزاهرة (١/ ١٩٠).

ذكره في التاريخ، لأنه كان إنساناً من الطراز الرفيع في خلقه وسجاياه، فزال خياله وبقيت أعماله.

القائد:

أوّل مزايا قيادة سلْم التي لا يمكن أن يختلف فيها اثنان، هي قابليته المتميِّزة على تحمُّل أهوال الحرب بما فيها البرد الشّديد في شتاء بلاد ما وراء النّهر الذي يُجمد مياهَ الأنهار إلى درجة تسير عليها الخيول والجمال بأثقالها وأحمالها والقوافل في موسم الشتاء.

لقد كان الفاتحون يغزون صيفاً ويستقرّون في قواعدهم أواخر الخريف والشتاء وأوائل الربيع، فكانت (الصَّوائف) وهي الغزو صيفاً هي (القاعدة) والغزو في موسم البرد هو (الاستثناء) في بلاد الروم وبلاد ما وراء النهر وإرْمِيْنِيَة وأَذْرَبِيْجَان، ولعلّ بلاد ما وراء النهر أشدّ تلك البلاد برداً وأقساها زمهريراً.

وحتى في هذه الأيام، بعد تطوّر وسائط النقل والتجهيزات العسكريّة، تكون العمليات العسكريّة في بلد ما رواء النهر شتاء صعبة للغاية، وقد كان من أهم أسباب اندحار الألمان في الحرب العالميّة الثانية في الحرب الألمانية الروسيّة في مناطق الاتحاد السوفياتي التي تشابه إلى حدٍ بعيد في بردها القارص الطقس السّائد في بلاد ما وراء النهر هو البرد الشديد، حتى قيل: «إنّ (اللّواء) شتاء حارب إلى جانب الروس بشكل أفضل مما حارب به قادة الرُّوس الآخرون»، فذهبت كلمة (اللّواء شتاء) بين العسكريين (مثلًا)، وكثر استعمالها في تاريخ الحرب العالمية الثانية، وبخاصة في المؤلفات التي أصدرها قادة الرّوس والألمان بعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها.

لقد غزا سلْم شتاء، في بلاد قارصة البرد وهي بلاد ما وراء النهر، مما أثار إعجاب الناس شعباً وحكومة بمبلغ تحمّله البرد الشديد وأعباء الجهاد في سنة متّصلة الجهد والجهاد، لا راحة فيها ولا استقرار، فكان

سلْم لا يُريح ولا يستريح، ولا ينام ولا يُنيم، وبذلك حقّق أهدافه في استعادة فتح مناطق حيويّة شاسعة من بلاد النهر.

ولكنّ النصر الذي أحرزه على ملوك خُراسان الذين يتصالحون مع الفاتحين صيفاً، ويجتمعون للتآمر شتاء، في مدينة نائية من شمالي خراسان، بالقرب من بلاد ما وراء النهر، يتداولون في أمورهم، ويتشاورون في قضاياهم، ويقرِّرون ما يقررونه في مصاولة الفاتحين، كان نصراً مؤزراً حقاً.

فهؤلاء الملوك والرؤساء المتآمرون، الذين يجتمعون سراً في بلدٍ قصيّ في موسم الشتاء، ما كانوا يتوقعّون أن يهاجموا في عزِّ الشتاء، لأنهم يعلمون حقّ العلم أنّ الفاتحين يستقرون شتاء في حواضرهم ولا يقدرون على الهجوم في أيام البرد الشديد، فبوغت أولئك الأمراء والملوك بهجوم الفاتحين في الشتاء، مما أدى إلى انهيار مقاومتهم واستسلامهم.

وهذا يدلّ على أنّ سلْماً كان يتحلّى بمزية تطبيق مبدأ (المباغتة)، وهو أهم مبادىء الحرب عى الإطلاق، وهي مباغتة بالزمان، جرت في وقت لا يتوقّعه العدو.

ولعلّ شباب سلْم، وقد تولى القيادة في ريعان الشباب، ساعده على تحمّل مشاق البرد القارص وغير البرد، وكان لمثاله الشخصيّ أثر كبير في معنويات رجاله، إذا كان أسوة حسنة لهم في التحمّل والصبر والاهتمام بالمصلحة العامة دون المصلحة الخاصة، ومن المعلوم أنّ المثال الشخصي للقائد يؤثر في رجاله أعظم التأثير ويرفع معنوياتهم.

ويبدو أن سلْماً بالرغم من شبابه الغض، كان قائداً مكيثاً لا يقوم بعملية عسكرية إلّا بعد استطلاع مفصّل دقيق، فلم يهاجم (بخارى) قبل أن يكمل استطلاع القوات التي جاءتها مدداً، ثم مقاتلة تلك القوات القادمة من

بعيد والانتصار عليها، فأصبحت بخارى تحت رحمته لأنها بقيت وحدها بلا حليف، فانهارت مقاومتها وصالحته.

والاهتمام بالاستطلاع وجمع المعلومات عن العدو والأرض، مزية من مزايا القائد الجيد، كما أنّ القائد المكيث هو القائد الجيد أيضاً، وبخاصة إذا كانت أناته من أجل الاستطلاع الناجع، لغرض بناء خطّة عسكرية سليمة.

وكان سلْم يختار أشراف الناس والرؤساء ليكونوا معه في الجهاد، مما يدلّ على تمتّعه بشخصيّة قويّة نافذة، وهي صفة من صفات القائد الجيد المتميِّز.

وأصحاب السلطة، ومنهم القادة، قسمان: قسم يفضِّل العمل مع الضعفاء التافهين الإمعات الذين يهمّهم إرضاء صاحب السلطة أكثر مما يهمّهم إرضاء ضمائرهم، فيسمعون المسئول ما (يحّب) أن يسمع لا ما (يجب) أن يسمع، وبهذا السلوك يخدمون أنفسهم ومصالحهم الشخصية ولا يقيمون لمصالح غيرهم والمصلحة العامة أيّ اعتبار، وأمثال هؤلاء جبناء لأنهم يجبنون عن قول الحق، ومنافقون لأنهم يظهرون غير ما يبطنون، وخونة لأنهم يخونون الأمانة فيدوسون مصالح الناس إرضاء للحاكم واقتناصاً لمرضاته وحفاظاً على مصالحهم الشخصيّة.

وقسم من أصحاب السلطة، يفضِّل العمل مع الأقوياء الصادقين الأمناء، الذين يهمهم إرضاء ضمائرهم أكثر مما يهمّهم إرضاء صاحب السُّلطة، فيسمعون المسئول ما (يجب) أن يسمع لا ما (يحب) أن يسمع، وبهذا السّلوك يخدمون المحكومين والمصلحة العامة ولا يخدمون أنفسهم ومصالحهم الشخصيّة، وأمثال هؤلاء شجعان لأنهم لا يخافون من قول الحق، وصالحون لأنهم يظهرون ما يبطنون، وأمناء لأنهم يقدِّرون المسؤوليّة حقّ قدرها فلا يدوسون مصالح الناس إرضاء للحاكم واقتناصاً لمرضاته وحفاظاً على مصالحهم الشخصيّة.

وأكثر أصحاب السّلطة من القسم الأول، والقليل منهم من القسم الثاني، ولهذا ضاعت الحقوق وكثرت الهزائم وشاع الجهل واستشرى النفاق وقلّ العدل وزاد الظلم وقال قائلهم: نفسي... مصلحتي.... مستقبلي... وليكن بعدي الطوفان.

لقد كان سلْم يختار الأشراف والأقوياء، وهذا دليل على أنه كان يؤثر مصلحة المسلمين على مصلحته الشخصيّة، بالإضافة إلى أنه دليل على تمتّعه بالشخصيّة القويّة النافذة، وقد أنجز سلْم خلال سنة جهادية ما لم ينجزه غيره خلال سنين كثيرة، ولا يمكن أن يُعزى فضل ما أنجز إليه وحده، بل شارك به أولئك الأشراف والرؤساء، مما يدلّ عليه المنطق والتاريخ، وفي ذلك عبرة لذوي السلطة الذين يريدون أن يخدموا بلادهم وشعوبها حقاً.

وكان سلْم محبوباً كما ذكر المؤرخون، وكما كان رجاله يحبونه ويثقون به، فهو يبادلهم حبّاً بحب وثقة بثقة، مما يؤدي إلى أن يعمل سلْم مع رجاله بتعاون وثيق يقود إلى النصر في الحرب وإلى البناء في السّلام.

وكان سلْم قائداً (تعرّضيّاً)، يطبِّق الحرب السيّارة، ولا يطبِّق الدفاع المُسْتَكِنّ، ويرى أنّ الهجوم أفضل وسائل الدفاع.

وكان يطبِّق مبدأ (التَحشُّد) في معاركه، فيحشد القوّة المناسبة للعمل المناسب، كما كان يطبِّق مبدأ (الأمن) فيستعين بقَوات الحماية في مختلف صفحات القتال، كما يستعين بالمفارز الاستطلاعيّة.

وكان يديم معنويات رجاله، بالنصر، والأمن، والحماية، والاستطلاع، وبالمثال الشخصيّ في الصبر والمعاناة.

تلك هي مجمل مزايا سلْم القياديّة، فهو بحق من القادة المتميِّزين.

سلْم في التاريخ:

ويذكر التاريخ لسلْم، أنه استعاد فتح منطقة الصُّغْد بكاملها بما فيها بُخارى وسمرقند.

ويذكر له، أنه استعاد فتح إقليم خوارزم بكامله، فأصبح يدين بالولاء للدولة الإسلاميّة من جديد.

ويذكر له، أنه قضى معظم سني ولايته على خُراسان غازياً، فأنجز أعمالًا باهرة في الفتوح خلال وقت قصير.

ويذكر له، أنه كان والياً ناجحاً في ولايته، يحبّه الناس ويحبهم، فكان لهم أميراً ووالداً.

ويذكر له أن كان جواداً يُعطي عطاء مَن لا يخاف الفقر ولا يخشاه، ولا ينسى الفضل والمعروف لذوي الفضل والمعروف.

ويذكر له، أنه كان قائداً متميزاً وإدارياً متميزاً.

ويذكر له، أنه يختار الشرفاء والأقوياء للعمل بإمرته، لذلك أنجز أعمالًا جبارة في وقت قصير.

يرحمه الله، جزاء ما قدّم من جهد وجهاد في إدارته وقيادته.

أُمَيَّةُ بن عبد الله بن خالد الأُمَوِيّ

فاتح بُخَارَى والخُتّل[1] من جديد

نسبه وأيامه الأولى:

هو أُمَيَّة بن عبد الله بن خالد بن أَسِيْد بن أبي العِيْص بن أُمَيَّة بن عبد شمس[2] الأُمَوِيّ المكِيّ[3].

أبوه: عبد الله بن خالد، وهو من التّابعين، سكن مكَّة المكرَّمة، وكان قليل الحديث[4].

وجدّه: خالد بن أَسِيْد بن أبي العِيْص، صحابيّ جليل، أسلم يوم فتح مكّة، ولم يزل بها[5].

وأُمّ أُميّة: أمّ حُجَيْر بنت شَيْبَة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العُزّى بن عثمان بن عبد الدّار بن قُصَيّ[6] من قريش.

نشأ وترعرع في ظروف ملائمة كلّ الملاءمة لاستكمال مزاياه الشخصية، لأنه من بني أُميّة وهم البيت المالك حينذاك، وكانت مكّة مركزاً

---

(١) الخُتّل: كورة واسعة كثيرة المدن، وهي من إقليم الصَغَانِيَان، ولكنها أوسع من كورة الصَغَانِيَان وأكبر مدناً وأكثر خيراً، وهي على السُنْد، يقال لقصبتها: هُلْبُك انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٠١).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٢١٨).

(٣) تهذيب التهذيب (١/ ٣٠٧) وانظر سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٧١ - ٤٧٢).

(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٤٧).

(٦) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٧١) و (٥/ ٤٧٨).

علمياً يقصده كلّ علماء المسلمين للحج أو للعمرة، أو للحجّ والعمرة معاً، فيعيشون مدة من الزمن في كنف البيت الحرام: يتعلّمون ويعلّمون، ويجاور قسم منهم ما بقي على قيد الحياة أو لمدة من عمره تطول أو تقصر. لهذا نشأ أمية في حاضرة من حواضر العلوم الإسلاميّة، ليتعلّم علوم القرآن الكريم ويروي الحديث النبوي الشّريف، ويدرس التّاريخ والسِّيَرَ وأيّام العرب قبل الإسلام وبعده، ويتقن اللُّغة صَرْفاً ونَحْواً وبلاغةً وبياناً وعَروضاً، ويتلقّى فنون الأدب الرفيع شعراً ونثراً، ويتعلّم الحساب والهندسة وتقويم البلدان.

وقد تعلّم بالممارسة كثيراً من العلوم الإداريّة والسياسية، فقد كان قريباً من الحكّام، يرى ويسمع كيف تُعطى القرارات الخطيرة، وكيف تصرّف أمور الدولة.

كما تدرّب عملياً على الفنون العسكرية: ركوب الخيل، والرمي بالسّهام، والطّعن بالسيوف، والوخز بالرّماح، والسِّباحة، وتحمّل المشاق سيراً على الأقدام إلى مسافات شاسعة في أيام متعاقبة وفي ظروف جويّة قاسية، والحرمان من الطعام والشّراب مدة مناسبة، وتناول الطعام الخشن والماء العَسِر، وهو ما نطلق عليه في المصطلحات العسكرية المحدثة: التدريب العنيف.

وقد كان من دأب أشراف العرب، ممارسة الصيد الذي قد يستمرّ عدّة أيام في مختلف فصول السَّنة تبعاً لتيسّر الصيّد، وكانت منطقة الطّائف ومنطقة (بَدْر) بين مكة والمدينة وغيرهما من المناطق القريبة من مكّة والخارجة عن منطقة (الحَرَم) معروفة بتيسّر الصّيد. كما أنّ مياه البحر الأحمر في منطقة (جُدَّة) ملائمة جداً لتعلّم السباحة والتدريب عليها بالنسبة لأهل مكّة المكرّمة.

ولكنّ هذا التدريب العسكري العملي، لا يكفي، لأنّه تدريب فرديّ

يفيد المرء المدرّب عليه وحده، فلا بدّ من تلقي التدريب الإجمالي الذي يعينه على العمل بانسجام ضمن رفاقه في السِّلاح، ويتمّ مثل هذا التدريب في القرون الخالية، بممارسة الجهاد جندياً أو قائداً في ساحات القتال، ليطبِّق ما تعلّمه من فنون عسكريّة عمليّة فرداً، على القتال تطبيقاً عملياً ضمن جماعته من المجاهدين والفاتحين، وهذا ما نطلق عليه اليوم: التدريب الإجمالي.

وكما تدرّب على الفنون العسكرية العملية، تدرّب على الفنون العسكرية النظرية: أساليب القتال، و القضايا التعبوية، واختيار المعسكرات، وطرق الدفاع والهجوم والانسحاب والمطاردة، ومعالجة المشاكل العسكرية في الميدان، والقضايا الإداريّة.

وقد طبقّ الفنون العسكريّة النظريّة عملياً في ميدان الجهاد، وبذلك جمع التدريب الفني النظري والعملي، ووضع معلوماته العسكريّة في حيِّز التنفيذ.

لقد أرسى أُميّة أسس شخصيته على أسس رصينة، تلك الأسس التي كانت عبارة عن: الدين والتفقّه فيه، والعربيّة وإتقان علومها، والسياسة وممارسة قضاياها، والإدارة وحلّ مشاكلها، والعسكرية والتدريب على فنونها، وبذلك أصبح قادراً على تحمّل مسئولياته إدارياً وقائداً.

لقد تهيّأ لأُميّة العلم المكتسب والتجربة العملية، فآتت ثمراتها من المناصب التي تولّاها كما سنرى وشيكاً.

في قتال الخوارج:

في سنة إحدى وسبعين الهجرية (٦٩٠م) قَتَلَ عبدُ الملك بن مروان في العراق مُصْعَبَ بن الزبير، فأصبح العراق تحت حكم بني أُميّة[١].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ١٥١ ـ ١٦٥) وابن الأثير (٤/٣٢٣ ـ ٣٣٦).

ولما استولى عبد الملك على العراق بعد قتل مُصْعَب، استعمل على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسِيْد سنة إحدى وسبعين الهجرية[1].

وفي سنة اثنتين وسبعين الهجرية (٦٩١م) كان خروج أبي فُدَيْك عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة من بني قيس بن ثعلبة، فغلب على (البحرين)، فاجتمع على خالد بن عبد الله نزولُ قَطَرِيّ بن الفُجاءة (الأهواز) وأمرُ أبي فُدَيْك، فبعث شقيقه أُميّة بن عبد الله في جندٍ كثيف إلى أبي فُدَيْك.

ولكنّ أبا فُدَيك هزم أميّة، فكتب خالد إلى عبد الملك بن مروان بذلك[2]، وكان سببُ هزيمة أميّة هزيمةَ مَن معه من الرجال، حتى لم يجد إلى جانبه مقاتِلاً[3].

الفَاتح:

١ ـ تولىّ خُراسان بعد سلْم بن زياد عبدُ الله بن خازم، إذ كتب له سلْم عهداً على خُراسان وأعانه بمائة ألف درهم.

ولكنّ جمعاً غفيراً من بَكْر بن وائِل وغيرهم، رفضوا ولاية ابن خازِم، فأغاروا على ثقله، فقاتلوهم حتى كفّوا[4].

وأرسل سليمان بن مَرْثَدَ أحد بني سعد بن مالك بن ضُبَيْعَة بن قيس بن عُكَابة من المراثد بن ربيعة إلى ابن خازم أنّ العهد الذي معك لو استطاع صاحبه أن يُقيم بخُراسان، لم يخرج عنها ويوجِّهك!

ونزل سليمان بمشرعة سليمان، ونزل ابن خازم بمرو، واتّفقا أن يكتبا إلى ابن الزبير، فأيّهما أمَّره فهو الأمير.

---

(١) الطبري (٦/ ١٦٥) وابن الأثير (٤/ ٣٣٦).
(٢) الطبري (٦/ ١٧٤) وابن الأثير (٤/ ٣٤٥) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٦٤).
(٣) الطبري (٦/ ٢٠٠) وابن الأثير (٤/ ٣٦٧).
(٤) الطبري (٥/ ٥٤٦) وابن الأثير (٤/ ١٥٥) والبلاذري (٥٨٢).

فكتبا إلى عبد الله بن الزبير، فولّى عبد الله بن خازم خُراسان، فأبى سليمان أن يقبل ذلك[1].

ونشب القتال بين الجانبين، فقُتل سليمان.

واجتمع فَلُّ سليمان إلى عمر بن مَرْثد بالطالِقان، فسار إلى ابن خازم، فقُتل عمر في المعركة.

واجتمعت ربيعة إلى أوس بن ثعلبة بـ (هَراة)، فسار إليه ابن خازِم، فاقتتلوا قتالًا شديداً، فأصابت أَوْساً جراحات وهو عليل، فمات بعد أيام.

واغتنمت الترك هذه الفرصة، فكانت تغير على المسلمين، حتى بلغت قرب نَيْسَابور!![2].

وولى ابن خازم ابنه محمداً (هراة)، فهاج بنو تميم وقتلوا محمداً، فقتل ابن خازم أحد رؤساء بني تميم وأحد رجالهم، فأعلن بنو تميم الثورة على ابن خازم، وخلعوه[3].

وبعث عبد الملك بن مروان بولاية خُراسان إلى ابن خازم. فلم يقبل ولاية عبد الملك، لأنه تولّى من عبد الله بن الزبير.

وقُتل ابن خازم، في معركة بينه وبين بُكَيْر بن وِشاح الذي ولّاه عبد الملك خُراسان بعد رفض ابن خازم لولايته.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٥/٥٤٦ - ٥٥١) وابن الأثير (٤/١٥٥ - ١٥٨) والبلاذري (٥٨٣).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٥/٥٤٦ - ٥٥١) وابن الأثير (٤/١٥٦ - ١٥٨) والبلاذري (٥٨٢ - ٨٥٣).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٥/٦٢٣ - ٦٢٦) وابن الأثير (٤/٢٠٧ - ٢١٠) وانظر البلاذري (٥٨٤).

وتعصّب قوم لابن خازم، ووقع الاختلاف، وصارت طائفة مع بُكَيْر بن وشاح وطائفة عليه[1].

واستمرّ هذا التطاحن المرير سنة أربع وستين الهجرية إلى سنة أربع وسبعين الهجريّة (٦٨٣م ـ ٦٩٣م) لمدة عشر سنين، في فتنة سوداء شملت أرجاء خُراسان وبلاد ما وراء النهر، فأتت على الأخضر واليابس، وحصدت الفاتحين من العرب حصداً.

٢ ـ وكتب وجوه خُراسان إلى عبد الملك بن مروان، يعلمونه أنه لا تصلح خُراسان بعد الفتنة إلّا على رجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصّبون عليه، فعزل بكير بن وشاح عن خراسان وولّاها أُميّة بن عبد الله، وكانت ولاية بكير سنتين، وكان عزله وتولية أُمية سنة أربع وسبعين الهجريّة[2] (٦٩٣م).

وبذل أميّة قصارى جهده في إصلاح ما فسد من خُراسان حتى سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦م)، فلما استتبّ له الأمر، عزم على غزو (بُخارى)، ثم يعود منها إلى موسى بن عبد الله بن خازِم بـ (تِرْمِذ)[3].

وتجهّز أُميّة للغزو وتجهّز النّاس معه وفيهم بُكير بن وِشاح، وساروا باتجاه هدفهم بخارى، فلما بلغوا النهر (نهر جيحون) وأرادوا قطعه، قال أُميّة لبُكيْر: «إني قد استخلفتُ ابني على خُراسان، وأخاف أنّه لا يضبطها لأنّه غلام حَدَث، فارجعْ إلى (مَرْو) فاكفنيها، فإني قد وليّتكها، فقمْ بأمر ابني».

وانتخب بكير فرساناً كان عرفهم ووثق بهم، ورجع إلى (مرو) بعد أن أحرق السُّفن التي عبر عليها أميّة وجيشه النهر، وفي (مرو) أخذ ابن أميّة وحبسه وخلع أُميّة.

---

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٤/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦) وانظر البلاذري (٥٨٤ ـ ٥٨٥).
(٢) الطبري (٦/ ١٩٩) وابن الأثير (٤/ ٣٦٧) وانظر البلاذري (٥٨٦).
(٣) الطبري (٦/ ٣١٢) ابن الأثير (٤/ ٤٤٤) وانظر البلاذري (٥٨٦).

وبلغ أميّة الخبر، فصالح أهل بخارى على فدية قليلة، ثمّ رجع وأمر باتخاذ السّفن وعبر، وذكر للناس إحسانه إلى بُكَيْر مرة بعد أخرى وأنه كافأه بالعصيان.

ويدأ القتال بين قوّات أميّة من جهة، وقوّات بُكير من جهة ثانية، وكانت الحرب سجالًا بين الجانبين المحاربين.

وفرض أُميّة الحصار على (مرو)، فخاف بكير إن طال الحصار أن يخذله النّاس، فطلب الصلح، وأحبّ ذلك أيضاً أصحاب أُميّة، فاصطلحوا على أن يقضي أُميّة عن بكير أربعمائة ألف درهم، ويصل أصحابه، ويوليه أيّ كُور خراسان شاء.

ودخل أميّة مدينة (مرو) وَوَفَى لبكير، وعاد إلى ما كان من إكرامه.

ولكنّ بكيراً عاد إلى التآمر، وخطّط لخلع أميّة أو قتله، فقبض أمية على بكير وعلى ابني أخيه وقتلهم.

وفي رواية أخرى: أنّ بكيراً لم يصحب أميّة إلى النهر، وكان أمية قد استخلفه على (مرو)، فلما سار أميّة وعبر النهر خلعه، فجرى الأمر بينهما عى ما ذكرناه[(١)].

٣ ـ وفي هذه السنة أيضاً، عبر أميّة النهر للغزو، فحُوصر حتى جُهد هو وأصحابه ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك، فانصرف هو ومَن معه من الجند إلى (مرو)[(٢)].

٤ ـ وفي أوائل سنة ثمان وسبعين الهجرية (٦٩٧م)، غزا أميّة (الخُتَّل) وقد نقضوا بعد أن صالحهم سعيد بن عثمان بن عفان، فاستعاد فتحها[(٣)].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣١١ ـ ٣١٧) وابن الأثير (٤/ ٤٤٣ ـ ٤٤٦) وانظر البلاذري (٥٨٦).

(٢) الطبري (٦/ ٣١٧).

(٣) البلاذري (٥٨٦).

ولكنّ عبد الملك بن مروان عزل أميّة هذه السنة عن خُراسان، وضمّه إلى الحجّاج بن يوسف فبعث الحجّاج على خُراسان المُهَلّب بن أبي صُفْرَة الأزديّ[1].

وهكذا لم يستطع أُميّة استثمار ما بذله من جهود في إعادة الأمن والاستقرار، فعاش يكافح ما خلفته عشر سنوات عجاف من فوضى واضطراب في خراسان، فلما أعادها قاعدة إماميّة للفتح كما كانت عليه قبل الفتنة، نُقل من ولايتها مخلِّفاً ثمرات جهوده إلى غيره.

وقد بعث المهلّب ابنه حبيباً إلى خُراسان مقدمة له، فسار حبيب حتى قدم خراسان هو وأصحابه على البريد، فلم يعرض لأميّة ولا لعماله، وأقام عشرة أشهر حتى قدم عليه المهلّب سنة تسع وسبعين الهجرية[2] (٦٩٨م).

وعدم تعرّض حبيب بن المهلّب لأميّة وعماله، دليل على تقديره لجهودهم التي بذلوها في خراسان، ولو أساء عماله، لكان لخلفه معه ومعهم حساب آخر.

الإنسان:

قدم المُهَلّب بن أبي صُفْرَة الأَزْدِيّ خُراسان سنة تسع وسبعين الهجرية (٦٩٨م) أميراً، فانصرف عنها أميّة[3] إلى البصرة أو إلى دمشق.

وما قصّر أميّة في واجبه إدارياً، ولكن الفتنة كانت جسيمة في خراسان، فهي لم تقتصر على القبائل العربية، لكل قبيلة لواء وقائد، بل امتدّت إلى القبيلة العربية الواحدة. ففرقتها ألوية وقادة، ونشب القتال بين القبيلة الواحدة، كما جرى في بني تمِيْم مثلاً[4]، وهي القبيلة التي كان لها

---

(١) الطبري (٦/ ٣١٩ ـ ٣٢٠) وابن الأثير (٤/ ٤٤٨).
(٢) الطبري (٦/ ٣٢١) وابن الأثير (٤/ ٤٤٨).
(٣) الطبري (٦/ ٣٢٤).
(٤) الطبري (٦/ ١٩٩) وابن الأثير (٤/ ٣٦٧).

أعظم الفضل في فتح خراسان وما وراء النهر في أيام الجماعة، فتفرّقت كلمتها وأصبحت سيوفها عليها في أيام الفتنة.

لذلك كان على أُميّة أن يصلح ما فسد في خراسان ويوحّد الكلمة ويجمع الصف ويفرض سيطرة الدولة ويعيد للحكّام هيبتهم واحترامهم في نفوس الشعب، حتى يجعل من خراسان قاعدة أمينة لانطلاق الفتح واستعادة البلاد التي سبق فتحها وانتفضت، فقضى نحو أربع سنوات امتدّت من سنة أربع وسبعين الهجرية إلى سنة سبع وسبعين الهجرية، في إعادة خراسان إلى الجماعة وقطع دابر الفتنة وأسبابها، فكتب له التوفيق في مهمته، فاستطاع أن ينطلق إلى الفتح واستعادة الفتح، فعادت إلى خراسان الوحدة كما كانت عليه قبل الفتنة.

ولا نعلم سبباً يسوِّغ عزل أُميّة عن خراسان، غير رغبة عبد الملك بن مروان في تولية الحجّاج بن يوسف الثّقفِيّ العراقَيْن والمشرق الإسلامي: خُراسان وسِجِسْتان، جزاء إخلاصه للدولة وتفانيه في خدمتها وانتصارته على عبد الله بن الزبير والخوارج وفي غيرها من الحروب؛ «فأكرموا الحجّاج، فإنه الذي وطّأ لكم المنابر، ودوّخ لكم البلاد وأذلّ الأعداء»[1]، كما قال عبد الملك في وصيته لبنيه حين حضرته الوفاة، وأعطاه الحرّية الكاملة في تولية العُمّال الذين يستطيع التعاون معهم، فولّى الحجّاج القادة الذين عاونوه في حروبه وأثبتوا كفاية فيها، جزاء إخلاصهم وتقديراً لكفايتهم. ولم يكن أُميّة ممن عاون الحجّاج في حروبه ولا ممن استعان بهم في حمل أعبائها، ويبدو أنّ الحجّاج قدّر أنه لا يستطيع السيطرة على أميّة باعتباره من البيت المالك كما لا يستطيع توجيهه الوجهة التي يريدها، لأنّ الحجّاج لا فضل له على أميّة في توليته خراسان بل ولّاه عبد الملك، لهذا اقترح على عبد الملك أن يعزله ليولي الحجّاج مَن يستطيع السيطرة عليه وتوجيهه، فكان له ما أراد.

---

(١) ابن الأثير (٤/٥١٨).

وقد يكون أسلوب الإدارة التي يرتضيها أُميّة في الحكم غير أسلوب الإدارة التي يرتضيها الحجّاج في الحكم، فقد جلس عبد الملك بن مروان يوماً وعند رأسه خالد بن عبد الله بن خالد بن أَسِيْد وعند رجليه أُميّة شقيقُ خالد، وأدخلت عليه الأموال التي جاءت من قِبَل الحجّاج حتى وُضعت بين يديه، فقال: «هذا والله التوفير وهذه الأمانة! لا ما فعل هذا ـ وأشار إلى خالد ـ استعملته على العراق، فاستعمل كلّ مُلِطّ[1] فاسق، فأدّوا إليه من العَشرة واحداً، وأدّى إليّ من العَشرة واحداً؛ واستعملت هذا على خُراسان ـ وأشار إلى أُميّة، فأهدى إليّ بِرْذونين حَطِمَيْن[2]، فإن استعملتكم ضَيَّعتم، وإن عزلتُكم قلتم استخفّ بنا وقَطَعَ أَرْحامنا». قال خالد بن عبد الله: «استَعْملتني على العراق، وأهلُه رجلان: سامع مطيع مناصح، وعدو مُبْغض مُكاشح، فأما السامع المطيع المناصح، فإنّا جزيناه ليزداد وُدّاً إلى وُدّه، وأما المبغض المكاشح، فإنا دَارَيْنَا ضِغْنه، وسَللنا حِقْده، وكثّرنا لك المودّة في صدور رعيّتك؛ وإنّ هذا جَنَى الأموال، وزرع لكَ البغضاء في قلوب الرّجال، فيوشك أن تَنْبُت البغضاء، فلا أموال ولا رجال»، فلما خرج ابن الأشعث[3]، قال عبد الملك: «هذا والله ما قال خالد»[4].

والحقّ أنّ الوقت الذي تولّى فيه أميّة خراسان غير الوقت الذي عزل فيه: الأول كان لا بد من المرونة والحكمة لاستئصال جذور الفتنة، والثاني انتهاء الفتنة وإقبال الاستقرار، فاستطاع أمية أن يوفّق في استعمال سياسة معينة خلال الوقت الأول، فمن الصعب عليه أن يغير سياسته من حال إلى حال في الوقت الثاني، فلا بد من عزله ليتولى غيره ويفرض سياسته الجديدة المناسبة لذلك الوقت: وقت استتباب الأمن، والجماعة، والفتح، واستعادة الفتح.

---

(١) الملط: الذي يمنع الحق.

(٢) حطمين: هزيلين قد أسَنّا فَضَعُفَا.

(٣) كان خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث في شعبان من سنة اثنتين وثمانين الهجريّة.

(٤) العقد الفريد (٤/ ٢٣ ـ ٢٤).

والفتح، واستعادة الفتح، بحاجة إلى قادة من ذوي الماضي النَاصع المجيد، غير متّهمين بالفرار، ويؤثرون الموت على الفرار.

وقد كان الحجّاج يتّهم أُميّة بالفرار، فرّ يوم (مَرْداء هَجَر)[١] من أبي فُدَيك، كما ذكرنا، فقد أُتي الحجّاج بدواب من دواب أُميَّة قد وسم على أفخاذها (عُدَّة)، فأمر الحجّاج أن يكتب تحت ذلك: (للفرار)[٢].

وما كان الحجّاج يريد أن يتولى الإدارة والقيادة بإمرته متّهمٌ بالفرار، حتى ولو كان لأُميّة ما يسوِّغ به فراره.

لقد كان أُميَّة يحبّ العافية، فقد صالح بُكَيْر بن وشاح فور مبادرة بكير بعرض الصّلح، فصالحه على أن يقضي عنه أربعمائة ألف درهم، ويَصِل أصحابه، ويوليّه أيّ كُوَر خُراسان شاء[٣]، بينما كان أميّة متفوقاً على بكير، وكان بإمكانه أن يسحقه سحقاً، ولكنه آثر حقن الدماء، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، قَبِلَ أُميَّة الصلح وبذل مبالغ ضخمة لبكير وأصحابه وكأنه هو المغلوب وليس الغالب.

وكان أُميَّة وفياً، فقد كان ملتزماً بشروط الصّلح التي أبرمها مع بكير، ولم ينحرف عن تطبيقها بالرغم من انحراف بكير وتآمره المكشوف[٤].

وكان عادلًا، فقد نقل إليه أنّ بكير بن وشاح قد دعا سراً إلى خلعه، فقال: «ما أُصدِّق بهذا وقد فعل ما فعل فآمنتُه ووصلتُه». ولم يتّخذ أيّ إجراء عقابيّ بحق بكير حتى سمع أقوال الشهود العدول، وحينذاك أنزل ببكير العقاب الذي يستحقّه[٥].

---

(١) مرداء هجر: موضع بهجر، وقيل: رملة دونها لا تنبت شيئاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٠).

(٢) العقد الفريد (١/ ١٤٣).

(٣) الطبري (٦/ ٣١٥).

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣١٥ ـ ٣١٦).

(٥) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

وكان أميّة سخيّاً[1]، وقد بلغ من سخائه أنّه أرسل إلى عتّاب وهو الذي أغرى بكير بن وشاح بإحراق السُّفن التي عبر أميّة وجيشه بها النهر، فقال له: «أنت صاحب المشورة؟!»، فقال: «نعم، أصلح الله الأمير!»، قال: «ولِمَ؟!»، قال: «خفّ ما كان في يدي وكثر دَيْني، وأعديت على غرمائي»، فقال: «ويحك! فضربت بين المسلمين، وأحرقتَ السفن والمسلمون في بلاد العدو، وما خفتَ الله!»، فقال: «قد كان ذلك، فأستغفر الله»، قال: «كم دَيْنُك؟»، قال: «عشرون ألفاً»، قال: «تكفّ عن غِشّ المسلمين وأقضِي دينك؟»، قال: «نعم، جعلني الله فداك»، فضحك أميّة وقال: «إنّ ظني بك غير ما تقول، وسأقضي عنك»، فأدى عنه عشرين ألف درهم[2].

وقد مدحه نَهَار بن تَوْسِعَة فقال:

أُمَيَّةُ يُعْطِيْكَ اللُّهَا[3] ما سألته ... وإن أنت لم تسأل أُميّة أضعفا

ويعطيك ما أعطاك جذلان ضاحكاً ... إذا عبسَ الكَزُّ[4] اليَّدَيْن وقَفْقَفَا[5]

هنيئاً مريئاً جودُ كفِّ ابن خالدٍ ... إذا اللهسك[6] الرِّعْدِيْد[7] أَعْطَى تكلُّفا

وقال أيضاً نَهَار:

أمسى أُميَّة يعطي المال سائله ... عفواً إذا ضنَّ بالمال المباخيلُ

لا يُتْبِع المنَّ مَن أعطاه منفسة ... إنّ اللئيم زهاهُ القالُ والقيلُ

---

(١) الطبري (٦/ ٣١٥).

(٢) الطبري(٦/ ٣١٥).

(٣) لُهاً: جمع اللُّهْوَة، العطيّة، أو أفضل العطايا وأجزلها، والألف من الدنانير والدراهم (ولا يقال لغيره).

(٤) الكزّ: اليابس المنقبض من البرد، وقليل الخير، وكز اليدين: البخيل.

(٥) قفقف: اصطكّت أسنانه واضطرب حنكاه من البرد وغيره.

(٦) اللهسك: لم أجد لها معنى، ويبدو أنها خطأ في النقل، وقد تكون: المِلْحَسُ: الحريص، أو الذي يأخذ كلّ ما قدر عليه.

(٧) الرعديد: الجبان يرتعد ويضطرب عند القتال جبناً. (ج): رعاديد.

بحران بحر نَمِيرٍ[1] فازَ واردُهُ إذا البحور تَبَاريح[2] صَلاصِيْل[3]

وكان أميّة سهلًا ليّناً[4]، لذلك استطاع جمع القلوب وتوحيد الصفوف وإشاعة الألفة والسّلام والاطمئنان.

وكان جواداً، لم يُعْطِ أحدٌ من عمّال خراسان بها مثل عطاياه. وكان مع ذلك ثقيلًا على أهل خُراسان، لأنه كان فيه زهو شديد. وكان يقول: «ما أكتفي بخُراسان و سِجِسْتَان لمطبخي». ولأنه أخذ الناس بالخراج، واشتدّ عليهم فيه[5].

وكان رجل يصحب أُميَّة، فاشتكى فلم يَعُدْه، وكان أُميّة عظيم الكبر، فقال: «لو كنّا نعود أحداً لعُدناك»، فقال الرجل:

إنّ مَن يرتَجي أميّة بعدي لَكَمَنْ يرتجي هَوِيَّ[6] السَّرابِ
كنتُ أرجوه والرجاء كذوبٌ فإذا عهده كعهد الغراب[7]

وكان أميّة محدِّثاً، ولكنه كان قليل الحديث[8]، رُوى عنه أنه قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنه: «إنّا نجد صلاة الحَضَر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السَّفر»، فقال له: «يا ابن أخي! إنّ الله بعث نبيّنا محمداً ﷺ، ونحن لا نعلم شيئاً، وإنا نفعل كما رأيناه يفعل» وزاد في رواية

---

(١) النمير من الماء: الطيِّب الناجع في الرِّي. ويقال: حَسَبٌ نمير: زاكٍ.

(٢) التباريح: الشدائد. والتباريح: جمع البراح: المتّسع من الأرض لا زرع فيه ولا شجر.

(٣) صلاصيل: جمع صُلْصُل، البقية من الماء في الغدير أو الإناء، وتجمع أيضاً: صلاصل. وشعر نهار في تهذيب ابن عساكر (٣/ ١٣٢).

(٤) الطبري (٦/ ٣١٥).

(٥) الطبري (٦/ ٣١٥ ـ ٣١٦).

(٦) هوي: الدويّ في الأذن.

(٧) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٣٢).

(٨) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٧٨) وانظر تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٣١) وتهذيب التهذيب (١/ ٣٧٢).

ثانية: «وصلاة السَّفر سُنَّة سنّها رسول الله ﷺ»، وروى عنه أيضاً أنه قال: «كان رسول الله ﷺ يستفتح على العدو بصعاليك المهاجرين»[1]، أي يطلب الفتح والنصرة بدعاء فقرائهم.

وليست لأمية صحبة، ولكنه كان من التابعين، روى عن عبد الله بن عمر، وروى عنه عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبو إسحاق والزُّهري وعطيّة بن قيس والمهلّب بن أبي صفرة، وهو معدود في الثقات[2].

لقد كان أميّة من الإداريين الذين يبنون ولا يهدمون ويوحّدون ولا يفرّقون، مرناً يحبّ العافية ولا يختلق المشاكل لنفسه ولا للآخرين، يؤثر الصّلح على العداء، وفياً، عادلاً، سخياً، سهلاً ليّناً محدّثاً.

ولكنه كان متكبّراً، فضيعت عليه هذه النقيصة كثيراً من مزاياه، وكفى المرء نبلاً أن تُعَدَّ معايبه.

وقد آن لي أن أتحدّث عنه في شئونه الخاصة.

ذكرنا أنّ أباه هو عبد الله بن خالد بن أَسِيْد من التابعين، وكان قليل الحديث، أمّه: رَيْطَة بنت عبد الله بن خُزاعي بن أَسَيْد من بني ثقيف.

وإخوة أمية: خالد وأميّة الذي نتحدّث عنه وعبد الرحمن، أمّهم أمّ حُجير بنت شَيْبَة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العُزّى بن عثمان بن عبد الدّار بن قُصَيّ.

وعثمان بن عبد الله وأمه أم سعيد بنت عثمان بن عفان.

وعبد العزيز وعبد الملك، وأمّهما أمّ حبيب بنت جُبَيْر بن مُطْعِم بن عَدِيّ بن نَوْفَل بن عبد مَناف.

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٣١)، وروى الحديث ابن أبي شيبة والطبراني، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ١٩٧) - القاهرة - ١٣٧٣هـ - ط١.

(٢) تهذيب التهذيب (١/ ٣٧١ - ٣٧٢)، وانظر تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٣١).

وعِمْران وعمرو والقاسم وأمّ عمرو وزينب، وأمّهم السّريّة بنت عبد عمرو بن حِصْن بن حِذَيْفَة بن بدر الفَزاري.

ومحمد والحُصَيْن والمخارِق وأمّ عبد العزيز وأمّ عبد الملك وأم محمد ومريم، وأمّهم مُليكة بنت الحُصَين بن عبد يَغُوث بن الأزرق بن مُراد.

وأبو عثمان لأمّ ولد، والحارث لأمّ ولد[1] أيضاً.

وتزوّج أُميّة أمَّ يحيى بنت محمد بن عروة بن الزبير[2]، وأم أيّوب بنت عبد الله بن عِمارة بن الوليد بن عُقبَة[3]، ولا نعلم شيئاً عن زوجاته الأخريات، كما لا نعلم هل له عقب أم لا عقب له.

وكانت داره في دمشق في حي (الرّاهب) قبلي (المصلّى)[4].

وقد مات في ولاية عبد الملك بن مروان[5] الذي توفي سنة ست وثمانين الهجرية[6] (٧٠٥م)، وقد دعا عبد الملك يوماً بغدائه فقال: «ادعوا خالد بن يزيد بن معاوية»، فقالوا: مات يا أمير المؤمنين، فقال: «ادعوا ابن أَسِيْد»، فقالوا: مات، فقالوا: «ادعوا رَوْح بن زِنْباع»، فقالوا: مات، فقال: «ارفعْ... ارفع...»، يعني الغداء، فلما ركب تمثل بهذين البيتين:

ذهبت لِمَا بي وانقضتْ آجالهم ... وغبرت بعدهُم ولست بغابر
وغبرت بعدهم، فأسكن مرّة ... بطن العقيق ومرّة بالظّاهر

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٧١).
(٢) المحبّر (٤٥١).
(٣) المحبّر (٤٥٥).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٥/ ١٣١).
(٥) تهذيب التهذيب (١/ ٣٧٢).
(٦) العبر (١/ ١٠٢).

وهؤلاء الثلاثة المتقدِّمة أسماؤهم ماتوا بالبصرة في عام واحد عام أربع وثمانين الهجرية[1] (٧٠٣م)، وأرجِّح أنه مات في هذه السّنة.

وقيل إنه مات سنة ست وثمانين الهجرية[2]، وقيل: مات سنة سبع وثمانين الهجرية[3] (٧٠٦م).

وكان عبد الملك بن مروان يحبّ أُميّة بن عبد الله، ويقول: «نتيجتي» أي لِدتي[4]، وقد ولد عبد الملك بن مروان سنة ست وعشرين الهجرية[5] (٦٤٦م)، فيكون مولد أُميّة سنة ست وعشرين الهجريّة (٦٤٦م)، قبل هذه السنة بسنوات قليلة أو بعدها بسنوات قليلة.

ومعنى ذلك أنه توفي سنة أربع وثمانين وله من العمر ثمانٍ وخمسون سنة قمرية.

القائد:

خاف أهل خُراسان أن تعود الحرب وتفسد البلاد، ويقهرهم عدوّهم من المشركين، فكتبوا إلى عبد الملك بن مَرْوان: «إنّ خُراسان لا تصلح بعد الفتنة إلّا على رجلٍ من قريش، لا يحسدونه ولا يتعصّبون عليه».

وقال عبد الملك بعد أن تسلّم رسالة أهل خُراسان: «خُراسان ثَغْر المشرق، وقد كان به من الشرِّ ما كان، وعليه هذا التميميّ - يريد بُكير بن وِشاح - وقد تعصّب الناس وخافوا أن يصيروا إلى ما كانوا عليه، فيهلك الثَّغْر ومَنْ فيه؛ وقد سألوا أن أولّي أمرهم رجلًا من قريش، فيسمعوا له ويطيعوا». فقال أميّة: «يا أمير المؤمنين! تداركهم برجلٍ منك»، قال: «لولا

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٣/ ١٣٢ - ١٣٣).
(٢) تهذيب التهذيب (١/ ٣٧٢).
(٣) ابن الأثير (٤/ ٥٣٠) وتهذيب ابن عساكر (٣/ ١٣٣) وتهذيب التهذيب (١/ ٣٧٢).
(٤) الطبري (٦/ ٢٠٠).
(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٤).

انحيازك عن أبي فُدَيْك، كنتَ ذلك الرّجل»، قال: «والله يا أمير المؤمنين، ما انحزتُ حتى لم أجد مقاتلًا، وخَذَلني الناس، فرأيتُ أنّ انحيازي إلى فئة أفضل من تعريضي عصبةً بقيت من المسلمين للهلكة، وقد علم ذلك مرَّارُ بن عبد الرحمن بن أبي بَكْرَة، وكتبَ إليك خالد بن عبد الله[1] بما بلغه من عُذري»، وكان خالد كتب إلى عبد الملك بعذره، ويُخْبره أنّ الناس خذلوه، فقال مَرَّار: «صدق أميّة يا أمير المؤمنين! لقد صبر حتى لم يجد مُقاتلًا، وخذله الناس»، فولّاه عبد الملك خُراسان، فقال الناس: ما رأينا أحداً عُوِّض من هزيمةٍ ما عُوِّض أُميّة، فَرَّ مِنْ أبي فُدَيك، فاستُعْمل على خراسان[2]!!!

ومن الواضح أنّ عبد الملك اقتنع بعذر أميّة، وإلّا لما ولّاه خراسان لأنّ من واجبات الوالي في تلك الأيام قيادة الجيوش للفتح واستعادة الفتح بالإضافة إلى واجباته الأخرى، ولا يمكن أن يولّى قيادةُ الجيوش جبان!

وكما قبل عبد الملك عذر أميّة، قبله عقلاء القوم ومنصفوهم، فحين انحاز أُميّة وقدم البصرة، دخل عليه أهل البصرة فاحتاروا كيف يكلّمونه ولا ما يُلْقونه من القول، يهنئونه أم يُعَزّونه، حتى دخل عليه عبد الله بن الأهتم، فاستشرف له الناسُ وقالوا: ما عسى أن يقال للمنهزم! فسلّم وقال: «مرحباً بالصّابر المخذول، الذي خذله قومه. الحمد لله الذي نَظَر لنا عليك ولم يَنْظُر لك علينا. فقد تعرّضتَ للشّهادة جُهدَك، ولكن علم اللّهُ تعالى حاجة أهل الإسلام إليك، فأبقاك لهم بخذلان مَن معك لك»، فقال أميّة بن عبد الله: «ما وجدتُ أحداً أخبرني عن نفسي غيرك»[3].

ولكنّ أكثر الناس لا يرحمون، خاصة الحكّام الذين يستطيعون أن يعطوا ويمنعوا ويصلوا ويقطعوا، ويأخذوا حقوق المظلوم من الظالم ويشيعوا

---

(١) هو والي البصرة حينذاك وشقيق أميّة بن عبد الله.
(٢) الطبري (٦/١٩٩ ـ ٢٠٠) وابن الأثير (٤/٣٦٧).
(٣) العقد الفريد (١/١٤٣).

العدل بين الرعيّة، فإنّ هؤلاء إذا كان قد قصّروا في ميدان القتال بالهروب، أو اتُّهموا بأعراضِهم حقّاً أو باطلًا، أو غُمزوا بنزاهتهم صدقاً أو زوراً، فإنّ أكثر الناس لا يرحمونهم حتى ولو كانت لهم أعذارهم الواضحة الجليّة، فهم هدف لكل قاذف، ولا ينجون من اللّمز سرّاً أو جهراً في حياتهم وبعد موتهم أيضاً. إذ يبقى هروب الهارب ووصمة العِرض وتهمة غير النزيه في الشِّعر والنثر مسطّرة وفي الصحف، ينقلها الأبْناء عن الآباء والخلف عن السّلف، وتبقى ما بقيت الكتب وبقي القرّاء.

ولا تزال الكتب تروي النكتة البارعة والنثر والشعر عن هروب أُميّة، معرضة عن عذره الصادق الواضح الصريح.

فمن النكات: جلس يوماً أميّة بالبصرة فقال: «سرتُ على فرسي المِهْرَجان[1] من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام»، فقال له بعض جلسائه: «أصْلَحَ الله الأمير! فلو ركبتَ النيروز لسرت إليها في يوم واحد»[2].

والوضع في هذه النكتة ظاهر، والهدف هو التشنيع.

وفي أميّة قال الشاعر:

إذا صوّت العصفور طارَ فُؤادُه ولَيثٌ حَدِيدُ النّاب عندَ الثّرائد[3]

ومن الواضح أنّ الشاعر مفترٍ في شعره على أميّة، حفّزه إلى قوله طمعه الذي لم يتحقق، ولكن قوله بقي إلى هذا اليوم وسيبقى أبداً.

وقد تعمّدت أن أذكر هذه الشّواهد، مع يقيني بانخرافها عن الحق، لأُركِّز على (العبرة)، فلا بدّ أن يحاذر المرء الفرار من ساحة القتال، حتى ولو كان مضطراً، لأن عار الفرار - وبخاصة عند العرب - لا تمحوه الأيام.

وما يقال عن الفرار، يقال عن تلّوث العِرض والنزاهة، فعارهما لا

(١) المهرجان: أي من يوم المهرجان.
(٢) العقد الفريد (١/ ١٤٢ - ١٤٣).
(٣) العقد الفريد (١/ ١٤٣) و (١/ ١٤٥).

تمحوه الأيام، فلينظر المرء كيف يصون عرضه ونزاهته، حتى لا تلوك سيرته الألسن في حياته وبعد موته.

وبالنسبة لأُميّة، فقد كان له عذره في هروبه، ولم يكن بسبب الجبن، فما كان الرجل جباناً، وإلّا لجعله عبد الملك جابياً ولم يجعله غازياً، في أهم منطقة من مناطق المشرق الإسلامي وأكثرها تفجرّاً وفتنة وانتقاضاً، وهي خُراسان وسِجِسْتَان.

لقد أعدّ أُميّة نفسه لتحمُّل الأعباء الجسام، بالعلم المكتسب، وكان أكبر اختبار لتطبيق هذا العلم عمليّاً صادفه أُميّة في حياته العلمية، هو توليته خُراسان وسِجستان.

وكانت مجمل خطتّه في إعادة البلاد التي تولّاها من (الفتنة) إلى (الجماعة)، تتلخّص في إزالة الأحقاد وجمع الشّمل وتوحيد الصفوف وفرض سيطرة الدولة وهيبتها بالحسنى والمال والمناصب ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فإذا أخفق فالقوّة والقهر وحجز الحريّة هي آخر الدواء الذي يتقبّله المضطر ولا يتقبّله غير المضطر، فقد كان أُميّة يحبّ العافية ولا يميل إلى الاستفزاز.

ويبدو أنه نجح في تطبيق خطّته السلمية في الداخل، فعادت البلاد التي يحكمها قاعدة لانطلاق الفتح واستعادة الفتح، كما كانت عليه في أيام الجماعة وقبل أيام الفتنة التي استمرت عشر سنوات.

والواقع أنّ ابتعاده عن وسال الضغط وعلى رأسها الاقتتال الداخلي، ساعده على تحقيق أهدافه في إزالة أسباب الفتنة، ولو أنه لم يستطع أن يقطع دابرها جذرياً، إذ انتقض بُكَيْر بن وشاح منتهزاً فرصة ابتعاد أُميّة عن (مرو) لاستعادة فتح ما وراء النهر، فعاد أُميّة أدراجه على عجل لتطويق الفتنة الجديدة ووضع حدٍ لاستفحالها.

وما كان لأميّة ولا لغيره أن يقضي بالأسلوب السلمي على فتنة امتدّت

جذورها عميقاً خلال عشر سنوات بعيداً في أغوار النفوس والقلوب معاً، وما حقّقه أميّة في هذا المجال من نجاح يمكن اعتباره نجاحاً جيّداً حقاً.

وخطّة أميّة الداخلية هي مقدِّمة لخطّته الخارجية من الفتح واستعادة الفتح، فنجح في استعادة السيطرة على بخارى والخُتَّل في سنة وبعض السنة، ولكنه لم يستطع القضاء على فتنة موسى بن عبد الله بن خازِم، الذي جعل من (تِرمِذ) عاصمة له، وأقام في الحصن الذي في تلك المدينة خمس عشرة سنة، وصار ما وراء النهر له لا ينازعه فيه أحد[1].

وما قصّر أُميّة، ولكنّ انتقاض بكير بن وشاح، حرم أميّة من إكمال تنفيذ خطته في القضاء نهائياً على فتنة عاهل ترمذ غير المتوج، الثائر على الدولة، والخارج عن سيطرة والي خُراسان بخاصة والدولة بعامة.

لقد كان أُميّة قادراً على إعداد خطّة سليمة وتطبيقها بمراحل مناسبة، وكانت قراراته صحيحة وقابلة للتطبيق.

وكان يطبِّق أكثر مبادئ الحرب في عملياته العسكرية، فهو يطبِّق مبدأ: (اختيار المقصد وإدامته) بشكل يدعو إلى التقدير، وهو يطبِّق مبدأ: (المباغتة)، فقد كان في خطته مباغتة موسى بن عبد الله بن خازم في وقت لا يتوقّعه» فيداهمه بعد إنجاز مهمته في (بخارى)، بينما يعتقد موسى أنه لن يُداهم هذه السنة على الأقل، لانشغال أميّة في جبهة (بخارى) التي تستنفد كل موسم الصيف، ويعود أمية أدراجه إلى مرو بعد عمليات بخارى، بينما كانت خطتهُ المرسومة تقضي أن يهاجم موسى بعد رضوخ بخارى ولا يعود إلى (مرو) قبل القضاء على تمرّد موسى.

وكان يطبِّق مبدأ: (حشد القوّة)، «فقد كانت لهم عُدَّة وعَدَد، ونجدة وسلاح ظاهر وأداة كاملة، ليقاتلوا عن أنفسهم حتى يبلغوا الصين»[2]، كما وصف بُكَيْر بن وِشاح حشد أمية لقوّاته واستعداده الكامل للحرب.

---

(١) ابن الأثير (٤/٥١١).

(٢) الطبري (٦/ ٦١٢ ـ ٦١٣).

وكان يطبِّق مبدأ: (الأَمن)، ولا نعلم أنّ العدو باغت قوّاته في أية معركة خاضها بعد سنة سبع وسبعين الهجرية في قتال الصُّغد.

وكان يطبِّق مبدأ: (المرونة)، فقد عاد أدراجه بعد سماعه بثورة بُكَيْر بن وِشاح، ولم يكمل خطّته الأصلية.

وكان يطبِّق مبدأ: (إدامة المعنويات)، ويحرص على بقاء قوّاته متماسكة، لا تنهار معنوياتها، وتحافظ على التحلّي بالمعنويات العالية.

وكان يطبِّق مبدأ: (الأمور الإدارية) بشكل متميِّز، ينفق الأموال على جيشه بلا حساب ولا رقيب، فقد كان حرّ التصرّف بالأموال التي يجمعها من خُراسان وسِجِستان، ولا يبعث منها شيئاً إلى الخليفة في دمشق.

وكان يقاتل بسلاحين: عقله وسيفه، ولا يستعمل سيفه إلّا إذا عجز عقله عن معالجة المعضلات وإيجاد الحلول النّاجعة للمشاكل.

وكان قائداً مكيثاً بعيداً عن التهوّر والمغامرة، قويَّ الشخصية، محبّاً لرجاله محبوباً منهم، يثق بالذين يعملون بإمرته ويثقون به، يتحلّى بالضبط المتين.

لقد تيسّر لأميّة العلم المكتسب، وتيسّرت له التجربة العملية، ولا يستطيع أحد أن يقرِّر أنه تمتّع بالطبع الموهوب، لأنّ دراسة المعارك التي خاضها كما وصفها المؤرخون، لا تدلّ على ذلك ولا تنفيه عنه، كما أنّ حروبه كانت محدودة، إذ لم يبق طويلًا على خراسان بعد أن استقرّت أمورها، ليستثمر جهوده في ميدان الجهاد فاتحاً ومستعيداً للفتح.

ومهما يكن من أمر، فيمكن اعتبار أُميّة قائداً جيداً لا قائداً متميِّزاً.

أُميّة في التّارِيخ:

يذكر التارِيخ لأميّة، بأنه استعاد فتح بخَارى والخُتَّل من بلاد ما وراء النهر.

ويذكر له، بأنه أعاد الأمن والاستقرار إلى خُراسان وسِجِستان بعد فتنة استمرت عشر سنوات.

ويذكر له مزاياه العربية الإسلاميّة وحبّه للخير.

يرحم الله الإداريّ الحازم، القائد الفاتح، العالم المحدِّث، أُميَّة بن عبد الله بن خالد الأموي.

المُهَلَّب بن أبي صُفْرة الأَزْدِيّ
القائد الذي مَهّدَ لفتح السِّند وفتح منطقة مدينة كِش ومدينة خُجَنْدة[1] واستعاد منطقة الخُتَّل

«هذا سيد أهل العراق»

(عبد الله بن الزبير)

نسبه وأهله:

هو أبو سعيد المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة بن سَرَّاق[2] بن صُبَيْح[3] بن كِنْدِيّ بن عمرو بن عَدِيّ بن وائل بن الحارث بن العَتِيْك بن الأسد[4] بن عِمران بن عمرو مُزَيْقِيَاء[5] بن عامر ماء السماء[6] بن حارثة بن امرئ

(١) خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ نهر سيحون، بينها وبين سمرقند عشرة أيام شرقاً. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٠٢).

(٢) ويقال: ابن سارق. انظر الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) والإصابة (٧/ ١٠٥).

(٣) في وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢): ابن صبح، وكذلك في جمهرة أنساب العرب (٣٦٧).

(٤) في الإصابة (٧/ ١٠٥) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢): ابن الأزد.

(٥) مزيقياء: لقب عمرو المذكور، وكان من ملوك اليمن، وإنما لقب بذلك لأنه كان يلبس كلّ يوم حلتين منسوجتين بالذهب، فإذا أمسى مزقهما وخلعهما لأنه يكره أن يعود فيهما ويأنف أن يلبسهما أحد غيره. وعمرو هذا هو الذي انتقل من اليمن إلى الشام والأنصار من ولده وهم الأوس والخزرج. وقد ذكر ابن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب في كتابه. (القصد الأمم في أنساب العرب والعجم): أنّ الأكراد من نسل عمرو هذا وأنهم وقعوا إلى أرض العجم فتناسلوا بها وكثر ولدهم، فسموا: الكرد فقال بعض الشعراء:

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس ... ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

انظر وفيان الأعيان (٤/ ٤٣٩).

(٦) في وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٩): عامر ماء السماء، لا عامر بن ماء السماء كما ورد في أعلاه، وقد لقب بماء السماء لجوده وكثرة نفعه فشبّه بالغيث.

القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزدَ الأزْدِيّ العَتَكِيّ[1]، وهو من أَزْد العتيك ـ أزد (دَبَا)[2].

وكان أبو صُفْرَة والد المهلّب مسلماً على عهد النبيّ ﷺ وأدى إليه زكاة ماله ولكنه لم يفد عليه؛ وقد وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عشرة من ولده أصغرهم المهلّب، فجعل عمر ينظر إليهم ويتوسّم، ثم قال لأبي صُفْرة: «هذا سيد ولدك»[3]؛ وقيل: إنه وفد على أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع بنيه[4]، ورواية وفوده على أبي بكر ضعيفة كما سنرى.

وقد ذكر الواقدي: أنّ أهل (دَبَا) أسلموا على عهد رسول الله ﷺ ثم ارتدوا بعده ومنعوا الزكاة، فوجه إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه عِكْرِمة بن أبي جَهْل المخزومي فقاتلهم فهزمهم وأثخن بهم القتل، فتحصن فَلُّهم في حصن لهم، فحصرهم المسلمون حتى نزلوا على حكم عكرمة. فقتل مائة من أشرافهم وسبى ذراريهم وبعث بهم إلى أبي بكر ـ وفيهم أبو صُفرة غلام لم يبلغ، فأعتقهم عمر بن الخطاب وقال: «اذهبوا حيث شئتم»، فتفرقوا؛ فكان أبو صفرة ممن نزل البصرة»[5].

---

(1) أسد الغابة (٥/ ٢٣١). وانظر الإصابة (٣/ ٣٠٣) و (٧/ ١٠٥) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) وطبقات ابن سعد (٧/ ١٠١) و (٧/ ١٢٩) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢) والمعارف (٣٩٩) والبلاذري (٣٠٧) وسرح العيون (١٠٢). واسم أبي صفرة: ظالم، انظر جمهرة أنساب العرب (٣٦٧).

(2) دبا: اسم موضع بين عُمان والبحرين، انظر وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٩) والمعارف (٣٩٩). وهي مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٠).
وقد أضيفت جماعة من الأزد إلى (دبا) لما نزلوها. وكان الأزد عند تفرقهم أضيفت كل جماعة منهم إلى شيء يميزها عن غيرها. فقيل: أزد دبا. وأزد شنوأة. وأزد عمان وأزد السراة، ومرجع الكل إلى الأزد المذكور. انظر وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠).

(3) أسد الغابة (٥/ ٢٣١) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٣) والإصابة (٦/ ٢١٦) و (٧/ ١٠٥).

(4) الاستيعاب (٤/ ١٦٦٣) وأسد الغابة (٥/ ٢٣١) والإصابة (٦/ ٢١٦).

(5) المعارف (٣٩٩). وانظر معجم البلدان (٤/ ٣٠ ـ ٣١) والإصابة (٧/ ١٠٥) وطبقات ابن سعد (٧/ ١٠١ ـ ١٠٢).

والحقيقة، أن أبا صفرة لم يكن بين السبي ولا رآه أبو بكر الصديق رضي الله عنه قط، وإنما وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو شيخ أبيض الرأس واللحية، فأمر عمر أن يخضب فخضب، فكيف يكون غلاماً في زمن أبي بكر وكان من ولده مَنْ وُلد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثين سنة أو أكثر»[1]؟!

لقد أوفد عثمان بن أبي العاص الثقفي وهو أمير البصرة أبا صُفْرة في رجال من الأزْد على عمر بن الخطاب، فسألهم عن أسمائهم وسأل أبا صفرة، فقال: «أنا ظالم بن سوق»، وكان أبيض الرأس واللحية وكان قد اختضب، فقال له عمر: «أنت أبو صفرة!»، فغلبت عليه هذه الكنية»[2].

إنّ إيفاد البصرة لأبي صُفرة على أمير المؤمنين عمر، دليل على أنه كان من رجالات الأزد شرفاً وعقلًا وتصرُّفاً فهو ممن نزل البصرة وشرف بها[3]، وكان له طول وجثّة وجمال وفصاحة ولسان[4].

أيامه الأولى:

ينتسب المهلب إلى قبيلة الأزد المعروفة بشجاعة رجالها وإقدامهم ورجاحة عقولهم، وكان أبوه من سادات الأزد عقلًا واتزاناً وشجاعة وإقْداماً، فعاش المهلب أيامه الأولى في بيئة تقوي مزاياه السامية: ورث محاسن البداوة عن قبيلته وأهله، وترعرع في البصرة التي امتزجت فيها البداوة بالحضارة، فنشأ وترعرع في محيط تعتدّ فيه البداوة بمزاياها الأصيلة وتأخذ من الحضارة ما يهذِّب تلك المزايا ويجعلها أكثر رقة وأبلغ أثراً.

---

(١) انظر وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣). ولم يتطرق إلى ذكر رواية الواقدي هذه كل من صاحب أسد الغابة والاستيعاب، انظر أسد الغابة (٥/ ٢٣١) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢ ـ ١٦٩٣)، وقد ذكرها مؤلف الإصابة ورد عليها، انظر الإصابة (٧/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

(٢) الإصابة (٧/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٠٢).

(٤) الإصابة (٧/ ١٠٥).

لقد امتزج الطبع الموهوب في المهلب بالعلم المكتسب، فكوّن هذا المزيج شخصيته النادرة في مزاياها البشرية والقيادية على حد سواء.

جهاده:

١ ـ في المشرق:

أ ـ شهد المهلب حروب عبد الرحمن بن سَمُرَة القُرَشِيّ العَبْشَمِيّ في سِجِسْتَان[١] وذلك سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م)[٢]، إذ كان أحد الأشراف الذين كانوا في جيش عبد الرحمن بن سمرة[٣]، فوجّهه عبد الرحمن ببشارة فتح (كابُل)[٤] إلى عبد الله بن عامر أمير البصرة.

ب ـ وكان أول من عقد للمهلّب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ ولّاه قيادة الأزد حين انهزمت يوم (الجمل)[٥] وذلك سنة ست وثلاثين الهجرية[٦] (٦٥٦م).

جـ ـ وفي أيام معاوية بن أبي سفيان حين كان على البصرة عبد الله بن عامر، غزا المهلَّب ثغر السِّند، فأتى (بَنَّة)[٧] و (لاهور)[٨] وهما بين

---

(١) سجستان: يحدها من الشرق المفازة بين مكران والسند، ومن الغرب خراسان، ومن الشمال الهند، ومن الجنوب المفازة التي بن سجستان وفارس وكرمان. انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٣٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٠١) ومعجم البلدان (٥/ ٣٧).

(٢) ابن الأثير (٣/ ٥٠).

(٣) البلاذري (٣٨٨).

(٤) البلاذري (٣٨٨).

(٥) الإصابة (٦/ ٢١٦).

(٦) ابن الأثير (٣/ ٨٠).

(٧) بنة: مدينة بكابل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٩٤).

(٨) لاهور: ولاية من ولايات الهند واقعة جنوب كشمير وعلى طريق القوافل بين الهند وأفغانستان وإيران. انظر التفاصيل في منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان (٢/ ٢١١).

(المُلْتَان)[1] و (كابل) فلقيه العدو فكبّده خسائر فادحة، وفي ذلك يقول بعض الأزديين:

ألـم تـر أنّ الأزد لـيـلـة بـيّـتُـوا ببَنَّة كانوا خير جيش المهلب[2]؟!

وكان المهلّب حينذاك في خراسان مع الحكم بن عمرو الغفاري[3].

ولقي المهلب ببلاد (القِيْقَان)[4] ثمانية عشر فارساً من الترك على خيل محذوفة فقاتلوه فقتلوا جميعاً، قال المهلب: «ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منا؟!»، فحذف الخيل فكان أول من حذفها من المسلمين[5].

وكان ذلك سنة أربع وأربعين الهجرية (٦٦٤م).

د ـ وفي أيام معاوية بن أبي سفيان أيضاً حين كان زياد على البصرة، ولي الحكم بن عمرو الغِفَاري[6] خُرَاسان فغزا (الغُوْرْ)[7]: وكان المهلب مع الحكم فغزا معه بعض جبال الترك، فأخذ الترك عليهم الشعاب والطرق، فولى الحكمُ المهلبَ أمر الحرب، فلم يزل يحتال حتى أسر عظيماً من عظماء الترك، فقال له: «إما أن تُخْرِجَنا من هذا الضيق أو لأقتلنك»؛ فقال له: «أَوْقِدْ النار حيال طريق من هذه الطرق، وسيِّر الأثقال نحوه، فإنهم

---

(١) الملتان: هي مدينة من نواحي الهند قرب غزنة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٤٦).

(٢) انظر معجم البلدان (٢/ ٢٩٤) وفي ابن الأثير (٣/ ١٧٧) والبلاذري (٤٢١) وردت كلمة: الأهواز بدلًا من: لاهور، ونص العبارة الواردة في هذين المصدرين: «فأتى بنة والأهواز وهما بين الملتان وكابل». ومن الواضح أنّ الصحيح هو ما ذكرناه أعلاه.

(٣) البدء والتاريخ (٦/ ٣٢).

(٤) القيقان: من بلاد السند مما يلي خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٩٧) وكان ذلك سنة أربع وأربعين الهجرية.

(٥) ابن الأثير (٣/ ١٧٧) والبلاذري (٤٢١) ومعجم البلدان (٧/ ١١٨).

(٦) الحكم بن عمرو الغفاري: انظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب.

(٧) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزنة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣١٣).

سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق، فبادروهم إلى طريق أخرى، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه»؛ ففعل ذلك فسلمَ الناس بأرواحهم وأموالهم[1].

٢ ـ في قتال الخوارج:

أ ـ حماية البصرة:

أمَّرَ مُصْعَبُ بن الزبير على البصرة المهلّب نيابة عنه في أيام أخيه عبد الله بن الزبير، ثم ولاه عبد الله خراسان[2]، ولكنه بدلًا من أن يتوجّه لتولي منصبه هذا، تولى قيادة أهل البصرة عندما طوّفها الخوارج وهدّدوا أهلها بالفناء؛ فحمى المهلّب البصرة بعد جلاء أهلها عنها إلّا مَنْ كانت به قوّة، فهي تسمى: بصرة المهلّب[3].

فقد أجمع رأي أهل البصرة وعلى رأسهم الأحنف بن قيس التميمي في أحرج ساعات محنتهم على تسليم قيادتهم للمهلّب، إذ أتى أهل البصرة الأحنف بن قيس وسألوه أن يتولّى حربهم، فأشار عليهم بالمهلّب لما يعلم فيه من الشجاعة والرأي والمعرفة بالحرب[4] قائلًا لأشراف البصرة: «ما لهذا الأمر إلّا المهلّب»؛ فخرج أشراف الناس فكلّموا المهلّب أن يتولى قتال الخوارج، فقال: «لا أفعل! هذا عهد أمير المؤمنين معي على (خُراسان)، فلم أكن لأدع عهده وأمره»، فدعاه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُرَشِيّ أمير البصرة حينذاك فكلمه في ذلك، فقال له مثل ما قال للناس، فاتفق رأي أمير البصرة، ورأي أهلها على أن يكتبوا على لسان عبد الله بن الزبير يأمره بقتال أهل الخوارج، ثُمَّ أتوه بالكتاب[5]، وقال له الحارث أمير

---

(١) ابن الأثير (٣/ ١٨١) وكان ذلك سنة سبع وأربعين الهجرية (٦٦٧م).

(٢) سرح العيون (١٠٢).

(٣) المعارف (٣٩٩) وانظر الإصابة (٦/ ٢١٦) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣)، وانظر ما جاء عن ذلك في اليعقوبي (٣/ ١١).

(٤) ابن الأثير (٤/ ٧٩).

(٥) انظر نص هذا الكتاب في الطبري (٤/ ٤٧٨).

البصرة: «يا أبا سعيد! قد ترى ما رهقنا[1] من هذا العدو، وقد اجتمع أهل مصرك عليك». وقال له الأحنف: «يا أبا سعيد! إنا والله ما آثرناك بها، ولكنا لم نر من يقوم مقامك»؛ فقال المهلّب: «إني عند نفسي لدون ما وصفتم ولست آبياً ما دعوتم إليه على شروط أشرطها» فقال الأحنف: «قل!»؛ فقال المهلّب: «على أن أنتخب مَن أحببت» فقال الأحنف: «ذلك لك»، فقال المهلب: «ولي إمرة كلِّ بلد أغلب عليه»، فقال الأحنف: «وذلك لك!»، قال: «ولي فيء كلّ بلد أظفر به»، فقال الأحنف: «ليس لك ولا لنا. إنما هو فيء المسلمين، فإن سلبتهم إياه كنت عليهم كعدوِّهم؛ ولكن لك أن تعطي أصحابك من فيء كل بلد تغلب عليه ما شئت، وتنفق على محاربة عدوك، فما فضل عنكم كان للمسلمين»؛ فقبل المهلّب، وكتب أمير البصرة بذلك كتاباً[2].

وانتخب المهلب من أهل البصرة اثني عشر ألفاً[3]، ولم يكن في بيت المال ما يكفي لسد حاجات المتطلّبات الإدارية لهذا الجيش، فبعث المهلب إلى التجار من يقول لهم: «إنّ تجارتكم منذ حَوْلٍ قد كسدت عليكم بانقطاع موارد الأهواز وفارس عنكم، فبايعوني واخرجوا معي أوفكم إن شاء الله حقوقكم»، فأخذ منهم المال الذي يصلح به عسكره[4].

وسار المهلب إلى الخوارج وهم عند الجسر الأصغر في البصرة، فحاربهم ودفعهم عن هذا الجسر ـ ولم يكن بقى للخوارج إلا أن يدخلوا البصرة؛ فانسحب الخوارج إلى منطقة الجسر الأكبر، فسار إليهم المهلب في الخيل والرجال؛ فلما رأوه قاربهم انسحبوا إلى منطقة أخرى[5]؛ فأمر

---

(١) رهقنا: غشينا ولحقنا.

(٢) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٢).

(٣) ابن الأثير (٤/ ٧٦) والكامل للمبرد (٣/ ١٧٢).

(٤) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٥) ابن الأثير (٤/ ٧٦) والطبري (٤/ ٤٧٩).

المهلب بسفن فأحضرت وأصلحت، فأمر الناس بالعبور إلى الفرات وأمر عليهم ابنه المغيرة فحارب الخوارج حتى أعد المهلب الجسر، فلم يعبر إلّا والخوارج منهزمون فنهى الناس عن اتباعهم[1]؛ وبذلك نجح المهلّب في حماية البصرة من خطر داهم.

ب ـ في سواد البصرة والأهواز:

أولاً: وأكمل المهلب استعدادات رجاله، ثم سار حتى نزل بالخوارج في منطقة نهر (تِيرَيَ)[2]، فتنحوا عنه إلى الأهواز[3]؛ فأقام المهلّب في تلك المنطقة أربعين يوماً يجبي الخراج من كُوَر دجلة. فقضى ما للتجار عليه من ديون وأعطى أصحابه؛ فأسرع إليه الناس رغبة في مجاهدة الخوارج وفي الغنائم وللتجارة[4] بعد أن ارتفعت معنوياتهم وعادت الثقة إلى نفوسهم.

ثانياً: وسيّر المهلب إلى معسكر الخوارج في الأهواز الجواسيس. فأتوه بأخبارهم، فسار نحوهم واستخلف أخاه المُعَارِك بن أبي صُفْرَة على نهر (تيري). وفي الأهواز اصطدمت مقدمته التي كانت بقيادة ابنه المغيرة بالخوارج فانكشف عنه بعض أصحابه، ولكن المغيرة ثبت وأدام رخم هجومه، فارتحل الخوارج عن (سوق الأهواز)[5] بعد أن أشعلوا النيران في بقايا أمتعتهم[6].

وسار المهلب حتى نزل (سُولاف)[7]، وكان المهلب شديدالاحتياط

---

(١) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٣).

(٢) نهر تيري: نهر من نواحي الأهواز. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٤٤٠)، وهو باسم بلد من نواحي الأهواز. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٣٨). وانظر المسالك والممالك (٦٥).

(٣) ابن الأثير (٤/ ٧٦).

(٤) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٣).

(٥) سوق الأهواز: اسم مدينة في الأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧٦) و (١/ ٣٨٠).

(٦) ابن الأثير (٤/ ٧٧).

(٧) سولاف: قرية في غربي نهر دجيل من أرض الأهواز قرب مناذر الكبرى. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧٨).

والحذر: لا ينزل إلا ويخندق وهو على تعبية، ويتولى الحرس بنفسه؛ وهناك في (سولاف) نازل الخوارج فاقتتلوا كأشد القتال، وصبر بعضهم لبعض عامة النهار، ثم حملت الخوارج حملة صادقة على المهلب وأصحابه، فانهزموا لا تلوي أم على ولد، حتى بلغ بعض المنهزمين البصرة؛ ولكن المهلب ثبت وأخذ ينادي: «إليَّ إليَّ عباد الله»، فثاب إليه جماعة من قومه، واجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارس؛ فلما كان الغد أراد القتال بمن معه، فنهاه بعض أصحابه لضعفهم وكثرة الجراح فيهم؛ فترك القتال وانسحب قاطعاً نهر (دُجَيْل)[1] ونزل (بالعاقول)[2] في موضع لا يؤتى إلّا من جهة واحدة وأقام هناك ثلاثة أيام. ثم ارتحل نحو الخوارج وهم بـ (سُلّى وسَلّيرى)[3]، فخندق عليه ووضع المسالح وأذكى العيون والحرس والناس على راياتهم ومواقفهم وأبواب الخندق محفوظة، فكان الخوارج إذا أرادوا بياته وغِرَّته وجدوا أمراً محكماً، فيعودون من حيث أتوا، فلم يقاتلهم إنسان كان أشد عليهم منه؛ وقد حاول الخوارج مهاجمة معسكر المهلّب ليلًا فلم تنجح محاولتهم، لأنّ أصحاب المهلّب كانوا على تعبية وحذر[4].

وهاجم المهلب الخوارج بـ (سُلّى وسَلّيرى)، فاقتتل الطرفان قتالًا شديداً، وصبر الفريقان عامة النهار؛ ثم رجع كل قوم إلى معسكرهم. . . .

---

(١) دجيل: اسم نهر في موضعين: أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها، فيسقي كورة واسعة وبلاداً كثيرة ثم تصب فضلته في دجلة.
ودجيل الآخر ـ وهو المراد هنا ـ بالأهواز، مخرجه من أرض أصبهان ومصبه في الخليج العربي قرب عبادان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٤١).

(٢) العاقول: لم أعثر على محله بالضبط، وهناك دير العاقول بين مدائن كسرى والنعمانية انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٥٤)، ولا يمكن أن ينسحب المهلب إلى هذا الموضع لبعده عن منطقة القتال، والمرجّح أنّ العاقول في منطقة الأهواز بالقرب من دجيل.

(٣) سلى وسليرى: موضعان بالأهواز، انظر الكامل للمبرد (٣/ ١٧٨) ومعجم البلدان (٥/ ١١٨).

(٤) ابن الأثير (٤/ ٧٧) والطبري (٤/ ٤٧٩). وانظر الكامل للمبرد (٣/ ١٧٨).

واستمرت المعركة بين الطرفين ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث حمل الخوارج على جيش المهلب: حمل رجل من الخوارج على رجل من رجال المهلّب فطعنه، فحمل عليه المهلب فطعنه، فحمل الخوارج بأجمعهم، فضعضعوا الناس[1] فانهزموا حتى بلغت الهزيمة البصرة وخاف أهلها السباء. في هذا الموقف الحرج، أسرع المهلب حتى سبق المنهزمين إلى مكان مرتفع، ثم نادى: «إليّ عباد الله!»، فثاب إليه جماعة من قومه، وثابت إليه سرية من عُمان، فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف أكثرهم من الأزد قومه، فخطبهم قائلًا: «أما بعد. فإنّ الله ربما يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهْزَمون، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون، ولعمري ما بكم الآن من قلّة.... إني لجماعتكم لراضٍ، وإنكم أنتم لأهل الصبر وفرسانُ أهل المصر.... وما أحب أن أحداً ممن انهزم معكم، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خبالًا. عزمت على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار معه، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم، فإنهم الآن آمنون؛ وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم، فوالله إني لأرجو أن لا ترجع إليهم خيلهم حتى تستبيحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم...»؛ وأقبل المهلب راجعاً برجاله، فما شعرت الخوارج إلا والمهلب يقاتلهم في جانب عسكرهم، فقتل المهلّب أميرَ الخوارج وكثيراً من أصحابه وغنم معسكرهم. وأقبل من كان يطارد المنهزمين من أهل البصرة راجعاً، وكان المهلب قد وضع لهم خيلًا ورجالًا على طريق عودتهم تختطفهم وتقتلهم، مما اضطر الخوارج على الانسحاب إلى (كَرْمَان)[2] بعد أن تكبدوا خسائر فادحة بالأرواح والأموال[3]؛ وبذلك

---

(١) الكامل للمبرد (٣/١٧٩).

(٢) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى واسعة. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٤١)، وانظر حدود كرمان وتفاصيل عنها في المسالك والممالك للإصطخري (٩٧ ـ ١٠٠)، وكرمان بفتح الكاف وربما كسرت.

(٣) الطبري (٤/٤٨٠ ـ ٤٨١) وابن الأثير (٤/٧٧ ـ ٧٨) والكامل للمبرد (٣/١٧٩ ـ ١٨٢) وانظر سرح العيون (١٠٣).

قلب المهلب هزيمته الماحقة إلى نصر مبين... فكتب إليه أمير البصرة يهنئه بنصر الله قائلًا: «... ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهادم أركان المشركين وأخا السياسة وذا الرياسة؛ فاستدم الله بشكره يتمم نعمه؛ والسّلام». وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه أيضاً[1].

وكان المنهزمون من جيش المهلب قد وصلوا البصرة، فذكروا أنّ المهلب قد أصيب، فهمّ أهل البصرة بالنزوح إلى البادية... حتى أتاهم كتاب المهلّب بظفره، فأقام الناس وتراجع مَن كان قد نزح منهم؛ فعند ذلك قال الأحنف بن قيس: «البصرة بصرة المهلّب»[2].

وأقام المهلب بعد هذه المعركة بالأهواز حيث بقي هناك حتى جاء مُصْعَب بن الزبير البصرة بعد عزل الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة عنها[3].

ثالثاً: واستمر المهلب على قتال الخوارج في أيام مصعب وفي أيام خلفِهِ على البصرة حمزة بن عبد الله بن الزبير، فلما أعاد عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً إلى العراق أميراً، أراد مصعب أن يولي المهلب بلاد (الموصل) و (الجزيرة) و (إرمينية) ليكون بينه وبين عبد الملك بن مروان، فكتب إليه وهو بفارس في القدوم عليه؛ فاستخلف المهلب على عمله ابنه المغيرة، ووصّاه بالاحتياط ثم قدم البصرة. فعزله مصعب عن حرب الخوارج وبلاد فارس، وولاه الموصل والجزيرة وإرمينية؛ فعاث الخوارج من بعد المهلب في الأرض فساداً: لا يمرّون بقرية بين أصفهان والأهواز إلّا استباحوا وقتلوا من فيها[4]؛ فشاور مصعب الناس، فأجمع رأيهم على المهلب، فقال أمير الخوارج قَطَرِيّ بن الفُجاءة: «إن جاءكم المهلب فرجل لا يناجزكم حتى

---

(١) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٢).
(٢) الكامل للمبرد (١٨٤).
(٣) الطبري (٤/ ٤٨١).
(٤) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

تناجزوه، ويأخذ منكم ولا يعطيكم، فهو البلاء الملازم والمكروه الدائم»[1].

وخرج المهلّب من البصرة يريد الخوارج، فلما أحس به قطري بن الفجاءة أمير الخوارج قصد (كَرْمان)، فأقام المهلب بالأهواز، فكرّ قَطَرِيّ عليه وقد استعد واستعد المهلّب أيضاً، فحاربهم المهلّب واضطرهم على الانسحاب إلى (رامَ هُرْمِز)[2] مندحرين[3].

وأرسل مصعب إلى المهلب يستشيره، وقيل: بل أحضره عنده في أمر حماية العراق من تهديد عبد الملك بن مروان الذي سار بجيوشه إلى العراق، قال المهلب لمصعب: «اعلم أنّ أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم، فلا تبعدني عنك»، فقال مصعب: «إنّ أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج، وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذا سار عبد الملك إليّ ألّا أسير إليه، فاكفني هذا الثغر...»؛ فعاد إلى قتال الخوارج[4].

رابعاً: وقتل عبد الملك مصعباً، وكان المهلب يقاتل الخوارج بـ (سولاف)، فبلغ قتل مصعب الخوارج قبل المهلب[5]؛ فلما استقر عبد الملك بالكوفة بعد قتل مصعب استعمل خالد بن عبد الله القسري على البصرة، فجعل المهلب على خراج الأهواز وسير أخاه عبد العزيز بن عبد الله القسري إلى قتال الخوارج، فسار الخوارج إليه وهزموه[6].

وعلم عبد الملك بخبر هذه الهزيمة فكتب إلى عامله على البصرة

---

(1) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٨).

(2) رام هرمز: ومعنى رام بالفارسية المراد والمقصود. وهرمز أحد الأكاسرة؛ فكأن هذه اللفظة مركبة معناها: مقصود هرمز أو مراد هرمز. وهي مدينة مشهورة بنواحي الأهواز. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢١) والمسالك والممالك (٦٤).

(3) الكامل للمبرد (٣/ ١٩٢).

(4) ابن الأثير (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

(5) الطبري (٥/ ١٥) وابن الأثير (٤/ ١٣١ ـ ١٣٢). والكامل للمبرد (٣/ ١٩٣).

(6) الطبري (٥/ ١٦) وابن الأثير (٤/ ١٣٢).

خالد بن عبد الله: «أما بعد. فقد قدم رسولك في كتابك تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج وبهزيمة مَن هزم وقتل من قتل؛ وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدّثني أنه عامل لك على الأهواز؛ فقبّح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلّب إلى جنبك يجبي الخراج، وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها: ابنها وابن أبنائها.... أرسل إلى المهلّب يستقبلهم، وقد بعثت إلى بِشْر[1] أن يمدك بجيش من أهل الكوفة، فإذا أنت لقيت عدوّك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلّب وتستشيره فيه...»[2]؛ فكان المهلب نعم المشير على خالد بن عبد الله في قتاله الخوارج[3].

خامساً: ولما عزل عبد الملك بن مروان خالد بن عبد الله القسري من البصرة واستعمل مكانه بِشْر بن مروان وجمع له المصرين: البصرة والكوفة، أمره أن يبعث المهلب إلى حرب الخوارج[4]؛ فسار المهلب حتى نزل (رام هُرْمز) حيث أصبح قائداً عاماً على جيشي الكوفة والبصرة[5].

سادساً: وتولى الحجاج بن يوسف الثقفي أمر العراق، فعلم أن أكثر جيش أهل الكوفة قد رجعوا إليها بعد سماعهم بموت بشر بن مروان، فقال الحجاج في خطابه الافتتاحي المشهور الذي ألقاه على أهل الكوفة بعد وصوله إليها مباشرة: «..... وقد بلغني رفضكم المهلب وإقبالكم على مصركم عاصين مخالفين، وإني أقسم بالله لا أجد أحداً من عسكره بعد ثلاثة أيام إلا ضربت عنقه وأنهبت داره....»، ثم دعا العرفاء وقال لهم: «أَلْحِقُوا الناس بالمهلّب وأتوني بالبراءة بموافاتهم، ولا تغلقنّ أبواب الجسر

---

(١) يريد بشر بن مروان أخا عبد الملك بن مروان الذي كان على الكوفة حينذاك.

(٢) الطبري (٥/ ١٧ ـ ١٨) وابن الأثير (٤/ ١٣٣).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٥/ ١٨ ـ ١٩) وابن الأثير (٤/ ١٣٣).

(٤) ابن خلدون (٣/ ٤٠) والطبري (٥/ ٣٦) وابن الأثير (٤/ ١٤١)، وانظر الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٠).

(٥) ابن الأثير (٤/ ١٤١).

ليلًا ونهاراً حتى تنقضي هذه المدة»؛ فخرج الناس وازدحموا على الجسر، وخرج العرفاء إلى المهلب وهو بـ (رام هرمز)، فوافاه جند الكوفة هناك[1]... ثم كتب الحجاج إلى المهلب: «أما بعد. فإن (بِشْراً) رحمه الله استكره نفسه عليك وأراك غناءه عنك، وأنا أريك حاجتي إليك، فأرني الجد في قتال عدوك؛ ومَن خفته على المعصية ممن قِبَلك فاقتله.... الخ»[2]؛ وبذلك أعطى الحجّاج للمهلّب منتهى الصلاحية في قتل العصاة، مما يدل على منتهى ثقة الحجاج بالمهلب؛ فكان جواب المهلب للحجاج: «ليس قِبَلي إلّا مُطيع ونادم على ذنبه، وإنّ الناس إذا خافوا العقوبة كبروا الذنب، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب، وإذا يأسوا من العفو أكفرهم ذلك.... فهب لي هؤلاء الذين سميتهم عصاة، فإنما هم فرسان أبطال أرجو أن يقتل الله بهم العدو»[3]، وهذا منتهى الدفاع عن المعيّة لإعطائهم فرصة جديدة لإثبات إخلاصهم وحسن نياتهم... وهذا منتهى العفو عند المقدرة.

جـ - في أرض فارس[4] وكرمان:

أولاً - وأرسل الحجاج إلى المهلب وإلى عبد الرحمن بن مِخْنَف الذي كان على جيش أهل الكوفة يأمرهما بمناهضة الخوارج، فزحفوا إليهم وقاتلوهم، فانهزم الخوارج إلى (كَازَرُون)[5]؛ فسار المهلب وابن مِخْنَف حتى نزلوا بهم.

---

(١) الطبري (٥/٤١) و (٥/٤٤) وابن الأثير (٤/١٤٥ - ١٤٦) وانظر ابن خلدون (٣/٤١).

(٢) الكامل للمبرد (٣/٢٠٣).

(٣) الكامل للمبرد (٣/٢٠٣ - ٢٠٤).

(٤) فارس: بلاد فارس، حدودها من الشرق كرمان ومن الغرب كور الأهواز وأصبهان ومن الشمال المفازة التي بين فارس وخراسان وبعض حدود أصبهان، ومن الجنوب البحر العربي. انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (٦٧) ومعجم البلدان (٦/٣٢٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٣٢).

(٥) كازرون: مدينة بفارس بين البحرين وشيراز. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٠٦).

وخندق المهلب على نفسه وقال لابن مخنف: «إن رأيت أن تخندق عليك، فافعل»؛ فقال ابن مخنف لأصحابه: «نحن خندقنا سيوفنا»، فأتى الخوارج المهلب ليبيتوه فوجدوه قد تحرّز فمالوا نحو ابن مخنف، فوجدوه لم يخندق فقاتلوه فانهزم عنه أصحابه فنزل وقاتل فقتل[1]. وفي رواية: أن الخوارج جعلوا بإزاء المهلب من يشغله وانصرفوا بجندهم إلى عبد الرحمن بن مِخْنَف، فلما رآهم قد قصدوه نزل ونزل معه القُرَّاء وقومه، فحملت عليه الخوارج، فقاتلهم قتالا شديداً، فانكشف الناس عنه وبقي في عصابة من أهل الصبر ثبتوا معه، فقتل عبد الرحمن مع من قُتل من رجاله[2].

ثانياً ـ وبعث الحجاج إلى عسكر عبد الرحمن بن مخنف عَتَّاب بن وِرْقاء وأمره أن يسمع للمهلّب، فساءه ذلك ولكنه لم يجد بُدّاً من إطاعته، فجاء إلى العسكر وقاتل الخوارج وأمره إلى المهلّب.

وجرى بين عتاب والمهلّب ذات يوم كلام أغلظ كلّ منهما لصاحبه، فأرسل عتاب إلى الحجّاج يشكو المهلّب ويسأله أن يأمره بالعودة إليه، فبعث إليه الحجّاج: «أنْ أَقْدِم واترك أمر ذلك الجيش إلى المهلّب»؛ فأقام المهلّب بـ (سابور)[3] يقاتل الخوارج نحو سنة[4] قتالًا شديداً، وكانت (كرمان) بيد الخوارج و (فارس) بيد المهلب؛ فضاق على الخوارج فكأنهم لا يأتيهم من فارس مادة، فخرجوا حتى أتوا (كرمان) فتبعهم المهلّب حتى نزل بـ (كرمان)، فقاتلهم قتالًا شديداً وانتصر عليهم، فصارت (فارس) كلها بيد المهلب، فكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يترك بيد

---

(١) الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٤) وابن الأثير (٤/ ١٥٠) والطبري (٥/ ٤٦ ـ ٤٧).
(٢) الطبري (٥/ ٤٧ ـ ٤٨) وابن الأثير (٤/ ١٥١ ـ ١٥٢).
(٣) سابور: كورة واسعة مدينتها سابور، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٧٠ ـ ٧١)، وهي كورة مشهورة بأرض فارس. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٤).
(٤) الطبري (٥/ ٤٨ ـ ٤٩) وابن الأثير (٤/ ١٥١) وانظر الكامل (٣/ ٢١٠ ـ ٢١١).

المهلب (فَسَا)[1] و (ودارًا بْجِرْد)[2] وكورة (إصْطَخْر)[3] تكون معونة له على الحرب[4].

ثالثاً - ووجه الحجّاج البَراء بن قَبِيْصَة إلى المهلّب يستحثّه في مناجزة الخوارج، فأخرج المهلّب بنيه: كلّ ابن له في كتيبة؛ وأخرج الناس على راياتهم ومصافهم وأخماسهم. وجاء البراء بن قبيصة فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم، فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشد قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار... فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال: «لا والله ما رأيت كبنيك فرساناً قط، ولا كفرسانك من العرب فرساناً قط، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصبر ولا أبأس! أنت والله المعذور» فرجع المهلّب بالناس حتى إذا كان عند العصر خرج إلى الخوارج بالناس وببنيه في كتائبهم، فقاتلوهم كقتالهم أول مرة[5]. ثم انصرف البراء إلى الحجاج بعذر المهلب[6].

واستمر المهلب يقاتل الخوارج ثمانية عشر شهراً أخرى[7]، ثم كتب

---

(١) فسا: كلمة أعجمية، وعندهم تلفظ: بسا بلباء، ومعناها فى كلامهم: الشمال من الرياح. وهي مدينة بفارس أنزه مدينة بها، بينها وبين شيراز أربع مراحل، وهي من أكبر مدن ولاية (دارا بجرد)، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٦٧) ومعجم البلدان (٦/ ٣٧٥).

(٢) دارا بجرد: ولاية بفارس سميت باسم مدينة بهذا الاسم. وتحتوي على مدن تفاصيلها في المسالك والممالك (٧٠)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٦) والمسالك والمالك (٦٧ - ٧٦) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٨٨).

(٣) اصطخر: بلدة بفارس وهي من أقدم مدن فارس وأشهرها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٧٥).

(٤) الطبري (٥/ ١٢٠) وابن الأثير (٤/ ١٦٩).

(٥) الطبري (٥/ ١٢٠ - ١٢١) وابن الأثير (٤/ ١٦٩).

(٦) الطبري (٥/ ١٢١).

(٧) الطبري (٥/ ١٢١) وابن الأثير (٤/ ١٦٩).

إلى الحجاج: «إني منتظر منهم إحدى ثلاث: موت ذريع[1]، أو جوع مضر، أو اختلاف من أهوائهم»[2].

د ـ الحرب خدعة:

وطالت الحرب بين المهلّب وبين الخوارج، ورأى اتفاق أهوائهم وثباتهم، فعلم أنه لا يظفر إلا إذا وقع الاختلاف بينهم[3].

وكان في عسكر الخوارج حداد يسمى (أبزن) يصنع نصالًا مسمومة يرمي بها أصحاب المهلب، فوجّه المهلّب رجلًا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر الخوارج وقال له: «ألْقِ الكتاب في العسكر واحذر على نفسك»، وكان في الكتاب إلى الحداد (أبزن): «أما بعد، فإن نصالك قد وصلت إلينا، وقد وجهت إليك بألف درهم، فاقبضها وزدنا من هذه النِّصال»؛ فوقع هذا الكتاب إلى قَطَرِي بن الفُجاءة أمير الخوارج، فدعا (أبزن) وقال: «ما هذا الكتاب!؟»، فقال: «لا أدري!»، فقال قطري: «فما هذه الدراهم!؟»، فأمر به فقتل! فجاءه عبد ربه الصغير وكان من كبار الخوارج فقال: «قتلت رجلًا على غير بيِّنة ولا تبين أمره!»، فقال قطري: «فما هذه الدارهم؟!»؛ قال: «يجوز أن يكون أمره كذباً ويجوز أن يكون حقاً!» فقال قطري: «قتل رجل في صلاح الناس غير منكر، وللإمام أن يحكم بما يراه صلاحاً وليس للرعية أن تعترض عليه»، فتنكر له عبد ربه في جماعة معه، ولكنهم لم يفارقوه[4].

وبلغ ذلك المهلب، فدس إلى قطري رجلًا نصرانياً وقال له: «إذا

---

(١) موت ذريع: موت فاش.

(٢) الكامل للمبرد (٣/٢٠٧). وانظر رواية أخرى عن نص كتاب المهلب للحجاج في الطبري (٥/١٢١).

(٣) سرح العيون (١٠٥).

(٤) سرح العيون (١٠٥ ـ ١٠٦) وانظر ابن الأثير (٤/١٧٠) وفيه ورد اسم: عبد ربه الصغير باسم: عبد ربه الكبير، وقد ورد اسمه: عبد ربه الكبير في الطبري (٥/ ١٢١) أيضاً.

رأيت قطرياً فاسجد له، فإذا نهاك فقل: إنما سجدت لك»، ففعل النصراني ذلك، فقال له قطري: «إنما السجود لله»، فقال النصراني: «ما سجدت إلا لك»، فقال له رجل من الخوارج: «قد عبدك من دون الله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾»، فقال قطري: «إنّ هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم فما ضرّ عيسى شيئاً»، فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله؛ فأنكر قطري ذلك عليه وقال: «قتلت ذمياً!!»؛ فاختلفت الكلمة وزاد اختلافهم وفارق بعضهم قطرياً[1].

وأخيراً بعث إليهم المهلّب رجلًا يسألهم عن شيء تقدم به إليه، فأتاهم الرجل فقال: «أرأيتم لو أن رجلين خرجا مهاجرين إليكم، فمات أحدهما في الطريق وبلغكم الآخر فامتحنتموه فلم يجز المحنة، ما تقولون فيهما؟»، فقال بعضهم: «أما الميت فهو من أهل الجنة، وأما الذي لم يجز المحنة فكافر حتى يجزيها»، وقال قوم آخرون: «بل هما كافران حتى يجيزا المحنة»، فكثر الخلاف بينهم[2] وفارق بعضهم قطرياً ثم ولّوا عبد ربه الكبير وخلعوا قطرياً وبقي مع قطري منهم نحو ربعهم أو خمسهم، ثم اقتتلوا فيما بينهم نحواً من شهر، فكتب المهلب إلى الحجاج بذلك. فكتب الحجاج إلى المهلب يأمره أن يقاتلهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا، فكتب المهلب إلى الحجاج: «إني لست أرى أن أقاتلهم ما داموا يقتلون بعضهم بعضاً وينقص بعضهم عدد بعض، فإن تموا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلّا وقد رقّقَ بعضهم بعضاً؛ فأناهضهم حينئذ وهم أهون ما كانوا وأضعف شوكة إن شاء الله، والسلام»، فكف عنه الحجاج وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحركهم؛ ثم

---

(١) سرح العيون (١٠٦) وابن الأثير (٤/ ١٧٠) والآية الكريمة ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من سورة الأنبياء (٢١: ٩٨).

(٢) سرح العيون (١٠٦).

ان قطرياً خرج بمن اتبعه نحو (طَبرِسْتَان)[1] وبايع الباقون عبد ربه الكبير الذي أقام بـ (كرمان)، فقاتلهم المهلب قتالاً شديداً مستمراً حتى قال المهلب: «ما مرَّ بي مثل هذا»[2]، فانتصر عليهم وهزم الخوارج وكثر القتلى فيهم، وكان فيمن قتل عبد ربه الكبير مع أربعة آلاف قتيل، ولم ينج من الخوارج إلا القليل؛ وأخذ عسكرهم وما فيه[3]؛ فكتب الحجاج إلى المهلب يشكره ويأمره أن يولي (كرمان) من يثق إليه ويجعل فيها من يحميها ويقدم إليه، فاستعمل على (كرمان) ابنه يزيد بن المهلب وسار إلى الحجّاج، فلما قدم عليه أكرمه وأجلسه إلى جانبه وقال: «يا أهل العراق! أنتم عبيد المهلب»[4].

أما قطري بن الفجاءة فقد قضى عليه الحجاج بسهولة في منطقة (طبرستان) بعد أن أصبح ضعيفاً، وبذلك حمى المهلّب البصرة من الخوارج بعد أن جلا أهلها عنها[5] وطهّر منهم منطقة البصرة والأهواز وفارس ومكران طبرستان بعد حرب ضروس خاض المهلب غمارها ضد الخوارج تسع عشرة سنة[6].

---

(١) طبرستان: بلدان كثيرة واسعة يشملها هذا الاسم. وطبرستان معروفة بمازلدران وهي مجاورة لجيلان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٧) والمسالك والممالك (١٢٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٣).

(٢) الطبري (٥/ ١٢٢) وابن الأثير (٤/ ١٧٠)، وانظر اليعقوبي (٣/ ٢١).

(٣) الطبري (٥/ ١٢٢) وابن الأثير (٤/ ١٧٠).

(٤) ابن الأثير (٤/ ١٧١) والكامل للمبرد (٣/ ٢٢٥)، وانظر سرح العيون (١٠٧).

(٥) الإصابة (٦/ ٢١٦) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣) والمعارف (٣٩٩) وشذرات الذهب (١/ ٩١).

(٦) سرح العيون (١٠٧) وفي الإصابة (٦/ ٢١٦): أنه قاتل تسع سنين، وهذا خطأ، فقد كان المهلب من أشهر من يقاتل الخوارج أيام عبد الله بن الزبير سنة خمس وستين للهجرة، انظر ابن الأثير (٤/ ٧٦) وانتهى من قتالهم سنة سبع وسبعين للهجرة. انظر ابن الأثير (٤/ ١٧١). ومن الواضح أنه قاتلهم أيام عبد الله بن الزبير. إذ أنّ الخوارج ظهروا في أيام علي بن أبي طالب، وكان المهلب يومها من رجال علي بن أبي طالب المعروفين بحنكتهم العسكرية.

٣ ـ الفاتح:

ضم عبد الملك بن مروان سنة ثمان وسبعين الهجرية (٦٩٩م) خُراسان وسِجِستَان إلى أعمال الحجاج بن يوسف الثقفي، فبعث المهلب على خراسان بعد فراغه من قتال الخوارج[١].

وقطع المهلب سنة ثمانين للهجرة نهر (بَلْخ) على رأس جيش تعداده ثمانية آلاف رجل[٢]، فحاصر مدينة (كِشْ) فأتاه ابن عم ملك (الخُتَّل) ودعاه إلى غزو (الختّل)، فوجّه معه ابنه يزيد، فحاصر يزيد قلعة ملك الختّل، فصالحوه على فدية حملت إليه، ثم رجع إلى المهلّب.

ووجّه المهلب ابنه حبيباً، فوافى صاحب (بُخَارى) فنزل جماعة من العدو قرية، فسار إليهم بجيشه المؤلف من أربعة آلاف رجل، فقتلهم وأحرق القرية، فسميت تلك القرية باسم (المحترقة)، ثم رجع حبيب إلى أبيه.

وأقام المهلب بـ (كش) سنتين، فقيل له: «لو تقدمت إلى ما وراء ذلك، فقال: ليت حظي من هذه الغزاة سلامة هذا الجند وعودهم سالمين».

واتهم المهلب وهو بـ (كش) قوماً من مضر، فحبسهم بها، فلما رجع أطلقهم، فكتب إليه الحجاج: «إنْ كنت أصبت بحبسهم فقد أخطأت بإطلاقهم، وإن كنت أصبتَ بإطلاقهم فقد ظلمتهم إذ حبستهم»، فكتب المهلّب: «خفتهم فحبستهم، فلما أمنتهم خليتهم».

وأخيراً صالح المهلّب أهل (كِشّ) على فدية يأخذها منهم[٣]، ثم عاد إلى (مَرْوُ)[٤].

---

(١) الطبري (٥/ ١٢٤) وابن الأثير (٤/ ١٧٣) وابن خلدون(٣/ ٤٦) وانظر اليعقوبي (٣/ ٢١) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤).

(٢) كانت مقدمته مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل، وكان قسمه الأكبر مؤلفاً من خمسة آلاف رجل، انظر ابن الأثير (٤/ ١٧٥) والطبري (٥/ ١٣٥) وابن خلدون (٣/ ٤٦).

(٣) الطبري (٥/ ١٣٩ ـ ١٤٠). وابن الأثير (٤/ ١٧٥) وابن خلدون (٣/ ٤٦).

(٤) مرو: أشهر مدن خراسان، وهما مروان: مرو الروذ ومرو الشاهجان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢) و (٨/ ٣٣).

الإنسان:

١ ـ كان المهلب من التابعين[١]، فقد ولد عام الفتح[٢] الذي كان سنة ثمان الهجرية[٣] (٦٢٩م) ومات سنة اثنتين وثمانين الهجرية[٤] (٧٠١م) بقرية يقال لها (زَاغُول)[٥] من أعمال (مرو الروذ) في ولاية (خراسان).

ولما مات رثاه الشعراء وأكثروا، وفي ذلك يقول نَهَار بن تَوْسِعة التميمي الشاعر المشهور[٦]:

ألا ذَهبَ الغزوُ المُقرِّب للغِنى[٧] ... ومات الندى والجودُ بعد المهلّب

أقاما بـ (مروَ الرُّوذ) رهنى ضريحه ... وقد غُيِّبَا عن كل شرق ومغرب

إذا قيل: أي الناس أولى بنعمة ... على الناس؟ قلناه ولم نتهيّب

أباح لنا سهل البلاد وحزْنَها ... بخيل كأرسال القطا المتسرِّب

يعرّضها للطعن حتى كأنما ... يجللها بالأرجُوان المُخَضَّب

تُطيف به قحطان قد عَصبت به ... وأحلافها من حيّ بكرٍ وتَغْلِب

وَحَيّا مَعَدٍ عُوّذٌ بلوائه ... يفدُّونه بالنفس والأم والأب

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ١٢٩) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) والإصابة (٦/ ٢١٦).

(٢) الإصابة (٦/ ٢١٦) وشذرات الذهب (١/ ٩١) والعبر (١/ ٩٣).

(٣) السيرة الحلبية (٣/ ٨١) وطبقات ابن سعد (٢/ ١٣٤) وسيرة ابن هشام (٤/ ٣) وعيون الأثر (٢/ ١٦٣).

(٤) الطبري (٥/ ١٦١) وشذرات الذهب (١/ ٩٠) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٩٧) وابن خلدون (٣/ ٥٢) والإصابة (٦/ ٢١٧). أما في طبقات ابن سعد (٧/ ١٣٠) والمعارف (٤٠٠) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٣) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥)، فقد جاء فيها: إنّ وفاته كانت سنة ثلاث وثمانين الهجرية.

(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥) وانظر الاستيعاب (٤/ ١٦٩٣) والمعارف (٤٠٠). وقد وردت في وفيات الأعيان (راغول) وهو خطأ مطبعي. انظر معجم البلدان (٤/ ٣٦٨).

(٦) الطبري (٥/ ١٦٢) وانظر وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥) وابن الأثير (٤/ ١٨٣).

(٧) في ابن الأثير (٤/ ١٨٣) ورد صدر هذا البيت كما يلي: ألا ذهب المعروف والعز والغنى.

فأي نوع من الرجال كان المهلب حتى يترك موته في نفوس الناس هذا الأثر الفاجع، وحتى يترك بين رجالات العرب المسلمين هذا الفراغ الهائل؟

٢ ـ كان يُقال: «ساد الأحنف بحلمه، ومالك بن مِسمع[١] بمحبته للعشيرة، وقتيبة بدهائه، وساد المهلب بهذه الخلال جميعها»[٢].

وكان سيداً جليلاً نبيلاً[٣] خطيباً شجاعاً[٤] فقيهاً[٥]، وكان على جانب عظيم من السخاء والكرم، فلم يكن عند المهلب مال: كان إذا عزل استقرض[٦] مما يدل على أنه كان كريماً كرم من لا يخاف الفقر. ومن كرمه، أنه أقبل يوماً من بعض غزواته، فتلقته امرأة فقالت له: «أيها الأمير! إني نذرت إن أقبلت سالماً أن أصوم شهراً وتهب لي جارية وألف درهم!» فضحك المهلب وقال: «قد وفينا نذرك فلا تعودي لمثله، فليس كل أحد يفي لك به». ووقف له رجل فقال: «أريد منك حُوَيْجَة»، فقال المهلّب: «أطلب لها رُجَيْلًا»، يعنى أنّ مثلي لا يسأل إلّا حاجة عظيمة[٧].

---

(١) مالك بن مسمع بن سيار: من بكر بن وائل، أدرك النبي ﷺ، وكان سيد ربيعة في زمانه مقدماً رئيساً، وفيه يقول حصين بن المنذر:
حياة أبي غسان خير لقومه ... لمن كان قد قاسى الأمور وجربا
وكان مالك أنبه الناس.. قال رجل لعبد الملك بن مروان: «لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف، لا يسألونه فيم غضب»، فقال عبد الملك: «وهذا وأبيك السؤدد»، ولم يل شيئاً قط. وقد مات سنة ثلاث أو أربع وسبعين هجرية بالبصرة، وعقبه كثير. انظر الإصابة (٦/ ١٦٤) والمعارف (٤١٩).

(٢) سرح العيون (١٠٢).

(٣) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣).

(٤) الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢).

(٥) وفيات الأعيان (٤/ ١٦٩٢).

(٦) الطبري (٥/ ١٣٥).

(٧) سرح العيون (١٠٧)، وكان المهلب يوصي خدمه أن يقللوا من الماء ويكثروا من الطعام عندما يكون ضيوفه على خوانه حتى لا يملأ الضيوف بطونهم من الماء وحتى يملأها من الطعام. انظر كتاب البخلاء للجاحظ (١٣٣).

ولما هزم قطري بن الفجاءة أمير الخوارج دخل عليه المغيرة[1] وأنشده[2]:

أمسى العباد لعمري لا غياثَ لهم   إلّا المهلّبُ بعد الله والمطرُ
هذا يجودُ ويحمي عن ديارهم   وذا يعيش به الأنعام والشجر

قال: «هذا والله هو الشعر»، وأمر له بعشرين ألفاً[3].

ومن كلامه: «عجبت لمن يشتري العبيد بماله، ولا يشتري الأحرار بأفضاله».

وتذاكروا عنده الثياب فقال: «أحسن ثيابكم ما رأيتموه على غيركم». وكان كثيراً ما يأمر بصلة الرحم والمكيدة في الحرب[4].

وكان حليماً، ومن أخبار حلمه، أنه مرّ يوماً بالبصرة، فسمع رجلًا يقول: «هذا الأعور قد ساد الناس، ولو خرج إلى السوق لا يساوي أكثر من مائة درهم»، فبعث إليه المهلب بمائة درهم وقال: «لو زدتنا في الثمن زدناك في العطية»[5]، وكان قد فقئت عينه بسمرقند[6].

وكان بليغاً في كلامه حكيماً في آرائه، له كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدلّ على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل؛ من ذلك قوله: «الحياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لي أُذُنٌ أسمع بها ما يقال فيَّ غداً إذا مِتّ»[7].

---

(١) هو المغيرة بن حبناء، انظر أخباره في الأغاني (١١/ ٣١٥ ـ ٣٣٢).
(٢) انظر القصيدة كاملة في الأغاني (١١/ ٣١٦ ـ ٣١٨).
(٣) سرح العيون (١٠٧).
(٤) سرح العيون (١٠٧). وفي رغبة الآمل من كتاب شرح الكامل (٥/ ١٣٠): أن المهلب قال: «العجيب لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه».
(٥) سرح العيون ١٠٧).
(٦) كتاب المحبر (٢٦١) و (٣٠٢) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤) وفيه أيضاً: وقيل إنّ المهلّب قلعت عينه بالطالقان وكذلك في البلاذري (٤٠١).
(٧) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥).

وقيل يوماً للمهلّب: «ما خير المجالس؟» فقال: ما بَعُدَ فيه مدى الطَرْف وكثر فيه فائدة الجليس»[1]. وقال مرة: «العيش كله في الجليس الممتع»[2]. وقال يوماً: «أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلا أخلاقه نسيان ما أسر إليه»[3].

وقال المهلّب لبنيه: «يا بني تباذلوا تحابوا، فإن بني الأم يختلفون فكيف بنو العَلات؟ إن البِرَّ يُنْسِىءُ في الأجل ويزيد في العدد، وإنّ القطيعة تورث القِلَّة وتعقب النار بعد الذلة، واتقوا زلة اللِّسان، فإنّ الرجُل تزل به رجله فينتعش، ويزل لسانه فيهلِك؛ وعليكم في الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغ من النجدة، فإنّ القتال إذا وقع وقع القضاء، فإنّ ظَفر فقد سَعِد، وإن ظُفِرَ له لم يقولوا فرَّ»[4]. وأوصى ولده يزيد حين استخلفه على خراسان من جملة ما أوصاه: «يا بني استعقل الحاجب واستظرف الكاتب؛ فإنّ حاجب الرجل وجهه، وكاتبه لسانه»[5].

وحين حضرته الوفاة، دعا ابنه حبيباً ومَن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت ثم قال: «أفترونكم كاسريها مجتمعة؟» قالوا: «لا!»، فقال: «أفترونكم كاسريها متفرّقة؟» فقالوا: «نعم!»، قال: «فهكذا الجماعة[6]، فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإنّ صلة الرحم تنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة فإنّ القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة، فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا، وتبارّوا تجتمع

---

(١) رغبة الآمل (١/ ٢٠٤).

(٢) رغبة الآمل (٣/ ٦٠).

(٣) رغبة الآمل (٦/ ١٠٥).

(٤) البيان والتبيين (٢/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، وبنو المهلب هم: المغيرة ويزيد وقبيصة ومدرك وحبيب ومحمد والمفضل.

(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥).

(٦) الطبري (٥/ ١٦١) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٩٧) وابن الأثير (٤/ ٨٣).

أموركم. إنّ بني الأم يختلفون فكيف بني العَلات؟ وعليكم بالطاعة والجماعة، وليكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجواب وزلة اللّسان، فإنّ الرجل تزلّ قدمه فينتعش من زلّته ويزلّ لسانه فيهلك. اعرفوا لمن يغشاكم حقّه، فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له؛ وآثروا الجود على البخل، وأحبوا العرب واصطنعوا العرف، فإنّ الرجل من العرب تَعده العِدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟! عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة، وإذا كان اللّقاء نزل القضاء، فإن أخذ الرجل بالحزم فظهر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فَحُمِد، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرّط ولا ضيّع، ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنن وأدب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم»[1].

٣ ـ وكان المهالب شاعراً مقِلًا، ومن شعره[2]:

لئن ذهبت عيني لقد بقيت نفسي	وفيها بحمد الله عن تلك ما ينسي
إذا جاء أمر الله أحيا حيولنا	ولا بد أن تعمى العيون لدى الرمس

ومن شعره أيضاً[3]:

أنا إذا أنشأت قوم لنا نعم	قالت لنا أنفس أزدية عودوا
لا يوجد الجود إلا عند ذي كره	والمال عند لئام الناس موجود

لهذه المزايا النادرة التي كانت في المهلّب، ولمزاياه العسكرية التي سنذكرها عند ذكر مزايا قيادته، ولأنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بضرورة الطاعة والتمسك بالجماعة[4]، لهذه الأسباب مجتمعة كان المهلب موضع ثقة كافة

(١) الطبري (٥/ ١٦١ ـ ١٦٣) وابن الأثير (٤/ ١٨٣).
(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).
(٣) سرح العيون (١٠٨).
(٤) انظر الطبري (٥/ ١٦١) وابن الأثير (٤/ ١٨٣) حول ما جاء في وصية المهلب لبنيه من التمسك بالطاعة والجماعة.

الخلفاء الذين تولوا أمرالمسلمين كافة والأمراء الذين تولوا أمر البصرة والعراق جميعاً، على الرغم من اختلاف نزعات وميول هؤلاء الخلفاء والأمراء، فكان موضع ثقة علي بن أبي طالب ومعاوية وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير والأحنف بن قيس والحجاج بن يوسف الثقفي؛ ذلك لأن المهلب لم يل ولاية قط طالباً لها، إنما كان يولى لحاجتهم إليه: عقد له علي بن أبي طالب حين انهزمت الأزد يوم الجمل، وتولى قتال الخوارج بعد أن كانوا هزموا العساكر وغلبوا على البلاد[1]. لقد كان شعار المهلب في إدارته وقيادته ينطبق على وصيته لبنيه: «إذا وليتم فلينوا للمحسن واشتدوا على المريب»[2]. وكان شعاره التمسك بالطاعة والجماعة، فلا يثير الفتن ولا يعمل على إثارتها ولا يشارك في قوله أو عمله من يثيرونها ما دوم يرى أن القوة في الطاعة والجماعة، وأن الوهن في الخلاف والتفرق.

فقد كتب عبد الرحمن بن الأشعث الكندي حين بايعه الناس على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق ـ كتب إلى المهلّب بخلع الحجاج ويدعوه إلى مساعدته، فبعث المهلب بكتاب عبد الرحمن إلى الحجّاج[3].

وكتب المهلب إلى ابن الأشعث يقول: «أما بعد إنك وضعت رجلك يا ابن محمد في غراز طويل الغيّ على أمة محمد ﷺ: فانظر لنفسك لا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها؛ فإن قلت: أخاف الناس على نفسي؛ فالله أحقّ أن تخافه عليها من الناس، فلا تعرضها لله في سفك دم ولا استحلال محرم، والسلام»[4]. ثم كتب إلى الحجاج: «أما بعد. فإنّ أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر من علٍ ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره. وإنّ لأهل

---

(١) الإصابة (٦/٢١٦).

(٢) رغبة الآمل (٣/١١٦).

(٣) ابن الأثير (٤/١٧٥).

(٤) الطبري (٥/١٤٩).

العراق شدة[1] في أول مخرجهم وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم ويشموا أولادهم، ثم واقفهم عندها فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله»؛ فلما قرأ الحجاج كتاب المهلب قال: «فعل الله به وفعل، لا والله ما إليَّ نظر ولكن لابن عمه نصح» يعني عبد الرحمن بن الأَشعث[2].

ولكن الحجاج راجع كتاب المهلب بعد مدة من الزمن وبعد نشوب معارك طاحنة بين جيش الحجاج وجيش عبد الرحمن بن الأشعث، فعلم نصيحة المهلب[3] وقال: «لله دره! أي صاحب حرب هو!! هو أشار علينا بالرأي ولكنا لم نقبل»[3].

لقد كان المهلب رجل دولة بكل ما في هذه الكلمة من معاني، لذلك قال أبو إسحاق السبيعي عنه: «ما رأيت أميراً خيراً من المهلب»[4].

ولهذه المزايا كانت له منزلة خاصة عند الخلفاء والأمراء من النادر أن يرقى إليها غيره. قدم يوماً على عبد الله بن الزبير أيام خلافته بالحجاز والعراق، وهو يومئذ بمكة، فخلا به عبد الله يشاوره، فدخل عليه عبد الله بن صَفْوان بن أُميّة بن خلف القُرَشِيّ الجُمَحِيّ فقال: «مَن هذا الذي شغلك يا أمير المؤمنين يومك هذا؟» فقال: «أما تعرفه؟!»، قال: «لا!»، قال: «هذا سيد أهل العراق»، قال: «فهو المهلّب بن أبي صُفْرة!»[5].

ولم يكن يُعاب بشيء إلّا بالكذب، وقد كان أتقى لله عز وجل وأشرف وأنبل من أن يكذب، ولكنه كان يحارب الخوارج، وقد قال

---

(١) وردت: شدة في ابن الأثير (٤/١٧٩). أما في الطبري (٥/١٤٩) فقد وردت: شرة، وهي الحرص الشديد.

(٢) الطبري (٥/١٤٩) وابن الأثير (٤/١٧٩) وانظر ابن خلدون (٣/٤٨).

(٣) الطبري (٥/١٥٠) وابن الأثير (٤/١٧٩).

(٤) الإصابة (٦/٢١٦).

(٥) وفيات الأعيان (٤/٤٣٣).

النبي ﷺ: «الحرب خدعة»، فكان يعارض الخوارج بالكلمة فيوري بها عن غيرها، وقد كان النبيّ ﷺ إذا أراد حرباً ورّى بغيرها[1].

لقد كان المهلب ثقة، وأما من عابه بالكذب فلا وجه له، لأنه كان يحتاج لذلك في الحرب يخادع الخوارج، فكانوا يصفونه لذلك بالكذب غيظاً منهم عليه[2]. إن صاحب الحرب يحتاج إلى المعاريض والحيلة، فمن لم يعرفها عدّها كذباً[3]، وكان المهلب فقيهاً يعلم ما جاء عن رسول الله ﷺ من قوله: «كل كذب يكتب كذباً إلا ثلاثة: الكذب في الصلح بين الرجلين، وكذب الرجل لامرأته يَعِدُها، وكذب الرجل في الحرب يتوعد ويتهدد»[4].

لقد كان المهلب ثقة ليس به بأس، وقد روى عن النبي ﷺ رواية مرسلة، وروى عن بعض الصحابة، وروى عنه بعض التابعين وتابعي التابعين[5].

لقد كان المهلّب من الأجواد المشهورين بالكرم والشهامة[6]، وكان طرازاً نادراً من الرجال يندر أن يجود به الدهر إلا نادراً.

القائد:

من النادر أن يحظى قائد بإعجاب قومه وأعدائه وإطرائهم لمزاياه الحربية كما حظي المهلب بإعجاب قومه وأعدائه به وإطرائهم له على حد سواء.

---

(١) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣).

(٢) الإصابة (٦/ ٢١٦).

(٣) الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢).

(٤) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤). هذا الحديث رواه أحمد في مسنده (٦/ ٤٠٣ و ٤٠٤ و ٤٥٤ و ٤٥٩ و ٤٦٠) كما رواه الترمذي. انظر مفتاح كنوز السنة (٤١٣).

(٥) انظر التفاصيل في الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) والإصابة (٦/ ٢١٦).

(٦) تاريخ أبي الفدا (١/ ١٩٧).

وصفه قَطَرِيّ بن الفُجاءة عدو المهلّب اللّدود، فقال: «المهلّب من عرفتموه: إن أخَذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر: يمدّه إذا أرسلتموه، ويرسله إذا مددتموه، ولا يبدؤكم إلّا أن تبدؤوه، إلّا أن يرى فرصة فينتهزها؛ فهو اللّيث المبر[1] والثعلب الرواغ والبلاء المقيم»[2].... والفضل ما شهدت به الأعداء كما يقولون.

لقد كان شجاعاً ذا رأي في الحرب[3]؛ وقد قال أبو إسحاق السبيعي: «لم أر أميراً أيمن نقيبة ولا أشجع لقاء ولا أبعد مما يكره، ولا أقرب مما يحب من المهلب»[4].

إنّ مفتاح مزايا قيادة المهلّب هي: شجاعته أولًا وتفكيره في إدارة الحرب بشكل رائع متميز للغاية ثانياً.

كان دائماً يوصي بالأناة والمكيدة في الحرب فيقول: «عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة، فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة»[5]، لذلك كان دائماً، يخندق عليه ويضع المسالح ويذكي العيون ويقيم الأحراس ويحرص على بقاء رجاله على مصافهم والناس على راياتهم وأخماسهم، وأبواب الخنادق عليها رجال موكلون بها[6]؛ وكان المهلب يبث الأحراس في الأمن كما يبثهم في الخوف ويذكي العيون في الأمصار كما يذكيها في الصحاري ويأمر أصحابه بالتحرز ويخوفهم البيات وإن بعَدُ منهم العدو، ويقول: «احذروا أن تكادوا كما تكيدون، ولا تقولوا: هزمنا وغلبنا، فإن القوم خائفون وجلون، والضرورة تفتح باب الحيلة»[7]. ونصح أحد الرجال أحد

---

(١) الليث المبر: الغالب. يقال: أبر فان على فلان، غلبه وقهره وعلاه.
(٢) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٥).
(٣) الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) وانظر الإصابة (٦/ ٢١٦).
(٤) شذرات الذهب (١/ ٩١).
(٥) الطبري (٥/ ١٦٢).
(٦) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٥).
(٧) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٤).

القادة فقال: «إن المهلب كان يذكي العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة وهو على أبعد من هذه المسافة منهم»[١]. وكان المهلب يوصي قادته بقوله: «خندق على نفسك فإني لا آمن عليك البيات»[٢].

بل كان المهلب لا يتكل في الحراسة على أحد: كان يتولى ذلك بنفسه ويستعين بولده وبمن يحل محلهم في الثقة عنده[٣]؛ فكان الخوارج - لشدة حذر ويقظة المهلب وحسابه لكافة الاحتمالات - إذا أرادوا بيات رجال المهلّب وجدوا أمره محكماً، فلم يقاتلهم إنسان كان أشدّ عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منه[٤].

لقد كان حريصاً غاية الحرص على سلامة وأمن رجاله من مباغتة العدو لهم، فقد أمطرت الدنيا مطراً شديداً في إحدى الليالي، وكان بين المهلب وجيش عدوه عَقَبة[٥]، فقال المهلّب: «من يكفينا هذه العقبة الليلة؟»، فلم يقم أحد... فلبس المهلب سلاحه وقام إلى العقبة وأتبعه ابنه المغيرة[٦].

إنه أخذ بالحزم في القتال وإعمال الرأي[٧]، وكان يؤمن بمبدأ: الحرب خدعة، ويؤمن بمبدأ: (فَرِّقْ تَسُد)، لذلك عمل على تفريق صفوف أعدائه، وبذل في سبيل ذلك جهداً طويلاً شاقاً فنجح في تفريقهم والقضاء عليهم.

ولم يكن الانتصار على الخوارج سهل التكاليف، فقد كانوا ذوي

---

(١) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٥).
(٢) المحبر (٢٤٥).
(٣) الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٧).
(٤) الطبري (٤/ ٤٧٩) وسرح العيون (١٠٣).
(٥) عقبة: واحدة عقبات، وهي الجبل.
(٦) الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٨).
(٧) سرح العيون (١٠٣).

عقائد راسخة وشجاعة خارقة. سئل المهلّب: «ما أعجب ما رأيت من قتال الخوارج؟» فقال: «رأيت رجلًا منهم يطعن الرجل فيمشي في الرمح إلى طاعنه وينال منه وهو يقول: وعجلت إليك ربي لترضى»[١].

وكانت الخوارج تقاتل على السوط يؤخذ منها والعِلْق[٢] النفيس أشد قتال، وقد سقط في بعض أيامهم رمح لرجل من قبيلة (مراد) من الخوراج، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل[٣]. لذلك كانت مهمة المهلّب في القضاء على هذه الفتنة الداخلية صعبة للغاية.

وكان المهلب بعيد النظر، فقد خلف حُرَيْث بن قُطْبَة مولى خُزاعة على مدينة (كِشّ) وقال له: «إذا استوفيت الفدية فرد عليهم الرهن»، وكان قد استرهن منهم رهناً من أبنائهم، وسار المهلب فلما صار بـ (بلخ) كتب إلى حُرَيْث: «إني لست آمن إن رددت عليهم الرهن أن يغيروا عليك، فإذا قبضت الفدية فلا تخل الرهن حتى تقدم أرض بلخ»، فقال حريث لصاحب (كش): «إن عجلت أعطيتك الرهن»، فعجل صاحب كش بالفدية وأخذ الرهن فلما وصل حريث إلى المهلّب ضربه ثلاثين سوطاً عقوبة على مخالفته كتابه في الرهن[٤].

وكان يؤمن إيماناً عميقاً بأهمية الطاعة والضبط، فقد اتهم قوماً من مضر حين كان يحاصر مدينة (كش) فحبسهم[٥]؛ وكان يؤمن بضرورة الاجتماع وعدم التفرق ويوصي أولاده بهما[٦] ويحارب كل عوامل الفِرقة والفتن[٧].

---

(١) سرح العيون (١٠٧).
(٢) العلق: بالكسر النفيس من كل شيء.
(٣) العقد الفريد (١/ ١١٢).
(٤) ابن خلدون (٣/ ٥٢) وانظر الطبري (٥/ ١٦٠) وابن الأثير (٤/ ١٨٢).
(٥) الطبري (٥/ ١٦٠) وابن الأثير (٤/ ١٨٢).
(٦) انظر الطبري (٥/ ١٦١) وابن الأثير (٤/ ١٨٣) وابن خلدون (٣/ ٥٣).
(٧) الطبري (٥/ ١٤٩).

وكان يحبّ رجاله ويحبونه فكان لهم كالوالد الرؤوف، وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل[1]، وكان يدافع عن معيته دفاعاً قوياً ما داموا على الحق[2] فكان موضع ثقتهم لهذه المزية ولمزاياه القيادية الأخرى.

وكان يثق ثقة مطلقة بنفسه فلا يفسح مجالًا لقائده الأعلى أن يتدخل في صلاحياته الخاصة ولا يريه استكانة وضعفاً ما دام يرى نفسه على الحق. كتب الحجاج إلى المهلب يستبطئه في مناجزة الخوارج ويستعجزه، فحبس المهلب رسول الحجاج أياماً حتى رأى صنع الخوارج وجلدهم وثباتهم، وكتب إلى الحجاج يقول: «إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى، فإن أمكنتني فرصة انتهزتها، وإن لم تمكنني توقفت، فأنا أدير ذلك بما يصلحه؛ وإن أردت مني أن أعمل وأنا حاضر برأيك وأنت غائب، فإن كان صواباً فلك وإن كان خطأ فعليّ، فابعث من رأيت مكاني؛ والسلام»[3]... وهذا منتهى الاعتداد بالنفس والحرص على حرية العمل دون تدخل من المرجع الأعلى بلا مسوِّغ حتى لو كان هذا المرجع الأعلى الحجاج بسطوته وسيطرته وقوة شخصيته.

وكان يؤمن بالحرب العادلة ولا يؤمن بالعدوان، فكان يوصي بنيه بقوله: «لا تبدؤوهم بقتال حتى يبدؤوكم فيبغوا عليكم، فإنهم إذا بغوا نصرتم عليهم»[4].

وكان يعرف قيمة المعلومات عن العدو وعن طبيعة الأرض التي يقاتل

(١) وفيات الأعيان (٤/ ٤٤٠).
(٢) انظر دفاعه عن رجاله عند الحجاج بن يوسف الثقفي في الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٤).
(٤) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٧). وانظر شذرات الذهب (١/ ٧٨) وطبقات ابن سعد (٧/ ٩٥) والكامل للمبرد (١/ ٣٨).

فيها، ويرسل الجواسيس لتزويده بتفاصيل الحالة المادية والمعنوية للعدو حتى يقاتلهم على بينة من أمره، كما فعل في إرسال الجواسيس إلى معسكر الخوارج في الأهواز[١] وكما كان يفعل تمهيداً لكل معركة يخوضها.

وكان لا يهتم بعدد الجنود بقدر ما كان يهتم بنوعيتهم، فكان يفضل العدد القليل من الشجعان المؤمنين على العدد الكثير من المرتزقة الرعاديد[٢].

وكان شعاره في الحرب: «حَم. لا يُنْصَرون». وكان يروي عن النبي ﷺ قوله: «إن بيتوكم فليكن شعاركم: حم. لا ينصرون»[٣]. وكانتْ رُكُب[٤] الناس قديماً من الخشب، فكان الرجل يضرب بركابه فينقطع، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معين أو معتمد، فأمر المهلب فضربت الرُكُب من الحديد، فهو أول من اتخذ الركب من الحديد، وكانت قبل ذلك تعمل من الخشب[٥].

وعند تطبيق أعمال المهلب العسكرية على مبادئ الحرب نجد أنه كان ماهراً في اختيار مقصده وإدامته وعدم التحول عنه دون الحصول على النتيجة الحاسمة، وكان قائداً يحرص على مبدأ (التعرض) وذلك بعد إكمال (تحشيد قوّته) وإنجاز (أمورها الإدارية).

وكان يطبِّق مبدأ (المباغتة) تطبيقاً متميِّزاً للغاية في المكان كما فعل حين خرج بقواته من الطوق الذي أحاطهم به الترك وأنقذهم من الفناء الأكيد. كما كان يباغت عدوه بالزمان كما فعل عندما عاد إلى معسكر

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٧٧).

(٢) انظر انتخاب المهلب اثني عشر ألفاً فقط من أهل البصرة في ابن الأثير (٤/ ٧٦) والكامل للمبرد (٣/ ١٧٢) وانظر خطابه الذي ألقاه على ثلاثة آلاف من رجاله الذين ثبتوا بعد هزيمة رجاله الآخرين في الطبري (٤/ ٤٨٠ ـ ٤٨١) وابن الأثير (٤/ ٧٧ ـ ٧٨) والكامل للمبرد (٣/ ١٧٩ ـ ١٨٢) وسرح العيون (١٠٣).

(٣) الإصابة (٦/ ٢١٦).

(٤) ركب: جمع ركاب، وهو ما يوضع فيه رجل الفارس حين يركب فرسه.

(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤).

الخوارج في (سلى وسليري) حين كان أكثرهم يطاردون أصحاب المهلب، وبذلك قضى على أكثر الخوارج الذين كانوا في المعسكر ومن ضمنهم أميرهم أيضاً.

وكان يحرص على (الاقتصاد بالمجهود)، وقد بذل قصاراه للمحافظة على أرواح وأموال رجاله وأموالهم وذلك بيقظته وانتباهه وحرصه سلفاً على إكمال كافة متطلبات القتال كافة.

وكان لا يقر له قرار قبل أن يتأكد من (أمن) قواته وأنها قد أعدت ما يحول دون العدو والنيل منها مادياً ومعنوياً، ومن أجل (أمن) تلك القوات كان غالباً ما يقوم بواجبات حراستها بنفسه.

وكان لا ينفك يوصي على تطبيق مبدأ (التعاون)، فكان رجاله يعملون كعائلة متماسكة بإشرافه وإشراف أولاده.

وكان يعمل على (إدامة المعنويات) بمثاله الشخصي وبتوفير الأمن لرجاله وبعدله وبخطبه في أحرج الأوقات وباستئثاره بالأخطار دون رجاله.

لقد كان المهلب يقاتل بعقله كما يقاتل بسيفه، وقد نال من عدوه بعقله ما لم ينل منه بسيفه.

وقد أعانه على إحراز انتصاراته الساحقة على الخوارج أولاده فقد وقع إلى الأرض من صلبه ثلاثمائة ولد[١]. قال عبد الرحمن الكلبي عندما رأى أولاد المهلب قد ركبوا عن آخرهم لحرب الخوارج: «آنس الله الإسلام بتلاحقكم، فوالله لئن لم تكونوا أسباط نبوّة إنكم لأسباط ملحمة»[٢].

وقد وصفهم أحد الرجال للحجاج قال: «المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسخيهم قُبَيْصة، ولا يستحي الشجاع

(١) المعارف (٤٠٠).

(٢) البيان والتبيين (٢/ ٦٦ ـ ٦٧).

أن يفر من مُدْرِك، وعبد الملك سم ناقع، وحبيبَ موت زعاف، ومحمد ليث غاب وكفاك بالمفضّل نجدة» فقال الحجاج: «كيف خلّفت جماعة الناس؟ قال: خلفتهم بخير: قد أدركوا ما أمّلوا وأمنوا ما خافوا»، فقال: «فكيف كان بنو المهلّب فيكم؟»، قال: «كانوا حماة السرح نهاراً فإذا أليلوا فرسان البيات»، قال: «فأيهم كان أنجد؟؟»، قال: «كانوا كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفها!!»[1].

ولما هزم المهلب قَطَرِي بن الفُجاءة أمير الخوارج، بعث مالك بن بشير بالخبر إلى الحجاج؛ فسأله الحجاج: «كيف تركت المهلب»، قال: «أدرك ماأمل وأمن ما خاف»، فقال: «كيف هو بجنده؟» فقال: «والد رؤوف»، قال: «فكيف جنده له»، فقال: «أولاد بررة»؛ فقال: «كيف رضاهم عنه؟» فقال: «وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل»...... فقال: «أخبرني عن أولاد المهلب»، فقال: «أعباء القتال بالليل، حماة السرح بالنهار»[2].

لقد كان للمهلب قابلية فائقة على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة وتصميم الخطط المعقولة العملية، وكان شجاعاً مقداماً، ذا إرادة قوية ثابتة وشخصية قوية نافذة، وكان يتحمل المسؤولية بلا تردد، وله نفسيه لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، يسبق النظر بعمق وبصيرة، يعرف نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم ونفسية رؤسائه ومزاياهم، يثق برجاله ويثقون به ويحبهم ويدافع عنهم ويحبونه، له قابلية بدنية ممتازة وماض ناصع مجيد.

---

(١) الكامل للمبرد (٣/ ٢٢٤).

(٢) العقد الفريد (١/ ٢٠١) وانظر مروج الذهب بهامش ابن الأثير (١/ ٨٢). وفي الكامل للمبرد (٣/ ٢٢٧): قال الحجاج للمهلّب: «اذكر لي القوم الذين أبلوا وصفْ لي بلاءهم»، فذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء وقدّم بنيه: المغيرة ويزيد ومدركاً وحبيباً وقبيصة والمفضل وعبد الملك ومحمداً وقال: «إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدَّمته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم». فقال الحجاج: «صدقت وما أنت بأعلم بهم مني وإن حضرت وغبت... إنهم لسيوف من سيوف الله».

كما كان يعرف مبادئ الحرب معرفة تلقائية ويطبقها ويؤمن بأهمية الضبط والطاعة، وما أصدق يزيد بن المهلب حين يقول: «إنا أهل بيت بورك لنا في الطاعة، وأنا أكره المعصية والخلاف»[1].

تلك هي موجز مزايا قيادة المهلّب، فلا عجب أن يقول فيه لقيط بن يَعْمَر الأياديّ[2]:

وقـلّـدوا أمـركـم لله دركـمُ	رَحب الذِراع بأمر الحرب مضطلعاً
لا مُتْرَفاً إن رخاء العيش ساعده	ولا إذا عَض مكروه له خشعا
مسهّد النوم تغنيه ثغوركم	يروم منها إلى الأعداء مطلعاً
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره[3]	يكون متّبِعاً طوراً ومتَّبَعاً
وليس يشغله مال يثمّره	عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا
حتى استمرت على شزر مريرته	مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضرعاً

ولا عجب أن يقول فيه شاعر من الأزد[4]:

إن العراق وأهله لم يخبُروا	مثل المهلب في الحروب فسلموا
أمضى وأيمن في اللقاء نقيبة[5]	وأقل تهليلاً[6] إذا ما أحجموا

لقد كان المهلب قائداً متميِّزاً بكل ما في الكلمة من معنى.

المهلّب في التاريخ:

يذكر التاريخ للمهلّب أنه أول قائد منتخب من بين رجالات البصرة وحكّامها وشعبها.

---

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٣٣٢).

(٢) ابن الأثير (٤/ ١٧١) وانظر الكامل للمبرد (٣/ ٢٢٥).

(٣) الأشطر: جمع شطر وهو خلف الناقة وللناقة أخلاف، يقال: فلان حلب الدهر أشطره، أي اختبر ضروبه من خير وشر تشبيهاً بجلب جميع أخلاف الناقة ما كان منها حفلاً وغير حفل.

(٤) الكامل المبرد (٣/ ١٧٣).

(٥) فلان ميمون النقيبة: أي مظفر في مطالبه. والنقيبة النفس أو الطبيعة والخليقة.

(٦) التهليل: التكذيب والانهزام. انظر الكامل للمبرد (٣/ ١٧٣).

ويذكر له، أنه كان طرازاً نادراً بين القادة والرجال، وأنه كان قائداً إنساناً من طراز رفيع.

ويذكر له، أنه قضى بكفايته العالية ومقدرته العظيمة وحنكته ودهائه، على أخطر فتنة داخلية هي فتنة الخوارج التي كانت تهدِّد مصير الدولة الإسلامية.

ويذكر له، أنه فاتح مناطق واسعة من بلاد السِّند وبلاد ما وراء النهر، نشر فيها لغة العرب وعقيدة الإسلام.

ويذكر له، أنّ المناصب الرفيعة كانت تسعى إليه تجرِّر أذيالها، وأنه كان أكبر من المناصب التي يتسنمها تكليفاً لا تشريفاً.

ويذكر له، أنّ الخلفاء والأمراء والولاة سعوا إليه ليصاول الأخطار دونهم ويولّد الأمن والاستقرار.

رضي الله عن القوي الأمين، المفكّر الحكيم، العالم الخبير، المحدِّث الفقيه، المدبِّر الحصيف، القائد الفاتح، الإنسان السَوِيّ، المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة الأَزدِيّ.



يَزِيْد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة الأَزْدِيّ
فاتح شطر ما وراء النّهر وشطر خُراسان[1] وشطر طَبَرِسْتَان

نسبه وأيامه الأولى:

هو أبو خالد يزيد بن المُهَلّب بن أبي صُفْرَة الأَزْدِيّ، وهو من أَزْد العَتِيْل - أَزْد (دَبا)[2].

أبوه: المُهَلّب بن أبي صُفْرَة بن سَرَّاق[3] بن صُبَيْح[4] بن كِنْدِيّ بن عمرو بن وائِل بن الحارث بن العَتِيْل بن الأَسد[5] بن عِمْران بن عمرو مُزَيْقِياء[6] بن عامِر بن ماء السَّماء[7] بن حارثة بن امرئ القيس بن

---

(١) خُراسان: بلاد واسعة تتاخم العراق من الغرب وأفغانستان والهند من الشرق، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها، وتمتدّ من الشمال إلى أقصى تخوم إيران، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٤٥ - ١٦٠) ومعجم البلدان (٣/ ٤٠٧).

(٢) دبا: اسم موضع بين عُمان والبحرين، انظر التفاصيل في وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٩) والمعارف (٣٩٩)، وهي مدينة بعُمان قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٠).

(٣) ويقال: ابن سارق، انظر الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) والإصابة (٧/ ١٠٥).

(٤) في وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢): ابن صبح، وكذلك في جمهرة أنساب العرب (٣٦٧).

(٥) في الإصابة (٧/ ١٠٥) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢): ابن الأزد.

(٦) مزيقياء: لقب عمرو المذكور، وكان من ملوك اليمن، انظر وفيات الأعيان(٤/ ٤٣٥).

(٧) في وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٩): عامر ماء السماء، لا عامر بن ماء السماء، كما ورد في أعلاه، وقد لقِّب بماء السماء لجوده وكثرة نفعه، فَشُبِّه بالغيث.

ثَعْلبَة بن مازِن بن الأَزْد الأَزْدِيّ العَتَكِيّ[1].

وأُمّه: رَحِمَة[2] الأَزْدِيَّة، وخاله: جُدَيْع بن سعيد بن قَبِيْصة بن سَرَّاق الأَزْدِي[3]، فأمه رَحِمَة بنت سعيد بن قَبِيْصَة بن سَرَّاق الأَزْدِيّة، فيكون يزيد أَزْدِياً من الأب والأم، وأمه بنت عمِّ أبيه.

ولد سنة ثلاث وخمسين الهجرّية[4] (٦٧٢م)، فشبّ وترعرع في كنف أبيه القائد الذي تولّى القيادة في وقت مبكر على عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه سنة إحدى وثلاثين الهجّرية (٧٠١م) وهو على خُراسان. وقد كان المُهَلّب من أبرز قادة الفتح، برز في الفتوح، وبرز في إخماد الفتن الداخليّة، فكان يزيد مع أبيه في الفتح وفي إخماد الفتن الداخلية منذ شبّ عن الطّوْق واستطاع حمل السِّلاح، فاكتسب خبرة عملية في القيادة والإدارة في محيط والده المتميِّز بالكفاية والشّجاعة والحنكة، مما كان له أثر كبير في حياته العمليّة قائداً وإدارياً.

وكان يزيد السّاعد الأيمن لأبيه المهلّب قائداً وإدارياً، وقد سأل الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ عن أولاد المهلبّ، فقيل له: «... وكفى بيزيد فارساً وشجاعاً»[5]، فكتب الحجّاج إلى المهلّب يشكره ويأمره أن يولى (كَرْمان)[6] مَنْ يثق به ويجعل فيها مَن يحميها، فاستعمل المُهلَّب على

---

(١) أسد الغابة (٥/ ٢٣١)، وانظر الإصابة (٣/ ٣٠٣) و(٧/ ١٠٥) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) وطبقات ابن سعد (٧/ ١٠١) و(٧/ ١٢٩) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢) والمعارف (٣٩٩) والبلاذري (٣٠٧) وشرح العيون (١٠٢) والتنبيه والأشراف (٣٢٠)، واسم أبي صفرة: ظالم، انظر جمهرة أنساب العرب (٣٦٧).

(٢) الطبري (٦/ ٣٥٣).

(٣) الطبري (٦/ ١٩٦).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢٠٦) ووفيات الأعيان (٥/ ٤٣٩).

(٥) ابن الأثير (٤/ ٤٤٠).

(٦) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة، ذات بلاد وقرى واسعة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٤١)، وانظر حدود كرمان وتفاصيل عنها في المسالك والممالك للإصطخري (٩٧ ـ ١٠٠).

(كَرْمان) يزيد ابنه[1]، وأقرّ الحجّاج تولية يزيد، مما يدلّ على ثقة المهلّب بابنه يزيد وثقة الحجّاج به على الرغم من أنّ تولية يزيد (كرمان) كان سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٤٦م)، ويومها كان عمر يزيد لا يزيد عن خمس وعشرين سنة، أي أنه كان في ريعان الشباب.

ومن المؤكّد أن أعباء المهلّب القتالية والإداريّة وانغماس ولده يزيد في معاونة والده المهلّب في تحمل بعض أعبائه الثقيلة، حرمت يزيد من التفرغ لاستيعاب العلوم النظرية السّائدة في حينه: علوم القرآن والحديث واللّغة والأدب والتاريخ والفقه، ولكنه لم يحرم نهائياً من تعلّم تلك العلوم على أبرز الأساتذة والشيوخ المعروفين في حينه بالبصرة والكوفة، وبهذا استكمل يزيد شخصيته في تلقي العلوم النظرية والعلمية، وأعدّ نفسه إعداداً كاملاً لتحمل ما تنتظره من أعباء جسام.

وفي طريق عودة المهلّب من بلاد ما وراء النهر إلى (مَرْو) مقرّه في خراسان سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م)، توفيّ المُغِيْرة بن المهلّب، وكان أبوه المهلّب قد استخلفه على عمله في (خُراسان)، فأتى نعيُه يزيدَ بن المهلّب وأهل العسكر، فلم يُخبروا المهلّب، ولكن يزيد أمر النساء فصرخن، فقال المهلّب: «ما هذا!»، فقيل: مات المغيرة! فاسترجع المهلّب وجزع حتى ظهر جزعه. ودعا يزيد ووجّهه إلى (مرو)، وأوصاه بما يعمل، وإنّ دموعه لتنحدر على لحيته.

وسار يزيد في ستين فارساً، ويقال: في سبعين، فلقيهم خمسمائة من الترك في مفازة (بُسْت)[2]، وطلبوا إعطاءهم شيئاً من المال وإلّا قاتلوهم، فأبى يزيد أن يعطيهم شيئاً، لأنه ابتزاز والخائف يسمح بابتزازه، ولكن مُجّاعة بن عبد الرحمن العَتَكِيّ أعطاهم ثوباً وقوساً وأشياء تافهة أخرى،

---

(١) ابن الأثير (٤/٤٤١).

(٢) بست: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، وهي من أعمال كابُل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٧٠ - ١٧٨).

فانصرف الأتراك على مضض، وغدروا وعادوا إلى مفرزة يزيد، ونشب القتال بين الجانبين واشتدّ، وكان مع يزيد رجل من الخوارج أخذه أسيراً في إحدى المعارك التي دارت بين الخوارج والمهلّب وشهدها يزيد، فقال له الخارجي: «اسْتَبْقِني»، فاستبقاه، وحمل الخارجيّ على الترك حتى خالطهم وقتل رجلًا منهم ثم رجع إلى يزيد، كما قتل يزيد عظيماً من عظمائهم، ورُمي يزيد بساقه، واشتّدت شوكة الترك، فصبر لهم يزيد حتى حاجزوهم، وأصرّ الترك على أخذ شيءٍ من مفرزة يزيد أو يموت أحد الجانبين المتقاتِلَيْن، فلم يعطهم يزيد شيئاً.

وقال مُجّاعة: «أُذكِّرك الله! قد هلك المُغيّرة، فأنشدك الله أن تهلك، فتجمع على المهلّب المصيبة»، فقال يزيد: «إنّ المغيرة لم يَعْدُ أجلَه، ولستُ أعدو أجلي»، فرمى إليهم مُجّاعة بعمامة صفراء، فأخذوها ثم انصرفوا[1].

وفي هذا الاصطدام المسلّح قال الراجز:

يـزيـدُ يـا سـيـفَ أبـى سَـعِـيْـد[2]	قـد عَـلِـمَ الأقـوامُ والـجـنـودْ
والـجَـمْـع يـوم الـمَـجْـمَـعِ الـمشـهـودْ	أنّـك يـومَ الـتُّـركِ صـلـبُ الـعـودْ

وقال الأشقري:

والـتُّـرْكُ تـعـلـمُ إذ لاَقـىَ جـمـوعَـهُـمُ	أن قـد لـقـوه شِـهـابـاً يَـفْـرِجِ الـظُّـلَـمـا
بِـفْـتـيـةٍ كـأُسُـودِ الـغـابِ لـم يَـجِـدوا	غير الـتأسّي وغير الـصبرِ مُـعْـتَـصَـمـا
نرى شَرائجَ[3] تَغْشى القومَ من عَلَقٍ[4]	ومـا أرى نـبـوةً مـنـهـم ولا كَـزَمـا[5]

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣٥٠ ـ ٣٥١) وابن الأثير (٤/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣).

(٢) أبو سعيد: هو المهلّب بن أبي صُفْرَة الأزديّ والد يزيد.

(٣) الشرائج: جمع الشَّريج، والشرائج: ألوان مختلفة من كل شيءٍ، ويريد هنا من البشر.

(٤) علق: جمع عَلَقَة، دود أسود يمتص الدم ويكون في الماء الآسن، ويريد التهوين من شأنهم.

(٥) كزم فلان: هاب التقدّم على الشيء، فهو كَزِمٌ.

وتَحْتَهُمْ قُرَّحٌ[1] يَرْكَبْنَ ما رَكِبوا   مِن الكريهة حتى ينتعلنَ دَما
في حازّةِ الموتِ حتى جَنَّ ليلُهُمُ   كِلَا الفريقين ما وَلّى ولا انهزما[2]

وحين حضرت الوفاةُ المهلّبَ، دعا حَبِيْباً ومَنْ حضره من ولده، ودعا بسهام فَخُرِمت، وقال: «أترونكم كاسريها مجتمعةً؟»، قالوا: لا، قال: «أترونكم كاسريها متفرّقةً؟»، قالوا: نعم، قال: «فهكذا الجماعة، فأوصيكم بتقوى الله وصِلة الرَّحِم، فإن صلة الرَّحِم تُنسئ في الأجل، وتُثْري المال، وتُكْثِرُ العَدَد؛ وأنهاكم عن القطيعة، فإنّ القطيعة تُعْقِبُ النّار، وتورِث الذلّة والقِلّة، فتحابّوا وتواصَلوا، وأجمعوا أمركم ولا تختَلفوا، وتباروّا تجتمعْ أمورُكم. إنّ بني الأم يختلفون، فكيف ببني العَلّات[3]! وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحبّ للرّجل أن يكون لعمله فضلٌ على لسانه، واتّقوا الجوابَ وزَلّةَ اللّسان، فإنّ الرجل تزلّ قدمُه فينتعش من زلّته، ويزِلّ لسانه فيَهلِك. اعرفوا لمن يغشاكم حقَّه، فكفى بغُدوِّ الرجل ورُواحه إليكم تذكرةً له، وآثروا الجُوْدَ على البُخْل، وأحِبّوا العَرَب واصطنعوا العُرْف، فإن الرجل من العرب تَعِدُهُ العِدَةَ فيموتَ دونَك، فكيف الصنيعة عندَه! عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة، فإنها أنفع في الحرب من الشّجاعة، وإذا كان اللّقاء نزل القضاء، فإنْ أخَذَ رجل بالحزم فظهر على عدوّه قيل: أتى الأمْر من وجهه، ثمّ ظفِر فحُمد، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرَّطَ ولا ضيّعَ، ولكنّ القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن، وتعليم السنَن، وأدب الصّالحين، وإيّاكم والخِفّة وكثرَة الكلام في مجالسكم، وقد استخلفتُ عليكم يزيدَ، وجعلتُ حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد، فلا تخالفوا يزيد»، فقال له المُفَضَّل: «لو لم تقدِّمه، لقدّمناه».

ومات المهلّب، وأوصى إلى حبيب، فصلّى عليه حبيب، ثمّ سار إلى (مَرْوَ).

---

(١) قُرَّح: جمع القارح، والقارح من ذي الحافر: ما استتمّ الخامسة من عمره.
(٢) الطبري (٦/ ٣٥١ ـ ٣٥٢).
(٣) العَلّات: جمع العَلّة وهي الضُرّة. وبنو العَلّات: بنو رجل واحد من أمهات شتى.

وكتب يزيد إلى عبد الملك بن مروان واستخلافه إياه، فأقرّه الحجّاج[1].

وهذا دليل واضح على ثقة المهلّب بابنه يزيد، وتفضيله على سائر إخوته عل الرغم من أنه لم يكن أكبرهم سناً، فقد مات ابنٌ لحبيب بن المهلّب، فقدَم أخاه يزيد ليصلي عليه، فقيل له: أَتقدِّمه وأنت أسنّ منه، والميت ابنك!؟ فقال: «إنّ أخي قد شرّفه الناس، وشاع فيهم له الصيت، ورمقته العرب بأبصارها، فكرهت أن أضع منه ما قد رفعه الله تعالى»[2].

ولم يكن يزيد موضع ثقة أبيه المهلّب وإخوته أبناء المهلّب حسب، بل كان موضع ثقة أميره المباشر الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ الذي كانت خُراسان إحدى ولاياته، وثقة عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين الذي كان قمة الدولة التي لا تغيب الشمس عن بلادها، وثقة الناس عرباً وعجماً، مما يدلّ على كفايته العالية المتميِّزة.

ولعلّ ما يجلب النظر، أنّ يزيد حين استخلفه أبوه المهلّب على خُراسان سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) كان ابن ثلاثين سنة[3]، ولم يكن أكبر إخوته في السنِّ، واستخلاف الأكبر سناً من تقاليد العرب المعروفة التي قلّما يخرجون عنها إلّا في حالة التفوّق الواضح بالكفايات للأصغر سنّاً على الأكبر منه، مما يدلّ على تفوق يزيد في كفاياته على إخوته جميعاً: الكبير منهم والصغير.

وَتَوليِّ خُراسان التي هي من أكثر الولايات الإسلامية أهميّة وتفجّراً في حينه، ويزيد في الثلاثين من عمره، دليل آخر على كفاياته العالية المتميزة.

---

(١) الطبري (٦/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥) وابن الأثير (٤/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦) وانظر وفيات الأعيان (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٧).

(٣) المعارف (٤٠٠) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٢).

لقد فرض يزيد نفسه بكفاياته العالية على الأحداث وعلى المناصب الرفيعة وهو لا يزال في ريعان الشباب غضّاً فتياً، فيا قرب ذلك من مولد، ويابُعْد ذلك من سُؤْدد.

الفاتح:

١ ـ المرحلة الأولى:

أ ـ في سنة ثمانين الهجريّة (٦٩٩م)، قطع المهلّب نهر (بَلْخ)[١]، وهو نهر (جَيْحُون) ونزل على (كِشّ)[٢].

وأتى المهلّب وهو نازل على (كِشّ) ابن عمِّ ملك (الخُتَّل)[٣]، وملك الخُتَّل يدعى (السَّبَل)[٤]، فدعاه إلى غزوها.

ووجّه المهلّب ابنه يزيد مع ابن عمّ ملك الخُتّلَ، فنزل يزيد ناحية، ونزل ابن عم ملك الختّل ناحية أخرى، والناحيتان في أرض الخُتَّل.

وبيّتَ (السَّبَلُ) ابن عمِّه، فأخذه وقتله.

وحصر يزيد قلعة ملك الخُتَّل، فصالحوه على فديةٍ حملت إليه، فرجع

---

(١) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، من أجلِّ مدن خراسان وأذكرها وأكثرها خيراً وأوسعها غلّة، تحمل غلّتها إلى جميع خراسان وإلى خُوارزم، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٥٥ ـ ١٥٦) ومعجم البلدان (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) وتقويم البلدان (٤٦٠ ـ ٤٦١).

(٢) كش: مدينة تقارب سمرقند، من إقليم الصُغد أحد أقاليم بلاد ما وراء النهر. انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٨١ ـ ١٨٢) ومعجم البلدان (٧/ ٢٥٠ ـ ٢٥١) وتقويم البلدان (٤٩٠ ـ ٤٩١).

(٣) الختّل: بلاد الوخْش في قسمها الشمالي حيث مخرج نهر (وخشاب)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٠١).

(٤) السَّبَل: لقب ملك الخُتَّل. وطرخون: ملك الصُغد. وزنبيل: ملك كابل. واخشاد: ملك فرغانة. والسَّبَل يعني اصطلاحاً: ملك من ملوك ما وراء النهر والخاص بالخُتّل فقط من بلاد ما وراء النهر.

يزيد عنهُم[1]، بعد أن أعاد فتحه من جديد.

وكان هذا الفتح على عهد المهلّب، وكان يزيد يومها قائداً مرءوساً.

ب ـ وبعد موت المهلّب، أصبح يزيد سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) على خُراسان والياً وقائداً، فغزى مغازي كثيرة، واستعاد فتح (البُتَّم)[2] على يد ابنه مُخَلَّد.

وغزا يزيد (خُوَارِزْم) وأصاب سبياً واستعاد فتحها[3].

وليس هناك نص يشير إلى سنة فتح (البُتَّم) و (خُوَارِزْم)، ولكن يزيد بقي على خراسان من سنة اثنتين وثمانين الهجرية إلى سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠١م ـ ٧٠٤م)، فلا بدّأن يكون فتح هذين الإقليمين خلال هذه المدّة الزمنيّة.

جـ ـ وفي سنة أربع وثمانين الهجريّة (٧٠٣م)، غزا يزيد قلعة (نِيْزك) بـ (باذَغِيْس)[4]، وكان نيزك ينزل بهذه القلعة، فتحيّن يزيد غزوه، ووضع عليه العيون. وبلغ يزيد خروجه فخالفه إليها، فلما بلغ نيزك قدوم يزيد يريد قلعته رجع إليها، فصالح يزيد على أن يدفع إليه ما في القلعة من الخزائن ويرتحل عنها بعِياله.

---

(١) الطبري (٦/ ٣٢٥) وابن الأثير (٤/ ٤٥٣)، ووردت: السَّبْل في ابن الأثير (٤/ ٤٥٣): الشبل، وهذا خطأ النسّاخ، ويبدو أنهم لم يكونوا يعرفون معنى السَّبل، فجعلوه: الشبل الذي هو ابن الأسد، ولا يخطأ ابن الأثير مثل هذا الخطأ، ولكن النّساخ الذين قد يجهلون التاريخ يمكن أن يقعوا في مثل هذا الخطأ.

(٢) البُتَّم: اسم حصن منيع جداً ببلاد فرغانة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٥٧)، والبتّم: جبال شاهقة منيعة، فيها حصون منيعة، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٨٤).

(٣) البلاذري (٥٨٧).

(٤) باذغيس: ناحية تشمل على قرى من أعمال هراة ومرو الرّوذ، قصبتها: بَوْن وباميين، بلدتان متقاربتان، وهي في بلاد خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣١) وتقويم البلدان (٤٥٤ ـ ٤٥٥).

وكانت القلعة من أحصن القلاع وأمنعها، وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيماً لها.

وقد قال كعب بن مَعْدان الأشقريُّ في وصف القلعة والفتح:

وبباذَغِيْس التي مَنْ حَلَّ ذُرْوَتها عزَّ الملوك فإن شا جارَ أَوْ ظَلَما
مَنِيْعَةٌ لم يَكِدْها قَبْلَهُ مَلِكٌ إلّا إذا واجَهَتْ جيشاً له وَجَما
تخالُ نيرانَها من بُعْدِ مَنْظَرِها بعضَ النّجوم إذا ما ليلُها عَتَما
لمّا أطافَ بها ضاقتْ صدورهُمُ حتى أقرّوا له بالحُكم فاحْتَكَما
فذلّ ساكنُها من بعد عِزَّتِهِ يُعْطِي الجِزَى عارفاً بالذلّ مُهْتَضَما
وبعدَ ذلك أيّاماً نُعَدِّدها وقبلها ما كَشَفْتَ الكرب والظُّلما
أعطاك ذاك وليُّ الرزقِ يَقْسِمُهُ بين الخلائقِ والمحرومُ مَنْ حُرِما
يداكَ إحداهُمَا تُسقى العدوَّ بها سَمّاً وأُخرى نداها لم يَزَلْ دِيَما
فهل كَسَيْبِ يزيدٍ أو كنائِلِهِ إلّا الفُراتُ وإلّا النِيْلُ حين طَمَا
ليسا بأجوَد منه حينَ مَدِّهِما إذ يَعْلُوَان حداب الأرض والأكما[1]

وقال:

ثنائي على حيِّ العَتِيْك بأنّها كِرامٌ مَقَارِيْها[2]، كرام نصابُها[3]
إذا عقدوا للجارِ حَلَّ بِنَجْوةٍ عزيزٌ مراقِيها، منيعٌ هِضَابُها
نفى نَيْزَكاً عن باذَ غِيْسَ ونيزكٌ بمنزلةٍ أعيا الملوكَ اغتِصابُها
مُحَلَّقَةٍ دونَ السَّماء كأنَّها غَمَامةُ صَيفٍ زَلَّ عنها سَحَابُها
ولا يبلغ الأرْوَى شماريخها العلا ولا الطَّيرُ إلا نَسْرُها وعُقابُها
وما خُوِّفَتْ بالذِّئبِ ولدانُ أهلها ولا نَبَحَتْ إلّا النّجومَ كلابُها
تَمَنَّيْتُ أن ألقى العتيكَ ذوي النُّهىٰ مَسَلّطة تُحمى بملكٍ ركابُها

---

(١) الطبري (٦/ ٣٨٦) وانظر ابن الأثير (٤/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩).

(٢) المقار: جمع مَقَر، وهو موضع الاستقرار، ومحلٌ يتخذه الإنسان مكاناً لإقامته، ويريد بهم الذين استقروا في المدن والحواضر.

(٣) نصاب: الأصل والمرجع، ويريد به رئيس القبيلة وشيخها.

كما يَتَمَنّى صاحبُ الحرثِ أَعْطَشَتْ مـزارعُـهُ غَـيْـثـاً غـزيـراً رَبـابُـهـا
فـأُسْقِيَ بَعْدَ اليأس حتى تحيَّرَتْ جَـدَاولـهـا رِيّـاً وعـبّ عـبـابُـهـا
لـقـد جـمـع الله الـنـوى وتَـشَـعَّـبَـت شـعـوبٌ مـن الآفـاقِ شـتـى مـآبـهـا[1]

وقد حرصت على نقل هذا الشِّعر الجميل، لأنه يصف وصفاً دقيقاً مناعة قلعة نيزك، ويصف بشكل غير مباشر مبلغ ما تحمله المسلمون من عناء شديد في فتحها.

وليس نيزك اسم شخص من الأشخاص، بل لقب ملك باذغيس، أحد الملوك المحلِّيين في خُراسان.

وقد نجح يزيد في مباغتة نيزك، إذ استطاع تطويق القلعة ونيزك بعيد عنها، مما أجبر نيزك على الصلح.

ومن الواضح أنّ هذه القلعة الحصينة، كانت جيباً من جيوب المقاومة المعادية للمسلمين، فكان فتحها إيذاناً بالسيطرة الكاملة على منطقة باذغيس بأكملها.

ولما فتح يزيد القلعة، كتب إلى الحجّاج بالفتح، وكان يكتب له يَحْيَى بن يَعْمَر العَدْوانيْ حليف هُذَيْل[2]: «إنّا لحقنا العَدُوّ، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفةً، وأسرنا طائفةً، ولحقت طائفة برؤوس الجبل، وعَراعِر[3] الأودية، وأهضام[4] الغِيطان، وأثناء الأنهار»، فقال الحجّاج: «مَنْ يكتب ليزيد؟»، فقيل له: يحيى بنُ يَعْمَر. وكتب الحجّاج إلى يزيد فحمله على البريد، فقدم عليه أفصح الناس.

وقال له: «أين وُلدت؟»، قال: «بالأهواز»، فقال: «فهذه الفَصاحة؟»،

---

(١) الطبري (٦/ ٣٨٧) وابن الأثير (٤/ ٤٩٩).
(٢) كان بنو هذيل معروفين بالفصاحة، وكانوا حجّة في الفصاحة والبلاغة والبيان، وشعراؤهم مشهورون.
(٣) عراعر: جمع عُرْعُرَة، وعرعرة كل شيء: أعلاه، يقال: عُرْعُرَة الجبل.
(٤) أهضام: جمع الهِضْم: المطمئن من الأرض، وبطن الوادي.

فقال: «حفظتُ كلام أبي وكان فصيحاً». قال: «هل يلحن عَنْبَسة بن سعيد؟»، قال: «نَعَم كثيراً»، قال: «فَفُلان؟»، قال: «نعم»، قال: «فأخبرني عنّي أَأَلحَن؟»، قال: «نعم، تلحَنُ لحْناً خَفِيّاً، تزيد حرفاً وتَنقص حرفاً، وتجعَل أَنْ في موضع إنْ، وإِنْ في موضع أَنْ»، قال: «قد أجّلتُك ثلاثاً، فإن أجدْك بعد ثلاث بأرض العراق قتلْتك»، فرجع إلى خُراسان(١).

وهكذا جنى على الكاتب الفصيح علمُه، فقد كان عالماً أكثر مما ينبغي كما يقول المثل، فلم يحتمله الحجّاج الذي كان لا يحتمل أحداً كائناً من كان أفضل منه في أي شيءٍ من الأشياء.

والحجّاج ليس وحده يُعاني من هذه النقيصة على كل حال!

د ـ والذي يُؤخذ على يزيد أنه لَمَ يَعْرِض لموسى بن عبد الله بن خازِم بسوء(٢)، وهو الذي كان أحد الخارجين على الدولة في (تِرْمِذ) فاتخّذها مقراً له في بلاد ما وراء النهر، وهو الذي قاتل مع أبيه عبد الله بن خازِم سنتين، ثم خرج يسير في بلاد خُراسان، حتى أتى ملك ترمِذ فغلبه على مدينته وأخرجه منها، فأقام في حصنه خمس عشرة سنة، وصار ما وراء النهر له لا ينافسه فيه أحد(٣)، يسيطر على معظم أجزائه، ويجبي الضرائب ويجمع الأموال، ويأوي الخارجين على الدولة ويستعين بهم في حرب العرب وغير العرب.

وقد كانت بلاد ما وراء النهر، هي المجال الحيويّ في الفتح واستعادة الفتح من جديد بالنسبة لأمير خُراسان، فما كان ينبغي ليزيد السكوت عن موسى وسيطرته على تلك البلاد.

ولكن لم يكن يزيد وحده السّاكت عن موسى، فقد سكت أبوه

(١) الطبري (٦/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨) وابن الأثير (٤/ ٤٩٩).
(٢) الطبري (٦/ ٤٠٣) وابن الأثير (٤/ ٥٠٨).
(٣) الطبري (٦/ ٤٠٩).

المهلّب من قبله على موسى أيضاً، فحين قدم المهلب أميراً على خُراسان، لم يَعْرض لابن خازِم، وقال لبنيه: «إيّاكم وموسى، فإنكم لا تزالونُ ولاة هذا الثَّغر ما أقام هذا الثَطّ[1] بمكانه، فإن قُتِل كان أوّل طالع عليكم أميراً على خُراسان رجل من قَيْس»، فمات المهلّب ولم يوجّه إليه أحداً[2].

فلما عُزل يزيد وولي المُفَضَّل، سيرَ إليه الجيوش وقضى على موسى[3]، وكان سكوت يزيد عنه خطأً من أخطائه مهما تكن أسباب سكوته، وكان قضاء المفضَّل على موسى حسنة من حسنات المفضّل بلا مِراء، فمهد لفتح قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِلي الذي خلفَ المفضّل، لأنه قاتل أهل البلاد المفتوحة ولم يقاتلهم ويقاتل معهم موسى بن عبد الله بن خازِم وغيره من الخارجين على الدولة، فكان فتح قتيبة بحق حسنة من حسنات المفضّل، جرت على يدي قتيبة.

٢ ـ المرحلة الثانية:

أ ـ في سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) عزل الحجّاج بن يوسُف عن خراسان يزيدَ بن المهلّب وولّى أخاه المُفَضَّل مكانه[4].

وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) غزا يزيد (جُرْجَان)[5] و (طَبَرِسْتَان)[6]، وكان قد قَدِمَ خُراسان، فأقام ثلاثة أشهر أو أربعةً، فأعد

---

(١) الثط: خفيف شعر اللِّحية والحاجبين، والذي ثَقُل بطنه وبطؤت حركته.

(٢) الطبري (٦/٤٠٣).

(٣) ابن الأثير (٤/٥١١).

(٤) الطبري (٦/٣٩٣) وابن الأثير (٤/٥٠٢) وانظر البدء والتاريخ (٦/٣٧).

(٥) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين خراسان وطبرستان، فبعض يعدها من خراسان، وبعض يعدها من طبرستان، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٢٥) ومعجم البلدان (٣/ ٧٥ ـ ٧٩) وتقويم البلدان (٤٣٨ ـ ٤٣٩).

(٦) طبرستان: بلاد واسعة تضم بلداناً كثيرة منها: جرجان وآمُل واستراباذ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٢٤ ـ ١٢٥) ومعجم البلدان (٦/١٧ ـ ٢١) وتقويم البلدان (٤٣٢ ـ ٤٣٩).

العُدَّة الّلازمة للفتح، وكان أهم ما حقّقه في الجانب الداخلي هو القضاء على مصادر الشَّغَب، وعلى رأسها وَكِيْع بن حَسّان بن قيس بن أبي سُود بن كَلْب بن عَوْف بن مالِك بن غُدانة بن يَرْبوع، والي خراسان وقاتل قتيبة بن مُسْلِم الباهليّ. ووَكِيْع من بني تَمِيْم، وكان معروفاً بالشّجاعة والإقدام وله مواقف بطوليّة في أيام الفتح، ولكنه كان أعرابياً، وقد تولّى خُراسان بعد مقتل قتيبة تسعة أشهر أو عشرة، ثم عُزل بيزيد بن المهلّب، فَحُبِسَ وَكِيع وأخذ أصحابه[1]، وبذلك استطاع يزيد السيطرة على (مَرْو) قاعدة الفتح المتقدمة.

أما ما حقَّقه يزيد في الجانب العسكري، فهو حشد قَوّات ضاربة قادرة على الفتح، فَحَشد في جيشه أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الشّام ووجوه أهل خُراسان والريّ، في مئة ألف مقاتل سوى الموالي والمماليك والمتطوعين[2].

ولكي يضمن قاعدته المتقدِّمة وهي خُراسان، خلّف ابنه مَخْلد عليها[3]، وكان مَخْلد حاد الذكاء ألمعياً شجاعاً على الرغم من صغر سنّه، كما سيرد ذلك وشيكاً.

ولما أكمل يزيد الجانبين: الأمنيّ في الداخل، وحشد جيشه حشداً متكاملاً، انطلق إلى هدفه في الفتح.

وسبب غزو جُرْجَان وطَبَرِستان المباشر واهتمام يزيد بهما، أنه لما كان عند سليمان بن عبد الملك حين كان سليمان ولياً للعهد، كان سليمان كلّما فتح قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهلي فتحاً يقول ليزيد: «ألا ترى إلى ما يفتح الله على

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨).
(٢) الطبري (٦/ ٥٣٢).
(٣) الطبري (٦/ ٥٣٢).

قُتَيْبة». فيقول يزيدُ: «ما فَعَلتْ جُرْجان التي قطعت الطريق، وأفسدت (قُومِس)[1] و (نَيْسَابور)[2]؟ هذه الفتوح ليست بشيءٍ، الشأن هي جُرْجان!».

أما سبب الغزو غير المباشر، فهو استعادة فتح هذه المناطق الحيوية، وبسط سيطرة الدولة عليها، أسوة ببقيّة الأمصار المفتوحة وبخاصة في خُراسان وبلاد ما وراء النهر.

فلما أصبح سليمان بن عبد الملك خليفةً وولي يزيد خراسان، لم يكن ليزيد همّة غير جُرْجان.

ولم تكن جُرْجان يومئذ مدينة، إنما هي جبال ومخارِم[3] وأبواب، يقوم الرجل على باب منها، فلا يستطيع أحدٌ أن يتغلّب عليه.

وابتدأ يزيد بحصار (قُهِسْتان)[4]، وكان أهلها طائفة من الترك. وأقام يزيد بجيشه عليها، وكان أهلها يخرجون ويقاتِلون، فيهزمهم المسلمون في كلِّ مرّة، فإذا هُزموا دَخلوا الحصن.

وخرج الترك ذات يوم، وخرج إليهم المسلمون، فاقتتلوا قتالاً

---

(١) قومس: كورة كبيرة واسعة، تشتمل على مدن وقرى ومزارع، وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها، وقصبتها المشهورة (دامغان)، وهي بين الريّ ونيسابور، ومن مدنها المشهورة: بسطام وبيار، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٨٥ ـ ١٨٦) وتقويم البلدان (٤٣٢).

(٢) نيسابور: مدينة عظيمة من مدن خُراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٥٦ ـ ٣٥٩) وتقويم البلدان (٤٥٠ ـ ٤٥١) والمسالك والممالك (١٤٥ ـ ١٤٧).

(٣) مخارم: جمع مَخْرِم، والمخرم: الطريق في الجبل أو الرّمل. ومخرم الأكمة: منقطعها. ومخرم الجبل: أنفه.

(٤) قهستان: وردت في معجم البلدان (٧/ ١٨٧): قُوْهِستان، وهو تعريب: كوهستان، ومعناه: موضع الجبال، لأنّ كوه هو الجبل بالفارسية، وهي كورة على مفازة فارس من خراسان، وتشتمل على عدّة مدن، وهي قائن وتون وجنابذ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٨٧ ـ ١٨٨) وتقويم البلدان (٤٤٤ و٤٥٢).

شديداً. وحمل محمد بن أبي سَبْرة على أحد الترك الذي صدَّ الناسَ عنه لقتاله بشجاعة فائقة، فاختلفا ضَرْبَتَيْن، فثبتَ سيف التركي في بيضة[1] ابن أبي سَبْرة، وضربه ابنُ أبي سَبْرَة فقتله، ورجع وسيفه يقطر دماً وسيف التركي في بيضته، فنظر الناس إلى أحسن منظر رأوه.

وخرج يزيد بعد ذلك يوماً ينظر مكاناً يدخل منه عليهم، وكان في أربعمائة من وجوه الناس وفرسانهم، فلم يشعروا حتى هجم عليهم الترك في نحو أربعة آلاف، فقاتلوهم ساعة، وقاتل يزيد قتالاً شديداً، فسلم يزيد ورجاله وانصرفوا، وكانوا قد عطشوا، فانتهوا إلى الماء وشربوا، ورجع عنهم العدو.

ثمّ إنّ يزيد ألحّ في القتال، وقطع عنهم المواد، حتى ضعفوا وعجزوا، فأرسل صُول، دهقان قُهستان إلى يزيد، يطلب منه أن يصالحه ويؤمنه على نفسه وأهله وماله، ليدفع إليه المدينة وما فيها، فصالحه وَوَفَى له، ودخل يزيد المدينة، فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز والسبي ما لا يُحْصَى، وقتل كثيراً من الترك، وكتب إلى سليمان بن عبد الملك بالفتح.

ب ـ وأتى يزيد جُرْجان، ولكن أهل جُرجان قد صالحهم سعيد بن العاص، وكانوا يجبون أحياناً مئة ألف وأحياناً مِئَتَيْ ألف وأحياناً ثلاثمائة ألف، وربما أعطوا ذلك وربما منعوه، ثمّ امتنعوا وكفروا فلم يعطوا خَراجاً. ولم يأتِ جُرجان بعد سعيد بن العاص أحد، ومنعوا ذلك الطريق، فم يكن يسلك طريق خُراسان أحد إلّا على (فارس) و (كَرْمان). وأوّل مَنْ صيّر الطريق من (قُوْمس) قتيبة بن مسلم حين ولَي خُراسان.

---

(١) البيضة: الخَوذة الفولاذيّة التي يُغَطّى بها الرأس في الحرب.

وبقى أمر جُرجان كذلك بعيداً عن سيطرة الدولة الإسلامية، حتى وليَ يزيد وأتاهم، فاستقبلوه بالصّلح وزادوه وهابوه، فأجابهم إلى الصّلح، ولما صالح يزيد (صُوْل)[1] وفتح (البُحَيْرَة)[2] و (دِهِسْتَان)[3] صالحَ أهل جُرْجان على صُلْح سعيد بن العاص[4].

ج ـ ولما فتح يزيد جُرْجان وقهستان، طمع في فتح (طَبَرِسْتَان)، فعزم على أن يسير إليها، ويفتحها.

واستعمل محمد بن المُعَمَّر اليَشْكُري على قُهِسْتان وخلّف معه أربعة آلاف، ثم أقبل إلى أداني جُرجان مما يلي طبرستان، فاستعمل على (أيذوسا)[5] راشد بن عمرو[6] وجعله في أربعة آلاف، وكانت هاتان الحاميتان لحماية خطوط مواصلات يزيد.

ودخل يزيد طبرستان، فأرسل إليه (الأصبهبذ) صاحبها (ملك طبرستان) يسأله الصّلح وأن يخرج من طبرستان، فأبى يزيد ورجا أن يفتتحها.

---

(١) صول: لفظة تركيّة، وهو اختصار (صُوْل قول أغاسي) أي رئيس الجناح الأيسر، وهو من ضباط الصف، ورتبته أعلى رتبة بين ضباط الصف، بين الملازم ورئيس العرفاء، هكذا معناه في الجيش العثماني، ويبدو أنه كان برتبة ضابط في الأيام القديمة.

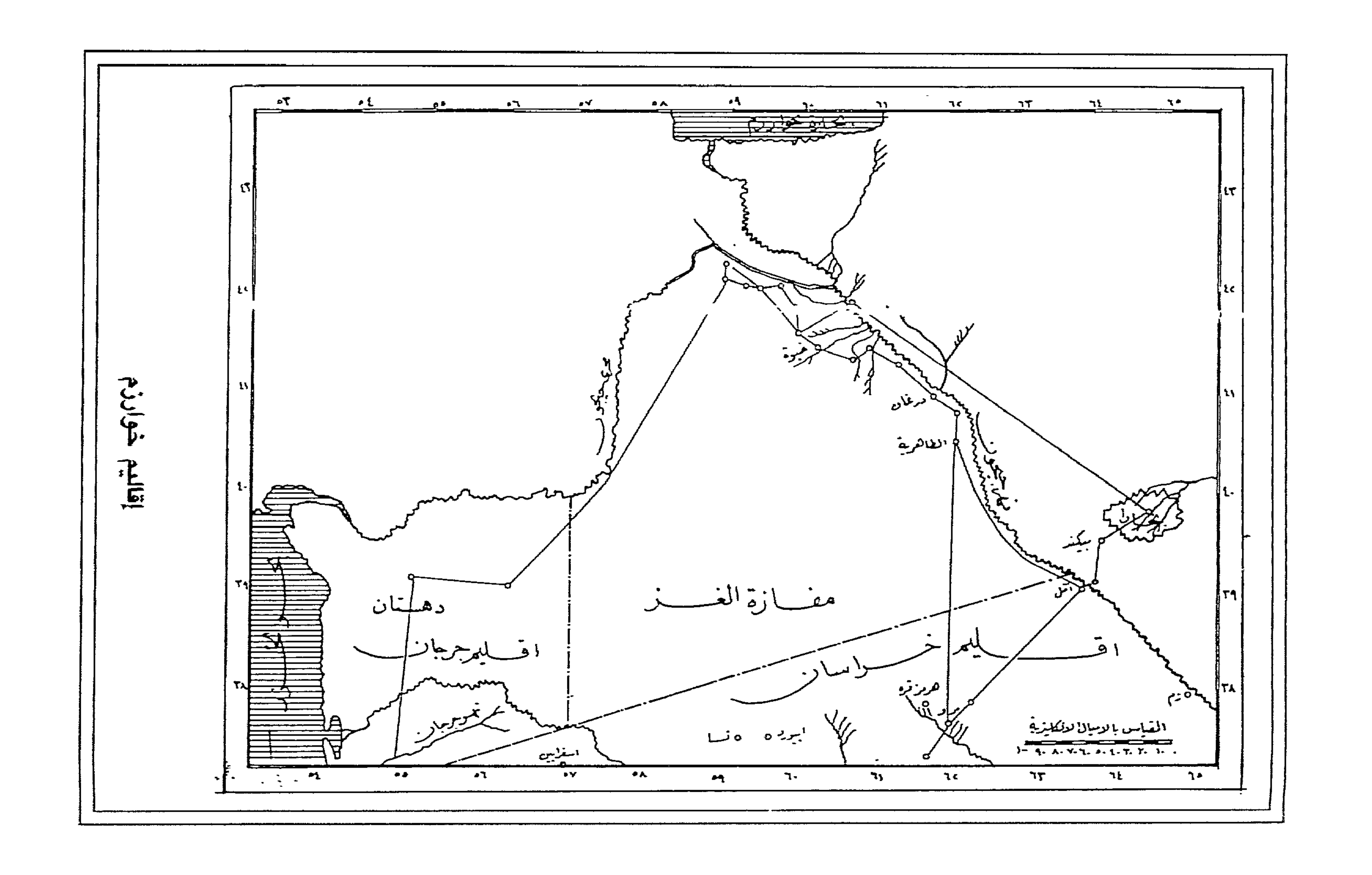
(٢) البحيرة: جزيرة في البحر، بينها وبين قهستان خمسة فراسخ، وهي من جُرجان مما يلي خُوارِزم، انظر ابن الأثير (٥/ ٣٢).

(٣) دهستان: مدينة مشهورة عند مازندران، ومعناها بالفارسية: موضع القرى، وهي بين جُرْجان وخُوارزم، وهي آخر حدود طبرستان، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (٤٣٨ ـ ٤٣٩).

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٣٢ ـ ٥٣٩) و(٤/ ٢٧١) وابن الأثير (٤/ ٢٩ ـ ٣٠) و(٣/ ١١١)، وانظر ابن خلدون (٢/ ١٠١٩) والبدء والتاريخ (٦/ ٤٣) والعبر (١/ ١١٦) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣١٩) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٤١).

(٥) ابن الأثير (٥/ ٣٠)، وفي الطبري (٦/ ٥٣٩): أنورِسْتان.

(٦) في الطبري (٦/ ٥٣٩): أسد بن عمرو أو عبد الله بن الربعة.



إقاليم خوارزم

ووجّه يزيد أخاه أبا عُيَيْنَة من وجه، وابنه خالد بن يزيد من وجه، وأبا الجَهْم الكلبيّ من وجه، وقال: «إذا اجتمعتم فأبو عُيينة على الناس»، فسار أبو عُيَيْنَة، وأقام يزيد مُعَسْكِراً.

واستنجد الأصبهبذ بأهل(جِيلان)[1] و (الدَّيْلَم)[2] فأتوه، فالتقوا في سفح أحد جبال طبرستان، فانهزم المشركون في الجبل. وطارد المسلمون المنهزمين حتى انتهوا إلى فم الشِّعْب (شِعْب الجبل)، فدخله المسلمون. وصعد المشركون الجبل، وأتبعهم المسلمون يرومون الصعود، فرماهم العدوّ بالنّشّاب والحجارة، فانهزم أبو عُيَيْنَة والمسلمون يركب بعضهم بعضاً يتساقطون في الجبل، حتى انتهوا إلى عسكر يزيد.

وكفّ العدو عن مطاردة المسلمين، وخافهم الأصبهبذ، ولكنه كتب إلى المَرْزُبان[3] المُقَدَّم في أهل جُرجان يسأله أن يُبَيِّتَ مَنْ عنده من المسلمين، وأن يقطعوا عن يزيد المواد التموينيّة والطريق فيما بينه وبين بلاد المسلمين، ويَعِدُه أن يكافئه على ذلك، وقال في رسالته: «إنّا قد قتلنا يزيد ومَن معه، فاقتل مَنْ عندك من العرب». وثار أهل جُرجان بالمسلمين، فقتلوهم أجمعين وهم غارّون في بيوتهم ليلًا، وقُتل عبد الله بن المُعَمَّر وجميع مَنْ معه، فلم ينج منهم أحد، وكتب المرزبان بأخذ المضايق والطرق.

---

(١) جيلان: اسم لبلدة كثيرة من وراء بلاد طبرستان، يحيط بها من الغرب شيء من أذربيجان وبعض بلاد الريّ، ويحيط بها من جهة الجنوب قزوين وشيء من أذربيجان وبعض بلاد الري، ويحيط بها من جهة الشرق بقية الري وطبرستان، ويحيط بها من الشمال بحر الخزر، وجيلان غربي طبرستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٩٤) وتقويم البلدان (٤٢٦ ـ ٤٢٧).

(٢) الديلم: اسم بلاد واسعة، يحيط بها من الغرب شيء من أذربيجان وبعض بلاد الريّ، ويحيط بها من جهة الجنوب قزوين وشيء من أذربيجان وبعض بلاد الريّ، ويحيط بها من جهة الشرق بقيّة الريّ وطبرستان، ويحيط بها من الشمال بحر الخزر، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (٤٢٦ ـ ٤٢٧) والمسالك والممالك (١٢١ ـ ١٢٦).

(٣) المرزبان: الرئيس من الفرس. جمعها: مرازِبَة.

وبلغ ذلك يزيد وأصحابه، فعظم عليهم وهالهم.

وفزع يزيد إلى حيّان النَّبطي أحد الرجال العقلاء من العجم الذين أسلموا، وقال له: «لا يمنعك ما كان مني إليك، من نصيحة المسلمين، وقد جاءنا عن جُرجان ما جاءنا، فاعمل في الصُّلح».

وقصد حيّان الأصبهبذ، فقال: «أنا رجل منكم، وإن كان الدِّين فرّق بيني وبينكم، فأنا لكم ناصح، فأنت أحبّ إليَّ من يزيد، وقد بعث يستمدّ، وأمداده منه قريبة، وإنما أصابوا منه طرَفاً، ولست آمَنُ أن يأتيك ما لا تقوم له، فأرِحْ نفسك منه وصالحه، فإنك إن صالحته صيّر حدّه على أهل جُرجان بغدرهم وقتْلهم أصحابه».

ويبدو أن الأصبهبذ كان خائفاً من المسلمين، لأنّ اندحار أبو عُيَيْنة بن المهلّب قضى على جزء من جيش المسلمين حسب، كما أنّ إبادة المسلمين في جُرْجَان قضى على جزء آخر من جيش المسلمين أيضاً، ولا تزال القوة الضاربة الأصلية من جيش المسلمين بقيادة قائدها العام يزيد سالمة وجاهزة للقتال؛ كما أنّه قدّر أنّ المسلمين لن يسكتوا على ما لحق بجيش يزيد من خسائر، وهم بدون شك سينتقمون اليوم أو غداً، لذلك آثر السّلامة، وصالح المسلمين على سبعمائة ألف، وقيل: خمسمائة ألف درهم، وأربعمائة وِقر[١] زعفران أو قيمته من العَيْن[٢]، وأربعمائة رجل، على كل رجلٍ منهم بُرْنُس[٣] وطَيْلَسان[٤]، ومع كل رجل منهم جام من فضّة وخرقة حرير وكسوة.

ورجع حيّان إلى يزيد، فقال: «ابعث مَن يَحْمِل صُلحهم»، فقال:

---

(١) الوقر: الحمل الثقيل.

(٢) العين: ما ضرب نقداً من الدنانير، يقال: اشتريت بالعين لا بالدين.

(٣) برنس: كل ثوب رأسه منه، ملتزق به. وبرنس: قَلَنسوة كبيرة.

(٤) الطيلسان: ضربٌ من الأوشحة يلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن، خالٍ عن التفصيل والخياطة، والكلمة فارسيّة معرّبة.

«من عندهم أو من عندنا؟!»، قال: «من عندهم»، وكان يزيد قد طابت نفسه أن يُعطيَهم ما سألوا ويرجع إلى جُرجان، فأرسل يزيد مَنْ يقبض ما صالحهم عليه حَيَّان، فلما قبض ما صالحهم عليه، انصرف إلى جُرجان[1].

وكان يزيد قد غرّم حيّاناً مئتى ألف درهم، فخاف ألّا يُنَاصِحه، ولكنّ إيمان حيّان كان أقوى من حقده، فنصح المسلمين لأنّه منهم، وَنَسِي نفسه من أجلهم، ولو كان الأمر يخصّ يزيد بالذّات، لاختلف الأمر كثيراً.

د - وقيل: إنّ سبب مسير يزيد إلى جُرجان، أنّ (الصّوْل) التركي كان ينزل قُهِسْتانْ والبُحيرة، وكان يُغير على فَيرُوز بن قُول مَرْزُبان جُرْجان فيصيب من بلاده، فخافه فيروز فسار إلى يزيد بخُراسان وقدم عليه، فسأله يزيد عن سبب قدومه فقال: «خفتُ صُوْلًا فهربت منه، وقد أخذ صول جُرجان». وقال يزيد لفيروز: «هل من حيلة لقتاله؟»، قال: «نعم، شيء واحد إن ظفرتَ به قتلته واستسلم لك»، قال: «ما هو؟»، قال: «تكتب إلى الأصبهبذ كتاباً تسأله فيه أن يحتال لصُوْل حتى يقيم بجُرجان، واجعلْ له على ذلك جُعْلًا، فإنه يبعث بكتابك إلى صول، يتقرّب به إليه، فيتحوّل عن جُرجان، فينزل البحيرة، وإن تحوّل عن جُرجان وحاصرتَهُ ظفرتَ به».

وكتب يزيد إلى الأصبهبذ بما أشار به عليه فيروز، وضمن له خمسين ألف دينار إن هو حبس صولًا عن البحيرة ليحاصره بجرجان، فأرسل الأصبهبذ الكتاب إلى صول، فلما أتاه الكتاب رحل إلى البحيرة ليتحصّن بها.

وبلغ يزيد مسيرُه، فخرج إلى جُرجان ومعه فيروز، واستعمل على خراسان ابنه مَخْلداً[2]، وعلى سَمَرْقند وكِشّ ونَسَف وبُخارى ابنه معاوية،

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٣٩ - ٥٤١) وابن الأثير (٥/ ٣٠ - ٣٢).

(٢) مَخْلَد: بفتح الأول، وسكون الثاني، وفتح الثالث، وهذا هو الصواب، والخطأ في تحريكه بغير ذلك، كما نجده في بعض المصادر والمراجع، إذ يضمّون الأول ويفتحون الثاني، فيصبح: مُخَلَّد، وليس في الأحياء مخلّد.

وعلى طَخَارِسْتان حاتم بن قَبِيْصة بن المهلّب، وأقبل حتى أتى جُرجان، فدخلها ولم يمنعه منها أحد. وسار منها إلى البحيرة، فحصر صولاً بها، فكان يخرج إليه صول فيقاتله ثمّ يرجع. ومكث يزيد ستة أشهر محاصراً صولاً ورجاله، فأصيب صول ومَنْ معه بالمرض[١] والموت.

وأرسل صول يطلب الصّلح على نفسه وماله وثلاثمائة من أهله وخاصّته ويسلم إليه البحيرة، فأجابه يزيد، فخرج صول بماله وثلاثمائة ممّن أحبّ، وصار مع يزيد، فقُتل من رجاله كثير، ومَنّ يزيد على الآخرين، فكان صول مثالاً سَيِّئاً للقائد، لأنّه اشترى نفسه وذويه بموت رجاله.

وقال الجُنْد ليزيد: أعطنا أرزاقَنا، فَدَعَا إدريس بن حنظلة العمّي وقال: «أَحْصِ لنا ما في البحيرة حتى نُعطي الجند»، فدخلها إدريس، فلم يقدر على إحصاء ما فيها، فقال ليزيد: «فيها ما لا أستطيع إحصاءه، وهو في ظُروق، فنحصي الجُوالِيق[٢] ونُعلِّم ما فيها ونقول للجند: ادْخُلوا فخذُوا، فمن أخذ شيئاً عرّفنا ما أخذ من الحنطة والشّعير والأرُز والسمسم والعَسَل».

وأحصَوا الجُواليق عدداً، وعلّموا كل جُوالِقَ ما فيه، وقالوا للجند: خذوا فكان الرجل يخرج وقد أخذ ثياباً أو طعاماً أو ما حمل من شيء فيكتب على كل رجلٍ ما أخذ فأخذوا شيئاً كثيراً.

وكان على خزائن يزيد رجل يدعى: شَهْر بن حَوْشَب، فرفعوا عليه أنه أخذ خِرَيْطة[٣]، فسأله يزيد عنها، فأتاه بها، فقال بعضهم:

---

(١) أصيبوا بمرض السُّوَاد: داء يأخذ الإنسان والإبل والغنم من شرب الماء المِلْح.

(٢) الجواليق: جمع الجُوالِقَ، وهي الغرارة، معرّبة، وتجمع الجُوالِق: جَوالِق، وجَوالِيْق، وجُوالِقَات. والجُوالِق كالجِوالق، بضم الجيم وكسرها.

(٣) الخَرِيْطَة: وعاء من جلدٍ أو نحوه يُشَدّ على ما فيه.

لقد باعَ شِهْرٌ دِيْنَه بخريطةٍ فمن يأمَنُ القُرَّاء بَعْدَكَ يا شَهْرُ!

وقال مُرَّة النَّخَعِيّ:

يا ابن المهلّب ما أردتَ إلى امْرِئٍ لولاك كانَ كصالحِ القُرّاء

وإخبارُ يزيد عن الخريطة التي حجزها شَهْر لنفسه، دليل على الرقابة الدقيقة على تصرّفات الأشخاص، والحرص الشديد على أموال الدولة، والإحصاء الدقيق للغنائم، مما يصعب تنفيذه حتى في هذه الأيام.

كما أنّ تصرّف شهر في حجز الخريطة لنفسه، كان مدعاة لاستهجان الرأي العام في حينه، مما يجعل المجاهدين يحرصون أعظم الحرص على الغنائم، فلا يأخذون منها إلّا ما يستحقون.

وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

وأصاب يزيد تاجاً فيه جوهر، فقال: «أترون أحداً يزهد في هذا؟!»، قالوا: لا! فدعا محمد بن واسِع الأزدِيّ، فقال: «خذْ هذا التاج»، قال: «لا حاجة لي فيه!»، قال: «عزمت عليك»، فأخذه. وأمر يزيد رجلًا ينظر ما يصنع به، فلقي سائلًا، فدفعه إليه. وأخذ الرجل السائل وأتى به يزيد وأخبره، فأخذ يزيد التاج، وعوّض السائل مالًا كثيراً[2].

والفرق بين الروايتين هو في الحافز الذي حفز يزيد على غزو جُرْجان، وقد يكون الحافزان تظافرا على حفز يزيد على المسير إلى جُرجان واستعادة فتحها، وهذا ما أراه في الحافز لهذه الغزوة: رغبة يزيد في استعادة فتح جُرجان تنفيذاً للوعد الذي قطعه على نفسه لسليمان بن عبد الملك، وتشجيعُ فيروز له على استعادة فتحها.

ومهما قيل في هذه المرحلة من جهاد يزيد، فإنّها كانت إخفاقاً كاملًا،

---

(١) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣/ ١٦١)، وغَلّ فلانٌ غُلُولًا: خان في المغنم وغيره، وكان السلف الصالح أبعد ما يكونون عن الغلول.

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩) وابن الأثير (٥/ ٣٢ ـ ٣٣).

والإخفاق يقع على عاتق القائد حتى ولو لم يكن مسؤولًا عن أسباب هذا الإخفاق، إذ لا يمكن أن نلوم يزيد على هزيمة جيش أبي عُيَيْنَة بعد أن اندفع في مطاردة العدو المنهزم في الجبال على غير هدى وبصيرة في أرض يجهل طبيعتها كل الجهل، فاندفع بالعمق في مطاردته دون مسوِّغ. كما لا يمكن أن نلوم يزيد على التخلِّي عن الحذر والحيطة من حامية ابن المُعَمَّر في محيط معادٍ في منطقة وعرة بعيدة عن جيش يزيد من جهة وقاعدة المسلمين المتقدِّمة في خُراسان من جهة أخرى.

ولكنّ القائد دائماً يصطلي بنار لم يضرمها ولا يرضى بإضرامها.

٣ ـ المرحلة الثالثة:

أ ـ لما صالحَ يزيد أصبهبذَ طَبَرِستان، سار إلى جُرجان، وعاهد الله لئن ظفر بهم لا يرفع السّيف حتى يطحن بدمائهم ويأكل من ذلك الطحين[١].

وأتى يزيد جُرْجان، فحصر أهلها بحصن (فجاه)[٢] الذي جمع المَرْزبان أصحابه فيه، ويبدو أنه أحد الحصون المنيعة القريبة من مدينة جُرجان الحالية، ومَنْ يكون بها لا يحتاج إلى عدّة من طعام أو شراب، ويظهر أنها تقع على مصدرٍ للمياه، وقد كُدِّست فيها الأرزاق والعلف والقضايا الإداريّة الأخرى.

وحصرهم يزيد في القلعة سبعة أشهر، وهم يخرجون إليه في الأيام، فيقاتلونه ويرجعون إلى الحصن، دون أن يستطيع يزيد أن يحملهم على الاستسلام، لأن حول الحصن غِياضاً ولا يَعْرِف لهم مَأتىً إلّا من وجهٍ واحد، ولأنّ المَرْزبان قائد الحصن قد كدّس ما يحتاج إليه من طعام

---

(١) يريد أن يكبِّدهم خسائر جسيمة في الأرواح، فتختلط الدماء الغزيرة بالمياه الجارية على الأرحاء، فتطحن الطحين ويأكل منه، ليبرّ يمينه.

(٢) فجاه: جاء في ابن الأثير (٥/ ٣٤) كذلك، أما في الطبري (٦/ ٥٤٦) فقد جاء اسم هذا الحصن: وجاه، وحاولت أن أجد ذكره في المصادر الجغرافية العربية القديمة، فلم أفلح.

وشراب، ولأنّ المرزبان ورجاله المحصورين في الحصن يعلمون أنّ استسلامهم معناه الموت لغدرهم وإبادتهم المسلمين غدراً.

وطال أمد الحصار كثيراً، فبينما هم على ذلك، إذ خرج رجل من عجم خُراسان يتصيّد، وقيل: رجل من طيّء، فأبصر وعلّا في الجبل، فأتبعه يرقى في الجبل على أثر الوعل، فما شعر الرجل إلّا وهو يشرف على معسكر أهل جُرْجَان في حصنهم، فاكتشف بذلك طريقاً جديدة تؤدي إلى الحصن مباشرة.

ورجع الرجل أدراجه، وجعل يخرق قباءه ويعقد على الشّجر علامات، حتى عاد إلى معسكر المسلمين بعد أن أشّر الطريق بقطع من قبائه.

وأتى الرجلُ يزيدَ، فأخبره باكتشافه الجديد، فضمن له يزيد هبة مالية مجزية إن دلّهم على الحصن، فانتخب ثلاثمائة رجل استعمل عليهم يزيدُ ابنَه خالد بن يزيد، وقال له: «إن غُلبتَ على الحياة، فلا تُغلبنّ على الموت، وإياك أن أراك عندي مهزوماً».

وقال يزيد للرجل: «متى تَصِل إليْهم؟»، قال: «غداً عند العَصْر فيما بين الصّلاتين»، فقال: «امضوا على بركة الله، فإني سأجْهَد على مُنَاهَضَتهم غداً عند صلاة الظهر».

وسارت جماعة المغاوير بقيادة خالد بن يزيد، فلمّا كان الغد وقت الظّهر، أحرق يزيد كلّ حطبٍ كان عندهم، فصار مثل الجبال من النيران.

ونظر العدو إلى النيران، فهالهم ذلك، فخرجوا إلى المسلمين.

وتقدّم إليهم يزيد، فنشب القتال بين الجانبين بشدّة، والتحم الجانبان التحاماً قريباً، فهجم أصحاب يزيد الذي ساروا في الطريق الجبل على العدو قبل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه، ويزيد يقاتلهم من هذا الوجه، فما شعروا إلّا بالتكبير من ورائهم، فانسحبوا جميعاً إلى حصنهم وقد أثّرت المباغتة في معنوياتهم تأثيراً سيئاً.

وطاردهم المسلمون مطاردة عنيفة، فاستسلموا دون قيدٍ أو شرط.

وسبى يزيد ذراري العدو الغادر، وقتل مقاتليهم، وأجرى الماء على دم القتلى وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم ويبر يمينه، فطحن وخبز وأكل.

وبنى يزيد مدينة جُرْجان في مكانها الحاليّ، ولم تكن قبل ذلك بُنِيت مدينة، ثم رجع إلى خُراسان[1].

ب ـ وقيل: إن يزيدَ دعا جَهْم بن زَحْر، فبعث معه أربعمائة رجل، حتى أخذوا في المكان الذي دُلّوا عليه، وقد أمرهم يزيد فقال: «إذا وَصَلْتُم إلى المدينة فانتظروا، حتى إذا كان في السَّحَر فكبِّروا، ثم انطلقوا نحو باب المدينة، فإنَّكم تجدوني وقد نهضت بجميع الناس إلى بابها»، فلما دخل ابن زَحْر المدينة أمْهَل، حتى إذا كانت السّاعة التي أمره يزيد أن ينهض فيها، مشى بأصحابه، فأخذ لا يستقبل أحداً من أحراسِهم إلّا قتله. وكبّر، ففزع أهل المدينة فزعاً لم يَدخُلهم مثلُه قط فيما مضى، فلم يَرعهم إلّا والمسلمون معهم في مدينتهم يكبِّرون، فَدُهشوا، فألقى الله في قلوبهم الرُّعب، وأقبلوا لايَدْرون أين يتوجّهون!

غيرَ أنّ عِصابةً منهم ليسوا بالكثير، قد أقبلوا نحو جَهْم بن زَحْر، فقاتلوا ساعة، فدُقّت يدُ جَهْم. وصبرَ لهم جَهْم وأصحابُه، فلم يُلْبِثوهم أن قتلوهم إلّا قليلًا.

وسمع يزيد بن المهلّب التكبيرَ، فوثب في الناس إلى الباب، فوجدوهم قد شَغَلَهم جَهْم بن زَحْر عن الباب، فلم يجد عليه مَن يَمنعُه ولا يَدْفَع عنه كبير دَفع، ففتح البابَ ودَخلها من ساعته، فأخرج مَن كان فيها من المُقاتلة وقتلهم، وسبى أهلها، وأصاب مَن كان فيها[2].

ومن الواضح أن الرواية الأولى أقرب للمنطق والعَقل، وأبعد عن

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٤١ ـ ٥٤٣) وابن الأثير (٥/٣٤ ـ ٣٥).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٤٣ ـ ٥٤٤) وابن الأثير (٥/٣٥).

الصدقة والخرافة، وأشبه بالخطة العسكرية المتكاملة، التي تعتمد تطويق المحاصرين، ومباغتتهم في وقت لا يتوقعونه ومكان لا يتوفعونه أيضاً، وإجبار المحاصرين على الخروج من حصنهم لاستطلاع ما وراء إيقاد النيران الضخمة من أحداث، والهجوم عليهم من الجبهة الأمامية وضربهم من الخلف بالمغاوير من أصحاب يزيد بقيادة ابنه، مما أدّى إلى ارتباك العدو واستسلامه.

ج ـ وكتب يزيدُ إلى سليمان بن عبد الملك: «أما بعد! فإن اللَّهَ قد فَتَحَ لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً، وصَنَعَ للمسلمين أحسنَ الصُّنْع، فلِرَبِّنا الحمدُ على نِعَمه وإحسانه، أظهرَ في خلافة أمير المؤمنين على جُرجان وَطَبَرِستان، وقد أعْيَا ذلك سابُورَ ذا الأكتاف وكسرى قُباذ وكسرى هُرْمُز، وأعْيَا الفاروق عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان ومَنْ بعدهما من خلفاءِ الله، حتى فَتَح الله ذلك لأمير المؤمنين؛ كرامةً من الله له، وزيادة في نِعمه عليه. وقد صار عندي من خُمس ما أفاءَ اللَّهُ على المسلمين بعد أن صار إلى كلِّ ذي حق حقُّهُ من الفَيءِ والغنيمة ستة آلاف ألف، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى».

وقال له كاتبه المغُيرة بن أبي قُرَّة مولى بني سَدوس: «لا تكتب بتسمية مال، فإنَّك من ذلك بين أمرين: إما اسْتَكْثره فأمركَ بحَمْله، وإما سَخَت نفسُه لكَ به فسَوَّغَكَهُ فتكلَّفت الهديّة، فلا يأتيه من قِبَلك شيء إلّا استقلّه، فكأني بك قد استغرقْت ما سمّيتَ ولم يقع منه موقعاً، ويبقى المال الذي سمّيت مخلَّداً عندهم عليك في دواوينهم، فإن ولِيَ والٍ بعدَه أخذَكَ به، وإن وليَ مَنْ يتحامَلُ عليك لم يَرْضَ منك بأضعافه، فلا تُمْضِ كتَابك، ولكن اكتب بالفتح وسَلْهُ القُدومَ فَتُشافِهِهُ بما أحببتَ مُشَافَهَةً، ولا تُقَصِّر، فإنك إنْ تُقَصِّر عما أحببتَ أحرى من أن تكثِّر»، فأبى يزيدُ وأمضى.

وقال بعضهم: كان في الكتاب أربعة آلاف ألف[1].

---

(١) الطبري (٦/٥٤٤ ـ ٥٤٥) وانظر ابن الأثير (٥/٣٥ ـ ٣٦).

ولا يخلو كتاب يزيد من مبالغة واضحة، فما أعْيا فتْح طَبَرِسْتان وجُرْجان الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد فتحهما سُوَيْد من مُقَرِّن المُزَنِيّ[١] سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢م) على عهد عمر الخطاب[٢]، كما استعاد فتحهما سعيد بن العاص وعبد الله بن عامِر سنة ثلاثين الهجرية على عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه[٣].

ولما ولي مَعاوية بن أبي سفيان وَلّى مَصْقَلَة بن هُبَيرة الشَّيبانيّ أحد بني ثعلبة في شيبان طَبَرِستان، فسار إليها ومعه عشرة آلاف[٤] رجل، فأوغل فيها يسبي ويقتل، فلما تجاوز المضايق والعِقاب، أخذها عليه وعلى جيشه العدو عند انصرافه للخروج، ودَهْدَهُوا عليه الحجارة والصخور من الجبال، فهلك أكثر جيشه وهلك مَصْقَلة، فضرب الناس به مثلًا، فقالوا: «لا يكون هذا حتى يَرْجع مَصْقَلة من طَبِرَستان!»[٥].... فكان المسلمون بعد ذلك إذا غزوا هذه البلاد تحفّظوا وتحذّروا من التوغّل فيها[٦].

وكان يكفي يزيد أن ينصّ في كتابه على استعادة فتح جُرْجان وطَبَرِستان، وكفى بذلك له فخراً، وأعاد فتح طريق خُراسان من ناحية (قُومِس) بعد أن امتنع أهل طبرستان وقطعوه فلا يسلكه المسلمون إلّا على خوف شديد منهم، فكان الطريق إلى خُراسان من فارس إلى كَرْمان إلى خراسان، وأول من صيّر الطريق من قُومِس إلى خُراسان قُتَيْبَة بن مُسْلِم حين ولي خُراسان[٧]، فلما استعاد يزيد فتح طبرستان أصبح طريق قُوْمِس إلى خُراسان سالكاً وأميناً[٨].

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح فارس (١٩٥ ـ ٢٠١).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٤/ ١٥١ ـ ١٥٣) وابن الأثير (٣/ ٢٥).
(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧١) وابن الأثير (٣/ ١٠٩ ـ ١١١).
(٤) في معجم البلدان (٦/ ٢٠): عشرون ألفاً.
(٥) انظر الطبري (٦/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦).
(٦) معجم البلدان (٦/ ٢٠).
(٧) ابن الأثير (٣/ ١١١).
(٨) الطبري (٦/ ٥٣٥).

لقد كانت معاناة يزيد في فتح جُرجان وطبرستان صعبة للغاية، وكان صبره على الحصار لمدة طويلة جميلًا جداً. وكان صبره الجميل دليلًا عملياً على أنّ العرب يصبرون على الحصار الطويل خلافاً لما يزعمه المغرضون بأنّ العرب لا يصبرون على حصار طويل، على أن يكون القائد قادراً وذا كفاية قياديّة عالية، كما كان عليه يزيد.

لقد كان استعادة فتح جُرجان وطبرستان إنجازاً عظيماً من أهم إنجازات يزيد بن المهلّب قائداً.

وبقدر ما نفع هذا الإنجازُ المسلمين بعامة، بقدر ما أضر يزيد بخاصة، فقد حوسب حساباً عسيراً على أرباحه المادية في هذه الغزوة كما نصّ عليها كتابه، فندم على ما فرّط في ضخامة المال، ولات ساعة مَنْدم.

في ميدان الصّراع الداخليّ:

١ ـ في حرب الخوارج:

كان المهلّب بن أبي صُفَرَة من أبرز القادة الذين حاربوا الخوارج وانتصروا عليهم إن لم يكن أبرزهم على الإطلاق، وكان يزيد وسائر أولاده من ألمع المقاتلين الذين أعانوا أباهم المهلّب على تحمّل أعبائه القتالية، وعاونوه في ميادين القتال.

وأوّل ما ورد ذكر يزيد في حرب الخوارج كان في حوادث سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦م)، فقد كانت هناك حرب بين المهلّب والخوارج في (كَرْمان)، فانتصر فيها المهلّب على الخوارج. وبعث المهلّب إلى الحجّاج بن يوسف الثّقفي مُبَشِّراً، فلما دخل على الحجّاج أخبره عن الجيش وعن الخوارج وذكر حروبهم، وأخبره عن بني المهلّب فقال: «المُغِيْرة فارسهم وسيِّدهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسخيّهم قَبِيْصة، ولا يستحي الشّجاع أن يفرّ من مُدْرِكة، وعبد الملك سَمٌّ ناقع، وحبيب موت زُعاف، ومحمّد ليث غاب، وكفاك بالمفضَّل نجدة»، فقال الحجّاج: «فأيّهم كان أنجد؟»، فقال: «كانوا كالحلقة المفرغة، لا يُعرف طرفها»،

فاستحسن الحجّاج قوله، وكتب إلى المهلّب يشكره ويأمره أن يولي كَرْمان مَنْ يثق به، ويجعل فيها مَن يحميها ويقدِم إليه، فاستعمل كَرْمان يزيد ابنه[1].

وفي معارك كَرْمان التي انتصر فيها المهلّب على الخوارج انتصاراً مؤزّراً، أخرج المهلّب بنيه، كلّ ابنٍ له على كتيبة، وأخرج الناس على راياتهم. وجاء موفد الحجّاج البَراء بن قَبِيْصَة الذي بعثه إلى المهلّب ليراقب بلاءه وبلاء بنيه في حرب الخوارج، فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم. وأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال، فيقتتلون أشدّ قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار، ثمّ انصرفوا.

وجاء البَرَاء بن قَبيصة إلى المهلّب فقال له: «لا والله، ما رأيت كبَنِيْكَ فُرساناً قط، ولا كفرسانك من العرب فرساناً قط، ولا رأيتُ مِثْلَ قوم يُقاتلونك قط أصبرَ ولا أبْأسٍ، أنت والله المعذور».

حتى إذا كان عند العصر، خرج المهلّب إلى الخوارج بالناس وبنيه في كتائبهم، فقاتلوا كقتالهم في أول مرّة[2].

وقدم عبد الرحمن بن سليم الكلبي على المهلّب، فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم، فقال: «آنَسَ الله الإسلام بتلاحقكم! أما والله، لئن لم تكونوا أسباط نُبوّة، إنكم لأسباط مَلْحَمة»[3].

لقد خاض يزيد غمار قتال الخوارج بإمرة أبيه المهلّب، وكان له في تلك الحروب أثر حميد، لم يبرز المؤرخون القُدامى كعادتهم في توجيه كل الضوء على القائد، وإغفال غيره من الناس إلّا نادراً. وعلى الرغم من هذا

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٤٤٠ - ٤٤١).

(٢) الطبري (٦/ ٣٠٢).

(٣) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٦)، والملحمة: الحرب الشديدة.

الإغفال، فإنّ دور يزيد ظاهر واضح، يدلّ على أنه كان أبرز إخوته في هذا المجال.

٢ ـ في قتال الهاشِمِيّ:

أعلن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ثورته على الحجّاج بن يوسف الثقفي سنة إحدى وثمانين الهجرية (٧٠١م)، إذ بايعه الناس على خلع الحجّاج ونفيه من أرض العراق وعلى النّصرة له، ولم يذكروا عبد الملك بن مروان[١].

ولكن رجال ابن الأشعث قالوا: إذا خلعنا الحجّاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك، فاجتمعوا إلى ابن الأشعث وأعلنوا خلع عبد الملك وبايعوه[٢].

وأقبل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث حتى دخل البصرة، فبايعه جميع أهلها: قرّاؤها وكهولها مستبصرين في قتال الحجّاج ومَن معه من أهل الشّام. وكان السبب في سرعة إجابتهم إلى بيعة ابن الأشعث، أنّ عُمّال الحجّاج كتبوا إليه: إنّ الخراج قد انكسر، وإنّ أهل الذمّة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار؛ فكتب إلى عامل البصرة وغيرها: «إنّ مَنْ كان له أصل من قرية، فليُخْرَجْ إليها»، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية، فجعلوا يبكون وينادون: يا محمّداه! يا محمّداه! ولا يدرون أين يذهبون، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون، فلما قدم ابن الأشعث عُقَيْبَ ذلك بايعوه على حرْب الحجّاج وخَلْعِ عبد الملك[٣].

وأقبلت سنة اثنتين وثمانين الهجريّة (٧٠٢م)، فاشتدّ القتال بين الحجّاج وابن الأشعث، فتخلّى ابن الأشعث عن البصرة وانسحب إلى

---

(١) الطبري (٦/٣٣٦) وابن الأثير (٤/٢٦٣).
(٢) الطبري (٦/٣٣٨) وابن الأثير (٤/٤٦٤).
(٣) الطبري (٦/٣٤١) وابن الأثير (٤/٤٦٥).

الكوفة، فاجتمع مَنْ بقي في البصرة مع عبد الرحمن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب الهاشمي، فقاتلهم الحجّاج خمس ليالٍ أشدّ قتال رآه الناس، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث، وتبعه طائفة من أهل البصرة[1].

واستمرّت الحرب بين الحجّاج وابن الأشعث سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٣م) سجالًا، وأخيراً انتصر الحجاج على ابن الأشعث[2]، فغادر ابن الأشعث العراق إلى سِجِسْتان أولًا وإلى كَرْمان منسحباً من سجستان، وأخيراً سار ابن الأشعث مع (رُتبيل) إلى بلاده، فأنزله وأكرمه وعظمه[3].

وكان كثير من أصحاب ابن الأشعث من الرؤوس والقادة الذين لم يقبلوا أمان الحجّاج ونصبوا له العداوة في كل موطن، قد تبعوا ابن الأشعث فبلغوا سِجِسْتان في نحو ستّين ألفاً ونزلوا على (زَرَنْج) يحاصرون مَن بها، وكتبوا إلى ابن الأشعث يستدعونه، ويُخبرونه أنهم على قصد خُراسان ليقووا بمن بها من عشائرهم، فأتاهم وكان يصلي بأصحاب ابن الأشعث قبل قدومه عبد الرحمن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب، إلى أن قدم ابن الأشعث، واستولى على مدينة (زَرَنْج).

وقال لابن الأشعث أصحابه: اخرج بنا عن سِجِسْتان إلى خُراسان، فقال: «إنّ بها يزيد بن المهلّب، فيجتمع علينا أهل خُراسان وأهل الشّام»، فقالوا: لو دخلنا خراسان، لكان مَنْ يتبعنا أكثر ممّن يقاتلنا.

وسار ابن الأشعث إلى (هَراة)، فهرب من أصحابه عُبَيْد الله بن عبد الرحمن بن سَمُرَة القُرَشِيّ في ألفين، فقال لهم عبد الرحمن: «إني كنتُ في مأمن وملجأٍ، فجاءتني كتبكم: أَنْ أَقْدِمْ! فإنّ أمرنا واحد، فلعلّنا نقاتل

---

(١) انظر الطبري (٦/٣٤٣) وابن الأثير (٤/٤٦٧ ـ ٤٧٢).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٣٥٧ ـ ٣٦٨) وابن الأثير (٤/٤٧٨ ـ ٤٨٣).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٣٦٨ ـ ٣٦٩) وابن الأثير (٤/٤٨٤ ـ ٤٨٥).

عدوّنا، فأتيتكم فرأيتم أن أمضي إلى خراسان، وزعمتم أنّكم تجتمعون إليّ، وأنكم لا تتفرقون، وهذا عبيد الله قد صنع ما رأيتُم، فاصنعوا ما بدا لكم، أما أنا فمنصرف إلى صاحبي الذي أتيتُ من عنده».

وتفرّق منهم طائفة، وبقي معه طائفة، وبقي أعظم العسكر مع عبد الرحمن بن عبّاس الهاشمّي، فبايعوه.

وسار عبد الرحمن الهاشميّ إلى (هَراة)، فلقوا بها الرّقاد الأَزْدِي، فقتلوه.

وأرسل يزيد بن المهلّب إلى الهاشميّ: «قد كان لك في البلاد متّسع ومَن هو أهوَن مني شوكة، فارتحلْ إلى بلدٍ ليس لي فيه سلطان، فإني أكره قتالك، وإن أردتَ مالاً أرسلتُ إليك».

ولكن الهاشمي أعاد الجواب: «إنّا ما نزلنا لمحاربة ولا لمقام، ولكنّا أردنا أن نريح ثمّ نرحل عنك، وليست بنا إلى المال حاجة».

وأقبل الهاشميّ على الجباية، وبلغ ذلك يزيد، فقال: «مَنْ أراد أن يريح ثمّ يرتحل، لم يَجْبِ الخَراج، فلك ما جبيتَ وزيادة، فاخرج عني، فإني أكره قتالك!».

وأبى الهاشميّ إلّا القتال، وكاتب جند يزيد يستميلهم ويدعوهم إلى نفسه، فعلم يزيد فقال: «جَلَّ الأمر عن العتاب».

وتقدّم يزيد بجيشه، فقاتل الهاشمي ورجاله، فلم يكن بينهم كثير قتال، حتى تفرّق أصحاب عبد الرحمن بن عبّاس الهاشميّ عنه، وصبر وصبرت معه طائفة، ثم انهزموا.

وأمر يزيد أصحابه الكَفِّ عن مطاردة المنهزمين، وأخذوا ما كان في معسكرهم، وأسروا منهم أسرى.

ولحق الهاشميّ بالسِّند، فانصرف يزيد إلى (مَرْو) مقرَّه في خُراسان،

وبعث الأسرى إلى الحجّاج عدا مَنْ كان منهم من الأَزْد قبيلة يزيد كعبد الله بن فَضَالة الزَّهرانِيّ الأزديّ، وعدا مَنْ كانت له عليه أو على أهله يَدٌ، كعبد الرحمن بن طلحة بن خلف الخُزاعيّ، فأطلقهم وأرسل الباقين من الأسرى إلى الحجّاج الذي قتلهم بسيفه بعد أن قتلهم بلسانه تأنيباً وتقريعاً وهم على قيدالحياة[1].

ولئن أحسن يزيد في نصح الهاشميّ وإنذاره والصبر على انحرافه، ولم يقاتله إلّا مكرهاً وبعد أن تصرّمت محاولاته السلميّة كلّها ولم يبق غير القتال حَلًّا، إلّا أنه أساء في إطلاق سراح أبناء قبيلته وذوي المعروف عليه من الأسرى، وأرسل الباقين إلى الحجّاج ليلاقوا حتفهم، وكان ينبغي أن يعفو عن جميع الأسرى أو يعاقبهم جميعاً، لأنّ ذنبهم واحدٌ وجريمتهم واحدة.

وإحسانه بالنسبة للهاشمي، يدلّ على تقديره العميق لآل البيت وكراهيته قتالهم، وإساءته في تصرفه بالأسرى، يدل على التزامه بالنزعة القبليّة، وهي دعوة من دعاوى الجاهليّة التي حاربها الإسلام حرباً لا هوادة فيها وحرّمهاعلى المسلمين تحْريماً.

وقد أثر إحسانه وإساءته في مصيره أميراً على خراسان، ولئن سكت المؤرخون عن إحسانه سبباً من أسباب غضب الحجّاج عليه والتشبث بعزله، فإنهم لم يسكتوا عن إساءته سبباً من أسباب غضب الحجاج عليه.

فقد أُتيَ بعبد الله بن عامر أحد الأسرى لينال عقابه، فلما قام بين يدي الحجّاج قال: «لا رأتْ عيناك الجنّة إن أَقَلْتَ ابن المهلّب بما صنع»، قال: «ما صنع؟»، قال:

«لأنه كاسَ في إطلاق أُسْرَتِهِ وقادَ نحوَكَ في أغلالها مُضَرا
وَقَى بقومِكَ وِرْدَ الموتِ أُسْرَته وكان قومُك أدنى عنده خَطَرا»

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣٦٩ ـ ٣٨٠) وابن الأثير (٤/ ٤٨٤ ـ ٤٨٧) وابن خلدون (٣/ ١١٢ ـ ١١٤) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢٨٣) و(١/ ٢٨٤)، وهو غير عبد الله بن عامرِ القائد الفاتح.

فأطرق الحجّاج مَلِيّاً ووَقَرتْ في قلبه، وقال: «ما أنتَ وذاكَ؟! اضرِب عنقَه»، فضُربت عنقُه، ولم تزل في نفس الحجّاج حتى عَزَلَ يزيد عن خُراسان وحبسه[1].

بقي عليّ أن أذكر، بأن ابن الأشعث هاب يزيد، فلم يحاول جدِّياً أن يجدِّد ثورته في خراسان، بعد أن انهارت في العراق، مما يدلّ على نجاح يزيد والياً نجاحاً جعل خصوم الدولة بوجوده يحسبون لها ألف حساب.

٣ ـ في رحلة الموت:

أ ـ الانغلاق:

في سنة مئة الهجريّة (٧١٧م)، كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عَدِيّ بن أَرْطَاة والي البصرة لعمر، يأمره بإنفاذ يزيد بن المهلّب موثقاً. وكان عمر قد كتب إلى يزيد أن يستخلف على عمله ويُقْبِل إليه فاستخلف ابنه مَخْلَداً وقدم من (خُراسان) ونزل (واسِطاً)[2]، ثم ركب السُّفُن يريد البصرة، فبعث عَدِي بن أَرْطَاة موسى بن الوجيه الحِمْيَرِيّ، فلحقه في نهر (مَعْقِل)[3] الجسر، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق.

وكان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول: «هؤلاءجبابرة، ولا أُحبّ

---

(١) الطبري (٦/ ٣٨٠) وابن الأثير (٤/ ٤٨٨).

(٢) واسط: مدينة كبيرة بناها الحجّاج بن يوسف الثّقفِيّ، وسميّت: واسطاً، لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٧٨ ـ ٣٨٧)، وقد أُطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث، وهي محافظة (الكوت) على نهر دجلة.

(٣) نهر معقل: منسوب إلى مَعْقِل بن يَسَار المُزَنِيّ، من أصحاب النبي ﷺ، وهو نهر معروف بالبصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦)، وفيه: إنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، أمر أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، أن يحفر نهراً بالبصرة، وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني، فنسب إليه.
ولا يزال النهر موجوداً في البصرة حتى اليوم، وعليه ضاحية المعقل إحدى ضواحي البصرة، تقع شمالي البصرة بالقرب منها، وهي معروفة جداً في الوقت الحاضر، يقصدها السائحون في الشتاء بخاصة، وفيها مناظر خلابة جداً، وجوّها معتدل شتاءً.

مثلَهم»، وكان يزيد يبغض عمر ويقول: «إنّه مُراءٍ»، فلما وليَ عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء وأنّ باطنه خير من ظاهره.

ودعا عمرُ يزيدَ، فسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك، فقال: «كنتُ من سليمان بالمكان الذي قد رأيتَ، وإنما كتبتُ إلى سليمان لأُسمعَ الناس به، وقد علمتُ أنّ سليمان لم يكن ليأخذني به!»، فقال عمر: «لا أجدُ في أمرك إلّا حبسك، فاتّقِ الله وأدِّ ما قِبَلك فإنها حقوق المسلمين ولا يَسَعُني تركُها».

وحبس عمرُ بن عبد العزيز يزيدَ في حصن (حَلَب)، وبعث إلى الجَرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ فسرّحه إلى خُراسان أميراً عليها.

وأقبل مَخْلَد بن يزيد من خُراسان يعطي الناس، ففرّقَ أموالًا عظيمة، ثمّ قَدِم على عمر، فقال له: «يا أمير المؤمنين! إنّ الله صنع لهذه الأُمّة بولايتك، وقد ابتُلينا بك، فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك، عَلَامَ تحبِسُ هذا الشّيخ؟ أنا أتحمّل ما عليه، فصَالِحْني على ما تَسْأل»[1]، وقيل: أن مَخْلَداً قال لعمر: «قد وسعَ الناسَ عفوُك، فما بالك حبست هذا الشيخ؟ فإن تكن عليه بَيِّنة عادلة فاحكم عليه، وإلّا فيمينه أو فصالحه على ضياعه»، فلما سمع يزيد وهو في سجنه بقول ابنه لعمر: «وإلا فيمينه»، قال: «أما اليمين، فلا تتحدّث العرب أن يزيد بن المهلّب صبر عليها، ولكن ضياعي فيها وفاء لما يطلب!»[2].

وقالَ مَخْلَد لعمر رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين! إن كانت له بَيِّنة فَخُذْ بها، وإلّا فصدِّق مقالة يزيد واستحلِفْه، فإن لم يفعل فصالحه»، فقال عمر: «ما آخذه إلّا بجميع المال».

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٥٦ ـ ٥٥٧) وابن الأثير (٥/ ٤٨ ـ ٤٩)، وانظر البدء والتاريخ (٦/ ٤٦ ـ ٤٧) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٢٥) و (١/ ٣٢٨) وابن خلدون (٣/ ١٦٢ ـ ١٦٦) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣) و(٥/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

وخرج مَخْلَد من عند عمر، فقال عمر: «هذا خير من أبيه»، فلم يلبث مَخْلدَ إلّا مات وهو ابن سبع وعشرين سنة، فقال عمر: «لو أراد الله بهذا الشيخ خيراً - يريد يزيد بن المهلّب - لأبقى له هذا الفتى»، ويقال: إنّ مَخْلَد بن يزيد أصابه الطّاعون، فمات. وصلّى عليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ثم قال: «اليوم مات فتى العرب»، وأنشد متمثلاً:

على مِثْل عَمْرو تذهب النَّفس حسرةً   وتَضْحَى وجوهُ القومِ مُغْبَرَّة سودا

وأنشد عمر:

بكوا حُذَيْفَةَ لم يبكوا مثلَهُ   حتى تبيدَ خلائقٌ لم تُخْلَقِ

ولما أبى يزيد أن يؤدي إلى عمر شيئاً، ألبسه جُبّة صوف، وحمله على جَمَل، وقال: «سيروا به إلى (دَهْلَكِ)[1]»، فلما خرج ومرّوا به على الناس أخذ يقول: «أما لي عشيرة؟! إنما يذهب إلى دَهْلَك الفاسق واللِّص!»، فدخل سلامة بن نُعَيْم الخَوْلانِيّ على عمر فقال: «يا أمير المؤمنين! اردُدْ يزيد إلى محبسه، فأني أخاف إن أمضيته أن ينتزعه قومُه، فإنّهم قد عصبوا له»، فردّه عمر إلى محبسه في حَلَب، فبقي فيه حتى بلغه مرض عمر[2].

ب ـ الانعتاق:

واشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز، فعمل يزيد في الهرب من السِّجن،

(١) دهلك: جزيرة في بحر عَيْذاب بالقرب من سواكن، كان الخلفاء يحبسون بها مَنْ نقموا عليه، انظر وفيات الأعيان (٥/ ٤٤٢)، وعيذاب: بليدة على ضفة بحر القُلْزُم وهي مرسى المراكب التي تقدم من عَدن إلى الصعيد، انظر معجم البلدان (٦/ ٢٤٦)، وسواكن: بلد مشهور على ساحل بحر القلزم، ترفأ إليها سفن الذين يقدمون من جُدَّة، وأهلها سود، انظر معجم البلدان (٥/ ١٦٥ ـ ١٦٦)، وبحر القلزم، هو البحر الأحمر، والقلزم هي مدينة السويس، ويسمى هذا البحر قديماً في كل موضع يمرّ به باسم ذلك الموضع، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٦٩ ـ ٧٠).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦) وابن الأثير (٥/ ٤٩ ـ ٥٠) وانظر وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩) و(٥/ ٣٤٢).

وخاف يزيد بن عبد الملك الذي يتولى الخلافة بعد عمر، لأنه عذّب أصهاره آل أبي عقِيْل، وهم قوم الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ، وكانت أمّ الحجّاج بنت محمد بن يوسف الثّقفِي، وهي ابنة أخي الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ، زوجة يزيد بن عبد الملك.

وكان سبب تعذيبهم، أن سليمان بن عبد الملك لما ولي الخلافة، طلب آل أبي عَقِيل، فأخذهم وسلّمهم إلى يزيد بن المهلّب ليخلّص أموالهم، فعذّبهم. وكان الحجّاج قد وافق الوليد بن عبد الملك على إقالة سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد، فحقد سليمان على الحجاج، فلما تولى الخلافة انتقم من آل أبي عَقِيل قوم الحجّاج.

وبعث ابن المهلّب إلى (البَلْقَاء)[1] من أعمال دمشق، وبها خزائن الحجّاج بن يوسف وعياله، فنقلهم وما معهم إليه، وكان فيمن أُتي به أم الحجّاج زوجة يزيد بن عبد الملك، وقيل: بل أخت لها، فعذّبها، فأتى يزيد بن عبد الملك إلى ابن المهلّب في منزله، فشفع فيها، فلم يشفّعْه، فقال: «الذي قرّرتم عليها، أنا أحمله»، فلم يقبل منه، فقال لابن المهلّب: «أما والله لئن وليتُ من الأمر شيئاً، لأقطعّن منك عضواً!»، فقال ابن المهلّب: «وأنا والله لئن كان ذلك، لأَرْمِيَنَّكَ بمئة ألف»، فحمل يزيد بن عبد الملك ما كان على أمّ الحجّاج، وكان ما عليها مئة ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك.

فلما اشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، خاف يزيدُ بن المهلّب من يزيد بن عبد الملك، فأرسل إلى مواليه، فأعدّوا له إبلًا وخيلًا، وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه، وأرسل مالًا إلى والي حَلَب وإلى الحرس الذين يحفظونه وقال: «إنّ أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجاء، وإن وليَ يزيد بن عبد الملك يسفك دمي»، فأخرجوه من السجن، فهرب إلى المكان الذي واعد أصحابه فيه، فركب الدّواب وقصد البصرة.

---

(١) البلقاء: كورة من أعمال دمشق، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

وكتب ابن المهلّب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول فيه: «إني والله لو وثقتُ بحياتك لم أخرج من محبسك، ولكني خفتُ أن يليَ يزيد فيقتلني شرَّ قتلة»، فورد الكتاب وبه رمق، فقال: «اللّهمّ إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألحقْهُ به وهِضْه[1] فقد هاضني».

ومرّ يزيد بن المهلّب بطريقه إلى البصرة بالهُذَيل بن زُفَر بن الحارث، وكان يخافه، فلم يشعر الهذيل إلّا وقد دخل يزيد منزله، ودعا بلبن فشربه، فاستحيا منه الهذيل، وعرض عليه خيله وغيرها، فلم يأخذ منها شيئاً، وكان هروب يزيد من سجنه سنة إحدى ومئة الهجريّة[2] (٧١٩م).

جـ - الانطلاق:

ولما مات عمر بن عبد العزيز وبويع يزيد بن عبد الملك، كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب عامله على الكوفة، وإلى عَدِيّ بن أَرْطَأة عامله على البصرة، يأمرهما بالتحرّر من يزيد بن المهلّب ويعرّفهما هربه، وأمر عَدِيّاً أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلّب، فأخذهم وحبسهم، فيهم: المُفَضَّل، وحَبيب، ومروان بنو المهلّب.

وأقبل يزيد بن المهلَّب، حتى ارتفع إلى (القُطْقُطَانة)[3]، وبعث عبد الحميد بن عبد الرحمن جنداً إليهم عليهم هُشام بن مُسَاحق العامِريّ، وعامر بن لؤيّ، فساروا باتّجاه ابن المهلّب على عجل وبسرعة، يريدون عرقلة مسيرته إلى الكوفة، أو إلى البصرة، ويبدو أنهم كانوا يحاولون عرقلة مسيرته إلى الكوفة أولّاً وقبل كلِّ شيء، حتى نزلوا (العُذَيْب)[4].

---

(١) هاض الشيء: كسره.

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٦٤ - ٥٦٥) وابن الأثير (٥/ ٥٧ - ٥٨) وابن خلدون (٣/ ١٦٦).

(٣) القطقطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البريّة بالطف، انظر معجم البلدان (٧/ ٢٥).

(٤) العذيب: ما بين القادسيّة والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٣١)، والمغيثة منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٠٦).

ومرّ يزيد بن المهلّب قريباً منهم، فلم يقدموا عليه، لأنّه كان يريد البصرة، لا الكوفة، ومضى يزيد نحو البصرة، وقد جمع عَدِيّ بن أَرْطَاة أهل البصرة وخندق عليها، وبعث على خيل البصرة المُغِيْرَة بن عبد الله بن أبي عَقِيْل الثَّقَفِيّ.

وأقبل يزيد في أصحابه الذين معه، فالتقاه أخوه محمد بن المهلّب فيمن اجتمع إليه من أهله وقومه ومواليه.

وبعث عَدِيّ على كلّ خمس من أخماس البصرة رجلًا، فبعث على الأَزْد المغيرة بن زياد بن عمرو العَتَكِيّ، وبعث على تميم مُحْرِز بن حُمْران السَّعْدِيّ، وعلى خمس بكر مُفرِّج بن شَيْبان بن مالك بن مِسْمَع، وعلى عبد القيس مالك بن المنذر بن الجارود، وعلى أهل العالية عبد الأعلى بن عبد الله بن عامِر، وأهل العالية: قُرَيش، وكِنَانة، والأَزْد، وبَجِيْلة، وخَثْعَم، وقَيْس عَيْلان كلّها، ومُزَيْنة، وأهل العالية والكوفة يقال لهم: رُبْع أهل المدينة.

وتقدّم يزيد، لا يمرّ بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبيلة من قبائلهم إلّا تنحّوا له عن طريقه وأقبل حتى نزل داره، فاختلف الناس إليه، فأرسل إلى عَدِيّ بن أرطاة أمير البصرة، أن: «ابعثْ إليَّ إخوتي أصالحك على البصرة وأخلّيك وإياها حتى آخذ لنفسي من يزيد بن عبد الملك ما أحب»، فلم يقبل منه.

وسار حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِّي بأمان يزيد بن المهلّب وأهله.

وأخذ يزيد بن المهلّب يُعْطي مَنْ أتاه قِطَعَ الذّهب والفِضّة، فمال الناس إليه. وكان عَدِيّ بن أَرْطَاة لا يُعْطِي إلّا دِرْهَمَيْن درهمَيْن ويقول: «لا يحلّ لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلّا بأمر يزيد بن عبد الملك، ولكن تبَلّغوا بهذه حتى يأتي الأمرُ»، وفي ذلك يقول الفرزدق:

أَظُنُّ رجالَ الدِّرهمَيْن تقودُهم إلى الموتِ آجالٌ لهم ومَصَارِعُ
وأكيَسُهم مَنْ قَرَّ في قَعْر داره وأيقَنَ أنّ الموتَ لا بُدّ واقِعُ

وخرجت بنو عمرو بن تَميم من أصحاب عِدِي بن أَرْطَاة، فنزلوا (المِرْبَد)[1]، وبعث يزيد بن المهلّب مولىً له يقال له: دارس، فحمل عليهم فهزمهم.

وخرج يزيد حين اجتمع الناس له، حتى نزل (جَبّانة بني يَشْكُر)، وهي النصف فيما بينه وبين قصر الإمارة في البصرة، فلقيه قيس وتميم وأهل الشّام واقتتلوا هُنَيْهَةً، فحمل عليهم أصحاب يزيد، فانهزموا.

وتبعهم ابن المهلّب حتى دنا من القصر، فخرج إليهم عِدِيّ بن أَرْطَاة بنفسه، فقُتل من أصحابه موسى بن الوَجِيْه الحِمْيرِيّ والحارث بن المُصَرَّف الأَوْدِيّ وكان من فرسان الحجّاج وأشراف أهل الشّام.

وانهزم أصحاب عدِيّ، وسمع إخوة يزيد، وهم في محبس عدِيّ، الأصوات تدنو والنُّشّاب تقع في القصر، فقال لهم عبد الملك بن المهلّب: «إني أرى أنّ يزيد قد ظهر، ولا آمن مَنْ مع عَدِيّ من مُضَر وأهل الشّام أن يأتونا فيقتلونا قبل أن يصل إلينا يزيد، فأغلقوا الباب ثم ألقوا عليه ثياباً»، ففعلوا.... ولم يلبثوا إلّا ساعة حتى جاءهم عبد الله بن دينار مولى ابن عامر، وكان على حَرَس عَدِيّ، فجاء يشتدّ إلى الباب هو وأصحابه، وقدوضع بنو المهلّب متاعاً على الباب، ثمّ اتّكوا عليه، فأخذ الآخرون يعالجون الباب، فلم يقدروا عليه، وأعجلهم الناسُ فخلّوا عنهم.

وكان سَلْم بن زياد بن أبي سفيان له دار إلى جانب القصر، فجاء يزيد حتى نزل تلك الدار. وأَتى بالسّلاليم وفتحَ القصرَ، فأُتي بعديّ بن أَرْطَاة فحبسه وقال له: «لولا حبسُك إخوتي لما حبستُك».

---

(١) المربد: مربد البصرة من أشهر محالها، وكان يكون فيه سوق الإبل قديماً، ثمّ صار محلّة كبيرة سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١١ ـ ١٣).

فلما ظهر يزيد، هرب رؤوس أهل البصرة من تميم وقيس ومالك بن المُنْذر فلحقوا بالكوفة، ولحق بعضهم بالشّام.

وخرج المغيرة بن زياد العَتَكِيّ نحو الشّام، فلقى خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ ومعهما حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب قد أقبلوا بأمان يزيد بن المهلّب وكلّ شيءٍ أرادوه، فسألاه عن الخبر، فخلا بهما سرّاً من حُمَيْد وأخبرهما وقال: «أين تريدان؟»، فأخبراه بأمان يزيد، فقال: «إنّ يزيد قد ظهر على البصرة، وقتل القتلى وحبس عُدَيّاً، فارجعا»، فرجعا وأخذا حُمَيْداً معهما، وأهل بيته لم يزالوا لنا أعداء، فلا تسمعا مقالته»، فلم يقبلا قوله، ورجعا به إلى دمشق.

وأخذ عبد الحميد بن عبد الرحمن أمير الكوفة خالدَ بن يزيد بن المهلّب وحمالَ بن زَحْر، ولم يكونا في شيءٍ من الأمر، فأوثقهما وسيّرهما إلى الشّام، فحبسهما يزيد بن عبد الملك، فلم يفارقا السِّجنَ حتى هلكا فيه.

وأرسل يزيد بن عبد الملك إلى الكوفة شيئاً من الأموال وُزِّعت على أهلها ويمنِّيهم الزيادة، وجهّز أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك وابن أخيه العَبَّاس بن الوليد بن عبد الملك في سبعين ألف مقاتل من أهل الشّام والجزيرة (جزيرة ابن عمر)، وقيل: كانوا ثمانين ألفاً، فساروا إلى العراق، وقَدِما الكوفة ونزلا (النُّخَيْلَة)[1].

ولما سمع أصحاب ابن المهلّب وصول مَسْلَمة وأهل الشّام راعهم ذلك، فبلغ خوفهم ابن المهلّب، فخطب الناس وقال: «قد رأيتُ أهل العسكر وخوفهم، يقولون: جاء أهل الشّام ومَسْلَمة! وما أهل الشّام؟! هل هم إلّا تسعة أسياف، سبعة منها إليّ، وسيفان عليّ وما مَسْلَمة إلّا جرادة

---

(١) النّخيلة: موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشّام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

صفراء، أتاكم في برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلّاحين وأوباش وأخلاط!؟ أَوْلَيْسُوا بشراً يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون!؟ أعيروني سواعدكم تصفِّقون بها وجوههم وقد ولّوا الأدبار».

ولما سيطر يزيد على البصرة، بعث عمّاله على الأهواز وفارس وكَرْمان، وبعث على خُراسان مُدْرِك بن المهلّب وعليها عبد الرحمن بن نُعَيْم، فقال لأهلها: «هذا مُدْرِك بن المهلّب قد أتاكم ليُلْقي بينكم الحرب وأنتم في بلاد عافية وطاعة»، فسار بنو تَميم ليمنعوه، وبلغ الأَزْد بخراسان ذلك، فخرج منهم نحو أَلفَيْ فارس، فلقوا مُدْرِكاً على رأس المفازة، فقالوا له: «إنك أحبُّ الناس إلينا، وقد خرجَ أخوكَ، فإن يظهر فإنما ذلك لنا ونحن أسرع الناس إليكم وأحقه بذلك، وإن تكن الأخرى فمالك من أن البلاء راحة!»، فانصرف مدرك عنهم.

ولما استجمع أهل البصرة ليزيد، خطبهم وأخبرهم أنه يدعوهم لكتاب الله وسُنّة نبيّه، ويحثّهم على الجهاد، ويزعم أن جهاد أهل الشّام أعظم ثواباً من جهاد الترك والدّيلم!

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يسمع، فرفع صوته يقول: «والله لقد رأيناكَ والياً ومولّىً عليك، فما ينبغي لك ذلك»، ووثب أصحابه فأخذوا بفمه وأجلسوه.

وخرج الناس من المسجد، فمرّ الحسن البصريّ بالناس وقد نصبوا الرايات، وهم ينتظرون خروج يزيد وهم يقولون: تدعونا إلى سنة العُمَرين! فقال الحسن البصري: «كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين تَرَوْن ثم يرسلها إلى بني مروان يريد رضاهم! فلما غضب نصب قَصَباً ثم وضع عليها خِراقاً، ثم قال: إني قد خالفتهم، فخالفوهم! قال هؤلاء: نعم. ثم قال: إني أدعوكم إلى سُنّة العُمرَين، وإن من سُنّة العُمَرَين، أن يوضع في رجله قيد، ثم رُدّ إلى محبسه». فقال ناس من أصحابه: لكأنّك راضٍ عن أهل الشّام! فقال: «أنا راضٍ عن أهل الشّام! قَبَّحَهُم الله وبَرَّحهم! أليس هم الذين أحلّوا حرم رسول الله ﷺ، يقتلون أهله ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ! قد

أباحوها لأنباطهم وأقباطهم، يحملون الحرائر ذوات الدين، لايتناهون عن انتهاك حرمة، ثم خرجوا إلى بيت الله الحرام، فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها. . . . عليهم لعنة الله وسوء الدار».

ثمّ إنّ يزيد سار من البصرة واستعمل عليها أخاه مَرْوان بن المهلّب، وأتى (واسِطاً)، وقد كان استشار أصحابه حين توجّه نحو (واسِط)، فقال له أخوه حبيب وغيره: نرى أن نخرج وننزل بفارس، فنأخذ بالشّعاب والعِقاب، وندنو من خُراسان، ونطاول أهل الشّام، فإن أهل الجبال يأتون إليك، وفي يدك القلاع والحصون. فقال: «ليس هذا برأيي، تريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل!»، فقال حبيب: «إنّ الرأي الذي كان ينبغي أن يكون أوّل الأمر قد فات، قد أمرتُك حيث ظهرت على البصرة أن توجّه خيلًا عليها بعض أهلك إلى الكوفة، وإنما فيها عبد الحميد، مررت به في سبعين رجلًا فعجز عنك فهو عن خيلك أعجز، فسبق إليها أهل الشّام، وأكثر أهلها يرون رأيك، ولأن تلي عليهم أحبّ إليهم من أن يلي عليهم أهل الشّام، فلم تطعْني، وأنا أشير الآن برأي: سرِّح مع بعض أهلك خيلًا كثيرة من خيلك، فتأتي الجزيرة (جزيرة ابن عمر) وتبادر إليها، حتى ينزلوا حصناً من حصونهم، وتسير في إثرهم، فإذا أقبل أهل الشّام - يريدونك، لم يَدَعوا جندك بالجزيرة يُقْبِلون إليك، فيقيمون عليهم فيحبسونهم عنك حتى تأتيهم، ويأتيك مَنْ بالموصل من قومك، وينفضّ إليك أهل العراق وأهل الثغور، وتقاتلهم في أرضٍ رخيصة السِّعر. وقد جعلتَ العراقَ كلّه وراء ظهرك»، فقال يزيد: «أكره أن أقطع جيشي»!

ولما نزل (واسطاً)، أقام بها أياماً يسيرة، وخرجت سنة إحدى ومئة الهجرية[1].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٧٨ - ٥٨٩) وابن الأثير (٥/ ٧١ - ٧٧) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ - ١٦٩)، وانظر خلاصة الذهب المسبوك(٢٦).

د ـ الإخفاق:

ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧١٩م)، فسار يزيد عن واسط، واستخلف عليها ابنه معاوية، وجعل عنده بيت المال والخزائن والأسراء.

وسار يزيد على فحم (النِّيْل)[١] حتى نزل (العَقْر)[٢]، وقدّم أخاه عبد الملك بن المهلّب نحو الكوفة، فاستقبله العبّاس بن الوليد بن عبد الملك بـ (سُوْرَا)[٣]، فاقتتلوا. وحمل أصحاب عبد الملك على أهل الشّام حمله كشفوهم فيها، ومعهم ناس من تميم وقيس من أهل البصرة، فنادوا: الله ... الله أن تُسْلِمونا! وقد اضطرهم أصحاب عبد الملك إلى النهر، فقال أهل الشّام: لا بأسَ عليكم، إنّ لنا جولة في أوّل القتال؛ ثمّ كرّوا عليهم فانكشف أصحاب عبد الملك وانهزموا وعادوا إلى يزيد.

وأقبل مَسْلَمة بن عبد الملك يسير على شاطئ الفرات إلى (الأنبار)، وعقد عليها الجسر، فعبر وسار حتى نزل على ابن المهلّب.

وأتى إلى ابن المهلّب ناس من أهل الكوفة كثير ومن الثغور، فبعث على مَنْ خرج إليه من أهل الكوفة ورُبْع أهل المدينة عبدَ الله بن سفيان بن يزيد بن المُغَفَّل الأزدي. وعلى رُبْع مَذْحِج وأسد النُّعمان بن إبراهيم بن الأشتر، وعلى كِنْدة وربيعة محمد بن إسحاق بن الأَشْعث، وعلى تميم وهَمْدان حنظلة بن عَتَّاب بن ورقاء التَّمِيمِيّ، وجمعهم جميعاً مع المُفَضَّل بن المهلّب.

---

(١) النيل: بليدة في سواد الكوفة قرب (حِلّة) بني مِزْيد، يخترقها خليج كبير، يتخلّج من الفرات الكبير، انظر معجم البلدان (٨/ ٣٦٠).

(٢) العقر: عقر بابل، قرب كربلاء من الكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

(٣) سورا: موضع بأرض بابل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٦٨).

وأحصى ديوانَ ابن المهلّب مئة ألفٍ وعشرين ألفاً، فقال: «لوَدِدْتُ أنّ لي بهم مَنْ بخُراسان من قومي»، ثم قام في أصحابه فحرّضهم على القتال فقال: «إنّ هؤلاء القوم لن يَرُدَّهم عن غيِّهم إلّا الطعن في عيونهم والضرب بالمشرفيّة على هامهم»، ثم قال: «إنه قد ذُكر لي أن هذه الجرادة الصفراء - يعني مَسْلَمَة بن عبد الملك - وعاقر ناقة ثمود - يعني العبّاس بن الوليد بن عبد الملك، وكان العبّاس أزرق أحمر، كانت أمّه روميّة - والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه حتى كلّمته فأقرّه على نسبه؛ فبلغني أنه ليس همّهما إلّا الْتِمَاسِيْ في الأرض، والله لو جاء أهل الأرض جميعاً وليس إلّا أنا، ما برحت العَرْصة حتى تكون لي أو لهم»، فقالوا: نخاف أن تُعَنِّينا كما عَنّانا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقال: «إنّ عبد الرحمن فضحَ الذِّمار، وفضح حَسَبه، وهل كان يعدو أجله!!»، ثم نزل.

وجاءته الجموع الحاشدة تبايعه، وكان نص البيعة: نبايع على كتاب الله وسنّة نبيِّه ﷺ، وعلى ألّا تطأ الجنودُ بلادنا ولا بيضتَنا، ولا تعاد علينا سيرة الفاسق الحجّاج.

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة قد عسكر بالنُّخَيْلَة، وشق المياه، وجعل مع أهل الكوفة الأرصاد لئلا يخرجوا مع ابن المهلّب، وبعثَ بعثاً إلى مَسْلَمَة مع سَبْرَة بن عبد الرحمن بن مِخْنَف.

ولكنّ مَسْلَمة عزل عبد الحميد عن الكوفة، واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن عُقْبَة، لأنّ عبد الحميد تردّد في لقاء ابن المهلّب حين قدم هارباً من السجن في طريقه من حَلَب إلى البصرة.

وجمع يزيد رؤوس أصحابه فقال: «قد رأيت أن أجمع اثني عشر ألفاً، فأبعثهم مع أخي محمد بن المهلّب حتى يُبَيِّتوا مَسْلَمة، ويحملوا معهم البراذع والأُكُف والزُّبُل لدفن خندقهم، فيقاتلهم على خندقهم وعسكرهم بقيّة ليلتهم، وأُمدَّه بالرجال حتى أُصبح، فإذا أصبحتُ نهضتُ إليهم وأنا والناس، فنناجزهم، فإني أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم».

ولكن السَّمَيْدع اعترض على يزيد قائلًا: «إنّا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منّا، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردّوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منّا».

وأيدّ أبو رؤبة، وهو رأس طائفة من المرجئة، ومعه أصحاب له، فقال: «صَدَقَ! هكذا ينبغي».

فقال يزيد: «وَيْحَكُم! أتصدِّقون بني أُميّة أنّهم يعملون بالكتاب والسُنة! إنهم يخادعونُكم ليمكروا بكم، فلا يسبقوكم إليه. إني لقيتُ بني مَرْوان، فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غَوْراً من هذه الجرادة الصفراء ـ يعني مَسْلَمة ـ». قالوا: لا نفعل ذلك حتى يردّوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا»!

وكان مروان بن المهلّب بالبصرة يحثّ الناس على حرب أهل الشّام، وكان الحسن البصريّ يثبِّطهم، فلما بلغ ذلك مروان قام في الناس يأمرهم بالجدّ والاحتشاد، ثم قال: «بلغني أنّ هذا الشيخ الضال المرائي ـ ولم يسمِّه ـ يثبِّط الناس، والله لو أنّ جاره نزع من خُصّ داره قصبة لظلّ يرعُف أنفُه! أينكر علينا وعلى أهل مصرنا، أن نطلب حقّنا وأن ننكر مظلمتنا! أما واللّهِ ليَكُفَّنّ عن ذكرنا وعن جمعه سُقّاط (الأُبُلّة)[1] وعلُوج فُرات البصرة ـ قوماً ليسوا من أنفسنا، ولا ممّن جرت عليه النِّعمة من أحدٍ منّا ـ أو لأُنْحِيَنَّ عليه مِبْرَداً خشناً». فلما بلغ الحسن البصريّ ذلك قال: «والله ما أكره أن يكرمني اللّهُ بهوانه»، فقال ناس من أصحابه: «لو أرادك ثم شئت لمنعناك»، فقال لهم: «قد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه! آمر ألّا يقتل بعضكم بعضاً مع غيره، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دوني!» فبلغ ذلك مَرْوان بن المهلّب، فاشتدّ على أصحاب الحسن وطلبهم حتى تفرّقوا. ولم يدع الحسن كلامه ذلك، ولكنّ مروان كفّ عنه ولم يصبه بأذى.

---

(١) الأُبُلّة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة، لأنّ البصرة مُصِّرت في أيام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وكانت الأُبُلّة حينئذ فيها مسالح من قبل كسرى وقائد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٨٩ ـ ٩٠).

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول للناس: «أيّها النّاس! الزموا رحالكم، وكفّوا أيْدِيكم، واتّقوا الله مولاكم، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة، وطمع فيها يسير ليس لأهلها بباقٍ، وليس الله عنهم بما اكتسبوا براضٍ. إنه لم تكن فتنة إلّا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء وأهل التِّيه والخُيَلاء، وليس يسلم منها إلّا المجهول الخفيّ والمعروف التقيّ، فمن كان منكم خفيّاً فليلزم الحق، وليحبس نفسه عمّا يتنازع الناس فيه من الدنيا، فكفاه واللَّهِ بمعرفة الله إياه بالخير شَرفاً، وكفى له بها في الدنيا خَلَفاً، ومَنْ كان منكم معروفاً شريفاً، فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا إرادة الله بذلك، فواهاً لهذا! ما أسعدَه وأرشدَه وأعظم أجره وأهدى سبيله! فهذا غداً ـ يعني يوم القيامة ـ القرير عيناً، الكريم عند الله مآباً».

وكان اجتماع يزيد بن المهلّب ومَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان ثمانية أيام، فلما كان يوم الجُمْعة لأربع عشرة مضت من صَفر، بعث مَسْلَمة إلى الوضّاح أن يخرج بالسُّفن حتى يحرق الجسر، ثمّ بعث من أحرق الجسر.

وخَرج مسلمة فَعَبَّأ جنود أهل الشام، ثم قرب من ابن المهلّب، وجعل ميمنته جَبَلة بن مَخْرَمة الكِنْدَيّ، وعلى ميسرته الهُذَيْل بن زُفَر بن الحارث الكِلابي. وجعل العباس بن الوليد على ميمنته سيف بن هانئ الهمداني، وعلى ميسرته سُوَيد بن القَعْقاع التميميّ، وكان مَسْلَمة على الناس. وخرج يزيد بن المهلّب، وقد جعل عل ميمنته حبيب بن المهلّب، وعلى ميسرته المُفَضَّل بن المهلّب وبرز رجل من أهل الشّام، فدعا إلى المبارزة، فبرز إليه محمد بن المهلّب، فضربه محمّد، فاتّقاه الرجل بيده وعلى كفِّه كفٌّ من حديد، فضربه محمد فقطع الكف الحديد، وأسرع السيّف في كفِّه واعتنق فرسه فانهزم.

فلما دنا الوضّاح من الجسر. ألهب فيه النار، فسطع دخانه، وقد اقتتل الناس ونشبت الحرب، ولم يشتدّ القتال. ولما رأى الناس الدخان، وقيل لهم: أُحرق الجسر، انهزم أصحاب ابن المهلّب، فقيل لابن المهلّب: انهزم

الناس فقال: «مِمَّ انهزموا؟ هل كان قتال يُنْهزم من مثله؟!»، فقيل له: قالوا أُحرقَ الجسرُ، فلم يثبت أحد! فقال: «قبّحهم الله، بَقٌ دُخِّن عليه فطار».

وخرج يزيد وخرج معه أصحابه ومواليه وناس من قومه، فقال: «اضربوا وجوه مَنْ ينهزم»، ففعلوا ذلك بهم حتى كثروا عليه، واستقبله منهم أمثال الجبال، فقال: «دعوهم، فوالله إني لأرجو ألّا يجمعني الله وإياهم في مكان واحد أبداً، دعوهم يرحمهم الله، غَنَم عدا في نواحيها الذِّئب!».

وكان يزيد لا يحدِّث نفسه بالفرار، وقد كان يزيد بن الحَكَم بن أبي العاص الثّقفي، وهو ابن أخي عثمان بن أبي العاص[1] صاحب رسول الله ﷺ، وليس بينه وبين الحَكَم بن أبي العاص والدِ مَرْوان نسب، وأمّه ابنة الزِّبْرِقان السَّعْدِيّ، أتاه وهو بواسِط قبل أن يصل إلى العَقْر، فقال:

إن بني مَرْوان قد بَادَ مُلْكُهم فإن كنت لم تَشْعُرْ بذلك فاشْعُرِ

قال يزيد: «ما شعرتُ!»، فقال يزيد بن الحَكَم بن أبي العاص الثّقفيّ:

فَعِشْ مَلِكاً أو مُتْ كريماً، وإن تَمُتْ وسَيْفُك مَشْهورٌ بِكَفِّكَ تُعْذَرِ

قال يزيد: «أما هذا، فعسى».

ولما خرج يزيد إلى أصحابه، واستقبلته الهزيمة، قال: «يا سَمَيْدَع! أرأيي أم رأيُك؟ ألم أُعْلِمْكَ ما يريد القوم!»، قال: «بلى والله، والرأيَ ما كان رأيُك، وأنا ذا معك لا أُزايلُكَ، فمرْني بأمرك».

ونزل يزيد ونزل سَمَيْدَع في أصحابهما، وكان يزيد على فرس أشهب، فأتاه آتٍ فقال: «إنَّ أخاك حبيباً قد قُتِل»، فقال: «لا خير في العيش بعده، قد كنت والله أبغض الحياة بعد الهزيمة، وقد ازددتُ لها بغضاً. . . . امضوا قُدُماً»، فعلموا أنه قد استقتل، فتسلّل عنه مَنْ يكره القتال ويخاف الموت،

(١) انظر سيرة حياته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٦٢ ـ ٢٦٩).

وبقي معه جماعة حسنة وهو يتقدّم، فكلما مرّ بخيلٍ كشفها، أو جماعة من أهل الشّام عدلوا عنه.

وأقبل نحو مَسْلَمَة لا يريد غيره، فما دنا منه أدنى مَسْلَمَة فرسه ليركب، فعطفت عليه خيول أهل الشّام وعلى أصحابه، فقتل يزيد وقتل السَّمَيْدَع وقتل محمد بن المهلّب.

وكان رجل من كلب يقال له: القَحْل بن عَيَّاش، فلما نظر إلى يزيد قال: «هذا والله يزيد! واللّهِ لأقتلنّه أو ليقتلنّي! فمَنْ يحمل معي يكفيني أصحابه حتى أصلَ إليه؟»، فحمل معه ناس، فاقتتلوا ساعة، وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلًا وعن القَحْل بآخر رمقه، فأومأ إلى أصحابه يُريهم مكان يزيد وأنه هو قاتله وأنّ يزيد قتله.

وأتى برأس يزيد مولى لبني مُرَّة، فقيل له: أنت قتلته؟ قال: «لا»، فلما أتى مَسْلَمَة سيّره إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان مع خالد بن الوليد بن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط.

وقيل: بل قتل يزيد بن المهلّب الهُذَيْل بن زُفَر بن حارث الكلابيّ، ولم ينزل يأخذ رأسه أنفةً.

ولما قُتل يزيد، كان المُفَضَّل بن المهلّب يقاتل أهل الشّام وما يدري بقتل يزيد، وكان كلّما حمل على الناس انكشفوا، ثمّ يحمل حتى يخالطهم، وكان معه عامر بن العَمَيْثَل الأَزْدِيّ يضرب بسيفه ويقول:

قد علمتْ أمُّ الصبيّ المولودْ أني بِنَصْلِ السَّيْفِ غيرُ رِعْدِيد

واقتتلوا ساعة، فانهزمت ربيعة، فاستقبلهم بالسَّيف يناديهم: «أيْ معشر ربيعة! الكَرَّةَ.... الكَرَّة... والله ما كنتم بكُشفٍ ولا لئام، ولا هذه لكم بعادة، فلا يؤتينّ أهل العراق من قِبَلكم اليوم. أيْ ربيعة! فدتكم نفسي، اصبروا ساعة من النهار»، فرجعوا إليه يريدون الحَملة، فجاءه مَنْ يقول له: ما تصنع ههنا، وقد قُتل يزيد وحَبِيب ومحمّد وانهزم الناس منذ أمدٍ طويل؟

وتفرّق الناس عن المفضّل، فمضى إلى واسطِ، فما كان من العرب أضرب بسيف ولا أحسن تعبية للحرب ولا أغشى للناس منه.

وقيل: بل أتاه أخوه عبد الملك، وكره أن يُخْبره بقتل يزيد فيستقتل، فقال له: «إنّ الأمير قد انحدر إلى واسط»، فانحدر المفضّل بمَنْ معه من ولد المهلّب إلى واسِط، فلما علم بقتل يزيد، حلف ألّا يكلِّم عبد الملك أبداً.

وأسر مَسْلمة نحو ثلاثمائة أسير، فسرّحهم إلى الكوفة فحبسوا بها.

وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عُقْبَة بن مُعَيْط والي الكوفة، يأمره بضرب رقاب الأسرى، فبدأ بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى، فجاء رسول بكتاب من عند مَسْلَمَة يأمره بترك قتل الأسرى، ثمّ أقبل مَسْلَمة حتى نزل (الحِيْرَة)[1].

ولما بلغت هزيمة يزيد مدينة واسِط، غادرها آل المهلّب إلى البصرة، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم في السّفن البحريّة، ثم لجّوا في البحر، فلما كانوا بجِبال (كَرْمَان) خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدّواب، وكان المقدم عليهم المُفَضَّل بن المهلّب.

وكان بكَرْمان فلول كثيرة اجتمعوا إلى المفضَّل، فبعث مسلمة قوّات من أصحابه، فقاتلوا فلول المفضّل وانتصروا عليهم وكبّدوهم خسائر فادحة بالأموال والأرواح.

ومضى آل المهلّب ومَنْ معهم إلى (قَنْدبِيْل)[2]، فطاردهم أصحاب

---

(١) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يقال له: النجف، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٨٦)، والنجف اليوم قريبة من الكوفة، وفيها مرقد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) قندابيل: مدينة بالسند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٧).

مَسْلَمَة إلى هناك، فتفرّق الناس عن آل المهلّب، ولكنّ المهالِبَة تقدّموا بأسيافهم، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، منهم: المُفَضَّل، وعبد الملك، وزياد ومَرْوان بنو المهلّب وثلاثة من أبنائهم فبعث مسلمة برؤوسهم إلى يزيد بن عبد الملك.

وحين بلغ يزيد بن عبد الملك مقتل يزيد بن المهلّب وكثير من آل المهلّب، سرّه هذا النّصر سروراً عظيماً[1].

هـ ـ الكارثة:

انتصر مَسْلَمَة بن عبد الملك على يزيد بن المهلّب وآل بيته، فخدم الدولة خدمة لا تُقدّر، لقضائه على يزيد بن المهلّب الذي خلع يزيد بن عبد الملك، وقاد أخطر ثورة هدّدت كيان الأمويين.

ومن الإنصاف أن نذكر أنّ يزيد بن المهلّب كان قائداً فذّاً وإدارياً حازماً، ولكنه خسر حياته وحياة أكثر آل المهلّب، لأنه قاد جيشاً لا يثق به ولا يعتمد عليه، أفراده أكثرهم مرتزقة، كلّ همهم كسب المال، لذلك لم ينفِّذوا أوامره ولم يطبقوا تعليماته.

ولم يكن يزيد بن المهلّب يجهل قابلية جيشه المتضعضعة ومعنوياتهم المنهارة، وأدرك في أول المعركة بأنه يقود معركة خاسرة، ولكنه ثبت كالطود وقاتل عن شرفه وأحسابه، ولم يرض لنفسه الفرار أو الاستسلام، حتى لا تتحدّث العرب حاضراً ومستقبلًا بإنه فرّ أو استسلم، والموت عنده أهون من مثل هذا الحديث.

وكان مسلمة أيضاً يقود جيشاً أكثره من المرتزقة، ولكنهم كانوا ملتزمين بالدولة، أما جيش يزيد بن المهلّب فكان من المرتزقة غير الملتزمين

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٩٠ ـ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/٧٧ ـ ٨٩) وابن خلدون (٣/١٦٦ ـ ١٧٢)، وانظر المسعودي (٣/١٩٩ ـ ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ ـ ١٦) والمعارف (٤٠٠) والتنبيه والإشراف (٣٢٠ ـ ٣٢٢).

بدولة، أو بمعنى آخر، فقد كان جيش مسلمة يقاتل عن حاضر مضمون ومستقبل مضمون هو حاضر دولة قائمة ومستقبلها، أما جيش يزيد فكان يقاتل عن حاضر غير مضمون ومستقبل غير مضمون، لذلك كان جيش مسلمة يتحلّى بإرادة القتال فانتصر، وكان جيش يزيد لا يتحلّى بهذه المزيّة فانهزم.

أمّا تفاصيل أسباب هزيمة يزيد بن المهلّب في هذه المعركة، فسيكون لها ذكر مفصل في الحديث عن يزيد قائداً.

لقد خسرت الدولة بالقضاء على يزيد بهن المهلّب وبني المهلّب خيرة قادتها وأحسن جنودها وأقدر أُمرائها وأبرز ولاتها، وهي خسارة جسيمة بلا مِراء.

وأدهى من ذلك وَأَمَرُّ، أَنَّ الاقتتال الذي نشب بين الإخوة، أدّى إلى عداء عميق الجذور بين القبائل العربية في العراق قاعدة الفتح الإسلامي الرئيسة في المشرق الإسلامي، وفي بلاد المشرق الإسلامي كافة قاعدة الفتح الإسلامي المتقدِّمة، ممّا أدى إلى انصراف الفاتحين عن الفتح واستعادة الفتح إلى الاقتتال المرير فيما بينهم، فأصبحت طاقاتهم موجّهة إلى أنفسهم بدلاً من أن تكون موجهة على أعدائهم، وأصبحت سيوفهم عليهم لا على أعدائهم، فانحسر مدّ الفتح الإسلامي واستعادة الفتح، وتقلّص نفوذ الدولة في العراق وفارس وخُراسان وكَرمان وسِنِجْستان وما وراء النهر وسائر المشرق الإسلامي، وأصبحت تلك القواعد الرئيسة والمتقدمة تعجّ بالفتن والاضطرابات والفوضى.

وانتهز هذه الفرصة السانحة العباسيّون ومن ورائهم الفُرس للقضاء على الدولة الأمويّة، وأصبح دعاة بني العبّاس وعلى رأسهم أبو مُسْلِم الخُراساني يسرحون ويمرحون في بلاد المشرق الإسلامي كافة وبخاصة بلاد فارس وخُراسان بحريّة كاملة تحت سمع وبصر ولاة الدولة الأموية العاجزين عن اتخاذ إجراءات مؤثِّرة، لأنّ الخرق اتّسع على الرّاقع ـ كما يقول المثل العربي المشهور.

لذلك كان انتصار مَسْلَمَة على يزيد بن المهلّب في هذا الاقتتال انتصاراً تعبوياً، ولكنه كان هزيمة سَوْقِيّة (استراتيجيّة) على المدى القريب والبعيد أيضاً.

والانتصار التعبوي، لا قيمة له بالنسبة للهزيمة السّوقيّة كما هو معروف.

الإنسان:

١ ـ الإداري بين الأوج والحضيض:

أ ـ في السُّلْطة:

كان يزيد يحارب تحت لواء أبيه المهلّب الخوارجَ في كَرْمان سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦م)، فاستدعى الحجّاج المهلَّب وأمره أن يولّي كَرمان مَنْ يثق به ويجعل فيها مَن يحميها ويقدِم إليه.

واستعمل المهلّب على كَرْمان يزيدَ ابنه، ثم سار إلى الحجّاج، فلما قدم عليه أكرمه وأجلسه إلى جانبه وقال: «يا أهل العراق! أنتم عبيد المهلّب»، ثم قال: «أنت كما قالَ لَقِيْط بن يَعْمَر الإيادِيّ في صفة أُمراء الجيوش:

وقَلِّدوا أمـرَكُـم لـلَّـهِ دَرُّكُـمُ	رَحبَ الذِّراع بأمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلِعاً
لا مُتْرَفاً إنْ رَخَاءُ العيش ساعده	ولا إذا عضَّ مكروهٌ به خَشَعَا
مُسَهَّدُ النّوم تُعْنيه ثغورُكُمُ	يروُمُ مِنْها إلى الأعداء مُطَّلَعاً
ما انفكّ يحلبُ هذا الدّهَر أشطرَهُ	يكونُ متّبِعاً طوراً ومتّبِعاً
وليس يَشغله مالٌ يثمّرُهُ	عنكم ولا وَلَدٌ يبغي له الرَّفَعَا
حتى استمرَّت على شَزْرٍ مَرِيرَتُه	مستحكم السنّ لاقَحماً ولا ضَرَعا[1]

ولا نعلم بالضبط، كم بقي يزيد على كَرْمان، ولكنّ أباه تولى خُراسان سنة ثمان وسبعين الهجريّة (٦٩٧م)، فالتحق بأبيه، وشهد تحت رايته معاركه في الفتح.

---

(١) ابن الأثير (٤/٤٤١).

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجريّة (٧١٠م) توفّي المُغِيْرة بن المهلّب الذي كان قد استخلفه أبوه على خُراسان، فدعا المهلّبُ ابنه يزيد ووجّهَه إلى (مَرْو) خلفاً للمغيرة، وكان يزيد يقاتل مع أبيه في بلاد ما وراء النهر، فعاد يزيد إلى (مَرْو) وكيلًا لأبيه على خراسان[١].

ولكنّ المهلّب تُوفّي في هذه السنة، فكتب يزيد إلى الحجّاج يُعلمه بوفاة المهلّب، فأقرّ الحجّاج يزيدَ على خُراسان[٢].

وبقي يزيد على خُراسان حتى سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م)، حيث عزله الحجّاج وولّى مكانه أخاه المُفضّل بن المهلّب[٣]، بعد أن أمضى على خُراسان أربع سنوات تقريباً، قضى أكثرها غازياً في الجبال والوديان والسهول والفلوات، ولم يقض إلّا وقتاً محدوداً في (مَرْو) عاصمة خُراسان.

وقد ذكر المؤرخون عدّة أسباب لعزله، نذكرها مجملةً لنعرف السبب الحقيقي لهذا العزل. وكان سبب عزل الحجّاج يزيد بن المهلّب عن خُراسان، أنّ الحجّاج وفد إلى عبد الملك بن مروان فمرّ في طريقه براهب، فقيل له: إنّ عنده علماً. ودعا الحجّاج بالرّاهب، وسأله عدّة أسئلة ثم سأله: «أتعلمُ مَنْ يلي بعدي؟» قال: «نعم! رجل يقال له: يزيد»، فقال: «أفتعرف صفته» قال: «يغدر غُدْرَةً، لا أعرف غير هذا!».

وسار الحجّاج وهو وَجِلٌ من قول الراهب، فلما عاد كتب إلى عبد الملك يذمّ يزيد وآل المهلّب، ويخبره أنّهم زُبَيْرِيّة، فكتب إليه عبد الملك: «إني لا أرى طاعتهم لآل الزُّبير نقصاً بآل المهلّب، وفاؤهم لهم يدعوهم إلى الوفاءَ لي».

وعاد الحجّاج ليكتب إلى عبد الملك من جديد، يخوّفه غدر يزيد

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣).

(٢) الطبري (٦/ ٣٥٥) وابن الأثير (٤/ ٤٧٦)، وانظر طبقات ابن سعد (٧/ ١٣٠).

(٣) يريد أنهم موالون لآل الزبير بن العوّام رضي الله عنه.

وبما قال الرّاهب، فكتب عبد الملك إليه: إنّك قد أكثرت في يزيد وآل المهلّب، فَسَمِّ لي رجلًا يصلح لخراسان، فسمَّى: قُتَيْبة بن مُسْلِم، فوافق عبد الملك على تولية قُتَيْبَة[1].

وقيل: إنّ سبب عزله أنّ الحجّاج سأل أحد فرسان المهلّب[2]، وكان مع يزيد، فقال له الحجّاج: «أخبرني عن يزيد»، فقال: «حَسَنَ الطّاعة، ليِّن السيرة»، قال: «كذبْتَ اصدقني عنه»، قال: «اللّهُ أجَلُّ وأعظم، قد أسرج ولم يُلْجِم»، يريد أنه أكمل استعداداته للانتقاض على الحجّاج، قال: «صَدَقْتَ»[3].

وقيل: إنّ سبب عزله أنّ الحجّاج كتب إلى يزيد: «اغزُ خُوارِزْم»، فكتب: «إنها قليلة السَّلَب، شديدة الكَلَب»، فكتب إليه الحجاج: «استَخْلِف واقدمْ»، فكتب يزيد: «إني أُريد أن أغزو خُوارزم»، فكتب الحجّاج: «لا تغزُها فإنها كما ذكرت»، فغزا يزيد ولم يطعْه فصالحه أهلها وأصاب سبياً وقفل في الشتاء، وأصاب الناس بردٌ[4].

وقيل: إنّ الحجّاج استقدم يزيد من خُراسان إلى العراق، فتباطأ في العودة، فكتب الحجّاج إلى أخيه المفضَّل: «إني قد وليّتك خُراسان»، فجعل المفضّل يستحثّ يزيد، فقال له يزيد: «إنّ الحجّاج لا يُقرُّك بعدي - وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه، وستعلم»[5].

وقيل: إنّ الحجّاج لم يكن له حين فَرَغَ من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث هَمٌّ إلّا يزيد بن المهلّب وأهل بيته، وقد كان الحجّاج أذلّ أهل العراق كلّهم إلّا يزيد وأهل بيته ومَنْ معهم من أهل المِصْرَين:

---

(١) الطبري (٦/ ٣٩٣ - ٣٩٤) وابن الأثير (٤/ ٥٠٢ - ٥٠٣).

(٢) هو الخيار بن أبي سَبْرَة بن ذُؤيب بن عَرْفَجَة بن محمد بن سُفيان بن مُجاشع.

(٣) الطبري (٦/ ٣٩٥).

(٤) الطبري (٦/ ٣٩٦) وابن الأثر (٤/ ٥٠٤ - ٥٠٥).

(٥) الطبري (٦/ ٣٩٥) وابن الأثير (٤/ ٥٠٣).

البصرة والكوفة ـ بخُراسان، ولم يكن يتخوّف بعد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالعراق غير يزيد بن المهلّب ـ فأخذ الحجّاج في مواربة يزيد ليستخرجه من خُراسان، فكان يبعث إليه ليأتيه، فيعتلّ عليه بالعدو وحَرْب خُراسان[1].

وقد ذكرنا أن الحجّاج كان يأخذ على يزيد تحيّزه لقومه على حساب قوم الحجّاج، أي يتحيّز للقحطانيين على حساب العدنانيين، أو أهل اليمن على قيس، حتى قال عبد الله بن عامِر قبيل تنفيذ حكم الإعدام به بوقت قصير: «لا رأت عيناكَ يا حجّاج الجنة إن أقلْتَ ابن المهلّب بما صَنَعَ»، قال: «وما صَنَعَ؟»، قال:

لأنــه كــاسَ فــي إطْــلاقِ أُسْــرَتــهِ ... وقــادَ نَـحـوَكَ فـي أَغْـلالِـهـا مُـضَـراً

وَقَـى بـقـومِـكَ وردَ الـمـوتِ أُسْـرَتَـهُ ... وكـان قـومُـكَ أدنـى عـنـدَه خَـطَـراً

فأطرق الحجّاج مَلِيّاً ووقرت في قلبه، وقال: «وما أنتَ وذاك! اضرب عنقَه»، فضربت عنقُه. ولم تزل في نفس الحجّاج حتى عزل يزيد عن خُراسان وحَبَسَه[2].

تلك هي مجمل الأسباب التي ذكرها المؤرخون في عزل الحجّاج ليزيد: سبب خرافيّ يرتكز على الرّجم بالغيب الذي هو في علم الله لا في علم البشر، وخوف الحجّاج من تمرّد يزيد عليه وعلى الدولة يستند على ما حققه يزيد من نجاح إدارياً وقائداً، وثقة يزيد العالية بنفسه فيرى أنه ندّ للحجّاج وليس آلة من آلاته يحرّكها حين يشاء كيف يشاء، ورغبة الحجّاج في إذلال الناس كافة ويزيد لا يمكن أن يذلّ لأحد لماضيه التليد وقابلياته المتميِّزة وإنتاجه الجديد، وتحيُّز يزيد لقومه وليس وحده يتحيز لليمانيين قومه فجميع القادة والأمراء تقريباً يعتمدون على قبائلهم ويتحيّزون لها ومنهم

---

(١) الطبري (٦/٣٩٦ ـ ٣٩٧).

(٢) الطبري (٦/ ٣٨٠) وابن الأثير (٤/٤٨٨).

الحجّاج الذي يتحيز لمُضَر كافة، والتحيز للقبيلة دعوة جاهلية حاربها الإسلام، فخبت حيناً ثم اندلعت بعد حين.

ولم تكن من تلك الأسباب عدم كفاية يزيد أو إخفاقه في مهمته إدارياً وقائداً، فإنّ أعماله في خُراسان مشهودة، كما كان الناس يحبونه حبّاً جمّا، فلما سار إلى الحجّاج مُتَخَلِياً عن ولاية خُرَاسان، كان لا يمرّ ببلد إلّا فرش أهله الرياحين[1] تكريماً ليزيد وتقديراً لخدماته وإظهاراً لحبهم وتقديريهم له، في وقت كان فيه قد تخلّى عن السلطة أو تخلّت عنه، والناس أكثرهم مع (الواقف) صاحب السلطة لامع الذي انحسرت عنه الأضواء.

وأعتقد أنّ الحجّاج عزل يزيد عن خُراسان لهذه الأسباب مجتمعة، بما فيها السبب الخرافي، فقد كان الحجّاج من الرجال الذي يصدِّقون مثل هذه الخرافات، كما كان يصدِّقها كثيراً من أنداده الذين عاصروه والذين جاءوا من بعده إلى اليوم[2]، وسيبقى غيره من عظماء الأمم يصدقونها غداً.

فقد نزل الحجّاج في حرب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (دير قُرَّة)[3]، ونزل ابن الأشعث (دير الجَمَاجِم)[4]، فكان الحجّاج يقول: «أما كان عبد الرحمن يزْجُر الطّير حيث رآني نزلتُ (ديرَ قُرَّة) ونزل (دير الجماجم)[5]!!

والأمثلة على تصديق الحجّاج للخرافات كثيرة، وهو ليس وحده من

---

(١) الطبري (٦/ ٣٩٦) وابن الأثير (٤/ ٥٠٥).

(٢) في مذكرات ونستن تشرشل، أنه كان في أيام الحرب العالمية الثانية إذا نزل القاهرة، استدعى أحدهم (الأسيوطي) ليسأله عما سيكون في المستقبل، بالنسبة له شخصياً وبالنسبة لأحداث الحرب!!

(٣) دير قرّة: دير بإزاء دير الجماجم، وهو ملاصق لطرف البر، ودير الجماجم مما يلي الكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٦٢).

(٤) دير الجماجم: دير بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها، على طرف البر السالك إلى البصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٣١ - ١٣٢).

(٥) الطبري (٦/ ٣٤٧) وابن الأثير (٤/ ٤٦٩).

بين العظماء الذين يصدّقون بالخرافات ـ فأمثاله كثير قديماً وحديثاً.

وقد كان الحجّاج من الذين يتّسمون بالمركزيّة المفرطة إلى أبعد الحدود، فكان يحبّ أن يأمر فيُطاع سواء كان أمره حقّاً أو باطلّا، ولا يقبل أبداً أن يُعطى أمرُه أو يُناقش أو لا يُنفّذ فوراً فراجَ في وقته ـ وبخاصة في أيام السّلام الولاة المتّبِعون، وانحسر في وقته الولاة المبتدعون، وكان يزيد من القادة المبتدعين الذين لهم رأيهم الخاص ومن الذين يستطيعون عند الحاجة أن يقول لمن يعمل بإِمرتهم بصراحة: «لا!».

وكان كلّ ذنب ـ يزيد، أنه ذا شخصية قويّة نافذة، وكان رجلّا وكفى، والحجّاج يفضّل أصحاب الشخصيات الهزيلة وأشباه الرجال، وكان الخاسر الوحيد في عزل يزيد هي: خُراسان ومَن كان يعيش في خُراسان من الناس، والمصلحة العامة خاصة عل كلّ حال!

وقبل أن يغادر يزيد خُراسان، استشار حُضَيْنَ بن المُنْذِر الرَّقاشِيّ فقال له: «أَقِمْ واعْتَلْ واكتب إلى أمير المؤمنين ليُقرَّكَ، فإِنه حسن الحال والرأي فيك»، قال: «نحن أهل بيتٍ قد بورك لنا في الطّاعة، وأنا أكره الخِلاف».

وقال يزيد لأهل بيته لمّا بلغه عزلُه: «مَنْ تَرَوْنَ الحجّاج يولّي خُراسان؟»، قالوا: رجلّا من ثَقِيْف. قال: «كلا، ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعهده، فإِذا قدمت عليه عزله وولّى رجلّا من قَيْس، وأَخْلِقْ بقُتَيْبَة بن مُسْلِم»[1].

وأخذ يتجهز، ثم عاد إلى الحجّاج، فحبسه سنة ست وثمانين الهجرية[2] (٧٠٥م)، فلم يخسر منصبه الرفيع حسب بل دخل السجن ضريبة لكفايته المتميِّزة وشخصيته القويّة واعتداده برأيه وصونه لكرامته.

---

(١) ابن الأثير (٤/٥٠٣).

(٢) الطبري (٦/٤٢٦) وابن الأثير (٤/٥٢٤).

ب ـ في السِّجن:

قضى يزيد من سنة ست وثمانين الهجرية إلى سنة تسعين الهجرية (٧٠٨م) في سجن الحجّاج.

وحبسه الحجّاج، لأنّ الناس قد فُتُنوا به، فخشي الحجّاج أن يقودهم إلى الفتنة، فيزعزع أركان الحجّاج والدولة.

ولو اقتصر الأمر على خوف الحجّاج من شعبية يزيد الطاغية التي تحفِّزه على الثورة ضد الدولة، لاقتصر الحجّاج على حبسه، ولكنّ الحجّاج حبس يزيد وعذّبه، وسبب تعذيبه هو مطالبته بأموال المسلمين التي استأثر بها لنفسه وآل بيته وأصحابه وأعوانه ومنْ يلوذ به دون سائر المسلمين.

فقد أغرمه الحجّاج ستّة آلاف درهم[١]، فلما لم يدفع غرامته، أمر الحجّاج بتعذيبه ليؤدي الذي عليه جبراً، بعد أن امتنع عن أداء الذي عليه مختاراً.

وكان يزيد يصبر صبراً حسناً على العذاب، وكان ذلك ممّا يغيظ الحجّاج منه[٢]، الذى كان يأخذ يزيد بسوء العذاب. وسأل الحجّاجَ يوماً أن يخفِّف عنه العذاب على أن يدفع له كلّ يوم مئة ألف درهم، فإن أدّاها وإلّا عذّبه إلى اللّيل. وجمع يوماً مئة ألف درهم ليشتري بها عذابه في يومه، فدخل عليه الأخطل الشاعر، فقال[٣]:

أبا خالد بادَتْ خُراسان بَعدَكُمْ	وصاحَ ذوو الحاجات أين يزيد؟
فلا مُطِرَ المَرْوانِ[٤] بَعْدَكَ مَطْرَةً	ولا اخْضَرَّ بالمَرْوَين بَعْدَكَ عُوْدُ
فما لسَرِيْرِ المُلْكِ بَعْدَكَ بَهْجَةٌ	ولا لجوادٍ بعد جودك جُوْدُ

---

(١) الطبري (٦/٤٤٨) وابن الأثير (٤/٥٤٥) ووفيات الأعيان (٥/٣٣٤).

(٢) الطبري (٦/٤٤٨) وابن الأثير (٤/٥٤٥).

(٣) ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخه، والمشهور أن صاحب هذه الواقعة وهذه الأبيات هو الفرزدق، وهذه الأبيات في ديوان زياد الأعجم، انظر وفيات الأعيان (٥/٣٢٣).

(٤) المروان والمروين: مرو الروذ ومرو الشاهجان، تثنية مرو.

فأعطاه يزيد مئة الألف، فبلغ ذلك الحجّاج، فدعا به، وقال: «يا مَرْوَزي[1]! أفيك هذا الكرم وأنت بهذه الحالة؟! قد وهبت لك عذاب اليوم وما بعده»[2].

ودخل على يزيد الفرزدقُ في الحبس فقال:

أَصْبَحَ في قَيْدِكَ السَّمَاحَةُ والجودُ ... وحَمْلُ الدِّياتِ والأفضال

فقال له يزيد: «أتمدحني وأنا على هذه الحال؟!»، قال: «أصبتُكَ رخيصاً فاشتريتك»[3].

ومضت السّنون عجافاً ثقيلة طويلة الأيام، حتى جاءت سنة تسعين الهجرية، ويزيد وقسم من إخوته في سجن الحجّاج، يثقلهم القيد ويلهبهم التعذيب.

وخرج الحجّاج إلى (رُسْتَقاباذ)[4] في حملة تأديبية للأكراد الذين غلبوا على إقليم (فارِس)، وخرج معه يزيد وإخوته عبد الملك والمُفضَّل في عسكره لا مقاتلين. بل مسجونين ومن الواضح أنّ إخراج أبناء المهلّب المسجونين هو لخوف الحجّاج من فرارهم من السِّجن، فأراد أن يكونوا معه في الحملة ليُشرف على حراستهم شخصياً ويحول دون فرارهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وجعل الحجّاج على يزيد وأخويه كهيئة الخندق، وجعلهم في فُسطاط قريب منه، ليشدِّد عليهم رقابته الصّارمة، وأخذ يعذبهم ويزيد صابر

(١) مروزي: نسبة إلى مدينة مرو حاضرة خراسان.

(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٣).

(٣) ديوان الفرزدق (٢/ ٣١٤) والشعر والشعراء (١/ ٣٥٠)، وورد البيت في عيون الأخبار (١/ ٨٢):

أصبحَ في قيدك السماحةُ والجود ... وحملٌ لمضلِع الأثقال

(٤) رستقاباذ: موقع من أرض (دَسْتُوا)، وجاءت في معجم البلدان (٤/ ٢٤٩): رُسْتَقُباذ، ورستوا: بلدة بفارس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٥٩ ـ ٦٠).

محتسب، فقيل للحجّاج: إنّ يزيد رُمي بساقه بنشّابة فثبت نصلُها فيه فهو لا يمسّها إلّا صاح، فأمر الحجّاج أن يُعذّب في ساقه، فلما فعلوا به ذلك صاح، وأختُه هند بنت المهلّب عند الحجاج، فلما سمعت صوته صاحت وناحت، فطلّقها الحجّاج!!

ثمّ إن الحجّاج كفّ عن تعذيب يزيد وإخوته، وأقبل يستأديهم المال الذي بذمّتهم، وهم يعملون في التخلّص من سجنهم، فبعثوا إلى مَرْوان بن المهلّب وهو بالبَصرَة، يأمرونه أن يُضَمِّر لهم الخيل، ويُري الناسَ أنه إنّما يريد بَيْعَها، ويَعْرِضها على البيع، ويُغلي بها لئلا تُشْتَرَى، لتكون لهم عُدَّة إن هم قدروا على النجاة بأنفسهم من السِّجن، ففعل ذلك مَرْوان، وكان حَبيب بالبصرة يُعذّب أيضاً.

وأمر يزيد أن يُصنع للحرس طعام كثير، وأمر لهم بشراب، فأكلوا وسُقوا، فكانوا متشاغلين به.

ولبس يزيد ثياب طبَّاخة، ووضع على لحيته لحيةً بيضاء، وخرج فرآه بعض الحرس فقال: «كأنّ هذه مِشْيَة يزيد!» وجاء الحارس حتى استعرض وجهه ليلًا، فرأى بياض اللِّحية، فانصرف عنه قائلًا: «هذا شيخ!».

وخرج المُفضَّل على أثره، فلم يُفْطَن له.

وجاءوا إلى سُفنهم، وقد هيّئوها في (البَطائح)[1]، وبينهم وبين البصرة ثمانية عشر فَرْسخاً، فلما انتهوا إلى السُّفن أبطأ عليهم عبد الملك وشُغِلَ عنهم، فقال يزيد للمُفَضَّل: «اركبْ بنا فإنه لاحق»، فقال المفضّل - وعبد الملك أخوه لأمه - وهي بَهْلة، هنديّة: «لا والله، لا أبرَح حتى يجيء ولو رجعتُ إلى السِّجن».

وأقام يزيد حتى جاءهم عبد الملك بن المهلّب، فركبوا عند ذلك

---

(١) البطائح: أرض واسعة بين واسط والبصرة، وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢١٥) و(٢/ ٢٢٢ - ٢٢٣).

السُّفن، فساروا ليلتهم حتى أصبحوا. ولما أصبح الحرسُ علموا بهرب يزيد وأخويه، فرُفع ذلك إلى الحجّاج.

وقال الفرزدق في هرب يزيد ومَنْ معه[1]:

فلم أرَ كالرَّهْطِ الذين تتابَعوا ... على الجِذْع والحرّاس غيرُ نيامِ
مَضَوا وهُمْ مُسْتَيْقِنون بأنَّهم ... إلى قَدَرٍ آجالُهُمْ وحِمَامِ
وإنْ منهمُ[2] إلّا يُسَكِّن جَأْشَهُ ... بِغَضْبٍ صَقِيل صارم وحُسَامِ
فلما التقَوْا لم يلتقوا بِمُنَفَّهٍ[3] ... كبيرٍ ولا رَخْصَ العظام غلام
بمثلِ أبيهم حين تمّت لِدَاتُهُمْ ... لخمسين قُلْ في جُرأةٍ وتمام

وفزع الحجّاج فزعاً عظيماً لهرب يزيد وصحبه من سجنه، وهو الذي بالغ كثيراً في حراستهم، وذهب وهمه أنهم ذهبوا قِبَل خُراسان، فبعث البريد إلى قُتَيْبَة بن مُسْلِم يحذِّره قدومَهم ويأمره أن يستعدّ لهم، وبعث إلى الوليد بن عبد الملك كتاباً يخبره فيه بهربهم، وبعث إلى أمراء الثغور والكُوَر أن يرصدوهم ويستعدّوا لهم.

ولما دنا يزيد من (البطائح) من (مَوْقوع)[4] استقبلته الخيل قد هُيِّئَتْ له ولإخوته، فخرجوا عليها ومعهم دليل من بني كَلْب، فأخذ بهم على (السَّمَاوَة)[5].

وجاء مَنْ يُخبر الحجّاج بعد يومين من هرب يزيد بأنّه أخذ طريق الشّام على طريق السَّمَاوة، فبعث إلى الوليد بن عبد الملك يُعْلِمُه.

ومضى يزيد حتى قَدم فِلَسْطِينْ، فنزل على وُهَيْب بن عبد الرحمن

---

(١) ديوان الفرزدق (٨١٦ ـ ٨١٧).

(٢) في ديوان الفرزدق: وما منهم.

(٣) منفّه: الضعيف من العلّة.

(٤) موقوع: ماء بناحية البصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٠٠).

(٥) السَّمَاوة: ماء بالبادية، وبادية السّماوة: هي البادية التي بين الكوفة والشّام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٢٠).

الأَزْدِيّ - وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك الذي كان يومذاك وليّاً للعهد - وأنزل بعض ثَقَله. وأهله على سُفيان بن سليمان الأَزْدِيّ.

وجاء وُهَيْب بن عبد الرحمن الأَزْدِي حتى دخل على سليمان بن عبد الملك، فقال: «هذا يزيد بن المهلّب وإخوته في منزلي، وقد أتوك هُرّاباً من الحجّاج مُتَعَوِّذين بك»، قال: «فأتِني بهم، فهم آمِنون لا يُوْصَل إليهم أبداً وأنا حيّ!»، فجاء بهم حتى أدخَلَهم عليه، فكانوا في مكان آمن.

وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك: «إنّ آل المهلّب خانوا أمان الله وهربوا مني ولحقوا بسليمان».

وكان الوليد قد حذرهم وظنّ أنهم يأتون خُراسان للفتنة بها، فلما علم أنهم عند أخيه سليمان سكنَ بعض ما به وطار غضباً للمال الذي ذَهَبوا به.

وكتب سليمان إلى الوليد: «إنّ يزيد بن المهلّب عندي وقد آمنته. وإنما عليه ثلاثة آلاف ألف، كان الحجّاج أغرَمَهم ستة آلاف ألف. فأدَّوْا ثلاثة آلاف ألف، وبقي ثلاثة آلاف ألف، فهي عليّ».

فكتب الوليد إلى سليمان: «لا والله، لا أُؤَمِّنه حتى تبعث به إليّ»، فكتب إليه: «لئن أنا بعثتُ به إليك لأجيئنّ معه، فأنشدُك اللَّهَ أن تفضحني ولا أن تخفِرني»، فكتب إليه: «واللَّهِ لئن جئتَني لا أُؤَمِّنه».

وقال يزيد حين رأى تصاعد حدّة الرسائل والخلاف بين الوليد وسليمان: «أرسِلْني إليه، فواللَّهِ ما أُحبُّ أن أُوقع بينه وبينك عداوةً ولا أن يتشأمّ الناس بي لكما، واكتب معي بألطف ما قدرتَ عليه».

وكتب سليمان إلى الوليد: «لعبد الله الوليد أمير المؤمنين، من سليمان بن عبد الملك. أما بَعْدُ يا أميرَ المؤمنين! فوالله إن كنت لأظنّ لو استجار بي عدوٌّ قد نَابَذَكَ وجاهَدَكَ فأنزلتُه وأَجَرْتُه أنك لا تُذلّ جاري، ولا تُخْفِر جواري، بلْهِ لم أَجِرْ إلّا سامعاً مطيعاً حَسَنَ البلاء والأثرَ في الإِسلام هو وأبوه وأهل بيته؛ وقد بعثت به إليك، فإن كنتَ إنما تَغزو قطيعَتي

والإخفار لذمّتي والإبلاغ في مساءتي، فقد قدرتَ إن أنتَ فعلت. وأنا أعيذُك بالله من احتراد[1] قطيعتي، وانتهاكِ حُرْمتي وتركِ بِرّي وصِلَتي، فوالله يا أمير المؤمنين ما تَدْرِي ما بقائي وبقاؤك، ولا متى يُفَرِّق الموتُ بيني وبينَك! فإن استطاع أميرُ المؤمنين أدام اللّهُ سرورَه ألّا يأتي علينا أجلُ الوفاة إلّا وهو لي واصل، ولحقّي مُؤَدٍ، ومن مساءتي نازع، فَلْيَفْعَلْ! والله يا أميرَ المؤمنين، ما أصبحتُ بشيءٍ من أمر الدنيا بعد تَقْوى الله فيها بأَسَرَّ مني برضاك وسرورك، وإنّ رضاكَ مما ألتمسُ به رضوانَ الله، فإنْ كنتَ يا أميرَ المؤمنين تريد يوماً من الدّهر مَسَرَّتي وصِلَتي وكَرَامَتي وإعظامَ حقي فتجاوز لي عن يزيدَ، وكلّ ما طلَبْته به فهو عليَّ».

وأرسل سليمانُ يزيدَ إلى الوليد، وأرسل معه ابنَه أيّوب، وكان الوليد قد أمره أن يبعث به مُقَيَّداً، فقال سليمان لابنه: «إذا دخلتَ على أمير المؤمنين، فادخلْ أنت ويزيد في سلسلة»، ففعل ذلك.

ولما رأى الوليد ابنَ أخيه في سلسلة قال: «لقد بلغنا من سليمان».

ودفع أيّوب كتاب أبيه إلى عمِّه وقال له: «يا أمير المؤمنين! نفسي فداؤك، لا تُخْفر ذِمّة أبي، وأنت أحقّ مَنْ مَنَعَها، ولا تقطع منا رجاء مَنْ رجا السَّلامة في جوارنا لمكاننا منكَ، ولا تُذِلّ مَنْ رجا العزّ في الانقطاع إلينا لعزِّنا بك».

فلما قرأ الوليد كتاب سليمان قال: «لقد شققنا على سليمان».

وتكلّم يزيد، فَحَمِدَ اللّهَ وأثنى عليه وصلّى على نبيِّه صلّى الله عليه وآله وسلّم، ثم قال: «يا أمير المؤمنين! إنّ بلاءكم عندنا أحسنُ البَلاء، فمن يَنْسَى ذلك فلَسنا ناسيه، ومَنْ يَكفُر فلَسنا كافريه. وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطّعن في أعين أعدائكم في المواطِن العِظام في المَشَارق والمغَارِب ما إنّ المِنَّة علينا فيها عظيمة». فقال الوليد ليزيد: «اجلس»، فجلس، فآمَنَهُ، فرجع يزيد إلى سليمان.

---

(١) الاحتراد: من الحرد، وهو القصد، وفي وفيات الأعيان (٥/٣٣٦): اختيار.

وكتب الوليد إلى الحجّاج: «إني لم أصِلْ إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان، فاكفُفْ عنهم»، فكفّ الحجّاج عنهم.

وكان أبو عُيَيْنَة بن المهلّب عند الحجّاج عليه ألف ألف، فتركها وكفّ عن حبيب بن المهلّب.

وأقام يزيد بن المهلّب عند سليمان يهدي له الهدايا ويصنع له الأطعمة، وكان لا يأتي يزيدَ هديّة إلّا بعث بها إلى سليمان، ولا يأتي سليمانَ هديّةٌ إلّا بعث بنصفها إلى يزيد، وكان لا تعجبه جارية إلّا بعث بها إلى يزيد[1].

إنّ قصة هرب يزيد وإخوته من سجن الحجّاج، ملحمة من الملاحم التي إن دلّت على شيءٍ، فإنما تدلّ على شجاعته الفائقة وتغلغل روح المغامرة فيه، إذ ليس من السّهل على أي إنسان أن يهرب من سجن الحجّاج، لأنّ عقوبته التي لا يتردّد الحجّاج في تنفيذها ويحاذر انتقاضه، مما جعل الحجّاج يبالغ أشدّ المبالغة في تشديد الحراسة على يزيد في سجنه واختيار الحرّاس الموثوق بهم لحراسته، ونقل يزيد من سجنه إلى حيث يسير الحجّاج في السّلم والحرب ليبقى تحت إشرافه المباشر، ومع كلِّ هذه الحيطة وهذا الحذر، هرب يزيد غير مكترث بالعواقب ولا هيّاب لنتائج الهرب، مع علمه بعواقب عمله ونتائجه دون شك.

لقد كان شجاعاً حقاً، جريئاً في شجاعته، مغامراً في جُرأته، لا يخاف أحداً ولا يخشى شيئاً، غير خالق الناس والأشياء.

وهذه الملحمة قصة واقعية تمثّل كثيراً من المزايا العربية العريقة: الشجاعة، والإقدام، والجرأة، وحب المغامرة، واجتياز الصحراء الشاسعة، والوفاء، والدفاع عن المستجير، وتقاليد الجار، والكرم والجود، والمروءة.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٤٤٨ ـ ٤٥٣) وابن الأثير (٤/٥٤٥ ـ ٥٤٧) وانظر وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٢) و(٥/ ٣٣١ ـ ٣٣٦).

جـ - في السُّلْطة ثانية:

مات الحجّاج بن يوسف الثقفي في سنة خمس وتسعين الهجريّة[1] (٧١٣م)، ومات الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة ست وتسعين الهجرية[2] (٧١٤م)، فتولّى الخلافة سليمان بن عبد الملك بعد وفاة أخيه الوليد، فأقبل الخير على يزيد بن المهلب واليُسر، وزال عنه الشّر والعُسر، إذ تولّى الخلافة صديقه الصَّدوق الذي كان لا يطيع في يزيد أحداً[3] يريده بشر حتى ولو كان الخليفة المتوج بالذّات.

وبادر سليمان بن عبد الملك في هذه السنة إلى عزل يزيد بن أبي مُسْلم[3] عن العراق، واستعمل يزيد بن المهلّب على العراق، وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخَراج، وأمره أن يَقْتل آل أبي عَقِيْل ويبسط عليهم العذاب، فقدم صالحُ العراقَ على الخراج ويزيدُعلى الحرب، فبعث يزيد أخاه زياد بن المهلّب على (عُمَان)، وأمره أن يكاتبَ صالحاً وأن يبدأ باسمه، فأخذ صالح آل أبي عَقِيْل - وهم قوم الحجّاج - فكان يعذّبهم، وكان يلي عذابهم عبد الملك بن المهلّب[4].

وكان الوليد قد عزم على خلع أخيه سليمان عن ولاية العهد، ويجعل وليّ عهده ولده عبد العزيز بن الوليد، وتابعه على ذلك الحجّاج وقُتَيْبَة بن مُسْلم الباهِلي[5]، لهذا انتقم منهما سليمان بعد توليه الخلافة.

وكان قتيبة قد خاف سليمان وخاف أن يولّي يزيد بن المهلّب خُراسان، فكتب قتيبة إلى سليمان كتاباً يُهنّئه بالخلافة ويذكر بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه له على مثل ذلك إنّ لم يعزله عن خُراسان، وكتب

---

(١) الطبري (٦/ ٤٩٢) وابن الأثير (٤/ ٥٨٣) والعبر (١/ ١١٢).

(٢) الطبري (٦/ ٤٩٥) وابن الأثير (٥/ ٨) والعبر (١/ ١١٤).

(٣) انظر سيرته في وفيات الأعيان (٥/ ٣٥٣ - ٣٥٦).

(٤) الطبري (٦/ ٥٠٦) وابن الأثير (٥/ ١١) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٣٨).

(٥) الطبري (٦/ ٥٠٦ - ٥٠٧) وابن الأثير (٥/ ١٢) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٣٨).

إليه كتاباً آخر يُعْلِمه فيه فتوحَه ونكايته وعِظَمَ قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعِظَمَ صولته فيهم، ويذمّ آل المهلّب ويحلف بالله لئن استعمل يزيدَ على خُراسان ليخلعنّه. وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه، وبعث الكتب الثلاثة مع رجل من باهِلَة ـ قبيلة قتيبة ـ وقال له: «ادفع الكتابَ الأوّل إليه، فإن كان يزيد حاضراً فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثاني، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثالث، فإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحِبسْ الكتابين الآخَرَيْن».

وقدم رسول قتيبة دمشق، فدخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلّب، فدفع إليه الكتابَ الأول، فقرأه وألقاه إلى يزيد، ودفع إليه الكتاب الآخر، فقرأة وألقاه إلى يزيد ودفع إليه الكتاب الآخر، فقرأه وألقاه إلى يزيد. وأعطاه الكتاب الثالث، فقرأه فتغيّر لونه وختمه وأمسكه بيده[1].

وقد قُتل قتيبة بن مُسْلِم الباهلي بعد ذلك كما هو معروف.

وقبل أن يرحل يزيد من دمشق إلى العراق، قدّر أن العراق قد أخربها الحجّاج، وأنه رجاء أهل العراق يتوقعون منه الخير الكثير، وأنّه متى قدِمَها وأخذ الناس بالخَرَاج وعذّبهم عليه صار مثل الحجّاج يدخل على الناس الحرب والشقاء، ويعيد عليهم تلك السجون والمعتقلات التي قد عافاهم الله منها، ومتى لم يأت سليمان بمثل ما جاء به الحجّاج لا يقبل منه ويحسبه مقصِّراً في أداء واجباته الإدارية.

ووجد يزيد مخرجاً لنفسه، فتنفّس الصّعداء!

وأتى سليمان فقال له: «أدلُّكَ على رجل بصيرٍ بالخراج توليه إياه، وهو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم»، فقبل سليمان مشورة يزيد.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٠٦ ـ ٥٠٨) وابن الأثير (٥/١٢) ووفيات الأعيان (٥/٣٣٨)، وانظر سيرة قتيبة بن مسلم الباهلي في هذا الكتاب.

وأقبل يزيد إلى العراق، وكان صالح قد قدِمَ العراق قبل قدوم يزيد ونزل مدينة (واسِط). ولما قدم يزيد خرج الناس يتلقّونه، ولم يخرج صالح حتى قرب من المدينة، فخرج إليه وبين يديه أربعمائة من أهل الشّام، فلقي يزيد وسايره، فلما دخل المدينة قال له صالح: «قد فرّغت لك هذه الدار»، فنزل يزيد، ومضى صالح إلى منزله.

وضيّق صالحٌ على يزيد، فلم يملّكه شيئاً ولم يمكّنه من شيء. واتّخذ يزيد ألف خوان يُطْعم الناسَ عليها، فأخذها صالح، فقال يزيد: «اكْتُبْ ثمنها عليّ». واشترى يزيد متاعاً وكتب صكّاً بثمنه إلى صالح، فلم يقبله صالح!

وضجر يزيد بالعراق، وكان سليمان ولّاه العراق، ولم يولّه خُراسان، وضيّق عليه صالح فلم يَصِل معه إلى شيء!

ودعا عبدَ الله بن الأهْتَم وقال له: «أنا فيما ترى من الضّيق، وقد ضجرت منه، وخُراسان شاغرة، فهل من حيلة؟».

واقترح ابن الأهتم على يزيد أن يسرِّحه إلى أمير المؤمنين ليسعى في ضمِّ خراسان إليه.

وسار ابن الأهتم إلى سليمان، فأقنعه أن يضم خُراسان إلى يزيد، فقال سليمان: «العراق أحبّ إليه من خُراسان»، فقال ابن الأهتم: «قد علمتُ، ولكن تُكرهه فيستخلف على العراق ويسير».

وكتب سليمان عهد يزيد إلى خراسان وسيّره مع ابن الأهتم، فأتى يزيدَ، فأمر بالجهاز للمسير ساعته، وقدّم ابنه مَخْلَداً إلى خُراسان من يومه، ثم سار يزيد بعده، واستخلف على واسِط الجرّاح بن عبد الله الحَكَميّ، واستعمل على البصرة عبد الله بن هِلال الكِلابيّ، وجعل أخاه مَرْوان بن المهلّب على حوائجه وأموره بالبصرة، وكان أوثق إخوته عنده، واستخلف بالكوفة حَرْمَلة بن عُمَيْر اللَّخْمِيّ أشهراً ثمّ عزله، وولّى بشير بن حيَّان النَّهْدِي.

وكانت قبائل قَيْس تزعم أنّ قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِليّ لم يَخْلَع سليمان بن عبد الملك، فلما سار يزيد إلى خُراسان أمره سليمان أن يسأل عن قتيبة، فإن أقامت قيسٌ البيِّنة أنّ قتيبة لم يَخْلع أن يقيِّد وَكِيْع بن حَسّان بن قَيْس بن أبي سُود التَّمِيْمِيّ قاتل قُتَيبة بن مُسْلِم به.

ولما وصل مَخْلَد بن يزيد بن المهلّب (مَرْو) أخذ وَكِيْعاً فحبسه وعذّبه وأخذ أصحابه وعذّبهم قبل قدوم أبيه، وكانت ولاية وَكِيعْ خُراسان تسعة أشهراً أو عشرة أشهر ثم قدم يزيد بن المهلّب خُراسان في هذا السنة، فأدنى أهل الشَّام وقوماً من أهل خُراسان، فقال عبد الملك بن سلام السَّلُوليّ يشكر يزيد نيابة عن الذين قرّبهم وأصالة عن نفسه:

ما زال سيْبُكَ يا يزيد بحوْبَتي	حتى ارتوَيتُ، وَجُوْدُكُمْ لا يُنْكَرُ
أنت الرّبيعُ إذا تكون خَصَاصةٌ	عاشَ السَّقيمُ به وعاش المُقْتِرُ
عَمّت سحابَتُهُ جميعَ بلادِكم	فَرَوَوْا وأغدقَهُم سَحَابٌ مُمْطِرُ
فسقاكَ ربّك حيثُ كنتَ مخيلةً	ريّاً سَحَائبُها تَروحُ وتُبكرُ

وقال نَهَار بن تَوْسِعَة يلوم يزيد أصالة عن نفسه ونيابة عن الذين لم يقرّبهم:

وما كنَّا نُؤمِّلُ من أميرٍ	كما كنَّا نُؤمِّل من يزيدِ
فأَخْطأَ ظَنُّنا فيه وقِدْماً	زَهِدْنا في معاشَرَةِ الزَّهيدِ
إذا لم يُعْطِنا نَصَفاً أميرٌ	مَشَيْنا نَحْوَهُ مِثْل الأُسُودِ
فمهلّا يا يَزِيدُ أَنِبْ إلينا	ودَعْنَا من مُعَاشَرةِ العبيدِ
نَجِيءُ فلا نَرىَ إلّا صُدوداً	على أنّا نُسَلِّم من بعيد
ونَرجعُ خائبيْن بلا نوالٍ	فما بالُ التَجُّهم والصُّدُودا[1]

ومن الواضح أنّ يزيد قرّب المخلصين للدولة الذين لم ينغمسوا في

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٥٢٣/٦ ـ ٥٢٩) وابن الأثير (٢٣/٥ ـ ٢٦) وانظر وفيات الأعيان (٣٣٨/٥ ـ ٣٤١) والمعارف (٣٦١) و (٤١٦).

الفتنة ولا لوّثوا أيديهم بالدماء، فأرضى قوماً وأسخط آخرين، ولم يكن يزيد في تقريبه مَنْ قرّب وإبعاده مَنْ أَبْعَد، إلّا رجل دولة يضع المصلحة العليا للدولة فوق كلِّ اعتبار.

لقد كان يزيد موضع ثقة سليمان الكاملة، فقد جمع له العِراقَيْن[1]، وامتّدت ولايته فشملت المشرق الإسلامي كلّه، يولى على أقاليمه مَن يشاء ويعزل مَنْ يشاء، فكان في عهد سليمان من ألمع أمراء الدولة وأقربهم إلى الخليفة.

ولم يقصِّر يزيد في النهوض بواجبه إدارياً في استعادة الأمن والاستقرار وجمع الصفوف وتوحيدها، وقائداً في استعادة الفتح كمامرّ بنا في الحديث عن فتوحه، ولكن أيام عرسه انقضت بسرعة بموت سليمان، فذهب يُسره وأقبلت عليه ثانية أيام العسر.

د ـ في الحَبْس ثانيةً:

كان ليزيد سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) نشاط عسكري لامع في جُرْجان وطَبَرِستان.

وفي سنة تسع وتسعين الهجرّية (٧١٧م) تُوفي سليمان بن عبد الملك[2]، فخلفه عمر بن عبد العزيز بن مَرْوان رضي الله عنه.

وكان يزيد قد كتب إلى سليمان بن عبد الملك يبشِّره باستعادة فتح جُرْجان وَطَبرستان ويذكر له: «وقد صار عندي من خُمس ما أفاءَ اللّهُ على المسلمين بعد أن صار إلى كلِّ حقٍ حقّه، من الفَيْءِ والغنيمة ستة آلاف ألف درهم، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله»، فنصحه كاتبه ألّا يكتب بتسمية المال حتى لا يُسَجَّل في السجلّات، فإذا وليَ خليفة بعد سليمان طالب به، وإن ولي مَنْ يتحامل عليه لم يَرْض بأضعافه، ولكن يزيد رفض النصيحة وأمضى الكتاب[3].

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣١٧).

(٢) الطبري (٦/ ٥٤٦) وابن الأثير (٥/ ٣٧) والعبر (١/ ١١٨).

(٣) الطبري (٦/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥).

وبادر عمر بن عبد العزيز إلى عزل يزيد عن العراق وخُراسان، ووجّه على البَصْرة القُرَشِيّ من بني عَدِيّ بن كَعْب[1] رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قُرَيش.

وكتب عمر بن عبد العزيز سنة مئة الهجرية (٧١٧م) إلى عَدِيّ بن أرْطَاة أمير البصرة يأمره بإنفاذ يزيد بن المهلّب موثقاً، وكان عمر قد كتب إلى يزيد أن يستخلف على عمله ويُقْبِل إليه، فاستخلف يزيد ابنه مَخْلَداً وقدِم من (خُراسان) حتى نزل مدينة (واسِط)، ثمّ ركبَ السُّفن يريد البصرة، فبعث عَدِيّ بن أرطَاة موسى بن الوَجيْه الحِمْيَرِيّ، فلحقه في نهر (مَعقَل) عند الجسر بالقرب من البصرة، فأوثقه وبعثه به إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق[2].

ولم يكن عمر ممّن يرضى بأنصاف الحلول أو يقنع بغير الحق، فدعا يزيد وسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان، فاعتذر: بأنه كتب ماكتب إلى سليمان ليسمِّع الناس به، وسليمان لا يأخذه بما كتب، والواقع أنّ ماكتب فيه مبالغة! ولكنّ عمر أصرّ على أن يدفع يزيد المال إلى بيت مال المسلمين أو يعود إلى محبسه.

ولم ينفع ما بذله مَخْلَد ابنه من جهد عند عمر بن عبد العزيز لإنقاذ أبيه يزيد من الحبس، كما لم يَنفع يزيدَ ما بذله أصدقاؤه وأحباؤه في إنقاذه من الحبس، فقد كان قرارعمر بن عبد العزيز نهائياً، فإما المال كاملاً، وإما السجن، ولا ثالث لهذين المسلكين.

لقد نُصِح يزيد بألّا يسجِّل على نفسه في كتابه إلى سليمان هذا المبلغ الضخم من المال، فلم ينتصح، فعانى ما عانى في السجن، وتحمل ما تحمل في الهرب من السجن، ودفع حياته ثمناً في حرب عقيمة في النهاية.

---

(١) الطبري (٦/ ٥٥٤) وابن الأثير (٥/ ٤٣) وانظر وفيات الأعيان (٥/ ٣٤١).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٥٦ - ٥٥٧) وابن الأثير (٥/ ٥٨ - ٥٩).

٢ ـ الجواد:

كان يزيد يحبّ هذا المال حبّاً جمّاً، ولكن لم يكن يكتنزه لنفسه، بل يجود به على الناس نقداً وطعاماً وشراباً وثياباً وهدايا، فمن المعروف أنه لم يشيِّد له داراً يأوي إليها. واقتناء الدار للسكنىٰ من أهم ما يحرص عليه الناس جميعاً، فله الأسبقية بالنسبة للذين يحبّون جمع المال، وهو السبيل الأول لإنفاق المال.

ولو كان يزيد يحبّ المال من أجل المال، لا من أجل الجود به، لكان له دار يرتاح بها ويُريح، ولكنه حرم نفسه حتى من متعة اقتناء الدار.

قيل ليزيد: مالَكَ لا تبني؟! قال: «منزلي دار الإمارة أو الحَبْس»[١]. وقيل له: لِمَ لا تبني بالبصرة داراً؟! فقال: «لأني لا أدخلها إلّا أميراً أو أسيراً، فإن كنتُ أسيراً فالسجن داري، وإن كنتُ أميراً فدار الإمارة داري»[٢]. وقال بعض جلساء يزيد له: لِمَ لا تتّخذ لك داراً؟! فقال: «وما أصنع بها، ولي دار حاصلة مُجَهَّزة على الدّوام؟»، فقال له: وأين هي؟! فقال: «إنْ كنتُ متولِّياً فدار الإمارة، وإن كنتُ معزولًا، فالسِّجن»[٣].

لقد كان يزيد يحبّ ثناء الناس عليه، والكرم هو الذي يطلق الألسنة بالثناء من عقالها، وينطق الذين دأبوا على السكوت قال يزيد يوماً: «والله لَلْحَياةُ أحبّ من الموت والثناء الحسن أحبّ إليّ من الحياة، ولو أني أُعطيتُ ما لم يُعْطَهُ أحدٌ لأحببتُ أن يكون لي أُذن أسمع بها غداً ما يُقال فِيّ إذا أنا مِتّ»[٤].

ويبدو أنه لم يكن يحبّ السّلطة إلّا من أجل أن تعينه على جمع المال والجود به على الناس، فكان ينتقل من الأوج أميراً إلى السجن أسيراً لمحاسبته على المال الذي أنفقه على الناس.

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٢٣٦) والعقد الفريد (٦/ ٢٢٣).
(٢) عيون الأخبار (١/ ٣١٢).
(٣) وفيات الأعيان (٥/ ٣٣٧).
(٤) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٥).

وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يكن في دولة بني أُميّة أكرم من بني المهلّب، كما لم يكن في دولة بني العَباس أكرم من البرامكة[1]، وكان يزيد بلا مراء أكرم بني المهلّب على الإطلاق.

اتّخذ يزيد ألف خوان يُطعِم النّاس عليها[2] كلّ يوم. ومرّ في طريق البصرة بأعرابيّة فأهدت إليه عَنْزاً، فقبلها وقال لابنه معاوية: «ما عندكَ من نفقةٍ؟»، قال: «ثمانمائة درهم»، قال: «ادفعها إليها»، قال: «إنها لا تَعْرِفُك ويرضيها اليسير»، قال: «إن كانت لا تَعْرفني، فأنا أعرف نفسي، وإن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أرضى إلّا بالكثير»[3].

وقدم على يزيد وفدٌ من قُضَاعة، فقال رجل منهم:

والـلّـهِ مـا نَـدْري إذا مـا فـاتَـنَـا ... طَـلَـبٌ إلـيـكَ مَـنْ الـذي نَـتَـطَـلَّـبُ

ولـقـد ضَـرَبـنـا فـي الـبـلاد فـلـم نَـجِـدْ ... أحـداً سـواكَ إلـى الـمـكـارِمِ يُـنْـسَـبُ

فـاصْـبِـرْ لـعـادَتِـنـا الـتـي عَـوَّدْتَـنَـا ... أولا فَـأَرْشِـدْنـا إلـى مَـنْ نَـذْهَـبُ

فأمر له يزيد بألف دينار، فلما كان في العام المقبل وفد عليه فقال:

مـا لـي أرى أبـوابَـهـم مَـهْـجُـورَةً ... وكـأنّ بـابَـك مـجْـمَـعُ الأسـواقِ[4]

حـابـوكَ أم هـابـوكَ أم شـامـوا الـنّـدى ... بـيـدَيـكَ فـاجـتـمـعـوا مـن الآفـاقِ

إنـي رأيـتـك لـلـمـكـارم عـاشـقـاً ... والـمـكْـرُمـات قـلـيـلـة الـعُـشّـاقِ

---

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٦).

(٢) الطبري (٦/ ٥٢٤) وابن الأثير (٥/ ٢٣).

(٣) العقد الفريد (١/ ٣٠٦).

(٤) مكان هذا الشعر في الأمالي:

يُـرَبُّ الـذي يـأتـي مـن الـخـيـر إنـه ... إذا فـعـل الـمـعـروف زاد وتـمّـمـا

ولـيـس كـبـانٍ حـيـن تَـمّ بـنـاؤه ... تـتـبّـعـه بـالـنـقـض حـتـى تـهـدّمـا

فأعطاه ألفي دينار، ثم أتاه في العام الثالث فقال:

إذا استـمـطـروا كـانـوا مـعـازيـر فـي الـنـدى ... يـجـودون بـالـمـعـروف عَـوْداً عـلـى بـدء

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، نقلًا من العقد الفريد (١/ ٣٠٥).

فأمر له يزيد بعشرة آلاف درهم[1].

ولما هرب يزيد من الحجّاج قاصداً سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ بمدينة (الرَّمْلة) الفلسطينيّة، اجتاز في طريقه إلى أرض الشّام على أبيات للأعراب، فقال لغلامه: «اسْتَسْقِنا من هؤلاء لبناً»، فأتاه بلبن فشربه، فقال: «أعْطِهِمْ ألف درهم»، فقال الغلام: «إنّ هؤلاء لا يعرفونك»، قال: «لكني أعرف نفسي! أعْطِهم ألف درهم»، فأعطاهم.

وحجّ يزيد، فطلب حلّاقاً، فجاء وحلق رأسه، فأمر له بألف ردهم، فتحيّر الحلّاق ودَهش، فقال: «بهذه الألف أمضي إلى أُميّ فلانة فأشتريها»، فقال: «أعطوه ألفين آخرين».

وكان سعيد بن عمرو بن العاص مواخياً ليزيد، فلما كان في حبس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، منع عمر النّاس من الدخول إليه فأتاه سعيد وقال: «يا أمير المؤمنين! لي على يزيد خمسون ألف درهم، وقد حُلْتَ بيني وبينه، فإن رأيت أن تأذن لي فأقتضيه»، فأذن له، ودخل سعيد على يزيد، فَسُرّ به يزيد وقال: «كيف وصلتَ إليّ؟!»، فأخبره سعيد، فقال: «والله لا تخرج إلّا وهي معك»، فامتنع سعيد، فحلفَ يزيد ليقبضَنّها، فوجّه إلى منزله حتى حُمِل إلى سعيد خمسون ألف درهم.

وفي ذلك قال بعض الشّعراء:

فلم أرَ محبوساً من الناس ماجداً ... حباً زائراً في السِّجن غير يزيد
سعيد بن عمرو إذا أتاهُ أجازه ... بخمسين ألفاً عُجِّلت لسعيد[2]

وباعَ وكيل يزيد بطيخاً جاءه من بعض أملاكه بأربعين ألف درهم، فبلغ ذلك يزيد، فقال له يزيد: «تركتنا بقّالين! أما كان في عجائز الأزْد مَنْ تقسمه فيهنّ!!»، وغضب غضباً شديداً[3].

---

(١) العقد الفريد (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦).

(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٤) وعيون الأخبار (١/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤)، والشاعر الذي وصف كرم يزيد هو عَدِيّ بن الرِّقاع.

(٣) وفيّات الأعيان (٥/ ٣٢٥).

ومدحه عمر بن لجأ بشعرٍ فقال:

آل المهلَّب قوم إن نسبتهمُ كانوا المكارِم آباءً وأجدادا
كم حاسدٍ لهمُ يَعْيَا بفضلهُم وما دنا من مساعيهم ولا كادا
إنَّ العَرانِيْن تلقاها مُحَسَّدَةً ولا ترى للئام النّاس حُسّادا
لو قيل للمجدِ: حِدْ عنهمْ وخلِّهمُ بما احتكمتَ من الدنيا لما حادا
إنّ المكارمَ أرواحٌ يكون لها آل المهلّب دون الناس أجساداً[1]

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نُصَيْر: «أغرَم ديّتَك خمسين مرّة»، قال: «ليس عندي ما أغرم»، قال: «والله لتغرمَنَّ ديَّتك مئة مرّة»، فقال يزيد: «أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين»، قال: «اغرمْ!»، فغرمها عنه مئة ألف درهم[2].

واستعمل الوليد بن عبد الملك على المدينة المنوّرة عثمان بن حَيّان المُرِّي وأمره بالغِلْظَة على أهل الظِّنَّة، فلما استُخلف سليمان أخذه بألفي ألف درهم. واجتمعت القِيسيَّة في ذلك، فتحمّلوا شَطْرَها وضاقوا ذَرْعاً بالشَّطْر الثاني، ووافق ذلك استعمالُ سليمان على العراق يزيد، فقال عمر بن هُبَيْرَة: «عليكم بيزيد بن المُهَلَّب، فمالها أحد غيره». ورحلوا إلى يزيد وفيهم عمر بن هُبَيْرَة والقَعْقَاع بن حَبيب والهُذَيْل بن زِفَر بن الحارث حتى انتهوا إلى رُواق يزيد. قال يحيى بن أَقْتَل - وكان حاجباً ليزيد، وكان رجلًا من الأزْد: فاستأذنتُ لهم، فخرج يزيد إلى الرُّواق، فَقَرّبَ ورحَّب، ثم دعا بالغداء، فأُتُوا بطعام ما أنكروا منه أكثرُ مما عَرفوا، فلما تغدَّوْا تكلّم عثمان بن حَيّان وكان لسِناً مُفوّهاً وقال: «زادك اللَّهُ في توفيقك أيّها الأمير! إنّ الوليد بن عبد الملك وجهّني إلى المدينة عاملًا عليها، وأمرني بالغِلْظَة على أهل الظِّنة. . . . . . . وإنّ سليمان أغرمني غُرماً واللَّهِ ما يَسعه مالي ولا تحمله طاقتي، فأتيناكَ لتَحمِلَ من هذا المال ما خفّ عليك، وما بقي والله ثقيل عليّ». وتكلّم كل مَنْ حضر بما حضرهُ. فقال يزيد: «مَرْحباً بكم

(١) وفيّات الأعيان (٥/ ٣٢٥).
(٢) العقد الفريد (١/ ٣٠٣).

وأهلًا إن خير المال ما قُضِيتَ فيه الحقوق وحملت به المغارم وإنما لي من المال ما فضل عن إخواني. وايم الله، لو علمت أنّ أحداً أملأ بحاجتكم مني لهديتكم إليه، فاحتكموا وأكثروا!» فقال عثمان بن حَيّان: «النِّصْف، أصلح الله الأمير!» قال: «نَعَم، وكرامة، اغدوا على مالكم فخذوه»، فشكروا له وقاموا وخرجوا. فلما صاروا على باب السُّرادق، قال عمر بن هُبَيْرَة: «قَبَّحَ الله رأيكم! واللَّهِ ما يُبالي يزيد أَنِصْفَها تحمَّل أم كلَّها فمن لكم بالنِّصف الباقي!؟» قال القوم: «هذا والله لرأي». وسمع يزيد مناجاتهم، فقال لحاجبه: «انظر يا يحيى، إنْ كان بَقي على القوم شيء فليرجعوا»، فرجعوا إليه، وقالوا: «أَقِلْنَا!» قال: «قد فعلتُ» قالوا: «إن رأيتَ أن تحملَها كلّها فأنت أهلُها، وإن أبيتَ فما لها أحد غيرك». قال: «قد فعلتُ». وغدا يزيد إلى سليمان بن عبد الملك فقال: «يا أمير المؤمنين! أتاني عثمان بن حَيَّان وأصحابه»، قال: «أَمْسِكَ في المال؟» قال: «نعم». قال سليمان: «والله لآخذنّه منهم!» قال يزيد: «إني قد حملته!» قال: «فأَدِّهِ». قال يزيد: «والله ما حملته إلّا لأُؤديه»، ثم قال: «يا أمير المؤمنين! إنّ هذه الحَمالة وإن عظم خَطبها، فَحَمْدُها والله أعظم منها، ويَدِي مبسوطة بيدك، فابسُطها لسُؤَالها» ثم غدا يزيد بالمال إلى الخُزَّان فدفعه إليها، فدخلوا على سليمان فأخبروه بقبض المال، فقال: «وَفَتْ يمينُ سليمان، احملوا إلى أبي خالد ماله». فقال عِدِي بن الرِّقاع العامليّ:

لله عَينَا مَنْ رأى كَحَمَالةٍ تحمّلها كَبْشُ العراق يزيدُ[1]

وخرج العُديْل بن الفَرْخ الشاعر يريد الحجّاج، فلما صار ببابه حجبه الحاجب، فوثَبَ عليه العُدَيلُ وقال: «إنه لن يدخل على الأمير بعد رجالات قريش أكبر مني ولا أولى بهذا الباب»، فنازعه الحاجبُ الكلامَ فأحفظه. وانصرف العُدَيل عن باب الحجّاج إلى يزيد، فلما دخل إليه أنشأ يقول:

لئن أَرْتَجَ الحجّاجُ بالبخل بابه فبابُ الفتى الأزْدِيّ بالعُرْف يُفْتَحُ

(١) العقد الفريد (١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥).

فتىً لا يبالي الدهرَ ما قلّ مالُه ... إذا جعلتْ أيدي المكارم تسنَحُ

يداهُ يدٌ بالعُرف تُنْهَبُ ما حوتْ ... وأخرى على الأعداء تسطو وتجرحُ

إذا ما أتاه المرمِلون[1] تيقنوا ... بأنّ الغِنَى فيهم وشيكاً سَيسَرحُ

هلمّوا إلى سَيْب الأمير وعُرفهِ ... فإنّ عطاياه على الناس تَنْفَحُ

وليس لعِلْجٍ من ثمودَ بكفِّه ... من الجودِ والمعروف حزم مطوَّحُ

فقال له يزيد: «عرَّضتَ بنا، وخاطرتَ بدمك، وبالله لا يصلُ إليك وأنت في حيِّزي»، وأمر له بخمسين ألف درهم، وحمله على أفراس، وقال له: «الْحَقْ بعلياء نَجْدٍ، واحذر أن تعلقك حبائل الحجّاج أو تحتجنَك محاجِنُه[2]، وابعث إليّ في كلّ عام، فلك عليّ مثل هذا»، فارتحل. وبلغ الحجّاجَ خبرُه، فأحفظه ذلك على يزيد، وطلب العُدَيل ففاته[3].

وليس من السّهل أن يحمي أحد من يطلبه الحجّاج، وكان يومئذٍ أقوى شخصية بعد الخليفة، وكان يُجِيْر ولا يجار عليه إلّا من أمير المؤمنين، ولكن مروءة يزيد جعلته يُقدم على حماية هذا الشاعر ويدفع له المال الجزيل، ويهرِّبه إلى مكان قصيّ، وهو يعلم حقّ العلم أنه يغضب الحجّاج ويتحّداه بما أسدى للشاعر من خير، وأن الحجّاج لا يسكت عمّن يغضبه ولا عمّن يتحّداه.

ودخل كُرَيز بن زُفَر بن الحارث على يزيد قال: «أصلح الله الأمير! أنت أعظم من أن يُستعان بك ويُستعان عليك، ولستَ تفعل من الخير شيئاً إلّا وهو يَصْغُر عنك وأنت أكبر منه، وليس العجب أن تفعل ولكنّ العجب ألّا تفعل»، قال: «سَلْ حاجتك»، قال: «قد حملتُ عن عشيرتي عَشْر دِيَات»، قال: «قد أمرتُ لك بها وشَفعتُها بمثلها»[4].

---

(١) المرملون: مَنْ نفد زادهم.

(٢) محاجنه: عصيّه المعوجّة التي يحتجن الناس بها كالخطاطيف.

(٣) الأغاني (٢٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

(٤) العقد الفريد (١/ ٢٥٥) وانظر عيون الأخبار (٣/ ١٢٤).

وقال يزيد بن المهلّب لسليمان بن عبد الملك في حَمَالة كلّمه فيها: «يا أمير المؤمنين! والله لحَمْدُها خيرٌ منها، ولَذِكرُها أحسن من جَمْعِها، ويَدِي مبسوطة بيدك فابسُطْها لسؤالها»[1].

ولعلّ أبلغ ما يمكن أن يوصف به جَوْدُ يزيد، ما كان يقوله هُشَام بن حسّان إذا ذكره: «والله إن كانت السّفن لتَجْري في جوده»[2].

٣ ـ السّجايا والأضداد:

أ ـ كان يزيد جواداً مُمَدّحاً كثير الغزو والفتوح[3]، وكان يحبّ هذا الفخر، فأقبل عليه الشعراء، بخاصة، يمدحونه ويثنون عليه.

ومن الشعراء الذين مدحوه الفرزدق، فقد كان يهجو المهلّب بن أبي صُفْرة الأزدِيّ، فلما ولى سليمانُ بن عبد الملك يزيدَ خُراسان والعراق، مدحه الفرزدق فقال:

فلأمْدَحَنّ بني المهلّب مِدْحةً ... غرّاء قاهرة على الأشعار
مثل النّجوم أمامها قَمْراؤها[4] ... تجلو العَمى وتضيء ليلَ السّاري
ورثوا الطِّعان عن المهلّب والقِرى ... وخلائقاً كتدفُّقِ الأنهار
كان المهلّب للعراق وقايةً ... وحَيا الرّبيع ومَعْقِل الفُرّار
وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتَهم ... خضُعَ الرِّقاب نواكسَ الأبصار
مازال مُذ شَدَّ الإزار بكفِّه ... ودنا فأدرك خمسة الأشبار[5]
أيزيدُ إنّك للمهلّب أدركت ... كفّاك خير خَلائِق الأخيار[6]

وقال الفرزدق أيضاً:

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ١٣٠).
(٢) العقد الفريد (١/ ٣٠٣).
(٣) العبر (١/ ١٢٤).
(٤) القمراء: ضوء القمر.
(٥) خبر (مازال) مفهوم من المقام، أي ما زال كريماً مهيباً ونحو ذلك.
(٦) الأغاني (٢٢/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

إنّ المهالبةَ الكِرامَ تحمّلوا دَفْعَ المكارهِ عن ذوي المكروهِ
زانوا قديمَهمُ بحسن حديثهم وكريمِ أخلاقٍ بحسنِ وجوهِ[1]

وفي يزيد وآل المهلّب يقول الشاعر:

نزلتُ على آل المهلّب شاتياً غريباً عن الأوطان في زمن المَحْلِ
فما زال بي إحسانُهم وافتقادهم وبرّهمُ حتى حسبتهمُ أهلي[2]

والشِّعر في مدح يزيد كثير، نكتفي بهذا القليل لإعطاء فكرة واضحة لاستقطاب يزيد للشعراء حوله، وهباته هي التي استقطبتهم بالدرجة الأولى على كل حال.

ومضى يزيد إلى جوار الله، ومضى ماله في وجوه إنفاقه، وبقي الذكر الحميد.

ب ـ ومن مزايا يزيد، شجاعته الخارقة، فما هرب في حرب، وقاتل في كلِّ معركة خاضها قتال الأبطال الأفذاذ وفي المعركة التي قتل فيها، استقتل بعد فرار معظم جيشه، وكان لا يحدِّث نفسه بالفرار، فجاءه مَنْ أخبره أن أخاه حَبْيْباً قد قُتل، فقال: «لا خير في العيش بعد حبيب! قد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة، فوالله ما ازددتُ لها إلّا بغضاً... امضوا قُدُماً». وأخذ يكرّ، كلّما مرّ بخيل كشفها، أو جماعة من أهل الشّام عدلوا عنه.

وهمس بأذنه أحد المقرّبين إليه: أنّ الناس قد ذهبوا، فانْصَرِفْ إلى (واسِط) فإنها حصن تنزلها، ويأتيك المدد من البصرة، ويأتيك أهل عُمان والبحرين في السُّفن، وتضرب خندقاً، فقال: «قبّح الله رأيك! أَلِي تقول؟ ذا الموت أيسر عليّ من ذلك»[3].

---

(١) النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٩).
(٢) مختصر تاريخ البشر لأبي الفدا (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢).
(٣) وفيات الأعيان (٥/ ٣٤٨).

وبعد أن انجلت تلك المعركة عن مقتل يزيد، أُتي برأسه إلى مَسْلَمة بن عبد الملك، فلم يعرف الرأس، فقال حَيَّان النَّبَطِيّ: «مهما ظننتم فلا تظنّوا أنّ الرجل هرب، ولقد قُتل»، فقال مَسْلَمَة: «وما علامة ذلك؟»، فقال: إني سمعته أيام ابن الأشعث يقول: قَبَّحَ الله ابن الأَشعث! هَبُوه غُلب على أمره، أكان يُغلب على الموت؟! ألا مات كريماً»[1].

وفي معارك استعادة فتح جُرْجان، اختار يزيد ثلاثمائة من أصحابه الشجعان للنهوض بمهمة اقتحامية محفوفة بالأخطار، وجعل عليهم ابنه خالداً وقال له: «إنْ غُلِبْتَ على الحياة، فلا تُغْلَبَنَّ على الموت، وإيّاك أن أراك عندي منهزماً»[2].

لقد كان يزيد مقاتِلًا رهيباً، وصدق ثابت بن قُطْنَة الذي قال في يزيد:

كلُّ القبائِل بايعُوكَ على الذي ... تَدْعُو إليه وتابَعُوكَ وساروا
حتى إذا اخْتَلَفَ القنَا[3] وجعَلْتَهُمْ ... نصبَ الأَسِنَّةِ أسلموكَ وطاروا
إنْ يَقْتُلوكَ فإنَّ قَتْلَكَ لم يكُنْ ... عاراً عليكَ، وبعضُ قَتْلٍ عار[4]

وإذا كان بالإمكان أن يقال شيء في شعر الثناء، لأنّ حافزه غالباً (الرجاء)، فلا يمكن أن يقال شيء مثله في شعر الرثاء، لأنّ حافزه دوماً (الوفاء)، وليس مَنْ يأخذ كمن يعطي!

وقد كان يزيد يتمثل كثيراً في الحرب بقول الحصين بن الحُمام:

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما[5]

---

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٣٤٩).
(٢) الطبري (٦/ ٥٤٣).
(٣) في الأغاني: حتى إذا حمس الوغى.
(٤) الشعر والشعراء (٥٢٧)، وقد دخل هذا البيت في أبيات لحبيب بن خدرة الخارجي يرثي بها زيد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر شعر الخوارج.
(٥) العقد الفريد (١/ ١٠٤).

وقد نُسب هذا البيت مِن الشّعر في عيون الأخبار ليزيد[1]، والصواب أنّ البيت ليس من مَقُوله بل من منقوله، ولعلّ صاحب كتاب عيون الأخبار نسبه إلى يزيد لكثرة ما كان يتمثّل به يزيد، فنسبه الرواة إليه.

والمهمّ أنّ يزيد كان يردِّد هذا البيت كثيراً حتى أصبح له شعاراً، وكان يلتزم التزاماً جازماً، بهذا الشِّعار، والالتزام به شيء آخر، وشَتَّانَ بين رَفْعِ الشِّعارات وبين الالتزام بها!

جـ - ومما يحكى عن يزيد، أنّ حيَّة وقعت عليه في يوم من الأيام، فلم يدفعها عن نفسه، فقال له أبوه: «ضيّعت العقل من حيث حفظت الشّجاعة»[2].

ولم أجد وصفاً ينطبق على يزيد في حاضره ومستقبله، كهذه الكلمات القليلة التي وصفه بها أبوه، فهو من أجل الشجاعة ضيَّع العقل!

فقد كان لا يصغي إلى ناصح، ولا يستشير أحداً، وإذا اقتنع بأمرٍ طبّقه دون أن يأخذ بنصيحة ناصحٍ أو برأيٍ مخالفٍ لرأيه الذي اقتنع به.

نصحه كاتبه ألّا يمضي كتابه إلى سليمان بن عبد الملك: «... وقد صار عندي خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كلِّ ذي حقٍّ حقّه من الفَيْئ والغنيمة ستة آلاف ألف»[3]، فما اكترث بنصيحة الكاتب المخلص الحصيف، وأمضى الكتاب وأبرده إلى سليمان، فجرّ عليه عناده الويل والثبور، وسجن في سجن (حَلَب) ثم هرب من سجنه وأعلن العصيان، فدفع حياته ثمناً لهذا العناد.

ونصحه أخوه حبيب وغيره، أن يغادر العراق وينزل بفارس ويأخذ بالشِّعاب والعِقاب ويدنو من خُراسان فيطاول أهل الشّام في تلك المناطق

(١) عيون الأخبار (١/ ١٢٥).

(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٦).

(٣) الطبري (٦/ ٥٤٤ - ٥٤٥) وانظر ابن الأثير (٥/ ٣٥ - ٣٦).

النائية، فقال: «ليس هذا برأيي! تريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل![1]»، وأصر على قبول المعركة الحاسمة بينه وبين مَسْلَمة بن عبد الملك في أرض العراق التي يتفوّق فيها مَسْلَمَة على يزيد فواقاً بعيداً.

وبعد هرب أصحابه في تلك المعركة، وأصبحت نتيجتها مضمونة لمَسْلَمَة وأصبح موقفه يائساً إلى أَبْعَد الحدود، أصرّ أن يقاتل حتى الموت، دون أن يلتفت إلى نصيحة النّاصحين له بالانسحاب.

إنّه من أجل الشّجاعة ضيّع العقَل! وعقدته هي ألّا يتحدّث العرب أنّ يزيد هرب والفرق شاسع بين الهزيمة والانسحاب!

ولو أردنا أن نتذكر مواقفه التي تدل على إصراره وتمسّكه برأيه، وضرب نصائح الناصحين له عرض الحائط، لطال القول وتشعّب. فيكفي دليلًا ما ذكرناه.

د ـ وكان يحبّ هذا الفخر، ويطرب للثناء والمديح، ومن أجل هذا الفخر بالغ في كتابه إلى سليمان في استعادته فتح جُرْجان وَطَبرِستان، جعل منه فتحاً لم يسبقه إلى مثله أحد من الأكاسرة والقياصرة ومن الخلفاء الراشدين، ولم يكن الأمر كذلك كما أسلفنا، بل سبقه غيره من قادة الفتح الإسلامي في فتح هذين الإقليمين الشاسعين.

وبلا شك كان يستحق الثناء والإطراء بأعماله فاتحاً وإدارياً وجواداً ولكنه كان يحبّ أن يحمل الناس على إطرائه والثناء عليه، حتى كان من أغلى أمانيه على نفسه أن يعرف ما يقوله الناس عنه بعد أن يفارق الحياة[2].

وبلغ به حبّه للثناء والإطراء، أنه يُقَرِّبُ الذي يثنون عليه ويطرونه، ويُبْعِد الذين لا يحبّون التملّق للحاكمين حتى ولو كانوا من الأهل والأقرباء.

---

(١) ابن الأثير (٥/٧٦).

(٢) وفيات الأعيان (٥/٣٢٥).

فقد كان للمُغِيرة بن المهلّب ابن اسمه: بشر ذكره أبو تمام الطائي في كتابه: (الحماسة)، لم يكن يحب أن يتقرّب إلى عمّه بالثناء، فجفاه يزيد، فقال في يزيد:

جفاني يزيدٌ والمُغِيْرةَ قد جفَا ... وأمسى يزيدٌ لي قد ازورَّ جانبُه

وكلُّهم قد نال شبعاً لبطنه ... وشبع الفتى لؤمٌ إذا جاع صاحبُه

فيا عم مَهْلًا واتّخذني لنوبةٍ ... تنوبُ فإنّ الدَّهر جمٌّ نوائبُه

أنا السَّيْف إلّا أنّ للسيف نَبْوَةٌ ... ومثلي لا تنبو عليكَ مضاربُه

على أيِّ باب ابتغي الإذنَ بعدما ... حُجِبْتُ عن الباب الذي أنا حاجبُه(١)

هـ - وكان يحبّ الإمارة ويطلبها ويسعى إليها، ولما ولّى الحجّاج خُراسان المُفضّل بن المهلّب وعزل يزيدَ، جعل المفضَّل يستحثّ يزيد، فقال له يزيد: «إنّ الحجّاج لا يقرُّكَ بعدي، وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه»، فقال المفضَّل: «بل حَسَدتَني!»(٢).

وكان سليمان بن عبد الملك، قد ولّى يزيدَ العراق ولم يولِّه خُراسان، فقال سليمان بن عبد الملك لعبد الملك بن المهلّب وهو بالشّام ويزيد بالعراق: «كيف أنتَ يا عبد الملك إنّ ولّيتُك خُراسان؟»، قال: «يجدني أمير المؤمنين حيث يحبّ»، ثم أعرض سليمان عن ذلك.

وكتب عبد الملك بن المهلّب إلى أصحابه وخاصته في خُراسان: «إنّ أمير المؤمنين عَرَضَ عليّ ولاية خُراسان»، فبلغ الخبر يزيد.

وكان يزيد يطمع في خُراسان، فأوفد مبعوثاً خاصاً يعتمد عليه إلى سليمان بن عبد الملك، وقال لمبعوثه: «قد بلغني أن أمير المؤمنين ذَكَرَها - يريد خُراسان - لعبد الملك بن المهلّب، فهل من حيلة؟»، فقال: «سرّحني إلي أمير المؤمنين، فإني أرجو أن آتيكَ بعهدِكَ عليها»، قال: «فاكتم ما أخبرتك به!»(٣).

---

(١) وفيّات الأعيان (٥/ ٣٣٠).

(٢) الطبري (٦/ ٣٩٥).

(٣) الطبري (٦/ ٥٢٥).

ولكن الخبر شاع، فسجّله التاريخ على يزيد ورواه الرواة عنه، وما ينبغي أن يبلغ حبّ السّلطة والتكالب عليها حدّ التنافس بين الأخوين على منصب واحد من المناصب، فقد كان السلف الصالح يعتبرون الإمارة تكليفاً لا تشريفاً.

ولم يبق تنافس أبناء المهلّب على السلطة سِرّاً، بل تناقله الناس، فقال الشاعر في عزل يزيد عن خراسان وتولية أخيه المفضّل، ثم عزل المفضّل بقُتَيْبة بن مُسْلم، مخاطباً المفضّل بن المهلّب وأخاه عبد الملك بن المهلّب، وأمهما (بَهْلة) الهندية، يصف هذا التنافس بين الإخوة على الولاية:

يـابَـنْـي بَـهْـلَـة إنـمـا أخـزاكـمـا	بِـي غـداة غـدا الـهُـمَـام الأزهـر[1]
أحَـفَـرْتُـمُ لأخـيـكـمُ فـوَقَـعْـتُـمُ	في قَعْرِ مُظْلِمةٍ أخُوها الـمُـغْـوَرُ
جُـودوا بـتـوبـةِ مُـخْـلِـصِـيْـنَ فـإنّـمـا	يَـأْبى ويَـأْنَـفُ أنْ يتُـوبَ الأخْـسَـرُ[2]

ولعلّ سبب حرصه على الإمارة، هي رغبته في جمع المال وتوزيعه على الذين يقصدونه من الناس تطميناً لخصلة الكرم والأريحيّة والمروءة والشهامة والنجدة التي كانت من أبرز مزاياه، ولكنه أسرفَ في العطاء، حتى حبسه الحجّاج وأغرمه ستة آلاف ألف[3]، وأغرمه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ستة آلاف ألف[4] أيضاً، يوم كانت الشاة بنصف درهم.

ولا شكّ أنّ عطاءه بدون حساب، هو كرم خارق، ولكنه إسراف خارق أيضاً لا يُحمد عليه.

و ـ ومما يؤخذ عليه، تعصّبه لقبيلته بخاصة وللقحطانيين على العدنانيين بعامة، وبلغ تعصّبه درجة جعلته يطلق سراح الأسرى من قبيلته

---

(١) الهمام الأزهر: يريد به يزيد بن المهلب.
(٢) الطبري (٦/ ٣٩٥).
(٣) الطبري (٦/ ٤٤٨).
(٤) الطبري (٦/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥) وابن الأثير (٥/ ٣٥ ـ ٣٦).

ليعيشوا أحراراً، ويبعث ببقية الأسرى إلى الحجّاج لينزل بهم عقوبة الموت ويضرب أعناقهم بالسيف[1].

وما هكذا يكون العدل، ولا هكذا يكون الإنصاف!!

ونظر مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير[2] إلى يزيد وهو يمشي وعليه حُلَّة يسحبها، فقال له: «ما هذه المِشْيَة التي يبغضها الله ورسوله؟!»، فقال يزيد: «أما تعرفني؟!»، قال: «بلى! أوّلك نُطْفَةٌ مَذِرَة، وآخرك جِيفَةٌ قَذِرة، وأنت بين ذلك تحمل العَذِرَة»[3].

فقد كان فيه كِبْر وخيلاء، تعجبه نفسه كثيراً، ذا همة عالية، لا يعرف الكلل والملل، ويكره العَجْز والتواكل، ومن أقواله: «ما يسرّني أن أُكفى أمور دنياي كلّها، ولي الدنيا بحذافيرها»، فقيل له: ولِمَ ذلك؟! فقال: «إني أكره عادة العَجز»[4].

ولعلَ من أسباب كِبْره وخيلائه، شعوره بالتفوّق، على مَنْ حوله من الناس كفاية واقتداراً، وثراء وجاهاً، ومنصباً ومكانة، ولكنّ التّواضع من الخصال الحميدة التي يعجب الناس بها ويعجبون بصاحبها.

ولم يكن يزيد ليتنازل عن خيلائه وإعجابه بنفسه حتى في حضرة أمير المؤمنين، فقد سأله سليمان بن عبد الملك: «فيمن العِزّ بالبَصْرَة؟»، قال: «فينا وفي حلفائنا من ربيعة»، قال سليمان: «الذي تحالفتما عليه أعزّ منكما»[5].

وصدق عمر بن عبد العزيز رضي الله الذي كان يقول عن يزيد وأهل

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (١٦/ ٣٧٥ ـ ٣٨٣).
(٢) مطرّف بن عبد الله بن الشِّخِّير الفقيه الفاضل، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٨٨).
(٣) وفيات الأعيان (٦/ ٣٢٧)، والمذرة: الفاسدة، والعذرة: الغائط.
(٤) وفيات الأعيان (٥/ ٣٣٧).
(٥) العقد الفريد (٤/ ٣٥) و(٤/ ٤٨) وانظر عيون الأخبار (١/ ٢٩١).

بيته: «هؤلاء جبابرة، ولا أحبّ مثلهم»[1]، فكان يزيد وهو رئيس أهل بيته: جبار الجبابرة.

ز ـ أما علمه، فقد روى عن أنس بن مالك وعمر بن عبد العزيز وأبيه المهلّب.

وروى عنه ابنه عبد الرحمن وأخوه أبو عُيَيْنَة بن المهلّب وأبو إسحاق السَّبَيْعِيّ[2] وغيرهم[3]، وكان فصيحاً بليغاً قليل اللّحن، ومن أقواله في البيان: «أَكْرَهُ أن يكون عقلُ الرجل على طرف لسانه»، يريد أنه لا يكون عقلُه إلّا في الكلام[4] الذي يتسم بالفصاحة والبيان.

تلك ما ليزيد وما عليه من السجايا والأضداد، وكفى المرء نبلًا أن تُعدّ معايبه.

٤ ـ هُوِيَّتهُ الشخصيَّة

ذكرنا أباه وأُمّه في نسبه وأيّامه الأولى، وقد ولد المهلّب نحو ثلاثمائة ولد، أعقب منهم تسعة عشر، وأعقابهم بالبصرة وبغيرها، وهم: المُغِيْرة، ويزيد، ومَرْوان، ومُعَاوية، وزياد، وعبد الملك، وحَبيب، ومحمّد، وقَبِيْصَة، والمُفَضَّل، والمُدْرِك، وأبو عُيَيْنَة، وعبد العزيز، وعبد الله، وسعيد، وشَبِيْب، وعمرو، وجعفر، والحجّاج.

ومن ولد يزيد: معاوية، والمهلّب ولي فِلَسْطِيْن، وعمرو، وحَبيب، ومحمّد، وَمخْلَد، وخالد، وعبد الرحمن ثار بفارسِ[5].

ونعرف من زوجاته: عاتِكة بنت الفرات بن معاوية العامريّة من بني

---

(١) الطبري (٦/ ٥٥٧).

(٢) اسمه: عمرو بن عبد الله، من السَّبِيْع، انظر طبقات خليفة بن خيّاط (١٦٢).

(٣) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٣).

(٤) عيون الأخبار (٢/ ١٦٨).

(٥) جمهرة أنساب العرب (٣٦٨).

البكّاء[1]، ومن جواريه التي أصبحت أمّ ولد: بَهْلَة الهنديّة، وهي أمّ المُفَضَّل وعبد الملك[2].

وقد ذكرنا أنّه وُلد سنة ثلاث وخمسين الهجريّة (٦٧٢م)، وقُتل سنة اثنتين ومئة الهجريّة[3] (٧٢٠م)، وأُرسل رأسه إلى يزيد بن عبد الملك[4].

لقد عاش تسعاً وأربعين سنة قمرية وثمانٍ وأربعين سنة شمسية، ولكنه ملأ صفحات من التاريخ أكثر من سنيِّ حياته عدداً، فكانت حياته عامرة بالنشاط الزّاخر إدارياً وقائداً وسجيناً، فدخل التاريخ من أوسع أبوابه بجهوده وجهاده محسناً مرات وغير محسن مرّة، فلم يبقِ كغيره من الولاة والقادة مُجَرّد عدد في السِّجِل لا أثر له ولا تأثير في الناس حيّاً، لأنه كان موظفاً فحسب يَتَّبع ولا يَبْتَدع، ومصيره موظفاً أهم بالنسبة إليه من مصائر الناس. ثم ما كادت وظيفته تزول عنه إلّا وَأصبحت حياته تافهة كأنه مَيْت قبل أن يموت، فإذا مات لم يترك أثراً ولا تأثيراً!!

لقد كان يزيد.... رجلًا....

ورثاه الشعراء بعد موته، بل أقرّ الخليفة الذي قتله بفضله، فقال ثابِت قُطْنَة[5] في رثائه:

ألا يا هِنْدُ طالَ عليَّ ليلى	وعاد قصيرُه ليلًا تماما
كأنّي حين حَلّقَتِ الثُرَيّا	سُقِيْتُ لُعَابَ أَسْوَدَ أو سَمَاما
أَمَرّ عليّ حُلْوَ العَيْش يومٌ	من الأيّام شيّبني غُلاما

(١) الطبري (٦/ ٥٦٤) والمحبّر (٤٤٣).
(٢) الطبري (٦/ ٣٩٥).
(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٢) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٤٨) والعبر (١/ ١٢٤).
(٤) البدء والتاريخ (٦/ ٤٨).
(٥) هو ثابت بن كعب بن جابر العَتَكِيّ الأَزدي، أُصيبت عينه بخراسان، فجعل عليها قطنة، فعرف بذلك، انظر وفيات الأعيان (٥/ ٣٥١).

مصابُ بني أبيكِ وغِبْتُ عنهم ... فلم أشهدهمُ ومضَوا كِراما
فلا واللَّهِ لا أنسى يزيداً ... ولا القتلى التي قُتِلَت حَراما
فعَلِّي أن أبُو بأخِيْك يوماً ... يزيداً أو أبوءَ به هِشاما
وعَلِّي أنْ أقودَ الخيلَ شُعثاً ... شوازِبَ[1] ضُمَّراً تَقِصُ[2] الأكامَا
فأصبِحَهُنَّ حِمْيَر من قريب ... وعكّاً أو أرُعْ بهما جُذاما
ونَسْقِيْ مَذْحِجاً والحيَّ كَلْباً ... من الذَّيفان[3] أنفاساً قَوَاما
عشائرنا التي تبغي علينا ... تَجرِّبُنا زَكَا عاماً فعاما
ولولاهمْ وما جَلَبُوا علينا ... لأصبح وَسْطُنا مَلِكاً هُمَاما

وقال أيضاً يرثي يزيد:

أَبى طُولُ هذا اللَّيْل أن يَتَصَرَّما ... وهاجَ لكَ الهَمُّ الفؤاد المُتَيَّمَا
أَرِقْتُ وَلَمْ تأرَق معي أمُّ خالدٍ ... وقد أرِقَتْ عيناايَ حَوْلًا مُجرَّما[4]
على هَالِكٍ هَدَّ العشيرةَ فَقْدُهُ ... دعته المنايا فاستجاب وَسَلَّمَا
على مَلِكٍ يا صَاح بالعَقْرِ[5] جُبِّنَتْ ... كتائبُه واستَوْرَدَ الموتَ مُعْلِما
أُصِيْبَ ولم أشْهَدْ ولو كنتُ شاهِداً ... تسلَّيْتُ إن لم يُجمَع الحيُّ مأتما
وفي غِيَرِ الأيّام يا هِنْدُ فاعلمي ... لطالِبِ وِتْرٍ نظرة أن تلوّما
فَعَلِّيَ إنْ مالتْ بيَ الريح مَيْلَةً ... على ابن أبي ذِبّانَ[6] أنْ يتندّما
أَمَسْلَمُ[7] إنّ يَقْدِرْ عليكِ رِماحُنا ... نُذِقْكَ بها قَيْءَ الأساود مسلما

---

(١) شَزَب الحيوانُ شُزُوْباً: ضَمُرَ، فهو شازِب. (ج) شُزَّبٌ، وهي شازِبَة (ج). شَوَازِب.
(٢) تَقِصُ فرسه: تثب به وثباً قصير الخُطى.
(٣) الذيفان: السريع، وصارم قاطع.
(٤) تجرّم: تّم وانقضى، يقال تجرّمت السنة، وتجرّم الليل.
(٥) العقر: اسم مكان مرّ ذكره، وهو مكان المعركة التي دارت بين يزيد بن المهلّب ومسلمة بن عبد الملك.
(٦) أبو ذبان، أو أبو الذبان: لقب عبد الملك بن مروان، وابن أبي ذبان هو: يزيد بن عبد الملك.
(٧) مَسْلَم. يريد به مسلمة بن عبد الملك. قائد جيش يزيد بن عبد الملك الذي قاتل به جيش يزيد بن المهلّب وانتصر عليه.

وإن تَلْقَ للعباس[1] في الدّهر عثرة | فكافِئه باليوم الذي كان قدَّما
قصاصاً ولا نعد والذي كان قد أتى | إلينا وإن كان ابن مروانَ أظلَمَا
ستعلمُ إن زَلَّتْ بك النَّعْل زلَّةً | وأظهر أقوامٌ حياءً مجمجِمَا[2]
مَن الظَالم الجَانِي على أهِل بيته | إذا احْصِرت[3] أسباب أمرٍ وأَبْهَمَا
وإنّا لعَطافونَ بالحلم بعدما | نَرى الجهّلَ من فرطِ الّلئيم تكرُّما
وإنّا لحلّالونَ بالثَّغر لا نرى | به ساكناً إلّا الخَمِيْس[4] العَرَمْرَما
نرى أنَّ للجِيْرانِ حَاجاً وحُرْمةً | إذا الناس لم يَرْعَوْا لدى الجار مَحْرَمَا
وإنا لنَقري الضّيف من قَمَع الذُّرى | إذا كانَ رفدُ الرافدين تَجَشُّما
وراحت بصُرَّادٍ[5] مُلِثٌّ[6] جليدُه | على الطَلْح[7] أرماكاً[8] من الشُّهب صُيَّمَا
أبونا[9] أبو الأنصار عمرو بن عامِرٍ | وهم وَلَدُوا عَوْفاً وكَعْباً وأسلما
وقد كان في غَسَّانَ مَجْدٌ يَعُدّهُ | وعَادِيَّةٌ كانت من المجدِ مُعظَما[10]

ولما حُمل رأس يزيد بن المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك في الشّام، نال منه بعض جلسائه، فقال له: «إنّ يزيد طلب جسيماً، وركب عظيماً، ومات كريماً»[11]، وحسبي بشهادة أعدى أعداء يزيد ليزيد، فقال الناس: «ضحّى بنو أميّة بالكرم يوم (العَقْر)»[12]، يريدون بذلك قتل يزيد، فقد كان

(١) العباس: العباس بن الوليد بن عبد الملك، كان مع مَسْلمة بن عبد الملك في قيادة الجيش الذي قاتل يزيد بن المهلّب.
(٢) جمجم فلان: لم يبيِّن كلامه. وجمجم الشيءَ في صدره: أخفاه ولا يُبْدِهِ.
(٣) في ابن الأثير (٥/ ٨٨): أُحضرت.
(٤) الخميس: الجيش الجرّار.
(٥) الصرّاد: الريح الباردة تخالطها رطوبة.
(٦) لثّ بالمكان: أقام، ولَثّ المطر: دامَ أياماً لا يُقْلِع.
(٧) الطلح: شجر عِظام من شجر العِضَاة ترعاه الإبل، والطلح جمع طَلْحَة.
(٨) أرماك: جَمْع جمع الرَّمكة: الضعيف. والرامك: المقيم بالمكان لا يبرح، جمعها: أرماك.
(٩) عمرو بن عامِر بن لُحَيّ أبو الأوس والخزرج من الأنصار.
(١٠) الطبري (٦/ ٦٠٣) وانظر ابن الأثير (٥/ ٨٧ ـ ٨٨).
(١١) وفيات الأعيان (٥/ ٣٥٠).
(١٢) وفيات الأعيان (٥/ ٣٥١).

من النجباء الكرماء العظماء الفُرْسان[1].

ولم يمض يزيد وحده إلى جوار ربِّه، بل مضى معه كثير من آل بيته من المهالبة في مجزرة مروِّعة حصدتهم حصداً، حتى فتية المهالبة الأحداث التسعة الذين بعث بهم مَسْلَمةً بن عبد الملك إلى يزيد بن عبد الملك أمر يزيد بقتلهم، فقتلوا وبقي منهم غلام صغير، فقال: «اقتلوني فما أنا بصغير»، فقال يزيد: «انظروا أنْبَتَ!»، فقال: «أنا أعلم بنفسي، قد احتلمتُ ووطئتُ النساء»، فأمر به يزيد فقتل[2].

لقد كان يزيد رجلًا قد لا يتكرّر أبداً.

القائِد:

١ ـ صفاته القيادية:

أ ـ قبل أن يُقْتَل يزيد، وبعد أن هرب أكثر أصحابه من حوله، وأخذ مَنْ يكره القتال ينكص، وتسلّل الباقون معه أفراداً وجماعات، جاءه أحد المقربين إليه يقول له: «أما ترى ما حولك من جبال الحديد!»، فقال له: «أما أنا فما أباليها، جبال حديد كانت أم جبال نار!»، ثم مضى يقاتل وهو ينشد قول الأعشى:

أَبِالموتِ خَشَّتني عُبَادٌ وإنَّما ... رأيتُ مَنَايَا النّاس يَشقى ذلِيْلُها
فما مِيْتَةٌ إن مُتّهَا غيرَ عاجزٍ ... بِعارٍ إذا ما غالَتِ النفسَ غُولُهَا

وأقبل يزيد نحو مَسْلَمَة بن عبد الملك مستقتلًا لا يريد غيره، حتى إذا دنا منه قرّب مَسْلَمة فَرسَه ليركب، فعطف عليه خيول أهل الشّام وعلى أصحابه وحملوا بأجمعهم.

واقتتلوا ساعة، وسطع الغُبار، وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلًا[3].

---

(١) وفيات الأعيان(٥/ ٣٥٢).

(٢) الطبري (٦/ ٦٠٣) وابن الأثير (٥/ ٨٧).

(٣) الطبري (٦/ ٥٩٦ ـ ٥٩٧).

وهكذا انتصر التفوّق العَدِّيّ والعُدَدِيّ على الشّجاعة والإقدام، فمات يزيد كريماً مُقبلًا غير مُدْبر، مُسْتَقتلًا غير متخاذل، فصدق ثابت قُطْنة في وصف مقتلِه:

إنّ يَقْتُلوكَ فإنّ قتلكَ لم يكُنْ عاراً عليك، ورُبَّ قَتْلٍ عارُ[1]

لقد كان يزيد يستنكر الهروب من القتال، ويرفض أيّ حجّة يعرضها الهارب، وكان شعاره في كلِّ حياته: النّصر أو الموت.

وطالما اندفع في المعارك التي خاضها إلى الأمام، فأصبح في الصفوف الأمامية ملتحماً بالذين يقاتلهم، فلا يكون أحدٌ من رجاله أقربَ إلى العدو منه، فهو قائد يقود رجاله من (الأمام)، يقول لأصحابه: اتبعوني، ولا يبقى في(الخلف) مُسْتَكِنّاً في موضع أمين، يقول لأصحابه: تقدّموا، وهو قابع في موضعه الأمين لا يتقدَّم!

والذين يُقاتِلون في الصفوف الأماميّة من القادة يضربون لرجالهم أروع الأمثال، إذ يكونون أسوة حسنة لرجالهم وقدوة صالحة ومثلًا يُحتذى به، فيبعثون في نفوس رجالهم النّخوة والإقدام والتضحية والفداء.

وقلّما يُهزم جيش يقاتل قائده في الصفوف الأماميّة ويقوده من الأمام.

ومن المعروف أن القادة العسكريين قسمان: قسم يقود رجاله من الأمام من أمثال خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني ويزيد بن المهلّب وكثير من قادة الفتح الآخرين، وقسم يقود رجاله من الخلف، ومن النادر أن يثق الجيش بقائد يقوده من الخلف، فالمقاتل ترتفع معنوياته إذا رأى بعينيه قائده وبخاصته في الأوقات الصعبة في حالة التماس بالعدو.

ولكنّ القائد الذي يكون في الصفوف الأمامية في أثناء الاشتباك بالعدو لا بّد أن يكون متميِّزاً بالشجاعة الفائقة، وهذا ما كان يتميّز به يزيد، وقد

---

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٣٥١).

تحدّثنا في شجاعته عند الحديث على سماته إنساناً، إذ لا خلاف في شجاعة يزيد التي كانت من طراز فريد وكانت مضرب الأمثال.

ب ـ لقد كان يزيد من هواة الحرب لا من أجل الحرب، ولكن لتنفيذ خطط مرسومة للدولة في الفتح واستعادة الفتح وفي توطيد الأمن الداخلي وإعادة الاستقرار والنظام وقمع الفتن. والمعركة الواحدة التي خاضها لحسابه الخاص هي معركة (العَقْر) التي خسر فيها حياته، ولم يخض تلك الحرب من أجل الحرب وحبّاً لإراقة الدماء، ولكنّه خاضها مُكْرهاً لا بطلاً، فقد بقي في سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه دون أن يهرب، وكان بمقدوره أن يفعل، فلما أصبحت حياة عمر مهددة بالموت، هرب يزيد خوفاً من انتقام يزيد بن عبد الملك الذي تولّى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز لعداوة قديمة بين اليزيدين: يزيد بن عبد الملك، ويزيد بن المهلّب، فهربه في الواقع كان دفاعاً عن النفس لا حبّاً في إشعال نيران الحرب.

والدليل القاطع على أنّه من هواة الحرب، هو قضاؤه معظم أوقات ولايته غازياً لا جابياً، فكان يؤثر مصاولة الأبطال وتحمل الأخطار والمشاق، على الرَّاحة في القصور بعيداً عن الأخطار والتعب والمشقّة.

كما كانت حياته في أيام أبيه كلّها في ميدان القتال، محارباً الخوارج تارة، وفاتحاً تارة أخرى، ولم يبق مستقراً في مكان مريح أمين.

كما أنّ تميّزه بالشَّجاعة الخارقة، بالإضافة إلى هوايته المفضّلة للحرب، دليل على أنه من أصحاب الطبع الموهوب في القيادة.

أما مزية التجربة العملية التي يجب أن يتميّز بها القائد الحق، بالإضافة إلى الطبع الموهوب والعلم المكتسب، فإنّ أعمال يزيد العسكرية في القتال فاتحاً أو مستعيداً للفتح، وفي الاقتتال للقضاء على الفتن الداخلية خير دليل على تمتّعه بهذه الميزة الحيوية.

فقد كان أبوه المهلّب خير أستاذ له في التطبيق العملي لعلومه

العسكرية المكتسبة ولتجربته العملية في القتال والاقتتال، فما كان في العرب أضربَ بسيفه ولا أحسنَ تعبية للحرب ولا أغشى للناس من المهلّب في أيامه، فتعلّم يزيد من أبيه ممارسة الحرب وإدارتها مما أثرى علمه المكتسب وتجربته العملية، فتولى القيادة بإمرة أبيه المهلّب واستعاد فتح قسم من البلاد التي انتقضت، وما كان المهلّب ليوليّ يزيد قيادة الجيوش لأنّه ابنه حسب، فلا أحد يولي ولده قيادة عسكرية دون كفاية عالية، لأنّه بدونها يعّرضه للمهالك ولأفدح الأخطار.

وقد كان للمهلّب كثير من الأبناء، فما ولّاهم جميعاً قيادات عسكرّية، بل ولّى قسماً منهم فقط وعلى رأسهم ابنه يزيد، مما يدلّ على اقتناع المهلّب بأنّ يزيد استكمل علمه المكتسب وتجربته العملية، فأصبح مصدراً من مصادر قوّة أبيه أولًا قبل غيره من الناس ومصدر قوة للدولة التي يعمل المهلّب وبنوه في خدمتها والدفاع عن مصالحها بأمانة وقوّة وإخلاص.

نستنتج مما ذكرناه، أنّ يزيد تيسّرت له مزايا القائد المتميِّز الثلاث: العلم المكتسب، والتجربة العملية، وقبل هاتين المزيتين الطبع الموهوب.

جـ ـ فكيف استغل يزيد مزاياه القياديّة المتميّزة الثلاث في التطبيق العملي قائداً، وبخاصة في التطبيق العملي لمبادئ الحرب.

يبدو أنه اهتم كثيراً بمبدأين حيويين من مبادئ الحرب: الأمن، والمباغتة، وهما أهم مبادئ الحرب على الإطلاق.

وليس معنى هذا أنه لم يهتم بمبادئ الحرب الأخرى، بالعكس، فإن اهتمامه بها كان عظيماً كما سنرى، ولكن أسبقيّة اهتمامه تركّزت على هذين المبدأين بالدرجة الأولى وبصورة خاصة، دون أن ينسى المبادئ الباقية عامة أو يغض النظر عنها طرفة عين.

ففي مجال تطبيق: مبدأ الأمن، سيطر سيطرة كاملة على قاعدة الفتح واستعادة الفتح المتقدِّمة (مَرْو)، وطهرها من أعداء الدولة، وخلّف عليها ابنه

مَخْلَد، وهو ألمع أبنائه وأكثرهم كفاية، ثم انطلق فاتحاً ومستعيداً للفتح[1]، وبهذا جعل قاعدته المتقدِّمة أمينة رصينة لا يخشى عليها خطراً.

وكان يدأب على الاستطلاع الشخصي قائداً لسريّة قتالية، كما فعل في حصار قُهِسْتان، فقد خرج ينظر مكاناً يدخل منه إلى المدينة المحاصَرَة في أربعمائة من وجوه الناس وفرسانهم، فلم يشعروا حتى هجم عليهم الترك في أربعة آلاف، فقاتلوهم ساعة حتى رجع عنهم العدو خائباً[2].

وهذا الأسلوب من الاستطلاع، هو لغرض الحصول على المعلومات عن العدو بالقتال، وهو أسلوب من أساليب تحقيق مبدأ: الأمن، إضافة إلى فوائده الأخرى.

كما أنه وضع (العيون) على (نيزك) لرصد حركاته، فلما استيقن خروجه من قلعته، تحرّك يزيد لفتح القلعة الحصينة التي استعصت على الفاتحين[3]، وهذا الأسلوب من الأساليب الاستطلاعية التي تحقِّق مبدأ: الأمن، أيضاً.

وكان يزيد لا يُغْفِل اتِّخاذ تدابير الحماية لجيشه، فيرسل المقدِّمات والمجنبات والمؤخرات، لحماية جيشه من المبَاغتة ولحرمان عدوه من الحصول على المعلومات الضرورية عن هذا الجيش، فلا عجب ألّا تُباغت قوّات يزيد التي تعمل بقيادته من العدو أبداً.

ولعّل من أهم عوامل تحقيق مبدأ الأمن، بالنسبة للجيش الذي يتغلغل بالعمق بعيداً في البلاد المعادية هو وضع حاميات في المراكز المهمة، وهذا ما فعله يزيد في معاركه التي خاضها لاستعادة فتح جُرْجان وَطَبَرِستان، فقد

(١) الطبري (٦/ ٥٣٢).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٣٢ ـ ٥٣٩) و(٤/ ٢٧١) وابن الأثير (٤/ ٢٩ ـ ٣٠). وابن خلدون (٢/ ١١٩).
(٣) الطبري (٦/ ٣٨٦) وابن الأثير (٤/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩).

خلّف حاميتين تَعْداد كلّ حامية أربعة آلاف مقاتل على طريق مواصلاته، لحماية خطوط تلك المواصلات[1].

ولا أعرف أسلوباً من أساليب تحقيق مبدأ: الأمن، إلّا واتّخذه يزيد في حروبه بِكّل حرص وكفاية وبموجب خطّة عسكرية مدّبرة مدروسة، فقد كان الرجل لا يرتجل الخطط وبعيداً غاية البعد عن الارتجال.

ونعود إلى تطبيقه مبدأ: المباغتة، فقد استطاع يزيد تطويق قلعة نيزك الحصينة، في وقت كان فيه نيزك بعيداً عن قلعته[2]، مما أجبر نيزك على الصّلح، فكانت عملية يزيد هذه مباغتة كاملة لنيزك في الزمان، لأنّ يزيد طوّق قلعته في وقت لا يتوقّعه نيزك.

وقد كتب يزيد إلى الأصبهبذ في طَبَرِستان كتاباً يسأله فيه أن يحتال لِصُوْل حتى يقيم بجُرجان، وهو يعلم أنّ كتابه سيطّلع عليه صُوْل بشكل أو آخر، فيتحوّل عن جُرجان وينزل البُحِيْرة، فيهاجمُ يزيد حينذاك جُرْجان ويستعيد فتحها بدون مقاومة تذكر.

فإذا تمَّ له استعادة فتح جُرجان، أصبح محاصرة البحيرة وفيها صُوْل ميسوراً ومضمون النتيجة.

وهذا ما طبّقه يزيد فِعْلًا، فاستعاد فتح جُرّجان وانتصر على صُوْل في البحيرة[3]، وبذلك حقّق مباغتة صُوْل بالزمان أيضاً.

وفي حصار جُرْجان بعد أن نقضت وغدرت بحاميتها الإسلاميّة، استطاع أحد رجاله أن يكتشف طريقاً جديدة تؤدي إليها مباشرة، فأعدّ خطّة للهجوم على العدو المحاصَر من اتجاه تلك الطريق وبالهجوم عليه من الجبهة[4]،

---

(١) الطبري (٦/ ٥٣٩) وابن الأثير (٥/ ٣٠).
(٢) الطبري (٦/ ٣٨٧) وابن الأثير (٤/ ٤٩٩).
(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩) وابن الأثير (٥/ ٣٢ ـ ٣٣).
(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٤١ ـ ٥٤٣) وابن الأثير (٥/ ٣٤ ـ ٣٥).

فاستطاع استعادة فتح جُرجان ثانية بعد حصار مديدٍ، وحقّق مباغتة عدوّه بالزمان والمكان معاً.

كما أنَّ إعداد تلك الخُطَّة وتوقيت تنفيذها الدقيق، يمكن اعتباره مباغتة بالأسلوب أيضاً، ومن المعلوم أن تطبيق مبدأ: المباغته، يتمّ في المكان، أي من مكان لا يتوقّعه العدو، وفي الزمان، أي زمان لا يتوقّعه العدو، أو بالأسلوب، أي بأسلوب تعبويّ لا يتوقّعه الخَصْم.

وقد حقّق يزيد هذه الأساليب الثلاثة في تطبيق مبدأ: المباغتة.

ويبقى أسلوب رابع في تطبيق مبدأ: المباغتة، هو استخدام سلاح جديد متفوّق لا يتوقع العدو استخدامه، وهذا الأسلوب لم يُطبق من سائر قادة عصر يزيد العرب المسلمين، لأنهم لم يستطيعوا ابتكار سلاح جديد متفوّق في حينه.

ذلك مبلغ اهتمام يزيد بتطبيق مَبْدأَيْ: الأمن والمباغتة.

د ـ ولكن يزيد لم يهمل بقيّة مبادئ الحرب الأخرى كما ذكرنا.

فقد كان يطبّق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته، ولا أعرف قائداً اختار مقصده منذ كان (لاجئاً) في كنف سليمان بن عبد الملك، ونفذه حرفياً دون تردد بعد أن تولّى خُراسان حين أصبح سليمان الذي كان ولياً للعهد خليفة، وبين اختيار يزيد مقصده وبين تنفيذه بضع سنوات!

فحين كان يزيد عند سليمان بن عبد الملك بعد هربه من سجن الحجّاج، كان سليمان كلما فتح قُتَيْبَة بن مُسْلم فتحاً يقول ليزيد: «ألا ترى إلى ما يفتح الله على قُتَيْبَة؟»، فيقول يزيد: «ما فعلتْ جُرْجان التي قطعت الطريق، وأفسدت (قُوْمِس) و (نَيْسَابور)؟ هذه الفتوح ليست بشيء، الشّأن هي جُرْجان».

ونفّذ يزيد ما وعد، وكان هدفه واضحاً جليّاً منذ أمد بعيد، والفرق بينه وبين كثير من غيره أنهم يعدون ويخلفون، ووعودهم هي لتولي

المناصب أو المال أو الجاه، فإذا تولّوا ما رغبوا فيه أو قبضوا ما طمعوا به نسوا وعودهم.

أما يزيد، فلم ينس وعده، وبادر إلى تحقيقه، وتحمل الأهوال من أجله صابراً محتسباً.

وكان يطبقُ مبدأ: التَعَرُّض، وكانت حروبه كلّها تعرضيّة، ولم يتَّخذ خُطَّة الدِّفاع طيلة حياته العسكرية: جندياً أو قائداً مرؤوساً أو قائداً عاماً.

وكان يطبقٌ مبدأ: حَشْد القوّة، فقد حشد قوّات ضاربة قادرة على الفتح واستعادة الفتح وإحراز النّصر، فحشد في جيشه أهل الشّام وأهل البصرة وأهل الكوفة ووجوه أهل خُراسان والرَيّ في مئة ألف مقاتل سوى الموالي والمماليك والمتطوعين[1]، وذلك قبل أن يسير إلى جُرْجان وَطَبَرِستان، وهذا مجرّد مثال واحد على احتفال يزيد الباهر في تطبيق مبدأ: حشد القوّة.

وكان يطبّق مبدأ: الاقتصاد في المجهود، فقد كان يستخدم القوات المناسبة لتحقيق الهدف المناسب،ولم يُعرف عنه أنّ بذّر في المجهود أو استهتر بأرواح أصحابه دون مسوِّغ.

وكان يطبّق مبدأ: المرونة، تطبيقاً رائعاً حقاً، فلما ساءت أحوال قوّاته في جُرْجان، لم يصرّ على تنفيذ خطّته العسكرية المرسومة في القضاء على الأصبهبذ في طَبرِسْتان، لأنّه اقتنع أنَّ القوّة وحدها لا تحقِّق له هدفه في استعادة الفتح، فلجأ إلى المفاوضات السياسيّةَ، وأوفد حَيَّان النَّبطي إلى حاكم طبرستان، فعقد معه صلحاً وضعت حدّاً للحرب الدائرة بين الجانبين إلى حين[2].

ومن هذه العمليّة السياسيّة التي نفّذها يزيد بنجاح، نستنتج أنّ القوّة

---

(١) الطبري (٦/ ٥٣٢).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٣٩ ـ ٥٤١) وابن الأثير (٥/ ٣٠ ـ ٣٢).

وحدها قد تعجز عن تحقيق كثير من الأهداف، وأنّ السياسة قد تنجح في تحقيق أهداف عجزت القوّة العسكرية عن تحقيقها، وأنّ القوّة لا يمكن أن تستغني عن السياسة، كما أنّ السياسة لا يمكن أن تستغني عن القوة، والقائد الحصيف هو الذي يحقّق التوازن بين السياسة من جهة وبين القوّة من جهة أخرى.

ولكن يزيد لم يكن مرناً في المناورة أثناء القتال، فهو إما أن ينتصر أو يموت، إما أن ينحاز إلى فئةٍ أو ينسحب، فلا.

وكان يطبق مبدأ: التعاون، فقد كان ينسّق التعاون بين أجناد الأمصار، كما ذكرنا في تطبيق مبدأ: الحشد، فقد تعاون أجناد الكوفة وأجناد البصرة وأجناد الشام وأجناد خُراسان وأجناد الرَيّ، وكان التعاون بين جميع هذه الأجناد وثيقاً، فعملت بقيادة واحدة لتحقيق أهداف موحّدة. كما أنّ يزيد طبّق هذا المبدأ في الحرب، فجرى التنسيق بين قوّات الهجوم الجبهوي وقوات الهجوم من الخلف، فانتصر المسلمون في تلك المعركة على عدّوهم.

وكان يطبّق مبدأ: إدامة المعنويات، وقد ذكرنا قصّة كتاب يزيد إلى سليمان بن عبد الملك يبشّره بالنصر وبضخامة الغنائم في استعادة فتح جُرْجان[1]، فأخذنا على يزيد مبالغته في هذه الرسالة، ولكنه أراد بهذه المبالغة أن يتسامع بها رجاله بخاصة والمسلمون بعامة من أجل رفع معنوياتهم وإدامة مستواها الرفيع.

وقد كان يكثر من مواجهة قوّاته بخطبه وأحاديثه، لرفع المعنويات وإدامتها، وكان يبادر إلى معالجة أيّ انهيار معنويّ فوراً ولا يفسح المجال أبداً لانهيار المعنويات.

وكان يطبّق مبدأ الأمور الإداريّة، فقد كان أسلوب توزيع الأرزاق على

---

(١) الطبري (٦/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥) وانظر ابن الأثير (٥/ ٣٥ ـ ٣٦).

أفراد قواته بعد انتصاره في معركة البُحيرة متميِّزاً للغاية وعمليّاً وناجحاً. وكانت المسؤولية في جمع الغنائم وتوزيعها واضحة للغاية، وكانت الرقابة على أموال الدولة صارمة بحيث لم تغب عنه ولا عن قوّاته تصرّف المسؤول عن مخازن الغنائم بخريطة تافهة الثمن والقيمة، فأُعيدت إلى المخازن، ونال الذي تصرّف بها اللّوم والتأنيب[1].

وكان يغدق على رجاله إغداقاً بلغ حدّ الإسراف، ولما هرب من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ودخل البَصْرَة، أخذ يعطي مَنْ أتاه قطع الذّهب والفِضّة، فمال الناس إليه[2]. وكان في كلِّ حياته العامة والخاصّة كريماً معطاءً لا يقصِّر في العطاء ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وكان يتدخّل بتفاصيل القضايا الإدارية، لأنة يعرف أهميتها القصوى، وكمثال على ذلك اتخاذه (الفَعَلَة)، وهم سلاح الهندسة كما نسميه في المصطلحات العسكرية الحديثة، يقطعون الشّجر، ويُصلحون الطرق[3].

وكما كان يهتمّ بتأمين القضايا الإداريّة لأصحابه، كان يحول دون وصولها إلى عدوِّه، ففي حصار دِهِسْتانٍ: ألحّ عليها وأنزل الجنود من كلِّ جانب حولَها، وقطع عنهم المواد، فلما جُهِدوا وعجزوا عن قتال المسلمين، واشتدّ عليهم الحصار والبلاء، بعث صُوْل دِهْقَان دِهِسْتان إلى يزيد: «إني أصالحك على أن تؤمنني على نفسي وأهل بيتي ومالي...»[4].

وكانت وسيلة يزيد لحرمان العدو من القضايا الإدارية، فرض الحصار على المدن والحصون التي يستعصي عليه فتحها، وما فَرْضُ الحصار إلّا معركة يربحها مَنْ يحرم العدو من المواد الغذائية وغيرها من القضايا الإداريّة، ويؤمِّن في نفس الوقت القضايا الإدارية لرجاله.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩) وابن الأثير (٥/ ٣٢ ـ ٣٣).

(٢) الطبري (٦/ ٥٨٠) وابن الأثير (٥/ ٧٢).

(٣) الطبري (٦/ ٥٣٤).

(٤) الطبري (٦/ ٥٣٤).

وما دمنا قد تطرقنا إلى فرض الحصار، فقد مارس يزيد في حرب جُرْجان وَطَبَرِسْتَان هذا الأسلوب التعبويّ مرتين: مرة في حصار منطقة البحرية حصاراً مديداً لمدة ستة أشهر[1]، ومرة في حصار مديد لمدة سبعة أشهر[2]، وانتصر في الحصارين على عدوّه.

ونهوض يزيد بهذين الحصارين المديدين، يكذّب مزاعم أعداء العرب من مستشرقين ومستغربين بأنّ العرب لا يصبرون على حصار طويل.

وانتصار يزيد في هذين الحصارين المديدين على أعدائه، دليل قاطع على اهتمامه بالقضايا الإداريّة اهتماماً كبيراً قاده إلى النصر، فلا نصر لقائد في حصار مديد لا يؤمِّن القضايا الإدارية لقواته بشكل متميِّز قدير، ويحرم عدوّه منها بشكل صارم شديد.

هـ ـ لقد كان يزيد ذكياً حاضر البديهة، لذلك كانت قراراته سريعة وصحيحة، وبالرغم من شجاعته الخارقة، «فكان أصحابه يقولون له: انصرف ونحن نقاتل عنك، فأبى أن يفعل، وغَشَى القِتال يومئذٍ بنفسه، وكان كأحدهم»، إلّا أنه لم يكن متهوراً، إذ لم يكن يفقد أعصابه في ساعة القتال، ويُعدّ لكل أمر عدّته لإنقاذ رجاله وإحراز النصر[3].

وكان يزيد يتمتّع بإرادة قويّة ثابتة، إذا اقتنع بأمر أنْفذهُ، لأنه كان شجاعاً لا يهاب الموت ولا يخشى أحداً.

وكانت نفسيته لا تتبدّل في حالتي النصر والهزيمة، فلا يتجبرّ في حالة النصر، ولا يذلّ في حالة الهزيمة، فهو ثابت النفس صلْب العود، يثق ثقة مطلقة بالقضاء والقدر.

(١) ابن الأثير (٥/ ٣٣) وهي منطقة دهستان.
(٢) الطبري (٦/ ٥٤٢).
(٣) الطبري (٦/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤).

وكان يزيد يتمتّع بمزية سَبْق النظر، فيتوقَّع الأحداث قبل وقوعها، ويتخذ الإجراءات الضرورية لمواجهتها.

توقّع أن يعزله الحجّاج عن خُراسان ويولّي قُتَيْبَة بن مُسْلم خُراسان، فقد بلغه أن الحجّاج عزله، فقال لأهل بيته: «مَن ترونَ الحجّاج يولي خُراسان؟»، قالوا: رجلًا من ثَقِيف، قال: «كلا ولكنه يكتب إلى رجل منكم بِعْهدِه، فإذا قدمت عليه عزله وولّى رجلًا من قَيْس، وأَخلِق بقُتَيْبَة!!».

وهذا ما حدث بالضبط.

فقد كتب الحجّاج إلى المُفَضّل بن المهلّب: «إني قد ولّيتك خراسان»، فجعل المُفَضَّل يستحثُّ يزيد، فقال له يزيد: «إنّ الحجّاج لا يُقرّك بعدي، وإنما دعاه إلى ما صَنَع مخافَةُ أن أمتنع عليه»[1].

ولم يلبث المُفضَّل على خراسان إلّا قليلًا حتى عزله الحجّاج وولّى مكانه قُتَيْبَة بن مُسْلِم البَاهِلي[2].

وكان يتميّز بمعرفة نفسيات رجاله وقابلياتهم، ويكلِّف كلّ فرد منهم ما يناسب نفسيته وكفايته. فقد أصاب يزيد بجُرجان تاجاً فيه جوهر فقال: «أترون أحداً يزهد في هذا؟»، قالوا: لا! فدعا يزيد مَنْ يزهد بالتاج وبأثمن من التاج[3]، وأثبت أنه يعرف رجاله ويعرف خصائصهم ومحاسنهم وأضدادها.

وكان يثق برجاله ويثقون به، وحسبه أن يكون أشجعهم وأكثرهم إقداماً. وكان يحب أصحابه ويحبونه، وحسبه أن يغدق عليهم ويدافع عنهم، ولا يريد أن يلحق الأذى حتى بخصومه إلّا إذا اضطرّ إلى ذلك اضطراراً. فقد كتب إلى عبد الرحمن بن عباس الهاشمي الذي نزل هَراة: «قد كان لك

---

(١) الطبري (٦/ ٣٩٥).

(٢) الطبري (٦/ ٤٢٤).

(٣) ابن الأثير (٥/ ٣٣).

في البلاد متسع، ومَنْ هو أكَلُّ منى حَدّاً وأهونُ شَوْكة، فارتحل إلى بلدٍ ليس فيه سلطان، فإني أكره قتالك، وإنّ أحبَبْتَ أن أَمدّكَ بمالٍ لسفرك أَعَنْتُكَ به». ولكنّ الهاشمي لم يصغ إلى صوت العقل وتمادى في غيِّه، فجبى الأموال من الناس، ودسّ إلى جند يزيد يُمنِّيهم ويدعوهم إلى نفسه، فأخبر بعضهم يزيد، فقال: «جَلَّ الأمرُ عن العتاب، أتغدّى بهذا قبل أن يتعشّى بي»، فسار إلى الهاشمي وانتصر عليه، ولكنه أمر أصحابه أن يكفّوا عن مطاردة الهاشميّ وأصحابه المنهزمين[1].

وكان يتّمتّع بشخصيّة قوية ناقدة، وكان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد هُزم في العراق، فهرب إلى سِجِسْتَان، فقال له أصحابه: «اخرج بنا عن سِجِسْتان. . . . ونأتي خُراسان»، فقال عبد الرحمن: «على خُراسان يزيد بن المهلّب، وهو شاب شجاع صارِم، وليس بتاركٍ لكم سلطانه، ولو دخلتموها وجدتموه إليكم سريعاً[2] . . . .».

ولما أتى يزيد جُرْجان استقبلوه بالصّلح وهابوه وزادوه[3].

وبلغ من قوّة شخصية يزيد، أنه كان يتحدّى الحجّاج الذي لا يُتحَدّى، فقد أطلق الأسرى من عشيرته ومَن له فضل عليه أو على أهله، ثم بعث بالباقين إلى الحجّاج لينفِّذ فيهم حكم الموت[4].

وكتب الحجّاج إلى يزيد: «أنْ اغزُ خُوارِزْم»، فكتب إليه: «أيها الأمير! إنها قليلة السَّلَب، شديدة الكَلَب»، فكتب إليه الحجّاج: «لا تَغْزُها، فإنها كما وصفتَ»، فغزا يزيد ولم يُطِعْهُ[5].

وكان الحجّاج بعد أن هزم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعِث لم يبق

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣٧١ ـ ٣٧٣).
(٢) الطبري (٦/ ٣٧٠).
(٣) الطبري (٦/ ٥٣٤) وابن الأثير (٥/ ٣٠).
(٤) الطبري (٦/ ٣٨٠).
(٥) الطبري (٦/ ٣٩٦).

له هَمٌّ إلّا يزيد وأهل بيته، وقد كان الحجّاج أذلّ أهل العراق كلّهم إلّا يزيد وأهل بيته ومَنْ معهم من أهل المِصْرَيْن - البصرة والكوفة - بخُراسان[1]!.

لقد كانت شخصية يزيد شخصية فذّة، تملأ الأعين قدراً وجلالاً، وتملأ الأنفس هيبة ووقاراً.

وكان يتمتّع بقابلية بدنية سليمة، فقد مارس الحرب وهو في ريعان الشباب، ينازل الأبطال ولداته يلعبون في الطرقات، ومات وهو في أوج قابليته البدنية، فسقط قتيلًا في المعركة ولم يسقط السيف من يده.

وكان له ماضٍ ناصع مجيد حسباً ونسباً، وقديماً وجديداً وحتى آخر لحظة من حياته آثر الموت على الحياة في معركة خاسرة معروفة النتائج سلفاً، على أن يلوّث أحسابه أو سيرته بشائبة الهرب.

وقد صدق ثابت قُطْنَة في وصف يزيد قائلاً:

إنّ أمراً حدبتْ ربيعة حولَه ... والحَيُّ من يَمَنٍ وهاب كَؤودا[2]

لضعيفُ ما ضمّت جوانحُ صدرِه ... إنْ لم يَلُفَّ إلى الجنود جنودا[3]

أيزيدُ كُنْ في الحَرْب إذ هَيَّجْتَها ... كأبيك لا رَعِشاً ولا رِعْديدا[4]

شَاوَرْتَ أكْرَم من تناول ماجد ... فرأيتُ هَمَّك في الهموم بعيدا

ما كان في أبَوَيْكَ قادِحُ هُجْنَة ... فيكون زندُك في الزّناد صَلودا[5]

إنّا لضرّابونَ في حَمَسِ الوغَى ... رأسَ المتوّج إن أراد صدودا

وقُرٌ إذا كَفَر العجاج تَرى لنا ... في كل معركة فوارس صِيَدا[6]

---

(١) الطبري (٦/ ٣٩٦ - ٣٩٧).

(٢) الكؤود: المرتقى الصعب.

(٣) ما ضمّت جوانح صدره: كناية عن القلب.

(٤) الرعش والرعديد: الجبان.

(٥) الهجنة: كون أحد الزندين وارياً والآخر صالداً، وصلد الزند: صوّت ولم يور، فهو صالد وصلود.

(٦) العجاج: الغبار. كَفَره كضرب كفراً بالفتح: ستره وغطّاه. والثرى: الأرض. وصيد: جمع أصيد، وهو رافع رأسه كبراً.

يـالـيـتَ أسْـرتـك الـذيـن تـغـيّـبـوا ... كـانـوا لـيـومـك فـي الـعـراق شُـهـودا
وتـرى مـواطـنـهـم إذا اخـتـلـف الـقـنـا ... والـمـشـرفـيّـة يـلـتـظـيـن وقـودا[1]

فلما قرأ يزيد قصيدة ثابت، ويزيد في العراق يستعدّ لحرب مَسْلَمَة بن عبد الملك، وثابت في خُراسان لا يعلم أنّ يزيد مصمّم على إحدى الحسنين: النصر أو الموت، قال: «إنّ ثابتاً لغافلٌ عما نحن فيه، ولعمري لأطيعنّه، وسيرى ما يكون، فاكتبوا إليه بذلك»[2].

تلك هي مجمل مزايا يزيد الرئيسة قائداً، ومزاياه الفرعيّة أيضاً، وقد كان الرجل مكشوفاً غير معقدّ، يستطيع الدارسون تبين شخصيته قائداً وإدارياً بوضوح، ومن النّادر أن نجد قائداً وإدارياً من الذين لهم صفحات في التاريخ العرب الإسلامي يمتلك شخصية واضحة المعالم غاية الوضوح كما في شخصيّة يزيد، فقد عاش الرجل لا لنفسه حسب بل للناس جميعاً، فبقي خالداً في التاريخ بينما مات الذين عملوا لأنفسهم وهم على قيد الحياة.

لقد كان يزيد قائداً فذاً، قد لا يتكرّر مثله إلّا نادراً.

٢ ـ أسباب هزيمته:

حين عزل الحجّاج يزيدَ عن خُراسان، استشار يزيدُ أحد المقربين إليه من ذوي العقل والحكمة، وهو حُضَيْن بن المنذر[3] فقال له: «أَقِمْ واعتلّ، فإنّ أمير المؤمنين حسن الرأي فيك، وإنما أُتيتَ من الحجّاج، فإن أقمتَ

---

(١) القنا: الرماح. والمشرفية: السيوف نسبة إلى مشارف الشام.
(٢) الأغاني (١٤/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨).
(٣) هو حُضَيْن بن المنذر بن الحارث بن دَعْلَة بن المُجالد بن اليَشْربِيّ بن الرَّيَّان بن الحارث بن مالك بن شيبان بن ذُهل بن ثعلبة، صاحب راية ربيعة كلّها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفين، وفيه يقول عليّ رضي الله عنه:
لـمـن رايـةٌ سَـوْداء يَـخْـفُـقُ ظِـلُّـهـا ... إذا قـيـل: قـدِّمـهـا حُـضَـيْـنُ تـقـدّمـا
انظر جمهرة أنساب العرب (٣١٧).

ولم تعْجِل، رجوتُ أن يكتب إليه أن يقرّ يزيد»، قال: «إنا أهل بيت بورك لنا في الطّاعة، وأنا أكره المعصية والخلاف»[1].

وفي سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢م)، خاض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكِنْدِيّ معركتين كبيرتين في ثورة عارمة على الدولة التي كان الحجّاج يقود جيشها، فانتصر الحجّاج على ابن الأشعث، وهرب ابن الأشعث وفلول جيشه إلى سِجِسْتان.

ولجأت تلك الفلول إلى (هَراة) بقيادة عبد الرحمن بن العبّاس الهاشمي، فخاض يزيد معركة ضد تلك بعد أن بذل قصارى جهده في دعوته السلميّة دون جدوى.

وكان يزيد من البصرة، وكان الحجّاج قد أذلّ أهل العراق كلّهم إلّا يزيد وأهل بيته ومَنْ معهم من أهل البصرة والكوفة بخُراسان[2].

وفي عنفوان المعركة التي دارت بين يزيد من جهة والهاشمي من جهة أخرى، أراد أحد رجال الهاشمي أن يسمع يزيد ما يعانيه أهل العراق من الحجّاج، فقال:

دَعتْ يا يزيدَ بن المهلّب دَعْوةً ... لها جَزَعٌ ثمّ استهلَّتْ عُيونُها
ولو يُسْمِع الداعي النداءَ أَجابَها ... بِصمِّ القَنَا والبِيضِ تُلْقَى جُفُونُها
وقد فَرَّ أشرافُ العِراق وغادَرُوا ... بها بقَراً للحين جُمّاً قُرونُها

وأراد أن يحضّ يزيد، فسكت يزيدُ طويلًا حتى ظنّ الناسُ أنّ الشِّعر قد حرَّكه، ثمّ قال لرجلٍ: «نادِ وأسمِعْهم، جَشِّموهم ذلك»، يريد: أنتم كلفتموهم بذلك، فقال خُلَيْد:

لبئس المنادِي، والمنوّهُ باسمه ... تناديه أَبكارُ العراق وعُونُها
يزيد إذا يُدْعى ليوم حَفيظَةٍ ... ولا يَمْنَعُ السَّوءاتِ إلّا حُصُونُها

(١) الطبري (٦/ ٣٩٥).
(٢) الطبري (٦/ ٣٩٦ - ٣٩٧).

فـإنـي أَراه عـن قـلـيـلٍ بـنـفـسـه يُـدانُ كـمـا قـد كـان قَـبْـلُ يَـدِيـنُـهـا
فـلا حُـرَّةٌ تَـبـكِـيْـهِ لـكـن نَـوائـحٌ تُبَكِّي عليه البُقْعُ منها وجُونُها[1]

وهكذا أراد الشّاعر استثارته لعله ينتقض على الحجّاج حميّة لأهل العراق العرب الذين هو منهم، ولكنه فكرّ مليّاً قبل أن يُجيب، فلما عاد إليه رشده بعد سكوته الطويل، لم يستجب إلى استثارة الشاعر العاطفية، وألقى باللّوم كلّه على الثوار الذين اصطلت بنار ثورتهم نساء العراق ورجاله على السواء.

ولما ألحّ الحجّاج وألحف على عبد الملك بن مروان في طلب عزل يزيد عن خُراسان بحجة أنه من الموالين لآل الزبير وأنّ يزيد وآل المهلّب زبيريّة. كتب إليه عبد الملك: «إني لا أرى نقصاً بآل المهلّب طاعتهم لآل الزّبير، بل أراه وفاء منهم لهم، وإنَّ وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي»[2].

لقد كان يزيد رجل دولة، منضبطاً ملتزماً، وكان يتحلّى بمزية الضبط المتين، ولكنه لم يكن إمَّعةٍ يميل حيث تميل الريح، بل كان له رأيه الذي يعتز به ولا يُخفيه، ولم يكن من أهدافه إعلان الثورة على الدولة ولا خلع الخليفة، فقد خدم الدولة والخلفاء خدمة صادقة كلّ حياته وقاتل أعداءهم في خارج الحدود وداخلها وحقّق انتصارات باهرة هو والمهالبة من آل بيته يذكرها التاريخ لهم ما بقي التاريخ.

ولكنه هرب من سجن حَلَب بعد أن أيقن أنّ عمر بن عبد العزيز يعاني سكرات الموت، وكتب إلى عمر بعد أن أصبح حراً من سجنه: «إني والله لو علمتُ أنك تبقى ما خرجتُ من محبسي، ولكنني لم آمن يزيد بن عبد الملك»[3].

(١) الطبري (٦/ ٣٧٢).
(٢) الطبري (٦/ ٣٩٥).
(٣) الطبري (٦/ ٥٦٤).

وصدق يزيد بن المهلب، فقد كان بينه وبين يزيد بن عبد الملك عداوة مستحكمة، وكان يخشى أن يعذِّبه يزيد ويقتله، فكان انطلاقه من سجنه دفاعاً عن النفس، وهو دفاع مشروع.

وتطوّرت الأمور بسرعة بعد وصول يزيد إلى العراق، وجرت الرياح بما لا تشتهي السّفن، حتى آلت الأمور إلى ما آلت إليه حرباً ضروساً لم يكن من دعاتها ولكنه اصطلى بنارها، فاحترق الأخضر واليابس، ووقع أبلغ الضررعلى يزيد وآل بيته.

وسبب اندحاره في تلك الحرب بالرغم من كفايته القياديه، هو أن الأحداث جرفته بقوّة وعنف، فلم يستطع أن يختار مكان المعركة وزمانها، ويفرض هذا الاختيار فرضاً على قائد جيش الدولة، وبذلك خسر نصف المعركة قبل أن ينشب الاقتتال.

فقد كتب يزيد بن عبد الملك إلى أمير الكوفة وأمير البصرة يعلمهما بهرب يزيد بن المهلّب ويأمرهما أن يتهيأ كلٌّ منهما لقتاله وأن يسجن أميرُ البصرة آل بيت المهلّب.

أما أمير الكوفة، فقد بعث جيشاً لقتال يزيد، فمرّ يزيد في طريق هربه إلى البصرة بجيش الكوفة، فاتّقى ذلك الجيش الإقدام عليه، فمضى يزيد إلى سبيله، وعاد جيش الكوفة، إلى الكوفة راضياً بالسّلامة.

وأما أمير البصرة، فقد جمع إليه أهل البصرة وخندق عليها، وبعث على خيل البصرة قائداً من قادته، فقال عبد الملك بن المهلّب لأمير البصرة: «خُذْ ابني حُمَيْداً فاحبسه مكاني، وأنا أضمن لك أن أردّ يزيد عن البصرة، حتى يأتي فارس، ويطلب لنفسه الأمان، ولا يقربك»، فأبى عليه.

وجاء يزيد ومعه أصحابه الذين أقبل فيهم، والبصرة محفوفة بالرجال، وقد جمع محمد بن المهلّب - ولم يكن ممن حُبِس - رجالًا وفتية من أهل

بيته وناساً من مواليه، فخرج حتى استقبل يزيد، فأقبل يزيد في كتيبة تهول من رآها.

وأقبل يزيد لا يمرّ بخيل من خيول البصرة ولا قبيلة من قبائلها إلّا تَنحَّوْا له عن طريقه حتى يمضي. واستقبله قائد خيل والي البصرة، فحمل عليه محمد بن المهلّب في الخيل، فأفرج له عن الطريق هو وأصحابه.

ومضي يزيد في طريقه قُدُماً حتى نزل داره، واختلف الناس إليه.

وبعث يزيد إلى أمير البصرة. أن ادفع إليّ إخوتي الذين سجنتهم، وأنا أصالحك على البصرة، وأُخليك وإيّاها حتى آخذ لنفسي ما أحبّ من يزيد بن عبد الملك.

ولكنّ أمير البصرة رفض عرض يزيد، فاضطرّ يزيد أن ينقذ إخوته من السجن بالقوة[١].

وسُفك الدم بين رجال الدولة ورجال يزيد فلم يعد هناك أمل بالصلح بين الجانبين.

وكان حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب قد خرج إلى يزيد بن عبد الملك في الشام، فبعث معه ابن عبد الملك بأمان يزيد وأهل بيته[٢]، ولكن هذه المساعي السلمية للصلح جاءت متأخرة بعد أن سُفك الدّم، والدم يعقبه الدم.

وتكاثر الناس على يزيد في البصرة، ينضمّون إلى جيشه، لأنه كان يغدق عليهم المال بسخاء، بينما يبخل عليهم أمير البصرة بهذا المال[٣]، وأكثر الناس عبيد جيوبهم لا سادة قلوبهم.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٧٨ ـ ٥٨٢).
(٢) الطبري (٦/ ٥٨٠).
(٣) الطبري (٦/ ٥٨٠ ـ ٥٨١).

وخرج يزيد من البصرة، وخرج معه بالسِّلاح وبيت المال، فأقبل حتى نزل مدينة (واسِط)، وهناك استشار أصحابه قائلًا: «هاتوا الرَّأي، فإنّ أهل الشّام قد نهضوا إليكم!»، فقال له حبيب بن المهلّب، وقد أشار عليه غير حبيب أيضاً، فقالوا: «نرى أن تخرج وتنزل بفارس، فتأخذ بالشِّعاب والعِقاب، وتدنو من خُراسان، وتطاول القوم، فإنّ أهل الجبال، ينفضّون إليك وفي يديك القلاع والحصون»، فقال يزيد: «ليس هذا برأيِيْ، ليس يوافقني هذا، إنما تريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل!». فقال حبيب: «فإنّ الرأي الذي كان ينبغي أن يكون في أوّل الأمر قد فات: قد أمرتك حيث ظهرت على البصرة أن توجِّه خيلًا عليها أهل بيتك حتى تردَ الكوفة، فإنّ أميرها مررت به في سبعين رجلًا فعجز عنك، فهو عن خيلك أعجز في العدّة، فنسبق إليها أهل الشّام، وعظماء أهلها يرون رأيك، وأن تلي عليهم أحب إلى جُلِّهم من أن يلي عليهم أهل الشّام، فلم تُطعني! وأنا أشير الآن برأي: سرِّح مع أهل بيتك خيلًا من خيلك عظيمة، فتأتي الجزيرة - جزيرة ابن عمر - وتبادر إليها حتى ينزلوا حصناً من حصونها، وتسير في أثرهم، فإذا أقبل أهل الشّام يريدونك لم يدعوا جنداً من جنودك بالجزيرة ويقبلون إليك، فيقيمون عليهم، فيحبسونهم عنك، حتى تأتيهم فيأتيك مَنْ بالموصل من قومك، وينفضّ إليك أهل العراق وأهل الثغور، وتقاتلهم من أرض رخيصة السّعر، وقد جعلتَ العراق كله وراء ظهرك!»، فقال: «إني أكره أن أقطع جيشي وجندي»[1].

ولم يستطع يزيد أن ينفِّذ رأياً من هذه الآراء الحصيفة المخلصة، لأنّ الأحداث التي كانت تجري بسرعة خاطفة قد سبقته، فقد بعث يزيد بن عبد الملك العَباس بن الوليد بن عبد الملك في أربعة آلاف فارس جريدة خيل، حتى وافوا الحيرة يبادر إليها يزيدَ بن المهلّب، ثم أقبل بعد ذلك مسلمة بن عبد الملك وجنود الشام، وأخذ على الجزيرة وعلى شاطئ

(١) الطبري (٦/ ٥٨٨ - ٥٨٩).

الفرات[1]، ففات الوقت الذي كان يستطيع ابن المهلّب أن يسير إلى الجزيزة، لأنها أصبحت بسيطرة أهل الشام، أو يسير إلى فارس وخراسان، لأنّ جيش الشام أصبح قريباً منه لا يدعه يغلب أو يتملص من قبول المعركة.

وهكذا فرضت قوّات الدولة مكان المعركة، وزمانها، فربحت بذلك الدولة نصف المعركة، وكان المفروض أن يفرض زمان المعركة ومكانها يزيد على قوّات الدولة.

ولم يكن مكان المعركة مناسباً، فقد كان مكشوفاً في سهل ممتد إلى مسافات شاسعة، يساعد على الهجوم ولكنه لا يساعد على الدفاع، وقوّات الدولة إذا خسرت المعركة فيه، فإنها لا تخسر كل شيء، لأنها تستطيع أن تُعيد الكرة مرّة بعد أخرى، حتى تحرز النصر.

أما الأمر بالنسبة إلى يزيد، فمختلف جداً، لأنّه إذا خسر معركة واحدة، فقد خسر كلّ شيءٍ، كما حدث ذلك فعلاً.

كما أن مكان المعركة قريب من قاعدة الدولة الرئيسة في أرض الشّام، كما أنه قريب من القواعد المتقدِّمة: الكوفة وواسِط والبصرة والجزيرة، ولا عبرة بسيطرة يزيد على البصرة وواسِط، لأنها تبقى قواعد متقدّمة للدولة، ما دامت الدولة قائمة، وتدفع الأموال ثمناً للأمور الإدارية التي يحتاج إليها جيشها. أما فارس وخُراسان، فبعيدة عن قواعد الدولة الرئيسة والأماميّة والمتقدِّمة، مما يعرقل القضايا الإدارية لقوات الدولة ويهدد خطوط مواصلاتها بالانقطاع في أول نكسة تصيب تلك القوّات.

كما أنّ ليزيد جذوراً عريقة وعميقة في خُراسان، وفيها أعداد ضخمة من قومه ومن الموالين له، يَعتمد عليهم غاية الاعتماد في القتال، فكان بإمكان يزيد الاستفادة من أولئك الأنصار المخلصين له في الحرب، وقد

(١) الطبري (٦/ ٥٨٥).

أدرك يزيد هذه الحقيقة بعد فوات الأوان، فقال قُبَيْل أن ينشب القتال: «ترون أن في هذا العسكر ألف سيف يُضرب به؟!»، فقيل له: «إي والله، وأربعة آلاف سيف»، قال: «إنهم والله ما ضربوا ألف سيف قطّ، والله لقد أحصى ديواني مئة وعشرين ألفاً، والله لودِدْتُ أنْ مكانهم السّاعة معي مَنْ بخُراسان من قومي!!»[1]

ولم يكن زمان المعركة مناسباً أيضاً، فإنَ المطاولة تفيد يزيد لاستكمال استحضاراته القتالية، فكان ينبغي أن يكمل هذه الاستحضارات ثم يُنشب القتال بعد إكمال الإعداد لا قبله على كلٍّ حال.

ومن أسباب هزيمة يزيد، أنه لم يستطع أن يُعلن سبباً مسوِّغاً لثورته على الدولة، فخوفه على نفسه من يزيد بن عبد الملك ليس سبباً يقنع الناس في حينه بأنه على حقٍ فيما أقدم عليه.

لقد تظاهر يزيد بأنه ثار على الدولة ليعمل بكتاب الله وسنّة نبيِّه ﷺ[2]، باعتبار أنّ الدولة انحرفت عن منهج الدين الحنيف، ولكن لا أعتقد أنّ الحشود الذين التفّوا حوله قد صدّقوا هذا الشِّعار الذي أعلنه، كما لا أعتقد أن آل بيته المهالبة قد صدّقوا هذا الشِّعار أو التزموا به.

وقد كان الشُّعور الديني حينذاك قويّاً عارماً، وكان الناس يقبلون على مثل هذا الشعار إقبالاً شديداً، وكان من البصرة والكوفة من العلماء الأعلام الذين لا تنطلي علهم الشِّعارات الزائفة ولا يسكتون عن الذين يحملونها زوراً وبهتاناً.

فقد خطب يزيد بعد خلع يزيد بن عبد الملك وإعلان ثورته، فأخبر أهل البصرة بخطابه أنه يدعو إلى كتاب الله وسنّة نبيِّه ويحثُّهم على الجهاد. وكان الحسن البصريّ يسمع، فرفع صوته يقول: «والله لقد رأيناك والياً

(١) الطبري (٦/ ٥٩٢).

(٢) الطبري (٦/ ٥٩٢).

ومُوَلّى عليك، فما ينبغي لك ذلك»[1]، ومرّ الحسن بالناس وقد نصبوا الرايات، وهم ينتظرون خروج يزيد، وهم يقولون: تدعونا إلى سُنّة العُمَرين، فقال الحسن: «كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون، ثم يرسلها إلى بني مروان يريد رضاهم، فلما غضب نصب قصباً ثم وضع عليها خِرَقاً، ثمّ قال: إني قد خالفتهم فخالفوهم! قال هؤلاء: نعم! ثم قال: إني أدعوهم إلى سُنّة العُمْرَيْن، وإنّ من سنّة العُمَرَين أن يوضع في رجله قيد ثم يُرَدّ إلى محبسه»[2]، ثم مضى الحسن يثبّط الناس، ويأمرهم بالقعود، لأنّ يزيد في شِعاره الديني الذي رفعه ليس صادقاً.

وكان في المجتمع الإسلامي حينذاك من علماء الحق أمثال الحسن البصري كثير، يقولون كلمة الحق كما جاء بها الدين الحنيف، ولم يكن في ذلك المجتمع من علماء السلطان الذين يؤيدون السلطان ويسوغون كلمته مهما تناقض تعاليم الدين الحنيف، لذلك أخفق يزيد في رفع هذا الشعار، لأنه لم يكن بينه وبين رجال الدولة فرق كبير، ولأنّ صوت علماء الحق اكتسح صوت علماء السلطان، فالتفّ حول يزيد الراغبون في الدنيا، ولم يلتف حوله الراغبون عن الدنيا.

ومن المعلوم أن الذي يقاتل عن عقيدة راسخة، ليس كالذي يقاتل بدون عقيدة، والجندي المجاهد غير الجندي المرتزق، وكل ثورة بلا (قضيّة) تؤمن بها وتدافع عنها قد تنتصر ولكنّ انتصارها لا يبقى طويلاً، ومصيرها إلى الإخفاق الأكيد.

وقد كان غالبية جند يزيد مرتزقة، تكاثروا عليه حين وجدوه جواداً كريماً، وتخلّوا عن أمير البصرة حين وجدوه بخيلًا مقتّراً، فلما زجّت الدولة بقواتها الضاربة وفتحت خزائنها بسخاء للذين يؤيدونها، تسلّل كثير من

(١) ابن الأثير (٥/ ٧٥).

(٢) الطبري (٥/ ٧٦).

المرتزقة إلى معسكر الدولة من معسكر يزيد، فالأمر بالنسبة لهؤلاء مسألة مكاسب شخصيّة لا أكثر ولا أقلّ.

كما أنّ غالبية جيش مَسْلَمَة بن عبد الملك، وهو جيش الدولة، كان من المرتزقة أيضاً، فكان من أسباب إخفاق يزيد أنّ مرتزقته قاتلوا لمستقبل غير مضمون، بينما انتصر مرتزقة الدولة لأنهم قاتلوا لمستقبل مضمون، فما مستقبل يزيد الغامض كمستقبل دولة قائمة راسخة الجذور!

وبالنسبة للمرتزق، فإنه يشهد الحرب ولكنه لا يقاتل إلّا مضطراً، أما إذا كان في غفلة من عيون المراقبين، فهو لا يقاتل أبداً، بل يأوي إلى موضع أمين مريح، حتى تنتهي المعركة غير مكترث إذا خَسرها الذين يرتزق منهم أو ربحوها، وقد ينقلب من جماعته إلى أعدائها إذا كان ما يدفعه العدو أكبر مما يدفعه الصديق.

فإذا شعر المرتزق أنّ حياته أصبحت مهدّدة بالموت، وكان قادراً على الفرار، فإنه لا يتردد لحظة واحد للفرار من خطر المعركة إلى أمن السّلام.

وقد هرب مرتزقة يزيد فوراً حين قيل لهم: أُحرق الجسر، فانهزموا لا يلوون على شيء، لأنّ الجسر يفيدهم في التّسلل إلى الصحراء أو إلى المدن الأخرى، فقال يزيد: «قبّحهم الله! بَقٌّ دُخِّن عليه فطار» وخرج يزيد وخرج معه أصحابه ومواليه وناس من قومه، فقال: «اضربوا وجوهَ مَنْ ينهزم»، ففعلوا ذلك بهم، فاستقبلهم منهم مثل الجبال، فقال: «دعوهم! فوالله إني لأرجو ألّا يجمعني الله وإياهم في مكان واحد أبداً! دعوهم يرحمهم الله، غَنَمٌ عدا في نواحيها الذئب»[1].

وصدق يزيد، فالمرتزق كالبق، يطير بعيداً عن الدخان، أما غير المرتزق، فلا يخشى الدخان، بل يقتحم النار ولا يحترق.

---

(١) الطبري (٦/ ٥٩٥).

وسبب هرب المرتزق في أول صدمة، هو أنه لا (قضيّة) له يؤمن بها ويدافع عنها ويضحي من أجلها، كما أنه حين يتعرض للموت، فالروح أغلى ممن المال الذي يقبضه، وهو تاجر في الحرب يوازن بين الخسارة والربح، فإذا رجحت كفّة الخسارة على كفّة الربح، تملّص من المعركة ناجياً بروحه ليدخّرها لارتزاق جديد.

وهكذا لم يبق مع يزيد في معركة (العَقْر) غير أصحابه ومواليه وناس من قومه، ثبتوا وضحّوا دفاعاً عن أنفسهم ومصالحهم الشخصيّة وأحسابهم، أما (القضية) التي يضحي الناس من أجلها، فغائبة عن هذا الميدان.

وتَغَلُّبُ عنصرِ المرتزقة على جيشِ يزيد، جعله لا يثق به كما كان يثق برجاله الذين قاتلوا تحت رايته في معارك الفتح ومعارك استعادة الفتح.

وقد كان تَعداد جيشه مئة ألف في معركة (العَقْر)، ولكنه كان لا يصدِّق أنّ ألفاً منهم يقاتلون كما يقاتل الرجال[١]، أي أنّه كان يثق بواحد بالمئة من تعداد جيشه ولا يثق بتسع وتسعين بالمئة من هذا الجيش.

ولا يمكن أن ينتصر قائد يقود مثل هذا الجيش!

ومن عيوب المرتزقة، أنهم لا يتحلّون بالضبط المتين، فهم لا يطيعون الأوامر كما ينبغي، ولا ينفذونها إذا كان تنفيذها يناقض مصالحهم الشخصيّة، وبخاصة إذا كان تنفيذها يؤدي بهم إلى الموت.

لقد كانت أوامر يزيد في المعركة لا تنفذ، وكانت موضع نقاش بينه وبين المترددين من رجاله[٢]، وكان لا ينفِّذ أوامره غير أصحابه ومواليه وأهل بيته، أما الباقون فكانوا متفرّجين، ولقد برز رجل من أهل الشّام في بداية المعركة ودعا إلى المبارزة، فلم يخرج إليه أحد من جيش يزيد،

(١) الطبري (٦/ ٥٩٢).

(٢) الطبري (٦/ ٥٩٣).

فاضطر محمد بن المهلّب أن يبرز للرجل الشامِي وقاتله[1]. إذا أنّ المبارزة هي تحدي جيش لآخر، ولا ينبغي السكوت عن التحدي ولا قبوله.

تلك هي مجمل أسباب هزيمة يزيد: قبول معركته الفاصلة في وقت غير مناسب ومكان غير مناسب، وغياب (قضيّة) يؤمن بها الناس ويلتفون حولها ويضحّون من أجلها، وقيادة جيش من المرتزقة لا يقاتل ولا يوثق به، ولا يتحلّى بالضبط المتين ولا يطيع الأوامر الصادرة إليه من القيادة ولا ينفِّذها.

بقي علينا أن نذكر أنّ يزيد كان يعتدّ برأيه كثيراً ولا يعتد بآراء الآخرين، ولا يقبل نصائح الناصحين، فهو قلما يستشير أحداً، وإذا استشار خالف المشيرين.

وأستطيع أن أتبيّن بوضوح من دراسة شخصيّته، أنه كان يتميّز بالعناد الشّديد، فإذا قرّر أمراً مضى في تنفيذه، غير ملتفت إلى آراء الآخرين.

وحين وجد أموره في معركة (العَقْر) سيِّئة لا تبشِّر بخير، قرّر أن يموت مقاتلًا، فقد كان لا يحدِّث نفسه بالفِرار[2].

وطالما تحدّث عن هرب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكِنْدِيّ من معركته أمام الحجّاج بن يوسف الثقفيّ. فقال عنه بمرارة وأسى: «إنّ عبد الرحمن فضح الذّمار، وفضح حَسَبَه، وهل كان يعدو أجلَه!»[3].

وهو الذي أوصى ابنه خالداً، وقد بعثه قائداً لسرية في واجب محفوف بالأخطار، في معارك استعادة فتح (جُرْجان)، فقال لابنه: «إنّ غُلِبْتَ على الحياة، فلا تُغْلَبَنّ على الموت، وإيّاكَ أن أراك عندي مُنْهَزِماً»[4].

---

(١) الطبري (٦/ ٥٩٥).

(٢) الطبري (٦/ ٥٩٦).

(٣) الطبري (٥/ ٥٩٢).

(٤) الطبري (٦/ ٥٤٣).

وليس يزيد ممن ينتقدون أحداً، ولا يتحاشون ما عابوا الناس به، وليس ممن يوصي ابنه بأمرٍ، ولا يطبِّق وصّيته على نفسه، وليس يزيد ممن يقولون ما لا يفعلون.

ومضى يزيد إلى الموت حُضْراً على حصانه، والسيف بيده لا يرتعش ولا يهون، فسقط قتيلًا وبقي السيف بيده، فخسر في معركته الأخيرة كلّ شيءٍ.... إلّا الشرف.

ابن المُهَلّب في التّارِيخ:

يذكر التّاريخ ليزيد بن المهلّب، أنّه فتح مناطق واسعة في بلاد ما وراء النهر وخُراسان وطَبَرِستان.

وأنّه استعاد فتح مناطق شاسعة انتقضت من هذه البلاد الإسلاميّة الثلاثة.

وأنّه أعاد إليها الأمن والاطمئنان والسّلام، بعد أن عاشت رَدْحاً من الزمن تعجّ بالقلاقل والاضطرابات والفتن.

ويذكر له، أنّه كان قائداً فذاً لا يتكرّر إلّا نادراً، وإدارياً قديراً يسيطر على رعيته بقوّة من غير عنف وسماحة من غير ضَعف.

ويذكر له، أنّه كان يؤثر أن يكون (غازياً) في الفيافي والقِفار والسهول والجبال، على أن يبقى (جابياً) في المدن والأمصار والقصور والدّور.

ويذكر له، أنّه كان يقود رجاله من (الأمام)، يقول لهم: اتبعوني، ولا يقود رجاله من (الخلف)، يقول لهم: تقدّموا، ويبقى هو في موضع أمين.

ويذكر له، أنه كان جواداً سبق الأولين والآخرين من جوده، كأنّ السّفن كانت تمخر في عُباب جوده.

ويذكر له، أنه كان شجاعاً لا يخشى أحداً في القتال، ويخشاه كلّ أحد، وكان الموت أهون عليه من الفرار.

ويذكر له، أنه كان يقول ويفعل، ولا يقول دون أن يفعل، وكان عمله الغالب على قوله، فإذا تكلّم التزم بكلامه التزاماً مطلقاً.

ويذكر له، أنّه ضحّى بنفسه ولم يُضحِّ بشرفه، فخسر كلّ شيءٍ في معركته الأخيرة إلّا شرفه وشرف قومه.

ويذكر له، أنه من بين القلائل الذين استحقّوا ثناء أعدى أعدائهم وثناء الذين ساقوهم إلى الموت في ميدان القتال.

ويذكر له، أنه كان فتى العرب في أيامه دون منازع، وسيد أهل العراق بعامة وأهل البصرة بخاصة.

ويذكر له، أن قتله لم يكن خسارة للمهالبة وحدهم، بل كان خسارة للدولة وخسارة للمسلمين كافة.

ويذكر له، أنّه قضى حياته أميراً تارة وسجيناً تارة أخرى، ولكن منزلته أميراً ومَنزلته سجيناً في القمة بنظر الناس الذين يقصدونه في السِّجن كما يقصدونه في القصر.

ويذكر له، أنّه من القلائل الذين يثبتون عملياً، بأنّ مراسيم الخلفاء، تصنع الوزراء ولكنها لا تصنع الرجال.

يرحم الله القائد الفاتح، والإداري الحازم، الفارس البطل، الجواد الكريم، يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة الأزدي، جزاء ما قدّم للعرب والمسلمين حيّاً من أعمال جليلة، وما قدّمه مَيْتاً من مُثُلٍ عُلْيا.

المُفَضَّل بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة الأَزْدِيّ
فاتح شطر خُراسان وما وراء النهر[1]

نسبه وأيامه الأولى:

هو أبو عثمان[2] المُفَضَّل بن المُهَلّب بن أبي صُفْرَة الأَزْدِيَ، وهو من أَزْد العَتِيْك - أَزْد (دَبا).

أبوه: المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة بن سَرَّاق[3] بن صُبَيْح[4] بن كِنْدِيّ بن عمرو بن وائِل بن الحارث بن العَتِيْك بن الأسد[5] بن عِمْران بن عمرو مُزَيْقِياء[6] بن عامِر بن ماء السَّماء[7] بن حارِثة بن امرئ القَيْس بن ثَعْلَبة بن مازِن بن الأَزْد الأَزْدِيّ العَتَكِيّ[8].

---

(١) ما وراء النهر: ما رواء نهر جيحون، فما كان في شرقيِّه يقال له: ما وراء النهر، وما كان في غربيِّه يقال له: خُراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣٧٠) والمسالك والممالك للإصطخري (١٦١) وآثار البلاد (٥٥٧) وتقويم البلدان (٤٨٣ - ٥١٥).

(٢) العقد الفريد (٤/ ٤٢٩).

(٣) ويقال: ابن سارق، انظر الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) والإصابة (٧/ ١٠٥).

(٤) في وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢): ابن صبح، وكذلك في جمهرة أنساب العرب (٣٦٧).

(٥) في الإصابة (٧/ ١٠٥) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢) ابن الأزد.

(٦) مزيقياء: لقب عمرو المذكور، وكان من ملوك اليمن، انظر وفيات الأعيان (٤/ ٤٥٣).

(٧) في وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٩): عامر ماء السماء، لا عامر بن ماء السماء، كما ورد في أعلاه، وقد لقّب بماء السماء لجوده وكثرة نفعه، فشبِّه بالغيث.

(٨) أسد الغابة (٥/ ٢٣١)، وانظر الإصابة (٣/ ٢٠٣) و (٧/ ١٠٥) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) وطبقات ابن سعد (٧/ ١٠١) و (٧/ ١٢٩)، ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢) والمعارف (٣٩٩) والبلاذري (٣٠٧) وسرح العيون (١٠٢) والتنبيه والإشراف (٣٢٠)، واسم أبي صفرة: ظالم، انظر جمهرة أنساب العرب (٣٦٧).

وأمّه: بَهْلَة الهندية أم ولد، ولدت المفضَّل وأخاه عبد الملك[1].

ولم أجد نصّاً يذكر سنة ولادة المُفَضَّل، وقد كان أصغر من أخيه يزيد بن المهلّب الذي ولُد سنة ثلاث وخمسين الهجريّة[2] (٦٧٢م)، وأوّل ما ورد ذكره في حرب الخوارج بكَرْمان سنة سبع وسبعين الهجرية[3] (٦٩٦م) بطلًا يُشار إليه بالبنان، فقال: يصفه للحجّاج الرجلُ الذي سيّره المهلّب إلى الحجّاج مبشّراً بالنصر: «..... وكفاكَ بالمُفضّل نجدةً...»[4].

ولا يمكن أن يشهد المُفضّل مثل تلك الحرب الضروس قبل أن يبلغ العشرين من عمره، قبل ذلك بقليل، أو بعد ذلك بقليل، أي أنّ سنة ولادته هي حوالي سنة سبع وخمسين الهجرية (٦٧٦م).

وشبَّ المفضَّل وترعرع في كنف أبيه المهلّب الذي تولى القيادة في وقت مبكّر من حياته على عهد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م)، واستمرّ قائداً ووالياً حتى توفاه الله سنة اثنتين وثمانين الهجريّة (٧٠١م) وهو على خُراسان عائداً من غزو بلاد ما وراء النهر[5]. وقد كان المهلّب من أبرز قادة الفتح، برز في الفتوح، وبرز في إخماد الفتن الداخلّية، فكان المفضَّل مع أبيه منذ سنة سبع وسبعين الهجرية تقريباً في معارك الفتح ومعارك إخماد الفتن الداخليّة منذ أصبح قادراً على حمل السّلاح واستعماله، فاكتسب خبرة عمليّة في القيادة والإدارة في محيط أبيه المهلّب المتميز بالكفاية العالية والشّجاعة والحنكة، ممّا كان له أثر كبير في حياته قائداً وإدارياً.

---

(١) الطبري (٦/ ٣٩٥).
(٢) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢٠٦) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٤٩).
(٣) ابن الأثير (٤/ ٤٤٠).
(٤) ابن الأثير (٤/ ٤٤١).
(٥) الطبري (٦/ ٣٥٠).

ويبدو أنّ المفضَّل كان من أبرز أعوان أبيه المهلَّب في حروبه بخاصة، إذا لم يرد ذكر لتوليه المناصب الإداريّة في حياة المهلّب، ولعلّ صغر سنّه حجبه عن تولي تلك المناصب، لأنّ المهلّب ولّى المُغيرة ابنه الأكبر أولًا، فلما توفي المغيرة ولّى يزيد ابنه على خُراسان خلفاً للمغيرة بن المهلّب ونائباً عن المهلّب، لأنه أصبح بعد وفاة المغيرة أكبر أبناء المهلّب.

ومن الواضح أنّ أعباء المهلّب القتاليّة، وانغماس ولده المفضّل في معاونة أبيه، حرمت المفضّل من التفرّغ لاستيعاب العلوم النظريّة السّائدة في أيامه: علوم القرآن والحديث واللّغة والأدب والتاريخ، فلم نجد له ذكراً في مجال تلك العلوم، ولكنّه لم يُحرم نهائياً من تعلّم تلك العلوم، ولعلّ مجالس والده الزاخرة بالعلماء كانت خير معلّم له، وهي مدرسة عمليّة لا تقلّ أهميّة عن المدارس النظريّة، بل قد تكون أجدى منها وأكثر نفعاً.

ولما حضرت الوفاةُ المهلّبَ، دعا المهلّبُ مَنْ حضره من ولده ومنهم المفضّل، ودعا بسهامٍ فحزمت، وقال: «أترونكم كاسريها مجتمعةً؟»، قالوا: «لا!»، قال: «أترونكم كاسريها متفرّقة؟»، قالوا: «نعم»، قال: «فكهذا الجماعة، فأوصيكم بتقوى الله وصِلة الرَّحِم، فإنَّ صِلة الرَّحم تُنْسِئُ في الأجل، وتُثْري المال، وتُكْثِر العَدَد؛ وأنهاكم عن القطيعة، فإنّ القطيعة تُعْقِب النّار وتورث الذِّلّة والقِلّة، فتحابُّوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا، وتبارُّوا تجتمعْ أمورُكم. إنّ بني الأُم يختلفون، فكيف ببني العَلّات[1]! وعليكم بالطّاعة والجماعة، وليكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجوابَ وزَلَّةَ اللّسان، فإنَّ الرَّجل تزلّ قدمُه فينتعش من زلّته، ويزِلّ لسانُه فيهَلِكِ. اعرفوا لمن يغشاكم حقّه، فكفى بغُدوِّ الرجل ورَواحه إليكم تذكرةً له، وآثروا الجود على البُخل، وأحبّوا العرب، واصطنعوا العُرْف، فإنّ الرجل من

(١) العَلّات: جمع العَلّة، وهي الضُرَّة. وبنو العَلّات: بنو رجل واحد من أمهات شتى.

العرب تَعِدَهُ العِدَةَ فيموتَ دونَك، فكيف الصنيعة عنده!! عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة، فإنّها أنفع في الحرب من الشّجاعة، وإذا كان اللّقاء نزل القضاء، فإنْ أَخَذَ رجلٌ بالحزم فظهر على عدوّه قيل: أَتى الأمرَ من وَجْهه، ثم ظفر فحُمِد، وإنْ لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرّطَ ولا ضيّعَ، ولكنّ القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن، وتعليم السنَن، وأدب الصّالحين، وإيّاكم والخِفَّة وكثرةَ الكلام في مجالسكم، وقد استخلفتُ عليكم يزيد، وجعلت حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد، فلا تخالفوا يزيد»، فقال المفضّل: «لو لم تقدِّمه لقدّمناه»[1].

والحقّ أنَّ المهلَّب وحده، كان مدرسة كاملة، ليس بالنسبة لبنيه وآل بيته حسب، بل بالنسبة للذين يتصلون به ويشهدون مجالسه ومعاركه وتصريفه للأمور في حياته، ولا تزال سيرته وأقواله أسوة حسنة للذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، فهو يعلّم العقلَ ويلّقي العلمَ ويأمر بالحكمة ويوصي بالدهاء ويدرِّب على فنون القتال وأساليب الإدارة، وحسب المفضّل أن يكون ابن أبيه وتلميذه النجيب، ليكون على قدرٍ وافٍ من العلم والعقل والدهاء، ومعالجة القضايا الإدارية والمعضلات العسكريّة.

الفاتح:

في سنة خمس وثمانين الهجريّة (٧٠٤م)، عزل الحجّاج عن خُراسان يزيدَ بن المهلّب وولّى مكانه أخاه المفضّل[2].

وغزا المفضّل في هذه السنة (بَاذَغِيْس)[3] فاستعاد فتحها، وكانت قد انتقضت، وأصاب مغنماً، فقسمَه بين الناس، وأصاب كلّ رجل منهم ثمانمائة درهم.

---

(١) الطبري (٦/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥) وابن الأثير (٤/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦)، وانظر وفيات الأعيان (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

(٢) الطبري (٦/ ٣٩٣) وابن الأثير (٤/ ٥٠٣).

(٣) باذغيس: إقليم يشمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروذ، قصبتها بَوْن وباميين بلدتان متقاربتان، وهي ذات خير ورخص، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣١).

ثم غزا (أَخْرون) و (شُومان)[1]، فظفر وغَنم، وقَسَمَ ما أصاب بين الناس.

ولم يكن للمفضّل بيت مال، فكان يُعطي الناسَ كلّما جاءه شيء، وإن غَنِم شيئاً قَسَمه بينهم.

وهكذا استعاد المفضَّل فتح منطقتين واسعتين من خراسان وبلاد ما وراء النهر، في مدّة زمنيَّة قصيرة جداً، إذ لم يَبْقَ على خُراسان غير تسعة أشهر فقط[2]، ثم عُزل بقُتَيْبةُ بن مُسْلِم الباهليّ[3].

ولعلّ استطاعة المفضّل استعادة هاتين المنطقتين الواسعيتن في خُراسان وبلاد ما رواء النهر بسرعة خير دليل على قابليته القياديّة الفذّة.

في الاقتتال الداخلي:

١ ـ في حرب الخوارج

كان المهلّب بن أبي صُفْرَة الأَزْدِي، من أبرز قادة الدولة الذين حاربوا الخوارج وانتصروا عليهم، إن لم يكن أبرز القادة على الإطلاق، وكان المفضَّل وسائر أبناء المهلّب من ألمع المقاتلين الذين أعانوا أباهم المهلّب على تحمّل أعبائه القتالية والقيادية جنوداً وقادة مرؤوسين لأبيهم على التشكيلات التعبويّة، فعاونوه بصدقٍ وحماسة في مختلف ميادين القتال.

وأوّل ما ورد ذكر المفضّل في حرب الخوارج، كان في حوادِث سبع وسبعين الهجريّة (٦٩٦م)، فقد كانت هناك حرب بين المهلَّب والخوارج في (كَرْمان)، انتصر فيها المهلّب على الخوارج انتصاراً مؤزَّراً.

وبعث المهلّب إلى الحجّاج بن يوسف الثَّقَفِيّ أحد رجاله مبشِّراً بالنّصر، فلما دخل على الحجّاج أخبره عن جيش المهلَّب وعن الخوارج وذكر حروبهم، وأخبره عن أبناء المهلّب فقال: «المُغِيْرَة فارسهم وسيِّدهم،

(١) أخرون: لا ذكر لها في كتب البلدان المتيسرة لديّ، وشومان: بلد الصغانيان، بما وراء النهر، انظر معجم البلدان (٥/ ٣١٠).

(٢) الطبري (٦/ ٣٩٧).

(٣) الطبري (٦/ ٤٢٤).

وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسخيّهم قَبِيْصَة، ولا يستحي الشّجاع أن يفرّ من مُدْرِكة، وعبد الملك سَمٌّ ناقع، وحبيب موت زُعاف، ومحمّد ليث غاب، وكفاك بالمفضَّل نجدةً»، فقال الحجّاج: «فأيهُّم كان أنجد؟»، فقال: «كانوا كالْحَلْقَة المُفْرَغَة، لا يُعرف طرفها»، فاستحسن الحجّاج قوله، وكتب إلى المهلّب يشكره، ويأمره أن يولّي كِرْمان مَنْ يثق به، ويجعل فيها مَنْ يحميها ويقدِم إليه[1].

وفي معارك كَرْمان، أخرج المهلّب بنيه، كلّ ابن له على كتيبة من الكتائب، وأخرج الناس على راياتهم.

وجاء موفد الحجّاج البَراء بن قَبِيْصَة الذي بعثه إلى المهلّب ليراقب بلاءه وبلاء بنيه عن كثب في حرب الخوارج، فوقف على تلٍّ قريب من ساحة المعركة حيث يشاهد الاقتتال لا تخفى عليه منه خافية. وأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال، فيقتتلون أشدّ اقتتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار، ثم انصرفوا.

وجاء البَراء بن قَبِيْصَة إلى المهلّب، فقال له: «لا والله، ما رأيتُ كبَنِيْك فرساناً قط، ولا كفرسانك من العرب فرساناً قط، ولا رأيت مثل قومٍ يُقاتلونك قط، أصبرَ ولا أبأس، أنت والله المعذور».

حتى إذا كان عند العصر، خرج المهلّب إلى الخوارج بالناس وبنيه في كتائبهم، فقاتلوا كقتالهم أوّل مرة[2].

وقدم عبد الرحمن بن سُلَيْم الكلبّي على المهلّب، فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم، فقال: «آنس اللَّهُ الإسلام بتلاحقكم[3]! أما والله، لئن لم تكونوا أسباط نُبوَّة، إنكم لأسباط مَلْحَمة»[4].

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٤٤٠ ـ ٤٤١).

(٢) الطبري (٦/ ٣٠٢) وابن الأثير (٤/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨).

(٣) تلاحقت المطايا ونحوها: أدرك بعضها بعضاً، والتصق به وانضمّ إليه.

(٤) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢٦)، والملحمة: الحرب الشّديدة.

وسأل المهلّبُ البَراء بن قَبِيْصة: «كيف رأيت؟»، قال: «رأيتُ قوماً والله ما يعينك عليهم إلّا الله»، ثم انصرف إلى الحجّاج فأتاه بعذر المهلّب، وأخبره بما رأى.

وكتب المهلّب إلى الحجّاج: «أتاني كتاب الأمير أصلحه الله، واتّهامه إياي في هذه الخارجة المارقة، وأمرني الأمير بالنهوض إليهم، وإشهاد رسوله ذلك. وقد فعلتُ، فليسأله عما رأى! وأمّا أنا فوالله لو أقدِر على استئصالهم وإزالتهم عن مكانهم ثمّ أَمسكتُ عن ذلك لقد غششت المسلمين، وما وفيتُ لأمير المؤمنين، ولا نصحتُ للأمير - أصلحه الله - فمعاذ الله أن يكون هذا من رأيي، ولا مما أدين اللّهَ به، والسّلام».

ثمّ إنَّ المهلَّب قاتلهم بها ثمانية عشر شهراً فكبَّدهم خسائر فادحة، وكبَّدوه خسائر فادحة أيضاً، حتى نشب الخلاف فيما بينهم، فتركهم المهلّب يقتتلون شهراً لا يحرِّكهم.

وأخيراً استطاع المهلّب أن ينتصر عليهم بعد عناء شديد وصبر جميل وصراع مرير[1].

لقد خاض المهلّب غمار الاقتتال في حرب الخوارج، وقاتل المفضَّل بإمرة أبيه في هذه الحرب الضروس، وكان له في نتائج ذلك الاقتتال أثر حميد.

٢ ـ في قتال الهاشميّ

أعلن عبد الرحمن بن محمد بن الأَشْعَث الثَّورة على الحجّاج والدولة في العراق سنة إحدى وثمانين الهجريّة[2] (٧٠١م).

وأقبلت سنة اثنتين وثمانين الهجريّة (٧٠٢م)، فاشتدّ الاقتتال بين الحجّاج وابن الأشعث، وتخلّى ابن الأشعث عن البصرة مُنسحباً إلى الكوفة، فاجتمع مَنْ بقي في البصرة مع عبد الرحمن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب الهاشميّ، فقاتل بهم الحجّاج خمس ليالٍ أشدّ قتال

---

(١) الطبري (٦/ ٣٠٢ ـ ٣٠٨).

(٢) الطبري (٦/ ٣٣٦) وابن الأثير (٤/ ٤٦٣).

رآه الناس، ثمّ انصرف فلحق بابن الأشعث، وتبعه طائفة من أهل البصرة[1].

واستمّرت الحرب بين الحجّاج وابن الأشعث سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٣م) سجالًا، وأخيراً انتصر الحجّاج على ابن الأشعث[2]، فغادر العراق إلى سِجِسْتان أولًا وإلى كِرْمان منسحباً من سِجِسْتان، وأخيراً سار ابن الأشعث مع (رتْبِيل) إلى بلاده، فأنزله وأكرمه وعظّمه[3].

وكان كثير من أصحاب ابن الأشعث من الرؤوس والقادة الذين لم يقبلوا أمان الحجّاج ونصبوا له العداوة في كلِّ موطن قد تبعوا ابن الأشعث، فبلغوا سِجِسْتان في نحو ستين ألفاً ونزلوا على (زَرَنْج)[4] يحاصرون مَنْ بها، وكتبوا إلى ابن الأشعث يستدعونه، فأتاهم.... وكان يُصَلّي بأصحاب ابن الأشعث قبل قدومه عبد الرحمن بن عبّاس الهاشميّ، واستولوا على (زَرَنْج).

وسار ابن الأشعث إلى (هراة)[5]، فهرب من أصحابه عُبَيْد الله بن عبد الرحمن بن سَمُرَة القُرَشِيّ في ألفين، فقال لهم ابن الأشعث: «إني كنت في مأمنٍ وملجأٍ، فجاءتني كتبكم: أَنْ أَقْدِمْ! فإن أمرنا واحد، فلعلّنا نقاتل عدوّنا، فأتيتكم فرأيتم أن أمضي إلى خُراسان، وزعمتم أنكم تجتمعون إليّ، وأنكم لا تتفرّقون، وهذا عُبيد الله قد صنع ما رأيتم، فاصنعوا ما بدا لكم، أما أنا فمنصرف إلى صاحبي الذي أتيت من عنده».

---

(١) الطبري (٦/ ٣٤٣) وابن الأثير (٤/ ٤٦٧)، وانظر تفاصيل هذه المعارك في الطبري (٦/ ٣٤٢ ـ ٣٥٠) وابن الأثير (٤/ ٤٦٧ ـ ٤٧٢).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣٥٧ ـ ٣٦٨) وابن الأثير (٤/ ٤٧٨ ـ ٤٨٣).

(٣) الطبري (٦/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩) وابن الأثير (٤/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

(٤) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان، وسجستان اسم الكورة كلّها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦).

(٥) هراة مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٥١ ـ ٤٥٢)، وهي من أكبر مدن أفغانستان في الوقت الحاضر.

وسار عبد الرحمن الهاشميّ إلى (هَرَاة)، فلقوا فيها الرّقاد الأَزدي، فقتلوه.

وأرسل يزيد بن المهلّب إلى الهاشمي: «قد كان لك في البلاد مُتّسع ومَنْ هو أهون مني شوكة، فارتحل إلى بلدٍ ليس لي فيه سلطان، فإني أكره قتالك، وإن أردتَ مالًا أرسلتُ إليك».

ولكنّ الهاشمي أعاد الجواب: «إنّا ما نزلنا لمحاربة ولا لمقام، ولكننا أردنا أن نُريح ثمَّ نرحل عنك، وليس بنا إلى المال حاجة».

وأقبل الهاشمي على الجباية، وبلغ ذلك يزيد، فقال: «مَنْ أراد أن يُريح ثم يرتحل، لم يَجْبِ الخَراج، فلكَ ما جبيتَ وزيادة، فاخرج عني فإني أكره قتالك».

وأبى الهاشميّ إلّا القتال، وكاتب جند يزيد يستميلهم ويدعوهم إلى نفسه، فعلم يزيد بذلك فقال: «جل الأمرُ عن العتاب».

وقدَّمَ يزيدُ بن المهلّب أخاه المفضَّل في أربعة آلاف، ويقال: في ستة آلاف، ثمّ أتبعه في أربعة آلاف، ثم قدِم يزيد على رأس جيشه إلى منطقة (هَراة).

وقال يزيد للمفضَّل: «قدِّم خيلَك»، فتقدَّم بها المفضَّل، فلم يكن بينهم كثير قتال حتى تفرّق أصحاب الهاشميّ عنه، فصبر وصبرت طائفة معه، ثم انهزموا.

وأمر يزيد أصحابه بالكفِّ عن مطاردة المنهزمين، وأخذوا ما كان في معسكرهم، وأسروا منهم أسرى.

ولحق الهاشميّ بالسِّند، فانصرف يزيد بن المهلّب ومعه أخوه إلى (مَرْو) مقرّه في خُراسان، وبعث بالأَسرى إلى الحجّاج عدا مَنْ كان منهم من الأَزْد أو مَنْ كان له عليه أو على آل المهلّب فضل ومعروف.

ولما وصل الأسرى إلى الحجّاج، قتلهم بلسانه تأنيباً وتقريعاً، قبل أن يقتلهم بسيفه، فكان لسانه أشدّ وقعاً عليهم من سيفه وأشدّ تأثيراً فيهم قبل أن يفارقوا الحياة[1].

وقد كان للمفضَّل في هذا الاقتتال أثر كبير، فقد سارع بقوّاته وطوّق الهاشميّ ورجاله، وأخذ عليهم المداخل والمخارج، وبذلك سهّل مهمة يزيد بن المهلّب في القضاء عليهم بسهولة ويسر.

كما أنّه كان قائد الخيل في أثناء الاقتتال، فكانت سرعته الخاطفة في الهجوم على الهاشميّ وأصحابه، سبباً في هزيمة أكثر رجال الهاشمي بدون مقاومة تذكر، ومن ثم هزيمة الهاشميّ ومَنْ ثبتَ معه في الاقتتال بعد وقت قصير من نشوب الاقتتال.

وقد كانت سرعة تقدم خيل المفضّل بشكل خاطف، عاملًا من أهم عوامل انهيار معنويات الهاشميّ ورجاله، فهرب معظم رجاله من جراء انهيار معنوياتهم، وثبت قسم قليل منهم خوفاً من عار الهزيمة، ولكن ثباتهم لم يدم طويلًا، فهربوا كما هرب أصحابهم من قَبْلُ، ووقع بعضهم في الأسر، لأنّهم عجزوا عن الهرب لتطويقهم أو لجرح قسم منهم.

ولعلّ الفضل الأكبر في انتصار يزيد بن المهلّب على الهاشمّي ورجاله في معركة (هَراة) يعود إلى أخيه المفضّل قائداً.

٣ ـ في حرب ابن خازِم:

أ ـ غادر سَلْم بن زياد[2] خُراسان بعد موت يزيد بن معاوية بن أبي سُفيان سنة أربع وستين الهجرية[3] (٦٨٣م)، فلما وصل إلى نَيْسَابور لقيه

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣٦٩ ـ ٣٨٠) وابن الأثير (٤/ ٤٨٤ ـ ٤٨٧) وابن خلدون (٣ ـ ١١٢ ـ ١١٤)، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢٨٣) و(١/ ٢٨٤).

(٢) انظر سيرته المفصّلة في هذا الكتاب.

(٣) ابن الأثير (٤/ ١٢٥).

عبد الله بن خازِم[1]، فقال: «مَنْ ولَّيْتَ خُراسان؟»، فلما علم أنّه ولّى المهلّب بن أبي صُفْرَة الأَزْدِيّ وهو من اليمن، وسليمان بن مَرْثَد أحد بني قيس بن ثعلبة بن ربيعة وأوس بن ثعلبة بن زُفَر، قال له: «أما وجدت في المِضْرَيْن مَنْ تستعمله حتى فرّقت خراسان بين بكر بن وائل واليمن! اكتب لي عهداً على خُراسان»، فكتب له عهداً، وأعطاه سَلْم مئة ألف درهم[2].

وعبد الله بن خازِم من سُلَيْم، وهي من مُضَر.

واشتبك عبد الله بن خازِم في صراع مرير بينه وبين ربيعة[3] وبني تَمِيْم[4]، وكان على خراسان لعبد الله بن الزبير.

وبعد مقتل مُصْعَب بن الزبير في العراق سنة إحدى وسبعين الهجرية[5] (٦٩٠م)، كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد الله بن خازِم، يدعوه إلى البيعة له ويُطْعِمه خُراسان سبع سنين، فرفض عبد الله بن خازِم عرضَ عبد الملك، وتمسّك بولائه لعبد الله بن الزبير[6].

وكتب عبد الملك إلى قسم من الطامعين بولاية خُراسان ممن كانوا فيها، فتكالبوا على ابن خازِم وقتلوه[7]، وكان ذلك سنة اثنتين وسبعين الهجريّة (٦٩١م).

ولما قَتَلَ ابنُ خازِم مَنْ قتل من بني تميم، تفرّق أكثر مَنْ كانوا معه منهم، فخرج إلى نَيْسَابور، وخاف بني تميم على أهله وذوي قرباه وأمواله،

---

(١) هو عبد الله بن خازم بن أسماء بن الصَّلْت بن حبيب بن حارثة بن هلال بن سِماك بن عوف بن امرئ القيس من سُلَيْم.
(٢) ابن الأثير (٤/ ١٥٥).
(٣) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٤/ ١٥٧).
(٤) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٤/ ٢٠٧ ـ ٢١٠).
(٥) ابن الأثير (٤/ ٣٢٣).
(٦) ابن الأثير (٤/ ٣٤٥).
(٧) ابن الأثير (٤/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

فقال لابنه موسى: «خُذْ ثَقَلِي، واقطع نهر بَلْخ، حتى تلتجئ إلى بعض الملوك وإلى حُصن تقيم فيه»، فرحل موسى عن (مَرْو) في عشرين ومائتي فارس، ثمّ اجتمع إليه تتمّة أربعمائة، وانضمّ إليه قوم من بني سُلَيْم.

وأتى موسى (زَمّ)[1]، فقاتله أهلها، فظفر بهم وأصاب مالاً.

وقطع النّهر، وأتى (بُخَارى)، فسأله صاحبها أن يلجأ إليه، فأبى. وخافه صاحب بخارى وقال: «رجل فاتك وأصحابه مثله، فلا آمنه»، ولكنه وصَلَ موسى بمال، فرحل عنه.

وأتى موسى سَمَرْقَنْد، فأقام بها، وأكرمه ملكها طَرْخُون، وأذن له بالمقام، فأقام مدة من الزمن، ولكن بعض أصحابه تصرّفوا تصرّفاً أغضب عليهم طَرْخُون، فأمر موسى أن يخرج من سمرقند.

وأتى (كِش)، فضعف صاحبها عنه، فاستنصر طَرْخُون، فأتاه. وخرج موسى إليه وقد اجتمع معه سبعمائة فارس، فقاتلهم حتى أمسوا، فتحاجزوا. ورحل موسى عن (كِشّ) بعد أن جُرح كثير من رجاله.

وسار موسى حتى أتى (تِرْمِذ) وبها حصن يشرف على جانب النهر، فنزل موسى خارج الحصن. وسأل ملكَ تِرْمذ (تِرْمِذْشاه) أن يدخله حصنه، فأبى. وأهدى موسى لملك ترمذ ولاطفه حتى حصل بينهما مودّة، فخرج وتصيّد معه.

وصنع صاحب ترمذ طعاماً، وأحضر موسى ومئة من أصحابه ليأكلوا معه، فدخلوا الحصن وأكلوا، فلما فرغوا من طعامهم قال صاحب ترمذ لموسى: «اخرج!»، فقال: «لا أخرج حتى يكون الحصن بيتي أو قبري».

ونشب القتال بين الجانبين، فقَتَلَ موسى منهم عدّة رجال وانهزم الباقون، واستولى على الحصن ومدينة تِرْمِذ وأخرج ملكها منها، ولم يعرض له ولا لأصحابه بسوء.

---

(١) زم: بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٤٠٥).

وأتى موسى بترمذ جمع من أصحاب أبيه، فقوي بهم، فكان يخرج بين الحين والآخر، ويغير على ما حوله.

ب ـ وولي بُكَيْر بن وَسَّاج خُراسان، فلم يعرض له. ثم قدم أُمية بن عبد الله بن خالد بن أَسِيْد الأُمَوِي[1] خُراسان، فوجّه إلى موسى رجلًا من خُزاعة في جمع كثير، فقتل الخزاعيّ وتفّرق جيشه، وأتى بعضهم موسى مستأمناً. فآمنه، ولم يوجِّه أُميّة أحداً بعد ذلك[2].

وعُزل أُميّة، وقدم المهلّب بن أبي صُفْرة[3] أميراً على خُراسان، فلم يتعرّض لموسى، وقال لبنيه: «إيّاكم وموسى، فإنّكم لا تزالون وُلاة خُراسان، ما دام هذا الثَّبِط[4] بمكانه، فإن قُتل فأوّل طالع عليكم أمير على خُراسان من قِيْس».

ولما مات المهلّب، وولي يزيد بن المهلّب[5]، لم يتعرّض لموسى أيضاً.

واشتبك موسى مع العرب والعجم في قتال مرير، في أيام يزيد بن المهلّب، فانتصر عليهم انتصارات باهرة، فكان أهل خُراسان يقولون: ما رأينا مثل موسى ولا سمعنا به، قاتل مع أبيه سنتين، ثمّ خرج يسير في بلاد خُراسان، فأتى ملكاً فغلب على مدينته وأخرجه منها، وسار الجنود من العرب والترك إليه، وكان يقاتل العرب أوّل النهار والتركَ آخر النهار!

وأقام موسى بالحصن خمس عشرة سنة، وصار ما وراء النهر لموسى لا ينازعه فيه أحد.

---

(١) انظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب.
(٢) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٤/ ٥٠٥ ـ ٥٠٨).
(٣) انظر سيرته المفصّلة في هذا الكتاب.
(٤) الثّبط: ثبط: ضعف وثقل، وحمق في عمله، فهو ثَبِط.
(٥) انظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب.

فلما عُزل يزيد بن المهلّب وولي المفضَّل أراد أن يَحْظى عند الحجّاج بقتال موسى بن عبد الله بن خازِم، فسيّر عثمانَ بنَ مَسْعود إليه في جيش، وكتب إلى مُدْرك بن المُهَلَّب وهو بـ (بَلْخ) يأمره بالمسير معه، فعبر نهر جيحون بخمسة عشر ألفاً، وكتب إلى (السَّبْل) ملك الخُتَّل وطَرْخُون ملك الصّغْد، فقدموا عليه، وحصروا موسى وضيّقوا عليه وعلى أصحابه.

ومكث موسى شهرين في ضيقٍ، وقد خندق عثمان عليه وحذر البيات، فقال موسى لأصحابه: «اخرجوا بنا، حتى متى نصبر! فاجعلوا يومكم معهم إما ظفرتم وإما قُتلتم، واقصدوا الترك».

وخرج موسى بعد أن خلَّف النَّضر بن سليمان بن عبد الله بن خازِم في المدينة، وقال له: «إنْ قُتِلْتُ فلا تدفعنَّ المدينة إلى عثمان وادفعها إلى مُدْرِك بن المهلّب».

ولما خرج جعل ثلث أصحابه بإزاء عثمان، وقال: «لا تُقاتلوه إلّا أن يُقاتلكم». وقصد طرخون وأصحابه، فصدقوهم القتال، فانهزم طرخون وأخذوا عسكرهم.

وزحف التّركُ والصُّغْد، فحالوا بين موسى والحصن، فقاتلهم، فعقروا فرسه، فسقط أرضاً.

ونهض من سقطته، وحمله أحد مواليه على فرسه، وقد وثب ليمتطي فرس مولاه رديفاً، فلمحه عثمان حين وثب، قال: «وثبة موسى وربِّ الكعبة!»، ثم قصد إلى موسى، فعُقرت دابته فسقط هو ومولاه، فقتلوه.

ونادى منادي عثمان: «مَنْ لقيتموه فخذوه أسيراً، ولا تقتلوا أحداً» فَقتلَ ذلك اليوم من الأسرى خلقاً كثيراً من العرب خاصة، فكان يقتل العربيَّ ويضرب المولى ويطلقه، وكان فظّاً غليظاً.

وبقيت مدينة (تِرْمِذ) بيد النَّضر بن سليمان بن عبد الله بن خازِم، فلم

يدفعها إلى عثمان وسلّمها إلى مُدْرِك بن المهلّب وآمنه، فسلّمها مدرك إلى عثمان.

وكتب المفضّل إلى الحجّاج بقتل موسى، فقال: «العجب منه! أكتب إليه بقتل ابن سَمُرَة[1]، فيكتب إليّ أنه لمآبه، ويكتب إليّ أنه قد قتل موسى بن عبد الله بن خازِم!!»، ولم يسرّه قتل موسى، لأنه من قيس!

وكان قتل موسى سنة خمس وثمانين الهجريّة[2] (٧٠٤م) بعد أن سيطر على بلاد ما وراء النهر خمس عشرة سنة سيطرة كاملة لا ينازعه فيها منازع خطير، وبذلك مهّد المفضّل لقُتَيْبَة بن مُسْلِم أن يفتح ما شاء في بلاد ما وراء النّهر، فكان قتيبة بحق حسنة من حسنات المفضّل بلا مِراء.

٤ ـ في ثورة المهالِبَة

أ ـ حبسْ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنة مئة الهجريّة (٧١٧م) يزيدَ بن المهلّب في حصن (حَلَب)[3].

وفي سنة إحدى ومئة الهجريّة (٧١٩م) هرب يزيد من سجن (حَلَب)، وانطلق إلى العراق[4].

وكان عمر بن عبد العزيز يحتضر حين هرب يزيد من سجنه، فلما مات بويع يزيد بن عبد الملك في اليوم الذي مات فيه عمر، فكتب يزيد إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب عامله على الكُوفة،

---

(١) ابن سَمُرَة: هو عبيد الله بن عبد الرحمن بن سَمُرَة القرشي، انظر الطبري (٦/ ٣٧٠).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٣٩٨ ـ ٤١٢) وابن الأثير (٤/ ٥٠٥ ـ ٥١٣).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٥٦ ـ ٥٥٧) وابن الأثير (٥/ ٤٨ ـ ٤٩)، وانظر البدء والتاريخ (٦/ ٤٦ ـ ٤٧) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٢٥) و(١/ ٣٢٨) وابن خلدون (٣/ ١٦٢ ـ ١٦٦) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣) و(٥/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٦٤ ـ ٥٦٥) وابن الأثير (٥/ ٥٧ ـ ٥٨) وابن خلدون (٣/ ١٦٦).

وإلى عَدِيّ بن أَرْطاة عامله على البصرة، يأمرهما بالتحّرز من يزيد بن المهلّب ويعرِّفهما هربه، وأمر عَدِيّاً أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلّب، فأخذهم وحبسهم، وفيهم: المُفضّل، وحبيب، ومروان أبناء المهلّب.

واستطاع يزيد بن المهلّب بعد مقاومة طفيفة السيطرة على البصرة، وإطلاق سراح إخوته المسجونين في سجنها ومنهم المفضَّل، وسجن أمير البصرة الذي سجن إخوته وهو عَدِيّ بن أَرْطاة.

وجهّز يزيد بن عبد الملك أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك وابن أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك في سبعين ألف مقاتل من أهل الشّام وجزيرة ابن عمر، وقيل: كانوا ثمانين ألفاً، فساروا إلى العراق.

ثم إنّ يزيد بن المهلّب غادر البصرة، ونزل مدينة (واسِط) وأقام بها أياماً يسيرة وخرجت سنة إحدى ومئة للهجرة[1] (٧١٩م).

وجاءت سنة اثنتين ومئة الهجريّة (٧١٩م)، فسار يزيد بن المهلّب عن واسِط حتى نزل (العَقْر).

وأقبل مَسْلَمة بن عبد الملك يسير على شاطئ الفُرات إلى (الأَنْبار)[2] وعقد عليها الجسر، فعبر وسار حتى نزل على ابن المهلّب.

وأتى إلى يزيد بن المهلّب ناس من أهل الكوفة كثير ومن الثغور، فبعث على مَنْ خرج إليه من أهل الكوفة ورَبْع أهل المدينة عبد الله بن سُفيان بن يزيد بن المُغَفَّل الأَزدِيّ، وعلى رَبعِ مُذْحجِ وأسد النُّعمان بن

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٧٨ ـ ٥٨٩) وابن الأثير (٥/٧١ ـ ٧٧) وابن خلدون (٣/١٦٦ ـ ١٦٩) وخلاصة الذهب المسبوك (٢٦).

(٢) الأنبار: مدينة على الفرات غرب بغداد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٤٠ ـ ٣٤٢)، وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم، وقد أطلق اسم الأنبار على محافظة الرّمادي إحدى محافظات العراق التي تتاخم سورية شمالاً والأردن غرباً.

إبراهيم بن الأشْتَر، وعلى كِنْدَة وربيعة محمد بن إسحاق الأشعث، وعلى تَميم وهَمْدَان حَنْظَلة بن عَتَّاب بن ورقاء التّميمي، وجمعهم جميعاً مع المُفَضّل.

وخرج مَسْلَمَة بن عبد الملك، فَعَبَّأ جنود الشّام، ثم قرب من يزيد بن المهلّب، وجعل على ميمنته جَبَلة بن مَخْرَمة الكِنْدِيّ، وعلى ميسرته الهُذَيْل بن زُفَر بن الحارث الكلابي.

وجعل العبّاس بن الوليد على ميمنته سيف بن هانئ الهمداني، وعلى ميسرته سُوَيْد بن القعقاع التميميّ.

وكان مسلمة بن عبد الملك على قوّات الدولة.

وخرج يزيد بن المهلّب، وعلى ميمنته حبيب بن المهلّب، وعلى ميسرته المفضَّل.

وانهزم معظم أصحاب يزيد بن المهلّب، فقاتل يزيد قتالاً بطولياً حتى قُتل.

ولما قتل يزيد، كان المفضّل يقاتل أهل الشام وما يدري بقتل يزيد، وكان كلّما حمل على النّاس انكشفوا، ثم يحمل حتى يخالطهم.

واقتتلوا ساعة، فانهزمت ربيعة فاستقبلهم المفضّل يناديهم: «يا معشر ربيعة! الكَرّة. . ، الكَرّة. . .! والله ما كنتم بكُشُفٍ ولالئام ولا لكم هذه بعادة، فلا يؤتينَّ أهل العراق من قِبَلِكُم، فدتكم نفسي!»، فرجعوا إليه يريدون الحملة، فقيل له: ما تصنع ههنا! لقد قُتل يزيد وحبيب ومحمد، وانهزم الناس منذ طويل! فتفرّق الناس عنه، ومضى المفضّل إلى (واسِط)، فما كان من العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبية للحرب، ولا أغشى للناس منه[1].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٩٠ ـ ٥٩٨) وابن الأثير (٥/ ٧٩ ـ ٨٤).

وقيل: بل أتاه أخوه عبد الملك، وكرهَ أن يُخبره بقتل يزيد فيستقتل، فقال له: «إنّ الأمير قد انحدر إلى واسِط» فانحدر المفضَّل بمَنْ بقي معه من ولد المهلّب إلى واسِط، فلما علم بقتل يزيد حلف أنه لا يُكلِّم عبد الملك أبداً، فما كلّمه حتى قُتل. وكانت عينه أُصيبت بالحرب، فقال: «فضحني عبد الملك، ما عذري إذا رآني الناس فقالوا: شيخ أعور مهزوم! ألا صَدَقني فقُتلتُ؟»، ثم قال:

ولا خير في طعْن الصّناديد بالقنا ولا في لقاء الحرب بعد يزيد

ب ـ واجتمع آل المهلّب بالبصرة، فأعدّوا السّفن وتجهّزوا للركوب في البحر، وكان يزيد بن المهلب بعث ودَّاع بن حُمَيْد الأزدِيّ على (قَنْدابيل) أميراً وقال له: «إني سائر إلى هذا العدوّ، ولو لقيتهم لم أبرح العرصة حتى يكون لي أو لهم، فإن ظفرتُ أكرمتُك، وإن كانت الأخرى كنتَ بقَنْدابيل حتى يقدم عليك أهل بيتي فيتحصّنوا بها حتى يأخذوا لأنفسهم أماناً، وقد اخترتُك لهم من بين قومي، فكن عند أحسن ظني»، وأخذ عليه العهودَ ليناصحنَّ أهل بيته إن هم لجؤوا إليه.

فلما اجتمع آل المهلّب بالبصرة، حملوا عيالاتهم وأموالهم في السُّفن البحريّة، ثم لجّوا في البحر، حتى إذا كانوا بحيال (كَرْمان) خرجوا من سفنهم، وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدّواب، وكان المقدَّم عليهم المفضّل.

وبعث مَسْلَمةُ بن عبد الملك مُدْركَ بن ضَبّ الكلبيّ في طلب آل المهلّب، وكان بكَرمان فلول كثيرة، فاجتمعوا إلى المفضّل.

وأدرك مُدْرِكُ المفضّل في عقبة على أحد الطرق، فعطفوا عليه وقاتلوه. واشتدّ قتالهم إياه، فقُتل من أصحاب المفضّل النُّعمان بن إبراهيم بن الأشتر النَّخَعِيّ، ومحمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث الكِنْدِيّ.

ورجع ناس من أصحاب المفضّل، فطلبوا الأمان، فأومنوا.

ومضى آل المهلّب ومَنْ معهم إلى قَنْدَابيل، فأراد أهل المهلّب دخولها، فمنعهم ودَّاع بن حُمَيْد!!

وكان مَسْلَمَة بن عبد الملك قد بعث إلى مُدْرِك بن ضبّ، فردّه وسير في أثر آل المهلّب هلال بن أَحْوز التميميّ، فلحقهم بقَنْدابيل.

وأُحيط بآل المهلب، فلما رأى ذلك مروان بن المهلّب، أراد أن ينصرف إلى النِّساء فيقتلهنّ لئلا يؤسَرْنَ، فقال له المفضّل: «أين تريد؟!»، قال: «أدخل إلى نسائنا فأقتلهنّ لئلا يصل إليهنّ هؤلاء الفسّاق»، فقال: «ويحك! أتقتل أخواتك ونساء أهل بيتك! إنّا والله ما نخاف عليهنّ منهم»، فردّه عن ذلك.

ومشوا بأسيافهم، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلّا أبا عَيَيْنة بن المهلّب وعثمان بن المفضّل، فإنهما نَجَوَا، فلحقا بخاقان ورتبيل.

وكان من الذين قتلوا من المهالبة: المفضّل، وعبد الملك، وزياد بنو المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلّب والمِنْهال بن عُيَيْنة بن المهلب، وعمرو والمغيرة ابنا قَبِيصَة بن المهلّب.

وبعث هلال بن أَحْوَز بنسائهم ورؤوسهم والأسرى إلى مَسْلمة بن عبد الملك بالعراق، فبعثهم مَسْلَمة إلى يزيد عبد الملك.

وأراد مَسْلَمة أن يبيع الذريّة، لأنّه أقسم أن يبيعهم، فاشتراهم منه الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ بمئة ألف، وخلّى سبيلهم، ولم يأخذ مسلمة من الجرّاح شيئاً[1].

وهكذا خسر العرب والمسلمون خير قادتهم وأمرائهم في هذا الاقتتال

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٩٨ ـ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/ ٨٤ ـ ٨٩) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٤) والبلاذري (٦٣٠).

العقيم، وما أكثر الحروب العقيمة التي خاضها العرب والمسلمون عبر تاريخهم، فكانت سيوفهم عليهم لا على أعدائهم، وكان العرب والمسلمون هم الخاسر الوحيد في تلك الحروب.

الإنسان:

تولّى المُفَضَّلُ خُراسان سنة خمس وثمانين الهجرّية[1] (٧٠٤م) للحجّاج بن يوسف الثّقَفِيّ خلفاً لأخيه يزيد بن المهلّب، فأقرّه الحجّاج تسعة أشهر ثمّ عزله[2].

وما ولّاه الحجّاج إلّا ليستخرج يزيد بن المهلّب من خُراسان خوفاً من أن يمتنع عليه[3]، لأنّه كان يخافه أشدّ الخوف ويخشاه أشدّ الخشية؛ وقد أذلّ أهل العراق قاطبة إلّا آل المهلب ومَنْ معهم في خُراسان، لأنهم كانوا رجالًا، والحجّاج لا يحلو له أن يعمل بإمرته إلّا أشباه الرِّجال من الإمّعات والمرتزقة والمتّبِعين لا من المبتدعين.

وما كان المفضل إمّعةً ولا مرتزقاً ولا متّبعاً ولا من أشباه الرجال، بل كان ذا شخصيّة ذات وزن واتّزان، وليس إمّعة بل له رأيه يقوله للحجّاج ولغير الحجّاج، ولا مرتزقاً فماله ليس مالَه بل للآخرين، وهو قبل ذلك وبعد ذلك رجل وكفى.

وقد كان حرّياً بمثل المفضّل الذي كان يتمتّع بكفايات إدارية وقيادية عالية، أن يتسنّم أهم المناصب الإدارية وأعلى المناصب القيّاديّة، ولكنّ الظروف التي مرّت به وعاشها حرمته من تلك المناصب، وربما كان حرمانه شخصياً أقلّ أهمية بكثير من حرمان الدولة أمةً وحكومة وبلاداً من استغلال كفاياته المتميزة لمصلحة الأمة والدولة والبلاد.

---

(١) الطبري (٦/ ٣٩٣) وابن الأثير (٤/ ٥٠٢).
(٢) ابن الأثير (٤/ ٥٠٤).
(٣) الطبري (٦/ ٣٩٥).

وقد عزله الحجّاج عن خُراسان دون أن يخبره بعزله أو بالأمير الذي خلفه، فكان المفضّل يَعرِض الجند، وهو يريد أن يغزو أَخْرون وشُومان، وفجأةً ظهر خَلَفُه قُتَيْبَة بن مُسْلم[1] دون سابق إشعار وإنذار، فتخلّى المفضَّل عن منصبه لخلفه فوراً، وعاد أدراجه إلى العراق.

وعَزْلُ المفضّل بهذا الأسلوب إن دلّ على شيءٍ، فإنما يدلّ على حقد الحجّاج على آل المهلّب وحذرهم الشَّديد من انتقاضهم عليه.

ولا يستطيع أحد أن يَدِّعي أنَّ الحجّاج عزل المفضّل عن خُراسان لضعف في كفاياته الإداريّة والقياديّة، فقد أثبت المفضّل أنه في غاية الكفاية، لأنه أنجز خلال المدة القصيرة التي أمضاها والياً على خُراسان وهي أشهر معدودات، ما لم يستطع غيره إنجازه خلال المدة الطويلة التي قضاها والياً على خُراسان، وهي سنوات؛ فقد قضى على فتنة ابن خازِم الداخليّة التي استمرّت خمس عشرة سنة، واستعاد فتح مناطق شاسعة من خُراسان ومن بلاد ما وراء النهر، وأنجز كلّ ذلك في تسعة أشهر فقط، ولا يمكن أن يُنجَز مثل هذا الإنجاز في وقت قصير جداً ضعيف الكفاية!

ولم يكد المفضّل يستقرّ في العراق إلّا وحبسه الحجّاج مع يزيد بن المهلّب وعبد الملك بن المهلّب، وذلك سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م)، وبقي في السِّجن مع أخويهِ حتى سنة تسعين الهجريّة (٧٠٨م).

وكان حبس الحجاج لبني المهلّب في الواقع، لأنّ الناس قد فُتنوا بهم، وأصبحت لهم شعبية كبيرة ومكانة عظيمة عند النّاس، فخاف الحجّاج أن يقودوا الناس إلى الفتنة، فيزعزعوا مكانة الحجّاج وأمن الدولة.

أما عذر الحجاج أمام الناس وحجّته التي يسوِّغ بها حبس أبناء المهلّب، أنّهم تصرّفوا بأموال المسلمين لمصلحتهم الشخصيّة لا لمصلحة المسلمين العامة وبشكل لا يتفق مع ما أمر الله به في أموال المسلمين.

---

(١) الطبري (٦/ ٤٢٤) وابن الأثير (٤/ ٥٢٣).

ولكن هل آل المهلب وحدهم تصرّفوا مثل هذا التصّرف المنحرف!؟ وهل الحجّاج تصرّف بأموال المسلمين كما كان يتصرّف بها أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما؟!

وبدون شك، فقد أخطأ المفضّل وإخوته في تصرّفهم المنحرف بأموال المسلمين، ولكن معظم ولاة الأمصار في أيامهم كانوا يتصرّفون تصرّفهم، والحجّاج أيضاً كان غير مستقيم في تصرّفه بالأموال.

وإذا كان يزيد بن المهلّب والمفضّل قد توليا خراسان فانحرفوا بتصرّفهم الماليّ، فما بال الحجّاج يسجن عبد الملك أيضاً، وليس له في التولية على الأمصار نصيب!

إنّ الحجّاج حبس الذين يخافهم من أبناء المهلّب، وترك الذين لا يخافهم أحراراً.

وخرج الحجّاج إلى (رسْتَقاباذ)[1] في حملة تأديبية للأكراد الذين غلبوا على إقليم (فارس)، وخرح معه يزيد وإخوته عبد الملك والمفضّل في معسكره يرسفون بأصفادهم، ومن الواضح أنّ إخراج أبناء المهلّب المسجونين مع الحجّاج، هو لخوف الحجّاج فرارهم من السجن، فأراد أن يكونوا معه في تلك الحملة التأديبيّة، ليُشرف بنفسه على حراستهم ويحول دون فرارهم من سجنه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وجعل الحجّاج على المفضّل وإخوته كهيئة الخندق، وجعلهم في فسطاط قريب منه، ليشدِّد عليهم رقابته الصّارمة، وأخذ يعذبهم عذاباً أليماً وهم صابرون.

ثمّ إنّ الحجّاج كفّ عن تعذيب المفضّل وإخوته، وأقبل يستأديهم

(١) رستقاباذ: موقع من أرض (دَسْتُوا)، وجاءت في معجم البلدان (٤/ ٢٤٩): رُسْتَقُباذ، ودستوا: بلدة بفارس، انظر معجم البلدان (٤/ ٥٩ ـ ٦٠).

المال الذي بذمَّتهم، وهم يعملون للفرار من سجنهم، فبعثوا إلى مَرْوان بن المهلّب وهو بالبصرة، يأمرونه أن يضمِّر لهم الخيل، ويُرِي الناسَ أنه إنّما يريد بَيْعَها، ويَعْرِضها على البيع، ويُغلي بها لئلا تُشْتَرى، لتكون لهم عُدَّةً إن هم قدروا على النجاة بأنفسهم من السِّجن، ففعل ذلك مَرْوان، وكان حَبيب بن المهلّب يُعذّب بالبصرة أيضاً.

وأمر يزيد بن المهلّب أن يصنع للحرس طعام كثير، وأمر لهم بشراب، فأكلوا وسُقوا، فكانوا متشاغلين به.

وخرج يزيد بن المهلب من السِّجن متنكِّراً، وخرج المفضّل في أثره، فلم يُفْطَن له.

وجاؤوا إلى سفنهم وقد هيّئوها في (البَطَائح)، وبينهم وبين البصرة ثمانية عشر فرسخاً،فلما انتهوا إلى السُّفن أبطأ عليهم عبد الملك بن المهلّب وشُغِل عنهم، فقال يزيد للمفضّل: «اركبْ بنا فإنه لاحق»، فقال المفضَّل - وعبد الملك أخوه لأمه - وهي بَهْلة الهنديّة: «لا والله، لا أبرَح حتى يجيء، ولو رجعتُ إلى السِّجن».

وأقاما حتى جاءهم عبد الملك، فركبوا عند ذلك السّفن، فساروا ليلتهم حتى أصبحوا.

ولما أصبح الصبح، اكتشف الحرس أنّ المفضَّل وأخويهِ قد هربوا من السِّجن، فرُفع ذلك إلى الحجّاج.

وفزع الحجّاج فزعاً شديداً لهرب أبناء المهلّب من السِّجن، وهو الذي بالغ كثيراً في تشديد الحراسة عليهم، وذهب وهمه أنّهم ذهبوا قِبَل خُراسان، فبعث البريد إلى قُتَيْبَة بن مُسْلِم يحذِّره قدومهم، ويأمره أن يستعدَّ لهم، وبعث إلى الوليد بن عبد الملك كتاباً يخبره فيه بهربهم، وبعث إلى أُمراء الثغور والكُوَر أن يرصدوهم ويستعدّوا لهم.

ولما دنا أبناء المهلّب من (مَوْقُوع)[1]، استقبلته الخيل قد هيِّئت لهم، فخرجوا عليها ومعهم دليل من بني كَلْب، فأخذ بهم على (السَّمَاوَة)[2].

وجاء مَنْ يُخبر الحجّاجَ بعد يومين من هرب أبناء المهلّب من السِّجن، بأنهم أخذوا طريق الشّام على طريق السَّمَاوة، فبعث إلى الوليد بن عبد الملك يُعْلِمُه.

ومضى أبناء المهلّب، حتى قدموا فِلَسْطِيْن، فنزلوا على وُهَيْب بن عبد الرحمن الأَزْدِيّ - وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك الذي كان يوم ذاك وليّاً للعهد - وأنزلوا بعض ثَقَلهم وأهلهم على سُفيان بن سليمان الأزدي.

وجاء وُهَيْب بن عبد الرحمن الأَزدِيّ حتى دخل على سليمان بن عبد الملك، فقال: «هذا يزيد بن المهلّب وإخوته في منزلي، وقد أتوك هُرَّاباً من الحجّاج متعوِّذين بك»، فقال: «فأتِني بهم، فهم آمنون لا يُوْصَل إليهم أبداً وأنا حيّ»، فجاء بهم حتى أدخلهم عليه، فكانوا في مكان آمن.

وكان الوليد قد حذرهم وظنَّ أنّهم يأتون خُراسان للفتنة بها، فلما علم أنّهم عند أخيه سليمان، سكنَ بعضُ ما به.

وبذل سليمان بن عبد الملك قصارى جهده من أجل إصدار الوليد بن عبد الملك العفو عن أبناء المهلب، فتكلّل جهده المخلص المتواصل بعد مشقّة بالغة بالنجاح[3].

---

(١) موقوع: ماء بناحية البصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٠٠).

(٢) السَّمَاوة: ماء بالبادية، وبادية السّماوة: هي البادية التي بين الكوفة والشّام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٢٠).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٤٤٨ - ٤٥٣) وابن الأثير (٤/ ٥٤٥ - ٥٤٧)، وانظر وفيات الأعيان (٥/ ٣٣١ - ٣٣٦).

وإنّ قصة هرب أبناء المهلّب من سجن الحجّاج، ملحمة من الملاحم البطوليّة التي إن دلّت على شيءٍ فإنما تدل على شجاعتهم الفائقة وتغلغل روح المغامرة فيهم.

وهذه الملحمة قصّة واقعيّة تمثّل كثيراً من المزايا العربية العريقة: الإقدام، والجرأة، والمغامرة، واقتحام الصحراء، والوفاء، والدفاع عن المستجير، وتقاليد الجار، والكرم، والجود، والمروءة.

جـ ـ ومات الوليد بن عبد الملك وتولى الخلافة من بعده سليمان بن عبد الملك، فقرّب آل المهلّب واعتبرهم من أنصاره المقرّبين، وأغدق عليهم المال بغير حدود.

والذي يبدو أنّ سليمان استأثر بالمفضّل فجعله مستشاره الخاص، فبقي معه حتى أواخر أيامه، وروى للتاريخ خلجات نفسه في أيّامه الأخيرة، فقال: «دخلت على سليمان بـ (دابِق)[1] يوم جُمُعَة، فدعا بثيابٍ فلبسها، فلم تُعجبه، فدعا بغيرها بثيابٍ خُضْرٍ سُوْسِيّة، بعث بها يزيد بن المهلّب، فلبسها واعتمّ وقال: «يا ابن المهلّب! أَعْجَبَتْكَ؟ قلت: نعم، فَحَسَرَ عن ذِراعيه ثمّ قال: أنا المَلِك الفَتِيّ! ثم صلّى الجُمعة، ثم لم يُجْمِع بعدَها، وكتب وصيّته، ودعا ابن أبي نعَيم صاحب الخاتَم، فختمه»[2].

ولا نعرف بالضبط العمل الذي كان المفضّل يشغله بجوار سليمان بن عبد الملك، ولكن يظهر أنه كان مقرّباً إليه كثيراً، يدخل عليه بالسّاعة التي يريدها في المكان الذي يريده، ويشهد تفاصيل حياته الخاصة بما فيها ارتداء ملابسه وتغييرها.

ومما يدلّ عل صلته الوثيقة بالخليفة سليمان بن عبد الملك أن سليمان

---

(١) دابق: قرية قرب حلب من أعمال عَزَاز، بينها وبين حلب أربعة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣ ـ ٤).

(٢) انظر الطبري (٦/٥٤٦ ـ ٥٤٧).

حبس خالد بن عبد الله القَسْرِيّ بمكة المكرّمة، فلم يزل خالد محبوساً حتى حجّ سليمان، فكلّمه فيه المفضّل، فقال سليمان: «لَاطَتْ[1] بك الرَّحم أبا عثمان، إنّ خالداً جَرَّعنِي غَيْظاً»، قال: «يا أمير المؤمنين! هَبْني ما كان من ذنبه»، قال: «قد فعلتُ، ولا بدّ أن يَمشي إلى الشّام راجلًا»، فمشى خالد إلى الشّام راجلًا[2].

ولم يكن المفضّل ليقْدم على التشفّع لخالد الذي أغاظ الخليفة، لو لم يكن وثيقَ الصّلة بأمير المؤمنين، ولم يكنْ أمير المؤمنين ليشفِّعه لو لم يكن له في قلبه مكان كبير.

لقد كان المفضّل جواداً كريماً مِضْيافاً، شهماً غيوراً ذا مروءة ونخوة، ولم يكن له بيت مال، لأنّه كان يعطي النّاس كلما جاءه شيء، وإن غنم شيئاً قَسَمَهُ بينهم، فقال كعب الأشْقَرِيّ يمدحه:

تَرَى ذا الغِنَى والفَقْر من كلِّ معشرٍ	عَصَائِبَ شَتَّى يَنْتَوُونَ المفضَّلا
فمن زائرٍ يرجُو فواضِلَ سَيْبِهِ	وآخَرَ يَقْضِي حاجَةً قد ترحَّلا
إذا ما انْتَوَينا غيْر أرضكَ لم نَجِد	بها منتوًى خَيْراً ولا مُتَعَلَّلَا
إذا ما عَدَدْنا الأكرمِيْنَ ذوِي النّهى	وقد قَدَّموا من صالح كنتَ أوّلا
لعَمْرِي لقد صال المفضَّلُ صَوْلَةً	أباحت بشُومان[3] المناهل والكلا
ويوم ابن عبّاس[4] تناولتَ مثلها	فكانت لنا بين الفريقين فَيْصَلا
صَفَتْ لك أخلاقُ المهلّب كلُّها	وسُرْبِلْتَ من مَسْعاتِهِ ماتَسَرْبَلا
أبوكَ الذي لم يَسْعَ ساعٍ كسعيِهِ	فأورثَ مَجْداً لم يكن مُتَنحَّلا[5]

(١) لاط الشيء بالشيء: لصق به. ولاط الشيء بقلبي: لصق به وأحببته.

(٢) العقد الفريد (٤/٤٢٩).

(٣) يريد غزوة استعادة فتح شومان.

(٤) يريد عبد الرحمن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب الهاشميّ.

(٥) الطبري (٦/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

ومات سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين الهجرية[1] (٧١٧م)، فخلفه عمر بن عبد العزيز الذي حبس يزيد بن المهلّب[2]، فلم تقم قائمة لأبناء المهلّب بعد سليمان.

وتُوفي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنة إحدى ومئة الهجرية[3] (٧١٩م)، وتولّى بعده يزيد بن عبد الملك، فثار يزيد بن المهلّب على الدولة وخلع يزيد، فأخفقت ثورة المهالبة، وقُتِل المفضّل بمدينة قَنْدابيل سنة اثنتين ومئة الهجريّة (٧٢٠م) كما ذكرنا سابقاً.

فإذا كان المفضّل ولد سنة سبع وخمسين الهجرية (٦٩٦م)، وقتل سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧٢٠م) فقد عاش خمساً وأربعين سنة قمرية وأربعاً وأربعين سنة شمسية.

ولما قُتل المفضّل، دخل ثابِت قُطْنَة على هند بنت المهلّب، والناس حولها جلوس يعزّونها، فأنشدها:

يا هند كيف بِنُصْبٍ باتَ يُبْكيني ... وعائرٍ في سواد اللّيل يوذيني[4]

كأنّ لَيْلِيَ والأصداءُ هاجدةٌ ... ليلُ السَّليم، وأعيا مَنْ يُداويني[5]

لما حنَى الدَّهرُ من قَوْسي وعذّرني ... شيبي وقاسيتُ أمرَ الغلْظ واللِّين[6]

إذا ذكرتُ أبا عثمان أرّقني ... همٌّ إذا عرَّس السَّارون يُشْجِيني[7]

---

(١) الطبري (٦/٥٤٦).

(٢) الطبري (٦/٥٥٦).

(٣) الطبري (٦/٥٦٥).

(٤) النصب بالفتح والضم وبضمتين: الدّاء والبلاء. والعائر: كلّ ما أعلّ العين، والرّمد والقذى كالعوّار.

(٥) الأصداء: جمع صدى، وهو الصوت. والهجود: النوم. والسّليم: الملدوغ. وأعيا: أعجز.

(٦) عذّرني: من عذر الدار: طمس آثارها، والمعنى: هدّني وهدّمني. والغلَظ بفتح اللّام، وخفّف هنا بتسكينها لضرورة الشّعر.

(٧) عرّس القوم: نزلوا في آخر الليل للاستراحة. سرى: سار ليلًا. شجاه وأشجاه: أحزنه.

كان المفضّل عِزّاً في ذوي يَمَنٍ وعِصْمَة وثِمالًا للمساكين[1]

ما زلتُ بعدكَ في هَمٍّ تَجيش به نَفْسِي وفي نَصَبٍ قد كاد يُبْلِيْنِي[2]

إني تذكّرتُ قَتْلَى لو شَهِدْتُهُمُ في حومة الموت لم يَصْلَوْا بها دُوني[3]

لا خيرَ في العيش إنْ لم أَجْنِ بعدَهم حرباً تُبِيءُ بهم قتلى فيشفوني[4]

فقالت هند: «اجلس يا ثابت، فقد قضيتَ الحقَّ، وما من المرثيّة بُدٌّ، وكم من مِيْتَةِ مَيِّتٍ أشرف من حياة حَيّ، وليس المصيبة في قتل مَنْ استشهد ذابّاً عن دينه، مطيعاً لربه، وإنما المصيبة فيمن قلّت بصيرتُه، وخَمل ذكرُه بعد موته، وأرجو ألّا يكون المفضّل عند الله خاملًا»، فيقال: إنه ما عزّي يومئذ بأحَسنَ من كلامها[5].

وكان له من الأولاد: عثمان وحَيّان، وغسّان، وحاجب، وغيرهم[6].

أما إخوته، فقد ولد المهلّب نحو ثلاثمائة ولد، أعقب منهم تسعة عشر، وأعقابهم بالبصرة وبغيرها، وهم: المُغيرة، ويزيد، ومروان، ومعاوية، وزياد، وعبد الملك، وحبيب، ومحمّد، وقَبِيْصَة، والمُدْرِك، وأبو عُيَيْنَة، وعبد العزيز، وعبد الله، وسعيد، وشبيب، وعمرو، وجعفر، والحجّاج[7].

وهكذا انتهت حياة أحد قادة العرب المسلمين، مأسوفاً عليه من أبناء عصره كافة، دون أن تسنح له الظروف التي أحاطت به أن يخدم الدولة والأمة والبلاد خدمة تناسب كفاياته العالية وقابلياته الفذّة.

---

(١) الثمال: الغياث الذي يقوم بأمر قومه.

(٢) جاشت النفس: ارتفعت من حزنٍ أو فزع.

(٣) صلى النار وبها: قاسى حرّها.

(٤) تُبيء: أباء القاتل بالقتيل: قتله.

(٥) الأغاني (١٤/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

(٦) جمهرة أنساب العرب (٣٦٩).

(٧) جمهرة أنساب العرب (٣٦٨).

القائد:

كان المفضَّل كما وصفه أحدهم: «... فما رأيت رجلًا من العرب مثل منزلته، كان أغشى للناس بنفسه، ولا أضرب بسيفه، ولا أحسن تعبئة لأصحابه منه»[1].

ومن النّادر أن نجد في المصادر التاريخيّة العربية وصفاً واضحاً دقيقاً لقائد عربي مسلم مثل هذا الوصف للمفضّل.

فهو ينصّ على مهارته الفذّة في استعمال سلاحه استعمالًا ناجعاً يؤدي إلى انتصاره على خصمه في مجال القتال الفردي كالمبارزة، وفي مجال القتال الجماعيّ في الاشتباك.

وهو ينصّ على أنّه لا يكتفي بإصدار الأوامر لرجاله، بل يباشر القتال بنفسه كأيٍّ رجل من رجاله الذين يُقاتلون في الخطوط الأماميّة القُصوى ويكون بتماس شديد بالعدوّ. وأنه باعتباره القائد يمارس القتال في الصفوف الأمامية، فإنّه يقود رجاله من الأمام، يقول لهم: «اتبعوني» ويرفض أن يبقى في الخلف يقول لهم: «تقدّموا»، ثم يقبع في مقَرّه المريح الأمين.

والقائد الذي يباشر القتال بنفسه، ويقود رجاله من الأمام، يصبح مثالًا شخصيّاً لأصحابه وقدوة حسنة لهم، مما يؤدي إلى رفع معنوياتهم، وقلّما يُهزم جيش يتحلّى بالمعنويات العالية.

وهو ينصّ على أنه «لا أحسن تعبئة لأصحابه منه»: في إعداد خُطة تعبويّة متميِّزة، وتوزيع أصحابه، على المواضع من جهة، وعلى الأهداف المناسبة لهم من جهة أخرى، وإخراج خطّته من مجال الإعداد إلى مجال التنفيذ، ومن نطاق الفكر النظري، إلى نطاق التطبيق العملي.

لقد كان المفضَّل على الميسرة، وكان حبيب على الميمنة، وكان يزيد في القلب وقائداً عاماً.

---

(١) الطبري (٦/ ٥٩٨) وانظر ابن الأثير (٥/ ٨٤).

وانهارت الميمنة وقُتل حبيب، وانهار القلب بعد ذلك وقُتل يزيد، وظلّت الميسرة بقيادة المفضّل متماسكة ثابتة تصّد جيش الدولة، وتقوم عليه بالهجوم المُقَابل، وتصدّ هجماته المقابلة، وتكبّده خسائر فادحة بالأرواح، وهذا دليل ناصع على كفايته القياديّة، لأنه يقاتل بنفسه كأي رجل من رجاله، ويتغلغل بالعمق في صفوف عدوّه، ويحسن تعبية رجاله، ويقودهم من الأمام، دون أن يفرّط بواجباته القيادية.

والقائد الذي يحسن تعبئة رجاله، لا بدّ أن يكون يتقن معرفة مبادئ الحرب نظرياً، ويتقن تطبيقها عمليّاً، فما كلّ مَنْ يعرف مبادئ الحرب النظرية يُتقن وضعها في إطار التطبيق العملي، وقد يستطيع غير العسكري من المدنيين أن يحفظ تلك المبادئ عن ظهر قَلْب كما هي مسطّرة في الكتب العسكرية، ولكنه يعجز عن تطبيق حرف واحد من حروفها، وما أكثر الذين ينتقدون أعظم القادة انتقاداً نظريّاً بالكلام أو على الورق، ولكنهم لا يستطيعون قيادة جندي واحد قيادة عمليّة على الأرض أو في المعركة!

ولعلّ أهم أعمال المفضّل القيادية، هو القضاء على فتنة موسى بن عبد الله بن خازِم في بلاد ما وراء النهر التي استمرت خمس عشرة سنة بدون توقّف، فلم يُقدم على مهمة القضاء على تلك الفتنة من الولاة الذين تولّوا خُراسان منذ بدأت، حتى جاء المفضّل، فبادر إلى القضاء عليها وحده دون سواه.

وهذا الإنجاز الحيوي، يدلّ على أنّه كان يحسن اختيار المقصد وإدامته، وهو أوّل مبدأ من مبادئ الحرب العشرة.

وكان يطبّق مبدأ: التعرّض، وكانت كلّ معاركه التي خاضها في المجالين الخارجي والداخلي معارك تعرضيّة ولم يُعرف عنه أنّه تخلّى عن هذا المبدأ في حياته القياديّة كلّها.

وكان يطبّق مبدأ: حشد القوّة، فقد كانت القطعات العسكرية التي تولى قيادتها حسنة الحشد كافية للنهوض بواجبها، قادرة على تحقيق هدفها.

وكان يطبِّق مبدأ: الاقتصاد في المجهود، فما عرف بالإفراط ولا بالتفريط، بل كان وسطاً غير مسرفٍ ولا مقتر، يبتغي بين ذلك سبيلًا.

وكان يطبِّق مبدأ: الأمن، فكان المسؤول الأول عن تطبيق هذا المبدأ عمل بإِمرة أخيه يزيد بن المهلّب في الاقتتال بينه وبين الهاشميّ، حيث كان على خيل يزيد، وهي التي تنفِّذ معظم خطّة الأمن، وحيث كان على الميسرة. وهي المسؤولة عن أمن الجناح الأيسر من جيش يزيد في الاقتتال بينه وبين جيش الدولة بقيادة مَسْلمة بن عبد الملك.

ولما عمل قائداً عاماً في استعادة الفتح في خراسان وبلاد ما·وراء النهر، اتّخذ التدابير الأمنية المحكمة التي حرمت عدوّه من مباغتة قوّاته، ولم يسجِّل التاريخ على المفضّل موقفاً واحداً تخلّى فيه عن تطبيق مبدأ: الأمن، فهو بالإِضافة إلى اتّخاذه التدابير الأمنية المعروفة: المقدمة، والميمنة، والميسرة، والمؤخّرة، فإِنّه كان يتحلّى بمزية الحذر واليقظة، لا تغيب عنه حركة من حركات عدوِّه في حالتي الحرب والسّلام.

وكان يطبِّق مبدأ: المرونة، بكفاية عالية، فقد كان يُعدّ الخطّة المناسبة، ولكنّه كان لا يصرّ على تنفيذها إذا تغيرّت ظروف تطبيقها، فكان يدخل عليها التعديلات لتلائم الظروف الجديدة.

ولعلّ وجوده في الصفوف الأماميّة في تماس شديد بالعدو، يعينه على إدخال التّعديلات الضروريّة على خطّته الأصلية في الوقت المناسب والمكان المناسب، دون أن يضيع الوقت الثمين جداً في الحرب انتظاراً لوصول الموقف الراهن عن العدو إليه.

وإذا كان المفضّل مرناً في خططه، فهو غير مرن في مصيره الشخصيّ، فإِما أن ينتصر، وإما أن يُقتل، ولا مجال للهرب من المعركة في تصرّفه ولا في مفردات معجمه.

فقد أتاه شقيقه عبد الملك بن المهلّب بعد مقتل أخيهما يزيد بن

المهلّب في معركة (العَقْر)، ولم يكن المفضّل يعلم بما حدث ليزيد، لأنّه كان يصاول جيش الدولة مصاولة الأبطال، فكَرِهَ عبدُ الملك أن يخبره بقتل يزيد فيستقتل، قال له: «إنّ الأمير انحدر إلى (واسِط)»، فلما علم بقتل يزيد حلف أنّه لا يكلِّم عبد الملك أبداً، فما كلّمه حتى قتل بقَنْدابيل، وكان لا ينفكّ يردِّد: «فضحني عبد الملك! ما عذري إذا رآني الناس، فقالوا: شيخ أعور مهزوم! ألا صَدَقَنِي فقُتِلتُ»، ثم ينوح مردِّداً:

ولا خير في طعْن الصنّاديد بالقنا ... ولا في لقاء الحرب بعد يزيد[1]

وقد كانت معركة قَنْدابيل يائسة لا أمل فيها، لأنَّ مَنْ بقي معه من الرجال كانوا قِلّة قليلة، من آل بيته ومواليه، وقد خانه أقرب المقربين إليه فانضمّوا إلى صفوف جيش الدولة طلباً للحياة، فثبت ثبات الراسيات لا يتزعزع ولا يرضى إلّا بالموت، وقاتل قتال الأبطال حتى قُتل، وكان بإمكانه الانْحِيَاز إلى بلد قريب لينجو بمن معه وبنفسه، ولكن الموت بالنسبة إليه أخفّ وطأة من الانحياز.

وكان يطبِّق مبدأ: التعاون، فقد عاون أخاه يزيد بروحه، وربط مصيره بمصيره برباط حاسِم، كما كان تعاونه وثيقاً بين قوّاته وقوّات إخوته في الحرب وقبلها وبعدها، وما تخلّف عن إخوته أبداً في المُلمّات، وختم حياته بالتضحية بروحه دفاعاً عن يزيد وآل المهلّب، وهكذا يكون التعاون الصادق المتين.

وكان يطبِّق مبدأ: إدامة المعنويات، والواقع أنّه كان كتلة حيّة من المعنويات العالية، وما كان في تقدّمه الصفوف واستئثاره بالأخطار دون رجاله وإيثارهم بالأمن، إلّا من الجرعات المعنوية التي ترفع المعنويات وتبدِّلها من حال إلى حال.

وحسب الرجال أن يقاتلوا تحت راية قائد بطل شجاع، لتصبح معنوياتهم في عنان السماء.

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٨٤).

وكان يطبِّق مبدأ: الأمور الإدارية، فما كان للمفضّل بيت مال يكدِّس به الأموال، ولا كان من الذين يجمعون المال، وكلّ ما يصيبه من الغنائم والأموال يقسمه على أصحابه[1]، والمال عصب الحرب، وهو الذي يؤمِّن القضايا الإداريّة للرجال.

ولا أعرف قائداً في عصر المفضّل بالذات، ليس له بيت مال، يقسم كلّ ما يصيبه من الغنائم وغيرها على أصحابه فوراً ـ ولا يحتفظ بدرهم ولا دينار.

وتقسيم الأموال، دون إبقاء شيء منها للمستقبل وادخارها لنوائب الدهر، سلاح ذو حدّين، فإن أفاد الناسَ، فإنّه يضرّ بالمصلحة العامة للمسلمين، فلا بدّ من الادخار لمواجهة أحداث الزمان.

ولكنّ المفضّل لم يطبِّق مبدأ: المباغتة، وهي أهم مبادئ الحرب على الإطلاق، ولعلّ الظروف لم تسمَح له بفرصة سانحة يستغلّها في تطبيق هذا المبدأ الحيويّ، فما تولّى خُراسان غير تسعة أشهر، وما أقصرها من مدّة، وما أعظم ما أنجزه خلالها من أعمال.

وكان المفضّل ذكياً ألمعيّ الذكاء، وكانت تجربته العملية في القتال طويلة، لذاك كانت قرارته سليمة صائبة سريعة.

وكانت إرادته قوية. إذا اقتنع بخطّة نفّذها، يتمتّع بمزيّة سبق النّظر، فيتوقّع ما يحدث، ويصدق توقّعه.

وكانت له نفسيّة رصينة لا تتبدّل في حالتي النصر والهزيمة، فقد بقي متواضعاً حين كان في أوجه مقرّباً من سليمان بن عبد الملك، وبقي عزيزاً حين أمسى في حضيضه يقاتل عن شرفه وأحسابه وهو رجل بلا غد.

وكان يثق برجاله ويثقون به، وحسبه أن يكون أشجعهم وأجودهم

---

(١) الطبري (٦/ ٣٩٧).

وأكثرهم إحساناً، وكان يحبّ رجاله، ويحبونه، فهو يدافع عنهم ويتفقّدهم ويرعاهم ويلبّي طلباتهم.

وكان يتمتّع بقابلية بدنية قويّة، مارس الحرب وهو في ريعان الشباب، ومات وهو في أول كهولته المتكاملة، وفي أوج قوّته البدنيّة.

له ماضٍ ناصع مجيد، وله حاضر مشرِّف نظيف.

وقد تيسّر له الطبع الموهوب شجاعةً وإقداماً وذكاء وقوّة بدنية، وتيسر له العلم المكتسب، حتى أصبح أول أقرانه استعمالاً لسلاحه وأحسنهم استخداماً لتعبئة رجاله، وتيسّرت له التجربة العملية الطويلة.

وقد كان يؤثر ميدان القتال على القصور، ويفضِّل أن يكون غازياً لا جابياً، وكان لا يكلّ ولا يملّ من العمل الدائب في المجالين الإداري والقياديّ.

ويبدو أنه لم يسمح لنفسه بالرَّاحة في مدّة ولايته على خُراسان، حتى قدم خلفه قُتَيْبَة بن مُسْلِم فوجده مشغولاً بعرض الجند للغزاة[1] استعداداً لفتح جديد أو استعادة فتح قديم.

لقد أتعب المفضّل نفسه، وأتعب الذين يعملون بإمرته، وكان لا ينام ولا يُنِيْم، ولا يستريح ولا يريح، كأنّه منذرُ جيش، يقول: صبّحكم مسّاكم، كل همه أن يفتح ويستعِيد الفتح، ويقضي على الفتنة وعلى أسبابها، ويسهر على مصالح المسلمين مقاتلين وقاعدين.

إنّه كان قائداً متميِّزاً، يعمل للمصلحة العامة، وينسى مصالحه الشخصيّة من أجل المصلحة العامة، ولم يستطع أن يخدم أمّته وعقيدته وبلاده كما يحبُّ ويحبّ له المقدرون لكفاياته، للظروف التي أحاطت به، فأبعدته عن السلطة، وحرمت الدولة من كفاياته المتميزة العالية.

---

(١) ابن الأثير (٤/٥٢٣).

لقد كان المفضّل قائداً متميِّزاً.

المفضّل في التاريخ:

يذكر المؤرخون للمفضّل بأنه استعاد فتح منطقة باذَغِيْس من خُراسان وأَخْرون وشُومان من بلاد ما وراء النهر.

ويذكرون له، أنّه كان له أثر بارز في إخماد الفتن الداخليّة وإعادة الاستقرار إلى مناطق الحدود الشرقيّة للدولة.

ويذكر له التاريخ، أنّه مهّد الأمور لقُتَيْبَة بن مُسْلِم البَاهِلِيّ، فاستطاع فتح ما فتح من بلاد ما وراء النهر حتى حدود الصِّين، فكان قتيبة حسنة من حسنات المفضّل.

ويذكر له، أنّه لم يكن أضرب بسيفه من العرب ولا أحسن تعبية للحرب، ولا أغشى للحرب منه.

ويذكر له، أنّه كان لا يكلّ ولا يملّ، ولا ينام ولا يُنيم، ولا يُريح ولا يستريح، في خدمته العامة، فكانت راحتُه في تعبه، وتعبُه في راحته، وكانت همّته منصرفة للمصلحة العامة لا للمصلحة الشخصيّة.

ويذكر له، أنّه أنجز في السّلم والحرب خلال تسعة أشهر من حُكْمه القصير، ما لم ينجزه غيره من الأُمراء في بضع سنين.

ويذكر له، أنّ الظروف القاسية التي أحاطت به، حرمت أمّته وبلاده من كفاياته العالية وقابلياته الفذّة، فلم تستفد منه كما ينبغي.

ويذكر له، أنّ كان قائداً يقود رجاله من الأمام دون أن يفرِّط بواجباته القيادية، ويمارس القتال في الخطوط الأماميَّة القصوى، فلا يكون أحد من رجاله أقرب إلى العدو منه.

ويذكر له، أنه كان قائداً متميِّزاً، وإداريّاً قديراً.

يرحمه الله جزاء ما قدّم لأمّته وبلاده، وجعله قدوة للعرب والمسلمين قائداً وإدارياً، وإنساناً ومسؤولاً.

قُتَيْبَة[1] بن مُسْلِم البَاهِلي[2]
فاتح ما وراء النهر حتى حدود الصّين

«لله درّه! ما كتبت إليه في أمر قط، إلا فهم عني وعرف ما أريد»
(الحجاج بن يوسف الثقفي)

نسبه وأهله:

هو قُتَيْبَة بن مُسْلم بن عمرو بن الحُصَيْن الباهلي[3]، يُكنّى: أبا حفص[4] وأُمّه بنت عمرو بن تميم[5]، وأبوه مُسْلِم بن عمرو، ويكنى: أبا صالح، كان يعمل جمّالاً[6] في أيامه الأولى، وكان عظيم القدر عند يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وهو صاحب (الحرون)، والحرون فرسه[7]، وكان الحرون من الفحول المشاهير يضرب به المثل[8]، وفي مسلم والد قتيبة يقول الشاعر[9]:

---

(١) قتيبة: بضم القاف وفتح التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها باء موحدة ثم هاء ساكنة، وهي تصغير: قتبة، بكسر القاف، وهي واحدة الأقتاب، والأقتاب: الأمعاء، وبها سمي الرجل، والنسبة إليه: قتبي، انظر وفيات الأعيان (٢/٢٤٧).

(٢) باهلة: هم بنو مالك بن أعصر، نسبوا إلى أمهم: باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة من مذحج، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٢٤٥) والعقد الفريد (٢/ ٢٢٥).

(٣) وفيات الأعيان (٣/ ٢٤٩) والمعارف (٤٠٦) ومعجم الشعراء (٣٣١) والبداية والنهاية (٩/ ١٦٥) وجمهرة أنساب العرب (٢٤٦) وسرح العيون (٩٧).

(٤) المعارف (٤٠٦) والبداية والنهاية (٧/ ١٦٧).

(٥) جمهرة أنساب العرب (٢٤٦).

(٦) المعارف: (٥٧٦).

(٧) المعارف: (٤٠٦) ووفيات الأعيان (٢/ ٩٩ ـ ٤٥٠).

(٨) وفيات الأعيان (٢/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).

(٩) المعارف (٤٠٦).

إذا ما قريش خلا ملكها فإنّ الخلافة في باهلة
لرب الحرون أبي صالح وما تلك بالسنة العادلة

وقد قتل مسلم مع مُصْعَب بن الزبير[1]، وكان له من الأولاد: بشار وزياد وعبد الكريم وقُتَيْبَة وعبد الله وصالح وعبد الرحمن وحَمّاد وزُرَيْق وضِرار وعمرو ومَعْبَد والحُصَيْن.

فأما بَشّار، فكان أكبرهم، وهو صاحب (نهر بَشّار)[2]، وكان سيد ولد مسلم، حتى سبق عليه قتيبة، ولبشّار عقب.

وأما زياد بن مسلم، فقد قتل مع قتيبة بـ (خُراسان)، وله عقب؛ كما أن لعبد الرحمن بن مسلم عقباً بالبصرة.

وأما عبد الرحمن بن مسلم، فقد قتل مع أخيه قتيبة، وقتل مَعْبَد بن مسلم أيضاً وله عقب كثير.

أما الحُصَيْن بن مسلم، فله عقب بالبصرة،، وكان عمرو بن مسلم شجاعاً يلي الولايات لقتيبة وعَدِي بن أرطأة، وعقبه كثير[3].

وقتيبة من بني (هِلال) من (باهِلَة)، وهم بنو مالك بن أَعْصُر، نسبوا إلى أمهم: (باهلة) وبها يعرفون[4]، وهم من قيس عيلان بن مُضَر بن نزار بن معد بن عدنان[5] وباهلة هي زوج مالك بن أعْصُر[6] بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن معد بن عدنان[7]؛ وكانت العرب

---

(١) ابن خلدون (٢/ ٣١) والبداية والنهاية (٩/ ١٦٨). وقد كان ذلك سنة إحدى وسبعين الهجرية، انظر ابن الأثير (٤/ ١٠٥) والطبري (٥/ ٦) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٩٦) واليعقوبي (٣/ ١٢).

(٢) نهر بشار: نهر بالبصرة، ينزع من الأبلة: منسوب إلى بشّار بن مسلم بن مرو الباهلي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢٧).

(٣) انظر التفاصيل في المعارف (٤٠٦ ـ ٤٠٨).

(٤) العقد الفريد (٢/ ٢٢٥).

(٥) وفيات الأعيان (٣/ ٢٤٩).

(٦) وفيات الأعيان (٢/ ٣٤٤).

(٧) المصدر نفسه (٣/ ٢٤٩).

تستنكف من الانتساب إلى باهلة حتى قال الشاعر:

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهلة[1]

وقد سئل حسين بن بكر النسابة عن السبب في اتضاع (غَنِيّ)[2] و (باهلة) عند العرب، فقال: «لقد كان فيهما غناء وشرف، ولم يضعهما إلا إشراف أخويهما: فَزارة وذبيان، عليهما بالمآثر، فدنوا بالإضافة إليهما»[3]؛ وهذا يدّل على أنّ تردي سمعة (باهلة) بين العرب كان أمراً نسبياً فقط، إذ لا بدّ أن يكون تفاضل بين القبائل العربية، وليس في تاريخ (باهلة) عمل يخلّ بشرفها من بعيد ولا قريب.

جهاده:

١ ـ في الفتن الداخلية:

أولاً: في البصرة:

خرج الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ من (الكوفة) إلى (البصرة) فلما قدمها خطبهم بمثل خطبته بالكوفة، وتوّعد على القعود عن المهلّب بن أبي صُفْرة الأَزْدِيّ، كما توعّد بالكوفة، فلم يبق بالبصرة أحد من عسكر المهلّب إلّا لحق به، فقال المهلّب: «لقد أتى العراق رجل ذكر».

ثم سار الحجّاج حتى كان بينه وبين المهلّب ثمانية عشرة فرسخاً، فأقام هناك يشدّ ظهر المهلب، وقال: يا أهل المَصْرَيْن[4]! هذا والله مكانكم حتى يُهلك الله الخوارج»؛ ثم قطع عنهم الزيادة التي زادها مصْعَبْ بن الزبير

---

(١) المصدر نفسه ٣/٢٥٣).

(٢) غني: غني بن أعصر أخو مالك بن أعصر، انظر العقد الفريد (٢/ ٢٢٥). وفي جمهرة أنساب العرب، أنهم بنو عمرو بن أعصر، منم بهثة بن غنم بن عمرو بن أعصر، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٤٧). ومن غني، بنو ضبينة وبنو بهثة وبنو عبيد وهم حلفاء بني كلاب، انظر المعارف (٨٠).

(٣) وفيات الأعيان (٣/ ٢٥٣).

(٤) أهل المصرين: يقصد أهل الكوفة وأهل البصرة.

في الأعطية، وكانت مائة مائة. فأتى وجوه البصرة عبد الله بن الجارود، وقالوا: «إنّ هذا الرجل مجمع على نقص هذه الزيادة، وإنّا نبايعك على إخراجه من العراق ونكتب إلى عبد الملك بن مروان أن يولي علينا غيره وإلا خلعناه، وهو يخافنا ما دامت الخوارج في العراق»، فبايعوه سراً، وتعاهدوا وأعطوه المواثيق على الوفاء!.

وبلغ الحجّاج ما هم فيه، فأحرز بيت المال واحتاط فيه، فلما تمّ لهم أمرهم أظهروه، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين الهجرية (٦٩٥م)؛ وأخرج عبد الله بن الجارود قبائل عبد القيس على راياتهم، وخرج الناس معه، حتى لقي الحجّاج وليس معه إلّا خاصته وأهل بيته!!

وزحف ابن الجارود بالناس، حتى دخل فُسطاط الحجّاج فنهبه الناس، وكان رأيهم أن يُخرجوا الحجّاج ولا يقتلوه، فحرض بعضهم ابن الجارود بقوله: «لا ترجع عنه!» وحرّضه على معاجلته، فقال: «إلى الغد!!».

وسعى بعض رؤساء البصرة إلى الحجّاج في بعض قومهم، وسعى قتيبة في بني أعصر، وقال: «والله لا ندع قيسياً يُقتل ولا ينهب ماله»، يعني: الحجّاج، وأقبل إلى الحجاج - وكان الحجاج قد يأس من الحياة، فلما جاءه هؤلاء اطمأنّ وثابت إليه نفسه وعلم أنه قد امتنع، إذ أصبح حوله ست آلاف عندما أصبح.

وتزاحف القوم، وكان قتيبة على ميمنة الحجّاج، فاقتتلوا ساعة، فقتل ابن الجارود. ونادى منادي الحجّاج بأمان الناس، وأمر ألّا يُتَّبَعَ المنهزمون[1].

---

(١) انظر تفاصيل قصة وثوب أهل البصرة بالحجاج في ابن الأثير (١٤٧/٤ - ١٥٠) وابن خلدون (٤٢/٣ - ٤٤).

لقد كان لقتيبة أثر كبير في نجاة الحجّاج من خطر محدق، فأصبح لقتيبة مكانة مرموقة عند الحجّاج، إذ أثبت إخلاصه العميق للحجّاج في ساعة محنته ـ تلك الساعة التي يعرف فيها العدو من الصديق.

ثانياً: في قتال الخوارج:

فتك شَبِيْب الخارجي بكثير من المسلمين وعاث في الأرض فساداً؛ وفي سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦م) دخل الكوفة ومعه زوجه غزالة. وكانت غزالة نذرت أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ فيهما سورتي: البقرة وآل عمران، ففعلت ذلك. وفضّ شبيب كتائب الحجّاج كتيبة بعد كتيبة، وقتل أمراءه أميراً بعد أمير، وبثّ الرعب في نفوس الناس. وحزب الحجّاج أمر شبيب وضاقت به الأرض، فأذن للناس فدخلوا عليه وهو على سريره وعليه لحاف، فقال للناس: «إني دعوتكم لأمر فيه أمان ونظر، فأشيروا عليّ! إنّ هذا الرجل قد تَبحَبْح بحبوحتكم[1] ودخل حريمكم وقتل مقاتليكم، فأشيروا عليّ[2]!»، فأطرقوا.

وفصل رجل من الصف بكرسيه، فقال: «إن أذن لي الأمير تكلّمت!»، فقال: «تكلّم»، فقال: «إنّ الأمير والله ما راقب الله ولا حفظ أمير المؤمنين، ولا نصح للرعية!»، ثم جلس بكرسيه في الصف، فإذا قتيبة بن مسلم، فغضب الحجاج وألقى اللحاف ودلى قدميه من السرير، فقال: «مَنْ المتكِّلم؟!» فخرج قتيبة بكرسيه من الصف وأعاد الكلام، فقال الحجّاج: «وكيف ذلك؟»، فقال قتيبة: «لأنك تبعث الرجل الشريف، وتبعث معه رعاعاً فينهزمون ويستحي أن ينهزم، فَيُقْتَل!»، فقال: «وما الرأي؟»، قال: «الرأي أن تخرج بنفسك ويخرج معك نظراؤك، فيواسونك بأنفسهم»، فقال الحجّاج: «والله لأبرزنّ له غداً». فلما كان الغد حضر الناس فقال

---

(١) التبحبح: التمكن من الحلول والمقام. والبحبوحة: الدار، انظر مختار الصحاح (٤١).

(٢) الطبري (٥/٩٦).

قتيبة: «اذكر يمينك أصلح الله الأمير»، فقال الحجّاج: «اخرج فارتَدْ لي مُعَسكراً».

وجعل رسول الحجّاج يخرج ساعة بعد ساعة من بعد صلاة الصبح، فيقول: «أجاء بعد؟»، وإذا قتيبة يمشي في المسجد عليه قَبَاء هَرَوي[1] أصفر وعمامته خزّ أحمر متقلّداً سيفاً عريضاً قصير الحمائل كأنه في إبطه، قد أدخل بِرْكَة قَبَائه في مِنْطَقَته والدرع تصفق ساقيه، ففتح له باب الحجاج ولم يُحْجَب، فدخل ولبث طويلاً ثم خرج وأخرج معه لواء منشوراً.

وركب الناس وركب قتيبة فرساً أغرّ محجلاً كُمَيْتاً[2] كأنه في سرجه رمانة من عظم السرج، فأخذ في طريق دار السقاية حتى خرج إلى (السَّبَخَة)[3] وبها عسكر شبيب، وذلك يوم الأربعاء؛ فتوافقوا ثم غدوا للقتال يوم الخميس، ثم غادوهم يوم الجمعة، فلما كانت وقت الصّلاة انهزمت الخوارج[4].

لقد كان لشجاعة قتيبة في إبداء رأيه الصّائب للحجّاج وحثّه على الخروج بنفسه لقتال شبيب، وارتياده لجيش الحجّاج معسكراً مناسباً للقتال وصفه للحجاج بقوله: «وجدت المأتى سهلًا، فَسِرْ على الطّائر الميمون»[5]، ولحسن تدبير قتيبة ولشجاعته وإقدامه، كلّ ذلك كانت أسباباً مساعدة للتغلّب

---

(١) قباء هروى: القباء الذي يلبس، والجمع أقبية، وتقبى: لبس القباء، وهروي نسبة إلى مدينة هراة.

(٢) الفرس الكميت: الأحمر القاني وذنبه أسود، وما كان لونه بين الأسود والأحمر، والكميت للذكر.

(٣) السبخة: واحدة السباخ، وهي الأرض الملحة النازة، وهناك موضع بالبصرة بهذا الاسم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٢٧).

(٤) الطبري (٥/ ٩٦ - ٩٧).

(٥) الطبري (٥/ ٩٨).

على الخوارج الذين قاتلوا بقيادة أبرز قادتهم شبيب الخارجيّ، ثم هلاكه من بعد[1].

٢ ـ الفاتح:

أ ـ تولية قتيبة:

بعد انتصار الحجّاج على شبيب الخارجيّ، كافأ قتيبةَ بتوليته (الرَيّ)، ثم ولّاه (خُراسان) بعد يزيد بن المهلّب بن أبي صُفرة[٢]، وذلك في أيام الوليد بن عبد الملك[٣]، وكان ذلك سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م).

وما كاد قتيبة يصل إلى (خراسان)، حتى وقف في جيشه خطيباً، فقال: «إنّ الله أحلّكم هذا المحل ليعزّ دينه ويذبّ بكم عن الحرمات ويزيد لكم المال استفاضة والعدو وَقَماً[٤]. وعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[٥]، ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٦]، ثم

---

(١) انظر تفاصيل مهلك شبيب الخارجي في الطبري (٥/ ١٠٢ ـ ١٠٥) وابن الأثير (٤/ ١٦٦ ـ ١٦٨).

(٢) وفيات الأعيان (٣/ ٢٤٩) والمعارف (٤٠٥) وانظر اليعقوبي (٣/ ٣٠) وفيه: وقد ولى الحجاج بعد يزيد بن المهلب أخاه المفضل، فبقي مدة قليلة وخلفه قتيبة.

(٣) معجم الشعراء (٢٣١)، وذلك سنة ست وثمانين كما جاء في ابن خلدون (٣/ ٥٩) وابن الأثير (٤/ ٢٠٠) والطبري (٥/ ٢١٤)، وفي رواية، أنه تولاها سنة خمس وثمانين هجرية؛ انظر الطبري (٥/ ٢١٥).

(٤) وقم: وقم الرجل أي أكرهه وقسره، انظر المعجم الوسيط (٢١/ ١٠٦٤)، وقهر وأذل، انظر ترتيب القاموس المحيط (٤/ ٥٨٤).

(٥) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩: ٣٣) ومن سورة الصف (٦١: ٩).

(٦) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩: ١٢٠).

أخبر عمن قُتل في سبيل الله أنه حيّ مرزوق، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1]، فتنجّزوا موعود ربكم، ووطّنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم، وإياي والهوينى»[2].

ب - استعادة الطالقان[3] والصَغَانِيَان وطخارستان[4]:

عرض قتيبة جنده وحثهم على الجهاد وسار غازياً، فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين (بَلْخ) وساروا معه، فقطع نهر (جيحون) فتلقاه ملك (الصَغَانِيان) بهدايا ومفاتيح من ذهب، ودعاه إلى بلاده وسلّمها إليه، لأنّ ملك (شُوْمَان)[5] و (أخْرون)[6] كان يسيء جواره. وسار قتيبة منها إلى (أخْرون) و (شُومان) وهما من الصَغَانيان، فصالحه ملكها على فدية أداها إليه، فقبلها قتيبة ثم انصرف عائداً إلى (مرو) واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة (كاشان)[7] و (أورشت)[8]، وفتح (أَخْسِيْكَث)[9] وهي

---

(١) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣: ١٦٩).

(٢) الطبري (٥/٢٤١ - ٢١٥).

(٣) الطالقان: أكبر مدينة بطخارستان بلد بخراسان بين مرو الروذ وبلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٢).

(٤) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدّة بلاد، وهي من نواحي خراسان، وهي طخارستان العليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون، وطخارستان السفلى غربي جيحون أيضاً، إلا أنها أبعد من بلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣١) والمسالك والممالك للإصطخري (١٥٦).

(٥) شومان: بلد الصَغَانيان من وراء نهر جيحون، وهو من الثغور الإسلامية؛ انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣١٠) وتقويم البلدان (٥٠٤).

(٦) أخرون: لم أجد لها ذكراً في كتب البلدان المتيسرة لدي؛ والظاهر أنها مدينة قريبة من شومان.

(٧) كاشان: مدينة فيما وراء النهر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٠٧).

(٨) أورشت: هي مدينة من مدن فرغانة، انظر البلاذري (٤٠٩) وابن الأثير (٤/٢٠١).

(٩) أخسيكث: بالفتح ثم السكون وكسر السين المهملة وياء ساكنة وكاف وثاء مثلثة، وبعضهم يقوله بالتاء المثناة، اسم مدينة بما وراء النهر. وهي قصبة ناحية فرغانة على شاطئ نهر الشاش، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٥٠) وتقويم البلدان (٥٠٠)، وهي (أخشيت).

مدينة (فَرْغانة)[1] القديمة[2] بهذا الفتح الكبير، استهلّ قتيبة ولايته لخُراسان سنة ست وثمانين الهجرية[3] (٧٠٥م).

ج ـ استعادة باذَغِيس وبيكند:

أولاً: لما صالح قتيبة ملك (شومان)، كتب إلى (نيزك طرخان) صاحب (باذَغِيس) في إطلاق مَن عنده من أسرى المسلمين، وهدّده في كتابه، فخاف (نيزك) وأطلق الأسرى وبعث بهم إلى قتيبة؛ فوجّه إليه قتيبة سليم النّاصح[4] يدعوه إلى الصُّلح ويؤمِّنه، وكتب إليه كتاباً يحلف فيه بالله لئن لم يقدِم عليه ليغزونّه ثم ليطلبنّه حيث كان، لا يُقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك؛ فقدم سليم على (نيزك) بكتاب قتيبة ـ وكان يستنصحه، فقال: «يا سليم! ما أظنّ عند صاحبك خيراً... كتب إليّ كتاباً لا يُكتب إلى مثلي!!»؛ فقال له سليم: «إنّ هذا رجل شديد في سلطانه، سهل إذا سوهل، صعب إذا عُوسر، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك؛ فماأحسن حالك عنده وعند جميع مُضَر»، فقدم (نيزك) مع سليم على قتيبة، فصالحه لأهل (باذغيس)، على ألّا يدخلها قتيبة، وكان ذلك سنة سبع وثمانين الهجرية[5] (٧٠٥م).

ثانياً: غزا قتيبة (بِيْكَنْد) وهي أدنى مدائن (بخارى) إلى النهر، فسار

---

(١) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣٦٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (٦٠٣) والمسالك والممالك للإصطخري (١٦٣) والبلدان (٣٢٢) وتقويم البلدان (٥٠٢) والمسالك والممالك (٥٠٦ ـ ٢٠٨) وأحسن التقاسيم (٣٦٢).

(٢) ابن الأثير (٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠١) وابن خلدون (٣/ ٥٩) والبلاذري (٤٠٩)، وانظر الطبري (٥/ ٢١٥) وسرح العيون (٩٨) ومعجم البلدان (٢/ ٨٥). وقيل: إنه غزا أخرون، وشومان ثم رجع إلى مرو. وقيل: إنه أقام السنة ولم يقطع النهر لسبب بلخ، لأنّ بعضها كان منتقضاً، انظر ابن الأثير (٤/ ٢٠١) والطبري (٥/ ٢١٥).

(٣) انظر شذرات الذهب (١/ ٩٦).

(٤) سليم الناصح: هو مولى عبيد الله بن أبي بكرة.

(٥) الطبري (٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨) وابن الأثير (٤/ ٢٠٢).

من (مرو) وأتى (مرو الروذ)[1] ثم أتى (آمُل)[2]، ثم مضى إلى (زَمّ)[3]، فقطع النهر وسار إلى (بيكند) ويقال لها: مدينة التجار، على رأس المفازة من (بخارى)، فلما نزل ساحتهم استنصروا (الصُّغد) واستمدُّوا مَنْ حولهم، فأتوهم في جمع كثير، وأخذوا بالطريق، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولا خبر شهرين. وأبطأ خبر قتيبة على الحجّاج، فأشفق على الجند وأمر الناس بالدُّعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار.

وكان قتيبة يقاتل عدوّه كلّ يوم، وكان له عين من العجم، فأعطاه أهل (بخارى) مالًا ليرد عنهم قتيبة، فأتاه وقال له سراً من الناس: «الحجّاج قد عُزل، وقد أتى عامل إلى (خُراسان)، فلو رجعت بالناس كان أصلح»، فأمر قتيبة بقتله خوفاً من أن يظهر الخبر فيهلك الناس، ثم قال لرجل[4] كان عنده حين جاءه العين بهذا الخبر: «لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك، وإني أعطي الله عهداً لئن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنّك به، فاملك لسانك، فإنّ انتشار هذا الحديث يَفَتّ من أعضاد الناس».

وأمر قتيبة أصحابه بالجدّ في القتال، فقاتلهم قتالًا شديداً، فانهزم أعداؤه يريدون المدينة، وأتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول، فتفرّقوا، وركبهم المسلمون قتلًا وأسراً.

واعتصم مَن دخل المدينة وهم قليل، فوضع قتيبة الفَعَلَة[5] لهدم سورها، فسألوه الصُّلح، فصالحهم واستعمل عليهم عاملًا. وارتحل عنهم

---

(١) مرو الروذ: مرو أشهر مدن خراسان، وهما مروان: مرو الروذ ومرو الشاهجان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢) و (٨/ ٣٣) والبلدان لليعقوبي (٢٧٩).

(٢) آمل: قصبة طبرستان وهي أكبر من قزوين، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (٤٣٤) والمشترك وضعاً (٧) ومعجم البلدان (١/ ٦٣).

(٣) زم: بليدة على طريق جيحون بين ترمذ وآمل، انظر التفاصيل في معجم البلدن (٤/ ٤٠٥).

(٤) هو ضِرار بن حُصَيْن الضَبيّ.

(٥) الفعلة: جماعة من المقاتلين مسؤولون عن إصلاح الطرق وقطع الشجر وإقامة الجسور والمعابر، وحفر الآبار وتنقيتها وما أشبه ذلك، انظر مختصر سياسة الحروب للهرثمي (٢٩).

يريد الرجوع، فلما سار خمسة فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومَنْ معه، فرجع إليهم وقد تحصّنوا، فقاتلهم شهراً، ثم وضع الفَعَلة فنقبوا سورها، فسألوه الصلح فلم يقبل، ودخلها عَنْوَة، وقتل مَن كان فيها من المقاتلة، وكان في مَنْ أخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين، فقال لقتيبة: «أنا أفدي نفسي...»، فقال سليم الناصح: «ما تبذل؟؟» فقال: «خمسة آلاف حريرة صينية قيمتا ألف ألف»، فقال قتيبة: «ما ترون؟»، فقالوا: «إنّ فداه زيادة في غنائم المسلمين، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا؟!»، فقال: «لا والله! لا تروّع بك مسلمة أبداً»، وأمر به فقُتل.

وأصاب المسلمون في (بِيكَنْد) من آنية الذهب والفضة ما لا يُحصى، وأصابوا شيئاً كثيراً لم يصيبوا مثله حتى بخُراسان، فرجع قتيبة إلى (مرو)، وقوي المسلمون فاشتروا السلاح والخيل، وجلبت إليهم الدواب، وتنافسوا في حسن الهيئة والعدّة، وغالوا بالسلاح حتى بلغ الرمح سبعين درهماً.

وكان في الخزائن سلاح وآلة من آلة الحرب كثيرة، فكتب قتيبة إلى الحجّاج يستأذنه في دفع السلاح إلى الجند، فأذن له؛ فأخرجوا ما كان في الخزائن من عُدَّة الحرب وآلة السفر، فقسّمه في الناس.

لقد حدث ذلك سنة سبع وثمانين الهجرية[1] (٧٠٥م).

د ـ استعادة نُومشكث[2] وراميثَن:

استقرّ قتيبة في (مرو) أيام الشتاء للراحة وإنجاز الاستحضارات الإدارية لجيشه وإعداد رجاله للقتال، فلما كان أيام الربيع ندب الناس وقال: «إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد، وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى الإدفاء»، فسار من (زم) إلى (بخارى)، فأتى (نومشكث) وهي من (بخارى)، فصالحوه[3].

---

(١) الطبري (٥/٢١٨ ـ ٢٢٠)، وانظر ابن الأثير (٤/٢٠٧) وابن خلدون (٣/٥٩) والبلاذري (٤٠٩ ـ ٤١٠) وسرح العيون (٩٨ ـ ٩٩)، وانظر شذرات الذهب (١/١٩٧) والعبر (١/١٠٢).

(٢) نومشكث: مدينة من أعمال بخارى، انظر الطبري (٥/ ٢٢٠) وابن الأثير (٤/ ٢٠٤).

(٣) الطبري (٥/ ٢٢٠)، وانظر ابن الأثير (٤/ ٢٠٤) وابن خلدون (٣/ ٥٩) والبلاذري (٤١٠).

وسار قتيبة إلى (راميثن)، فصالحه أهلها أيضاً، فانصرف عنهم[1].
وفي طريق عودته إلى (مرو) زحف إليه الترك ومعهم (الصُغد) وأهل (فرغانة) في مائتي ألف بقيادة ملك الترك (كور بغانون) ابن أخت ملك الصين، فهدّدوا السّاقة التي كانت بقيادة عبد الرحمن بن مسلم الباهلي، وكان بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل واحد؛ فلما قربوا من الساقة أرسل قائدها رسولاً إلى قتيبة يخبره بزحف الترك، ولكن الترك هاجموه في أثناء ذلك وقاتلوه. وأتى الرسول قتيبة، فرجع قتيبة بالناس وانتهى إلى الساقة وهي مشتبكة بالقتال وقد كاد الترك يسحقونها؛ فلما رأى الناس قتيبة طابت أنفسهم فصبروا وقاتلوا إلى الظهر، وأبلى يومئذ (نيزك) وهو مع قتيبة، فانهزم الترك.

ورجع قتيبة فقطع النهر عند (تِرْمِذ) وأتى (مرو)، وكان ذلك سنة ثمان وثمانين الهجرية[2] (٧٠٦م).

هـ - فتح بُخارى والصلح مع الصغد:

أولاً: أمر الحجاج سنة تسع وثمانين الهجريّة (٧٠٧م) بغزو (بخارى) وملكها يومئذ (وردان خذاه)[3] الذي اغتصب الملك من (طغشاد) بن خاتون، فعبر النهر من (زم) ولقيه (الصُّغد) وأهل (كِشّ) و (نَسَف) في طريق

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٤).
(٢) الطبري (٥/٢٢٣) وابن الأثير (٤/٢٠٤)، وانظر البلاذري (٤١٠). وفي ابن خلدون، (٣/٥٩): «أنّ الترك اعترضوا مقدمة قتيبة»، وهذا خطأ من الناحية العسكرية، لأنّ قتيبة كان في طريق عودته إلى (مرو)، فتكون الساقة لا المقدمة في متناول أيدي الترك يضربونها حتى يجبروا قتيبة على العودة بقواته إلى الخلف، أما ضرب المقدمة فمعناه الاصطدام بجيش قتيبة كله بدون حاجة إلى الرجوع إلى الخلف وتبديل خطة مسيره ووضع خطة جديدة للقتال.
(٣) وردان خذاه: وزير أصله من تركستان، وكانت له إمرة (وردانة) وهي قرية من قرى بخارى، وقد استأثر بملك بخارى بعد وفاة الخاتون، وبعد اندحاره أمام قتيبة هرب إلى تركستان ومات هناك، فأعاد قتيبة الملك إلى طغشاد على بخارى، فأسلم وبقي ملكاً ثلاثين سنة، وسمى ابنه قتيبة.

المفازة وقاتلوه، فانتصر عليهم، ومضى إلى (بخارى)، فنزل (خَرَقانة)[1] السفلى، فلقوه بجمع كثير، فقاتلهم يومين وليلتين وانتصر عليهم.

وغزا (وردان خُذاه)[2] فلم يظفر بشيء، فرجع إلى (مرو).

وكتب قتيبة إلى الحجّاج بخبره، فكتب إليه الحجاج: «صوِّرها لي»، يعني: منطقة (بخارى)، فبعث إليه قتيبة وصفاً دقيقاً لها؛ فبعث إليه الحجاج يأمره بالتوبة مما كان من انصرافه عن (وردان خذاه) ملك (بخارى) قبل الظفر به، ويعرفه الموضع الذي ينبغي أن يأتي بلده منه[3].

ثانياً: وخرج قتيبة من (مرو) سنة تسعين الهجرة (٧٠٨م) غازياً، فأرسل (وردن خُذاه) إلى (الصُّغد) والترك ومَن حولهم يستنصرهم، فأتوه وقد سبق إليه قتيبة وحصره.

ووردت الإمدادات إلى ملك (بخارى)، فخرجوا إلى المسلمين ليقاتلوهم، فقالت الأَزد: «اجعلونا على حدة، وخلّوا بيننا وبين قتالهم»، فقال قتيبة: «تقدّموا!»، فتقدموا يقاتلونهم قتالاً شديداً، ولكنهم انهزموا حتى دخلوا عسكر قتيبة وجاوزوه، فضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكرّوا راجعين.

وأطبقت مجنبتا جيش المسلمين على الترك، فقاتلوهم حتى ردوّهم إلى مواقفهم السابقة، فوقف الترك على نشز من الأرض، فقال قتيبة: «مَنْ يزيلهم عن هذا الموضع؟»، فلم يقدم عليهم أحد! فأتى قتيبة بني تَميم وقال لهم: «يوماً كأيامكم...»، فأخذ وَكِيعْ بن حَسّان بن قيس التميمي[4] اللِّواء

---

(١) خرقانة: في معجم البلدان وردت: خزقان، قرية من قرى سمرقند، وخرقانة: موضع، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٢١).

(٢) وردان خذاه: ملك بخارى، وهناك: وردانة: من قرى بخارى، انظر معجم البلدان (٨/ ٤١٤).

(٣) ابن الأثير (٤/ ٢٠٤) وابن خلدون (٣/ ٥٩ - ٦٠) والطبري (٥/ ٢٢٥).

(٤) هو الفاتك وكيع بن حسان بن قيس بن أبي سود بن كلب التميمي والي خراسان وقاتِل قُتيبة بن مسلم الباهلي، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٢٦).

وقال: «يا بني تَمِيمْ! أتسلمونني اليوم؟!» فقالوا: «لا، يا أب مُطَرِّف»، وكان هُرَيم بن أبي طَحْمة المجاشعي على خيل بني تميم ووكيع رأسهم، فقال وكيع: «يا هريم! قدّم خيلك...»، ودفع إليه الراية؛ فتقدم هريم، وتقدّم وكيع في الرجالة، فانتهى هريم إلى نهر بينهم وبين الترك، فوقف، فقال له وكيع: «اقحم ياهريم!». فضرب هريم فرسه وأقحمه، وعبر بالخيل.

وانتهى وكيع إلى النهر، فشدّ عليه جسراً من خشب، وقال لأصحابه: «مَنْ وطّن نفسه على الموت، فليعبر؛ وإلّا فليثبت مكانه»، فما عبر معه إلّا ثمانمائة رجل.

ودنا وكيع من العدو، فقال لهريم: «إني مطاعنهم فأشغلهم عنّا بالخيل»، فطاعنوهم ولم يزالوا يقاتلونهم حتى أزاحوهم عن مواضعهم.

ونادى قتيبة: «أما ترون العدو منهزمين!؟»، فأتبعهم الناس. ونادى قتيبة: «مَنْ جاء برأس فله مائة»، فأُتي برؤوس كثيرة، وجرح يومئذ (خاقان) ملك الترك وابنه؛ وفتح الله على المسلمين بخارى، فكتب بالفتح إلى الحجاج[1].

و ـ غدر (نيزك) وفتح الطالْقَان:

أولاً: فصل قتيبة من (بخارى) ومعه (نيزك) وقد خاف لما يرى من

---

(١) ابن الأثير (٤/٢٠٧) والطبري (٥/٢٢٧ ـ ٢٢٨). وابن خلدون (٣/٦١). وفي البلاذري (٤١٠): إن قتيبة فتح بخارى على صلح. وفي رواية أخرى: إن قتيبة أتى بخارى فاحترسوا منه، فقال: «دعوني أدخلها فأصلي ركعتين»، فأذنوا له في ذلك، فأكمن لهم قوماً، فلما دخلوا كاثروا أهل الباب ودخلوا، فأصاب فيها مالاً عظيماً، وغدر بأهلها... انتهى ما جاء في البلاذري (٤١٠). وأرى أنّ هذه الرواية غير منطقية وغير معقولة، إذ كيف يجازف قتيبة بدخول المدينة للصّلاة فيها وهو في ساحة حرب بين أعدائه؟؟ وكيف يسمح له أهل بخارى أن يدخل مدينتهم ولا يقضون عليه؟؟ كما أنّ الخيانة والغدر ليسا من خلق السلف الصالح من قادة الفتح الذين كانوا متمسكين بتعاليم الإسلام.

الفتوح، فقال لأصحابه: «أنا مع هذا ولست آمنه، فلو استأذنته ورجعت كان الرأي!»، فقالوا: «استأذنه»، فلما كان قتيبة بـ (آمل)، استأذنه (نيزك) بالرجوع إلى (طخارستان)، فأذن له.

وأسرع (نيزك) السير حتى أتى (النُوْبَهار)[1]، فنزل يصلي فيه ويتبرك به، وقال لأصحابه: «ولا أشكّ أنّ قتيبة قد ندم على إذنه لي، وسيبعث إلى المغيرة بن عبد الله يأمره بحبسي». وسار (نيزك) وتبعه المغيرة، فوجده قد دخل شعب (خُلَم)[2]؛ فانصرف المغيرة وأظهر (نيزك) الخلع وكتب إلى (أصبهذ) بلخ وإلى (باذان) ملك (مرو الروذ) وإلى ملك (الطالقان) وإلى ملك (الفِرْياب)[3] وإلى ملك (الجوزجان)[4] يدعوهم إلى خلع قتيبة. ثم كتب إلى ملك (كابُل)[5] يستظهر به وبعث إليه بثقله وماله، وسأله أن يأذن له ـ إن اضطر إليه ـ أن يأتيه، فأجابه إلى ذلك.

وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء وقد تفرّق الجند، فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم الباهلي في اثني عشر ألفاً إلى (البَرُوقان)[6] وقال له: «أقم بها، فإذا انقضى الشتاء سر نحو (طخارستان)، واعلم أني قريب منك».

---

(١) النوبهار: اسم موضعين: أحدهما قرب الري، والثاني ـ وهو المراد ـ ببلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢٠ ـ ٣٢٢)، وفي المشترك وضعاً كذلك، أنّ النوبهار معبد كان ببلخ للمجوس وكانت البرامكة سدنته، انظر المشترك وضعاً (٤٢٢).

(٢) خلم: بلدة بنواحي بلخ على عشرة فراسخ من بلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٥٩).

(٣) الفرياب: بلدة من نواحي بلخ وهي مخففة من: فارياب، انظر التفاصيل في معجم البلدن (٦/ ٣٧٢).

(٤) الجوزجان: كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٦٧) والمسالك والمالك للإصطخري (١٥٣).

(٥) كابل: اسم يشتمل على الناحية ومدينتها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٠١) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٤٣) وهي عاصمة الأفغان في الوقت الحاضر.

(٦) البروقان: قرية من نواحي بلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٥٧).

وفي آخر الشتاء، كتب قتيبة إلى (نَيسابُور)[1] وغيرها من البلاد ليقدم عليه الجنود، فقدموا قبل أوانهم، فسار نحو (الطالقان) وكان ملكها قد خلع وطابق (نيزك) على الخلع، فأوقع قتيبة بأهل (الطالقان) وقتل من أهلها مقتلة عظيمة.

وهكذا انقضت سنة تسعين الهجرية (٧٠٨م) قبل محاربة (نيزك)[2].

ثانياً: - وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩م)، سار قتيبة إلى (الفارياب) فخرج ملكها مُقراً مُذعناً، فقبل قتيبة منه ولم يقتل بها أحداً.

ثم أتى (بلخ) فلقيه أهلها، فلم يقم بها إلّا يوماً واحداً، وسار يتبع أخاه إلى شِعب (خُلْم). ومضى (نيزك) إلى (بَغْلان)[3] وخلّف بعض المقاتلين على فم الشعب ومضايقه ليمنعوه، ووضع مقاتلته في قلعة حصينة من وراء الشعب، فأقام قتيبة أياماً يقاتلهم على مضيق الشِّعْب لا يقدر على دخوله ولا يعرف طريقاً يسلكها إلا الشعب أو مفازة لا تحتملها العساكر، فبقي متحيِّراً!.

وبينما كان قتيبة يفكِّر في أمر القضاء على (نيزك)، إذ قدم عليه رجل استأمنه على أن يدّله على مدخل القلعة التي من وراء الشعب، فأمّنه قتيبة وبعث معه رجالًا انتهى بهم إلى القلعة من وراء شعب (خُلْم)، فباغتوا رجال (نيزك) وهم آمنون، فقتلوا بعضهم وهرب مَن بقي منهم ومَن كان في الشِّعب، فدخل قتيبة الشعب وأتى القلعة. ومضى إلى (سِمِنْجان)[4]، فأقام بها أياماً، ثم مضى قدماً إلى (نيزك).

---

(١) نيسابور: مدينة عظيمة في خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٥٦) والمسالك والممالك للإصطخري (١٤٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٧٣).

(٢) ابن الأثير (٤/ ٢٠٧ - ٢٠٨) والطبري (٥/ ٢٢٩ - ٢٣٠) وانظر ابن خلدون (٣/ ٦١). وفي رواية: أنّ ملك الطالقان لم يحارب قتيبة فكفّ عنه، وكان بها لصوص فقتلهم قتيبة وصلبهم، انظر ابن الأثير (٤/ ٢٠٩) والطبري (٥/ ٢٢٥).

(٣) بغلان: بلدة بنواحي بلخ؛ انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٤٦).

(٤) سمنجان: بلدة من طخارستان وراء بلخ وبغلان وبها شعاب كثيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٣٠).

وقدّم قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم الباهلي، فأرتحل (نيزك) من منزله في (بَغْلان) وقطع وادي (فرغانة)، ووّجه ثقله وأمواله إلى ملك (كابُل)، ومضى حتى نزل (الكُرْز)[1] وعبد الرحمن يتبعه، فنزل عبد الرحمن حذاء (الكرز) ونزل قتيبة بمنزل بينه وبين عبد الرحمن فرسخان.

وتحصّن (نيزك) في (الكرز) وليس إليه مسلك إلّا من وجه واحد ـ وهو صعب لا تطيقه الدواب، فحصره قتيبة شهرين، حتى قلّ ما في يد (نيزك) من الطعام وأصابهم الجدري.

وخاف قتيبة الشتاء، فدعا سليماً الناصح وقال: «انطلق إلى (نيزك)، واحتل لتأتيني به بغير أمان، فإن احتال وأبى، فأمّنه، واعلم أني إن عاينتك وليس هو معك، صلبتك!»، فاحتال سليم حتى قدم (نيزك) على قتيبة.

واستأذن قتيبةُ الحجّاجَ في قتل (نيزك)، فأتاه كتاب الحجاج بعد أربعين يوماً يأمره بقتله، فدعا فيه الناس واستشارهم في قتله، فأشار أكثرهم بقتله، فقتله ورجع إلى (مرو).

وأرسل ملك (الجوزجان) يطلب الأمان، فأمّنه قتيبة على أن يأتيه وطلب رهناً على أن يعطي هو رهائن من أهل بيته، فقبل منه قتيبة، فقدم عليه ثم رجع فمات في طريق عودته[2].

وهكذا انتهت فتنة (نيزك) ومن شايعه من الملوك سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٥٩م).

---

(١) كرز: وهي كرزبان كما جاء في معجم البلدان (٧/ ٢٣٧)، بلدة في الجبل قرب الطالقان.

(٢) ابن الأثير: (٤/ ٢٠٩ ـ ٢١٠) والطبري (٥/ ٢٣٠ ـ ٢٤١). وانظر ابن خلدون (٣/ ٦١ ـ ٦٢) والبلاذري (٤١٠) واليعقوبي (٣/ ٣٠) وشذرات الذهب (١/ ٩٩) والبدء والتاريخ (٦/ ٣٨) والعبر (١/ ١٠٦).

ز ـ فتح شومان وكِش ونسف ثانية وصلح سِجِسْتان:

أولاً ـ في سنة إحدى وتسعين الهجرية أيضاً (٧٠٩م)، سار قتيبة إلى (شُوْمَان)، وكان سبب ذلك أنّ ملكها طرد عامل قتيبة من عنده، فأرسل قتيبة رسولين: أحدهما من العرب اسمه: عَيَّاش بن عبد الله الغَنَوي، والآخر من أهل (خُراسان)، يدعوان ملك (شومان): أن يؤدي ما كان صالح عليه؛ فقدما (شومان)، فخرج أهلها ورموهما، فانصرف الخراساني، وقاتلهم عَيّاش، فقتلوه ووجدوا به ستين جراحة.

وبلغ قتيبة قتله، فسار إليهم بنفسه، فلما أتاه أرسل صالح بن مسلم أخاه إلى ملكها وكان صديقاً له، يأمره بالطاعة ويضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح، فأبى وقال): «أتخوِّفني من قتيبة وأنا أمنع الملوك حصناً؟!»، فأتاه قتيبة وقد تحصّن ببلده، فوضع عليه المجانيق ورمى الحصن فهشّمه.

وخاف الملك أن يظهر عليه قتيبة، فجمع ما في الحصن من مال وجوهر، ورمى به في بئر بالقلعة لا يُدرك قعرها، ثم فتح القلعة وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قتل.

وفتح قتيبة القلعة عَنْوَة، فقتل المقاتلة وسبى الذرية، ثم سار إلى (كِشّ) و (نسَف) ففتحهما صلحاً.

وامتنعت عليه (الفارِيَاب) فأحرقها، فسميت: المحترقة. وسيّر من (كِشّ) و (نَسَف) أخاه عبد الرحمن إلى (الصُّغد) وملكها (طرخون)، فقبض عبد الرحمن من (طرخون) ما كان صالحه عليه قتيبة، ورجع إلى قتيبة بـ (بخارى)، فرجعوا إلى (مرو)[1].

ثانياً ـ وفي سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠م) غزا قتيبة (سِجِسْتان)

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٢١٠ ـ ٢١١) والطبري (٥/ ٢١٤ ـ ٢٤٣)، وانظر ابن خلدون (٣/ ٦٢) والبلاذري (٤١٠).

وأراد قصد (رتبيل)، فأرسل إليه (رتبيل) رسلًا بالصلح، فقبل ذلك قتيبة وانصرف بعد أن استعمل عليهم أحد رجاله[1].

ح ـ صلح ملك (خُوَارِزم) وفتح أرض (خام جرد)[2]:

في سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م)، صالح قتيبة ملك (خُوَارِزْم)، وكان سبب ذلك أنّ الملك كان ضعيفاً، فغلبه أخوه (خرزاد) الذي كان أصغر منه على أمره، وعاث في الرعية وسلبهم أموالهم وأهليهم، فكتب ملك (خوارزم) إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه ليسلِّمها على أن يمكِّنه من أخيه وأصحابه ليحكم فيهم بما يرى!

ولم يُطلع ملك (خوارزم) أحداً من مرازبته على ذلك، فأجابه قتيبة إلى ما طلب، وتجهّز للغزو، وأظهر أنه يريد (الصُّغد)، فأقبل أهل (خوارزم) على شأنهم ولم يحتفلوا بغزوه.

وفجأة نزل قتيبة بجيشه قريباً من (خوارزم)، فجاء أصحاب ملك (خوارزم) إلى ملكهم ودعوه للقتال، فقال: «ليس لنا به طاقة ولكن نصالحه على شيء نعطيه كما فعل غيرنا»، فوافقوه. وسار ملك (خوارزم) حتى نزل بمدينة (الفِيْل)[3] من وراء النهر - وهي أحصن بلاده، فصالح قتيبة على عشرة آلاف رأس وعِيَن ومتاع وعلى أن يعينه على (خام جرد)، فقبل قتيبة ذلك، وقيل: صالحه على مائة ألف رأس[4].

---

(١) ابن الأثير (٤/٢١٧) وابن خلدون (٣/٦٢) والطبري (٥/٢٤٦)، وانظر سرح العيون (٩٩)، والرجل الذي استعمله عليهم هو عبد ربه بن عبد الله الليثي.

(٢) خام جرد: اسم أحد رؤساء منطقة خوارزم.

(٣) الفيل: كانت مدينة ولاية خوارزم، انظر معجم البلدان (٦/٤١٤).

(٤) قوله: على مائة ألف رأس، يريد، أنّ هؤلاء يأخذ منهم الجزية، والّا فمن البعيد استرقاق هذا العدد الضخم، إذ ماذا يصنع بهم قتيبة وأي طعام يكفيهم، انظر هامش ابن خلدون (٣/٦٣) وصالحه على عشرة آلاف أو مائة ألف رأس، أي أنّ هذا العدد من الناس يعطون الجزية.

وبعث قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى (خام جرد) وكان يغازي ملك (خوارزم) فقاتله وقتله وغلب على أرضه.

وسلّم قتيبة إلى ملك (خوارزم) أخاه ومَن كان يخالفه من أمرائه، فقتلهم ودفع أموالهم إلى قتيبة[1].

ط ـ فتح سمرقند:

قبض قتيبة صلح (خوارزم)، فقام إليه المُجَشَّر بن مُزاحم السُّلَمِيُّ وقال له سراً: «إن أردت (الصُّغْد) يوماً من الدهر، فالآن؛ فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام»، فقال قتيبة: «أشار بهذا عليك أحد؟؟»؛ قال: «لا!»، قال: «فأعلمته أحداً؟؟»، قال: «لا!»، فقال قتيبة: «والله لئن تكلّم به أحد لأضربنّ عنقك!!».

وأقام قتيبة يومه ذلك، فلما أصبح من الغد، دعا أخاه عبد الرحمن وقال: «سِرْ في الفرسان والرماة، وقدّم الأثقال إلى (مرو)» فوجه الأثْقال إلى (مرو) ومضى عبد الرحمن يتبع الأثقال يريد (مرو) يومه كلّه، فلما أمسى كتب إليه قتيبة: «إذا أصبحت فوجِّه الأثقال إلى (مرو) وسِرْ بالفرسان والرماة نحو (الصُّغد)، واكتم الأخبار، فإني بالأثر!».

وخطب قتيبة الناس، فقال: «إنّ الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقتٍ الغزو فيه ممكنٌ، وهذه (الصُّغد) شاغرة برجلها قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ومنعونا ما كنا صالحنا عليه (طرخون) وصنعوا به ما بلغكم[2]، وقال الله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[3]، فسيروا على بركة الله، فإني

---

(1) ابن خلدون(٣/ ٦٣) وابن الأثير (٤/ ٢١٧) والطبري (٥/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨).

(2) لما رجع قتيبة عن (الصغد) سنة إحدى وتسعين الهجرية بعد صلحه مع (طرخون) ملكها، قال أهل (الصغد) لطرخون: «إنك قد رضيت بالذل واستطبت الجزية، وأنت شيخ كبير، فلا حاجة لنا فيك»، فحبسوه وولّوا (غوزك)، فقتل(طرخون) نفسه. انظر ابن الأثير (٤/ ٢١١) والطبري (٥/ ٢٤٢).

(3) الآية الكريمة من سورة الفتح (٤٨ : ١٠).

أرجو أن يكون (خوارزم) و (الصغد) كالنّضِيرْ وقُرَيْظَة[1]، وقال الله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾[2]».

وبلغ قتيبة (الصُّغد) بعد عبد الرحمن بثلاث أو أربع، فقال: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾[3]؛ وقدم معه أهل (خوارزم) و (بخارى)، فحصرهم شهراً وقاتلهم في حصارهم مراراً من وجه واحد.

وكتب أهل (الصُّغد) إلى ملك (الشَّاش)[4] وملك (فرغانة): «إنَّ العرب إنْ ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به، فانظروا لأنفسكم، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها».

واستقرّ رأي ملكي (الشَّاش) و (فرغانة) على إمداد أهل (الصُّغد)، فأرسلوا إليهم: «أرسلوا مَن يشغلهم حتى نبيِّت عسكرهم»، وانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يأتوا قتيبة ويبيِّتوه، لأنه مشغول عنهم بحصار (سمرقند).

وبلغ قتيبة الخبر، فانتخب من عسكره أربعمائة، وقيل: ستمائة من أهل النجدة والشجاعة وأعلمهم الخبر، وأمرهم بالمسير إلى عدوهم؛ فساروا وعليهم أخوه صالح بن مسلم، ونزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم.

وأرسل صالح عيونه، فأخبروه أنّ العدو سيصل إليه ليلاً، ففرّق خيله ثلاث فرق: جعل كمينين في موضعين، وأقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق.

---

(١) النضير وقريظة من يهود المدينة المنورة الذين قاتلوا النبيّ ﷺ، فانتصر عليهم.
(٢) الآية الكريمة من سورة الفتح (٤٨: ٢١).
(٣) الآية الكريمة من سورة الصافات (٣٧:١٧٧).
(٤) الشاش: مدينة بما وراء النهر متاخمة لبلاد الترك. انظر معجم البلدان (٥/ ٢١٢).

وطرقهم العدو ليلاً وهم لا يعلمون بمكان صالح، وهم آمنون في أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون العسكر، فلم يعلموا بصالح حتى غشوه، فشدوا على قوته حتى إذا اختلفت الرماح بينهم خرج الكمينان فاقتتلوا، قال بعضهم: «إنا لنقاتلهم إذ رأيت تحت الليل قتيبة وقد جاء سراً، فضربت ضربة أعجبتني، فقلت: كيف ترى بأمي وأبي؟! فقال: اسكت! فضّ الله فاك».

واستطاع فرسان صالح أن يتغلّبوا على عدوهم، فلم يفلت منهم إلّا الشريد، وأسروا بعض الأسرى، وغنموا خيلهم وسلاحهم.

وعلم (الصُّغد) باندحار القوة التي جاءت مدداً لهم، فأثّر ذلك في معنوياتهم أسوأ الأثر.

ونصب قتيبة حول (سمرقند) المجانيق فرماها بها وثلم ثلمة فسدّوها بغرائر الدُخُن، وقام عليها رجل فشتم قتيبة ـ وكان مع قتيبة قوم رماة، فأمر قتيبة رجلًا منهم رمى شاتمه، فلم يخطئ عينه.

وسمع بعض المسلمين قتيبة وهو يناجي نفسه بقوله: «حتى متى يا (سمرقند) يعشعش فيك الشيطان؟! أما والله لئن أصبحت لأحاولنّ من أهلك أقصى غاية».

وأصبح قتيبة، فعرض جنده، وميّز أهل البأس، فجمعهم يعرضهم بنفسه. ودعا العرفاء، فجعل يدعو برجل رجل، فيقول: «ما عندك؟؟»، فيقول العريف: «شجاع»، ويقول: «ما هذا؟»، فيقول: «مختصر!»، ويقول: «ما هذا؟» فيقول: «جبان!»، فأخذ قتيبة خيل الجبناء وجيّد سلاحهم وأعطاه الشجعان والمختصرين، وترك للجبناء رثّ السلاح.

وأمر الناس بالجدّ في القتال، فقاتلوهم أشدّ القتال. وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة قائلًا: «ألحّوا عليهم حتى تعبروا على الثلمة!»، فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة.

ورماهم (الصُّغد) بالنشّاب، فوضعوا أترستهم على وجوههم ولم يبرحوا، فأرسل (الصُّغد) إلى قتيبة مَن يقول له: «انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غداً»، فقال قتيبة: «لا نصالحهم إلّا ورجالنا على الثلمة»؛ وقيل بل قال قتيبة: «جزع العبيد! انصرفوا على ظفركم»...

وصالحهم قتيبة من الغد على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كلّ عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف فارس، وأن يخلوا المدينة لقتيبة فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيبني فيها مسجداً، ويدخل ويصلي ويخطب ويتغدى ويخرج.

وتمّ الصلح وأخلوا المدينة وبنوا المسجد، فدخلها قتيبة في أربعة آلاف انتخبهم، فصلّى في المسجد وخطب وأكل طعاماً، ثم أرسل إلى (الصُّغْد): «مَنْ أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذه، فإني لست خارجاً منها. ولست آخذ منكم إلّا ما صالحتكم عليه، غير أنّ الجند يقيمون فيها».

وقيل: إنه شرط عليهم في الصلح مائة ألف فارس وبيوت النيران وحلية الأصنام، فقبض ذلك، فكانت كالقصر العظيم، فأخذ ما عليها وأمر بإحراقها، فجاءه (غوزك) ملك (الصُّغد) فقال: «إنَّ شكرك عليّ واجب! لا تتعرّض لهذه الأصنام، فإنّ فيها أصناماً مَنْ أحرقها هلك!!»، فقال قتيبة: «أنا أحرقها بيدي»، فدعا بالنار، ثم كبّر، وأشعلها، فاحترقت، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مثقال!!

وصنع (غوزك) طعاماً ودعا قتيبة، فأتاه في عدد من أصحابه، فلما تغدّى قال للملك: «انتقل عنها»، يعني عن (سمرقند)، فانتقل (غوزك) عنها، وتلا قتيبة: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾[1].

---

(١) الآيتان الكريمتان من سورة النجم (٥٣: ٥٠ ـ ٥١).

وأرسل قتيبة إلى الحجاج بفتح (سمرقند)، ثم رجع إلى (مرو)، وكان أهل (خُراسان) يقولون: «إنّ قتيبة غدر بأهل (سمرقند)، فملكها غدراً»[1].

وهكذا فتح قتيبة (خوارزم) و (سمرقند) في سنة واحدة[2]، وهي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م).

ي - فتح الشاش وفرغانة:

أولاً: في سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م)، قطع قتيبة نهر (جيحون) وفرض على أهل (بخارى) و (كِشّ) و (نَسَف) و (خُوارِزْم) عشرين ألف مقاتل، فساروا معه، فوجّههم إلى (الشّاش) وتوّجه هو إلى (فرغانة).

واصطدم قتيبة هو والعدو في (خُجِنْدَة) حيث جمع له أهلها، فلقوه واقتتلوا مراراً، في كلِّ مرة يكون الظفر للمسلمين.

وفتح الجند الذين ساروا إلى (الشّاش) هذه المدينة وأحرقوها، ثم رجعوا إلى قتيبة وهو على (كاشان) مدينة (فرغانة)، فانصرف قتيبة بالناس إلى (مرو)[3].

ثانياً: وبعث الحجاج سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣م) إلى قتيبة جيشاً من العراق فغزا بهم، فلما كان بـ (الشّاش) أتاه موت الحجاج، فغمّه ذلك وقفل راجعاً إلى (مرو) وتمثل:

لعمري لنعم المرء من آل جعفر بحَوْران[4] أمسى أعلقته الحبائل

---

(١) الطبري (٥/٢٤٨ - ٢٥٥) وابن الأثير (٤/٢١٧ - ٢١٩)، وانظر ابن خلدون (٣/٦٣) والبلاذري (٤١٠ - ٤١١) وسرح العيون (٩٩) واليعقوبي (٣/٣١ - ٣٢)، وفيه عن حرق الأصنام: «كانت الأعاجم تقول: إنّ فيها أصناماً من استخفّ بها هلك»، فلما حرقها قتيبة بيده، أسلم منهم خلق كثير.

(٢) وفيات الأعيان (٣/٢٥٠) والعبر (١/١٧٠) وذلك سنة ثلاث وتسعين الهجرية.

(٣) الطبري (٥/٢٥٧ - ٢٥٨) وابن الأثير (٤/٢٢١) وابن خلدون (٣/٦٤).

(٤) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٦٠).

فإن تحيا لا أملل[1] حياتي وإن تمت ... فما في حياتي بعد موتك طائل

فرجع بالناس إلى (مرو)، وتفرّق الناس، فخلّف في (بخارى) قوماً. ووجّه قوماً إلى (كِشّ) و (نَسَف)؛ ثم أتى (مرو) وأقام بها، فأتاه كتاب الوليد بن عبد الملك: «وقد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدّك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك، فأتمّ مغازيك وانتظر ثواب ربك، ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأني أنظر إلى بلاءك والثغر الذي أنت فيه»[2].

ك ـ فتح كاشغر[3] وغزو الصين:

في سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤م) غزا قتيبة (كاشغر) وهي أدنى مدائن الصين، فسار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بـ (سمرقند)، فلما عبر النهر استعمل رجلًا على معبر النهر[4] ليمنع مَنْ يرجع من جنده إلّا بجواز منه... ومضى إلى (فرغانة) وأرسل إلى شِعب يؤدي إلى (كاشغر) مَنْ يسهل الطريق إليها.

وبعث قتيبة مقدمته إلى (كاشغر)، فغنموا وسبوا، وأوغل قتيبة حتى قارب الصين فكتب إليه ملك الصين: «ابعث إليّ رجلًا شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم»، فانتخب قتيبة اثني عشر رجلًا[5] لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح، وأمر لهم بعُدَّة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشي وغير ذلك وخيول حسنة، وكان منهم هُبَيْرَة بن المُشَمْرَج الكِلابي

---

(١) في ابن الأثير (٤/ ٢٢١) ورد صدر البيت:
فإن نحيي لا أملك

(٢) ابن الأثير (٤/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) وانظر الطبري (٥/ ٢٦٤) وابن خلدون (٧/ ٦٦).

(٣) كاشغر: مدينة وقرى ورساتيق، وهي في وسط بلاد الترك، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٠٧).

(٤) في ابن خلدون (٢/ ٦٧): أنّ قتيبة عبر النهر وجعل على المجاز مسلحة... الخ.

(٥) في ابن الأثير (٥/ ٢): أنه انتخب عشرة رجال، وكذلك في ابن خلدون (٣/ ٦٧).

مفوّهاً سليط اللِّسان، وقال لهم: «إذا دخلتم على ملك الصين فأعلموه أني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم».

وسار وفد قتيبة عليهم هُبَيْرَة، فلما قدموا على الصين، دعاهم ملكها، فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل، وتطيّبوا ولبسوا النِّعال والأردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه، فجلسوا فلم يكلِّمهم الملك ولا أحد ممن عنده، فقال الملك لمن حضره بعد انصراف الوفد العربي: «كيف رأيتم هؤلاء؟» فقالوا: «رأينا قوماً ما هم إلّا نساء! ما بقي منا أحد حين رآهم ووجد رائحتهم إلّا انتشر ما عنده».

وفي غدٍ دعاهم، فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف[1] وغدوا عليه، فلما دخلوا قيل لهم: «ارجعوا»، وقال الملك لأصحابه: «كيف رأيتم هذه الهيئة؟»، فقالوا «هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك».

وفي اليوم الثالث دعاهم، فشدّوا سلاحهم ولبسوا البَيْض[2] والمغافر[3]، وأخذوا السيوف والرماح والقِسِيّ وركبوا، فنظر إليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما دنوا ركّزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوهم مشمرِّين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا: «ارجعوا»، لما دخل في قلوبهم من خوفهم، فانصرفوا راكبين خيولهم، وأخذوا رماحهم، ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون، فقال الملك لأصحابه: «كيف ترونهم؟»، فقالوا: «ما رأينا مثل هؤلاء!!».

---

(١) المطارف: جمع مطرف بضم الميم وكسرها، وهي أردية من خز مربعة لها أعلام، انظر مختار الصحاح (٣٩٠) (١٠٩).

(٢) البيض: جمع أبيض، وهو السيف، وجمع بَيْضة: وهي الخوذة.

(٣) مغافر: جمع مغفر، والمغفر بوزن المبضع، زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة، انظر مختار الصحاح (٤٧٦ ـ ٤٧٧).

وفي مساء نفس اليوم، بعث الملك الصين إليهم: «ابعثوا إليّ زعيمكم»، فبعثوا إليه هُبَيْرَة، فقالوا له: «قد رأيتم عظم ملكي وأنه ليس أحد يمنعكم مني، وأنت في يدي بمنزلة البيضة في كفي، وإني سائلكم عن أمر، فإن لم تصدقوني قتلتكم»، فقال: «اسأل»، فقال: «لما صنعتم ما صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث؟!»، فقال: «أما زيّنا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا...»، فقال: «ما أحسن ما دبّرتم دهركم، فانصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له ينصرف، فإني قد عرفت حرصه[1] وقلّة أصحابه، وإلّا بعثت عليكم مَن يهلككم ويهلكه»، فقال هبيرة: «كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟!، وكيف يكون حريصاً مَن خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟! وأما تخويفك إيانا بالقتل،، فإنّ لنا آجالًا إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه!!». قال: «فما الذي يرضي صاحبك؟»، فقال: «إنه قد حلف ألّا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوكهم ويُعطى الجزية»، قال الملك: «فإنّا نخرجه من يمينه: نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه، ونبعث أبناءنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية نرضاها».

ودعا الملك بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجاز الوفد العربي فأحسن جوائزهم، فقدموا على قتيبة، فقبل الجزية وختم الغلمان وردّهم ووطئ التراب[2].

---

(١) عرفت حرصه: أي عرفت جشعه، والحرص هو الجشع، انظر مختار الصحاح (١٣٠).

(٢) الطبري (٥/٢٦٨ ـ ٢٧٢) وابن الأثير (٥/٢ ـ ٣) وابن خلدون (٣/٦٧)، وانظر سرح العيون (١٠٠).

وفي هذه الغزاة، وصل الخبر إلى قتيبة بموت الوليد بن عبد الملك[1]، وتولي سليمان بن عبد الملك مكانه، فعاد قتيبة أدراجه، فقتل في (فرغانة)[2].

الإنسان:

١ - تولّى قُتَيْبَة ولاية (الري) في أيام الحجاج، ثم تولّى (خُراسان) بعد يزيد بن المُهلّب بن أبي صُفْرة[3]، فامتدت ولايته على (سجستان) وما وراء النهر حتي حدود الصين شرقاً، وكانت ولايته على (خُراسان) عشر سنين[4] فقط، حيث قتل هناك.

وكان سبب قتله، أن الوليد بن عبد الملك، أراد أن ينزع أخاه سليمان من ولاية العهد ويجعل بدله ابنه عبد العزيز بن الوليد، فبايعه على خلع سليمان الحجّاج وقتيبة[5]؛ فلما مات الوليد سنة ست وتسعين الهجرية تولّى الأمر أخاه سليمان بن عبد الملك، خافه قتيبة وخاف أن يولي يزيد بن المُهلّب (خُراسان)، فكتب قتيبة إلى سليمان كتاباً يهنئه بالخلافة ويعزيّه في الوليد ويذكر بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنّ له مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن (خُراسان).

(١) ابن الأثير (٥/٣).

(٢) البداية والنهاية (٩/١٩٨) والمعارف (٤١٦) و(٤٣٣).

(٣) وفيات الأعيان (٣/ ٢٤٩).

(٤) البداية والنهاية (٩/١٦٨) والعبر (١/١١٥)، وفي وفيات الأعيان (٣/ ٢٥٠): إنه تولى خراسان تسع سنين وسبعة أشهر، وفي خزانة الأدب للبغدادي (٣/ ٦٥٧): إنه ولي خراسان ثلاثة عشرة سنة، وكذلك في وفيات الأعيان (٣/ ٢٤٩)، وهذا خطأ، لأنّ قتيبة تولى خراسان سنة ست وثمانين، وقتل سنة ست وتسعين، فيكون قد تولى خراسان عشر سنين فقط.

(٥) ابن الأثير (٥/٤) والطبري (٥/ ٢٧٣) وابن خلدون (٣/ ٦٨) والبلاذري (٤١١) وخزانة الأدب للبغدادي (٣/ ٦٥٧) وسرح العيون (١٠٠).

وكتب إليه كتاباً آخر يعلمه فيه فتوحه ونكايته ورفعة قدره عند ملوك العجم، وهيبته في صدورهم وعظم صوته فيهم، ويذم المهلّب وآل المهلّب، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد بن المهلّب على (خُراسان) ليخلعنّه.

وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلع سليمان، وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من (بَاهِلة) وقال له: «ادفع إليه هذا الكتاب، فإن كان يزيد بن المهلّب حاضراً فقرأه ثم ألقاه إليه، فادفع إليه هذا الكتاب، فإن قرأه وألقاه إلى يزيد، فادفع إليه هذا الكتاب، فإن قرأ الأول ولم يدفعه إلى يزيد، فاحتبس الكتابين الآخرين».

وقدم رسول قتيبة، فدخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلّب، فدفع إليه الكتاب الأول، فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الكتاب الثاني، فرآه ثم رمى به إلى يزيد، فأعطاه الكتاب الثالث فقرأه فتمعّر لونه، ثم دعا بطين فختمه ثم أمسكه بيده، وقيل كان في الكتاب الثالث: «لئن لم تُقِرّني على ما كنتُ عليه وتؤمِّني، لأخلعنّكَ ولأملأنها عليك رجالاً وخيلاً».

وأحضر سليمان رسول قتيبة ليلاً، فأعطاه دنانير جَائزته، وأعطاه عهد قتيبة على (خُراسان)، وسيّر معه رسولاً بذلك، فلما كان بـ (حُلوان)[1]، لقيهما خلع قتيبة لسليمان، فرجع رسول سليمان.

وكان قتيبة لما همَّ بخلع سليمان استشار إخوته، فقال له أخوه عبد الرحمن: «اقطع بعثاً فوجِّه فيه كلّ مَنْ تخافه، ووجّه قوماً إلى (مرو)

---

(١) حلوان: أربعة مواضع، والمقصود هنا إما حلوان العراق، آخر حدود السواد مما يلي الجبال بينه وبين بغداد خمس مراحل، أو حلوان التي هي بليدة من نواحي نيسابور، انظر التفاصيل في المشترك وضعاً (١٤٢) ومعجم البلدان (٣/ ٣٢٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٨٦).

وسْرِ حتى تنزل (سمرقند)، ثم قل لمن معك: مَنْ أحبّ المقام فله المواساة، ومَنْ أراد الانصراف فغير مستكره ولا متبوع بسوء، فلا يقيم معك إلّا مناصح».

وقال له عبد الله: «اخلعه مكانك، وادع الناس إلى خلعه، فليس يختلف عليك رجلان»؛ فأخذ برأي عبد الله، فخلع سليمان ودعا الناس إلى خلعه، وذكر أثره فيهم وسوء أثر مَنْ تقدّمه، فلم يجبه أحد[1].

وغضب قتيبة وشتم القبائل وعدّد مثالبهم قبيلة قبيلة، وأثنى على نفسه بالأب والبلد والمعشر[2] فقال: «... يا أهل خُراسان! انسبوني تجدوني عراقيّ الأم عراقيّ الأب عراقيّ المولد عراقيّ الهوى والرأي والدين، وقد أصبحتم اليوم فيما ترون من الأمن والعافية: قد فتح الله لكم البلاد، وآمن سلبكم، فالضعينة تخرج من (مرو) إلى (بلخ) بغير جواز؛ فاحمدوا الله على العافية، وأسألوه الشكر والمزيد»، ثم نزل ودخل بيته[3].

وأتاه أهل بيته فقالوا: «ما رأيناك كاليوم قط! والله ما اقتصرت على أهل (العالية) وهم شعارك ودثارك، حتى تناولت (بكراً) وهم أنصارك، ثم لم ترض بذلك حتى تناولت (الأزد) وهم يدك»، فقال: «لما تكلّمت فلم يجبني أحد غشبت، فلم أدر ما قلت!».

وغضب الناس وكرهوا خلع سليمان وغضبت القبائل من شتم قتيبة، فأجمعوا على خلافه وخلعه.

---

(1) الطبري (٥/ ٢٧٣ - ٢٧٥) وابن الأثير (٥/ ٤ - ٥)، وانظر البلاذري (٤١١) وخزانة الأدب (٣/ ٦٥٢ - ٦٥٨) وسرح العيون (١٠٠) وابن خلدون (٣/ ٦٨).

(2) انظر نصّ خطاب قتيبة في الطبري (٥/ ٢٧٥ - ٢٢٦) وابن الأثير (٥/ ٥) والعقد الفريد (٢/ ٣٨٤ - ٣٨٥) والبلاذري (٤١٢).

(3) الطبري (٥/ ٢٧٦) وابن الأثير (٥/ ٥)، وانظر العقد الفريد (٢/ ٣٨٥) والبيان والتبيين (٢/ ١٥٤).

٢ ـ وتداول وجوه الناس في أمر خلع قتيبة، فقرّروا أن يتولى قيادتهم لخلعه وَكِيع بن حسّان بن قيس التميمي، لأنه أعرابيّ تطيعه عشيرته، وهو موتور من قتيبة لأنه نحّاه عن رئاسته وصرفها عنه وصيّرها لغيره!

ومشى الناس بعضهم إلى بعض سراً، وتولى كبر ذلك حيّان النبطي، لذلك أمّر قتيبة بقتله إذا دخل عليه، ولكنّ بعض خدم قتيبة أفشوا نياته لحيّان، فتمارض وأبى الحضور إلى مجلس قتيبة.

واجتمع الناس إلى وكيع وبايعوه؛ بايعه من البصرة والعالية[١] من المقاتلين تسعة آلاف ومن (بكر) سبعة آلاف، ومن (تميم) عشرة آلاف، ومن الموالي سبعة آلاف، وشُرط على وكيع أن يتحوّل إلى الجانب الشرقي من نهر (بلخ).

ودسّ قتيبة إلى وكيع رجلًا من خاصته فبايعه ثم جاء إلى قتيبة بالخبر، فأرسل إلى وكيع فاعتذر بالمرض، فقال لصاحب شرطته: «ائتني به وإن أبى فأتني برأسه!»، فلما جاء إلى وكيع ركب ونادى في الناس، فأتوه أرسالًا.

واجتمع إلى قتيبة أهل بيته، وخواصه وثقاته وبنو عمه، وأمر فنودي في الناس قبيلة قبيلة، فأجابوه بالجفوة؛ يقول: «أين بنو فلان!؟» فيقولون: «حيث وضعتهم!» فنادى: «اذكروا الله والرَّحِم!»، فقالوا: «أنت قطعتها!»، فنادى: «لكم العتبى!»، فقالوا: «لا أفاء الله لنا إذاً!!»، فقال قتيبة عن ذلك:

يا نفس صبراً على ما كان من ألم إذ لم أجد لفضول العيش أقراناً!

فدعا ببرذون له مدرّب ليركبه، فجعل يمنعه حتى أعياه، فلما رأى ذلك، عاد إلى سريره فجلس عليه وقال: «إنّ هذا أمر يراد».

---

(١) العالية: اسم لكل ما كان من جهة نجد من المدينة وقراها وعمايرها إلى تهامة فهي العالية، وما كان دون ذلك من جهة تهامة فهي السافلة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٥٠).

وجاء حيّان النبطي بالعجم فوقف - وقتيبة واجد عليه، فقال قتيبة لحيّان: «احمل عليهم»، فقال حيّان: «لم يأن بعد»!

وقال حيّان لابنه: «إذا رأيتني قد حوّلت قلنسوتي ومضيت نحو عسكر وكيع، فمل بمن معك من العجم إليّ»، فلما حوّل حيّان قلنسوته مالت الأعاجم إلى عسكر وكيع.

وبعث قتيبة أخاه صالحاً إلى الناس، فرماه رجل فأصاب رأسه، فحمل إلى قتيبة ورأسه مائل، فوضع في مصلّاه وجلس قتيبة عنده ساعة.

وتهايج الناس، وأقبل عبد الرحمن أخو قتيبة نحوهم، فرماه أهل السوق والغوغاء، فقتلوه.

وأحرق الناس موضعاً كانت فيه إبل لقتيبة ودوابه ودنوا منه، فقاتل عنه رجل من (باهلة) فقال له قتيبة: «انج بنفسك!»، فقال: «بئس ما جزيتك إذاً وقد أطعمتني الجردق[1] وألبستني النمرق»[2].

٣ - وجاء الناس حتى بلغوا فسطاط قتيبة، فقطعوا أطنابه، وجرح قتيبة جراحات كثيرة، ثم نزل رجل واحتز رأسه[3].

وقتل معه من أهله وإخوته: عبد الرحمن وعبد الله وصالح وحُصَين وعبد الكريم ومسلم، وقتل كُثَيِّر ابنه، وكان عدد مَن قتل مع قتيبة من آل بيته أحد عشر رجلاً[4]؛ كما قتلت معه أم ولده الصَّمَّاء[5]، وكان قتل قتيبة

---

(١) الجردق: جمع جردقة وهي الرغيف. والجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب إلا أن يكون معرباً أو حكاية صوت، انظر مختار الصحاح (١٠٦).

(٢) النمرق: النمرق والنمرقة وسادة صغيرة، والنمرقة بالكسر لغة وربما سموا الطنفسة التي فوق الرجل نمرقة، انظر مختار الصحاح (٦٨٠).

(٣) انظر مقتل قتيبة في الطبري (٥/ ٢٧٣ - ٢٨٥) وابن الأثير (٥/ ٤ - ٨) وابن خلدون (٣/ ٦٨ - ٦٩) والبلاذري (٤١٢ - ٤١٣).

(٤) ابن الأثير (٥/ ٧) والطبري (٥/ ٨١) وابن خلدون (٣/ ٦٩) والبداية والنهاية (٩/ ١٧٦) ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥).

(٥) البلاذري (٤١٣).

في مدينة (فرغانة)[1] في شهر ذي الحجة[2] من سنة ست وتسعين الهجرية[3] (٧١٥م) وكان مولده سنة تسع وأربعين الهجرية[4] (٦٦٩م)، وكان عمره حين توفي سبع وأربعين سنة قمرية، فقال رجل من عجم (خُراسان): «يا معشر العرب! قتلتم قتيبة؟! والله لو كان قتيبة منّا فمات، لجعلناه في تابوت، فكنّا نستسقي به ونستفتح به إذا غزونا، وما صنع أحد بـ (خُراسان) قط ما صنع قتيبة، إلّا أنه غدر»[5].

وقال أحد رجالات العجم بعد مقتل يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة: «يا معشر العرب! قتلتم قتيبة ويزيد وهما سيدا العرب؟!!»، فقال الرجل: «فأيهما كان أعظم عندكم وأهيب؟»، فقال: «لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى حجر من الأرض مكبّلًا بالحديد، ويزيد معنا في بلادنا والٍ علينا، لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد!!»[6]، وهذا يدلّ على قوّة شخصية قتيبة وعظم سيطرته وشدّة نفوذه.

وجاء رجل إلى قتيبة يوم قتل وهو جالس فقال: «اليوم يقتل ملك العرب»[7]، وكان قتيبة عندهم ملك العرب.

وقال الفرزدق في ذلك[8]:

أتاني ورحلي في المدينة وقعة ... لآل تَميم أقعدت كلّ قائم

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٩٨) والمعارف (٤١٦ و٤٣٣) ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥٠).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ١٩٨) ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥٠).

(٣) الطبري (٥/ ٢٢٣) وابن الأثير (٥/ ٤) والبداية والنهاية (٩/ ١٠٨) وخزانة الأدب (٣/ ٦٥٧) وشذرات الذهب (١/ ١١٢) واليعقوبي (٣/ ٣٩) ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥٠) والعبر (١/ ١١٤)، وفي المعارف (٥٠٧) أنه قتل سنة سبع وتسعين، وهذا خطأ.

(٤) وفيات الأعيان (٥/ ٢٥٠) والبداية والنهاية (٩/ ١٦٧)، وفي البلاذري (٣/ ٤): أنّ قتيبة يوم قتل كان ابن خمس وخمسين سنة.

(٥) ابن الأثير (٥/ ٧) والطبري (٥/ ٢٨٣) وسرح العيون (١٠١).

(٦) الطبري (٥/ ١٨٣) وابن الأثير (٥/ ٧).

(٧) الطبري (٥/ ٢٨٥).

(٨) الطبري (٥/ ٢٨٤) وابن الأثير (٥/ ٧).

وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلي[1]:

كـأنّ أبـا حَـفْـصٍ قـتـيـبـة لـم يَـسـر ... بـجيش إلـى جيش ولـم يَعْـل منبرا

ولـم تـخـفـق الـرايات والـقـوم حَـولـه ... وقـوف، ولـم يشهـد له الناس عسكرا

دعـتـه الـمـنـايـا فـاسـتـجـاب لـربـه ... وراح إلـى الـجـنـات عـفّـاً مـطـهّـرا

فـمـا رزئ الإسـلام بـعـد مـحـمـد ... بـمثل أبي حفص، فبكيه عبهرا[2]

وقال جرير يرثي قتيبة[3]:

ندمتم على قتل الأمير ابن مسلم ... وأنـتـم إذا لاقـيـتـمُ الله أنـدم

لـقـد كـنـتـمُ فـي غـزوه فـي غـنـيـمـة ... وأنـتـم لـمـن لاقـيـتـمُ الـيـوم مـغـنـم

عـلـى أنـه أفـضـى إلـى حـور جـنّـة ... وتـطـبـق بـالـبـلـوى عـلـيـكـم جـهـنـم

وقال الحجّاج بن الأصم يرثي قتيبة[4]:

ألـم يـأن لـلأحـيـاء أن يـعـرفـوا لـنـا ... بلى نحو أولى الناس بالمجد والفخر

نـقـود تـمـيـمـاً والـمـوالـي ومَـذْحِـجـا ... وأَزداً وعبد القيس والحيَّ من بكر

نُـقَـتِّـل مَـن شـئـنـا بـعـزّة مـلـكـنـا ... ونجبر مَنْ شئنا على الخسف والقَسْر

سليمان كم من عسكر قد حوت لكم ... أَسِـنّـتُـنـا والـمُـقْـرِبـات بـنـا تـجـري

وكم من حصون قد أبحنا منيعة ... ومـن بـلـدٍ سـهـلٍ ومـن جـبـل وعـر

ومن بلدة لم يَغْزُها الناس قبلنا ... غزونا نقود الخيل شهراً إلى شهر

مَرَنّ عـلـى الـغـزو الـجـرور وَوُقِّـرت ... عـلـى الـنَّـفْـر حتى ما تُـهـال من النفر

وحتى لو إنّ النار شَبَّت وأُكرِهت ... على الناس، خاضت في الوغى لهب الجمر

تُـلاعِـبُ أطـراف الأسِـنّـة والـقـنـا ... بلبّاتها[5] والموت في لججٍ خضر

بـهـنّ أبـحـنـا أهـل كـل مـديـنـة ... من الشرك حتى جاوزت مطلعَ الفجر

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٧) والطبري (٥/ ٢٨٥) والبداية والنهاية (٩/ ١٦٨).

(٢) عبهرا: أم ولد له.

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٦٨ - ١٦٩) ووفيات الأعيان (٢/ ٢٥١).

(٤) الطبري (٥/ ٢٨٥).

(٥) لبات: وهو جمع لبة، وهو المنحر.

ولو لم تُعجلنا المنايا لجاوزت بنا(رَدْم)[1] ذي القَرْنَيْن ذا الصخر والقِطْر[2]
ولكن آجالًا قُضِينَ ومدّةً تناهى إليها الطيبون بنو عمرو

وحتى سليمان بن عبد الملك حين وضع رأس قتيبة ورؤوس أهل بيته بين يديه، قال للهُذَيل بن زُفَر: «هل ساءك هذا يا هُذيل؟»، فقال: «لو ساءني ساء قوماً كثيراً»، فقال: «ما أردتُ هذا كلَّه!»[3].

والحق، أنّ قتيبة أخطأ حين تسرّع في عزل سليمان، وكان بإمكانه أن يتريّث حتى ينجلي موقف سليمان منه؛ كما أنه أخطأ في شتم القبائل العربية بشكل استفزّها وهو في حاجة إليها وفي موقف حرج جداً لا يستطيع النجاح بغير مساندتها له، فدفع قتيبة حياته وحياة كثير من أهل بيته وقومه ثمناً لذلك.

٤ ـ لقد فرض قتيبة نفسه على الحوادث، فتقدّم بكفايته ومقدرته ومزاياه، فكان من القادة النادرين الذين أمّروا أنفسهم؛ فقد كان شجاعاً جواداً دمث الأخلاق فَطِناً[4]، روي أنه لما علا منبر (خراسان) سقط القضيب من يده، فتطيّر له صديقه وتشاءم عدوه، فعرف ذلك قتيبة، فحمد الله تعالى ثم قال: «ليس كما سَرّ العدو وساء الصديق، بل كما قال الشاعر:

وألقت عصاها واستقرّ بها النوى[5] كما قَرَّ عيناً بالإياب المسافر»[6]

وقال الحجاج عن قتيبة: «لله درّه! ما كتبت إليه في أمر قط إلّا فَهِم عني وعرف ما أريده»[7]، لشدة ذكائه وفطنته.

---

(١) ردم: هو سد الإسكندر ذي القرنين، والردم من الآية الكريمة: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.
(٢) القطر: النحاس المذاب. انظر في ظلال القرآن (١٦/ ١٤).
(٣) الطبري (٥/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٤) سرح العيون (٩٧) وخزانة الأدب (٢/ ٦٥٧).
(٥) النوى: الوجه الذي ينويه المسافر، وهي مؤنثة والرواية المشهورة «واستقرت».
(٦) نوادر المخطوطات (٢/ ١٩٢) وسرح العيون (٩٨).
(٧) البيان والتبيين (١/ ٣٩٧).

ويروى أنّ عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجّاج: «ما أعرف أن أرى لك مثلًا إلّا قِدْح بن مُقْبِل»، فلم يعرف الحجّاج معناه واغتمّ لذلك حتى دخل عليه قتيبة، وكان راوية للشعر حافظاً له عالماً به، فسأله عنه فقال: «أبشر أيها الأمير، فإنه مدحك! أما سمعت قول ابن مقبل وهو يصف قدحاً له[1].

غـدا وهـو مـجـدول وراح كـأنـه	من المس والتقليب في الكف أفطحُ
خروج من الغماء إن صك صكةً	بدا والعيون المستكفة[2] تلمحُ[3]

وله أخبار كثيرة وألفاظ تدلّ على غزارة علمه وعقله وفصاحة لسانه[4]، فمن أقواله: «لا تستعن على مَنْ تطلب إليه حاجة بمن له عنده طمع، فإنه لا يؤثرك على نفسه؛ ولا بكذّاب، فإنه يقرّب لك البعيد ويبعد القريب؛ ولا بأحمق، فإنه ربما أراد نفعك فضرّك!»[5].

ولما قدم قتيبة (خُراسان) قال: «مَنْ كان في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم[6] فلينبذه، وإن كان في فيه فليلفظه، وإن كان في صدره فلينفثه»، فعجب الناس من حسن ما فصل وقسم[7].

وكتب الحجاج إليه: «إني قد كلفت بنت قطن الهلالية عن غير ريبة،

---

(١) يصف الشاعر هذا القدح، وهو السهم الذي يستقسم به على عادة العرب في الميسر، وهو اصطلاح على نوع من أنواع القمار معروف، فيقول: إن هذا القدح لكثرة فوزه وخروجه دون أقداح الجماعة يكثر تقليبه والتعجب منه، يقدح صاحبه النار قبل خروجه ثقة بفوزه، انظر سرح العيون (١٠١).

(٢) المستكفة: الموضوع عليها الكف للنظر.

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (١٧٣) وسرح العيون (١٠١).

(٤) سرح العيون (١٠١).

(٥) سرح العيون (١٠١).

(٦) هو عبد الله بن خازم بن أسماء السلمي صاحب خراسان لعبد الملك بن مروان، انظر جمهرة أنساب العرب (٢١٩ ـ ٢٦٢).

(٧) البيان والتبيين (٢/ ١٢٠ ـ ١٢١).

فتزوجها»، فكتب إليه: «ليس كلّ مطالع الأمير أحبّ أن أطلع»، فقال الحجاج: «ويل أم قتيبة!!» إعجاباً بقوله[1].

لقد ساد قتيبة بدهائه[2]، وكان شهماً مقداماً نجيباً[3]، وكان ذا شرف على قومه وتقدم في بلده، وكان أديباً عالماً، وأهل البصرة يفخرون به وبولده، وهو القائل في أبيات:

أبـي لـي آبـاء كـرام وأول أقاموا على ماء الندى فتخوّضوا
بكل فتى في محضه الحي واضح يلوح كما لاح اليماني المفضّض[4]

وكان عادلاً في الرعية، ولما دخل (خراسان)، قام إليه بعض الشعراء فأنشد يقول:

شد العصاب على البريء وما جنى حتى يكون لغيره تنكيلا
والجهل في بعض الأمور وإن غلا مستخرج للجاهلين عقولا

فقال قتيبة: «قبحّك الله من مشير! والله لا أَقَمْتَ معي في بلد»، ثم أخرجه من (خراسان)[5].

لقد كان قتيبة مثالاً رفيعاً في مزاياه الكريمة، حتى لقد رفعت تلك المزايا منزلة (باهلة) قبيلته بين القبائل، وما أصدق الشاعر حين قال[6]:

قـوم قـتـيـبـة أُمّـهـم وأبـوهـمُ لولا قتيبة أصبحوا في مَجْهَل

لقد كان من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء،

---

(١) سرح العيون (١٠١).
(٢) رغبة الآمل (٣/٦).
(٣) وفيات الأعيان (٣/٣٤٩).
(٤) معجم الشعراء (٣٢٢).
(٥) سرح العيون (١٠١).
(٦) رغبة الآمل (٦/١١٨)، وكانت العرب تستنكف من الانتساب إلى باهلة. قيل لبعضهم: «أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلي؟»، فقال: «نعم بشرط ألّا يعلم أهل الجنة أنّ أَبي باهلي!»، انظر وفيات الأعيان (٣/٢٥٣).

والشجعان ذوي الحروب والفتوحات السعيدة، والآراء الحميدة، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلّا الله، فأسلموا ودانو لله عز وجل[1].

وقد ولد قتيبة: مُسْلم بن قتيبة وقَطَن بن قتيبة، وكُثيِّراً والحجّاج وعبد الرحمن وسَلْماً وصالحاً وعَمْراً ويوسف وغيرهم.

أما سَلْم، فولي البصرة مرتين: مرة لابن هُبَيْرة ومرة لأبي جعفر، وكان سيد قومه، ومات بالري، وكنيته: أبو قتيبة.

وأما قَطَن بن قتيبة، فكان على (سمرقند) وغيرها من كور (خُراسان)، وله هناك عقب.

وجميع ولد قتيبة سراة لهم أعقاب[2].

لقد جمع قتيبة المجد من أطرافه.. لقد كان رجلًا لا يتكرّر إلا نادراً... لقد كان نسيج وحده.

القائد:

كان قتيبة بن مسلم قائداً من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية في صدر الإسلام.

فعند ما كان يلي(خراسان)، خرجت بها خارجة أهمّته، فقيل له: «ما يهمّك منهم؟ وجّه إليهم وكيع فإنه يكفيكهم»، فأبى وقال: «لا... إنّ وكيعاً رجل به كبر يحتقر أعداءه، ومَن كان هكذا قلّت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه، فيجد عدوّه منه غرّة».

هذه الكلمة من كلمات القائد العربي المسلم تنبئ عن كثير: تنبئ عن

---

(١) البداية والنهاية (٩/١٦٧).

(٢) المعارف (٤٠٧).

ملكة القيادة فيه، وتنبئ عن ملكة السيادة في الأمة التي نشأ منها واستطاعت بها أن تسوس الأمم في الحرب والسلم.

فالحق أنّ شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيها جميعاً، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبر قوّته وسبر قوّة خصمه، وكلّ ما عدا ذلك فإنما هو ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التي ينازلها أن تصنعه، أو هو تنظيم للأُهبة والحيطة بين الفريقين في الميدان الذي يتلاقيان فيه.

لقد كان قتيبة بطلًا شجاعاً[1]، شهماً مقداماً نجيباً[2]، من القادة النجباء الكبراء والشجعان ذوي الحروب والفتوحات، فتح الفتوحات[3] العظيمة وعبر إلى ما وراء النهر[4]، وقد بلغ في غزو الترك والتوغل في بلاد ما وراء النهر وافتتاح القلاع واستباحة البلاد وأخذ الأموال وقتل الفتاك ما لم يبلغه المهلّب بن أبي صفرة ولا غيره، حتى أنه فتح (خوارزم) و (سمرقند) في عام واحد، فدعا نَهَار بن تَوسِعة شاعر المهلّب وبنيه فقال له: «أين قولك في المهلّب لما مات[5]:

ألا ذَهَبَ الغزو المقرِّبُ للغنى ... وماتَ النّدَى والجود بعد المهلّب

أقاما بمرو الرّوذ رهن ضريحه ... وقد غُيِّبا عن كلِّ شرق ومَغْرِب

أفغزو هذا يا نهار؟؟»، فقال: «لا بل أحسن» ثم قال نهار: «وأنا القائل:

وما كان مذ كنّا ولا كان قبلنا ... ولا هو فيما بعدَنا كابن مُسلم

---

(١) شذرات الذهب (١/ ١١٢) والعبر (١/ ١١٥) وانظر خزانة الأدب (٣/ ٦٥٧).

(٢) وفيات الأعيان (٣/ ٢٤٩).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٦٧).

(٤) سرح العيون (٩٧) وخزانة الأدب (٣/ ٦٥٧).

(٥) وفيات الأعيان (٢/ ٢٥٠) والطبري (٥/ ٢٥٤).

أعـمّ لأهـل الـتـرك قـتـلًا بـسـيـفـه وأكـثـر فـيـنـا مَـقْـسَـمـاً بـعـد مَـقْـسَـم»

ولما بلغ الحجاج ما فعل قتيبة من الفتوحات والقتل والسبي، قال: «بعثت قتيبة فتى غزّاء، فما زدته باعاً إلّا زادني ذراعاً»[1].

وقال المغيرة بن حَبْناء يمدح قتيبة ويذكر قتل (نِيْزَك) وأصحابه[2].

لـمـن الـديـار عَـفَـت بـسـفـح سَـنَـام إلّا بـقـيـة أَيْـصَـر وثُـمـام
عَـصَـفَ الـريـاحُ ذُيـولَـهـا فـمـحَـونـهـا وجَـرَيْـنَ فـوق عِـرَاصِـهـا بـتَـمـام
دارٌ لـجـاريـة كـأنّ رُضـابـهـا مِـسْـك يُـشـاب مِـزاجُـه بـمُـدام
أبـلـغ أبـا حَـفْـصٍ قـتـيـبـةَ مِـدْحَـتـي واقـرأ عـلـيـه تـحـيَّـتـي وسـلامـي
يـا سـيـفُ أبـلـغـهـا فـإنّ ثـنـاءهـا حـسـنٌ وإنّـك شـاهـد لـمـقـامـي
يـسـمـو فَـتَـتَّـضِـع الـرجـال إذا سـمـا لـقـتـيـبـةَ الـحـامـي حِـمَـى الإسـلام
لأغَـرّ مُـنـتـجَـبٍ لـكـلِّ عـظـيـمـة نـخْـرٍ يـبـاع بـه الـعُـدوّ لُـهـامِ
يـمـضـي إذا هـاب الـجـبـان وأحْـمِـشَـت حـرب تَـسَـعَّـر نـارُهـا بـضِـرام
تُـروى الـقـنـاةُ مـع الـلِّـواء أمـامـه تـحـت الّـلـوامـع والـنُّـحـور دَاوِمِ
والـهـامُ تـفـريـه الـسـيـوف كـأنـه بـالـقـاع حـيـن تـراه فَـيْـضَ نَـعَـام
وتـرى الـجـيـاد مـع الـجـيـاد ضـوامـراً بـفـنـائـه لـحـوادث الأيـام
وبـهـنّ أنـزل نِـيْـزكـاً مـن شـاهـق (والـكـرز) حـيـث يـرومُ كـل مـرام
وأخـاه (شـقـرانـاً) سَـقَـيـتَ بـكـاسـه وسـقـيـتَ كـأسـهـمـا أخـا (بـاذَام)
وتـركـت (صـولًا) حـيـن صـالَ مُـجَـدّلًا يَـرْكَـبْـنَـه بـدوابـر وحَـوَامِ

وقال نَهَار بن تَوْسِعة يذكر انتصار قتيبة على الأتراك[3]:

أراك الله فـي الأتـراك حُـكْـمـاً كَـحُـكْـم فـي قُـرَيْـظَـةَ والـنَّـضِـيـر
قـضـاءٌ مـن قـتـيـبـة غـيـرُ جُـور بـه يُـشـفَـى الـغـلـيـلُ مـن الـصُـدور

---

(1) وفيات الأعيان (٢/ ٢٥٠) والطبري (٥/ ٢٣٩).
(2) الطبري (٥/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).
(3) الطبري (٥/ ٢٤٠).

فإن يرى (نِيزَكٌ) خزياً وذُلّاً ... فكم في الحرب حُمق من أمير

وقال كعب الأشقري يمدح قيادة قتيبة[1]:

رَمَتْكَ (فِيلٌ) بما فيها وما ظَلَمَت ... ورامها قبلك الفَجْفاجة الصَّلِفُ
لا يُجزئ الثَّغر خَوَّار القَنَاة ولا ... هَشُّ المكاسِر والقلبُ الذي يَجِفُ
هل تذكرون ليالي التُّرْكَ تقتُلُهم ... ما دون(كازَهَ)[2] والفَجْفَاجُ مُلْتَجِفُ
لم يركبوا الخيل إلّا بعد ما كبروا ... منهم ثِقال على أكتافها عُنُف
إني رأيت أبا حَفْصٍ تُفَضّلهُ ... أيامُه، ومَسَاعي الناس تَخْتَلِفُ
قيس صريح وبعضُ الناس تَجْمَعُهُم ... قُرىً وريف فمنسوب ومُقْتَرَف
لو كنتَ طاوعت أهل العجز ما اقتسموا ... سبعين ألفاً وعِزّ (السغد) مُزْتَنِفُ
وفي (سمرقند) أُخرى أنت قاسمُها ... لئن تأخّر عن حوبائك التَّلَف
ما قدّم الناس من خيرٍ سبقتَ به ... ولا يفوتك مما خلّفوا شَرَف

وقال أيضاً يمدح قيادته[3]:

كُلُّ يوم يَحْوي قتيبة نهباً ... ويزيد الأموال مالاً جديدا
باهليٌّ قد أُلبِسَ التاجَ حتى ... شاب منه مفارقٌ كنّ سُودا
دوّخ (السُّغْدَ) بالكتائب حتى ... ترك (السُّغد) بالعَراء قُعودا
فوليدٌ يبكي لفقد أبيه ... وأبٌ مُوْجَع يُبَكِّي الوليدا
كلما حلّ بلدةً أو أتاها ... تركت خيله بها أُخْدودا

فما هي مزايا قيادته التي استحق من أجلها كلّ هذا التقدير؟.

كان قائداً يقابل عدوّه مفتوح العينين: يحصل على المعلومات عن خصمه فيعرف قوّاته ومعنوياته وتسليحه وتنظيمه ونقاط ضعفه، ويعرف طبيعة

---

(١) الطبري (٥/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨) والأغاني (١٣/ ١٩).
(٢) كازه: من قرى مرو والنسبة إليه: كازقي، وقد نسب إليها كازي أيضاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٠٧).
(٣) الطبري (٥/ ٢٥٥)، ويقال: إن قائلها رجل من جعفى.

الأرض التي تتقدّم قوّاته عليها والتي يخوض غمار معركته فيها، ويُعد الخطط المناسبة للقضاء على أعدائه، فيفكّر حين إعدادها في الاحتمالات كافة لتكون مرنة قابلة التطبيق عند تبدّل الأحوال، ولم يكن متهوِّراً يحتقر عدوّه بل كان دائماً يدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات.

وكانت له شخصية قوية فرضها على عدوه أولاً، فكان مَهيب الجانب يحسب له عدوّه ألف حساب.. وقد بلغت سيطرته الشخصية على أعدائه حداً لم يبلغه غيره من قادة الفتح ومن الولاة.. لقد كان قتيبة ينتصر بالرعب!

فقد طلب ملك (الجوزجان) رهناً يكونون معه في يديه ويعطي رهائن، فأعطى قتيبة حبيب بن عبد الله بن عمرو بن حُصَين الباهلي وأعطى ملك (الجوزجان) رهائن من أهل بيته؛ فخلّف هذا الملك حبيباً بـ (الجوزجان) في بعض حصونه وقدم على قتيبة، فصالحه قتيبة ثم رجع الملك فمات بـ (الطالقان)؛ فقال أهل (الجوزجان): «سَموّهُ!»، فقتلوا حبيباً، فقتل قتيبة الرهائن الذين كانوا عنده[1]، حتى يكون لرجال قتيبة حرمة مصونة حتى عند أعدائه.

وقد رأيتَ كيف استكان ملك الصين لتهديد قتيبة، فاستسلم لشروطه، لأنه كان يعرف مقدّماً أنه أمام رجل ينفِّذ تهديده، وأنه إذا قال فعل... فلا عجب أن يجيب أحد الأعاجم عن تساؤل رجل من العرب: «أيهما أهيب عندهم: يزيد بن المهلّب أم قتيبة بن مسلم»، فقال الأعجمي بدون تردد: «لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى حجر من الأرض مكبّلًا بالحديد، ويزيد معنا في بلادنا والٍ علينا، لكان قتيبة أهيبَ في صدورنا وأعظم من يزيد»[2]... ويزيد هو مَنْ هو هيبة وسيطرة وجلّالًا!.

---

(١) الطبري (٥/ ٢٤٠).

(٢) الطبري (٥/ ٢٨٦) وابن الأثير (٥/ ٢).

وفرض سيطرته على رجاله أيضاً، فكان لا يتوانى عن إنزال أقسى العقاب بالمخالفين لأوامره والمتهاونين في تنفيذها.

وكان يسيطر على رجاله في الميدان، فلا يدع رجلًا منهم يترك موضعه أن يخل بواجبه أو يعود إلى أهله إلّا بأمر صريح منه. قال إياس بن زُهير: «لما عبر قتيبة النهر أتيته فقلت له: إنك خرجت ولم أعلم رأيك في العيال، فنأخذ أُهْبَة ذلك، وبَنيّ الأكابر معي ولي عيال وقد خلّفتهم، وأم عجوز وليس عندهم مَن يقوم بأمرهم، فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً مع بعض بَنيّ أوجِّهه فيقدم عليّ بأهلي، فكتب وأعطاني الكتاب، فانتهيت إلى النهر وصاحب النهر في الجانب الآخر، فألويت بيدي فجاء قوم في سفينة، فقالوا: مَنْ أنت وأين جوازك؟! فأخبرتهم؛ فقعد معي قوم وردّ قوم السفينة إلى العامل، فأخبروه»[1]؛ فهو لا ينسى أن يضع نقاط سيطرة على السابلة في نقاط العبور ليسيطر سيطرة تامة على رجاله في الجبهة.

وكان ماهراً في القضايا التعبوية مهارة فائقة تدعو إلى الإعجاب حتى في أيامنا هذه: كان إذا رجع من غزواته اشترى اثني عشر فرساً من جياد الخيل واثني عشر هجيناً[2] لا يتجاوز بالفرس أربعة آلاف، فيقام عليها إلى وقت الغزو، فإذا تأهّب للغزو وعسكر قيدت وأضمرت، فلا يقطع نهراً بخيل حتى تخفّ لحومها، فيحمل عليها من يحمل من الطلائع؛ وكان يبعث في الطلائع الفرسان من الأشراف ويبعث معهم رجالًا من العجم ممن يستنصح على تلك الهجين، وكان إذا بعث بطليعة أمر بلوح فنقش ثم يشقّه شقين، فأعطاه شقة واحتبس شقة لئلا يمثِّل بمثلها، ويأمره أن يدفنها في موضع يصفه له من مخاضة معروفة أو تحت شجرة معلومة أو خربة، ثم يبعث بعدد ممن يستبريها ليعلم أصادق طليعته أم لا[3].... وهذا هو منتهى

(١) الطبري (٥/٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٢) الهجين: الهجنة في الناس وفي الخيل إنما تكون من قبل الأم، فإذا كان الأب عتيقاً أي كريماً والأم ليست كذلك كان الولد هجيناً، انظر مختار الصحاح (٦٩١).

(٣) الطبري (٥/٢٧١).

الدقة في الاهتمام بوسائط التنقل المعروفة حينذاك، وفي تفاصيل الدقيقة التي تؤمن تنفيذ أوامره بدقة وإتقان!

وكان ألمعي الذكاء عميق التفكير كثير الحيطة والحذر، وكان شجاعاً مقداماً جريئاً صريحاً يبدي رأيه بكل صراحة وحزم حتى للحجّاج المعروف بشدّته وقوّة شخصيته، وكانت له قابلية متميزة على اختيار المعسكرات المناسبة للقاء عدوه فيها، وكان لا يسير إلّا على تعبية، وكان يخندق كلما استقر به المقام في ميدان من الميادين.

وكان ماهراً جداً في استخدام الكمائن، حريصاً على الحصول على المعلومات المفصّلة عن عدوه وعن طبيعة الأرض التي يسلكها والتي ستدور معركته عليها.

وكان قديراً على استخدام صنوف جيشه في الوقت والمكان المناسبين، ليؤمِّن تعاونها ويستفيد من كلّ صنف في الواجب المناسب له، وقد استعمل (الفَعَلة)[1] استعمالاً رائعاً عند حصار المدن، كما استعمل المنجنيقات لهدم الأسوار وقصف تلك المدن.

وكان دائماً في الأمام ليرى الموقف الحقيقي بنفسه ويعالج المواقف الحربية المتبدِّلة بسرعة معالجة فورية مناسبة دون أن ينتظر في الخلف للحصول على المعلومات.

وكان دائماً في مواقع الخطر، ليشارك رجاله في مهمّتهم، وليرفع معنوياتهم بحضوره، وليساعد في معالجة المواقف الطارئة دون ضياع الوقت سدى.

---

(١) الفعلة: هم الرجال الذين يقومون بهذه الأسوار وإصلاح الطرق وقطع الشجر وإقامة الجسور والمعابر، وحفر الآبار وتنقيتها وما أشبه ذلك، انظر مختصر سياسة الحروب (٢٩) وهم صنف الهندسة في الوقت الحاضر.

وكان يشجِّع رجاله ويستثير حميتهم ويدفعهم إلى خوض غمار الحرب، بمثاله الشخصي وإقدامه وفدائه وحسن تصرّفه...

وكان يعرف مزايا رجاله ومزايا القبائل التي تحارب بإمرته، ويوكل بكلِّ رجل وبكلِّ قبيلة ما يناسبه أو يناسبها من واجبات.

وكانت له قابلية بدنية متميزة تساعده على تحمّل التعب والنصب والمشاق.

وكان ميمون النقيبة، كامل العقل، بعيد الصوت، طويل التجربة، بصيراً بتدبير الحروب ومواضعها، عالماً بالحيل والمكايدة، منتهزاً للفرص، حسن التعبئة، حسن السيرة، عفّاً، صارماً، حذراً، متيقظاً، حسن التدبير لرجاله، وكان قائداً عقدياً.

وكان يستشير رجاله كلّما حزبه أمر ولا يستبدّ برأيه دونهم. وكان يصون السر ويكتمه ولا يظهر نياته أبداً لأحد من الناس.

وكان يطّبَق كلّ مبادئ الحرب المعروفة بشكل يدعو إلى الدهشة والإِعجاب، فكانت حروبه كلّها حروباً (تعرضِيّة)، وكان (يختار مقصده ويديمه) ولا يحيد عنه مطلقاً، وكان يبذل جهده (لمباغتة) عدوه في الزمان والمكان والأسلوب ويحرص على (أمن) قوّاته خوفاً من مباغتة العدو لها.

وكان يعمل جاهداً على (تحشيد قوته) عدداً وعُدداً وصنوفاً ولكنه كان (يقتصد بالمجهود) فلا يسرف في استخدامها إلا للأهداف الحيوية، وكانت خططه سليمة (مرنة)، وكانت لقواته قابلية فائقة على الحركة، وكان في خططه يستهدف تأمين (التعاون) التام بين صنوف جيشه وبين القبائل العربية والعجم الذين يؤلّفون هذا الجيش، وكان لا ينفكّ باذلاً غاية الجهد (لإدامة معنويات) قواته وتحطيم معنويات عدوه، وكان يهتم كلّ الاهتمام بإعداد (الأمور الإِدارية) لرجاله مواداً وسلاحاً وخيلًا وإبلًا وعتاداً وأرزاقاً.

وكان سريع القرار صائب الخطط، ذا إرادة قوية ثابتة، ونفسية عالية لا تتبدّل، يتحمّل المسؤولية كاملة ويسبق النظر، يثق برجاله ويحبهم ويثقون به ويحبونه، وكان من أجلهم يضحي بالقضايا المادية، كما فعل في قتل

الأعجمي الأعور دون أن تغريه ضخامة ما عرضه هذا من فداء.

وكان ذا شخصية قوية نافذة مسيطرة لا تجامل ولا تداجي ولا تخضع إلّا للحق وللمصلحة العامة.

وكان ذا ماضٍ ناصع مجيد شرفاً وشجاعة وتضحية وإخلاصاً.

لا عجب مع كلٍّ ذلك أن يستعيد فتح (خُراسان) وغيرها وأن يفتح أقطاراً شاسعة يضيفها إلى ما فتحه قادة الفتح من قبله دون أن يهزم له جيش أو يتراجع له لواء، على الرغم من أنه كان حريصاً على الجهاد مُؤْثِراً ساحات الحروب على باحات القصور.

قُتَيبَة في التاريخ:

يذكر التاريخ لقتيبة، أنه كان من أبرز أعوان الحجّاج بن يوسف الثقفي الذين عاونوه بأمانة وإخلاص للقضاء على أخطر فتنة داخلية عانى منها العراق خاصة والمشرق عامة، وهي فتنة الخوارج.

ويذكر له، أنه استعاد كلّ بلاد المشرق التي انتقضت على الدولة العربية الإسلامية وشقّت عصا الطاعة، وأعادها إلى الدولة الأم وأعاد إلى سكانها الأمن والاستقرار.

ويذكر له، أنه فتح بلاد ما وراء النهر حتى حدود الصين شرقاً وتغلّب على أصلب الأمم وأقواها.

ويذكر له، أنه نشر الإسلام في مناطق شاسعة، فقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله[1].

لقد أتعب قتيبة نفسه، وأتعب غيره، من أجل إعلاء كلمة الله، وكان مفخرة من مفاخر العرب والمسلمين.

رضي الله عن البطل الحق، الإداريّ الحازم، الأمير العادل، القائد الفاتح، قتيبة بن مسلم الباهلي.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٦٧).

عبد الرّحمن بن مسلمُ البَاهِلي
فاتح شطر خُوارِزم وشطر ما وراء النهر

نسبه وأهله:

هو عبد الرحمن بن مُسْلِم بن عمرو بن الحُصَيْن الباهليّ. أبوه مسلم بن عمرو، يكنى: أبا صالح.

وعبد الرحمن هذا هو أخو قُتَيْبَة بن مسلم الباهلي القائد المشهور الذي فتح ما وراء النهر.

جهاده:

١ ـ كان عبد الرحمن من أقوى وأخلص أعوان أخيه قتيبة بن مسلم الباهلي ومن أبرز قادته الذين عاونوه في تحمل أعباء واجباته قائداً فاتحاً وإدارياً.

وقد شهد عبد الرحمن تحت لواء قتيبة غزواته كافة قائداً مرؤوساً تحت إمرة قتيبة مرات، وقائداً مستقلّاً مرات أخرى.

٢ ـ في سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٦م)، سار قتيبة إلى (رامِيْثَن) فصالحه أهلها.

وانصرف قتيبة إلى (مرو)، وفي طريق عودته زحف إليه الترك ومعهم (الصُّغْد)[١] وأهل (فَرْغانة) في مائتي ألف بقيادة ملك الترك (كور بغانيون)[٢]

---

(١) الصغد: اسم كورة كبيرة، قصبتها سمرقند، والصغد: اسم سكان تلك الكورة أيضاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٦٢) والمسالك والممالك للإصطخري (١٧٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٤٣).
وتكتب أحياناً: السغد، انظر مثلًا كتاب: البلدان (٢٨٨).

(٢) في ابن الأثير (٤/ ٥٣٣) ورد اسم ملك الترك: كورنعابون.

ابن أخت ملك الصين، فهدّدوا السّاقة[1] التي كانت بقيادة عبد الرحمن. وكان بين السّاقة وقتيبة الذي كان على رأس (القسم الأكبر)[2] من الجيش ميل واحد، فلما قربوا من السّاقة أرسل عبد الرحمن رسولاً إلى قتيبة يخبره بزحف الترك، ولكنّ الترك هاجموا السّاقة في أثناء ذلك وقاتلوه. وأتى رسول قتيبة، فرجع بالناس وانتهى إلى السّاقة وهي مشتبكة بالقتال ـ وقد كاد الترك يسحقونها سحقاً، فلما رأى الناس قتيبة طابت أنفسهم فصبروا وقاتلوا إلى الظهر حتى انهزم الترك[3].

٣ ـ وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٨م) استأذن (نِيْزَك) ملك (طخارستان) قتيبة بالرجوع إلى بلاده، وحين وصلها أظهر الخلع. وكتب إلى الملوك يدعوهم إلى خلع قتيبة، ثم كتب إلى ملك (كابُل) يستظهر به وبعث إليه بِثَقَله[4] وماله، وسأله أن يأذن له أن يأتيه فأجاب إلى ذلك.

وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء وقد تفرّق الجند، فبعث أخاه عبد الرحمن في اثني عشر ألفاً إلى (البَرُوقان) وقال له: «أقم بها، فإذا انقضى الشتاء، سِرْ نحو (طخارستان)، واعلم أني قريب منك».

---

(١) الساقة: جماعة من الفرسان والمشاة لحماية مؤخرة القسم الأكبر من القوات العسكرية المتحركة نحو هدفها.

(٢) القسم الأكبر: الجيش المتحرك نحو هدفه ناقصاً قطع الحماية (المقدمة ـ الساقة ـ المجنبات).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٥/ ٢٢٣) وابن الأثير (٤/ ٥٣٣). وفي ابن خلدون (٣/ ٥٩): «أن الترك اعترضوا مقدمة قتيبة»، لا ساقته!!، وهذا خطأ عسكريّ، لأنّ قوات قتيبة كانت في عودتها لا في تقدّمها، وضرب المقدمة في هذه الحالة معناه الاصطدام بالقوة المتحركة كلّها وقبول معركة ميدان تصادفية، وهذا ليس في مصلحة المهاجم، لأنه قد يقطع عليه خط الرجعة، ويؤدي بالاصطدام بالقوة كلّها لا بجزء منها.

بينما مهاجمة الساقة حين تكون القوة الباقية متحركة قد يقضي على السّاقة كما يجبر المسلمين على تنظيم خطة جديدة لحماية الساقة ويضطرهم على التراجع لحمايتها وسندها، مما قد يؤدي إلى إرباك صفوفهم.

(٤) الثقل: المتاع، والشيء النفيس الخطير.

وفي آخر الشتاء كتب قتيبة إلى (نَيْسَابور)[1] وغيرها من البلاد ليقدم عليه الجنود، فقدموا قبل أوانهم، فسار نحو (الطالقان) وكان ملكها قد خلع وطابق (نِيْزك) على الخلع، فأوقع قتيبة بأهل (الطالقان) وقتل من أهلها مقتلة عظيمة[2].

٤ - وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩م) سار قتيبة إلى (نِيزَك) وتقدّم يتبع عبد الرحمن إلى شعب (خُلْم)[3].

واستطاع قتيبة مباغتة رجال (نيزك) وطردهم من شِعب (خُلْم)، فمضى قُدماً إلى (نيزك).

وقدّم أخاه عبد الرحمن، فارتحل (نيزك) من منزله في (بغلان) ومضى حتى نزل (الكُرْز) وقتيبة يتبعه، فنزل عبد الرحمن حذاء (الكُرْز) وليس له مسلك إلّا ومن وجه واحد - وهو صعب لا تطيقه الدواب، فحصرَه قتيبة شهرين حتى قلّ ما في يد (نيزك) من الطعام وانتشر في عسكره مرض الجدري.

وأخيراً قدم (نيزك) على قتيبة تائباً، فقتله قتيبة، وبذلك عادت تلك البلاد إلى الطاعة[4].

٥ - وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية أيضاً (٧٠٩م)، سيّر قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى (الصُّغد) وملكها (طرخون)، فقبض عبد الرحمن من (طرخون) ما كان صالحه عليه قتيبة ورجع[5].

٦ - وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) صالح قتيبة ملك

---

(١) نيسابور: مدينة عظيمة في خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٥٦).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٥/ ٢٣٠ - ٢٤١) وابن الأثير (٤/ ٥٤٤ - ٥٤٥).
(٣) خلم: بلدة بنواحي بلخ على عشرة فراسخ من بلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٥٩).
(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٥/ ٢٣٠ - ٢٤١) وابن الأثير (٤/ ٥٤٤ - ٥٤٥).
(٥) انظر التفاصيل في الطبري (٥/ ٢٤١ - ٢٤٣).

(خُوَارِزْم) فقد سار هذا الملك إلى مدينة (الفِيْل) من وراء النهر، وهي أحصن بلاده، فصالح قتيبة على عشرة آلاف رأس[1] وعَين ومتاع، على أن يعينه على (خام جرد)[2]، فقبل ذلك. وقيل: صالحه على مائة ألف رأس[3].

وبعث قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى بلاد الملك (خام جرد) في (خوارزم) الذي كان يغازي ملك (خوارزم)، فقاتل عبد الرحمن (خام جرد) وقتله وغلب على أرضه[4].

٧ ـ وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) أيضاً، دعا قتيبة أخاه عبد الرحمن بعد صلح (خُوارِزْم) وقال له: «سِرْ في الفرسان والرماة، وقدِّم الأثقال إلى (مرو)»، فوجّه عبد الرحمن الأثقال إلى (مرو) ومضى يتبع الأثقال يريد (مرو) أيضاً، فأمضى اليوم كلّه، فلما أمسى كتب إليه قتيبة: «إذا أصبحت فوجِّه الأثقال إلى (مرو)، وسِرْ بالفرسان والرماة نحو (الصُّغد)، واكتم الأخبار فإني بالأثر».

وبلغ قتيبة (الصُّغْد) بعد عبد الرحمن بثلاث ليال أو أربع، وبعد قتال عنيف وحصار طويل، صالحهم قتيبة ودخل (سَمَرْقَنْد)، وهكذا فتح قتيبة (خوارزم) و (سمرقند) في سنة واحدة[5].

---

(١) عدد من يعطي الجزية للمسلمين.

(٢) خام جرد: أحد ملوك أو رؤساء منطقة كائنة في خوارزم، كان يغازي (خوارزمشاه)، انظر التفاصيل في الطبري (٥/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨) وابن الأثير (٤/ ٥٧١).

(٣) قوله: «على مئة ألف رأس»، يريد: أن هذا العدد من البشر تؤخذ الجزية منهم، وإلّا فمن المستبعد استرقاق مثل هذا العدد الضخم من الناس، إذ ماذا يصنع بهم قتيبة بن مسلم، وأي طعام يكفيهم، انظر هامش ابن خلدون (٣/ ٦٣).

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٥/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨) وابن الأثير (٤/ ٥٧١) وابن خلدون (٣/ ٦٣).

(٥) الطبري (٥/ ٢٤٨ ـ ٢٥٥) وابن الأثير (٩/ ٥٧١ ـ ٥٧٢) وابن خلدون (٣/ ٦٣).

الإنسان:

حين همّ قتيبة بن مسلم الباهلي بخلع سليمان بن عبد الملك، استشار إخوته، فقال عبد الرحمن: «اقطع بعثاً، فوجِّه فيه كلّ مَن تخافه، ووجِّه قوماً إلى (مرو)، وسر حتى تنزل (سمرقند)، ثم قل لمن معك: من أحبّ المقام، فله المواساة، ومن أراد الانصراف، فغير مستكره ولا متبوع بسوء، فلا يقيم معك إلّا مناصح».

وقال عبد الله أخو قتيبة: «اخلعه مكانك، وادع الناس إلى خلعه، فليس يختلف عليك رجلان».

وأخذ قتيبة برأي عبد الله، ودعا الناس إلى خلع سليمان بن عبد الملك، فلم يجبه أحد[1].

واجتمع إلى قتيبة أهل بيته وخواصه وثقاته وبنو عمه، فأمر فنودي في الناس قبيلة قبيلة، فأجابوه بالجفوة.

وتألّبت القبائل العربية، وتألّبت العجم والتركمان والصُّغْد وغيرهم على قتيبة، وتخلّى عنه الناس.

وتهايج الطرفان، فأقبل عبد الرحمن نحو أعداء قتيبة، فرماه أهل السوق والغوغاء، فقتلوه.

ودارت المعركة بين الجانبين، وجاء الناس حتى بلغوا فسطاط قتيبة، فقطعوا أطنابه.

وجرح قتيبة جراحات كثيرة، ثم نزل رجل فاحتز رأسه[2].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٥/٢٣٧ ـ ٢٧٥) وابن الأثير (٥/١٢ ـ ١٨) والبلاذري (٥٩٤ ـ ٥٩٦) وخزانة الأدب للبغدادي (٣/٦٥٧ ـ ٦٥٨) وسرح العيون (١٠٠) وابن خلدون (٣/٦٨).

(٢) انظر قصة مقتل قتيبة في الطبري (٥/٢٧٣ ـ ٢٨٥) وابن الأثير (٤/١٢ ـ ٢٠) وابن خلدون (٣/٦٨ ـ ٦٩) والبلاذري (٥٩٤ ـ ٥٩٦).

ترى! هل كان قتيبة يلاقي هذا المصير المفجع المروِّع، لو أخذ برأي عبد الرحمن، ففرّق أعداءه والمشتبه بولائهم له، وجمع حوله المخلصين من أهله وأصحابه ورجاله، ثم خلع سليمان بن عبد الملك وهو بين قوم يأمن جانبهم، وحينذاك يعالج أعداءه واحداً بعد واحد متفرقين؟!

لقد قتل عبد الرحمن في (فرغانة)[1] مع أخيه قتيبة وقسم من إخوته وقسم من أهله[2]، وذلك سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٥م)، وبذلك انتهت حياة أحد القادة الفاتحين.

كان عبد الرحمن ذكياً حصيفاً، إدارياً حازماً، كريماً مضيافاً، صادقاً وفياً، وكان مؤمناً حقاً، هدى الله على يديه عدداً ضخماً من الناس إلى الإسلام.

القائد:

كان قتيبة بن مسلم يولي أخاه عبد الرحمن قيادة (المقدمة) في مسير الاقتراب إلى العدو.

وكان يوليه (السّاقة): عند التراجع والانسحاب.

إنّ قيادة (المقدمة) و (السّاقة) على حد سواء، توجب على القائد ألّا يظهر العدو على عورات القوات التي يحميها من جهة وألا يخفى عليه من عورات القوات المعادية شيء، وهذا لا يتمّ إلّا بتحلي القائد بمزايا الحذر واليقظة والكتمان والذكاء الخارق وسرعة الحركة ثم بإذكاء العيون والجواسيس[3] والاستطلاع الشخصي.

وبالإضافة إلى كلِّ ذلك، تحتاج قيادة المقدمة والسّاقة إلى تحلي القائد بقابلية إعطاء القرارات السريعة الصائبة، وبالنشاط الجم والعمل الدائب

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٩٨) والمعارف (٤١٦ و ٤٣٣) ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥٠).
(٢) الطبري (٥/ ٢٨) وابن الأثير (٥/ ١٧).
(٣) انظر مختصر سياسة الحروب للهرثمي (١٩).

المستمر بدون كلل ولا ملل، والشجاعة والإقدام والقابلية البدنية والتدريب المتميِّز على استعمال السِّلاح والفروسية.

إنّ عبد الرحمن - قائداً للمقدمة - في مسير الاقتراب، وللساقة في التراجع والانسحاب، كان أقرب ما يكون إلى العدو في الحالتين، وهذا دليل على شجاعته النادرة وإقدامه الفذ.

لقد كان عبد الرحمن قائداً كتوماً حذراً يقظاً، يتقدّم وهو مفتوح العينين على هدى وبصيرة، لما يحصل عليه من معلومات عسكرية دقيقة عن عدوه: تحركاته، وتشكيلاته، وأساليب قتاله، ومزايا قادته وقواته، ونقاط الضعف فيهم، وتسليحه، وتنظيمه، وتدريبه، ومعنوياته، وقضاياه الإِدارية، وطبيعة الأرض التي يتقدّم فيها ويقاتل عليها.

وكان صائب القرار سريعه، فيه أناة الواثق بنفسه، ولم يكن متهوراً يلقي برجاله الذين بقيادته وبالقوات التي تحميها إلى التهلكة والدمار.

وكان بعيداً عن الغرور، لا يستخفّ بعدوه، يدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات.

كلّ هذه المزايا، جعلته موفقاً في قيادة المقدمات والسّاقات، فلم يترك مجالًا لعدوه أن يباغت قواته التي بإِمرته المباشرة أو قوات قتيبة التي تحميها تلك المقدمات والسّاقات.

وكان يتحمّل كامل المسؤولية ولا يتنصّل منها، مستعداً لاتخاذ القرارات المناسبة في المكان والزمان المناسبين.

وكان يثق بنفسه وبرجاله ويثق رجاله به، وكان يبادلهم حبّاً بحب وتقديراً بتقدير.

وكان ميمون النقيبة، كامل العقل، طويل التجربة، بعيد الصوت، بصيراً بتدبير الحروب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايدة، حسن التعبية لأصحابه في أحوال التعبية، عالماً بالوقت المناسب لتسييرهم أوان

المسير وإنزالهم أوان النزول، حريصاً على إدخال الأمن على رجاله والخوف على عدوه، متشبثاً بأسباب إدخال السّلامة لنفسه ولأصحابه من العدو، حسن السيرة، عفيفاً، صارماً، يهتم بالسيطرة والضبط، له ماض ناصع مجيد.

وكان يحسن استخدام مبدأ (المباغتة) في عملياته العسكرية لقد كان عبد الرحمن قائداً متميِّزاً.

عبد الرحمن في التاريخ:

يذكر التاريخ لعبد الرحمن، أنه كان السّاعد الأيمن لأخيه قتيبة في حروبه وفي واجباته الإدارية.

ويذكر له، أنه فتح منطقة واسعة من بلاد (خوارزم) ونشر الإِسلام في ربوعها.

ويذكر له، أنه كان من أبرز العاملين في مجال توطيد أركان الفتح الإِسلامي في (خُراسان) و (خوارزم) ومناطق ما وراء النهر.

ويذكر له أنه نشر الإِسلام بين العجم والتركمان والصُّغْد وكثير من القوميات في المناطق الشاسعة التي عمل على فتحها.

رضي الله عن القائد الفاتح، عبد الرحمن بن مسلم الباهلي.

صَالِحْ بن مُسْلم الباهلي
فاتح كاشان وأورشت[1] وأخْسِيكَث
بما وراء النهر

نسبه وأهله:

هو صالح بن مُسَلمْ بن عمرو بن الحُصَيْن الباهلي. أبوه مسلم بن عمرو، ويكنى: أبا صالح، مما يدلّ على أنّ صالحاً أكبر إخوته سناً. وصالح هذا هو أخو قتيبة بن مسلم الباهلي القائد المشهور فاتح ما وراء النهر[2].

جهاده:

١ ـ كان صالح السّاعد الأيمن لأخيه قُتَيْبَة بن مُسْلِم، شهد معه معاركه التي خاضها كافة في القضاء على فتنة الخوارج وفي معارك الفتوح.

وكان مع قتيبة حين تولى (خُراسان) للحجّاج بن يوسف الثقفي، وفي سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م)، انصرف قتيبة إلى (مرو) بعد استعادة (طخارستان)، فاستخلف على الجند أخاه صالحاً، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة إلى (مرو) مساحات شاسعة من إقليم (فَرْغانَة) و(كاشان)[3] و(أورشت) و (أخْسِيْكَث) بما وراء النهر[4].

---

(١) أورشت: وهي من فرغانة، انظر البلاذري (٥٩٠)، ولم أجد لها ذكراً في معجم البلدان.

(٢) انظر تفاصيل عن عائلته في سيرة أخيه قتيبة بن مسلم الباهلي.

(٣) كاشان: مدينة فيما وراء النهر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٠٧).

(٤) انظر التفاصيل في البلاذري (٥٩٠) وابن الأثير (٤/٥٢٤) وابن خلدون (٣/٥٩).

٢ ـ وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩م)، سار قتيبة إلى (شُومان) لتأديب ملكها الذي طرد عامل المسلمين (من شومان)؛ فلما أتاه أرسل أخاه صالحاً إلى ملكها، وكان صالح صديقاً للملك، فأمره بالطاعة وضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح، ولكنّ الملك أبى قال: «تخوِّفني من قتيبة، وأنا أمنع الملوك حصناً؟؟»، فأتاه قتيبة وقد تحصّن ببلده، فوضع عليه المجانيق ورمى الحصن فهشمه.

وخاف الملك أن يظهر عليه قتيبة، فجمع ما في الحصن من مال وجوهر ورمى به في بئر بالقلعة لا تدرك. ثم فتح باب القلعة وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قُتِل[1].

٣ ـ وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م)، قصد قتيبة بن الباهلي (الصُّغْد) بعد أن صالح (خوارزْمشاه) وقبض صلح (خوارزم)، فأمدَّ ملكا (الشَاش) (وفَرْغَانة) أهل (الصُّغْد)، وأرسلا إليهم: «أرسلوا من يشغلهم، حتى نبيِّت عسكرهم»، وانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة ويبيِّتوه لأنه مشغول عنهم بحصار (سَمَرْقند).

وبلغ قتيبة بن مُسْلم الخبر، فانتخب من عسكره أربعمائة رجل، وقيل ستمائة رجل من أهل النجدة والشّجاعة وأعلمهم الخبر، وأمرهم بالمسير إلى عدوِّهم. وسار هؤلاء الرجال وعليهم أخوه صالح، ونزلوا على فرسخين من معسكر أعدائهم على طريق القوم.

وأرسل صالح عيونه، فأخبروه أنّ العدو سيصل إليهم ليلًا. وفرّق صالح خيله ثلاث فرق: جعل كمينين في موضعين، وأقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق.

وطرقهم العدو ليلًا وهم لا يعلمون بمكان صالح وهم آمنون في

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٥/ ٢٤١ ـ ٢٤٣) وابن الأثير (٤/ ٥٥٣).

أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون معسكر قتيبة البعيد، فلم يعلموا بصالح حتى غشوه، فشدّوا على رجاله، حتى إذا اختلفت الرماح بينهم خرج الكمينان اللذان جعلهما صالح في موضعين مختلفين حسب الخطّة المرسومة، فاقتتلوا قتالاً شديداً.

واستطاع فرسان صالح أن يتغلّبوا على عدّوهم، فلم يفلت منهم إلّا الشريد، وأسروا بعض الأسرى، وغنموا خيلهم وسلاحهم.

وعلم (الصُّغد) باندحار القوة التي جاءت مدداً لهم، فأثّر ذلك في معنوياتهم تأثيراً سيئاً وفَتّ في عضدهم، مما اضطرهم على الصلح[١].

لقد كان صالح أحد إخوة قتيبة الذين عاونوه في تحمّل أعباء جهاده بكل صدق وأمانة وإخلاص.

الإنسان:

كان صالح مع قتيبة حين خلع سليمان بن عبد الملك، وبقي معه حين تألّبت عليه القبائل العربية وتألبت عليه العجم وتخلّى عنه الناس.

وأرسله قتيبة إلى حشود الناس الناقمة عليه، فرماه رجل وأصاب رأسه، فحمل إلى قتيبة ورأسه مائل، فوضع في مصلّاه، وجلس عنده قتيبة ساعة حتى مات، وكان مقتله في (فرغانة)[٢]، وقتل معه بعض إخوته وبعض أهله[٣]، وذلك سنة ست وتسعين الهجرية[٤] (٧١٥م). وبذلك انتهت حياة بطل من أبطال المسلمين.

لقد كان صالح ذكياً ألمعي الذكاء، إدارياً حازماً، كريماً مضيافاً، وفياً صادقاً.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٥/٢٤٨ ـ ٢٥٥) وابن الأثير (٤/٥٧٢).

(٢) البداية والنهاية (٩/١٩٨) والمعارف (٤١٦ و٤٣٣) ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥٠).

(٣) الطبري (٥/ ٢٨١) وابن الأثير (٥/١٧) وابن خلدون (٣/٦٩) والبداية والنهاية (٩/ ١٧٦) ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥٠).

(٤) وفيات الأعيان (٣/ ٢٥٠) والبداية والنهاية (٩/١٦٧).

وقد هدى الله على يديه عدداً عظيماً من سكّان ما وراء النهر إلى الإِسلام.

القائد:

كان صالح على جانب عظيم من الجرأة والشجاعة والإقدام، لذلك كان أخوه قتيبة يبعثه لمعالجة المواقف الصعبة التي تحتاج إلى الشجاعة الخارقة والإقدام والجرأة والعقل السليم.

فقد كان قتيبة يستخلفه على الجند في مواطن الخطر، ويؤمِّره على الكمائن عند تهديد قوّاته الضّاربة، ويرسله إلى الحشود الهادرة المزمجرة الغاضبة في أحرج الظروف، وكلّ ذلك يحتاج إلى الشجاعة والجرأة والإقدام والعقل السليم أيضاً.

وكان ماهراً في إعداد الخطط الدقيقة البارعة، ويصدر لتنفيذها الأوامر الصريحة الجازمة، كما فعل في إعداد خطة الكمائن الثلاثة، وإخفاء تلك الكمائن في مواضع تعبوية مستورة، لتجمع تلك الكمائن الثلاثة مكّونة قوّة ضاربة في المكان والزمان الجازمين.

وكان من أولئك القادة الذين يستأثرون بالخطر ويؤثرون رجالهم بالأمن، كما فعل في بقائه على الكمين المتمركز في قارعة الطريق.

وكان من القادة الذين يقودون رجالهم من (الأمام)، يقول لهم: اتبعوني، ولا يقود رجاله من (الخلف)، يقول لهم: تقدَّموا، ثم يبقى في موضع أمين.

وكان حريصاً على استحصال المعلومات الدقيقة المفصّلة عن عدوه، ليعدّ الخطط الّلازمة للقضاء على ذلك العدو.

وكان يطبِّق مبدأ (المباغتة) أهم مبادئ الحرب على الإِطلاق في الزمان والمكان والأسلوب.

كلّ هذه المزايا القيادية جعلته موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حد سواء.

إنه كان قائداً لامعاً دون شك، وكان لقيادته أثر ملموس في انتصارات أخيه قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي غطّت شهرته الباهرة شهرة أخيه صالح وجعلته غير معروف إلّا عند الخاصة من المختصين في التاريخ.

صالح في التاريخ:

يذكر التاريخ لصالح، أنه كان العضد الأيمن لأخيه قتيبة بن مسلم الباهلي في السلم والحرب وإدارياً وقائداً.

ويذكر له، أنه نشر الإِسلام بين حشود ضخمة من العجم والتركمان والقوميات الأخرى في بلاد خُراسان وما وراء النهر وخُوارزم وفي أصقاع أخرى.

ويذكر له، أنه فتح منطقة واسعة من بلاد ما وراء النهر وخُورازم ووطَّد أركان الدولة الإِسلامية في ربوعها.

ويذكر له، أنه كان الرجل الأول بعد قتيبة في فتح بلاد ما وراء النهر.

رضي الله عن القائد الفاتح، الإِداري الحازم، صالح بن مسلم الباهلي.

سَعِيْدُ بن عَمْرو الحَرَشِيّ
فاتح شَطْرِ إرْمِينِيَة ثانية
وشطر خراسان وما وراء النهر

نسبه وأيّامه الأولي:

هو سعيد بن عمرو بن أسود بن مالك بن كَعْب بن الحَرِيْش بن كَعْب بن ربيعة بن عامِر بن صَعْصَعَة، واسم الحِرَيش معاوية بن كَعْب[1] من قَيْس عَيْلان بن مُضَر[2].

ولم يكن سعيد من رؤساء قبيلته، بل كان عِصاميّاً، تقدّم بكدِّه وعرقه وكفايته، وكان في صغره فقيراً مُعْدَماً يسأل على الأبواب، ثم صار يسقي الماء، ثم احترف الجندية، فَعَلَت حالُه[3]، وتقدّم في المناصب الإداريّة والعسكرية، ويبدو أنه لفت أنظار المسؤولين في الدولة بشجاعته وكفايته، ففرض بجهده ومزاياه نفسه على الحاكمين، ولم يفرضها بحسبه ونسبه.

ولا نعرف متى وأين وُلد، ولا تفاصيل حياته الأولى، ولا سنة رحيله عن الدنيا، وقد ذُكر أنه شامِيّ، ووالده بإرمينية[4]، وأمه حبشيّة[5].

لقد كان حظّ سعيد عند المؤرخين وكتّاب السير في مجال حياته

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٢٨٨).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٢٧١).
(٣) جمهرة أنساب العرب (٢٨٨) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ١٦٤).
(٤) جمهرة أنساب العرب (٢٨٨) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ١٦٤).
(٥) المحبّر (٣٠٨).

الخاصة حظّاً عاثراً، فبخلوا عليه بذكر حياته الشخصيّة، وعوّضوا عليه بذكر حياته العامة قائداً وإدارياً.

في توطيد الأمن الداخِليّ:

١ ـ في حرب عبد الرحمن بن محمد بن الأَشْعَث[1]:

شهد سعيد ثورة ابن الأشعث على عبد الملك بن مروان، وكان يقاتل تحت راية الحجّاج بن يوسف الثقفيّ. وفي يوم من الأيام خرج رجل من أهل العراق يقال له: قُدامَة بن الحَرِيْش من رجال ابن الأشَعث ليبارز رجلًا من رجال الحجّاج. وخرج إليه رجل من أهل الشّام فقتله، حتى قتل أربعة من أهل الشّام. ولما رأى الحجّاج ذلك، أمر منادياً فنادى: لا يخرج إلى هذا الرجل أحد! فكفّ الناس.

وكلّم سعيدٌ الحجّاج فقال: «إنك رأيتَ ألّا يخرج إلى هذا الرجل أحدٌ، وإنما هلك مَنْ هلِكَ من هؤلاء النّفر بآجالهم، ولهذا الرّجل أجلٌ، وأرجو أن يكون قد حضر، فَأْذن لأصحابي الذين قِدموا معي فليخرج إليه رجل منهم».

وأذِنَ الحجّاج أن يخرج أحد أصحاب سعيد لمبارزة هذا الرجل، ولكنّ الرّجل عَاجل الشّاميّ الذي خرج لمبارزته من أصحاب سعيد فقتله.

وشقّ ذلك على سعيد، فاستأذن الحجّاج في الخروج لمبارزة قُدامة، فقال له: «وعندَك ذلك؟»، فقال سعيد: «نعم، أنا كما تحب»، فأمر له الحجّاج بسيف مُرْهَف ثقيل، وأذِنَ له بالمبارزة.

ومهما تكن نتيجة المبارزة، إذ لم ينتصر سعيد على خصمه ويقضي

---

(١) انظر تفاصيل ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث في الطبري (٦/ ٣٣٤ ـ ٣٤١) و(٦/ ٣٤٢ ـ ٣٤٥) و(٦/ ٣٤٦ ـ ٣٥٠) وابن الأشعث الكندي، انظر ما جاء عنه في جمهرة أنساب العرب (٤٢٥).

عليه، إلّا أنّ مجرّد خروجه إلى المبارزة متطوّعاً، يدلّ على شجاعته وثقته بنفسه وحرصه على انتصار الدولة على ابن الأشعث وأصحابه[1].

٢ ـ القضاء على فتنة شَوْذَب الخارجِيّ:

في سنة مئة الهجريّة (٧١٨م)، خرج شَوْذَب الخارجيّ، وهو بِسْطَام من بني (يَشْكُر)[2] في (جُوْخِيْ)[3]، وكان في ثمانين رجلًا.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب عامله بالكوفة، ألّا يُحَرِّكهم حتى يسفكوا دماءً ويفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فوجِّه إليهم رجلًا صليباً حازماً في جُنْد.

وبعث عبد الحميد والي الكوفة محمد بن جرير بن عبد الله البَجَلِيّ[4] في ألفين، وأمره بما كتب عمر بن عبد العزيز إليه.

كما كتب عمر بن عبد العزيز إلى بِسْطَام الخارجيّ، يسأله عن مخرجه، وكان في كتاب عمر إلى بِسْطام: «بلغني أنك خرجتَ غضباً لله ولرسوله، ولستَ أولى بذلك مني، فهلمّ إليّ أُناظرك، فإن كان الحق بأيدينا، دخلتَ فيما دخل الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك»، فقدم كتاب عمر إلى بِسطام وقد قدم إليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يتحرّك.

وكتب بسطام إلى عمر: «قد أنصفتَ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك».

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).
(٢) هو يشكر بن بكر بن وائل، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٠٨).
(٣) جوخي: وردت في معجم البلدان (٣/ ١٦١): جوخا، اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد، ولم تكن ببغداد كورة مثل جوخا.
(٤) انظر سيرة أبيه: جرير بن عبد الله البجلي في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ ـ ٣٧١).

ووصل الرجلان الموفدان من بسطام الخارجيّ، وناظرا عمر بن عبد العزيز، فاقتنعا بوجهة نظره.

ومات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنة إحدى ومئة الهجرّية (٢١٩م)، ومحمد بن جرير مقابل الخوارج، لا يتعرّضون إليه ولا يتعرّض إليهم، وكلّ منهم ينتظر عودة الرُّسل من عند عمر بن عبد العزيز، فتوفي عمر والأمر على ذلك[١].

وتولّى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة بعهده من أخيه سليمان بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز[٢]، فأحبّ عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب أمير الكوفة، أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك، فكتب إلى محمد بن جرير يأمره بمناجزة شَوْذَب.

ولما رأى الخوارج محمد بن جرير يستعدّ للحرب قالوا: «ما فعل هؤلاء هذا إلّا وقد مات الرّجل الصالح»، يريدون عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ونشب الاقتتال بين الجانبين، فأُصيب من الخوارج نفرٌ، وقُتل الكثير من أهل الكوفة وانهزموا، وجُرح محمد بن جرير فدخل الكوفة، وتبعهم الخوارج إلى الكوفة، ثم رجعوا إلى مكانهم.

ووجّه يزيدُ بن عبد الملك تَمِيْم بن الحُبَاب في ألفين إلى شَوْذب الخارجيّ، فاقتتل الجانبان وقتل شوذب كثيراً من أصحابِ تميم، فلجأ فلول جيش تميم هاربين إلى يزيد بن عبد الملك وإلى الكوفة أيضاً.

وأرسل يزيد بن عبد الملك جيشاً بقيادة نَجْدَة بن الحَكَم الأَزْدِيّ إلى شوْذب، فقتله الخوارج وهزموا رجاله، فوجّه يزيد السَجَّاحِ بن ودَاع في ألفين، فقتلوه وهزموا رجاله أيضاً.

---

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٥٥٥) وابن الأثير (٥/ ٤٥ ـ ٤٨).

(٢) ابن الأثير (٥/ ٦٧).

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مَسْلَمَةُ بن عبد الملك[1] الكوفة، فشكا إليه أهل الكوفة مكان شَوْذَب وتأثيره في اضطراب الأمن وأثره في قوّات الدولة، فأرسل إليه مَسْلَمَةُ سعيد بن عمرو الحَرَشِيّ، وكان فارساً من فرسان العرب في عشرة آلاف.

وأتاه سعيدُ في مكانه، فرأى شوذبُ وأصحابه ما لا قِبَل لهم به، فقال لأصحابه: «مَنْ كان يريد الشَّهادة، فقد جاءته؛ ومن كان يريد الدنيا، فقد ذهبت».

وكسر الخوارج أغماد سيوفهم وحملوا، فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً، حتى خاف سعيد الفضيحة، فوبّخ أصحابه وقال: «من هذه الشرذمة لا أبَ لكم تَفِرّون!! يا أهل الشّام! يوماً كأيامكم».

وحمل سعيد وحمل أصحابه معه على الخوارج حملة صادقة، فطحنوهم طحناً، وقتلوا بِسطاماً ـ وهو شَوْذَب ـ وأصحابه[2].

وهكذا قضى سعيد بحسن قيادته وثباته وتحريضه أصحابه على الاقتتال والثبات، على فتنة شوذب التي أثّرت في معنويات سكان جنوبي العراق، وأشاعت الفوضى والاضطراب فيه، وكبّدت الدولة خسائر فادحة بالأموال والرجال.

٣ ـ القضاء على فتنة يزيد بن المُهَلَّب:

حبسَ عمر بن عبد العزيز في سجن (حَلَب) يزيد بن المهلّب سنة مئة الهجريّة (٧١٨م)، فبقي يزيد في محبسه حتى بلغه مرض عمر[3].

---

(١) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح بلاد الرُّوم.

(٢) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٥٧٥ ـ ٥٧٨) وابن الأثير (٥/ ٦٨ ـ ٧٠) وانظر: العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٦٥).

(٣) الطبري (٦/ ٥٥٦ ـ ٥٥٨) وابن الأثير (٥/ ٤٨ ـ ٥٠)، وانظر كتاب: الوزراء والكتّاب (٣١).

ولما اشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز، خاف يزيد بن المُهلّب من يزيد بن عبد الملك[1]، فهرب يزيد بن المهلّب من محبسه سنة إحدى ومئة الهجرّية[2] (٧١٩م).

ووصل يزيد بن المهلّب إلى العراق، وسيطر على (البَصْرَة)، فأصبح الموقف في العراق خطيراً للغاية بالنسبة للدولة.

وأرسل يزيد بن عبد الملك إلى (الكوفة) شيئاً من المال، ومَنَّى أهلَها الزيادة، وجهّز أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك وابن أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك[3] في سبعين ألفاً من أهل الشّام وجزيرة ابن عمر، وقيل: كانوا ثمانين ألفاً، فساروا إلى العراق، وقَدِما (الكوفة) ونزلا (النُّخَيْلَة)[4].

وسار يزيد بن المهلّب من (البَصْرَة)، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلّب، وأتى (واسِطاً)[5] وأقام بها أياماً حتى خرجت سنة إحدى ومئة الهجرية[6].

ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجريّة (٧٢٠م) فسار يزيد بن المهلّب من

---

(١) كانت بين يزيد بن عبد الملك ويزيد بن المهلّب عداوة شخصيّة قبل أن يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، وقد توعّد كلّ منهما صاحبه، انظر ابن الأثير (٥/ ٥٧).

(٢) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٥٦٤ ـ ٥٦٥) وابن الأثير (٥/ ٥٧ ـ ٥٨) وابن خلدون (٣/ ١٦٦).

(٣) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح بلاد الرُّوم.

(٤) النخيلة: موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشّام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

(٥) واسط: مدنية كبيرة بناها الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ، وسميت: واسطاً، لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، انظر التفاصيل في: معجم البلدان (٨/ ٣٧٨ ـ ٣٨٧)، وقد أطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث، وهي محافظة الكوت على نهر دجلة في العراق الأوسط، إحياءً لذكرى مدينة واسط القديمة.

(٦) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٥٧٨ ـ ٥٨٩) وابن الأثير (٥/ ٧١ ـ ٧٧) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٩)، وانظر خلاصة الذهب المسبوك (٢٦).

(واسِط) واستخلف عليها ابنه معاوية، وجعل معه بيت المال والأسرى.

وسار يزيدُ بن المهلّب بجيشه على فم (النِّيْل) حتى نزل (العَقْرَ)، فعسكر هناك.

وأقبل مَسْلَمَة بن عبد الملك بجيشه سالكاً طريق نهر (الفُرات) إلى مدينة (الأَنْبار)، فعقد عليها جسراً وعبر.

وفي طريق مسلمة إلى (العَقْر)، في مرحلة مسير الاقتراب، عقد يزيد بن المهلّب لعبد الله بن حَيَّان العَبْدِيّ على أربعة آلاف، فعبروا نهر (الصَّرَاة)[1] لعرقلة مسيرة مَسْلَمَة، ولكنّ مسلمة وجه إليهم خيلًا من أهل الشّام عليهم سعيد بن عمرو الحَرَشِيّ. وكان لأهل الشّام كمين في منطقة نهر (الصَّراة)، فاقتتلوا وقُتِل عبد الله بن حيّان، ثم خرج كمين أهل الشّام على رجال عبد الله بن حَيّان، فانهزموا حتى أتوا يزيد بن المهلّب[2].

وعبر مَسْلَمَة (الصَّراة) بجيشه، بعد أن طهّر له الطريق سعيد، فعبر النهر وهو آمن مطمئن، لا يخشى مقاومة قوّات يزيد ولا محاولة عرقلة مسيرته، حتى اتّخذ مواضعه تجاه جيش يزيد، وخندق حول مواضعه خندقين[3].

وكان اجتماع يزيد بن المهلّب، ومَسْلَمَة بن عبد الملك ثمانية أيام، فلما كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صَفَر، بعث مسلمة من يحرق الجسر.

---

(١) الصّراة: المقصود هنا: صراة جاماسب، تستمدّ ماءها من الفرات، بنى عليها الحجّاج بن يوسف الثقفِيّ مدينة النيل التي بأرض بابل، انظر معجم البلدان (٥/ ٣٤٩).

(٢) العيون والحدائق (٧١).

(٣) العيون والحدائق (٧١).

وخرج مسلمة مُعَبِّاً أهل الشّام، ثم قرب من ابن المهلّب، فلما أُحرق الجسر وسطع دخانه، وقد أقبل الناس ونشب الاقتتال بين الجانبين، ورأى أصحاب ابن المهلّب الدُّخان، وقيل لهم: أُحرق الجسر، انهزموا!

وخرج يزيد بن المهلّب مع أصحابه المقرّبين في محاولة لرد المنهزمين من جيشه، ولكنه أخفق في محاولته.

واشتدّ الاقتتال بين الجانبين، فلما كان اليوم الذي قتل فيه يزيد بن المهلّب وهو يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة اثنتين ومئة الهجريّة، خرج محمد بن المهلّب على فرسه يقاتل، فضُرب على جبهته بعمود، فقال له يزيد: «مَن ضَرَبك؟»، قال: «لا أدري! إلّا أنه حين ضَرَبني قال: أنا الغلام الحَرَشِيّ»[1].

وكان يزيد يقاتل فجاءه مَن ينعي إليه أخاه حبيباً الذي قُتل في المعركة، فقال يزيد: «لا خير في العيش بعده! قد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة، وقد ازددت لها بغضاً! امضوا قُدُماً»، فعلموا أنه قد استقتل.

وباشر يزيد القتال حتى قُتل وقُتل معه محمد بن المهلّب[2].

لقد أحبط سعيد محاولة يزيد بن المهلّب عرقلة مسير الاقتراب لجيش مسلمة، فيسّر لمسلمة تنفيذ خطته المرسومة في القضاء على فتنة يزيد بن المهلّب، كما برز سعيد في هذه المعركة قائداً منتصراً، ومقاتلًا رهيباً، وبطلًا فارساً.

---

(١) العيون والحدائق (٧٢).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٩٠ ـ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/ ٧٧ ـ ٨٩) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ ـ ١٧٢)، وانظر المسعودي (٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ ـ ١٦) والمعارف (٤٠٠).

جهاده:

١ - في ميدان الصُغْد:

في سنة ثلاث ومئة الهجريّة (٧٢١م) عزل عمرُ بن هُبَيْرَة سعيدَ بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم الأموي عن (خُراسان) واستعمل سعيد بن عمرو الحَرَشِيّ[(١)] عليها.

ولما قدم سعيد الحَرَشِيّ (خُراسان)، وجد أعداء المسلمين قد تكالبوا عليهم وأثروا فيهم مادياً ومعنوياً، فجمع سعيد مَن حضر من المسلمين وخطبهم وحثّهم على الجهاد وقال: «إنكم لا تقاتلون بكثرة ولا بِعُدَّة، ولكن بنصر الله وعِزِّ الإسلام، فقالوا: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم... وأنشد:

فلستُ لعامرٍ إنْ لم تروْني ... أمامَ الخَيْل أطْعَنُ بالعوالي[(٢)]

فأضربُ هامَةَ الجبّارِ منهم ... بِعَضْبِ الحَدِّ حودِثَ بالصَّقالِ[(٣)]

فَما أنَا في الحروبِ بمُسْتَكِيْنٍ ... ولا أخشى مصاولة الرِّجال

أَبَى لي والدِي من كلِّ ذَمٍ ... وخالي في الحوادث خيرُ خال

إذا خَطَرَتْ أمامي حيّ كَعْبٍ ... وزافَتْ كالجبالِ بنو هِلال[(٤)]

ومن الواضح أنّ خطاب الحرشيّ كان لرفع المعنويات المنهارة لقوّات المسلمين في خُراسان، لأنهم نُكبوا نكبات متعاقبة، والعدو يحيط بهم ويهدِّدهم بقواته المتفوِّقة، فكان لا بد من أن يبدأ الحرشي عمله الإداري والقيادي في خُراسان، بمحاولة رفع المعنويات وتبديل أوضاعها المتردّية من حال إلى حال.

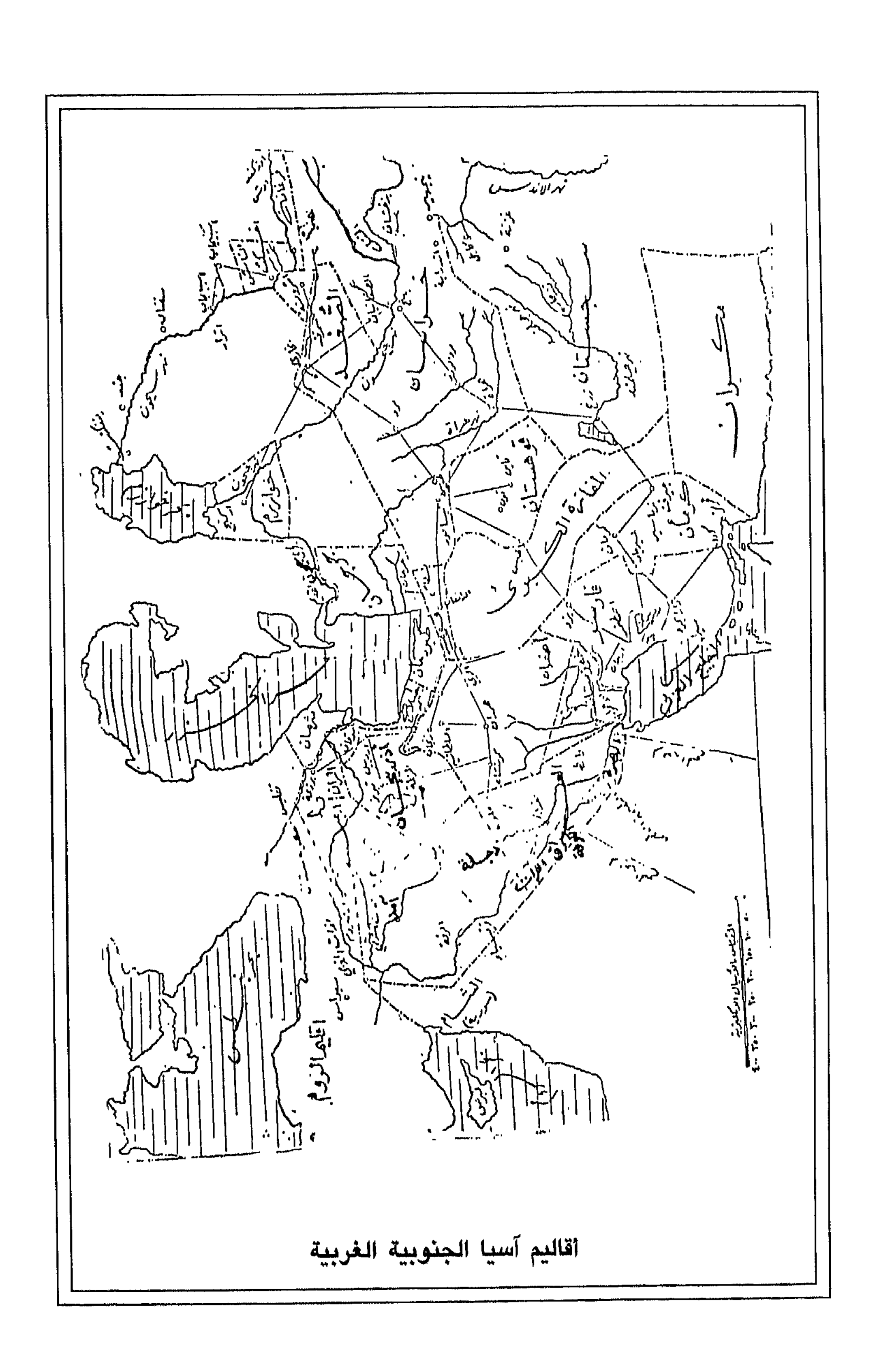
---

(١) الطبري (٦/ ٦٢٠) وابن الأثير (٥/ ١٠٣).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٠٤) نطعن.

(٣) حودث: جلي.

(٤) الطبري (٦/ ٦٢٠ - ٦٢١) وابن الأثير (٥/ ١٠٣ - ١٠٤).



أقاليم آسيا الجنوبية الغربية

ولعلّ الكلام المجرّد في مثل ذلك الموقف لا يجدي فتيلًا، لهذا بدأ بنفسه، فقرّر أمام السامعين أنه سيكون أمام المجاهدين، ولا يكتفي بإصدار الأوامر إليهم ثم يبقى في (الخَلْف) بدون أن يعاني شخصياً ما يعانيه المجاهدون قبل القتال وفي أثنائه وبعده، بل يقودهم من (الأمام)، ليكون أسوة حسنة لأصحابه جميعاً.

وكما رفع الحَرَشِي بقوله وعمله معنويات رجاله، فإنّ مَقْدَمه إلى (خُراسان) زعزع معنويات أعداء المسلمين، فلما سمع (الصُّغْدُ) بقدومه خافوا على أنفسهم، لأنهم كانوا قد أعانوا الترك أيام سلفه سعيد بن عبد العزيز الأُموي الملقّب بـ(خُذَينة)[1]، فاجتمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم، فقال لهم ملكهم: «لا تفعلوا! أقيموا، واحملوا الخَراج ما مضى، واضمنوا له خَراج ما يأتي وعمارةَ الأرض»، فقالوا: نخاف أن لا يرضى، ولا يقبل ذلك منّا، ولكنّا نأتي (خُجَنْدَة)، فنستجير ملكها، ونرسل إلى الأمير، فنسأله الصَّفح عمّا كان منّا، ونوثق له أنه لا يرى منّا أمراً يكره. فقال لهم الملك: «أنا رجلٌ منكم، والذي أشرتُ به عليكم خير لكم»[2].

ويبدو أنّ ملك الصُّغْد كان ضعيفاً، ولا رأي لمن لا يطاع، كما أنّ أثر الحَرَشي المعنوي فيهم كان بليغاً، فاضطرب أمرهم وولّوا الأدبار.

وخرج الصُّغْدُ إلى (خُجَنْدَة)، وأرسلوا إلى ملك (فَرْغانة) يسألونه أن يبسط حمايته عليهم وينزلهم مدينته، فأراد أن يحقّق لهم رغباتهم، ولكنّ أُمّهُ نصحته ألّا يقبلهم في مدينته، بل يخصّص لهم مكاناً في منطقة أخرى.

---

(١) خذينة: كلمة فارسية، وهي الدهقانة ربّة البيت، فقد كان سعيد خذينة ليناً سهلًا متنعّماً، فهو أشبه بربة البيت منه بالوالي القائد، انظر الطبري (٦/ ٦٠٥) وابن الأثير (٥/ ٩٠).

(٢) الطبري (٦/ ٦٢١) وابن الأثير (٥/ ١٠٤).

وأرسل الملك إليهم أن يختاروا منطقة أخرى في بلاده يعيشون فيها قائلًا: «سمّوا رستاقاً تكونون فيه أفرّغه لكم، وأجّلوني أربعين يوماً»، وقيل: «أجّلوني عشرين يوماً»، فاختاروا شِعْب عصام بن عبد الله الباهِلِيّ، وكان قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهلي[1] قد خصّص هذا الشِّعْب لقريبه هذا وجماعته.

ووافق الملك على اختيار هذا الموضع من الصُّغْد، ولكنه اشترط عليهم: «ليس لكم عليّ عقد وجوار حتى تدخلوه، وإن أتتكم العربُ قبل أن تدخلوه، لم أمنعكم»، فرضوا بهذا الشّرط، ففرّغ لهم الشِّعْب[2].

وسار الحُرَشِيَ سنة أربع ومئة الهجريّة (٧٢٢م)، وقطع النَّهر (جَيْحُون)، ونزل في (قصر الرِّيح)[3] على فرسخين من (الدَّبُوسِيَّة)[4]، ثم أمر بالرَّحيل قبل أن يجتمع إليه جنده، فأشار عليه أحد رجاله بالترّيث ليجتمع إليه جنده أولًا، ثم يرحل إلى هدفه بعد ذلك[5].

ومن الواضح أنه كان يريد الإسراع في تَنَقُّله، ليصل إلى هدفه بسرعة مناسبة، لأنه كان لعامل الوقت أثر في ضرب العدو قبل أن يرحل من (خُجَنْدَة)، لذلك أمر بالرحيل قبل إكمال حشد جيشه، ولكنه آثر التريُّث بالرحيل عملًا بنصيحة أحد رجاله، لأنّ تريّثه أسلم عاقبةً من تسرّعه.

وأتاه ابن عمّ ملك (فَرْغَانة)، وأخبره أنّ الصُّغْد في (خُجَنْدَة)، وأشار عليه بأن يعاجلهم قبل أن يصلوا إلى الشِّعب، فليس لهم جوار على ملك (فرغانة) قبل أن يمضي الأجل وهو أربعون يوماً.

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي وفي كتابنا هذا.
(٢) الطبري (٦/ ٦٢١ ـ ٦٢٢) وابن الأثير (٥/ ١٠٤ ـ ١٠٥).
(٣) قصر الريح: قرية بنواحي نيسابور، انظر معجم البلدان (٧/ ١٠١).
(٤) الدبوسيّة: بليد من أعمال الصُّغد من وراء النهر، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٣).
(٥) الطبري (٧/ ٧) وابن الأثير (٥/ ١٠٧).

ووجّه الحَرَشِيّ مع ابن عم ملك فَرْغانة عبد الرحمن القُشَيْرِيّ وزياد بن عبد الرحمن في جماعة من جيشه، ولكنه ندم بعد ما فصلوا وقال: «جاءني عِلْجٌ لا أعلم أصدق أم كذب، فغرّرت بجند من المسلمين!»، فارتحل في أثرهم على عَجَل، حتى نزل (أُشْروسَنَة)[1]، فصالحهم بشيءٍ يسير.

واستمرّ مسرعاً في مسيره باتجاه (خُجَنْدَة) لا يلوي على شيءٍ حتى لحق القُشَيْرِيّ بعد ثلاثة أيام، وحينذاك فقط اطمأنّتْ نفسه على مصير رجاله.

ولما انتهى إلى (خُجَنْدَة)، قال له بعض أصحابه: «ما ترى؟» قال: «أرى المعاجلة»، قال: «لا أرى ذلك! إنْ جُرح رجل فإلى أين يرجع؟! أو قُتل قتيل فإلى مَنْ يُحْمَل؟ ولكنني أرى النزول والتأني والاستعداد للحرب».

ونزل الحَرَشِيّ، وأخذ في التأهّب والاستعداد، فلم يخرج أحد من العدو، ولجؤوا إلى داخل المدينة.

وحمل رجل من المسلمين، فضرب باب (خُجَنْدَة) بعمود، ففُتح الباب، وكان الصُّغد قد حفروا في ربضهم وراء الباب الخارج خندقاً وغطّوه بقصب وتراب مكيدةً، وأرادوا إذا التقوا بالمسلمين وانهزموا كانوا قد عرفوا الطريق، يصعب على المسلمين معرفتها فيسقطون في الخندق. فلما خرج الصُّغد وقاتلوا المسلمين، انهزموا، فأخطأهم الطريق وسقطوا في الخندق، فأخرج المسلمون منهم أربعين رجلًا.

وحصرهم الحَرَشِيّ، ونصب عليهم المجانيق، فأرسلوا إلى ملك

---

(١) أشروسنة: بلدة كبيرة بما وراء النهر من برد الهَيَاطِلة بين سيحون وسمرقند، وبينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخاً، انظر التفاصيل في: معجم البلدان (١/٢٥٦ - ٢٥٧).

(فرغانة): إنَّك غدرت بنا! وسألوه أن ينصرهم، فقال: «قد أتوكم قبل انقضاء الأجل، ولستم في جواري».

وطلب الصُّغد الصلحَ وسألوا الأمان، وأن يردّوهم إلى بلادهم الأصليّة، فاشترط عليهم الحَرَشِيّ: أن يردّوا ما بأيديهم من نساء العرب وذراريهم، وأن يؤدوا ما كسروا من الخَراج، ولا يغتالوا أحداً، ولا يتخلّف منهم بـ (خُجَنْدَة) أحدٌ، فإن أحدثوا حدثاً حلّت دماؤهم.

وخرج إلى المسلمين رجالات الصُّغْد وتجّارهم، ونزل أهل (خُجَنْدَة) على حالهم، وترك عظماء الصُّغد على الجند المسلمين الذين سبقت لهم معرفة بهم.

وبلغ الحَرَشِيّ أنّ الصُّغد قتلوا امرأة مسلمة ممن كان في أيديهم، فقال: «بلغني أنّ أحدكم قتل امرأة ودفنها»، فجحد الذي اشتُبه به، فتعمّق في التحقيق فإذا الخبر صحيح، فدعا بالقاتل إلى خيمته فقتله.

ولما سمع كارزنج أحد عظماء الصُّغد الذي كان في معسكر المسلمين بقتل الذي قتل المرأة العربية الأسيرة، خاف أن يُقتل كما قُتل أخ له من قَبْل، فأرسل إلى ابن أخيه ليأتيه بسراويل، وكان قد قال لابن أخيه: «إذا طلبتُ سراويل، فاعلمْ أنه القتل»، فبعث به إليه، وخرج يعترض الناس، فقتل عدداً منهم، مما أدىّ إلى تضعضع العسكر الذين لقوا منه شرّاً، فانتهى إلى مَن قتله وأنقذ المسلمين من شرِّه.

وقتل الصُّغْدُ أسرى عندهم من المسلمين يقدّر عددهم بمئة وخمسين رجلًا، فأُخبر الحَرَشِيّ بذلك، فسأل فرأى الخبر صحيحاً، فأمر بقتلهم بعد عزل التجّار عنهم لأنهم غير محاربين، فقاتلهم الصُّغْد بالخشب لأنهم كانوا بلا سلاح، فقُتلوا من آخرهم، وكانوا ثلاثة آلاف، وقيل: سبعة آلاف، واصطفى أموال الصُّغد وذراريهم، وأخذ منها ما أعجبه.

وكتب الحَرَشِيّ إلى يزيد بن عبد الملك مباشرة ولم يكتب إلى عمر بن هُبَيْرَة، فكان هذا مما أوغر صدره عليه.

وسرّح الحرشِيّ سليمان بن أبي السَّرِيّ مولى بني عُوافة بن سَعْد بن زَيْد مناة بن تَميم[1] إلى حصن يحيط به وادي الصُّغد إلّا من وجه واحد، فسيّر سليمان على مقدمته المُسَيّب بن بِشْر الرياحِيّ، فتلقّوه على فرسخ من الحصن، فهزمهم حتى ردّهم إلى حصنهم، فحصرهم في داخل الحصن، فطلب قائد الحصن أن ينزل على حكم الحَرَشِيّ، فسيّره سليمان إليه، فأكرمه. وطلب أهل الحصن الصلح على ألّا يتعرّض لنسائهم وذراريهم ويُسْلِمون القلعة، فبعث مَنْ قبضه، وباعوه وقسموه.

وسار الحَرَشِيّ إلى (كَشّ)، فصالحه أهلها على عشرة آلاف رأس، وقيل: ستّة آلاف رأس: كل رأس منهم يعطي الجزية للمسلمين.

وسار إلى (زَرَنْج)[2]، فوافاه كتاب ابن هُبَيْرَة بإطلاق سراح قائد الحصن الذي طلب أن ينزل على حكم الحَرَشِيّ، ويدعى: ديوشتي، فقتله الحرشِيّ وصلبه!

واستعمل الحَرَشِيْ سليمانَ بن أبي السّريّ على (كَشّ) و(نَسَف)[3] حربها وخراجها، وكانت (خُزَار)[4] منيعة حصينة، فبعث المسَرْبَل بن الخِرِّيث النّاجي، وكان صديقاً لملكها الذي يدعى: سُبُغْرِي، فأخبر الملكَ بما صنع الحَرَشيّ بأهل (خُجَنْدَة) وخوّفه، فقال الملك: «فما تَرى!»، قال: «أن تنزل بأمان»، قال: «فما أصنع بَمن لحق بي؟!»، قال: «تجعلهم في

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٢١٥).

(٢) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٨٥).

(٣) نسف: مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٨٦).

(٤) خزار: موضع بقرب نسف.

أمانك»، فآمنوه وبلاده، ورجع الحَرَشِيّ إلى خُراسان ومعه سُبُغْري، فقُتل سبغري وصُلب ومعه الأمان[1].

ولا ينكر أنّ الترك والصُّغد نقضوا عدّة مرات دون مسوِّغ، وكبّدوا الدولة الإسلامية خسائر فادحة في الأرواح والأموال والجهد، ومنعوا ما عليهم من خراج وجِزْية، ولكنّ ذلك لا يسوِّغ غدر الحَرَشِيّ بمن أعطاهم الأمان، ولا ينكث بالعهود والمواثيق التي قطعها على نفسه، لأنّ من أوّل نتائج الغدر زعزعة الثقة بين الحكّام والمحكومين، إضافة إلى أنّ الغدر يناقض تعاليم الإسلام في القتال.

ولكن، لعلّ له عذراً فيما فعل، وسيرد تفصيل ذلك في سيرته إنساناً وقائداً.

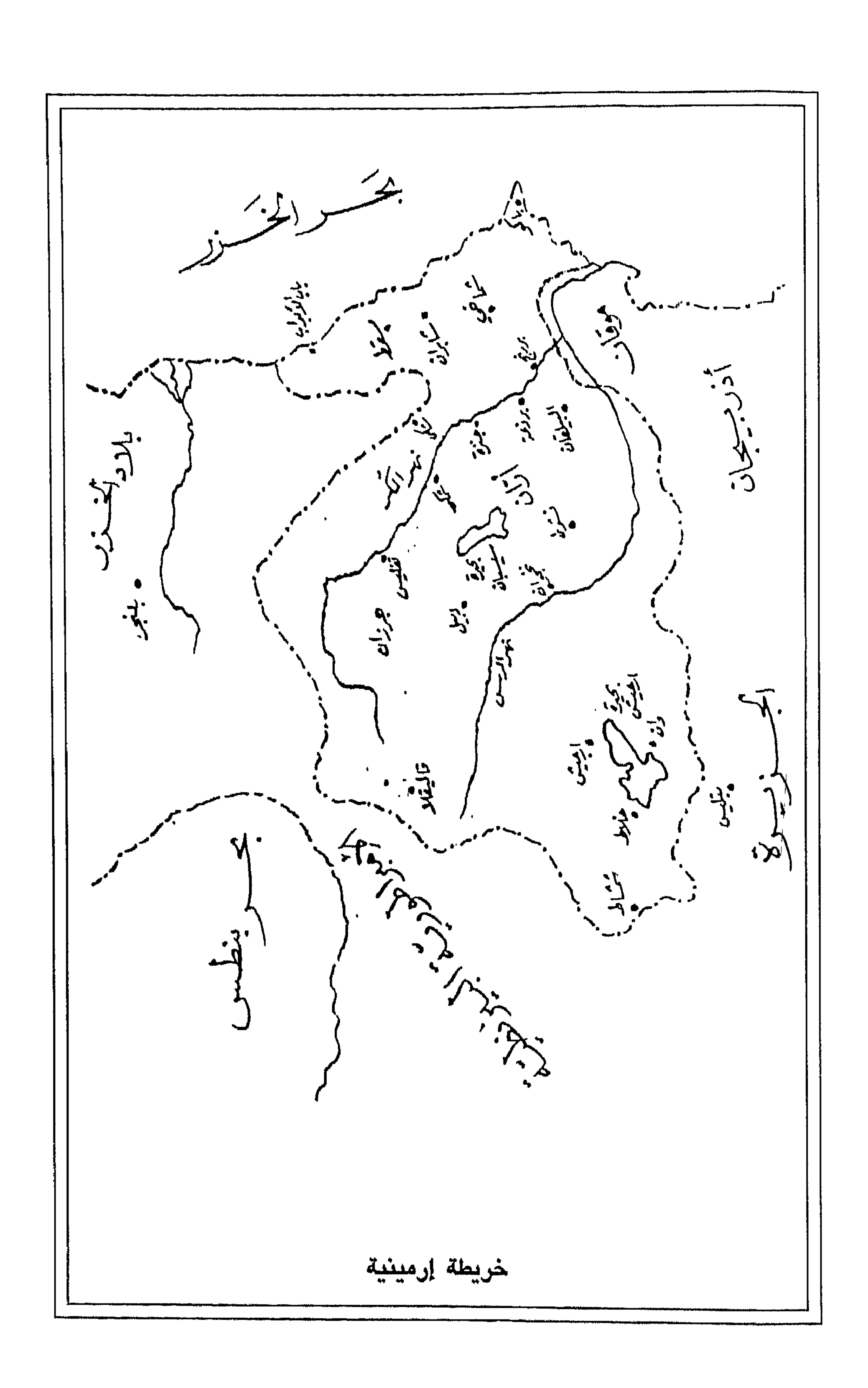
٢ ـ في ميدان إرْمِينِيَة:

في سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م) قُتِل الجرَّاحُ بن عبد الله الحَكَمِي في (إرمينية).

ولما بلغ هُشام بن عبد الملك خبر استشهاد الجرَّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ، دعا سعيداً الحَرَشِيّ، فقال له: «بلغني أنَّ الجَرّاح قد انحاز عن المشركين!»، قال: «كلّا يا أمير المؤمنين! الجرّاح أعرف بالله من أن ينهزم، ولكنه قُتِل». قال: «فما رأيك؟»، قال: «تبعثني على أربعين دابّة من دوابّ البريد، ثمّ تبعث إليّ كلّ يوم أربعين رجلًا، ثمّ اكتبْ إلى أُمراء الأجناد يوافوني»، ففعل ذلك هُشام[2]، وولّاه مقدمة مَسْلمة بن عبد الملك[3] الذي استعمله على إرمينية وأَذْرَبِيْجان[4].

---

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٧/ ٧ ـ ١٢) وابن الأثير (٥/ ١٠٧ ـ ١١٠).
(٢) ابن الأثير (٥/ ١٥٩ ـ ١٦٠) وانظر الطبري (٧/ ٧٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٥).
(٣) فتوح البلدان (٢٩٠).
(٤) فتوح البلدان (٢٩٠).



خريطة إرمينية

وسار الحَرَشِيّ، فكان لا يمرّ بمدينة إلّا ويستنهض أهلها، فيجيبه مَنْ يريد الجهاد.

ووصل إلى مدينة (أَرْزَن)[1]، فلقيه جماعة من أصحاب الجرّاح وبكوا وبكى لبكائهم، ففرّق بينهم نفقةً وردّهم معه.

ووصل على رأس المقدمة إلى (خِلاط)[2] وهي ممتنعة عليه، فحصرها وفتحها وقسم غنائمها في أصحابه.

وسار عن (خِلاط)، وفتح الحصون والقِلاع شيئاً بعد شيء، إلى أن وصل إلى (بَرْذَعَة)[3]، فنزلها.

وكان ابن خاقان يومئذ بأذربيجان يُغير وينهب ويسبي ويقتل وهو محاصر مدينة (وَرْثَان)[4]، فخاف الحَرَشِيّ أن يملكها، فأرسل بعض أصحابه إلى أهل (وَرْثَان) سّراً يعرِّفهم بوصولهم ويأمرهم بالصبر؛ فسار الرسول، ولقيه بعض الخَزَر، فأخذوه وسألوه عن حاله، فأخبرهم وصدقهم. وقال الخَزَر له: إن فعلتَ ما نأمرك به أحسنّا إليك وأطلقناك، وإلّا قتلناك. قال: «فما الذي تريدون؟!»، قالوا: تقول لأهل (وَرْثَان) إنكم ليس لكم مدد، ولا مَنْ يكشف ما بكم، وتأمرهم بتسليم البلد إلينا.... فأجابهم إلى ذلك.

وقارب الرجلُ المسلمُ المدينةَ، فوقف بحيث يسمع أهلها كلامه، والخَزَر يترصدونه ويسمعون كلامه، فقال لأهل (وَرْثَان): «أتعرفوني؟»،

---

(١) أَرزن: مدينة مشهورة قرب خِلاط ولها قلعة حصينة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٩٠ - ١٩١).

(٢) خلاط: مدينة مشهورة، وهي قصبة إرمينية الرابعة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٥٣).

(٣) برذعة: مدينة كبيرة جداً في إرمينية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١١٩ - ١٢٢).

(٤) ورثان: بلد هو آخر حدود أذربيجان، بينه وبين وادي نهر (الرسّ) فرسخان، وبين ورثان وبَيْلَقَان سبعة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤١٣ - ٤١٤).

قالوا: نعم، أنت فلان! قال: «فإنّ الحَرَشِيّ قد وصل إلى مكان كذا في عساكر كثيرة، وهو يأمركم بحفظ البلد والصّبر، وفي هذين اليومين يصل إليكم»، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل.

وقتلت الخَزَر ذلك الرَّجل، ثم رحلوا عن مدينة (وَرْثَان)، فوصلها الحرشيّ في العساكر وليس عندها أحد.

وارتحل الحَرَشِيّ يطلب الخَزَر إلى (أَرْدَبِيْل)[1]، فسار الخزر عنها.

ونزل الحَرَشِيّ (باجَرْوَان)[2]، فجاءه مَن يخبره بأنّ الخزر في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من أهل بيت من المسلمين أسارى أو سبايا، وقد نزلوا على بُعْد أربعة فراسخ في مكانه الذي هو فيه.

وسار الحَرَشِيّ ليلًا، فوافاهم آخر الليل وهم نيام، ففرّق أصحابه في أربع جهات، وكبس الخزرَ مع الفجر، فوضع المسلمون فيهم السّيفَ، فما بزغت الشمس حتى أبادهم المسلمون. وأطلق الحَرَشِيّ مَن كان مع الخزر من المسلمين، وأخذهم معه إلى (باجَرْوان).

ولم يكد يستقرّ به المقام في (باجَرْوَان) إلّا وأتاه مَن يخبره بأن الخزر ومعهم أموال المسلمين وحُرَم الجرَّاح وأولاده في مكان قريب.

وأسرع الحَرَشِيّ إلى هدفه الجديد، فلم يشعر الخزر إلّا والمسلمون معهم، فوضعوا فيهم السَّيف وقَتَلوا كيف شاؤوا، ولم يفلت من الخَزَر إلّا الشَّريد، واستنقذوا مَنْ معهم من المسلمين والمسلمات، وغنموا أموالهم، وأخذوا أولاد الجرّاح وحُرَمه وأكرموهم وأحسنوا إليهم، وحملوا الجميع إلى (باجَرْوان).

---

(١) أردبيل: من أشهر مدن أذربيجان، وكانت قبل الفتح الإسلامي قصبة أذربيجان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٨٢ ـ ١٨٤).

(٢) باجروان: مدينة من نواحي (باب الأبواب) قرب مدينة (شروان)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٤).

وبلغ ما فعله الحَرَشِيُّ بعساكر الخَزَر ابنَ ملكهم، فوبّخ عساكره وذمّهم ونسبهم إلى العجز والوَهَن، فحرّض بعضهم بعضاً، وأشاروا عليه بجمع أصحابه والعود إلى قتال المسلمين.

وجمع ابن ملك الخزر أصحابه من نواحي أذربيجان، فاجتمع معه عساكر كثيرة.

وسار الحَرَشي إلى جموع الخزر، فالتقى المسلمون بالخزر في أرض (بَرْزَنْد)[1]، فنشب القتال بين الجانبين بشدّة وعنف. وانحاز المسلمون وقتاً يسيراً، وتصدّعت أركان صفوفهم، ولكنّ الحَرَشِيّ حرّضهم وأمرهم بالصبر، فعادوا إلى القتال وصدقوهم الحملة.

واستغاث مَنْ مع الخَزَر من أسارى المسلمين، ونادوا بالتكبير والتهليل والدُّعاء، فتصاعد استقتال المسلمين، ولم يبق أحد إلّا وبكى رحمة للأسرى.

واشتدّت حملة المسلمين على الخَزَر، فولّوا الأدبار منهزمين، فطاردهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر (الرَّسّ)[2]، ثم عادوا عنهم بعد أن أطلقوا أسرى المسلمين وسباياهم، وغنموا أموال الخزر، ورجعوا إلى (باجَرْوان).

وجمع ابن ملك الخزر مَن لحق به من عساكره، وعاد بهم إلى الحَرَشِيّ، فنزل على نهر (البَيْلَقَان)[3]، فالتقوا هناك.

---

(١) برزند: بلدة من نواحي تفليس من أعمال جُرْزان من إرمينية الأولى، بينها وبين أردبيل خمسة عشر فرسخاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٢٤).

(٢) نهر الرَّسّ: نهر مخرجه من قاليقلا ويمرّ بأرّان ثم يمرّ بورثان بالمجمع فيجتمع هو ونهر الكُرّ وبينهما مدينة البيلقان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

(٣) البيلقان: مدينة قرب (باب الأبواب) تعدّ من إرمينية الأولى قريبة من شروان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١).

وحمل المسلمون على الخزر حملة صادقة، في منطقة نهر (البَيْلَقان)، فتضعضعت صفوف الخزر. وتتابعت حملات المسلمين، فصَبر الخزر صبراً عظيماً، ثم كانت الهزيمة عليهم، فولّوا الأدبار منهزمين، وكان مَن غرق منهم في النهر أكثر ممن قُتِل.

وجمع الحَرَشِيّ الغنائم، وعاد إلى (باجَرْوَان) فقسمها[1].

وقدم مَسْلَمَة بن عبد الملك إرمينية، والخزر قد انسحبوا إلى (مِيمذ)[2]، والحَرَشِيّ يتهيّأ لقتالهم، فأتاه كتاب مَسْلَمَة يلومه على قتاله الخزر قبل قدومه، ويعلمه أنه قد عزله وولّى قيادة عسكره غيره. وسلّم سعيدُ الحَرَشِيّ القيادة، فأخذه رسول مَسْلَمَة وقيّده وحبسه في سجن (بَرْذَعَة)، وكتب مَسْلَمَة إلى هُشام بن عبد الملك في (دمشق) بما حدث، فكتب هشام إلى مَسَلَمَة:

أتتركهم بِمِيْمذ قد تراهم وتطلبهم بمنقطع التراب!!

وأمر هشام بإطلاق سراح سعيد الحَرَشِيّ من السجن[3]، فعاد إلى دمشق[4].

لقد كان واجب الحَرَشِيّ في هذه الغزوة واضحاً جليّاً: استنقاذ أسرى المسلمين وسباياهم، واستعادة فتح المناطق التي احتلّها الخزر بعد استشهاد الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ[5]، وتلقين الخزر درساً لا ينسونه أبداً لنقضهم العهد وأسر كثير من المسلمين وسبي ذرّيتهم وقتل كثير منهم.

وكان الحَرَشِيّ موفّقاً غاية التوفيق في أداء واجبه على أحسن وجه،

---

(١) ابن الأثير (٥/١٥٩ ـ ١٦٢).
(٢) ميمذ: مدينة بأرّان في إرمينية الأولى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٢٧).
(٣) فتوح البلدان (٢٩٠).
(٤) ابن الأثير (٥/١٦٢).
(٥) ابن الأثير (٥/١٦٢).

فانطلق على دواب البريد ـ وهي أسرع واسطة للنقل في حينه ـ بسرعة خاطفة، واستهدف إنقاذ أسرى المسلمين وسباياهم أولًا، فكان يستنقذهم بالقتال فوراً بعد معرفة أماكنهم، ومع ذلك لم يقصِّر في استعادة فتح المناطق المحتّلة من الخزر، وتلقينهم دروساً قاسية في القتال كبّدتهم خسائر فادحة في الأموال والأنفس والمعنويات، وألحقت بهم هزائم شنيعة.

فما كان ينبغي لمَسْلَمة أن يلوم الحَرَشِيّ ويقيِّده ويحبسه ويعزله عن قيادته لأنه قاتل الخزر قبل قدومه، فواجب الحَرَشِيّ أن يستنقذ الأسرى والسبايا بسرعة قبل أن يُقضى عليهم وينقذهم من الذل والهوان الذي لم يعتاده المسلمون وقتذاك، ويعيدهم إلى دار الإسلام أحراراً، وكان ينبغي لمسلمة أن يشكر الحَرَشِيّ كما فعل هشام[1].

ومثل هذا الواجب، يقتضي السرعة الخاطفة والاندفاع الجريء، لا التريث والانتظار.

لقد كانت هذه الغزوة من أروع أعمال الحَرَشِيّ القتاليّة، فقد جاء إرمينية والمسلمون فيها أسرى وسبايا، فأعاد إليهم حريتهم وكرامتهم. وجاءها وهي تحت سيطرة الخزر، فاستعاد فتحها؛ وكان الميزان العسكري إلى جانب أعداء المسلمين، فجعل هذا الميزان إلى جانب المسلمين، وكان الخزر هم الذين يقتلون المسلمين ويأسرونهم، فأصبح المسلمون هم الذين يقتلون الخزر ويأسرونهم، وكان المسلمون يخافون الخزر، فأصبح الخزر يخافون المسلمين، وكانت مدن المسلمين محتلة أو محاصَرة، فأصبحت مدن الخزر مفتوحة أو محاصَرَة.

لقد قلب الحَرَشِيّ خلال وقتٍ قصير جداً الموازين رأساً على عقب في إرمينية لصالح المسلمين.

---

(١) ابن الأثير (٥/١٦٢).

الإنسان:

كتبَ عمرُ بن هُبَيْرَة الذي كان على العراق إلى يزيد بن عبد الملك، بأسماء مَنْ أبلى يوم (العَقْر) ولم يذكر سعيداً الحَرَشِيّ، فقال يزيد: «لِمَ لم يذكر الحرشِيّ؟!»، فكتب إلى ابن هُبَيْرَة: «وَلِّ الحَرَشِيَّ خُراسان»، فولّاه[1].

وكان موقف الحَرَشِيّ قبل يوم (العَقْر) قائداً مرؤوساً، وفي أثناء المعركة موقفاً بطولياً مشهوداً، لم يخف عن الخليفة يزيد بن عبد الملك وهو في عاصمته دمشق، ولا يمكن أن يخفى على أحد من الحكّام والمحكومين ومنهم ابن هُبَيْرَة، ولكنه لم يذكر اسمه في قائمة الشرف لعداوة ابن هُبَيْرة إياه، فلما قرأ يزيد أسماء أصحاب البلاء تساءل: «أين الحَرَشِيّ؟!... فوالله ما كان الفتح إلّا على يديه، وما قتل المرتدين غيره»، ويريد بالمرتدين الذين ثاروا على الدولة بقيادة يزيد بن المُهَلَّب، فكتب إلى ابن هُبَيْرَة: «أن ولِّهِ خُراسان»، فولّاه ثغرها، وذلك في سنة ثلاث ومئة الهجرية[2].

وكان الحَرَشِيّ عند حسن ظنِّ يزيد بن عبد الملك به، فقد أعاد الأمن إلى ربوع خُراسان، وقتل الذين نقضوا عن آخرهم وسبى ذراريهم[3].

فلماذا كان ابن هُبَيْرة يناصب العداء للحرشِيّ؟

لقد بنى الحَرَشِيّ سمعته الطيّبة على كفاياته الشخصيّة لا على حسبه ونسبه، فقد كان في أول أيامه فقيراً مُعْدَماً[4]، وإنما تقدّم بإخلاصه وشجاعته ودينه[5]، فكان يعمل بإبداعه الذاتي خضوعاً للمصلحة العامة دون

---

(١) الطبري (٦/ ٦٢٠) وابن الأثير (٥/ ١٠٣).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥).
(٣) تاريخ خليفة بن خيّاط (١/ ٣٣٦).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٦٤).
(٥) ابن الأثير (٥/ ١٠٨).

أن ينتظر توجيهات السلطة التي يرتبط بها وينفِّذ أوامرها ملتزماً بتلك التوجيهات والأوامر التزاماً صارماً، فقد لا تصله توجيهات السلطة التي يرتبط بها مباشرة، أو قد تأتي متأخِّرة فيذهب نفعها وتفقد أهميتها، مما يلحق الضرر بالمصلحة العامة دون مسوِّغ.

كما أنه (يرى) الأحداث بعينيه، فهو (حاضر) في جوِّ الأحداث، بينما السلطة التي ترتبط بها مباشرة (تسمع) عن تلك الأحداث بأذنيها، فهي (غائبة) عن جوِّ الأحداث، وليس مَنْ (رأى) كمن (سمع)، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب.

والولاة والقادة صنفان في كلِّ زمان ومكان: صنف (متّبِع) ينتظر الأوامر فينفِّذها حرفياً والتوجيهات فيطبِّقها نصّاً، وأغلب هذا الصِّنف تنقصه الكفاية أو لا يحبُّ تحمّل المسؤولية ولا يثق بنفسه ثقة كاملة، فهو موظّف حسب. وصنف (مُبْتَدِع) لا ينتظر الأوامر والتوجيهات، لأنه أعرف بالموقف الرّاهن من غيره، وأغلب هذا الصنف يتميَّز بالكفاية العالية، ويحبّ تحمل المسؤوليّة، ويثق بنفسه ثقة كاملة.

والصنف الأول يريح صاحب السُّلطان ويستريح إليه في أوقات الدّعة والاطمئنان، ولكنه يتملّص من كلِّ مسؤولية في أوقات الخطر والملمات.

والصنف الثاني لا يستريح إليه صاحب السُّلطان في أوقات الدّعة والهدوء، ولكنه يلجأ إليه في أوقات الحروب والمدلهمّات.

وقد كان الحَرَشِي في الصنف الثاني، لذلك أثبت وجوده في أيام الشِدَّة والمصائب، وغاب عن الأنظار في أيام اللّهو واللّعب، وربما قضى ردحاً غير قليل من تلك الأيام في غياهب السجون.

والدليل على بغض ابن هُبَيْرَة للَحَرَشِيّ، أنه بادر بعزله عن (خُراسان) سنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢م)، بعد أن استقرّت أمور ابن هُبيرة في العراق من جهة، وبعد أن أعاد الحَرَشِيّ الأمن والسّلام إلى (خُراسان) واستعاد فتحها من جديد.

وكان السبب في عزل الحَرَشِيّ عن (خُراسان) بعد أن مكث فيها سنة أو بعض سنة في حرب داميّة متنقلًا في الجبال والوهاد، معرِّضاً نفسه لأعظم الأخطار، لا يُريح ولا يستريح ولا ينام ولا يُنيم، فلما انتصر على الأعداء ووطّد أكناف البلاد، وآن له أن يستريح قليلًا ويأخذ لنفسه إغفاءة قصيرة، عزله ابن هُبَيْرَة ليغلق نافذة يأتيه الريح المزعج من منافذها، ليولي رجلًا يريحه ولا يزعجه ويطيعه ولا يعصيه.

وكان السبب في عزله، ما كان كتبه ابن هُبَيْرة إلى الحَرَشِي بإِطلاق سراح أحد قادة الصُّغد الذي يدعي (ديوشتي)، فقتله ولم ينفِّذ أمر ابن هُبَيْرَة. كما كان يستخفّ بابن هُبَيْرَة ويذكره بأبي المُثَنّى ولا يقول الأمير، فيقول: قال أبو المثنى، وفعل أبو المثنّى، فبلغ ذلك ابن هُبَيْرَة، فأرسل إليه جميل بن عمْران ليعلم حال الحَرَشِيّ، وأظهر أنه ينظر في الدواوين، فلما قَدِم جميلٌ على الحَرَشِيّ قال: «كيف أبو المثنّى؟»، فقيل له: إنّ جميلًا لم يَقْدِم إلّا ليعلم علمك! ومرض جميل مرضاً شديداً وسقط شعرُه[1]. وعولج جميل حتى تماثل للشفاء، فغادر (خُراسان) عائداً إلى ابن هُبَيْرة في العراق، فقال لابن هُبَيْرَة: «الأمر أعظم مما بلغك... ما يرى الحَرَشِيّ إلّا أنك عامل له»، فغضب وعزله ونفَخ في بطنه النّمل[2] وعذّبه[3].

ومن أسباب عزله، أنّ ابن هُبَيْرَة وجّه مَعْقِل بن عُرْوَة إلى (هَراة)[4] إما عاملًا، وإما في غير ذلك من أُموره، فنزل قبل أن يمرّ على الحَرَشِيّ. وكتب الحرشيّ إلى عامله على (هَراة) يأمره أن يحمل مَعْقِلًا إليه، فقال له

---

(١) قيل: إنّ الحرشيّ بعث لجميل بطيخة مسمومة، فأكلها ومرض وسقط شعره، انظر ابن الأثير (٥/ ١١٥)، ولا يمكن أن تصدِّق هذه التهمة، فقد كان الحرشيّ متديناً، لا يقدم على مثل هذا الأمر وهو أرفع من ذلك.

(٢) النمل هنا: بثور صغار مع ورم صغير.

(٣) الطبري (٧/ ١٥ ـ ١٧) وابن الأثير (٥/ ١١٥).

(٤) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خُراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٥١ ـ ٤٥٢)، وهي من أهم مدن أفغانستان حالياً.

الحَرَشِيّ: «ما منعك من إتياني قبل أن تأتِيَ هَراة؟»، فقال: «أنا عامل لابن هُبَيْرَة، ولاني كما ولاّك»، فضربه مئتي جلدة وحَلَّقه[1]. وكتب ابن هُبَيْرة إلى الحَرَشِيّ يُلَحِّنه، فقال: «بل هو ابن اللَّخناء»[2].

ولا شكّ في أنّ للحَرَشِيّ أسبابه الوجيهة التي جعلته يقف مثل هذه المواقف من ابن هُبيرة، فلم يكن الرجل غِرّاً ولا متّهماً في عقله، ليقف مثل هذه المواقف الجريئة دون مسوِّغ.

وقد سكت المؤرخون عن أسباب الحُرَشِيّ، ولكن يستطيع كلّ مَنْ يدرس شخصيته أن يبوح بتلك الأسباب.

ويبدو أنّ الحَرَشِي قتل أحد قادة الصُّغد بعد أن أكرمه وأحسن وفادته، لأنّه اكتشف أنّ هذا القائد الصُّغديّ قد لوّث يديه بدماء المسلمين واعتدى على حرماتهم، ومن المعروف أنّ الحَرَشِيّ أجرى تحقيقاً شاملًا دقيقاً لمعرفة الذين اعتدوا على أرواح المسلمين وأعراضهم، فنال المجرمون من الصُّغد ما يستحقّونه من عقاب.

ومن المحتمل أن يكون هذا القائد الصُّغدي أحد أولئك المجرمين، فقتله الحرشِيّ مجرماً لا سياسياً أو أسيراً.

أما أنّ الحرَشيّ يذكر ابن هُبَيْرَة بأبي المثنّى ولا يقول الأمير، فهو يرى نفسه نداً لابن هُبَيْرة، فقد ولّاه الخليفة على خُراسان ولم يولّه ابن هُبَيْرة، ونال هذا المنصب بجهده وعرقه وجهاده لا بوسائل أخرى.

أما عقاب الحَرَشِيّ لمعَقِل فكان شديداً حقّاً، ولكن لم يكن هذا العقاب بلا مسوِّغ، وبخاصة أنّ القلاقل والفتن في خُراسان، كانت تتطلّب استعادة هيبة الحكم فيها قوياً مُهَاباً، ولا يتمّ ذلك إلّا بفرض السيطرة الكاملة.

---

(١) حلّقه: وسمه بحلقة في فخذه.

(٢) الطبري (١٦/٧).

وأحسب أنّ الحَرَشِي كان منطقياً مع نفسه حصيفاً غير متهوِّر، وكانت له أسبابه المنطقيّة في مخالفاته، ولكّن السلطات العليا لا ترضى من السلطات المرؤوسة غير الطّاعة العمياء التي كان الحَرَشِيّ يعتبرها نوعاً من النفاق والاستخذاء.

وقد كان لسلفه على خُراسان عمال اختارهم ليعاونوه في تحمل أعباء مهمّته، فلما قدم الحرشيّ خُراسان لم يعرض لعمّال سلفه[1]، بل تركهم على ما كانوا عليه، مما يدلّ على أنه لم يأت منتقماً ولا كان من الذين يعملون لمصلحتهم الذاتيّة، بل كان رجل دولة يعمل للمصلحة العامة وحدها.

وقد سجن الحَرَشِيّ وعُذِّب عذاباً أليماً، وتولى أمر تعذيبه حتى الموت مُعْقِل بن عُرْوة الذي كان الحَرَشِيّ قد سجنه في خُراسان وضربه مئتي سوط كما ذكرنا، فقد أمر ابن هبيرة عامله الجديد على خُراسان أن يحمل إليه الحَرَشيّ مع مَعْقِل بن عُرْوة، فأساء معقل بالحرشيّ وضيّق عليه. وفي يوم من الأيام أمر ابن هبيرة معقِلًا أن يعذِّب الحَرَشيّ ويقتله بالعذاب الأليم. وجاء المساء، فسمر ابن هُبَيْرَة مع الصّفوة من خلّانه ومحاسيبه، فقال: «مَنْ سيِّد قيس؟»، فقالوا: الأمير، قال: «دعوا هذا! سيِّد قيس الكوثَر بن زُفَر، لو بوّقَ بليلٍ لوافاه عشرون ألفاً لا يسألونه لِمَ دعوتنا. وهذا الحمار الذي في الحبس - يريد الحَرَشيّ - قد أمرتُ بقتل فارسها، وأما خير قيس لها، فعسى أن أكونه، إنه لم يعرض إليّ أمرٌ أرى أني أقدر فيه على منفعة وخير إلّا جررته إليهم»، فقال أعرابيّ من فَزارة: «ما أنت كما تقول! لو كنتَ كذلك ما أمرتَ بقتل فارسها»، فأرسل ابن هُبيرة إلى معقِل: «أن كُفَّ عمّا كنتُ أمرتك به»[2].

---

(١) ابن الأثير (٥/١٠٣).

(٢) الطبري (٧/١٦) وابن الأثير (٥/١١٥ - ١١٦).

ودار الزّمن دورته، فمات يزيد بن عبد الملك وتولّى هُشام بن عبد الملك سنة خمس ومئة الهجرية (٧٢٣م)، فعزل هشامُ ابنَ هُبَيْرَة عن العراق واستعمل خالد بن عبد الله القَسْرِيّ[١]، فبادر خالد بعد وصوله إلى العراق بإطلاق سراح الحَرَشِيّ من السجن بعد أن مكث فيه سنة وشهوراً. وهرب ابن هُبَيْرة من العراق لا يلوي على شيء يريد النجاة بنفسه شريداً طريداً متخفِّياً، فأرسل خالدُ في طلبه الحُرَشِيّ، فلحقه بموضع من الفُرات يقطعه إلى الجانب الآخر في سفينة، وكان في صدر السَّفينة غلام يقال له: قُبَيْض. وعرف الحَرَشِيّ ذلك الغلامَ، فقال له: «قُبَيْض؟»، قال: «نعم!»، فقال: «أفي السَّفِيْنة أبو المثنّى؟!»، قال: «نعم». وخرج إليه ابن هُبَيْرَة فقال له الحَرَشِيّ: «أبا المثنّى! ما ظنّك بي؟!»، قال: «ظني بك أنك لا تدفع رجلًا من قومك إلى رجل من قريش!»، قال: «هو ذاك»، قال: «النّجاء»[٢]، وهذا دليل آخر على أنّ الحَرَشِيّ غير منتقم ولا حاقد، ولو أنه دليل على عصبيّة الحرشِيّ القبليّة، وكان تصرّف الحرشيّ تصرّف الذي يعفو عن مقدرة لا عن ضعف.

وكما كان ابن هُبَيْرَة يكره الحَرَشِيّ لأنه كان (مبتدعاً) لا (متّبعاً)، فقد كان مَسْلمة بن عبد الملك يكره الحرشِي للسبب عينه[٣]. فقد اندفع الحَرَشيّ في قيادة خيل مسلمة وصدّ مقدّمة يزيد بن المهلّب دون استشارة مسلمة والرجوع إليه، كما برز بروزاً هائلًا في معركة (العَقْر) فلفت إليه الأنظار.

وكما طبّق الحَرَشِيّ في معركة (العَقْر) ما أملاه عليه الموقف العسكريّ

---

(١) الطبري (٧/ ٢٦) وابن الأثير (٥/ ١٢٤).

(٢) الطبري (٧/ ١٧) وابن الأثير (٥/ ١١٦)، وابن هبيرة والحَرَشِيّ من قَيْس عَيْلان بن مُضَر بن نِزار بن مَعَدّ ابن عدنان، انظر نسب ابن هبيرة في: جمهرة أنساب العرب (٢٥٥).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦٤).

الرّاهن، طبّق في غزوة إرمينية حين كان على مقدمة مَسْلَمَة الأسلوب الذي طبّقه في معركة (العَقْر)، فلامه مَسْلمة على قتال الخَزَر قبل قدومه، وعزله عن قيادته وقيّده وسجنه في سجن (بَرْذَعة)، فأنّب هُشامُ بن عبد الملك مسلمة على ما فعل في حبس الحَرَشِيّ والتخليّ عن تنفيذ خطّته في قتال الخزر، وأمر بإطلاق سراحه[1].

وهكذا يكون جزاء (المبتدع)، ليس بالنسبة للحَرَشِيِّ، بل لكل من يبتدع ولا يتّبع: الحقد والتنكيل بالمبتدع، والسّلامة والمستقبل للمتّبع.

وهذه القّاعدة تسري على (المبتدع) و (المتّبع) في كلِّ زمان ومكان، الغُرم دوماً للمبتدع، والغُنم دوماً للمتّبع، وقلّما يُفلح (المبتدع) إلّا إذا تولّى المبتدع السُّلطات العليا وكان غير مسؤول أمام أحد، وقلّما يخفق (المتّبع) إذا عمل بالإِمرة في الظل ولم يتولّ السّلطات العليا.

وهنا أرى أن نتوقّف قليلًا، لإنصاف الحَرَشيّ من اتهامه بأنه نقض العهد في حرب الصُّغد وحرب الخزر، فقتل أشخاصاً أو جماعات بعد أن أعطاهم الأمان.

وقد كان الحرشِيّ معروفاً بتدينه[2]، كما كان معروفاً برأيه السديد[3]، وقد علم أن رجلًا من (الصُّغْد) قتل امرأة من نساء كُنّ في أيديهم ودفنها تحت حائط، فقتل الحرشيّ القاتل بجريمته، وقتل أحد قادة الصُّغد الذي اعترض الناس فقتل ناساً، وكان في أيدي الصُّغد أسراء من المسلمين، فقتلوا منهم خمسين ومئة، ويقال: قتلوا منهم أربعين، فأمر الحرشيّ بقتل المجرمين[4].

---

(١) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٢) ابن الأثير (٥/١٠٤) و(٥/١٠٨).

(٣) الطبري (٧/٨).

(٤) الطبري (٧/٩ ـ ١٠).

وأثّر قَصاص الحَرَشِيّ في الخارجين على الدولة من أهل خُراسان بعامة وفي الصُّغد وهم رأس الفتنة بخاصة، فقال الرَّاجز:

إذا سَعِيْدٌ سار في الأخماسِ   في رَهَج يأْخُذُ بالأنفاس

دارت على التُّرْكِ أَمَرُّ الكاسِ   وطارت التُّركُ على الأحلاس

ولّوْا فِراراً عُطِّلَ القياس[1]

لقد قدم الحَرَشيّ خُراسان فكان المسلمون بإزاء العدو، وكانوا قد نُكبوا[2]، وكان كثير من المسلمين أسرى وكثير من نسائهم سبايا، فأعاد الأمن والنظام خلال أشهر معدودات إلى ربوع خُراسان، وعادت للدولة هيبتها وللسُّلطة مركزها، ولا مراء في أنّ من أهم أسباب استعادته الأمن والاستقرار بعد الخوف والفوضى يعود إلى أخذ المسيئ وإنزال العقاب به، فكان القصاص الذي نزل بأفراد وجماعات من الصُّغْد باعتبارهم مجرمي حرب، عُوقبوا على ما جنت أيديهم من جرائم، والعهد والأمان الذي قطعه الحَرَشِيْ على نفسه لهم أفراداً وجماعات هو على جريمة انتقاضهم على الدولة وحملهم السِّلاح عليها، لا على الجرائم التي ارتكبوها في أيام انتقاضهم قتلًا للمسلمين وانتهاكاً لحرماتهم.

وما يقال عن التزام الحَرَشِيّ بالضبّط المتين ومعاقبة مجرمي الحرب في حرب الصُّغد، يقال عنه أيضاً في حرب الخَزَر، فقد نَفّذ العهود والمواثيق بالنسبة لغير المجرمين، أما المجرمون فلم يسكت عنهم وأنزل بهم القَصاص العادل كمجرمين لا كمعاهدين.

تولّى (البَصْرَة) شهوراً من سنة ثلاث ومئة الهجرية[3] (٧٢١م) لابن هُبَيْرَة، ثم تولّى خُراسان في هذه السنة لابن هُبَيْرة[4] أيضاً، وعزل عن

---

(١) الطبري (٧/ ١٢).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٠٣).

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٤١) وانظر الطبري (٧/ ١٧).

(٤) الطبري (٦/ ٦٢٠) و (٧/ ١٧).

خُراسان سنة أربع ومئة الهجريّة[1] (٧٢٢م)، وتولّى إرمينية وكيلًا لمَسْلَمَة بن عبد الملك سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م)، وعُزل في هذه السنة.

وقد عمل بإمرة ابن هُبيرة في ولايته البصرة وخُراسان، وبإمرة مَسْلَمة بن عبد الملك في إرمينية، وكان الأميران اللّذان عمل الحَرَشِيّ بإمرتهما يبغضانه[2]، لأنه كان (مبتدعاً) يعمل بوحي كفايته وخبرته، ولا يستوحي ما يعمله من اللذين عمل بإمرتهما، فكلّل الأميران جهود الحرشِيّ المظفّرة بالحبس والتنكيل.

وأحسب أن الحَرَشِيّ لم يخالف ابن هُبيرة ومَسْلَمَة لمجرّد رغبته في المخالفة حبّاً بإظهار نفسه وقوّته، بل لأنّ عامل الوقت كان عاملًا حاسماً يقضي عليه بالمخالفة، فلو أنه انتظر حتى يقدم مَسْلمة إرمينية لتبدّل الموقف العسكري لصالح الخزر، كما أنه خالف ابن هُبَيْرة في قتل أحد رجالات الصُّغد، لأنه ثبت عليه إجرامهُ بشكل لا يقبل الشّك، والحقّ أحقّ أن يُتّبع، وكلّ شيءٍ في سبيله يهون.

وقد علمنا أنّ الحَرَشِيّ يتحلّى بالضبط المتين، فحريّ بمثله ألّا يخالف مرجعه الأعلى الذي يعمل بإمرته إلّا لضرورة قصوى، لأنه إذا أباح لنفسه مخالفة رئيسه، فقد أتاح لغيره أن يخالفه، فإذا شاع الخلاف عمّت الفوضى، والحَرَشِيّ ليس من دعاتها بل من أعدائها الأشدّاء.

ولعلّ ما يدلّ على مبلغ حرصه في توقير الذين يعملون بإمرتهم، أنّ الحَرَشِيّ حين قدم خُراسان والياً، أمر أحد رجاله أن يقرأ عهده على الناس، والعهد هنا المرسوم الذي كتبه عمر بن هُبَيْرَة للحَرَشِيّ في توليته على خُراسان. وقرأ الرجل العهد فلحن فيه، فقال الحَرَشِيّ: «مهما سمعتم فهو من الكاتب والأمير بريءٌ منه»[3]، أي بريء مما تسمعون من هذا اللّحن[4]،

---

(١) الطبري (٧/ ١٥).

(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦٤).

(٣) فتوح البلدان (٦٠١) وابن الأثير (٥/ ١٠٣).

(٤) فتوح البلدان (٦٠١).

وهذا دليل على توقير الحَرَشِيّ لأميره المباشر، وأنه بعيد عن الاستهانة بالأمير الذي يعمل بإمرته المباشرة.

ولعلّ نقطة الضعف في الحَرَشِيّ هي حبه الشديد للمال، فالذي يبدو أنه كان يحبّ هذا المال حبّاً جمّاً، فأوقعه هذا الحبّ في مآزق لا يمكن السكوت عنها أو نكرانها أو محاولة الدفاع عنهُ، فيما إذا صحّ أنه جمع المال لمصلحته الشخصيّة وثبت اتّهامه بذلك.

ففي معركة الصُّغد سنة أربع ومئة، اصطفى أموال الصُّغد وذراريهم، وأخذ منها ما أعجبه، ثم دعا مُسْلِمْ بن بُدَيْل العَدَوِي: عَدِيّ الرّباب، فقال: «ولّيتك المقسَم»، فقال: «بعد ما عمل فيه عمالكَ ليلةً!! ولِّه غيري!»، فولاه عُبَيْد الله بن زُهير بن حيّان العَدَوِيّ، فأخرج الخُمْسَ، وقسّم الأموال. وكتب الحَرَشِيّ إلى يزيد بن عبد الملك، ولم يكتب إلى عمر بن هُبيرَة، فكان هذا مما وَجد فيه عليه عمر بن هبيرة[1].

ولما حبس ابنُ هُبَيْرة الحَرَشِيّ اتّهمه بالخيانة[2] في الأموال، فلما عُذِّب في السِّجن أدّى[3] الذي عليه.

ولكنّ الحَرَشِيّ عذِّب عذاباً شديداً، فقال كُليب بن أُذَيْنَة:

تصبَّرْ أبا يَحْيَى فقد كنتَ ـ علمنَا   صبوراً ونَهّاضاً بثقل المغارِم

وقد أمر ابنُ هُبَيْرَة يوماً المشرف على تعذيب الحرشِيّ أن يعذِّبه إلى أن يقتله في العذاب[4].

وأرى أنّ مجرّد اتّهام الحَرَشِيّ من ابن هُبَيْرَة لا يكفي لتصديقه، فقد

(١) الطبري (٧/ ١٠) وابن الأثير (٥/ ١٠٩).
(٢) الطبري (٧/ ١٩).
(٣) الطبري (٧/ ١٦).
(٤) الطبري (٧/ ١٦).

كان ابن هُبيرة حاقداً أشدّ الحقد على الحرشِيّ وكان يبغضه بغضاً شديداً، فلا يمكن أن نصِّدق تهمة حاقد مبغض.

ولو أنّ الحرشِيّ خان في المال، لما نال العطف الإجماعي على حبسه وتعذيبه، ولما أُطلق سراحه بعد ذلك، وأصبح موضع ثقة الخليفة هُشام بن عبد الملك، فولّاه قيادة مقدمة مسلمة بن عبد الملك في إرمينية، وكان يستشيره وينفِّذ مشورته.

والظّاهر أنّ الحَرَشِيّ تألّف بعض سادات العرب وقادة خُراسان بالمال، ليكونوا له عَوْناً في حربه وسلمه، وليقطع دابر الشّغب على الدولة، فعلم بذلك ابن هُبَيْرة، وأرسل رجلين من رجاله إلى الحَرَشِيّ يأمره أن يدفع أولئك المنتفعين بالمال الحكوميّ إليهما ليستعيد منهم ما في ذمّتهم من الأموال إلى بيت المال، فأبى الحَرَشيّ أن يفعل. ولما قَدِم خليفةُ الحَرَشِيّ الذي ولّاه ابن هُبيرة خُراسان بعد عزل الحَرَشِيّ عن خُراسان، أراد أخذ الناس بتلك الأموال التي فُرِّقت عليهم، فقيل له: إن فعلتَ هذا بهؤلاء لم يكن لك بخُراسان قرار، وإن لم تعمل على وضع تلك الأموال عنهم فسدت عليك وعليهم خُراسان، لأنّ هؤلاء الذين تريد أن تأخذهم بهذه الأموال أعيان البلد. وكتب والي خُراسان الذي خلف الحَرَشِيّ عليها وهو مُسْلِم بن سعيد بن أسْلَم بن زُرْعَة الكِلابيّ بذلك إلى ابن هُبَيْرة، وأوفد وفداً فيهم مِهْزَم بن جابِر - أحد رجالات العرب في خُراسان، فقال له: «أيّها الأمير! إنّ الذي رُفع إليك الظلمُ والباطلُ، ما علينا من هذا كلّه لو صدق إلّا القليل الذي لو أُخذنا به أدّيناه»، فقال ابن هُبَيْرَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[1]، فقال مِهْزَم: «اقرأ ما بعدها: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾»[2]، فقال ابن هُبَيْرَة: «لا بدَّ من هذا المال»، فقال مِهْزَم: «أما والله لئن أخذتَه لتأخذنّه من قومٍ شديدة شوكتهم ونكايتهم في عدوِّك،

---

(١) سورة النساء (٥٨).

(٢) سورة النساء: الآية ٥٨.

وليضرن ذلك بأهل خُراسان في عُدَّتهم وكرُاعهم وحَلْقَتهم، ونحن في ثغر نُكابد فيه عدوّاً لا ينقضي حربهم. إنَّ أحدنا ليلبس الحديد حتى يخلص صدؤه إلى جلده، حتى إنّ الخادم التي تخدم الرجل لتصرف وجهها عن مولاها وعن الرجل الذي تخدمُه لريح الحديد، وأنتم في بلادكم متفضِّلون في الرِّقاق وفي المُعَصْفَرة، والذين قرِفوا بهذا المال وجوه أهل خُراسان وأهل الولايات والكلف العِظام في المغازي، وقِبلنا قوم قَدِموا علينا من كلِّ فجّ عميق، فجاؤوا على الحُمُرات، فوُلُّوا الولايات، فاقتطعوا الأموال، فهي عندهم موقَرة جمّة»[1].

ولا أرى دفاعاً عن الحَرَشيّ أبلغ من هذا الدفاع الذي ذكره أحد رجاله لخلفه: وزِّعت الأموال على المقاتلين الأشداء، الذين لهم نفوذ على قومهم، ليستعينوا بها في حرب مديدة، لا تنقضي صفحة منها، إلا لتبدأ صفحة جديدة.

ونعود إلى حكاية (المبتدع) و (المتّبع)، فقد كان الحَرَشِيّ مبتدعاً في توزيع المال على المحاربين الأشداء من ذوي القوّة والمَنَعة والعشيرة، دون أن يرجع إلى ابن هُبَيْرة ليعطي مَنْ يريد ما يريد، بل اجتهد الحرشِيّ فأعطى المستحق للعطاء، وهو الحاضر وابن هُبيرة الغائب، وهو يرى وأميره يسمع، فعمل الذي يقتضيه الحق وترتضيه المصلحة.

وربما أبقى الحرشِيّ شيئاً لنفسه من هذا المال، تحسّباً للأيّام السّود، فلم يذكر المؤرخون أنه ترك بعد رحيله عن الدنيا داراً أو ديناراً، فما خان الحَرَشِيّ في المال، ولكنه فرّقه في المستحقِّين.

وقد غضب ابن هُبَيْرَة على الحَرَشي، وأمره بأن يجمعه ممن أخذه، فأبى الحَرَشِيّ، فحاول أن يجمعه خلفُه دون جدوى، لا لأنّ الحَرَشِيّ قد فرّقهُ على غير المستحقِّين بل لأن المال لم يُفَرّق باسمه على الموالين له

(١) الطبري (٧/ ٢٠).

كأنه هديّة شخصيّة من مال ابن هُبَيْرة الخاص، ففوّت عليه الحَرَشِيّ هذه الفرصة لحشد الأتباع والموالين بمال الدولة لا بماله، لذلك غضب وأراد استرجاع المال نكاية بالحَرَشِيّ، فما استطاع استرجاعه وباءت محاولته بالإخفاق.

ونعود إلى الحَرَشِيّ إنساناً، فقد جاء في بعض المصادر التاريخية، أنّ الحَرَشِيّ قتل المُقَنّع بخُراسان سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية (٧٧٩م) على عهد الخليفة المهدي العباسِي[١]، وأنّ الخليفة المهدي وجّه الحَرَشِيّ سنة ثمان وستين ومئة الهجرية (٧٨٤م) في أربعين ألف رجل إلى (طَبِرَسْتان)[٢]، وأنّ الحَرَشِيّ قدم على الخليفة هارون الرشيد بأربعمائة بطل من أبطال (طبرستان) فأسلموا على يدي الرشيد سنة تسع وثمانين ومئة الهجرية[٣] (٨٠٤م). ومن الواضح أن الحَرَشِيّ الذي عمل في عهد بني أُمية وهو الذي تقرأ سيرته هذه، غير الحَرَشِيّ الذي عمل في عهد بني العبّاس التي تحدّثت عنه تلك المصادر في حرب المُقَنّع وفي ولاية طبرستان، فالفرق الزّمنّي بين الاثنين كبير جداً، فالأول تولى (خُراسان) سنة ثلاث ومئة الهجرية، فليس من المعقول أن يتولّى جيشاً ويقاتل المقنّع سنة ثلاث وستين ومئة الهجريّة، أي بعد ستين سنة، ويتولى (طبرستان) سنة تسع وثمانين سنة من ولايته (خُراسان)، أي بعد ست وثمانين سنة!

وقد ذكرت بعض المصادر أنّ الذي قتل المُقَنّعَ سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية هو سعيد الجُرَشِيّ[٤] لا الحَرَشِيّ، وهو سعيد الحَرَسِيّ[٥] لا الحَرَشِيّ، وهو سعيد الحُرَيْشِيّ[٦] لا الحَرَشِيّ، وأنّ الذي سار في أربعين

---

(١) انظر الطبري (٨/ ١٣٥) و(٨/ ١٤٤) وابن الأثير (٦/ ٥١ ـ ٥٢) وذكرها ابن الأثير في حوادث إحدى وستين ومئة الهجرية، وانظر تاريخ ابن خياط (٢/ ٤٦٩).

(٢) الطبري (٨/ ١٦٧).

(٣) الطبري (٨/ ٣١٦).

(٤) العبر (١/ ٢٤٠).

(٥) النجوم الزاهرة (٢/ ٣٨) و (٢/ ٤٥).

(٦) ابن خلدون (٣/ ٤٣٩) و (٣/ ٤٤٠).

ألفاً إلى (طبرستان) هو الجُرَشِيّ[1] لا الحَرَشِيّ.

كما ورد أنّ الذي قتل المُقَنّع سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية هو سعيد الحريثي[2]، والفرق كبير جداً بين سعيد الحَرَشِيّ وما جاء في المصادر الأخرى[3].

وقد شبّ الحَرَشِيّ وترعرع وأصبح أحد ولاة بني العبّاس على الموصل. ابنُ الحَرَشِيّ هو يحيى الحَرَشِيّ الذي تولى (الموصل) لهارون الرشيد سنة ثمانين ومئة الهجرية[4] (٧٩٦م)، وكان ليحيى هذا قصر في لَجَف[5] سور (نينوى) التي تقع على الجانب الأيسر من نهر (دجلة) مقابل مدينة (الموصل) يفصل بينهما النهر، يعرف بقصر الحَرَشِيّ، وسكن أولاده (الموصل) ويعملون حاكة[6] لصنع القماش الموصليّ.

وكان الحَرَشي يكنى: أبا يحيى[7]، وأمّه حبشية، وولده بإرمينية كما ذكرنا وفي (الموصل) أيضاً.

ولا نعلم متى ولد ولا متى رحل، وتفاصيل حياته إنساناً قليلة، وذكرُ أخباره الشخصية نادر بعكس أخباره العامة، فهي مستفيضة، ويبدو من حياته العامة أنه كان إدارياً حازماً ووالياً قديراً، عصامِيّ سوّد نفسه بكفايته وشجاعته وحزمه، ولكنه كان عاثر الحظّ في حياته الشخصية، إذ كان يُحسن في إداء

---

(١) العبر (١/ ٢٥٢).

(٢) البداية والنهاية (١٠ ـ ١٤٥).

(٣) الجرشي: نسبة إلى جرش بطن من حمير، وقيل موضع باليمن، انظر لب الألباب (٦٣)، والحرسي: نسبة إلى الحرس، محلة بمصر وبطن من طيّئ، انظر لب الألباب (٧٨). والحرشي: نسبة إلى الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، انظر اللباب (٧٨). والحريثي: نسبة إلى حريث جد، انظر اللباب (٧٨).

(٤) ابن الأثير (٦/١٥٣) وتاريخ الموصل (٢٨٦).

(٥) لجف: سرة الوادي، انظر تاج العروس (٦/ ٣٤٣).

(٦) تاريخ الموصل (٢٩٣).

(٧) الطبري (٧/ ١٦).

واجبه إحساناً فريداً، ولكنه كان يجازى على إحسانه بالسجن والتعذيب، لأنه يَعْمل ما (يجب) أن يُعْمَل، لا ما (يحبّ) أمراؤه أن يَعْمل.

وكان المتوقّع أن يقف المؤرخون طويلًا على إبراز سجيّته في (الابتداع) وتنكّره لسجيّة أمثاله في (الاتباع)، ولكنهم بخلوا عليه كثيراً، فمثله في سجيته الابتداعية قليل نادر، ولكنّ القطار السّريع كثيراً ما يتوقّف في المحطّات الصغيرة ولا يتوقف في المحطّات الكبيرة.

وحظوظ الأفذاذ مختلفة بالنسبة للمؤرخين، فمنهم مَن أخذ حقّه كاملًا، ومنهمَ من غُمط حقّه، ومنهم مَن أخذ أكثر من حقّه، ومن الذين غمطهم التاريخ سعيد الحَرَشِيّ.

القائد:

اتّخذ سعيد الحَرَشِيّ الجنديّة مهنة له، فرفعته هذه المهنةُ بالتدريج، حتى تسنّم المناصب القياديّة الرفيعة، وأصبح أحد قادة الأُمويين اللامعين، يستعين به الخلفاء في المُلمّات.

تولّى خُراسان بعد أن اشتعلت ناراً، بإيعاز من الخليفة يزيد بن عبد الملك، فاستعاد فتح ما نقض منها وأعاد إليها الأمن والسّلام، خلال أشهر معدودات.

وتولّى حرب إرمينية بعد أن استُشهد قائدها العام وأُبيد جيش المسلمين فيها قتلًا وأسراً، وتولّاها بأمرٍ من الخليفة هُشام بن عبد الملك، فاستعاد فتحها وأعاد إليها الأمن والسّلام خلال أشهر معدودات.

لقد أصبح الحَرَشِيّ رجل السّاعة من بين القادة البارزين في الدولة، وهذا منتهى النجاح الذي يمكن أن يطمح إليه جنديّ ارتقى إلى منصب القيادة، ثم ارتقى بين القادة إلى مكان الصّدارة، فأصبح الملجأ الذي تتّجه إليه الأنظار حين تَدْلَهِمْ الخُطوب.

ومن الواضح أنه شهد معارك لتوطيد الأمن في الداخل ولاستعادة

الفتح في الخارج قبل معركة (العَقْر) التي تولّى فيها القيادة. إذ أثبت وجوده في المعارك الأولى جنديّاً متميِّزاً أهّلته كفايته لتولي القيادة في معركة (العَقْر)، ولكنه في هذه المعركة أثبت وجوده قائداً متميِّزاً بالإضافة إلى إثبات وجوده جندياً متميِّزاً في معاركه الأولى.

وكان موقفه في معركة (العَقْر) مشهوداً، ولكنّ هذا الموقف غُمط بعد المعركة غَمْطاً متعمّداً حتى يُحرم من ثمرات النصر، إلّا أنّ يزيد بن عبد الملك الذي تسامع بموقف الحَرَشِيّ المشرِّف في معركة (العَقْر) من مصادر غير رسميّة، أنصف الحَرَشِيّ وأعطاه حقّه الذي تعمّدت المصادر الرسميّة غمطه، فشارك غيره في ثمرات النصر، ولم يقتصر على تحمل ويلات المعركة وليستأثر غيره بالثمرات.

فقد كانت ثورة يزيد بن المُهَلَّب على يزيد بن عبد الملك ثورة عارمة حقاً، فالمهالبة من سادات العرب وقادتهم، وكانت لهم مكانة رفيعة بين الناس وشعبيّة طاغية، وقد خلع يزيدُ بن المهلّب يزيدَ عبد الملك[1]، فكانت معركة (العَقْر) بالنسبة ليزيد بن عبد الملك معركة حياة أو موت، لأنها من المعارك الداخليّة الحاسمة، لذلك كتب ابن هُبَيْرة أمير العراق إلى يزيد بن عبد الملك بأسماء الذين أبلوا يوم (العَقْر) بلاءً حسناً، ولم يذكر الحَرَشِيّ في قائمة الشّرف، فلما قرأ يزيد بن عبد الملك أسماءهم، قال: «أين الحَرَشِيّ!! فوالله ما كان الفتح إلّا على يديه، وما قتل المتمردين غيره»، فكتب إلى ابن هُبَيْرَة يأمره أن يولي الحَرَشيّ خُراسان[2].

وتولّى الحَرَشِيّ خُراسان، فكان عند حسن ظن الخليفة به وعند حسن ظنّ الناس به أيضاً.

---

(١) الطبري (٦/ ٥٧٨).

(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦٤ ـ ١٦٥) وانظر الطبري (٦/ ٦٢٠). وابن الأثير (٥/ ١٠٣)، وفي الأصل: قتل المرتدين، ولم يكن هناك مرتداً بل كان متمرِّداً، ولعلّ هذا الخطأ تصحيف.

وتولى هُشام بن عبد الملك بعد وفاة أخيه يزيد بن عبد الملك، وأُصيب المسلمون في إرمينية واستُشهد قائده الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ، وأصبح مَن بقي فيها من المسلمين أسرى وسبايا إلّا الذي بقي منهم خائفاً يترقب في بلد محاصَر لا يعرف أهله متى يقتحمه العدو أو في بلد لا يدري أهله متى يُفرض عليهم الحصار.

حينذاك بادر هُشام إلى استدعاء الحَرَشِيّ، فبسط بين يديه موقف المسلمين اليائس في إرمينية، فاقترح الحَرَشِيّ عليه أن يتولّى أمر إعادة الأمور إلى نصابها في ذلك البلد النائي البعيد، وسأله أن يحمله على دواب البريد التي كانت أسرع واسطة للتنقّل يومذاك، فبعثه هشام على رأس قوّات خفيفة سريعة، وسار على عجل يبسط للمسلمين في طريق رحلته الشاقّة الطويلة ما حاق بالمسلمين في إرمينية ويندبهم للجهاد.

ولم يكد يصل إلى إرمينية إلّا وانقضّ كالصقر على الخَزَر، واستعاد فتح البلاد ورفع الحصار عن المدن المحاصَرَة واستنقذ الأسرى والسبايا، فصدق وعده للخليفة وأعاد الأمن والسّلام إلى إرمينية.

فما هي مزايا قيادة الحَرَشِيّ، الذي أخذت بيديه في طريق التقدّم من جندي مغمور إلى قائد لامع، إلى قائد يحتل مركز القيادة المرموقة في ساعة المحنة، فيتخطّى الأهوال والصعاب بسرعة وكفاية؟؟

لقد اتّخذ الحَرَشِيّ الجندية مهنة له، وكانت هذه المهنة محبّبة إلى نفسه، فهو من هواتها، عاش لها وبها، مما يدلّ على أنّ طبعه الموهوب جعله يهب نفسه للجنديّة ويتفرّغ لها في حياته تفرغاً كاملًا.

وربما يتبادر إلى الأذهان أنه امتهن الجنديّة لفقره وعَوَزه، وقد كان فقيراً مُعْدماً حقّاً في أيامه الأولى، ولكنّ المرتزق في الجنديّة لا يبرز فيها بروزاً هائلًا. كما أنه أصبح والياً ولكنه بقي والياً غازياً، فعاش مع الجُنْد في الفيافي والقفار ولم يعش مع المدنيين في المدن والقصور.

إنه صاحب طبع موهوب في الجنديّة، فهو جندي من أَخْمَص قدمه إلى قمّة رأسه، امتهن الجندية ولم يمتِهنْها[1].

وقد طعَّمَ هذا الطبع الموهوب وشذّبه بالعلم العسكري المكتسب في استعمال السِّلاح والفروسيّة، وبالتجربة العملية في ممارسة الحروب داخليّاً في القضاء على الفتن والثورات الداخلية، وخارجياً في استعادة البلاد المفتوحة وفي ضمّ فتح جديد، وبذلك اجتمع له عناصر النجاح للقائد ومزايا للقائد المتميز: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العمليّة.

واجتماع هذه المزايا الثلاث في الحَرَشِيِّ هي سرّ نجاحه قائداً، وتميّزه بالنجاح قائداً متميِّزاً.

وقد كان يتمتّع بشجاعة نادرة وإقدام فذ، والشجاعة والإقدام وحدهما قد يؤديان إلى التهلكة نتيجة للمغامرة غير المدروسة، وقد كان الحَرَشِيّ يتميّز بروح المغامرة حقاً، ولكنها مغامرة يقودها عقل متّزن وذكاء لامع، لذلك كانت مغامراته تؤدي إلى النصر دائماً، فلمْ تُهزم له راية أبداً.

وحُبّ الحرشِيّ للمغامرة العاقلة، أدّت به إلى تطبيق: (حرب الصّاعقة) التي تتميّز بالسرعة والجرأة والمغامرة والاندفاع، فقد كانت حربه في إرمينية نوعاً مثالياً من حرب الصّاعقة التي تميّز فيها ثلاثة من قادة الفتح الأولين: خالد بن الوليد والمُثَنّى بن حارِثة الشَّيْبَانِيّ والحَرَشِيّ.

ونهوضه بالحرب الصَّاعقة أو الحرب الخاطفة، دليل على حبِّه لتحمّل المسؤوليّة، فهو يتقبّلها ولا يلقيها على عاتق غيره، ويتحمّل وحده نتائجها. وهو كذلك يعمل ما يُملي عليه الموقف الراهن ويقرِّر وينفِّذ ما يقررِّه، غير منتظر وصول الأوامر إليه من القادة الذين يعمل بإمرتهم، فقد تضيع عليه

---

(١) امتهن الجندية، اتّخذها مهنة له. ولم يمتهنها: لم يبتذلها. وامتهن: اتّخذ مهنة، وامتهنَ الشيءَ: ابتذله.

الفرصة السّانحة إذا بقي مُسْتَكِنّاً مُجَمَّداً إذا انتظر أوامر غيره، فهو قائد (مُبْتَدِع) وليس قائداً (مُتَّبِعاً).

والدليل على أنه كان مغامراً عاقلاً لا أَهْوَجَ، هو استشارته وتقبله للمشورة، وتنفيذ رأي المُشير إذا اقتنع به، وحينذاك تصبح روح المغامرة والاندفاع فيه أناة وتحفّظاً[1]، ولكنها أناة المتربِّص وتحفّظ المتحفِّز.

وكان الحرشِيّ يقود رجاله من الأمام، فيقول لهم: «اتبعوني»، وهو يقاتل أمامهم، ولا يقود رجاله من الخلف، فيقول لهم: «تَقدّموا»، وهو يقبع في الخلف لحماية نفسه في مكان أمين.

وكان مثالاً شخصياً لرجاله في الشجاعة والإقدام والاستقتال في الحرب، وهو القائل:

ولستُ لعامرٍ إنْ لم تَرَوني	أمامَ الخيلِ أَطْعَنُ بالعوالي
فأضْرِبُ هامَةَ الجبّار منهم	بعضبِ الحَدِّ حودِث بالصَّقالِ
فما أنا في الحروب بمُسْتَكِيْنٍ	ولا أخشى مَصَاولةَ الرِّجال

وقد قال ذلك في حشد من رجاله بعد تولى خُراسان ووصوله إلى مقرِّ عمله[2].

والقائد الذي يجعل من نفسه مثالاً شخصياً لرجاله، ويطبِّق أفعاله على أقواله، ويلتزم بما يقول التزاماً صارماً، هو الذي يقود رجاله إلى النصر، أما القائد الذي يقول ولا يفعل، فلا يقود رجاله إلّا إلى الهزيمة.

كان لا ينامُ ولا يُنِيْم، ولا يُرِيح ولا يستريح، يحرِّض أصحابه على القتال، يتميّز بمنطق أخّاذ وبيان مُشرق وقابليّة نادرة على الخطابة في مواجهة الجماهير[3] مِسْعَر حرب[4] يجد راحته في القتال لا في الظِّلال.

---

(١) انظر الطبري (٧/ ٨) وابن الأثير (٥/ ١٠٧).

(٢) الطبري (٦/ ٦٢١) وابن الأثير (٥/ ١٠٤).

(٣) الطبري (٦/ ٦٢١ ـ ٦٢٢) وابن الأثير (٥/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

(٤) مسعر حرب: موقد حرب.

وبقدر استئثار الحَرَشِيّ بالخطر، كان إيثاره بالأمن والسَّلامة رجالَه، فقد كان يحرص على أرواح المسلمين ولا يغرِّر بهم، وكان حرصه الشديد بالمسلمين مضرب الأمثال[1].

وكان الحَرَشِيّ يتحلّى بالضبط المتين، ولا يتخلّى عنه ويلتزم به التزاماً صارماً، ويطالب رجاله بالالتزام به التزاماً صارماً، مما أشاع النظام في رجاله وجعلهم ينفِّذون أوامره نصاً وروحاً.

والقائد الذي لا يتحلّى بالضبط لا يستطيع أن يفرضه على غيره ويشيعه في رجاله، والجيش الذي لا يتحلّى بالضبط المتين لا ينفِّذ الأوامر الصّادرة إليه بحرص وأمانة، وتنهار معنوياته بسرعة خاطفة، فيولي الأدبار.

وكان الحَرَشِيّ يطبِّق مبدأ المباغتة، وهي أهم مبادىء الحرب على الإطلاق، وقد طبّق هذا المبدأ بالمكان، فهاجم العدو في مكان لا يتوقّعه، وبالزمان فهاجم العدو بوقت لا يتوقعّه وبسرعة لا يتوقّعها.

وكان يطبِّق مبدأ المعنويات، فوجوده في القيادة يرفع معنويات رجاله من جهة، فهو فارس قَيْس بشهادة عدوِّه اللدود ابن هُبَيْرَة الذي يكرهه[2]، وهو فارس العرب بشهادة (كارزنج) أحد قادة الصُّغد البارزين[3]، ويؤُثر في معنويات أعدائه من جهة أخرى.

كما أنّه بانتصاراته المتوالية ورايته التي لم تهزم أبداً، يرفع معنويات رجاله ويؤدي بمعنويات أعدائه إلى الانهيار.

ولا ينتصر جيش إلّا إذا كانت معنوياته عالية، فالمعنويات لا تقلّ أهمية عن الماديّات في إحراز النّصر.

وكانت انتصارات الحَرَشِيّ حافزاً للشُّعراء في مديحه، فقال الشّاعر في

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١٠٧).

(٢) الطبري (٧/ ١٦).

(٣) الطبري (٦/ ٦٢٢).

وصف انتصاره على الخَزَر في إرمينية:

أنتَ الذي أدركَ اللّهُ العِبَادَ به ... بَعْدَ البلاءِ بتأييدٍ وإظفار
موفّقٌ للهُدى والرُّشدِ مُضطَلِعٌ ... كَيْدُ الحروب أريبٌ زَنْدُه واري
تَضَمَّنَ الحَزْمَ والإيمان مِنْبَرُهُ ... كالصّبح أقبلَ في غرٍّ وإسفار
لأمْتَ ما شِئتَ من شِعْبٍ ومن شُعَبٍ ... للمسلمين بِجَدٍ غير عَثَّار
على أوانٍ شديد ليس يعلمه ... من شأننا كان غير الخالقِ الباري
قد أَبْدَتِ الحربُ فيها عن نواجِذِها ... وشَمَّرَتْ عن شَذاها أيَّ تشمار
وأنتَ يوم أبي جَرْوانَ[1] إذ رَجَعَتْ ... فيه الطَّراخين ذو نقض وإمْرارِ[2]
لقيتَهم بِليوثٍ في اللّقاء وقد ... وافوا بأزْعَنَّ بادي الزَمِّ[3] جرّار
فَجِسْتَهم جَوْسَ قَرم[4] ما يُقِيلُهُمْ ... بالخيل تَنْقَضّ أوتاراً بأوتار
والخيل ساهِمَةٌ نَضْحُ الدِّماء بها ... من علِّها بَعْدَ إنهال وإصدار[5]
من كلِّ طرْف شَديدِ الشَّعْبِ مُنْصَلِتٍ ... نَهْدٍ أَشْقٍ كَصَدْرِ الرُّمحِ خَطَّارِ
فَهُمْ يُولّون والفُرْسانُ تَضرِبُهُمْ ... بكلِّ عَضْبٍ شَدِيْدِ المَتْنِ بتَّارِ
أمامَ لَيْثٍ هَزِبْرٍ فُرْهُدٍ[6] أَزِرٍ[7] ... صُلْبِ الدَّواسِ[8] هُصُوْرٍ هَيْصَم ضاري[9]
عَبْلِ[10] الذِّراعِ أبي الشِّبلين ذي لِبَدٍ ... دلَمِّس هو عَدَّاءٌ على السَّاري

---

(١) في الأصل: حزوان، والصحيح: جروان وهي: باجروان، مدينة بإرمينية.
(٢) إمرار: تنغيص، وأمرّ الشيء: صيّره مُرّاً.
(٣) الزَمّ: الشموخ والتكبرّ.
(٤) القرم: السيّد المعظّم.
(٥) العل: شرب ثانية. النهل: الشرب الأول. إصدار: شَبَع.
(٦) فرهد: في الأصل: فرهم، والفرهد، ولد الأسد، والفرهد من الغلمان: الحسن الممتلىء.
(٧) الأزر: القوّة.
(٨) الصلب: الشديد القوي. والدَّوّاس: وصف للمبالغة، الشجاع الذي يدوس أقرانه.
(٩) الهصور: الأسد. الهيصم: الغليظ الشَّديد الصُّلب. والضاري: المفترس.
(١٠) العبل: الضخم من كلِّ شيءٍ ويقال: عبل الذراعين، والشبل: ولد الأسد. لِبَد: جمع لِبدة الشعر المتراكب بين كتفي الأسد. الدلمس: الداهية. العدّاء: الشديد العدو من الناس والخيل.

ويومُ أسراب[1] إذ جاشَتْ جموعُهمُ وأسْعَروا نار حربٍ أيّ إسْعَار
وأقبلوا كالتماع البرق بِيْضُهُمُ لهم عِصَار تراه بعد إعصار[2]
فَسِرتَ بالخيل والرايات تَقْدُمها بِخِيْرَة من عِبادِ اللّهِ أخيارِ
أمدّك اللّهُ ربُّ العالمينَ بِهِمْ مُسَوّمين أمام النّاس أنصار
فَأَهْلَكَ اللّهُ جَمْعَ الشِّرْك إذ رَجَعوا علَى يَديك وأَخْزَى كلَّ كَفّارِ

ولا نعرف شيئاً عن قائل هذا الشِّعر، ويبدو أنه من فرسان الأعراب الذين يتقنون الألفاظ الجاسية الحوشيّة ومفردات الخيلِ والسِّلاح والأسد والأبطال، فهو فارس معجب بفارس، وليس شاعراً متكسِّباً.

لقد كان الحَرَشِيّ سريع القرار صائبه، ذا طبع موهوب وعلم مكتسب وتجربة عمليّة، يتحلّى بالشجاعة والإقدام ويتميّز بالفروسية التي تفوق بها على الأقران، ويتمتع بروح المغامرة والذكاء الألمعيّ، ويطبّق حرب الصّاعقة في حروبه، مبتدعاً لا متّبعاً، يقود رجاله من الأمام ويجعل من نفسه مثالاً شخصياً لرجاله، ذا ضبط متين، حريصاً على أرواح المسلمين، يطبّق مبدأ المباغتة ومبدأ المعنويات.

إنه فارس العرب، يثق بنفسه وبرجاله وقيادته ويثقون به، ويحبونه ويحبهم، ويخلص لهم ويخلصون له، ذا شخصية قويّة نافذة، كوّن نفسه بكفايته ومزاياه لا بنسبه وحَسَبه، وتولّى المناصب القياديّة والإداريّة بجهده وسعيه وعَرَقه، فسعت إليه تلك المناصب ولم يتولّها بالوراثة أو بالتزلّف أو بالوسائل الأخرى.

إنّ الحَرَشِيّ قائد قد لا يتكرّر إلّا نادراً.

الحَرَشِيّ في التاريخ:

يذكر التاريخ للحَرَشِيّ، أنّه قائد عِصَامِيّ، بدأ حياته العملّية جنديّاً ثم تدرّج في سلّم العسكرية حتى أصبح قائداً في الذّرْوَة.

---

(١) أسراب جمع سُرْبَة: الجماعة ينسلون من المعسكر فيغيرون ويرجعون.

(٢) العصار: الغبار الشديد. الأعصار: ريح تهبّ بشدة وتثير الغبار.

ويذكر له أنّه بذل قصارى جهده في القضاء على الثورات والفتن الداخلية دفاعاً عن سلامة الدولة وكيانها.

ويذكر له أنّه استعاد فتح بلاد الصُّغْد (تركستان الغربية) من خُراسان وأعاد إليها الأمن والسّلام بخاصة وإلى خُراسان بعامة ونشر العربيّة لغةً والإسلامَ ديناً في ربوع خُراسان.

ويذكر له، أنّه استعاد فتح إِرْمِينِيَة، وأعاد إليها سلطة الدولة الإسلاميّة، ونشر العربيّة لغة والإسلام ديناً في ربوعها.

ويذكر له، أنّه استنقذ عشرات الألوف من أسرى المسلمين الذين كانوا تحت سيطرة الصُّغد في خُراسان والخَزَر في إرمينية، وقلب الموازين في تلك الأرجاء الشّاسعة لصالح المسلمين.

ويذكر له، أنّه كان قائداً وإدارياً (مُبْتَدِعاً) يعمل ما تمليه عليه المصلحة العامة، وليس قائداً وإدارياً (مُتَّبِعاً) ينفِّذ أوامر السُّلطة حتى ولو ناقضت المصلحة العامة، فكان بحق رجل دولةٍ بكل معنى الكلمة لا إِمَّعَةً يميل مع الأهواء.

ويذكر له، أنّه أحرز انتصارات باهرة داخلياً وخارجياً، فعُوقب عن انتصاراته بالحبس والتعذيب والتنكيل، لأنّه كان يعمل ما (يَجِبُ) أن يُعْمل لا ما (يُحِبّ) رؤساؤه أن يعمل.

ويذكر له، أنه كان في الحرب يقود الجيوش في أخطر ميادينها ويكون مقرّه في خطوطها الأماميّة، فإذا حلّ السّلام استثمر غيره نتائج انتصاراته، فيكون مقرّه في السجون متحملًا العذاب الأليم.

ويذكر له، أنّه كان فارس العرب دون منازع، يستأثر بالأخطار ويستأثر غيره بالغنائم.

ويذكر له، أنّه كان رجل السّاعة في الملمّات، ورجل السُّجون في النزهات.

ويذكر له، أنّه كان يؤثر أن يكون غازياً في العَراء، على أن يكون والياً في المدن.

ويذكر له، أنّه كان يقود رجاله من الأمام لا من الخلف، وكان أسوة حسنة لرجاله في التضحية والإقدام.

ويذكر له، أنه قائد توفّرت فيه الشروط الكاملة للقائد المتميِّز: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العمليَّة.

يرحم الله الإداري الحازم، القائد الفاتح، فارس العرب، سعيد بن عمرو الحَرَشِيّ.

الخاتمة



العقيدة العسكرية الإسلامية

١ ـ غياب العقيدة العسكرية الإِسلامية:

إن العقيدة العسكريّة الإِسلاميّة، غائبة غياباً تاماً عن القوّات المسلمة العربية والإِسلامية في جميع أرجاء البلاد العربية والدول الإِسلامية، مجهولة جهلًا كاملًا في المدارس والمعاهد والكليّات العسكريّة العربية والإِسلاميّة وفي سائر المؤسسات التعليمية العسكرية والمدنية أيضاً في الوطن العربيّ ودار الإِسلام، لا يعرفها العسكريون العرب المسلمون ولا يقدِّرون قيمتها العظيمة ومكانتها الرفيعة بين العقائد العسكريّة الشرقية والغربية المعروفة، ولا يعملون بها لأنّهم يجهلونها ويجهلون أثرها وتأثيرها في العرب والمسلمين، والمرء عدوّ ما جهل.

وقد يعرفها قسم من الفقهاء العرب والمسلمين، يتحدثون عنها في مجالاتهم التدريسيّة كفرع من فروع الفقه حسب، فهي مبادئ في كتب الفقه للعلم لا العمل مجمّدة لا تُطبّق.

أما القوات المسلّحة العربية والإِسلامية ضباطاً ومراتب وجنوداً، فتطبّق في الوقت الحاضر ثلاثة أقسام أو ثلاثة أنواع من العقائد العسكرية الأجنبية، كلّ قسم من الدول العربية والإسلامية يطبِّق نوعاً من أنواع العقائد العسكرية الأجنبية.

القسم الأول من الدول العربية الإِسلاميّة، يطبّق العقيدة العسكريّة الغربية، وهذه العقيدة تقسم إلى ثلاثة أنواع: العقيدة العسكريّة الأمريكيّة، والعقيدة العسكرية البريطانية، والعقيدة العسكرية الفرنسيّة.

أما العقيدة العسكرية الأمريكية، فتسود في القوّات المسلّحة العربية والإِسلامية التي تستورد السِّلاح من الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وتوفد طلّابها العسكريين وضباطها إلى المؤسسات العسكرية الأمريكية.

أما العقيدة العسكرية البريطانية فتسود في القوّات المسلّحة العربية والإِسلامية التي تستورد السِّلاح من بريطانيا، أو توفد الطلّاب العسكريين والضباط للدراسة في مؤسساتها العسكرية، أو كانت مستعمرة لبريطانيا وجرى تدريب قواتها المسلّحة على أيدي الخبراء العسكريين البريطانيين.

أما العقيدة العسكرية الفرنسيّة فتسود في القوّات المسلّحة التي تستورد السِّلاح من فرنسا، أو جرى تدريب جيشها على أيدي الفرنسيين يوم كانت بلادهم مستعمرة لفرنسا.

والقسم الثاني من قوّات العرب والمسلمين، يطبق العقيدة العسكرية الشرقيّة، وهي القوات التي كسرت احتكار السلاح، واستوردت أسلحتها من الدول الشرقية بعد أن كانت تستورده من الدول الغربية، وأوفدت التلاميذ والطلّاب إلى المدارس والمعاهد والكليّات العسكرية الشرقية، واستقدمت الخبراء الشرقيين لتدريب جيشها .

والقسم الثالث من قوّات العرب والمسلمين المسلّحة، يطبِّق العقيدة الغرابية كما اصطلحت على تسميتها نسبة للغراب الذي أراد تقليد العصفور في مشيته، فأخفق في محاولته ولكنه نسي مشيته الأصلية، فلا أصبح كالعصفور في مشيته، ولا بقي غراباً كأمثاله من الغربان.

هذه القوّات العربية الإِسلاميّة، كانت تطبِّق العقيدة الغربيّة، ثم طبّقت العقيدة الشرقية ثم بدّلت رأيها فعادت أدراجها إلى العقيدة الغربية. وتبدّلت عقيدتها في مدّة زمنيّة قصيرة غير كافية لاستيعاب أية عقيدة من العقيدتين كما ينبغي، وأصبح لديها ضباط وضباط صف تخرّج قسم منهم في العقيدة الغربية، وتخرج قسم منهم في العقيدة الشرقية، فأصبح كل قسم من هذين القسمين يدرِّب رجاله على العقيدة التي تعلّمها. فلم تبق تلك القوّات

المسلحة على إحدى العقيدتين. بل امتزجت العقيدتان امتزاجاً متناقضاً. فأصبح التدريب والتعليم العسكريان في تلك القوّات المسلّحة العربية الإسلاميّة أقرب إلى الفوضىٰ منه إلى النِّظام.

إن العقيدة العسكرية الغربية تسود قسماً من القوات العربية الإسلامية المسلّحة، وتسود قسماً منها العقيدة العسكرية الشرقية، وتسود القسم الثالث والأخير منها العقيدة العسكرية الغربية. أما العقيدة العسكرية العربية الإسلامية فغائبة عن القوّات العسكرية العربية الإسلامية غياباً كاملًا، ومن النادر جداً أن يعرف عسكري عربي مسلم، أنّ هناك عقيدة عسكرية عربية إسلاميّة سادت ردحاً من الزمن وقادت العرب والمسلمين إلى النصر.

٢ ـ لماذا العقيدة العسكرية الإسلامية:

لكي نعلم لماذا العقيدة العسكرية الإسلامية وحدها تناسب العرب والمسلمين وتقودهم إلىٰ النصر ولا تناسبهم العقيدتان العسكريتان الغربية أو الشرقية، وتقودهم إلى الاندحار، لا بدّ من مقارنة العقائد الثلاث، ليكون الجواب على هدى وبصيرة.

والمقارنة تقتصر على (المبادئ) التي تميِّز تلك العقائد وتتّسم بها، أما (الأساليب) فقد تكون متشابهة أو متقاربة بين العقائد العسكريّة الثلاثة، وأهمية الأساليب بالنسبة لأهمية المبادئ لا قيمة لها.

والعقيدة العسكريّة الغربيّة تنقسم إلى ثلاثة أنواع: العقيدة العسكرية الأمريكيّة، والعقيدة العسكرية البريطانيّة، والعقيدة العسكرية الفرنسيّة، وهي تختلف بالأساليب ولكنها تتفق بالمبادئ وكانت العقيدة العسكريّة الغربية قبل الحرب العالمية الثانية تنقسم إلى خمسة أنواع، يضاف إلى العقائد الغربية الثلاث العقيدتان: الألمانيّة والإيطالية، فجمَّدت هاتان العقيدتان بعد هزيمة ألمانيا وإيطاليا في تلك الحرب.

والعقيدة الغربية ترتكز على المبدأ القائل: «مزيد من النيران وقليل من المقاتلين»، أي أن الهدف الذي يعترض العمليات الحربيّة في القتال، يمكن

السيطرة عليه بدكّه دكّاً بالنيران الأرضية والجويّة الكثيفة بمختلف الأسلحة المتيسِّرة، مهما بلغت كثافة النيران كميّة وكيفيّة ونفقات، وحينذاك يستولي على ذلك الهدف بعد إخماده بالنيران وإسكاته عدد محدود من المحاربين، لغرض التقليل من الخسائر في الأرواح جهد الإمكان.

وعلى هذا المبدأ: «مزيد من النيران، وقليل من المقاتلين»، يجري تدريب وتسليح وتجهيز وتنظيم وقيادة القوات المسلّحة التي تعتمد العقيدة الغربيّة في العسكريّة.

ولم يأت هذا المبدأ السّائد في العقيدة العسكرية الغربية من فراغ، ولم يفرض نفسه عبثاً ولا يُعمل به من غير جدوى، بل فرضه فرضاً عاملان حيويان: الأول، هو أنّ الدول الغربية دول صناعيّة تنتج السلاح في مصانعها الخاصة بها، وبإمكانها إنتاج السِّلاح الذي تريده، بالكميّة التي تريدها، وتزويد جيوشها بالسّلاح التقليدي والسِّلاح المتطوِّر، وهو ليس مشكلة بالنسبة لتلك الدول الغربية الصناعية، وهذا هو العامل الصناعي. أما العامل الثاني فهو عامل سياسيّ، فالديمقرطية التي تُتيح الحريّة الكاملة لكلِّ فرد، يجعل لحياة ذلك الفرد قيمة عظيمة لا يمكن التساهل بأيِّ شكل من الأشكال في إهدارها دون مسوِّغ وبغير حقٍ، كما أنّ للمعارضة صوتاً مسموعاً يرتفع عالياً في التنديد بكل تبديد في الأرواح دون مسوِّغ وبغير حقٍ أيضاً، فلا مجال للمغامرة بالأرواح، وهناك كلّ المجال للمقاتلة بالنيران والقائد المنتصر في معركة من المعارك، لا يُحاسب في الغرب على إسرافه في النيران، ولكن يحاسب على الأرواح، ولا تعتبر المعركة ناجحة إذا كانت الخسائر بالأرواح فوق المعتدل وأكثر من المعقول.

أما العقيدة العسكرية الشرقية، فترتكز على المبدأ القائل: «مزيدٌ من المقاتلين وقليل من النيران» أي أن المبدأ الشرقي يناقض المبدأ الغربي من الناحية العسكريّة على خط مستقيم. فالهدف الذي يعترض العمليات الحربية في القتال يمكن السيطرة عليه بموجات متعاقبة من المحاربين، يتعاقب

تقدّمها قَدَمَة قتاليّة بعد قَدَمَة قتالية حتى تستطيع إحدى القدمات القتالية النجاح في السيطرة على الهدف المطلوب، ويكون تقدّم القدمات المقاتلة نحو هدفها مسنداً بالنيران المتيسرة من الأرض أو من الجو أو منهما معاً، ولا يحول نقص النيران كمية ونوعاً دون إقدام المقاتلين على النهوض بواجبهم في احتلال هدفهم في الوقت المناسب.

وبموجب هذا المبدأ: «مزيد من المقاتلين وقليل من النيران»، يجري تدريب وتسليح وتجهيز وتنظيم وقيادة القوّات المسلّحة التي تعتمد العقيدة الشرقية في العسّكرية.

وفرضَ هذا المبدأ عاملان رئيسان: الأول ضخامة نفوس الدول الشرقية بعامة والاتحاد السوفياتي بخاصة، وتسخير الحشود لمصلحة الدولة بحيث تذوب مصلحة الفرد في مصلحة الجماعة، والثاني هو عدم تكامل الإنتاج الصناعي للأسلحة في الدول الشرقية كما هو الحال في تكاملها في الدول الغربية، فلا بدّ من الانتصار فيه، واستعماله دون إسراف، كما يجري في العقيدة العسكرية الغربية.

وليس معنى ذلك عدم تكثيف النيران في العقيدة الشرقية، ولكن معناه أنّ معدل كمية النيران في العقيدة الشرقية أقلّ منها في العقيدة الغربية.

إن العقيدة العسكرية الغربية عبارة عن إفراط في النيران، وتفريط في المقاتلين، والعقيدة العسكرية الشرقية عبارة عن إفراط في المقاتلين، وتفريط في النيران.

أما العقيدة العسكريّة الإسلامية، فلا إفراط فيها ولا تفريط، بل هي وسط في كلّ شيء، وصدق الله العظيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

---

(١) الآية الكريمة في سورة البقرة: (٢:١٤٣).

لا إفراط في العقيدة العسكرية الإِسلامية بالنيران، لأنّ الدول العربية والإِسلامية تستورد معظم أسلحتها ولا تصنِّعها، فلا يمكن أن نفرِّط في استخدامها كالدول الصناعيّة الغربيّة التي تنتج أسلحتها وتصنعها في بلادها محلّياً.

ولا إفراط في هذه العقيدة بالمقاتلين، لأنّ للروح البشرية قدسيّة خاصة في الإسلام، ينبغي الحرص على سلامتها وأمنها، والقائد المسلم الذي يفرِّط في تقديم الخسائر بالأرواح عبثاً ليس قائداً ولا مسلماً، وقد كان القادة المسلمون يحرصون أشدّ الحرص على أرواح المجاهدين، وغالباً، ما كانوا يستأثرون بالخطر ويؤثرون رجالهم بالأمن.

والدول الإِسلاميّة في مجموعها ليست كثيفة السكّان إلّا في الباكستان وبنكلادش وبالرغم من كثافة سكان هذين القطرين الإِسلاميين، فالحرص على أرواح المقاتلين في الحرب من أول واجبات القادة.

وما يقال عن الإِفراط في النيران والمقاتلين، يقال في التفريط بهما، فلا يناسب الدول الإِسلامية غير العقيدة الوسط، لا شرقية ولا غربية، بل وسطاً بين ذلك.

ومن مناقشة العقائد العسكرية الثلاث، يتبيّن لنا، بأنّ العقيدة العسكرية الإسلامية هي أفضل من العقيدتين الشرقية والغربية، وهي التي تناسب العرب والمسلمين، تنفيذاً لتعاليم الإسلام لأن العقيدة العسكرية الإِسلامية جزء لا يتجزّأ من العقيدة الإِسلامية، ولأنها تناسب المسلمين نفوساً وقدرات صناعيّة، ولأنها العقيدة التي جربناها فانتصرنا، وجرّبنا غيرها فلم ننتصر أبداً.

سمات العقيدة العسكرية الإِسلامية:

انتصرنا بالعقيدة العسكرية الإِسلاميّة، لأنّ لها سمات معيّنة لا مثيل لها في العقائد العسكرية الأخرى.

إنّ الإِسلام بتعاليمه السّمحة الرضيّة جعل بحوافزه المادية والمعنوية المسلمَ الحق مطيعاً لا يعصي، صابراً لا يتخاذل، شجاعاً لا يجبن، مقداماً

لا يتردّد، مُقبلًا لا يفرّ، ثابتاً لا يتزعزع، مجاهداً لا يتخلّف، مؤمناً بمثُل عُليا، مضحيّاً من أجلها بالمال والروح، يخوض حرباً عادلة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ولتكون كلمة الله هي العليا، مدافعاً عن الأرض والعِرض وحريّة انتشار الدعوة وصيانتها وعن المسلمين في دار الإسلام.

هذا المؤمن الحق لا يخاف الموت ولا يخشى الفقر، ولا يهاب قوّة في الأرض، يسالم ولا يستسلم ولا تضعف عزيمته الأراجيف والإشاعات، ولا يستكين للاستعمار الفكري، ويقاوم الغزو الحضاري الذي يناقض دينه، ولا يقنط أبداً، ولا ييأس من رحمة الله.

وهذا المؤمن الحق، يقظ أشدّ ما تكون اليقظة، حذرٌ أعظم ما يكون الحذر، يتأهب لعدوّه ويُعدّ العُدّة للقائه، ولا يستهين به في السِّلْم والحرب، ويجاهد بأمواله وروحه في سبيل الله.

وكلّ هذه التوجيهات العسكرية مستمدّة من القرآن الكريم، الذي حوت آياته المحكمة على ترسيخ لعقيدة العسكريّة الإسلاميّة في عقول المسلمين وقلوبهم بكل ما فيها من أسس وتفاصيل.

وهذه العقيدة العسكريّة الإسلامية، تفسّر سرّ الفتوح الإسلاميّة العظيمة التي امتدت خلال تسع وثمانين سنة[1] من الصين شرقاً، إلى فرنسا غرباً، ومن سيبريا شمالاً، إلى المحيط جنوباً، ذلك لأنّ شعار المسلمين كان: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[2] النصر أو الشهادة.

ولأنّ المسلمين كانوا يحرصون على الموت حرص غيرهم على الحياة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[3].

---

(١) من سنة إحدى عشرة الهجريّة إلى سنة مئة الهجرية.

(٢) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩:٥٢).

(٣) الآية الكريمة من سورة آل عمران(٣:١٧٣ - ١٧٤).

وأشهد أنني لم أقرأ، حتى في كتب التعبية وسَوْق الجيش الفنيّة الصادرة حديثاً أوضح تعبيراً، وأدقّ تعريفاً، وأكثَر شمولاً، وأوجز عبارة، مما جاء في القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة أسلوباً فذاً لمصاولة الحرب النفسيّة المعادية، وتعريفاً لإرادة القتال في العقيدة العسكرية الإِسلامية!

بل لا يقتصر معناها على ذلك حسب، بل يشمل تعريف: المعنويات العالية التي يجب أن يتحلّى بها الجندي المسلم أيضاً.

تلك هي عظمة القرآن الكريم حتى في المجالات العسكرية، ولكن يا ليت قومي يعلمون.

ونعود لنتساءل: أهذه العقيدة العسكرية الإِسلامية أفضل وأقوم وأمتن وأجدى أم العقيدتين العسكريتين المستوردتين: الشرقية والغربيّة!

المصادر المعتمدة:

أوّل المصادر للعقيدة العسكريّة الإِسلامية وأهمها هو القرآن الكريم، وقد اعتمدته وحده في إبراز سمات هذه العقيدة في الذي أوردته من سمات، ويمكن إجراء دراسة مستفيضة في الجهاد بالمال، الجهاد بالنفس، عقاب المتخلِّف، الطاعة، الصبر، الشجاعة، الشهادة والشهيّد، الثبات، الحرب العادلة، العهود والمواثيق، الأسرى، الغنائم والفيء والجزية، مصاولة الحرب النفسية، الحذر واليقظة، الإعداد الحربي وغيرها من الدراسات الحيويّة المهمّة.

والمصدر الثاني، كتب الحديث، وأهمها الصحاح الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، النسائي، وابن ماجه.

وفي مصادر الحديث ذخيرة لا تقدّر بثمن في العقيدة العسكرية الإِسلامية.

والمصدر الثالث، هي كتب الفقه الإِسلامي، وعلى رأسها كتب المذاهب الأربعة: أحمد بن حنبل ومالك وأبو حنيفة والشافعي، فقد شرح

الفقهاء عليهم رحمة الله العقيدة العسكرية الإِسلامية شرحاً وافياً لا نزيد عليه، ولعلّ من المفيد أن ألفت أنظار الباحثين إلى كتاب: السِّيَر الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني تلميذ الإِمام أبي حنيفة رضي الله عنهما، وشرحه لمحمد بن أحمد السّرخسي، وحققه الدكتور صلاح الدين المنجد فهو مصدر عظيم الفائدة جليل القدر في العقيدة العسكرية الإِسلاميّة.

والمصدر الرابع، هي المصادر التاريخية المعتمدة وكتب المغازي وعلى رأسها السيرة النبوية المطهرة، وأهم المصادر التاريخية المعتمدة: تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، والكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير وغيرهما كثير.

وفي هذه المصادر تفاصيل المعارك التي خاضها المسلمون في الفتح واستعادة الفتح والمعارك الدفاعية وغزوات النبي ﷺ وسراياه، وهي التطبيق العملي للعقيدة العسكرية الإِسلامية، وفيها لمحات من سيرة القادة الذين طبّقوا تلك العقيدة عمليّاً.

وهناك المصادر الجغرافية القديمة المعتمدة، وهي تعين على تفهم أماكن المواقع الحربية وتصفها وصفاً يقربها إلى القراء جهد المستطاع، وعلى رأس تلك المصادر: معجم البلدان لياقوت الحموي.

والذي نتوخّاه من دراسة المصادر المعتمدة كافة، هو كتابة العقيدة العسكرية الإِسلامية بأسلوب سهل مبسّط بعيد عن التعقيد مع إدخال المصطلحات العسكرية الحديثة، بعد تثبيت المصطلحات الفقهيّة القديمة، لأنّها من تراث العرب والمسلمين الذي ينبغي أن يحافظوا عليه ويعتزوا به. وكَمثال علىٰ ذلك فإنّ الجهاد يكون (فَرْضَ عَيْن) وهو النفير العام، أو (فرض كِفاية) وهو النفير الخاص، بموجب المصطلحات العسكرية الحديثة، وذكر هذه المصطلحات الحديثة يقرِّبها إلى أفهام العسكريين بخاصة والقراء بعامة مع إبقاء المصطلحات الفقهية القديمة في المتن.

والهدف الحيوي من إعادة كتابة العقيدة العسكريّة الإِسلاميّة، هو إعادة

تدريسها في المدارس والمعاهد والكليات العسكرية العربية الإسلامية، فقد طال تخلّي العرب والمسلمين عن عقيدتهم العسكرية الإسلامية المستمدة من دينهم الحنيف، وقد آن لهم أن يعودوا إليها من جديد.

إنّ العرب والمسلمين يريدون أن يستعيدوا الأرض المقدسة في فلسطين، ويريدون أن يستعيدوا القدس والمسجد الأقصى، ويريدون أن يدافعوا عن حقوق المسلمين المغتصبة في كثير من أرجاء العالم.

ولن يستطيعوا استعادة الأرض المقدسة والحقوق المغتصبة ويدافعوا عن العقيدة والأرض والعِرض إلّا بالجهاد الإسلامي.

وهذا الجهاد غير وارد في العقيدتين العسكريتين الشرقية والغربية، بل تقف هاتان العقيدتان المستوردتان منه موقف الرفض والعداء!

والعقيدة العسكرية الإسلامية، هي العقيدة الوحيدة التي تأمر بالجهاد، وتنهى عن تركه، وتعلم أسسه ومبادئه، وتخرّج المجاهدين الصادقين. والعود الأحمد إلى هذه العقيدة، هو طريق النصر والعزة والمجد وإلا فكيف ننتصر بدونها.

المصطلحات الجغرافية والعسكرية والعامّة

تفسير مُصطلحَات الألفاظ الجغرافية والعَسكريّة:

١ ـ الغاية:

جاءت بعض الألفاظ الجغرافية والعسكرية في هذا الكتاب، وفي غيره من أَجزاء: قادة الفتح الإِسلامي.

وهذه هي معانيها، لكي لا نضطر إلى تفسيرها في كل موضع ترد فيه، حذراً من الإطالة إذا فسّرناها في كل تلك المواضع.

٢ ـ المصطلحات الجغرافية:

البريد:

فيه خلاف: ذهب قوم إلى أنه بالبادية اثني عشر ميلًا، وبالشام وخُراسان ستة أميال.

والبريد: الرسول، وإبراده: إرساله. وكل ما بين المنزلين بريد[١].

الفرسخ وغيرها من المقاييس:

١ ـ الفرسخ = ثلاثة أميال.

٢ ـ الميل = أربعة آلاف ذراع.

٣ ـ الذراع = أربعة وعشرون أصبعاً.

---

(١) انظر معجم البلدان (١/ ٣٤ ـ ٣٥).

٤ ـ الإصبع = ست حبات شعير بطون بعضها إلى بعض[١].

الإقليم:

جمعها، أقاليم، وهي كلمة عربية، سميّ إقليماً لأنه مقلوم من الأرض التي تتاخمه، أي مقطوع، ومنه: قلَّمت ظفري، وبه سمي القلم، لأنه مقلوم، أي مقطوع.

وللأمم في هيئة الإقليم وصفاتها اصطلاحات أربعة:

الأول: اصطلاح العامة وجمهور الأمة، وهو الجاري على ألسنة الناس دائماً، وهو أن يسمُّوا كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليماً، نحو الصِّين وخُراسان والعراق والشَّام ومصر وإفريقيَّة ونحو ذلك، فالأقاليم على هذا كثيرة لا تُحصى.

والثاني: لأهل الأندلس خاصة، فإنهم يسمُّون كل قرية كبيرة جامعة إقليماً، وربما لا يعرف هذا الإصطلاح إلا خواصهم. فإذا قال الأندلسي: إنا من إقليم كذا، فإنما يعني بلدة أو رستاقاً بعينه.

والثالث: للفرس قديماً، فقد قسَّموا المعمورة إلى سبعة أقاليم، كل إقليم سبعمائة فرسخ في مثلها.

والرابع: وعليه اعتماد أهل الرياضة والحكمة والتنجيم، وهو عندهم يمتد من الشرق إلى الغرب، وقسَّموا الأرض إلى سبعة أقاليم[٢].

الكورة:

اسم فارسي بحت، وهو كل صقع يشتمل على عدّة قرى، ولا بدّ لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة كقولهم: دارا بجرد مدينة بفارس لها عمل واسع، يسمى ذلك العمل بجملته

---

(١) انظر معجم البلدان (٢/ ٣٥ ـ ٣٦).

(٢) انظر معجم البلدان (١/ ٢٤ ـ ٣٢).

كورة دارا بجرد؛ ونحو نهر الملك: فإنه نهر عظيم مخرجه من الفرات ويصبّ في دجلة عليه نحو ثلاثمائة قرية، ويقال لذلك جميعه: كورة نهر الملك[1] إلخ.

المِخلاف:

أكثر ما يقع في كلام أهل اليمن، وقد يقع في كلام غيرهم على جهة التبع لهم والانتقال لهم، وهو واحد مخاليف اليمن وهو كورها. ولكل مخلاف اسم يعرف به، وهو قبيلة من قبائل اليمن أقامت به وعمرته فغلب عليه اسمها. ومخلاف البلد سلطانه[2].

الإستان:

كلمة فارسية، والإستان والكورة واحد، وجمعها، أساتين. كانت رقعة فارس خمسة أساتين، أحدها أستان دارا بجرد، ثم ينقسم الإستان إلى الرساتيق، وينقسم الرستاق إلى الطساسيج، وينقسم كل طسوج إلى عدّة من القرى، مثال ذلك: (إصطخر) إستان من أساتين فارس، و(يزد) رستاق من رساتيق إصطخر، و(نائين) وقرى معها طسوج من طساسيج رستاق يزد، و(نياستانه) قرية من قرى طسوج (نائين). و(شهرستان) و(طبرستان) و(خوزستان) مأخوذة من الإستان، فخفِّف بحذف الألف[3].

والإستان هو (المحافظة) في التقسيمات الإدارية في العراق وجمهورية مصر العربية والجمهورية السورية.

الرستاق:

كلّ موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن، وهو أخصّ من

---

(١) معجم البلدان (١/٣٦).

(٢) معجم البلدان (١/٣٦ - ٣٧).

(٣) معجم البلدان (١/٣٧)، أقول: الإستان أو الكورة هو اللواء، والرستاق هو القضاء، والطسوج هو الناحية، في المصطلحات الإدارية المعمول بها في العراق.

الكورة والإستان[1] (قضاء في المصطلح الحديث).

الطُسْوج:

هو أخصّ وأقلّ من الكورة والرستاق والإستان[2] (ناحية في المصطلح الحديث).

الجند:

يرد ذلك في قولهم: جند قنسرين، وجند فلسطين، وجند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، فهي خمسة أجناد وكلها بالشّام، ولم يستعمل ذلك في غير أرض الشّام. وهي كتعبير كورة في فارس[3].

آباذ:

يكثر مجيئه في أسماء بلدان وقرى ورساتيق كقوله: أسد آباذ، ورستم أباذ، فأسد رجل وأباذ اسم العمارة بالفارسية، فمعناه: عمارة أسد وعمارة رستم[4].

السكة:

هي الطريق المسلوكة التي تمرّ فيها القوافل من بلد إلى آخر، فإذا قيل: من بلد كذا إلى بلد كذا سكة، إنما يعنون الطريق، وإذا قيل: من بغداد إلى الموصل خمسة سكك، فيعنون أن القاصد من بغداد إلى الموصل يمكنه أن يأتيها من خمس طرق[5].

المصر:

يرد بقولهم: مُصرت مدينة كذا في زمن كذا، وقولهم: مدينة كذا مصرت الأمصار[6].

---

(١) معجم البلدان (١/ ٣٧ ـ ٣٨).

(٢) معجم البلدان (١/ ٣٨).

(٣) معجم البلدان (١/ ٣٨).

(٤) معجم البلدان (١/ ٣٨).

(٥) معجم البلدان (١/ ٣٨).

(٦) معجم البلدان (١/ ٣٩).

٣ ـ المصطلحات العسكرية:

الصلح:

يرد في قولنا ـ مثلًا ـ فتح بلد كذا صلحاً أو عَنْوة، ومعنى الصلح من الصلاح، وهو ضد الفساد، والصلح فهذه المواضع ضد الخلف. ومعناه: أنّ المسلمين كانوا إذا نزلوا على حصن أو مدينة وخافهم أهله فخرجوا إلى المسلمين وبذلوا لهم عن ناحيتهم مالًا أو خراجاً أو وظيفة يوظفونها عليهم ويؤدونها في كل عام على رؤوسهم وأرضهم أو مالًا يعجلونه لهم، أي أنها لم تفتح عن غلبة[١].

السلم:

السلم الصلح، والسَّلم بالتحريك، وهو الاستسلام وإلقاء المقادة إلى إرادة المسلمين: فكأنه والصلح متقاربان.

والسلم من السلامة، أي أنه إذا اتفق الطرفان واصطلحا سلم بعضهم من بعض[٢].

العَنْوة:

نقول: فتح بلد كذا عَنْوة، وهو ضد الصلح، والعنوة: أخذ الشيء بالغلبة[٣].

الحرب:

الحرب صراع مسلَّح بين دولتين أو بين فريقين من الدول، ويكون الغرض منه الدفاع عن حقوق ومصالح الدول المحاربة. فالحرب لا تكون إلا بين الدول، أما النضال المسلَّح الذي قد يقع بين بعض الجماعات داخل

---

(١) معجم البلدان (١/ ٤٠).

(٢) معجم البلدان (١/ ٤٠).

(٣) معجم البلدان (١/ ٤٠).

دولة ما، أو الذي تقوم به جماعة من الأفراد ضدّ دولة أجنبية فلا يعتبر حرباً ولا شأن للقانون الدولي العام به، بل هو يخضع لأحكام القانون الجنائي للدولة التي يحدث فيها. كذلك لا يعتبر حرباً بالمعنى الدولي، النضال المسلّح الذي يقوم به إقليم ثائر في وجه حكومة الدولة التي يتبعها أو الذي تقوم به إحدى الدول الأعضاء في دولة تعاهدية ضدّ الحكومة المركزية[1].

الجهاد:

الجهاد في اللغة: بذل الجهد وهو الوسع والطاقة، أو المبالغة في العمل من الجهد، والجهاد مصدر جاهدت العدو جهاداً، إذا قاتلته قتالًا.

والجهاد: استفراغ الوسع في مقاتلة العدو.

والجهاد ثلاثة أنواع: مجاهدة العدو الظّاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس.

والجهاد غلب في عرف الشرع على جهاد الكفار، وهو دعوتهم إلى الدين الحق وقتالهم إن لم يقبلوا، أو هو بذل الوسع والطاقة في سبيل الله عزّ وجل بالنفس والمال واللّسان[2].

الجِزْيَة:

الجزية هي الضريبة التي توضع على الرؤوس[3]، واسمها مشتق من الجزاء، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[4].

والجزية لا تجب إلّا على الرجال الأحرار العقلاء من أهل الذمة:

---

(١) آثار الحرب في الفقه الإسلامي (٢٥).

(٢) نفس المصدر (٢١ ـ ٢٢).

(٣) الماوردي (١٤٢).

(٤) سورة التوبة (٩: ٢٩)، انظر تفسيره في ابن كثير (٤/ ١٤٤) والبغوي (٤/ ١٤٤ ـ ١٤٧) والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠) والبيضاوي (٢/ ٦٥).

اليهود والنصارى والمجوس والصابئة[1]، ولا تؤخذ من المسكين الذي يُتصدّق عليه ولا من مُقعد ولا من أعمى لا جرفة له، ولا من المترهبين وأهل الصوامع إن لم يكونوا من ذوي يسار[2].

الخَراج:

هو ما حصل من ريع الأرض أو كرائها أو أجرة غلام ونحوها، ويختص غالباً بضريبة الأرض[3].

الفيء:

هو خراج الأرض[4]، والفيء اسم لما غلب المسلمون عليه من بلاد العدو قسراً بالقتال وجعل موقوفاً عليهم[5]. والفيء هو أرض العَنْوة[6].

الغنيمة:

هي ما غنم من أموال المشركين من الأراضي والأموال[7]، وإنها الأموال التي أخذت من المشركين بالقتال[8].

الصدقة:

هي زكاة أموال المسلمين من الذهب والورق والإبل والبقر والغنم والحب والثمر[9].

---

(١) الماوردي (١٤٤) والخراج (١٤٥).
(٢) الخراج (١٤٦) والأم للشافعي (٤/ ٩٧ ـ ٩٨) وقادة فتح العراق والجزيرة (٤٧٨ ـ ٤٧٩).
(٣) آثار الحرب في الفقه الإسلامي (٥٣٥).
(٤) الخراج (٢٨).
(٥) الخراج في الدولة الإسلامية (١٠٩ ـ ١١٠).
(٦) معجم البلدان (١/ ٤٣).
(٧) معجم البلدان (١/ ٤٣).
(٨) الخراج في الدولة الإسلامية (١١٠).
(٩) معجم البلدان (١/ ٤٣).

الخمس:

هو خمس غنائم أهل الحرب، ويكون حكمه إلى الإمام إن رأى أن يجعله فيمن سمى الله جعله، وإن رأى أنّ الأفضل للمسلمين أن يضعه في بيت مالهم لنائبة تنوبهم ومصلحة تعنّ لهم مثل سد ثغر وإعداد سلاح وخيل وأرزاق... إلخ[1].

مبادئ الحرب:

هي الجوهر الذي ينشئ في القائد (السجية) الصحيحة في تصرفاته في الحرب، وهي العنصر الذي يتكوّن منه مسلك القائد في أعماله بصورة طبيعية وغير متكلّفة[2]، وهذه المبادئ هي:

١ ـ اختيار المقصد وإدامته:

في كلّ حركة حربية من الّلازم اختيار المقصد وتعريفه بوضوح، إنّ المقصد النهائي هو تحطيم إرادة العدو على القتال. يجب أن توجَّه كل صفحة من الحرب وكل صفحة منفردة نحو هذا المقصد الأعلى، ولكن لكل منها له مقصد محدود يجب أن يُعرف بوضوح[3].

٢ ـ التعرّض:

هو الهجوم على العدو لسحقه، ولا يتمّ الحصول على النصر إلّا بالتعرض وحده[4].

٣ ـ المباغتة:

المباغتة أقوى العوامل وأبعدها أثراً في الحرب، وتأثيرها المعنوي

(١) معجم البلدان (١/ ٤٤).
(٢) الرسول القائد (٣١٢).
(٣) الرسول القائد (٣١٢).
(٤) الرسول القائد (٣١٣).

عظيم جداً، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شلل متوقع في تفكير القائد الخصم[1].

والمباغتة القيام بحركة عسكرية لا يتوقعها العدو في الزمان والمكان والأسلوب. أي أن تقوم بحركة في وقت لا يتوقّعه العدو، أو في مكان لا يتوقّعه، أو بأسلوب لا يتوقّعه سواء كان ذلك بسلاح جديد أو بخطة عسكرية مبتكرة.

٤ ـ تحشيد القوة:

هو حشد أعظم قوة معنوية ومادية واستخدامها في المكان والزمان الجازمين[2].

٥ ـ الاقتصاد بالمجهود:

هو استخدام أصغر القوات للأمن أو لتحويل انتباه العدو إلى محل آخر، أو صدّ قوة معادية أكبر منها مع بلوغ الغاية المتوخاة.

إنّ الاقتصاد بالمجهود، يدلّ على الاستخدام المتوازن للقوى، والتصرف الحكيم بجميع المواد لغرض الحصول على التحشد المؤثر في الزمان والمكان الحاسمين[3].

٦ ـ الأمن:

هو توفير الحماية للقوة ولمواصلاتها لوقايتها من المباغتة، ومنع العدو من الحصول على المعلومات[4].

٧ ـ المرونة:

هي قوة الحركة وقوة العمل السريع في الحركة والقرارات والخطط[5].

---

(١) الرسول القائد (٣١٤).
(٢) الرسول القائد (٣١٦).
(٣) الرسول القائد (٣١٧).
(٤) الرسول القائد (٣١٨).
(٥) الرسول القائد (٣١٩).

٨ ـ التعاون:

هو توحيد جهود الصنوف كافة والقطعات لبلوغ الغرض المطلوب وهو النصر[١].

٩ ـ إدامة المعنويات:

المحافظة على المعنويات العالية والعمل على استمراريتها.

١٠ ـ الأمور الإدارية:

هي إدامة القطعات بالسِّلاح والعَتاد والقضايا الصحية والنقلية والرواتب والمسكن والتجهيزات والأرزاق... إلخ.

الحياد:

هو الحالة القانونية التي توجد فيها الدولة التي لا تشتبك في حرب قائمة، وتستبقي علاقاتها السلمية مع الطرفين المتحاربين.

الهدنة:

اتفاق بين الطرفين المتحاربين بوقف القتال مدة يُتفق عليها فيما بينهما، والهدنة إما هدنة عامة أو هدنة محلية أو جزئية. فالهدنة العامة يسري فيها وقف القتال على جميع القوات المتحاربة ويشمل جميع مناطق القتال. والهدنة المحلية أو الجزئية، هي التي يقتصر وقف القتال فيها على بعض القوات المتحاربة دون بعضها الآخر.

الحصار:

الإِحاطة بقرية أو بلد سواء كانت محصنة أو غير محصنة، مدافعاً عنها أو غير مدافع، لمنع الدخول والخروج منها، حتى تضطر على التسليم.

---

(١) الرسول القائد (٣٢٠).

المبادأة:

تعبير يقصد به من الناحية العسكرية السبق بالعمل لإجبار العدو على تبديل خطّته.

خطوط المواصلات:

هي الخطوط التي تربط الجيش بقاعدته.

الضبط:

اصطلاح عسكري، يقصد به الحالة النفسية التي تساعد الفرد على عمل واجبه باعتبار أنه ملزم بأدائه سواء كان مراقباً أو غير مراقب. أو القدرة على حبس بعض الانفعالات غير الاعتيادية كالخوف والغضب والجوع... إلخ. وإنجاز العمل المطلوب بحرص وأمانة في الحالات الصعبة.

وهو إطاعة الأوامر نصاً وروحاً عن طيبة خاطر وبأمانة وإخلاص.

الخُطّة:

هو التخطيط لإدارة معركة واحدة أوعدة معارك لإحراز النصر.

الخُطّة التعبوية:

هو التخطيط لإدارة معركة واحدة من معارك الحرب.

الخُطّة السوقية:

هو التخطيط لإدارة الحرب كلها، فمثلًا قرار القائد لاتخاذ خطة دفاعية للدفاع عن البلاد هو قرار سَوْقِي.

أي أنّ القرار الذي يؤثر في مصير الحرب كلها لا في مصير معركة واحدة، هو قرار سَوْقِيّ.

والخطّة التي تؤثر في مصير الحرب كلها لا في مصير معركة واحدة من معاركها، هي خطّة سوقية (استراتيجيّة).

ساحة الحرب:

هي جميع البلاد التي يحتمل أن يتقاتل فيها الفريقان المتخاصمان في البر والبحر والجو.

ساحة العمليات:

هي الساحة التي يتمكن أحد الخصمين أو كلاهما من إجراء العمليات فيها.

الجبهة:

تطلق على قسم من ساحات العمليات المهمة، كالجبهة الشرقية مثلًا.

منطقة العمليات:

قسم من ساحة العمليات التي يقاتل فيها قسم من الجيش.

هدف العمليات:

هي النقاط الحيوية.الكافية في ساحة العمليات التي يوجه الفريق المهاجم جميع جهوده للاستيلاء عليها.

هدف العمليات الخطير:

هو الهدف الذي متى ما تمّ الاستيلاء عليه تنتهي الحرب أو أنّ العدو يضطر إلى قبول الصلح، وتؤلف عواصم البلاد عادة هدف العمليات الخطير.

الهدف الأصلي:

هو جيش العدو.

القاعدة:

هي البلاد التي يستند إليها الجيش قبل شروعه بالعمليات والقاعدة نوعان: قاعدة العمليات، وقاعدة التموين، وتتوحدان في الأغلب ويندر أن تكونا منفصلتين.

قاعدة العمليات:

هي القلاع أو الحدود أو قسم من الأرض التي يشرع الجيش منها بالعمليات.

قاعدة التموين:

هي البلاد أو المدينة التي يأخذ الجيش منها مهماته وأرزاقه.

القاعدة الرئيسة:

البلاد التي يستند عليها الجيش بصورة رئيسة، كان العراق القاعدة الرئيسة لفتح المشرق الإِسلامي، وكانت خراسان القاعدة الإمامية لفتح بلاد ما وراء النهر.

القاعدة الأمامية:

هي البلاد التي يستند عليها الجيش المتقدم للفتح في المناطق المجاورة للبلاد المزمع فتحها.

كانت خُراسان قاعدة أمامية لفتح بلاد ما وراء النهر.

القاعدة المتقدمة:

هي البلاد التي يستند عليها الجيش المتقدم للفتح والقريبة جداً من البلاد المزمع فتحها.

كانت مدينة (بَلْخ) هي القاعدة المقدمة لفتح بلاد ما وراء النهر.

خطوط المواصلات:

هي الخطوط التي تربط الجيش بقاعدته كالطرق البرية والبحريّة والجوية.

خطوط العمليات:

هي الطرق التي تربط منطقة التجمع بالهدف، أي جميع الطرق التي تكون في جبهة الجيش حين يقصد الحركة نحو هدفه.

النفير العام:

استدعاء القادرين على القتال كافة لأداء واجباتهم العسكرية في الحرب.

النفير الخاص:

استدعاء جزء من القادرين على القتال لأداء واجباتهم القتالية في الحرب.

الاحتياط:

القادرون على القتال الذين يستدعون عند الحاجة لأداء واجباتهم القتالية.

المقدّمة:

قوة الحماية التي تحمي الجيش من الأمام في مسير الاقتراب.

المؤخرّة:

قوة الحماية التي تحمي الجيش من الخلف في مسير الاقتراب أو في الانسحاب.

الساقة:

جزء المؤخرة الذي يكون قريباً من العدو، أي بين العدو وباقي المؤخرة.

الميسرة:

قوة الحماية التي تحمي الجيش من يساره في مسير الاقتراب أو في الانسحاب أو عند اتخاذ موضع دفاعي أو هجومي.

الميمنة:

قوة الحماية التي تحمي الجيش من يمينه أثناء العمليات.

المجنبة:

الميمنة أو الميسرة أو كلاهما.

القسم الأكبر:

الجيش كله عدا قطعات الحماية (مقدّمة ـ مؤخرة ـ مجنبة)، ويطلق عليه: (القلب) أيضاً.

٤ ـ المصطلحات العامة:

خاتون:

لقب بمعنى: السيدة العظيمة.

دخل اللغة العربية بعد اتصال المسلمين بالمغول والترك، وكان يطلق أصلًا على الأميرات، ثم عمّ فشمل سيدابت الطبقة الخاصة، والجمع: خواتين، وخاتونات.

خاقان:

لقب من ألقاب السيادة أطلق في المراجع العربية على أباطرة المغول والترك العظام، بمعنى: ملك الملوك.

الخان:

لقب من ألقاب السيادة يطلقه المغول والترك على الحاكم الإقليمي لبعض الولايات التي كانت تتكوّن منها الإمبراطورية المغوليّة أو التركية في آسيا الوسطى.

طَرخان:

مصطلح من أصل مغولي يطلق على الأشراف من رجال الحرب الذين يمنحهم الخان امتيازات خاصة تشمل الإعفاء من الضرائب مع الحق في أخذ نصيب من غنائم المعركة، ومنها كذلك الدخول إلى بلاط الخان بدون استئذان.

كما شاع المصطلح في الدول التركية.

طرخون:

لقب من ألقاب الرئاسة، فهو صيغة أخرى من طرخان، وهو لقب أحد أفراد الطبقة الخاصة الذين يتميزون بإعفائهم من الضرائب.

وقد جاء لفظ: طرخون، في المراجع العربية القديمة كالطبري على أنه اسم علم، من ذلك قوله في الإشارة إلى موسى بن عبد الله بن خازم الذي ثار ببلاد ما وراء النهر: «... فأتى سمرقند فأقام بها، وأكرمه طرخون ملكها».

ويعني طرخون اصطلاحاً: ملك من ملوك أقاليم ما وراء النهر، يتبع خاقان الترك، وعلى وجه الخصوص ملك الصُّغْد، فيقال: طرخون الصُّغد. كما يقال: سَبَل الخُتَّل، وزنبيل كابُل، وأخشاد فرغانة.

دهقان:

كلمة فارسيّة مركّبة من مقطعين: (ده) بمعنى قرية، و(قان) بمعنى شيخ أو رئيس.

ودهقان معناها: شيخ القرية أو رئيس القرية.

والجمع: دهاقين ودهاقنة.

صول:

رتبة عسكرية، وهي كلمة تركية، واستعملت في الدولة العثمانية لأعلى الرتب العسكرية لضباط الصف، بين الملازم ورئيس العرفاء.

المصادر والمراجع

الآلوسي (محمود شكري الألوسي):

١ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ ط٣ ـ تحقيق الأستاذ محمد بهجة الأثري ـ القاهرة ١٣٤٢هـ.

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري):

٢ ـ الكامل في التاريخ ـ بيروت ـ ١٣٨٥هـ.

ابن تغري بردي الأتابكي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي):

٣ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ.

ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي):

٤ ـ المحبّر ـ تحقيق إيلزه ليختن شتيتر (الدكتورة) ـ بيروت ـ ١٣٦١هـ.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني):

٥ ـ تهذيب التهذيب ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٢٧هـ.

ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي):

٦ ـ أسماء الخلفاء والولاة ـ ملحق بجوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

٧ ـ جمهرة أنساب العرب ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ ١٣٨٢هـ.

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي):

٨ ـ صورة الأرض ـ ليدن ـ ١٩٣٨م.

٩ ـ صورة الأرض ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبه):

١٠ ـ المسالك والممالك ـ تحقيق (M.J.De Goeje) ـ ليدن ١٨٨٩م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المغربي):

١١ ـ تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ـ بيروت ـ ١٩٦٦م.

ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدم العلائي المعروف بابن دقماق):
١٢ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار ـ تحقيق الدكتور فوليرس Vollers بولاق ـ ١٨٩٣م.
ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر المعروف بابن رسته):
١٣ ـ الأعلاق النفيسة ـ ليدن ـ ١٨٩٢م.
ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري):
١٤ ـ الطبقات الكبرى ـ بيروت ـ ١٣٧٦هـ.
ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي):
١٥ ـ عيون التواريخ ـ مخطوط في دار الكتب بالقاهرة رقمه (١٤٩) تاريخ.
١٦ ـ فوات الوفيّات ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٥١م.
ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري):
١٧ ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ـ تحقيق بولس راويس ـ باريس ـ ١٨٩٤م.
ابن عبد الحكم (أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم):
١٨ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ـ القاهرة ـ ١٣٧٣هـ.
ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي):
١٩ ـ العقد الفريد ـ القاهرة ـ ١٩٦٢م.
ابن العبري (غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري):
٢٠ ـ مختصر تاريخ الدول ـ بيروت ـ ١٨٩٠م.
ابن المعتز (عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد):
٢١ ـ طبقات الشعراء ـ القاهرة ـ ١٣٧٥هـ.
ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر):
٢٢ ـ تاريخ دمشق ـ مخطوط بدار الكتب في القاهرة رقمه (٤٩٢) تاريخ.
٢٣ ـ تهذيب ابن عساكر ـ دمشق ـ ١٣٢٩هـ.
ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي):
٢٤ ـ شذرات الذهب ـ القاهرة ـ ١٣٨٧هـ.
ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه):
٢٥ ـ مختصر كتاب البلدان ـ تحقيق (M.J.De Goeje) ـ ليدن ـ ١٨٨٥م.
ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري):
٢٦ ـ الشعر والشعراء ـ بيروت ـ ١٩٦٤م.

٢٧ ـ عيون الأخبار ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ.
٢٨ ـ المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ ١٩٦٠م.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير):

٢٩ ـ البداية والنهاية ـ بيروت ـ ١٩٦٦م.

أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفدا):

٣٠ ـ تقويم البلدان ـ تحقيق رينود والبارون ماك كوكين ديسلان. باريس ـ ١٨٤٠م.
٣١ ـ المختصر في أخبار البشر ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

أبو الفرج الأصبهاني (أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني):

٣٢ ـ الأغاني ـ طبعة دار الكتب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

أبو نعيم (أبو نعيم الأصبهاني):

٣٣ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ القاهرة ـ ١٣٥١هـ.

أحمد رضا:

٣٤ ـ معجم متن اللغة ـ بيروت ـ ١٣٧٧هـ.

الأربيلي (عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربيلي):

٣٥ ـ خلاصة الذّهب المسبوك في مختصر تاريخ الملوك ـ بغداد ـ بلا تاريخ.

الأزديّ (أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي):

٣٦ ـ تاريخ الموصل ـ القاهرة ـ ١٣٨٧هـ.

أسد رستم (الدكتور):

٣٧ ـ الرُّوم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ـ بيروت ـ ١٩٥٥م.

أسمذارد (ر. ر. اسمذارد) بالاشتراك:

٣٨ ـ الجغرافية العمومية ـ مراجعة وتنقيح محمد عوض إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٣٢٧هـ.

الإصطخري (أبو إسحاق الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي):

٣٩ ـ الأقاليم ـ مطبوع على الحجر ـ تحقيق مدلر.
٤٠ ـ المسالك والممالك ـ تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحسني ـ مراجعة شفيق غربال ـ القاهرة ـ ١٣٨١هـ.

الأصفهاني (حمزة بن حسن الأصفهاني):

٤١ ـ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ـ بيروت ـ ١٩٦١م.

البسوي (أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي):

٤٢ ـ المعرفة والتاريخ ـ تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ـ بغداد ١٩٧٤م ـ ١٩٧٦م.

البشاري (أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري):

٤٣ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ تحقيق (M.J.De Goeje) ط٢ ـ ليدن ـ ١٩٠٦م.

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري):

٤٤ ـ أنساب الأشراف ـ تحقيق (S.D.F. Goitein) القدس ـ ١٩٣٦م.

٤٥ ـ فتوح البلدان ـ تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ـ بيروت ـ ١٣٧٧هـ ـ.

بينز (نورمان بينز):

٤٦ ـ الإمبراطورية البيزنطية ـ تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ):

٤٧ ـ البيان والتبيين ـ تحقيق حسن السندوبي ـ ط٤ ـ القاهرة ـ ١٣٧٥هـ.

٤٨ ـ الحيوان ـ القاهرة ـ ١٣٦٢هـ.

٤٩ ـ عظماء من ذوي العاهات خلّدهم التاريخ ـ القاهرة ـ ١٣٩٢هـ.

الجهشياري (أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري):

٥٠ ـ الوزراء والكتاب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

الخانجي (محمد أمين الخانجي):

٥١ ـ منجم العمران ـ القاهرة ـ ١٣٢٥هـ.

الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب):

٥٢ ـ تاريخ بغداد ـ القاهرة ـ ١٣٤٩هـ.

خليفة بن خياط:

٥٣ ـ تاريخ خليفة بن خياط ـ تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ـ النجف ـ ١٣٨٦هـ.

الذّهبي (الحافظ شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذّهبي):

٥٤ ـ تاريخ الإسلام ـ القاهرة ـ ١٣٦٧هـ.

٥٥ ـ دول الإسلام ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٦٤هـ.

٥٦ ـ العبر في خبر مَن غبر ـ الكويت ـ ١٩٦٠م.

الزاوي (طاهر أحمد الزاوي):
٥٧ - ترتيب القاموس المحيط - القاهرة - ١٩٥٩م.
الزبيدي (محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي):
٥٨ - تاج العروس في جواهر القاموس - القاهرة - ١٣٠٦هـ - ١٣٠٧هـ.
الزبيري (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري):
٥٩ - نسب قريش - تعليق إ. ليفي بروفنسال - القاهرة - ١٩٥١ - ١٩٥٣م.
الزركلي (خير الدين الزركلي):
٦٠ - الأعلام - ط٢ - القاهرة - ١٣٧٣ - ١٣٧٨هـ.
زيدان (جرجي زيدان):
٦١ - تاريخ التمدن الإسلامي - القاهرة - ١٩١٤م.
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري):
٦٢ - تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - ١٩٦٤م.
العجاج (عبد الله بن رؤبة التميمي):
٦٣ - ديوان العجاج - تحقيق الدكتور عزة حسن - بيروت - ١٩٧١.
العصامي (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكيّ):
٦٤ - سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي - القاهرة - بلا تاريخ.
علي صافي حسين:
٦٥ - مسلمة بن عبد الملك - القاهرة - ١٣٤٥هـ.
عنان (محمد عبد الله عنان):
٦٦ - مواقف حاسمة - القاهرة - ١٣٤٥هـ.
غلوب (جون باحوت غلوب):
٦٧ - الفتوحات العربية الكبرى - تعريب خيري حماد - القاهرة - ١٩٦٣م.
الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي):
٦٨ - القاموس المحيط - القاهرة - ١٣٠٦هـ.
القزويني (زكرياء بن محمد بن محمود القزويني):
٦٩ - آثار البلاد وأخبار العباد - بيروت - ١٣٨٠هـ.
القلقشندي (أبو العباس أحمد القلقشندي):
٧٠ - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - تحقيق إبراهيم الأبياري - القاهرة - ١٩٥٩م.
كردعلي (محمد كرد علي):
٧١ - خطط الشّام - ط٢ - بيروت - ١٣٨٩م.

كليتي (برنارودين كليتي):
٧٢ - فتح القسطنطينية - ترجمة شكري محمود نديم - بغداد ١٩٦٢م.
لسترنج (Guy le Strange):
٧٣ - بلدان الخلافة الشرقية - ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد - بغداد ١٣٧٣م.
مجمع اللغة العربية (القاهرة):
٧٤ - المعجم الوسيط - ط٢ - القاهرة - ١٩٧٣م.
مجهول (مؤلف مجهول):
٧٥ - العيون والحدائق في أخبار الحقائق - تحقيق (M.J.De Goeje)ليدن - ١٨٧١م.
محمود فهمي المهندس:
٧٦ - البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر - بولاق - ١٣١٢هـ.
المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني):
٧٧ - معجم الشعراء - تحقيق عبد الستار أحمد فراج - القاهر - ١٣٧٩م.
المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي):
٧٨ - التنبيه والإشراف - القاهرة - بلا تاريخ.
٧٩ - مروج الذّهب ومعادن الجوهر - بيروت - ١٣٨٥هـ.
المقدسي (مطهر بن طاهر المقدسي):
٨٠ - البدء والتاريخ - شالون - ١٩١٦م.
النووي (أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي):
٨١ - تهذيب الأسماء واللغات - القاهرة - بلا تاريخ.
هنس (فاتر هنس (Wal the Hinz):
٨٢ - المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري - ترجمة عن الألمانية الدكتور كامل العسيلي - عمان (الأردن) - ١٩٧٠م.
ولها وزن (يوليوس ولها وزن):
٨٣ - الدولة العربية وسقوطها - ترجمة يوسف العش - دمشق - ١٣٧٦هـ.
ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي):
٨٤ - المشترك وضعاً والمفترق صقعاً - كوتنكن - ١٨٤٦م.
٨٥ - معجم البلدان - القاهرة ١٣٢٣هـ.
اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي):
٨٦ - البلدان - ليدن - ١٨٩٢م.

المراجع الأجنبية

87- Chember's Encyclopedia.

88- Encyclopedia Britannica.

Brooks, E.W:

89- The Arabs in Asia minor, 641-750- Journal of Hellenic Studies- Vol 18-1898.

90- Byzantinez and Arabs in the Time of early Alasid, 750 to 813- English Historicab Review- First Part- October- 1900.

91- The Compain of 716 to 718 from Arabic Sources- Journal of Hellenic Studies- vol 19-1899.

92- Arabic Lists of the Byzantine Themes- Journal of Hellenc stadies- vol 21-1951.

Bury, J.B:

93- History of the Later Roman Empire From The Ball of Jrene to the Aeccession of Basil 1, (8.2-867)- London.

94- History of the later Roman Empire from Arcedius to Jrane (395-565) - London.

Chei RA.M.A:

95- La Lutte Arrabes E7 Byzntins - Alexandrie- 1947.

Gibbon, E:

96- Decilne and Fall of Roman Empir- London - 1897- 1902.

Vasilieav. A.A:

97- The Byzantin Empire.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة